

دكتور محمد حسين هيكل

# فء منزل الوحء



ءار المعارف

# فِي مَنْزِلِ الْوَحْيِ

بقلم

محمد بن عبد الوهاب

الطبعة الثامنة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

## للمؤلف

١٩٦٩	الطبعة الأولى	١٩٧٤	الطبعة الثانية	قصص مصرية
١٩٦٤	»	١٩٧٩	الطبعة الثانية	الإيمان والمعرفة
١٩٦٤	»	١٩٧٨	الطبعة الثالثة	بين الخلافة والملك : عثمان بن عفان
١٩٦٣	»	١٩٧٩	الطبعة الثانية	الشرق الجديد
١٩٦١	»	١٩٧٩	الطبعة الثالثة	الحكومة الإسلامية
١٩٥٥	»	١٩٧٤	الطبعة الرابعة	هكذا خلقت
١٩٧٨	»			مذكرات في السياسة المصرية الجزء الثالث
١٩٥٣	»			مذكرات في السياسة المصرية الجزء الثاني
١٩٥١	»			مذكرات في السياسة المصرية الجزء الأول
١٩٤٥	»	١٩٧٨	الطبعة السادسة	الجزء الثاني الفاروق عمر
١٩٤٤	»	١٩٧٨	الطبعة السادسة	الجزء الأول الفاروق عمر
١٩٤٢	»	١٩٧٩	الطبعة السابعة	الصدقي أبو بكر
١٩٣٧	»	١٩٧٩	الطبعة السابعة	في منزل الوحي
١٩٣٥	»	١٩٧٩	الطبعة الرابعة عشرة	حياة محمد
١٩٣٣	»	١٩٧٨	الطبعة الرابعة	ثورة الأدب
١٩٣١	»	١٩٧٨	الطبعة الخامسة	ولدى
١٩٢٩	»	١٩٥٤	الطبعة الرابعة	تراجم مصرية وغربية
١٩٢٧	»	١٩٤٩	الطبعة الثانية	عشرة أيام في السودان
١٩٢٥	»	١٩٦٨	الطبعة الثانية	في أوقات الفراغ
١٩٢٣	»	١٩٧٨	الطبعة الثالثة	الجزء الثاني جان جاك روسو
١٩٢١	»	١٩٧٨	الطبعة الثالثة	الجزء الأول جان جاك روسو
١٩١٤	»	١٩٧٤	الطبعة السابعة	زينب
١٩١٢	»			دين مصر العام - بالفرنسية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ  
. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ  
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

## تقديم الكتاب

ثلثمائة مليون من المسلمين أو يزيدون تهفو قلوبهم جميعاً إلى منزل الوحي ويهزم الحنين إليه ، يولون وجوههم شطره خمس مرات كل يوم أينما أقاموا الصلاة ، وإلى البيت العتيق تهوى أفئدتهم رغبة في أداء فريضة الحج ، وإلى قبر الرسول النبي العربي يحثم الشوق ابتغاء زيارته . ومنهم من يودّ لو يقف عند كل مكان وقف فيه الرسول ليتمتع ماوسعه المتاع بما توجيه هذه المواقف من جلال روحى خلقي وإنساني يأخذ بمجامع النفس . ومنهم من يدعو تطلّعه العلمى إلى البحث عن أسرار هذه البيئة العربية التى اختارها القدر فجعل منها منزل الوحي بالتوحيد إلى محمد عبد الله ورسوله في أكثر صور التوحيد سموّاً وصفاء : ماذا كانت قبل الرسالة ؟ وكيف كانت حياة الرسول ؟ وللام صارت على توالى العصور ؟

بلاد ذلك مبلغها من عناية العالم بها جديرة بأن تتعاقب بها أفئدة الكتاب والشعراء والمؤرخين والعلماء ، تتلمس أسرارها وتستلهم من روحها . وهى لاريب وقد استوقفت منهم كثيرين من أهل الأمم المختلفة ، بل لقد استوقفت كثيرين من غير المسلمين فى مختلف العصور وفى عصرنا الحاضر . على أن ما تحتفظ به من تراث دائم البليدة ، بالغ غاية الدقة فى تشعبه خلال التاريخ واتصاله بأرجاء العالم المختلفة . قد حال بين طائفة من الأدباء والشعراء والباحثين وبين التنقيب فى كنوز هذا التراث ؛ وذلك لما لها فى نفوس الباحثين المسلمين من قداسة روحية تصدهم عن الغوص فيها إلى غاية أعماقها ، ولما يغيب من أسرارها عن غير المسلمين بسبب هذه القداسة الروحية ذاتها . هذا إلى أن ما صارت إليه بلاد العرب منذ قرون طويلة من تأخير واضمحلال قد لوى الكثيرين عنها ومال بهم عن التفكير فى أمرها ، شأن الناس إذ يرغبون عن كل ما انطفاً بريقه وإن حوى فى طياته أثنى النفائس . ومن ثم قل ما كتبت

عن بلاد النبي العربي في القرون الأخيرة مما له قيمة علمية تكشف الغطاء عن حقيقة هذه البلاد واختبار القدر لإياها للوحي والرسالة على نحو يُقنع تفكير هذا العصر ، وكان ما كتبه العلماء الأجانب بعيداً عن تناول الظاهرة الروحية التي تغير لها وجه التاريخ منذ أربعة عشر قرناً ، والتي ستظل عاملاً خالد الأثر في حياة العالم ما كان للقوة الروحية في توجيه العالم أثر وسلطان .

ولقد حرصت على أن أقف ما استطعت عند البحوث التي تناولت بلاد العرب من هذه الناحية منذ بدأت أكتب السيرة وأنشرها تباعاً في فصول كتابي « حياة محمد » . ولقد وفقت لبعض ما أردت في الكتب العربية التي كتبت في العصور الإسلامية الأولى ، وفيما كتبت بالعربية من بحوث في هذه العصور الأخيرة ، كما وفقت لناحية أخرى منه فيما كتبه علماء الغرب ورجال الرحلات فيه . لكنني شعرت آخر الأمر بأنني سأظل ينقصني جوهر ما أبحث عنه إذا لم أذهب إلى بلاد النبي العربي بنفسى ، ولم أقف حيث وقف في أدق ما مر به أثناء حياته ، ولم أمهد لذلك بأن أحيط في حدود الطاقة بالبيئة العامة التي نشأ فيها . وإنما كنت أفكر في هذا لأتم به بحوثي في السيرة . فأما أن أجعله موضوع كتاب مستقل فذلك ما لم يدر بخلدى بادئ الرأي . فلما ذهبت إلى الحجاز وتجوّلت فيه تبينت أن ما قمت به من بحوث يتعدى السيرة إلى عصرنا الحاضر ، لذلك رأيت من الخير أن أطلع القراء بكتاب مستقل يتناول ما رأيت ويتناول ما أحسست به حين كررت بالزمن راجعاً إلى عهد الرسول ، وما كان بعد ذلك من حياة المسلمين في عهدهم الأول ، ثم ما أصاب البلاد الإسلامية المقدسة بعد ذلك إلى وقتنا الحاضر ، مع الإشارة الموجزة إلى ما أرجو أن يكون القدر قد نخطه في لوحه لهذه البلاد العربية يوم ينصر الله دينه على الدين كله .

وهذه الإشارة الوجيزة التي يجدها القارئ في بعض فصول الكتاب هي مع ذلك أول ما تحركت له نفسى منذ فكرت في الرحلة إلى الحجاز حتى استقر بي العزم عليها . من يومئذ جعلت أسأل الذين سبقوني إلى الحج عن الحال في

بلاد العرب ، وعمما يروى من الأنباء عن الوهابيين فيها ، وعن مذهب ابن عبد الوهاب وما ينطوى عليه ؛ أبتغى بذلك التهيؤ للبحث فيما استطاع عمله لخير هذه البلاد العربية ولخير المسلمين الذين ينزلونها . وإنما عابجت هذا البحث لما أعرفه من أثر الفوارق المذهبية بين أهل الدين الواحد في مختلف البلاد والأديان والعصور . أفيلبغ الاختلاف بين الوهابيين وغيرهم من المسلمين مبلغاً يجعل العمل المشترك والتعاون عليه أمراً غير مستطاع ؟ أم أن جوهر العقيدة الإسلامية في هذا المذهب كجوهرها في سائر المذاهب الإسلامية واحد لا يتغير : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ؟ أما الجوهر في المذاهب الإسلامية جميعاً فهو التوحيد ، أما وكتاب الله هو كتاب المسلمين جميعاً ، فالرجاء عظيم في تعاون المسلمين على إصلاح ما يتصل بشعائرتهم وعقائدهم في بلاد البيت العتيق والقبر النبوي وفي متابعة هذا التعاون على الزمن حتى يقضى الله بأمره ، ويتم على الناس نوره .

ولقد استغرق التفكير في هذا الأمر كل انتباهي منذ بدأت رحلتي : جعلت أفكر فيه حين ركبت الباخرة ، وحين نزلت جدة ، وأثناء الطواف والسعي بالعمرة بمكة ، وعندما ذهبت أتم فرض الحج في عرفات وأختم شعائره في منى . ولم أعجب حين رأيت الكثيرين من زملائي في الحج يشاركونني في هذا التفكير . فقد رأوا جميعاً حاجة مناسك المسلمين إلى الإصلاح ، فتحركت لذلك نفوسهم وعقدوا الاجتماعات يلتمسون وجوه الرأي فيه . أما أنا فقد وضعت مقترحات لبعض ما رأيت من الإصلاح ودفعت بها إلى رجال الحكومة العربية . ولعل من بين الذين سبقوني إلى الحج من صنع صنيعي راجياً ما أرجو أن يوفق الله المسلمين لغاية الخير .

على أنني لم أتوسط أثناء هذا الكتاب في بيان ما رأيت وما أرى الآن من وجوه الإصلاح ؛ لأنني لم أجعل هذا الغرض غايتي الأولى من وضعه ، ولأن شؤون الإصلاح تتطور في تصويرها تبعاً لما تقضى به حاجات العصر . ونحن في زمن تسرع فيه الأشياء إلى التحول ، حتى لترى ما كان صالحاً أمس قد



أصبح اليوم عتيقاً ، أن حدث بعده ما هو خير منه وأدنى إلى الفائدة . لكنى تبسّطت في بعض فصول الكتاب في نقد ما رأيته موجباً للنقد من أحوال بلاد العرب الاجتماعية ، وفي بيان الأسباب التي أدت إلى تدهور البلاد العربية والإسلامية ؛ لاقتناعي بأن النقد فاتحة الإصلاح ، وبأن تحرّج الأسرار التي أدت إلى الضعف تشخيص للمرض يسهل معه وصف علاجه .

ومع وقوفى موقف الناقد من بعض الشؤون الحاضرة في البلاد المقدسة لقد وجهت أكبر عناية إلى آثار الرسول الكريم فيها ، وجعلت جلّ همي أن أسير حيث سار : ألتمس ما في حياته من أسوة وعبرة ، وأرجو أن أقف على شيء من السر الذي هيأ هذه البلاد لتكون منزل الوحي إلى النبي العربي خاتم الأنبياء والمرسلين . ولم أتقيد في تفكيري وتأملي أمام شيء مما رأيته بغير منطقي وعقيدتي الذاتية اللذين كوّنتهما الطريقة العلمية الحديثة . فأنا لا أسلمّ بالعقيدة الموروثة إذا لم يكن لها أساس غير ما وجدنا عليه آباءنا ، ما لم أمتحنها وأحصّنها وما لم أصل من أمرها إلى الإيمان بأنها هي الحقيقة كما يُسيغها عقلي ويطمئن إليها ضميري . وأنا لا أحسب الذين يدينون بعقيدة ما لغير شيء إلا أنهم وجدوا عليها آباءهم مؤمنين حقاً . بل أرى واجباً على الإنسان لكرامته الإنسانية أن يحاول ما استطاع فهم ما يُلقّني إليه ، اتصل ذلك بالعقيدة أو بالتشريع أو بالعلم والفن . فإن اهتدى إلى الحق فيه فذاك ، وإلا فليلتمس الهدى عند أهل العلم وليطالبهم بإقناعه . والعالمُ الجدير باسم العالم هو من أقنع سامعه بالحقيقة التي اهتدى إليها عن طريق المجادلة التي هي أحسن . فلا إكراه في الدين ، ولا يمارى في الحقيقة متى تبين الرشد من الغي إلا من أضلّه هواه .

ولقد جعلت السير في إثر الرسول غرضي من يوم أتممت مناسك الحج . فقد كنت شديد التوق إلى هذا السير من سنوات ومذ كنت أتابع الرسول خلال الكتب أبحث فيها سيرته ، وكنت أحسب السبيل ميسرة وأنى سأجد عند كل موقف من مواقف الرسول أثراً يدل عليه ويشهد به . ولم يزعزع من ذلك في نفسي ما علمته من هدم الوهابيين القباب التي أقامها من حكموا

الحجاز في العصور التي سبقتهم . فالوهاييون إنما استقرّوا فيه لعشر سنوات خلت . وهذا زمن لا يتيح للنسيان أن يجنى على آثار خلّدتها أربعة عشر قرناً متعاقبة . هذا إلى أن القباب ليست كل ما يمكن أن يقام من الآثار . وإذا كنا نحفظ في مصر بآثار ناهضت الدهر خمسين قرناً متوالية فما أحرى المقيمين ببلاد النبي العربي أن يحتفظوا بآثاره وهي أقرب من ذلك عهداً ، وأبلغ دلالة ، وأبقى على التاريخ ذكراً . والوهاييون هم بعدُ مسلمون ؛ إن أنكروا القباب فلا ينكروا ما سواها من دواعي الذكر والأسوة .

والحق أني لم أجد مشقة في تعرّف الآثار التي هدم الوهاييون قبابها . فالأسف على ما صنعوا قد جعل للذين يخالفونهم في الرأي أشد ذكراً لها وحرصاً على إشهاد الناس ما حل بها . ولقد شاركت هؤلاء في أسفهم من ناحية لا يفكر أحدهم فيها . فقد كان بين هذه القباب التي هدمت آثار بارعة في الفن لم يكن يجمل بيد تقدّر الفن أن تمتدّ إليها بسوء . لكنني إنما وجدت المشقة في الاهتداء إلى آثارها في تاريخ المسلمين الأولين أثر بالغ ، ولا ترضى أمة تقدّر تاريخها أن تذرّها للنسيان يعثب بها ويجنى عليها . من ذلك اختلاف الأقوال على موقع حنين حيث كانت الغزاة التي تركت في تاريخ الإسلام أثراً قل كمثل أثر . ومنه اختلافهم على موقع عكاظ سوق العرب جميعاً في الجاهلية وفي صدر الإسلام . وإنما سوّغ الجهل الذي خيم على بلاد العرب من عصر العباسيين هذه الجناية النكراء ، كما سوّغ أمراً لا يقل عنها نكراً . فقد أقيمت آثار لحوادث وقعت وليس في التاريخ ما يدل على أنها وقعت حيث تقوم هذه الآثار ، وأقيمت آثار لحوادث لا يعرف التاريخ الحق من أمرها شيئاً . وتحقيق ذلك كله وبيان قيمته العلمية أمر جدير بكل من يريد الحقيقة . وقد حاولت من ذلك ما استطعت . لكن هذا التحقيق يحتاج إلى أضعاف الزمن الذي قضيته بالحجاز ، ويحتاج مع الزمن إلى بحوث ينقطع لها صاحبها ليقابل بين ما جاء في الكتب المختلفة ، لعله يبلغ من المقابلة إلى ما تستقيم به النتيجة التي يتوخّاها . وليس يخامرني ريب في أن هذا العمل لو قامت به بعثة

جامعية لوجدت فيه من الفائدة ومن المتاع العلمى ما تهون معه كل مشقة .  
 وكان حديث الآثار الصحيحة التى وقفت عندها كلُّه البلاغة فى التعبير  
 عما تدل عليه وتوجيه إلى النفس من آى الجلال والعظمة . فجبل حراء والغار  
 فى قمته ، ومسجد عدّاس بالطائف ، ومسجد العقبة وجمرتها ، وجبل ثور  
 وخبثاً رسول الله وأبى بكر بالغار فيه . والطريق الذى سلكه النبي إلى المدينة  
 حين هجرته من مكة ، ومسجد قُبَاء ، والمسجد النبوى والآثار الكثيرة  
 المختلفة بالمدينة ، وميدان بدر حيث وقعت الغزوة الأولى بين قريش والمسلمين .  
 هذه المواقع وما إليها كانت تثير أمام ذهنى ذكريات مليئة بالحياة كأنما حدثت  
 بالأمس ، وكانت توحى إلى معانى الإكبار والإعظام وتزيدنى إجلالاً لهذه  
 الأماكن فى صمتها العميق لم يغير منه توالى القرون . ولقد كان ما أوحته هذه  
 الأماكن مما حاولت تصويره فى هذا الكتاب أبلغ من كل ما استطاع قلمى  
 أن يصفه أضعافاً مضاعفة .

ولقد كشفت لى هذه الآثار عن صورة لبلاد العرب حين بعث الله نبيه  
 بالهدى ودين الحق تختلف أشد الاختلاف عن صورتها فى الوقت الحاضر ،  
 وتختلف عما وقّر فى نفس الكثيرين من صورتها فى آخر أيام الجاهلية . كانت  
 بلاد العرب يومئذ ذات حضارة لا شىء يشبهها فى شبه الجزيرة اليوم ؛ كانت  
 مكة وبعض بلاد الحجاز مدنًا تجارية عامرة مزدهرة ، وكانت الطائف ذات  
 الحصب موضع عناية من أهلها بحسن استغلال خصبها وبصيانة سلامتها ،  
 وكان أهل تهامة وأهل الحجاز أولى ثقافة وحكمة وأدب ، وكان العرب على  
 اتصال بالعالم ينقلون تجارته بين الشرق والغرب مما زادهم علمًا وزادهم براعة  
 فى التجارة وأساليبيها ؛ لكنهم كانوا يحيون حياة سياسية أشبه بحياة اليونان القديمة  
 وبحياة بعض بلاد الغرب ، ومنها إنجلترا ، منذ قرون قليلة . كانوا قبائل ومدائن  
 تحتفظ كلُّ منها بوحدها وبسلطانها وتدفع عن حياضها كل من يحاول الاعتداء  
 على سيادتها أو على ثروتها . فلما بعث الله النبي العربى داعيًا إلى التوحيد ،  
 ألقى فى هذه القبائل قوة فى الجدل وصلابة فى الاستمساك بعقائدهم ونظمهم .

فلما هدى الله الكثيرين من أهل يثرب إلى الإسلام وهاجر النبي إليهم وانتصر بهم وجمع كلمة العرب تحت لواء الدين الجديد ، استطاعت هذه الأمة الفتية المستعدة بحضارتها للنهوض أن تثب إلى حيث وثبت وأن تثبت في العالم حضارة هذا الدين الذي اختارها الله لتكون وطنه الأول .

كشفت لي هذه الصورة عن جانب من السر الذي كنت ألتمسه والذي كان خفياً عنى حين كنت أتصور بلاد العرب كلها ، كما يتصورها الكثيرون وادياً غير ذى زرع لا تصلح مقراً لحضارة يضيء نورها العالم . كان أهلها شديدي المحافظة على عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا ذوى بأس وقوة في هذه المحافظة . وقد كانت عقائدهم الوثنية تمسكهم دون الوثوب إلى دعوة العالم المفكك الأوصال يومئذ ليستظل بحضارة أجدر بالإنسانية مما كانت تدعو إليه بزنطية وفارس . فلما هدى الله العرب إلى الإسلام كانت تعاليم هذا الدين منارة الهدى للعالم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم الأسوة والمثل بأدبه وخلقه وقوته على الحياة لنشر هذه التعاليم وإحياء الإنسانية بروحها السامى . وهذه الأسوة هي ما تحدثت به آثاره في بلاد العرب حديثها البليغ الذى تهترأ له النفس وتسمو به الروح إلى مراتبها العليا حيث تشرق الأرض بنور ربها ويرى الإنسان فيها فضائل الكون مجتمعة .

والواقع أن ما توحىه آثا الرسول من هذه المعانى بالغ غاية القوة . وأنت تستطيع أن تجمع هذه المعانى في عبارة موجزة : تكريس الحياة لمثل أعلى يوجه الإنسان إليه جهوده فيبلغه أو يموت دونه مستشهداً في سبيله . وحسبك أن تقف عند كل واحدة من كلمات هذه العبارة لترى الجلال والقوة والسمو على الحياة متصافرة كلها إلى خير غاية . فالمثل الأعلى في الإسلام ما هو ؟ رضا الله بالبرِّ والتقوى ، وحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه . صور هذه المعانى النفسية صورة مادية واجعل منها مثلك الأعلى الذى تكرس له جهود حياتك . هذا التصوير وحده عظيم شاق يقتضيك مجهوداً جسيماً . أنت تريد الغنى مثلاً أعلى لك . فليكن ! لكن يجب أن تتغنى به رضا الله وأن تكون في تحصيله

براً تقيماً ، وألا تعامل الناس في تحصيله إلا بما تحب أن يعاملك به من أراد منهم مثل غايتك . وذلك يرى جاه الحكم مثلاً أعلى له . فليكن ! لكنه يجب أن يتغى بالحكم رضا الله وأن يكون فيه برّاً تقيماً لا يعامل غيره إلا بما يجب أن يعامله الغير به إذا ولى أمره . فإذا صور المرء مثله الأعلى وجب عليه أن يسعى إليه غير وان يوجه إليه كل جهوده وأن يستهين في سبيله بكل تضحية وإن كانت بالحياة ، ولا عليه إن أصابه مكروه ما دام رضا الله مبتغاه ، فكان لذلك برّاً تقيماً مؤمناً بالأخوة الإنسانية ، محباً لإخوانه المؤمنين ما يجب لنفسه ، راجياً لهم الخير وأن يبلغ كل من مثله الأعلى ما يودّ هو أن يبلغه من المثل الذي جعله نُصَبَ عينيه وغرض حياته .

لكن الأمثال العليا تتفاوت تفاوتاً عظيماً . وأسمى الأمثال لا ريب ما بعث الله به نبيه هدى للناس ونوراً . ولقد بلغ من إيمان العرب في الصدر الأول بهذا المثل أن جعله كل منهم غرض حياته ، وأن أخضع له كل ما في الحياة من غرض دونه ، وأن كان الاستشهاد في سبيله أملاً يتمنى أن يجعله الله نصيبه . فهذا الذي اتخذ التجارة حرفة له في الحياة ووقف لها جهوده كان يجعل في تجارته حظاً معلوماً للسائل والمحروم ، وكان يهب نفسه لله يوم يدعو الداعي إلى الجهاد في سبيله . ذلك لأن الدين الحديد علمهم أن الأمة يجب أن يكون لها ، كما يجب أن يكون لل فرد ، مثل أعلى ، وأن المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة لكل منهم على الآخر ما للأخ على أخيه من حق ، فيجب أن يكونوا بدأ واحدة في سبيل الله يتحابون بنوره بينهم ، ويبدلون في سبيله مُهَجِّمهم وأرواحهم . يعلمون الناس بذلك أنه لا إله إلا هو ، لا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وأنه جل شأنه برأ الناس ليتعاونوا على البر والتقوى حتى يبلغوا بالإنسانية كمالها ؛ فإن بغت طائفة منهم فقد وجب عليهم جميعاً أن يقاتلوا الباغي حتى ينيء إلى أمر الله .

هذه المعاني السامية هي تعاليم النبي العربي وتعاليم الإسلام ، وهي ما توجيه آثاره صلى الله عليه وسلم إلى من يقف عندها في بلاد العرب . ولقد كان من

أثر هذه التعاليم أن صارت بلاد العرب محطاً أنظار العالم كله في حياة الرسول وبعد اختياره الرفيق الأعلى . امتد الفتح الإسلامى في عهد أبى بكر وعمر إلى بلاد الإمبراطوريتين الرومية والفارسية ، ثم تخطاهما إلى ما وراءهما من أنحاء العالم شرقاً وغرباً حتى بلغت الحضارة الإسلامية فيما دون المائة من السنين ما لم تبلغه حضارة غيرها في قرون متعاقبة . كان الرجل في أقصى الصين يذكر فتح العرب بلاد المغرب والأندلس ، وكان المسلم في مصر وفي بلاد المغرب يتحدث مفاخرأ بفتح جيوش الإسلام بلاد البوذية والكنفشيوسية . وحيثما امتد الفتح رفرق لواء الإسلام وشهد الناس أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأخذوا بتعاليم الدين الجديد وتفقّهوا فيه . وأبناء العرب في هذه الوثبة الأولى يتباهون فخراً بما يتم على أيديهم كل يوم من معجزات لم يتأت لغيرهم في مختلف العصور أن يأتوا بمثلها ويكادون يحسبون أن الله قد نصر دينه على الدين كله منذ هذا العهد الأول .

وأقبل أهل شبه الجزيرة على الفتح وجعلوا يزدادون منه ثراء ويزدادون بأنعم المال متاعاً . ونخيل يومئذ إليهم أن العهد الذهبى الذى فتح الله لهم أبوابه لا نهاية له وأنهم ناهلون من ورده هم وأبناؤهم وحنفدتهم أبد الآبدين ودهر الدهرين حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ولم يدّرْ بخلد أحدهم وهو يعبّ من هذا النعيم أن للزمن دورته ، وأن لكل يوم غده ، وأن الله مغير ما بقوم يوم يغيرون ما بأنفسهم .

ولقد غيّرُوا ما بأنفسهم فغير الله ما بهم ، حتى صاروا إلى حال تبعث الحسرة إلى النفس . أنت اليوم تقطع عشرات الأميال ومثاتها فلا ترى لحضارة بل لحياة مظهرأ . وفيما خلا المدن القليلة ، لا أعرف منها غير مدن الشاطئ وغير مكة والمدينة والطائف ، أنت لا تقف على الطريق المأهولة إلا عند نجع هنا ومُخَسِّم هناك . ما بالك بما سوى الطرق المأهولة مما ترى به البادية الفسيحة ! إنك من ذلك في مَهْمَمَه لا يعرف غير الأفق حدأ . وكلما أغذذت السير أو انطلقت بك السيارة تطوى الأميال إثر الأميال تراجع الأفق أمام ناظرِكَ ولم

يكشف جديداً . فإذا مرَّ بك سانح من الطير أو ضارب في البیداء وراء بعيره سَعِدَتَ بهذه المصادفة من الحياة سعادة راكب البحر شام سفينة تمخر العباب على مرمى النظر . وليس فيما يصادفك من ذلك إلا ما يزيدك حسرة على ما هوت إليه هذه البلاد من درك الهمجية ، وهي التي وثب بها الإسلام تلك الوثبة فأضاء العالم بحضارة ظل ينعم بها قرونًا عدة متوالية ، نقل المسلمون أثناءها آثار التفكير الإنساني في اليونان القديمة وفي الهند وفي فارس ، فهد هذه الحضارة الحالية التي ينعم العالم اليوم بها؛ ثم يثتّم هذا الإسلام بأنه السبب في تأخر بنيه والذين يدينون به .

وقفت غير مرة إزاء هذه الظاهرة أسائل نفسي وأسائل غيري عن سببها . ولم يكن الاهتداء إلى السبب عسيراً ؛ فهؤلاء العرب الذين وثبوا الوثبة الأولى على عهد النبي وفي صدر الإسلام قد أقام الكثيرون منهم في بلاد غير بلادهم . ولئن لم ينس الكثيرون منهم تعاليم دينهم لقد نسوا الغرض الأسمى الذي يدعو هذا الدين إليه ؛ فتفتحت لهم كنوز الأرض وتدفقت عليهم خيراتها فشغلوا بها وبتنظيم شؤونها، وبذلوا في ذلك من الجهود ما حسبه يساوي تثبيت دعائم الإيمان الصادق في نفوس الذين دانوا للإسلام . اكتفوا بأن يُعَلِّموا الناس فروض هذا الدين دون أن يفقهوهم فيه ، وجعلوا غاية الفقه تنظيم علاقات المال في الحياة وفيما بعد الحياة . أما الإيمان الصادق الذي أضاء العالم ووثب بجزيرة العرب فقد اختص بالنظر فيه أهل الكلام وعلمائوه . من ثمَّ شغل المسلمون بالحياة الدنيا عن الآخرة ، وبالعرض عن الجوهر ، وبحكم الناس عن سياسة أمورهم في دينهم ودنياهم . ولذلك كثرت الثورات وكثر الانتقاص وعم الاضطراب ، واتخذ الملوك من العلماء والفقهاء ألسنة دعايتهم للدفاع عن ملكهم ، كما اتخذهم الثائرون ألسنة دعايتهم لتسويغ ثورتهم . وإذا كان ما في بلاد العرب من ثروة لا يغني غناء ما في الشام وفارس ومصر والأندلس ، فقد انتقل مقر الملك من المدينة إلى دمشق وإلى بغداد وإلى القاهرة وإلى قرطبة .

من يومئذ بقيت بلاد العرب يحكمها من تؤول إليه الخلافة وإمارة المؤمنين .

ولقد حرص هؤلاء الملوك في العهد الأول على استرضاء العرب وإغراقهم في الأعطيات وفي الجاه . كذلك فعل بنو أمية ، وكذلك فعل الأولون من بني العباس . ولم يكن لهم محيص من أن يفعلوا وبلاد العرب كانت بعد ذات حضارة لم تقوض دعائمها ، وأبناء العرب كانوا بعد أولى الأمر في المملكة الإسلامية . فلما اشترك الفرس والتتار في بلاط بني العباس ونازعا العرب الحكم ، بدأ المال ينقبض عن أهل شبه الجزيرة باعتباره حقاً من حقوقهم ، وبدأ الملوك والأمراء يُنعمون عليهم بألوان من الإحسان مختارين مشكورين ، ولم يُعَنَّ أهل بلاد العرب بالتمييز بين الحق والإحسان بعد أن نزع الأكثرون من أبنائها الأصليين عنها وحلّ الأجانب من رقعة المملكة الإسلامية محلهم فيها ، وزاد في عدم عنايتهم بالتمييز أن بدأ الجهل يخيم عليهم كما بدأ يخيم على غيرهم من بلاد المسلمين . على أن بلاد العرب كانت أسرع من غيرها انحداراً إلى هاوية الجهل بعد أن فقدت بهجرة أبنائها العنصر الأساسي من مقومات الحياة القومية ، وبعد أن نزع العلماء والفقهاء والأدباء إلى العواصم التي بعدت عن بلاد العرب حتى صارت العلوم والفنون جميعاً غريبة عنها .

ولم تنهض البلاد الإسلامية المقدسة من بعد ذلك إلى يومنا الحاضر ؛ لأن الدولة الإسلامية هوت إلى حضيض الجمود والجهل . فأما اليوم ففي بلاد العرب توثب إلى نهضة جديدة تكاد تضارع ما في غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى .

وقفت عند هذه الظاهرات غير مرة أحاول تحليلها ، لكنني لم أقصد من هذا التحليل إلى تفصيلها . فالتفصيل يتناول تاريخ الأمة العربية الإسلامية ، أو الأمم الإسلامية إن شئت ، خلال ثلاثة عشر قرناً متوالية ، وهذا جهد عظيم لا يتسنى لفرد أن يقوم به ، وميدانه ما يزال بكرة في حاجة إلى تنظيم علمي دقيق . والغاية التي أبتغيها من وقوفي عند هذه الظاهرات لا تتناول من هذا الميدان إلا جانباً عاماً يتصل ببلاد العرب وأسباب تأخرها على القرون منذ العهد الإسلامي الأول إلى زمننا الحاضر . ثم إنني لم أرد فيما ابتغيته من ذلك



سرد تاريخ العرب وهجرتهم من بلادهم ، أو ذكر من حل محلهم فيها .  
 إنما اكتفيت بالإشارة إلى ذلك لأبين أن التأخر مرجعه إلى أسباب سياسية  
 واجتماعية لا أثر للعقيدة ولا للدين فيها ، وإلى أن العقيدة والدين تأثرا ، كما  
 تأثر العرب والمسلمون ، بهذه الأسباب السياسية والاجتماعية ، وأن من اليسير  
 لذلك أن يعود العرب والمسلمون سيرتهم الأولى . وحسبهم أن يغيروا ما بنفوسهم  
 ليغير الله ما بهم .

ليس هذا الكتاب إذن مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ، ولا شىء  
 فيه من تقويم بلاد العرب . إنما هى وقفات وقفاتها فى بلاد الوحى ومنزله أستوحى  
 فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله . وهناك فى هذه المواقف تجردت نفسى  
 وسمت روحى وكررت بالعصور والقرون أطويها ورحت أتمثل هذا الهادى الكريم  
 وأتمثل المسلمين من حوله ألتمس فى ذلك الأسوة والعبرة آملاً أن أشرك  
 فيهما إخوانى المؤمنين بالله وبما جاء من عند الله . لم أتقيد فى هذه المواقف  
 بما جاء فى كتاب غير كتاب الله الكريم ، ولم أخضع تفكيرى لحكم غيرى .  
 وما كان لى أن أخضعه وقد كنت أحس فى كثير من هذه المواقف أنى بين  
 القوم أسمع وأرى وأتمنى لو كنت أجاهد معهم فأفوز فوزاً عظيماً . وما كان  
 لى أن أفعل ثم أخدع نفسى فأزعم أنى إذ أحدث الناس إنما أقص عليهم  
 ما رأيتهم وما أحسست به ، فى حين لا أقص إلا ما رآه غيرى وما سبقنى إلى  
 تسطيره . لقد تركت نفسى على سجيتهما ، تتوجه بوحى روحى وتستلهم الحق  
 مما حولى ، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلى وتقدير ضميرى ؛ ثم سطرت  
 ما اجتمع من ذلك لا أبغى به إلا رضا الله وحسن ثوابه . فليقل هذا أو ذاك  
 من كتاب المسلمين أو غير المسلمين عن أى من هذه المواقف ما شاء ،  
 وليستند فى حكمه أو رأيه إلى أى سند يطيب له أن يستند إليه . إنما ذلك  
 قول له عندى احترامه ما اطمأنت إلى حسن القصد فيه ؛ لكن للحكمى المكان  
 الأول من الاحترام عندى . وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل  
 أن نطمئن إليه وقبل أن تم بين أيدينا أسبابه ، وكانت العجلة طيشاً غير

جدير بمفكر يحترم عقله ، فليس من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن يَسْحَلَ نفسه حكم غيره قبل أن يمحّصه حتى يطمئن ضميره إليه . ومن الجمود الذى لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقلب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيعه من الحق فيها .

وأقف هنا لأدفع زعمًا حسب الذين زعموه أنه مَعَمَّرٌ غمزونى به بعد تأليف كتابى « حياة محمد » . حَسِبَ هؤلاء أننى انقلبت بكتابة السيرة رجعيًا ، وكنت عندهم قبلها فى طليعة « المجددين » . وكيف لا أنقلب عندهم رجعيًا وقد جعلت القرآن حجتى وما جاء فيه عن السيرة سندي ، ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمى ! . وكيف لا أنقلب عندهم رجعيًا وقد دفعت بالحجة ما طَعَنَ به على النبي العربى جماعة المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين ! . وكيف ساغ لى بعد ذلك أن أزعّم أمامهم فى « حياة محمد » ، وأن أزعّم اليوم هاهنا أننى طليق من القيود ، عدو للجمود ، نصير للبحث العلمى الحر ، وأننى أومن بحرية الرأى وأعتبرها الأساس ، لا أساس غيره ، لمن يريد معرفة الحقيقة . هم يرون ذلك خداعًا يأباه العلم والبحث الحر . وأنا بعدُ عندهم رجعى انقلبت إلى الجمهور أتابعه ابتغاء رضاه ، وكنت قبل ذلك أتقدمه أريد توجيهه وهدايته .

وأقف لأدفع هذا القول . وما أتلمس فى دفعه سببًا غير مواجهته . لا أقول إن قومًا غمزونى بنقيضه وزعمونى خارجًا عن الإجماع والتمسوا الحجة لتأييد قولهم ؛ وليس يستقيم فى المنطق أن يغمزنى هؤلاء وأولئك . لا أقول ذلك وأنا ما كتبت أبتغى رضا قوم أو أتقى سخط آخرين ؛ إنما كتبت للحق أبتغيه وحده . لكنى أسائل أصدقائى أحرار الرأى عن غايتنا جميعًا حين نُنتج : ألسنا نبتغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال ؟ ! فالعالم يبتغى مزيداً من العلم ومن الدقة فيه ، ورجل الفن يبتغى سموًا فى الفن وفى إلهامه ، وطالب الحقيقة يريد لها أجلى سنًا وأعم نوراً . ومن الناس من يحسب أنا نحاول من إنتاجنا أن نبلغ السعادة لأنفسنا وللعالم . ومنهم من يعتقد أن السعادة لفظ

مبهم يصور الوجدان مدلوله على هوى صاحبه ، وأنا إنما نحاول من إنتاجنا أن نزيد في معارف الإنسان القليلة الضئيلة حين تقاس إلى هذا العالم الذي لا يعرف الزمان ولا يعرف المكان له حدًّا ، لنطوِّع للإنسان أن يزداد بالكون اتصالا . وأنا بين هؤلاء ، أرى رأيهم ، وأعتقد كما يعتقدون أن التماس المزيد من المعرفة والطموح من ذلك إلى أبعد غاية هو وحده المطمح الخليق بالجانب الإنساني فينا .

وإنما مطمئنا حين نلتمس المزيد من المعرفة أن نسمو بهذا الجانب الإنساني في الأفراد والجماعات . ولقد طالما التمسنا في شرقنا الأدنى أسباب النهوض بعلمنا ، لتقف إلى جانب الإنسانية المهدبة لا ينكس الخجل رعوسنا ولا يحز في نفوسنا ذلك الشعور الممض "بأننا دون الغرب مكانًا . ولقد خيل إلى زمننا ، كما لا يزال يخيل إلى أصحابي ، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض . وما أزال أشارك أصحابي في أننا ما نزال في حاجة إلى أن نقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكنني أصبحت أحالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن نقله . فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول ، وبقى الشرق بريئًا من الخضوع لهذا التفكير ، بل حورت المذاهب الإسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الإسلامي نظامًا كنسيًا أهول الحرب ، فلم تقم لها فيه قائمة أبدًا . بذلك بقي الشرق مطهرًا من الأسباب التي أدت إلى اضطراب الغرب الروحي وإلى ثوراته السياسية التي نشأت عن هذا الاضطراب ، وبقى المسيحيون المقيمون بالشرق في جوار المسلمين في طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصله إخوانهم في الغرب . كان الخروج عن الكنيسة المسيحية في الغرب إعلانًا للثورة على السلطان ، وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين يُبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه ، وينقضون ما يشاءون نقضه . أمّا والإسلام لا يعرف الكنيسة ، وأقرب الناس فيه إلى الله

أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية في الشرق حرة طليقة لم تقيّد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الازدهار الإسلامي قيّدأ لحرية الفكر ما كان صاحبه برىء القصد يبتغى برأيه سبيل الحق . ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله . كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ! . لا مفر إذاً من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحى بها ما فتر من أذهاننا وخمدت من قرائحنا وجمدت من قلوبنا .

هذا كلام واضح بيّن ، ومن عجب أن يخفى على أصحابي فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تريبهم على . ولكن لا عجب ، فقد خفي هذا الكلام عنى سنوات كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم . وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لتتخذها جميعاً هدى ونبراساً . ولكنني أدركت بعد لآي أنني أضع البذر في غير منبته فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخص عنه ولا تبث الحياة فيه . وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موثلاً لوحى هذا العصر ينشئ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . وروأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو . ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين .

والفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد في الإيمان بالله تنزع في ظلال حرية الفكر إلى وحدة الإنسانية ، وحدة أساسها الإخاء والمحبة . فالأؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله بينهم وهم لذلك أمة واحدة تحيتها السلام وغايتها السلام . وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا

الحاضر من تقديس القوميات وتصوير الأمم وَحَدَاتٍ متنافسة يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه . ولقد تأثرنا معشرَ أمم الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفع فيها روح القوة نحسب أنا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلَّنَّا ؛ وخيل إلينا في سداجتنا أننا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية . ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جرائم فناكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها . وزادنا ما نخيم علينا من سُجْف الجهل لإمعاناً في هذا النسيان . على أن التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه ، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليفة أن تضل السبيل ، وإلى أن الأمة التي لا ماضى لها لا مستقبل لها . من ثم كانت الهوة التي ازدادت عمقاً بين سواد الأمم في الشرق والدعوة إلى إغفال ماضيها والتوجه إلى وجهة الغرب بكل وجودنا ، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية مع حرصه على نقل علومه وصناعاته . والحياة المعنوية هي قوام الوجود الإنساني للأفراد والشعوب . لذلك لم يكن لنا مفر من العود إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذلّ ، ولنتقى الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه .

لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية . ومصدر الحضارة سنا الأرواح المضيئة ، وقِيَامُها وثبة النفوس القوية . والأرواح تضيء ما اتصلت بروح أقوى سلطاناً وأبهر سناً ، كما يضيء سلك البلاطين إذ يصهره تيار الكهرباء . وكم في ماضيها من أرواح ذات سناً باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خَلْقاً جديداً ، كما بعث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية الحديثة . ومحمد بن عبد الله هو النور الأول الذي استمدت هذه الأرواح منه ضياءها ، وهو الشمس التي أمدت كل هذه

الأقمار بسناها . لذلك جعلت سيرته موضع دراستي في « حياة محمد » وجعلت مواقفه « في منزل الوحي » مصدر إلهام لما تنطوي عليه من تعاليم أوحاها الله إليه كلها سمو والقوة والجلال والعظمة . فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعتهم التماساً لرضاه .

يقول الذين يغمزونني : لك رأيك ! . فمالك لم تقف عندما أخذ به المستشرقون محمداً ومالك جعلت القرآن سندك الأول في السيرة وسندك الأول في هذا الكتاب ، دون أن تمحص ما فيه تمحيص العلم وتنقده نقده ؟ إنما فعلتَ لأنك خفتَ الجمهور فجاريته ، وخشيتَ الناسَ فَمَلِقْتَهُمْ ، ولم تخشَ العلمَ ولم ترعَ حقَه . غفر الله لكم أيها الصحب ! وبم أخذ المستشرقون المصنفون النبي العربي ؟ وما الذي نقدوا القرآن به ؟ لست أريد العود إلى ما ذكرته عن ذلك في « حياة محمد » وفي تقديم طبعته الثانية . وحسبي أن أقول : إن ثلاثة عشر قرناً انقضت وتنتصف القرن الرابع عشر منذ وفاة النبي ولم تستر هذه المآخذ من ضيائه إلا ما يستر ككَلَفِ الشَّمْسِ من ضياء الشمس ، ولم يغير هذا النقد من سلطان الحق في كلام الله إلا ما تغير الرياح من سُنَنِ الطبيعة . وها هم أولاء علماء العالم يعود اليوم أقدرهم وأكثرهم يعترفون بعجز العالم ، ويقولون ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا . فإن يكن ذلك مبلغ العلماء من العلم فأخْلِقْ بالذين يتحدثون عن النقد العلمي إذ يذكرون القرآن أن يكونوا أكثر تواضعاً ، وأن يخشوا الله أكثر من خشيتهم غرورهم وأن يذكروا أن ما في النفس الإنسانية من قوى يتوسمها العلم ، ولمّا نزل حَقِيقَةُ عليه يعدل أضعاف ما كشف العلم حتى اليوم عنه ، وأن ملايين الشموس والكواكب المشورة في فضاء هذا العالم أضخم قوة وأخفى . وإني إن تحدثت عن شيء من هذه القوى التي لم أبلغ من العلم بها بعض ما بلغ العلماء فليس ذلك متابعة للجمهور ولا خشية منه ، ولكنه الإقرار بالضعف والعجز ، وبأننا إذا وجب علينا أن نجاهد ما استطعنا لتبلغ من العلم ما يؤتيه الجهد ، فواجب كذلك علينا أن نقر بأننا لم نبلغ من العلم ما يطوع لنا كل هذا الغرور .

أو يجد أولئك الأصحاب — عفا الله عنهم — ما يفسرون به كيف استطاع «ماركوفى» وكيف استطاع «أديسون» أن يكشفوا فى عصرنا ما اكتشفنا مما لم يستطعه غيرهما ، وأضرابهما فى العلم والمعرفة كثيرون ؟ ما هذه القوة التى أرتها ما لم يره غيرهما ؟ ولماذا لم ينسج أضرابهما على متوالهما كما ينسج الصانع على غرار الصانع والزارع على غرار الزارع ؟ وهل يجدون ما يفسرون به لماذا ظل أرسطوطاليس وأفلاطون أممة فى الفكر وقد تقدم العلم بالإنسانية نحو ثلثمائة وألفى سنة ؟ وما قولهم فى الظاهرات التى يسجلها العلم اليوم ولا يجد لها فيما اهتدى إليه من سنن الكون تأويلا ؟

لا يسعك إذ تقف أمام هذه الأسماء والظاهرات إلا أن تقف موقف تواضع وإكبار . ولكن أين هذا من موقفى أمام آثار الرسول الكريم فى منزل الوحي ! ما كان أعظمه فى تحنثه ! وما كان أعظمه فى دعوة قومه إلى الهدى ، وفى صبره على أذاهم ، وفى تأديبه المسلمين بأدب القوة على الحياة ! وما كان أعظمه فى هجرته وفى غزواته ، وفى عفوه وحلمه ، وفى تقواه وعدله ! . نعم ! ما كان أعظمه فى كل صفاته وفى كل أعماله ! . لكن هذه العظمة التى لا تدانيها عظمة تصبح أمراً إنسانياً إذا ذكر الوحي وذكر اتصاله بربه وما رأى من آياته الكبرى ؛ وهنا يبلغ السمو إلى حيث لا تترك الإنسانية منه بعض المدى ، ولا يسع الإنسان إلا أن يكرر قوله تعالى :

«وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ .» . وهنا

يحاول العقل أن يسمو فوق نفسه ليدرك هذا الأفق الأعلى . وهيئات أن يدركه والعلم ما يزال إلى اليوم محدود الأفق قاصراً دون تفسير الكثير مما يقع عليه الحس . أفرجعية أن يقف الإنسان في منزل الوحي يحاول السمو إلى أن يفهم كيف كانت صورته ؟ أم رجعية أن يقف الإنسان عند آثار صاحب الوحي يلتمس فيها الأسوة والعبرة ؟ ! إن يكن ذلك ظن أصحابي فأجيب إلى بها رجعية أستسيغها .

وأدع الإشارة إلى محاولات قام بها السلف ولا يزال العلماء من أهل عصرنا يعالجون القيام بمثلها ابتغاء الاتصال بالعالم في وحدته التي تشمل الزمان والمكان ، وإلى محاولات غيرها يتبغى العلماء بها تفسير هذا الاتصال على الطريقة العلمية الحديثة . وأدع الإشارة كذلك إلى أن المذاهب الفلسفية ترمى كلها إلى تصوير الكون بدءاً وغاية ، وإلى أنها تستمد هذا التصوير من وحي الحياة ما كان منها وما يكون ، ما كشف عنه العلم وما يزال مطويّاً في سر الغيب . وهذه المذاهب تقتتل ويتهم بعضها بعضاً بقصور وسائله عن درك الغاية، أو بنزوع وسائله منزعاً لا يقف في حدود العلم وطريقته ، بل ينحو نحو المنطق التجريدي « الميتافيزيقي » المتهم في نظر الواقعيين بالرجعية . فلو أنني حاولت هذه الإشارة لطال بي الاستطراد إلى ما لا يتسع له هذا التقديم، ثم لرأى القارئ أمثال « برجسون » صاحب نظرية الإلهام والتطور المنشئ يُغمزون برجعية كالتى أغمز اليوم بها . وحسبي عزاء أن ما غمزوا به لم يحل بين الجمهور المثقف والعناية بمذاهبهم ، حرصاً من هذا الجمهور على اجتلاء الحق الذى تنطوى هذه المذاهب عليه . بل إن هذا المغمز بالرجعية ليزيدنى غبطة بما لقيته بحوثى هذه من عناية القراء والباحثين بها عناية كانت الشهيدة على ما حبباني الله من توفيقه في التحدث إلى الناس حديثاً يروونه جديراً بالاستماع له .

على أن هذه الرجعية التي زعموا قد أتاحت لى أن أقوم في موافقى هذه بالبحوث التي أشرت إليها عن شؤون من بلاد العرب اختلفت الآراء عليها



في عصور الإسلام المختلفة . وإذا لم أكن قد تعمقت في هذه البحوث ، لأنني لم أقص بالحجاز إلا ستة أسابيع ، ولم أنفق للبحث بعد ذلك من وقتي إلا ما قضت به الحاجة لتأليف هذا الكتاب ، فلشدة ما يسرنى لو يمهّد مجهودى لبحوث جامعية أدنى إلى الدقة في تصوير الحقيقة ، بعد إذ بلغت أنا منها حظاً أغتبط له في مسائل شتى خالفت رأى الجمهور في بعضها . وإنى لأترك الحكم على هذه النتائج لمن اختصوا ببحث هذه الشؤون، كما أترك لهم تقدير ما خالفت الجمهور فيه بعد أن رجعت إلى مصادر البحث العربية والأجنبية التي أتيج لى الرجوع إليها، وبعد أن استعنت في ذلك بمن أمدوني بمعلوماتهم ومن عاونوني في تقصي المراجع المختلفة .

وليس يسغنى وقد ذكرت من عاونوني ، دون التنويه في هذا التقديم بما كان لمعاونتهم من فضل جدير بأطيب الثناء . وشبان الحجاز هم أول الأعوان الجديرين بشكري ، والحاج عبد الله فلي ، أو سانت جون فلي ، حقيق بمثل هذا الشكر .

ولقد كان لرجال القسم الأدبي بدار الكتب المصرية من فضل معاونتي في كثير من مراجعاتي ما يستحقون من أجله أطيب الثناء ، أما دقة الفن في طبع الكتاب فترجع إلى أولى الأمر في مطبعة دار الكتب ، والقارىء يشاركني في شكرهم عليها .

وسأظل أذكر ما حييت ما بذله الشيخ عبد الحميد حديدي أحد رجال مكة ذوى الفضل والعلم من معاونته صادقة كان لها أبلغ الأثر في اتجاهي . كان مُضيق بمكة الشيخ عباس قطان أمين العاصمة قد أحدث التعارف بيني وبينه ورجاه أن يصحبنى ، فصحبنى الرجل في تجوالى بمكة وبادية الطائف وذهب معي إلى المدينة ولزمنى حتى ودعنى مسافراً من ينبع . وقد كان في صحبته رفيقاً ذكياً ودليلاً محيطاً بتفاصيل المواقع في مكة ، عارفاً بما في الطائف والمدينة . وقد أعانه السيد صالح الفزاز والشريف حمزة الغالي في رحلة الطائف ، وأعانه

الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أعظم العون في رحلة المدينة . ولقد حرصت على الإشارة أثناء فصول الكتاب إلى ما قام به هؤلاء الإخوان الأجلاء من جهد في معاونتي جدير بكل تقدير وحمد .

أما ما كان بلحالة الملك ابن السعود ولوزير ماليته الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان ورجال الحكومة العربية من فضل في معاونتي فذلك ما لا ينبي الثناء بتقديره .

وإني لأستغفر من نسيت ذكرهم من أولى الفضل ومن كانت لهم يد في معونتي ، والله يجزيهم عنى أحسن الجزاء .

ويزيد في تقديري لهذه المعاونة وفي ثنائي على الذين أسدوها إلى بما هم أهله أنها طوعت لي أن أقف أنا نفسي عندما وقفت عليه من قبل في بطون الكتب وأن أصف ها هنا ما كان لهذه المواقف من أثر مباشر في أطواء روحى . وإني لأعتبر هذه الحرية في الشعور فضلاً من الله عظيماً . فنحن في حاجة إلى أن نرى الأشياء في كل عصر بعين أهله ، وأن نحكم عليها بما بلغنا فيه من تقدم أو تطور في العلم والحضارة . فأما أن نتقيد بما شهده السلف فذلك الجمود الذى لم يرضه الإسلام مذ بعث الله به نبيه ، وذلك ما يجب أن نتنزه عنه . ولهذا قدمت أننى لم أتقيد أمام شىء مما رأيت بكتاب غير كتاب الله ، ولم أجعل لى في التقدير إماماً إلا ما رضيه العقل وطابت به النفس ، ولم أخش إلا الله وإلا ضميرى فيما أفاضه الحس على القرطاس . فليغمزنى من شاء بالرجعية ، وليتهمنى من شاء بمخالفة الإجماع ، وليقدر هذا المجهود من شاء بما يشاء ؛ فإنما أبتغى به الجزاء من الله يوم تجزى كل نفس بما كسبت ولا يعرف حميم حميماً . والله وحده عليم بذات الصدور .

وأختم هذا التقديم راجياً أن يثمر هذا العمل من تقدير قوى ما يدعو جامعات الشرق العربى وما يدعو الكتّاب إلى مزيد من العناية بهذه البلاد الإسلامية المقدسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة ، وما يدعو

المفكرين والساسة أولى العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد ، وليتخذوا من مكة أم القرى مقراً لعصبة أمم إسلامية . ألا لو فعل هؤلاء وأولئك ليكون عملهم أعظم فوز لهذا الكتاب ، وليكون فتح الله يومئذ للمؤمنين مبيناً .

محمد حسين هيكل

الكتاب الأول  
فرض الحج

## عزم السفر

« وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » .

في هذه الكلمات الحكيمة تمثل شعور الكثيرين من أصدقائي منذ أعلنت عزمي على الرحلة إلى الحجاز حاجاً حتى ودّعوني مسافراً . وفيها كان يتمثل شعوري لو أن أحداً حدثني عن هذه الرحلة قبل خمس سنوات من قيامي بها . فلما كانت سنة ١٩٣١ وبدأت أكتب « حياة محمد » شعرت بعد التقدم فيها بالرغبة الملحة في الذهاب إلى الحجاز . ولما سیرت شركة مصر للملاحة البحرية باخرتها الأولى « زمزم » إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في سنة ١٩٣٤ ، علمت أن في نيتها تسيير هذه الباخرة في أكتوبر من تلك السنة كما تطوّع لمن شاء قضاء العمرة في شهر رجب . إذ ذلك لم أتردد وصممت على انتهاز الفرصة لتنفيذ ما اعتزمته . لكن قلة الإقبال على هذه الزيارة الرجبية لم تسمح بتسيير الباخرة فلم تتم الرحلة . وأسفت لفوات الفرصة وبقيت على عزمي أن أزور الحجاز وبلاد العرب وأن أقوم فيهما بكل ما أستطيع من الدراسات . ولئن أسفت على فوات هذه الرحلة لقد أسفت كذلك لإضاعة فرصة عرضت من قبل ، ولم يدّر بخاطري يوم أضعتها أني سوف أسف عليها . تلك فرصة السفر إلى الحجاز مستهل الشتاء من عام ١٩٣٠ ، حين دعت الحكومة السعودية الصحافة المصرية إلى الحجاز لحضور حفلة التتويج للملك ابن السعود . فقد دُعيت إلى هذه الحفلة ، وكنت أود إجابة الدعوة لولا إقبال مصر يومذاك على المفاوضة لعقد الاتفاق بينها وبين إنكلترا . ولمّا تكن كتابة سيرة النبي العربي قد تمكنت من نفسي لتربط بيني وبين بلاد العرب بصلة تجعلني حريصاً على أن أتعجل زيارتها ؛ لذلك لم يكن ما يحفزني إلى المفاضلة بين المقام بمصر ومغادرتها في وقت كانت أحوال مصر تدعوني للقيام

بواجبي القوي كاملاً . من ثم رجوت صديقي وزميلي الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني . فسافر إلى الحجاز ممثلاً جريدة السياسة بالنيابة عني . ولو كُشِف لي يومئذ من الغيب ما يسرني الأقدار له لما عدل بي عن السفر إلى موطن النبي العربي أيّ اعتبار . ولكن ! « ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً » .

أقمت على عزمي أن أزور الحجاز وبلاَد العرب ، وآثرت أن يكون ذلك أشهرَ الحج ، لأؤدى فرضه وأدرك إدراكًا ذاتيًا كل حكمته . ووطد عزمي ما عرفت في فرائض الإسلام الأربع الأولى من حكمة بالغة يدرك سمو جلالها وجليل نفعها كل من يؤديها بنفسه أو يعيش بين أهله وإخوانه الذين يؤدونها . ألا يجمل بي أن أقف بنفسى بين الحجيج بمكة ومنى وعرفات ، ومع الذين يزورون قبر النبي بالمدينة ، لأؤدى فريضة الحج فأستبين حكمته ، ولأقف على ما يدركه المسلمون اليوم من هذه الحكمة ، ولأرى كيف يؤدون هذا الفرض !

أما فُرض الحج ليشهد الناس منافع لهم ، وليذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، ولتيسر لهم بالاجتماع لأداء الفريضة فرصة التعارف والتفاهم ؟ فليكن الوقوف على مبلغ تقديريهم لهذه الحكمة بعض ما أشهده في الحج من منافع .

وبدأ التفكير في السفر للحج يساور نفسي ويشغل حيزاً من ذهني . ولم أطلع بهذا التفكير بادئ الرأي أحداً ، إذ كانت شوائب التردد ما تزال تشوبه . فقد انتشرت أمام ذهني في الأيام الأولى منه صورة غير مشجعة لما قد يقوم في سبيل هذا السفر من عقبات ، فما عسى أن تكون الحياة في بلاد العرب لرجل تقتضيه عادات الحياة ما لا يتيسر هناك ! . وما عساي أفعال إذا مرضت ! ولي ابن عم مات على عرفات ودفن بمكة من عامين لعله لو أسعف بالعلاج والطب لما تيمم أبناؤه . وإذا استطاع الإنسان التغلب على مخاوف المرض وحاجات الحياة في غير أشهر الحج فكيف يغالبها حين يختلط حابل المسلمين بنابلهم بمكة ، وحين تكون الأماكن المقدسة معرضة للأمراض

الوافدة إليها من الهند ومن جاوة ومن مختلف أقطار الأرض . هذا إلى ما تقضى به نظم مصر الصحية من احتياطات بالوقاية الطبية قبل السفر ، وحسبُ صحي في العودة .

والإحرام: التجرد من الملابس كلها ، والاكتفاء بمئزرين غير مَسْخِيطين يلتف الإنسان بهما ويبقى عارى الرأس ليلته ونهاره أياماً عدة ! ! كيف يحتمل الإنسان ذلك كله في الحجاز ، وهو — فيما يصفه الواصفون — بلادٌ بادية لا تعرف من صور الحضارة ما تطمئن إليه نفس أحد من أصبح جيوارُ الطبيب والصيدلية بعضَ ضرورات حياته ! .

ولئن نسيت هذه الاعتبارات وجعلتُ لي فيمن سبقني إلى الحج أسوة ، أنسى هذا الاضطراب الدوليّ القائم بسبب الحرب الناشئة بين إيطاليا والحبشة ! . لقد أثبت إنكلترا الدول المشتركة في عصبة الأمم على عاهل « رومية » وحشدت في البحر الأبيض المتوسط وعلى حدود مصر من القوات ما يُنذر بالحرب بين عشية وضحاها ؛ حرب يكون البحر الأحمر وطريق الحجاز فيه بعض مبادئها . فإذا أنا سافرت ثم وقعت الحرب فكيف لي أن أعود إلى وطني وأهلي وأبنائي ! .

مرّ ذلك كله في خاطري فزاد في ترددي . ولقد حاولت الاطمئنان إلى رأى فيه بسؤال أصحابي الذين زاروا الحجاز عن نوع العيش هناك ، وبسؤال المشتغلين مثلي بالسياسة عما يتوقعونه من أثر الخلاف بين إيطاليا وإنكلترا . على أنى لم أتجاوز السؤال إلى ما قد يفهم منه عزمي على السفر . فلو أنهم فهموا منى ذلك العزم لأقدمت وسافرت غير عابئ بالنتائج . ذلك مزاجي ؛ ولعله مزاج من يغلب عليهم الحياء في اتصالمهم بالناس . يجازفون مخافة أن يقال خافوا ! ولم أتلق من أصحابي بادئ الرأي جواباً مطمئن إليه . فبينما كان قوم يهودون على أمر العيش بالحجاز كان آخرون يصفون لي من عُسره وشدته ما يَطير معه اللب شعاعاً . ولقد أوجب بعض الأطباء أن يأخذ المسافر معه من صناديق المياه المعدنية ما يكفيه اتقاء تلوث مياه الحجاز ، ورأى آخرون

أن يحمل المسافر معه كل ما قد يحتاج إليه من طعام وشراب .  
لم يكن الأمر على هذا التصوير سفيراً إلى بلاد قريية يذهب الإنسان إليها  
ويقضى مناسكه بها ويعود منها في أسبوعين أو نحوهما . فالعُدة للطواف حول  
الأرض أو السفر إلى القُطْب لا تزيد على ما يذكر . أيةُ عزيمة لا تتضعع  
إزاء هذه المخاوف ولا تردّ صاحبها عن عزمه ؟ !

صحيح أن أكثر الذين زاروا الحجاز وحجوا البيت وزاروا المدينة هَوَّنوا  
على الأمر وجعلوه في صورة من اليسر لا يبقى معها موضع للتردد . بل أضاف  
بعضهم أن هذه الرحلة جميلة محببة تثير في نفس المثقف من الإحساس والصور  
الشعرية والفنية السامية ما لا تثيره الرحلات إلى المصايف أو بلاد الآثار في مصر  
والغرب . لكن كلام هؤلاء المشجعين لم يمحُ من نفسى أثر كلام المحذرين ؛ فقد  
تصورتهم متأثرين بعاطفتهم الدينية أكثر منهم بالواقع ، وأنهم يخشون إن  
ذكروا المشقة ، أو ذكروا نقص أسباب الراحة والصحة بالحجاز ، أن ينقص  
أجرهم عن حجهم وعمرتهم . ولولا أن منهم علماء ومثقفين لما بلغت أخبارهم  
من نفسى أن تغالب أخبار المحذرين وأن تجعلنى أديم التفكير في أمر السفر .

وكان الخوف من الحرب وخطر الطريق أبلغ في نفسى أثراً . ولم يقنعنى  
مَن سألتهم رأيهم في الأمر بما يزيل هذا الأثر من نفسى . فبينما كان بعضهم  
ينبئ احتمال الحرب بين إنكلترا وإيطاليا قبل أن تتضعع قوات إيطاليا في  
الحبشة ، كان آخرون يؤكدون اقتراب الحرب ويكادون يضربون لوقوعها  
موعداً . وكان من بين الذين استشرت مَن اعتزم الحج منذ العام الماضى . فلما  
استنجزتهم عزمهم اعتذروا بما طرأ من أحوال قد تجرّ إلى حرب تشترك مصر  
فيها ، وتكون الأراضى المصرية أو المياه المصرية ميدانها ، ويتعرض أبناء  
مصر وتعرض ثروتها من جرائها لما تجرّه الحرب وراءها من الدمار والهلاك .  
ولذا الاحتمال ثارت مصر تطلب إلى إنكلترا أن تعقد معها معاهدة مودة  
وتحالف كانا قد انتهيا من قبل إلى نصوصها . وأجابت إنكلترا بعد لأمى أنها  
على استعداد للمحادثة من جديد على ضوء ما سمته الأحوال المتغيرة للشؤون



الحربية الحديثة . وقبلت مصر عرض إنكلترا وجعلت تعدّ العُدّة للمحادثات  
فالمفاوضات . وبهذه المفاوضات اعتذر بعض الذين نذروا السفر إلى الحجاز من  
قبل ، وحاولوا أن يُلَقوا في رُوعي أن السفر في مثل هذه الأحوال يعتبر تنحيًا  
عن أداء ما للوطن من حق على أبنائه . وربما كان موقف مصر من هذه  
المفاوضات أدعى إلى إرجائي السفر من موقفها سنة ١٩٣٠ ، حين اعتذرت عن  
تلبية الدعوة إلى حفلات التتويج لابن السعود .

فكرت في هذه الأمور مليًا ، على أن استشارتي أصحابي جعلت غير  
واحد منهم يسألني : أمسافر أنت حقًا لتؤدي فريضة الحج ؟ ! . وكان جوابي  
منذ ألقى هذا السؤال على لأول مرة : إن شاء الله . ومع أن مشيئة الله يتعلق  
بها إرجاء السفر كما يتعلق بها السفر ، فقد كنت أحس كلما قلت هذه الكلمة  
كأن دافعًا أقوى من تفكيري يدفعني إلى عدم الإرجاء ، وإن أمسكني  
ما قدمت من الاعتراضات في دائرة ترددي . وتركت الأمر معلقًا بمشيئة الله  
وإن لم يمنعني ذلك عن ذكره وتفصيل الحديث فيه كأنه أمر لا محالة واقع .

ومن عجب أني رأيت بعض أصدقائي يزداد حرصًا على صدى عن السفر  
كلما رآني أشد إقبالًا عليه . وكان بعضهم يلتمس من أسباب الإرجاء ما يراه  
مقنعًا . قال أحدهم : إن تيسير المواصلات لأداء فريضة الحج يطرد سراعًا ،  
فخير لمثلك أن يرجئ أداءها حتى تكون غير مرهقة إياه . أما إن كان مقصدك  
في السفر استيفاء البحث في سيرة محمد وعصره فالخير أن تذهب في غير أشهر  
الحج . فالبحث التاريخي والعلمي بحاجة إلى الهدوء والطمأنينة ليؤتي ثمره .  
ومكة في غير أشهر الحج هادئة ، يعاون سكونها على البحث من غير عناء بحثًا  
أعوَدَ بالفائدة وأدنى إلى الدقة العلمية . فلا تغامر الآن حتى تطمئن إلى سلامة  
البحر الأحمر ، وحتى تنتهي مصر من مفاوضاتها إلى موقف حاسم في أمر  
الاتفاق مع إنكلترا .

على أنني لم أعدم تشجيع قوم استهانوا بمشقة السفر وبخطر الحرب وأكبروا  
عزى واستحثوني على تنفيذه . قال أحدهم : إنك ستري في الأماكن الإسلامية

المقدسة تاريخياً يمكن الثبوت منه والقطع بصحة وقائمه ؛ وذلك على خلاف تاريخ المسيحية في فلسطين ، حيث تحجب الأساطير كل ما يمكن أن نسميه تاريخاً بالمعنى العلمى . وقال آخر : إذا كانت المفاوضات المصرية الإنكليزية هى التى تدعوك إلى البقاء فأنا الكفيل بأن تسافر وتؤدى فريضة الحج وتحقق ما تشاء تحقيقه ولمّا تقطع المفاوضات مرحلتها الأولى . وقال ثالث : هب الحرب شبت وتعرضت الملاحة فى البحر الأحمر للخطر ، ففى مقدورك أن تعود بالسيارة من طريق سيناء . ولن تَسْهِنَ مصلحة الحدود المصرية عليك بالمعونة كى تعود . ولو أن ذلك حدث لكان لك فيه من الحظ أن ترى من الأماكن المقدسة المتصلة بسيرة النبي العربى ما لا تيسر لك رؤيته إذا عدت بالبحر والبحر آمن .

وأفضيت إلى زوجى بذات نفسى ، فكانت أكبر مشجع لى على السفر . قالت : إنك تفكر فى الحج وفى السفر إلى الحجاز منذ عام أو أكثر من عام . فسافر على بركة الله وتوكل عليه ما دمت قد عزمت ، وسترى فى الحجاز لوناً جديداً من الحياة يريح مرآه الأعصاب وتطمئن له النفس . وقد شغلت نفسك حتى انتهاء مقامنا فى الصيف بالشام بالدرس والبحث ، فروح عن نفسك بهذا السفر منهما .

كان حديث زوجى وتشجيع أصدقائى حريصين بالقضاء على كل أثر للتردد فى نفسى . لكنى ظلت أفكر فى العقبات وتذليلها ، جاهداً لتغليب جانب العزم على جانب الإرجاء . وإننى ذات ليلة لَسْخَلِ " بالأمر أقبه على وجوهه وأستخير الله فيه ، إذ سمعت حديثاً كأنه الإلهام قضى على ترددى قضاء مبرماً ؛ فقد عدت إلى دارى بعد انقضاء عملى الصحفى منتصف الليل وجلست إلى جانب أداة « الراديو » وجعلت أدير شارتّه على محطات مختلفة حتى كانت عند « بودابست » عاصمة المجر . و « بودابست » تعزف فى مثل هذه الساعة من الليل ألحاناً موسيقية تطرب لها النفس . فما كان أشد عجبى حين سمعت الإذاعة فيها غير موسيقية ، وحين سمعتها محاضرة باللغة الإنكليزية . وكانت أول

عبارة تنفست عنها الإذاعة قول المحاضر : « وسط هذه الجموع الحاشدة حول الكعبة جعلت أسمع : الله أكبر . الله أكبر : فلما انتهيت من الطواف ذهبت أسعى بين ربوتى الصفا والمروة . . » وانطلق المحاضر يتكلم عن الحج وشعائره ومناسكه وما كان له في نفسه من أثر عميق . ولم يخامرني ريب من أول وهلة في أن المحاضر هو صاحبي الأستاذ المجري « جون جرمانوس » الذي أسلم وتسمى باسم عبد الكريم ؛ والذي جاء إلى مصر منذ عام فزارني غير مرة ، ثم ذهب من مصر إلى الحجاز ففضى بها أشهر الحج وعاد فلقيني وقص على شيتا مما مر به أثناء رحلته . فلما أتم إذاعته من « بودابست » أفضت أداة « الراديو » وقد علاني الوجوم ، وقلت في نفسي : أو يكون هذا الأستاذ الأوربي الحديث العهد بالإسلام أصدق عزمًا مني في زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة؟! وهل تراه يطبق من مشقة الحج ما لا أطيق؟! وشعرت بما في ترددى من تجديد يجب أن يتنزه عنه إيماني بالله وثقتى بنفسى . إذ ذاك نصوت عنى كل ما علق من قبل يراذلى ، ولم أر تب لحظة في أن الله قد عزم لى بهذا الحديث من « بودابست » بعد أن استخرته مخلصًا واستعنته صادقًا .

فلما اطمأن عزى وقرت إرادتى عدت ألوم نفسى على ما كان من مخاوفها . وكيف أخاف اليوم وعهدى بنفسى أعظم ثقة بالله من أن أحجم دون ما أعتقده الحق أو الخير ، أو أرجع عن أمر تعلقت به نيتى . وما البحر الأحمر واحتمال مخاوف الحرب فيه إذا قيس إلى سنة ١٩١٤ ! لقد كنت إذ ذاك محاميًا بالمنصورة ، وكنت قد عقدت العزم مع صديق لى أن نقضى بعض الصيف بלבنا . وحددنا اليوم الثانى من شهر أغسطس موعدًا لسفرنا على إحدى البواخر التي تبحر بورسعيد إلى بيروت . وبينما كنا نستقل القطار صبيحة ذلك اليوم من المنصورة إلى مرقا سفرنا طاعتنا الصحف بأن الحرب شبت بين النمسا والصرب وروسيا وفرنسا بعد أن عجزت السياسة عن تسوية حادث « سيراچيفو » بما يصفون السلم ويحقن الدماء ، وقدرت وصاحبي امتداد الحرب إلى عرض البحر الأبيض ، ودار بخاطرنا أن نقضى أسابيع رياضتنا فى بور سعيد . لكنى مالبثت حين داعبنا هذا الخاطر

أن دفعته بأن في مقدورنا أن نركب الصحراء في عودتنا من لبنان إذا خيف البحر وتعذر ركوبه . وركوب الصحراء يومئذ كان معناه امتطاء ظهور الإبل ، فلم تكن سكة الحديد قد مدت لفلسطين ، ولم يكن السفر بالسيارات مألوفاً ، وسافرنا إلى لبنان ؛ فإذا تركيا تحشد جنودها ، وإذا الأنباء تتسرى بعد أيام بأن البواخر الذاهبة إلى مصر اضطربت مواعيد سفرها . مع ذلك لم تتغير ابتسامتي للحياة وبقيت وصاحبي حتى أفلتنا باخرة جمع عليها المصطافون من مصر جميعاً فحشروا فوقها زمراً .

ها هي ذى أكثر من عشرين سنة انقضت منذ هذا الحادث وما أزال سعيداً بذكره راضياً عن إقدامى ؛ فكيف أخشى اليوم احتمال حرب في البحر الأحمر لا يزيد على أنه احتمال قريب أو بعيد ، ولم أكن أخشى يومئذ أن تمتد إلى البحر الأبيض حرب شبّ بالفعل أوارها . أو بلغ من تقدم السن بي أن أضعف عزى ! أم أن الأولاد مسجسته لي اليوم ولم تكن لي مجينة يومئذ ! أم أن إغراء الشباب بالمغامرة الرخيصة ليس في شيء من حكمة الكهولة وأاناتها في تدبرها الأمور وتقديرها ! . ليرجع ترددي من خوف الحرب في البحر الأحمر إلى أى من هذه الأسباب أو إليها جميعاً ؛ فأنا ملوم فيه . فما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله . وكل نفس ذائقة الموت كتاباً مؤجلاً . ولقد رأيت الموت بعيني غير مرة ، وهأنذا مع ذلك أضرب في الحياة وما أزال أجاهدها ؛ سقطت من أعلى دارنا بالريف في سنة ١٩٠١ ، فلو لا قدر عفا عني لكنت اليوم في جوار الله . ومرضت في سنة ١٩٢٤ مرضاً خيف منه على حياتي . وصدمتني سيارة في سنة ١٩٢٨ صدمة قضى مثلها على حياة كثيرين غيري . وانقلبت بي السيارة في سنة ١٩٣٢ فلم يؤذني انقلابها . وتصادمت ومعى أولادى في سنة ١٩٣٥ تصادمًا أزعجنا ولم ينلنا بأذى . ودون هذا وما إليه ما يودى بالحياة إذا حتم الأجل . وكم مات أقوياء أصحاب فجأة بلامرض ولا حادث . فليكن بعض إيماننا بالله أن نقبل على أداء واجبنا في الحياة مطمئنين غير هيابين ولا وجلين ؛ فإن بلغنا من أدائه ما نرجو فذلك فضل الله وحسن

تيسيره ، وذلك هو الفوز العظيم ؛ وإن اُخِرمتنا المنون أثناء قيامنا به مخلصين ،  
فذلك مجدنا في الحياة ورجاؤنا في الله . وأى مجد في الحياة كأداء ما نؤمن بأنه  
الواجب ! وأى رجاء في الله أكبر من الاستشهاد في سبيل الواجب !

ونجّلت وأنا أحاسب نفسي حين ذكرت ما تخيلت من مشقة الحياة  
بالحجاز . فما المشقة ! ثم ما قيمة عيش لا مشقة فيه ! . وأين المتاع بالحياة  
وجمالها إذا نحن قضيناها على نَسَقٍ مطّرد يشابه فيها كل يوم ما قبله ،  
لا يهزّنا فيها جديد ولا تفجؤنا فيها فجأة سارة أو ممضة ! . وكيف نروض  
أنفسنا على ما قد يمر بنا في الحياة من شدة ، وكيف نعرف الصبر في البأساء  
وفي الضراء وحين البأس ، إذا أفزعنا شبح المشقة وانخلعت قلوبنا هلعاً لتصورها!  
أو لسننا نقبل عن طواعية واختيار على فنون من الرياضة فيها من الجهد والمشقة  
ما لا يقاس إليه كل ما في بلاد العرب مما نتصوره من جهد ومشقة ! ؟  
أو لا يتسلق جماعة منا جبال الألب بسويسرا معرضين أنفسهم لقسوة الزمهرير  
في قُنسِنها ولأخطار السقوط أثناء تسلقهم إياها ! بل إننا لنحمل أنفسنا أحياناً  
على ألوان من الرياضة أشد إجهاداً للقوى وأشدّ تعريضاً للخطر من تسلق  
الألب ، ومتاعنا بهذه الألوان من الرياضة خير ما يلدّنا من أيام حياتنا ،  
حتى لنجد في ذكره من العذوبة ما يجعل العود إليه حلواً سائغاً . وإني لأذكر  
من مخاطر الصبا ومن جولاته بأوربا وغير أوربا أياماً قضيتها في مثل نسك  
الزاهد وخشونة صومعته ، فأجد لهذه الذكرى لذة ونشوة لا يشبهها في شيء ذكر  
أيام الدعة والنعيم ، وأستعيد بها صورة مَشاهد في الطبيعة مما خلق الله أو نظم  
الإنسان قل لمن لم يعرف الخشونة أن يشهد مثلها . فإلى لا أغتبط لما عسى  
أن يكون بالحجاز من مشقة أُناب عنها بما أستمتع به بعدها من جمال ذكرياتها  
العذاب ! ؟ وهل الحياة بنعيمها وبؤسها إلا ذكرى ! . ومالى لا أسارع إلى  
طلب هذه المشقة أستعيد بها ما عرفت في ماضى حياتي من شئون العيش ،  
وقد كان التقشف خير أستاذ يدرك مريدوه مغزى هذه الكلمة القوية العميقة :  
« إخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » .

نضوت إذن ترددي ، ولم أرتب لحظة في أن الله عزم لي بمحدث «بودابست» . وعمدت منذ الغداة أستشير السابقين إلى الحج من أهلي وأصحابي في أهبة سفرى . وهون بعضهم الأمر ، وهوله آخرون . هونه الشيوخ والذين ينعمون بالضراء ابتغاء مغفرة الله لمن حج بيته . وهوله من ليسوا أقل إيماناً وإن كانوا أشد على طمأنينتهم وصحتهم حرصاً . كان من رأى هؤلاء أن المياه في موسم الحج مخوفة ، وأخوفها ماء منى ، وأن الاحتياط لقسوة البرد أثناء الإحرام يقضى بلباس خاص مع مئزريته . وسألت بعض الأطباء رأيهم في ماء الحجاز ووسيلة اتقاء تلوثه . وهون بعض الأطباء الأمر وهوله آخرون . وكان ما يلائم جو الحجاز وتقاليد العيش فيه من أمر اللبس موضع خلاف كذلك . وقدم لي صديق من الأطباء جمعة من الدواء لإسعاف المسافر ، وأكملت بما يتفق وحالى الخاصة . وانتهى بي التفكير في الاحتياط الطبي إلى الاكتفاء بهذه الجعبة تاركاً ما سواها مما نصح به الأطباء إلى موجبات الحاجة أثناء السفر . ولعله السأم لاضطراب رأى الأطباء هو الذى حملنى على هذا الاكتفاء . أما اللباس فأخذت من ألوانه كل ما نصح الناصحون به ؛ وقد شغل ما يقتضيه الإحرام وحده من عياب المتاع حيزاً عظيماً .

لست أذكر أنى ساورتنى مثل هذه الحيرة في أهبة السفر إلا صدر الشباب حين كنت مسافراً في سنة ١٩٠٩ لإتمام دراسة الحقوق بأوربا ؛ فقد صحبت منها يوماً ما عرفت من بعد أنى في غير حاجة إليه . فأما في هذه الفترة التى انقضت بين سفرى الأول إلى أوربا وسفرى الأول إلى الحجاز ، والتى تزيد على ربع قرن من الدهر ، فقد كنت أتخفف من الأهبة أثناء أسفارى ما استطعت . وما أسفت يوماً على هذا التخفف . سافرت مرات إلى أوربا ؛ وسافرت إلى لبنان والشام ، وسافرت إلى السودان ، ولم أكن في أسفارى هذه جميعاً أحمل من الثقل إلا ما أشعر بمسبب الحاجة إليه ، ثقة منى بأنى واجد ما ينقضى حيث أنزل ، وكيف لا أجده وأهله يعيشون ويجدون حاجاتهم فيه ؛ وكان حتماً على أن صنع هذا الصنيع في السفر إلى الحجاز ،

وأن أذكر أنى واجد فى كل بلد ما تقضى به حاجات العيش فيه . لكنى نسيت هذا الأمر ، وما أنسانيه إلا كثرة ما سمعت ممن استشرتهم ، ولعلى إنما طاوعتنى نفسى إلى سماع الكثير مما قالوا لقله من يسافرون لأداء فريضة الحج من الطبقات المستنيرة من المسلمين ، ولكثرة ما يقال عن الحجاز والحالة الصحية فيه . وأغلب ظنى أنى لو قمت بهذه الرحلة فى غير موسم الحج لحررت على عادتى ، ولتخففت من أهبة سفرى ما استطعت .

ونزلت على حكم الإجراءات الرسمية التى تجب على من يفرض الحج ، فقدمت بذلك طلباً إلى الحكومة ودفعت نفقات السفر ، وأسأمت نفسى للتطعيم ضد الجدري والخقن ضد الكوليرا والتيفويد ، وحددت موعد سفرى على الباخرة « كوثر » التى تبحر السويس يوم الثلاثاء ٢٥ من فبراير سنة ١٩٣٦ . من يومئذ اتجه تفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج ومناسكه ، وجعلت أصور لنفسى ما أنا ملاقيه فى ترحالى وما سأشاهده بالبلد الحرام والبلاد المقدسة . أما أصحابى الذين حاولوا من قبل أن يصرفونى عن سفرى فقد جعلوا يسألونى عن شعورى إزاء هذه الرحلة وإزاء فريضة الحج ، مشفوعاً سؤلهم بأصدق الرجاء أن أتم الفريضة والرحلة وأن أعود إليهم بخير ما يرجونه لى من صحة وعافية .

وهرع آخرون من أصدقائى ومعارفى يهتفونى بما عزمتم ، ويؤكدون لى أنه آية فضل الله على ورضاه عنى . وشكرت لهم تأكيدهم مغتبطاً به ثقة منى بإخلاصه وصدق النية فيه . وكيف ترقى إلى إخلاصه شبهة وأصحابه من أشد المسلمين تمسكاً بدينهم واطمئناناً إليه ، وأكثرهم ضليعون فى علومه وأقنون منه على ما لا يتسنى لغيرهم الوقوف عليه بعد إذ قضوا السنين الطوال فى دراسته وتمحيصه والتدقيق فى متونه وشروحه ! . وغاية ما رجوت أن يجيب الله دعاءهم فيقبل منى حسبى وعمرتى ، ويبسر لى ما قصدت إليه من سفرى .

اتجه تفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج ومناسكه ، وجعلت أصور لنفسى ما أنا ملاقيه فى هذه المناسك وما أنا مشاهده فى البلد الحرام . وسرعان أن ملأ

هذا التفكير نفسى هيبه ورهبة ؛ فقد عدت بذاكرتى إلى حِجَّةِ الوداع ،  
وتخيلت أمامى النبي العربى يؤدِّيها على رأس مائة ألف أو يزيدون ، فطأطأت  
رأسى لهذا المشهد إكباراً وإجلالاً . ما أعظم الفرق بين ما كان يومئذ وما نحن  
عليه اليوم ! . كان المسلمون يتحرقون شوقاً إلى أداء الفريضة وهم لا يعلمون  
متى كتب لهم أن يؤدّوها مع رسول الله . فلما أذن مؤذنه فى الناس بالحج  
أقبلوا إليه من كل فج وهرعوا من كل حدب ينسلون . وأقاموا بالخيام التى  
ضربت حول المدينة ينتظرون يوم الرحيل وقلوبهم فيأضاضة بالبشر وكلهم الغبطة  
والمسرّة . واستنفرهم المنادى فقام جمعهم وراء الرسول الكريم إلى ذى الحليفة  
بظاهر المدينة ، وقد امتلأت من خشية الله قلوبهم ، وقد فاضت من هيئته  
عبراتهم ، وكلهم إلى بيت الله هوى ، وفى سبيل دينه الحق اندفاعٌ ومحبة .  
ونزلوا ذا الحليفة وباتوا ليلتهم بها ؛ ثم أصبحوا فتنظفوا وأحرموا وأعلنوا إلى الله  
أنهم نسوا الدنيا فى سبيله ، وأنهم نسوا الحج إلى بيته ينتخون وجهه . وسوى  
الإحرام بينهم جميعاً فلم يبق منهم غنىٌ وفقير ولا قوىٌ وضعيف ، ولم يبق  
منهم من يفكر إلا فى رضا بارئته جل شأنه تعنو له الجباه ، ولعظمته يختر من  
فى السماوات ومن فى الأرض إلى الأذقان سجّداً . وانطلقوا من ذى الحليفة فى  
طريق مكة يفكر كل منهم فيما قدّم من عمل صالح ، وينادون جميعاً  
بصوت رجل واحد ملبين : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . لبيك لا شريك لك  
لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك » . وتجاوبت الأودية  
بصدى هذا النداء فحملته إلى بقاع البادية وإلى فسحة الصحراء . ونزل الجميع  
حين جنّ الليل ؛ فلما تبسم الفجر عن تباشير الصباح صلّوا ولبوا ثم انشروا  
وساروا يحدوهم الإيمان ويدفعهم إلى بيت الله شوق ومحبة . وظلوا فى طريقهم إلى  
مكة اثنى عشر يوماً ، إذا جنّهم الليل نزلوا ، فإذا أضاء لهم الصبح قاموا  
متوجهين بقلوبهم إلى الله مصلين ملبّين ناسين عرّض الدنيا مؤمنين بأن  
لا فضل لأحدهم على صاحبه إلا بالتقوى . فلما بلغوا مكة دخلوا المسجد الحرام  
يؤمهم محمد وطاقوا سبعمائة بالبيت العتيق ، ثم سَعَوْا سبعمائة بين الصفا والمروة .



طافوا جميعاً معاً ، وسعوا جميعاً معاً ، وهم جميعاً في إمامة محمد تسرى إليهم من قدس روحه نفحات روحية لم يعرفوا ، ولم يعرف أحد قبلهم ، ما يشابهها سموً وقوة . وأن لهم أن يرتقوا إلى عرفات ليطمئئنون حجهم ، فاتبعوا النبي إلى منى يوم التروية ثم ارتقوا الجبل معه . وأقاموا فوق عرفات في مساواة الإحرام يهلسون ويكبرون ويلبسون حتى مالت الشمس إلى المغرب . إذ ذاك استمعوا إلى خطاب النبي ، ثم أفاضوا إلى المشعر الحرام فذكروا الله عنده ، وهبطوا منى فآتموا بها المناسك ، وعادوا وقد طهر الحج قلوبهم إلى حياة جديدة بقلوب أكثر طهراً ، ونفوس أجابت داعي الحق وعاهدت الله أنه تجيبه كلمادعها .

ارتسم أمامي هذا المشهد الذي يملأ النفس رهبةً والقلب إيماناً ، ورأيت نفسي مقبلاً على مثله في ألوف اجتمعوا من أقاصي الأرض ، لا من جزيرة العرب وحدها ، للفريضة التي اجتمع إليها الأولون الذين اتبعوا محمداً من نبيِّ وأربعين وثلاثمائة وألف سنة خلت ، فازدادت نفسي لليوم القريب الذي أقف فيه هذا الموقف مهابة وإكباراً . قلت لنفسي : « هأنذا بعد أيام سأركب البحر قاصداً بيت الله حجاً . فإذا بلغت رابعاً ، ميقات الإحرام ، أحرمت وأحرم المسافرون للحج كما أحرم النبي وأصحابه ، ونادى ركب الباخرة جميعاً : لبيك اللهم لبيك ؛ وامتلات النفوس جميعاً هيبة والقلوب إيماناً . رب آية شعلة من نورك الذي أضاعت له السماوات والأرض ستشتمل هذه الباخرة في اندفاعها تمخر العباب إلى بيتك المحرم يلي ركبها كلهم دعاءك ، وتوجه قلوبهم كلها إليك صادقة القصد عامرة بالإيمان . لن تكون هذه الباخرة في تلك الساعات القدسيّة مطيّة أجسام تجرى فوق الماء ، بل قبساً من ضياء الهدى ونور الحق أفضتته على عبادك فعادوا به إليك مهلسين مكبرين مستجيبين إلى ندائك القدسي الأظهر ، باعك كل منهم نفسه مجاهداً في سبيلك ، ونسى كل منهم هذه الحياة الدنيا فانيماً في جلال جنابك ، لك الجلال جل شأنك ، وبك العون على الجهاد في سبيلك . وسأكون أنا واحداً من هؤلاء الفائزين فيك ، الصادقين في توجههم إليك ، وكلنا نلتمس غفرانك

وعفوك ، فاعفُ عنا وَاغفر لنا وارحمنا . اغفر لنا ولوالدينا ولن دخل بيتنا مؤمناً  
وللمؤمنين والمؤمنات ، واهدنا اللهم صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم  
غير المغضوب عليهم ولا الضالين» .

امتألت نفسى بهذا المشهد ، كلُّهُ الجلال والرَّهبة ، وبلغت منها مهابته أن  
لم يبق فيها موضع لشيءٍ سواه . وأجبت الذين سألوني عن شعورى نحو رحلتى  
وبينهم جماعة من غير المسلمين ، عما يخالغ نفسى مما أرى أمامى ، فرأيتهم  
تمتلئ قلوبهم منه هيبه وله إكباراً وإجلالاً . وأتى مشهد أدعى إلى المهابة  
الصادقة من هذه الصيحة المؤمنة المنبعثة من أعماق القلوب ، تنفج عنها شفاه  
عشرات الألوف من الواقفين بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة ، يُسَبِّحون داعى  
الله ، متجردين من كل زخرف الحياة ، عُرَاة الرعوس ، متشجين بمآزر  
الإحرام ، معلنين التوبة عما مضى من هتات الحياة ونخطاياها ، مُنْبِين إلى الله  
ليطهّر نفوسهم كى تعود إلى الحياة فى مثل براءة الطفولة ، لتكون من بعدُ مثال  
النزاهة والفضيلة والجهد الحق فى سبيل الله جهاداً يهون من كل صعب ويهون  
الموت بل يحلو فى سبيله .

وتعاقبت الأيام ؛ ينسخ الليلُ النهارَ ويمحو النهارُ آيةَ الليل . فلما كنا من  
موعد السفر على يومين جاء أهلى من الريف يهدون إلينا تحية الوداع ، وكلهم  
مطمئنو النفوس كبير والرجاء فى الله ، وكلهم يطلبون إلى ما طلبه قبلهم كثيرون  
غيرهم أن أقرأ لهم الفاتحة عند بيت الله وعند قبر رسوله صلى الله عليه وسلم ،  
وأن أدعو لهم الدعوات الصالحات . فلما كان الصباح الباكر من يوم الثلاثاء  
٢٥ من فبراير ١٩٣٦ ذهبنا إلى محطة « كوبرى الليمون » لنستقل قطار  
« الديزل » الذى يشق الصحراء إلى السويس . ولتَقِيَمِنَا المودِّعون بالمحطة يرجون  
لنا حجاً مبروراً وذنباً مغفوراً وسفرراً موقفاً وعوداً حميداً . وانطلق القطار يشق  
الصحراء براكبيه الذين اختاروا آخر باخرة من بواخر الحج . وبلغنا السويس ،  
وأخذنا أوراق سفرنا ، وأقلتنا السيارات إلى بورتوفيق وإلى مرسى الباخرة « كوثر » .  
وعلونا الباخرة ولما يكن الزوال قد آذن . وجعلت أطوف فى أرجائها ألتمس من

أعرف من المسافرين معي عليها . وألقيت نظري على مياه البحر الأحمر في خليج السويس ، فذهب خيالي مع الأمواج يتقلب بعضها فوق بعض ، فخلتها آتية من جدة تحيينا وتعلن إلينا أنها في انتظار تحركنا إلى مرفأ البيت الحرام ؛ وبقي خيالي مع موج البحر حتى ناداني من أصحابي جماعة جلست وإياهم ، وجعلنا نتحدث في انتظار طعام الغداء وفي انتظار سير الباخرة إلى الأرض الإسلامية المقدسة .

يا عجباً ! أى خاطر هذا الذى يجول الساعة بنفسى وأنا أسطر مشاهدى ! إن هذه البواخر تقوم بحجاج المسلمين من السويس إلى جدة لتصل بين مرفأ سيناء حيث كلم الله موسى ، وبين مرفأ مكة حيث نزل الوحي على محمد . والذين يؤمنون برسالة محمد يؤمنون بإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين من قبله لا يفرقون بين أحد منهم وهم لله مسلمون . تبارك الله ذو الجلال ! إن كل ما فى الحياة ليوحى اتصال الوجود كله فى الزمان والمكان فى وحدة هى الحجّة البالغة على وحدة بارئ الوجود جل شأنه . وسرى من مظاهر الوحدة الروحية فى سفرنا هذا وفى مهبط الوحي على محمد ما يزيد المسلمين إيماناً وثباتاً .

فلأنتظر مطمئناً ، فعمماً قليل تجرى بنا الباخرة باسم الله مجربها ومرسيها إن ربي على كل شيء قدير .

## بين المرفأين

كانت الأميرة خديجة حلیم قد فرضت الحج عامنا هذا واختارت السفر على « كوثر » آخر باخرة تدرکه . وكان برنامجها أن تغادر مكة طائرة إلى المدينة في اليوم التالي للوقوف بعرفة ، مكتفية بالفداء عن فرائض الحج ومناسكه جميعاً .

ولقد أحدث صعود حاشيتها إلى الباخرة هرجاً بين الذين سبقوهم إليها ؛ ولم أجد لهذا الهرج مسوغاً إلا في «كثرة المودعين الذين كانوا أضعاف المسافرين إلى الحج عدداً . هؤلاء أقاموا على ما طبعتهم الحياة الحاضرة في نفوسهم من تقديس ذوى الجاه والإمارة . أما الذين فرضوا الوقوف بين يدى الله بالأماكن المقدسة فقد وجب أن تبرأ نفوسهم من كل تقديس لغير الله ما دامت قد فرضت أن تبرأ من الحوبات والأوزار جميعاً .

وشغلت إدارة الباخرة بالأميرة وما تختاره من الغرف لنفسها ولن معها . فلما فرغت من ذلك أذنت للخدم في دعوة الناس للطعام . وجلس طلعت باشا حرب مدير شركة مصر للملاحة البحرية إلى مائدة تتوسط غرفة الطعام ، ودعاني إلى الجلوس معه كما دعا آخرين منهم محافظ السويس وحكمادارها الإنكليزي وربان كوثر . ودار حديث اشترك فيه الربان بالإنكليزية تارة وبالفرنسية أخرى . وما كنت لأشير إلى هذا الحديث لولا ما أصاب الباخرة ساعة وصولها إلى جدة . وتركنا الربان وما نزال على المائدة ، فذكرت لزملائى عليها أن إنكليزيتها وفرنسيته تدلان على أنه ليس إنكليزياً ولا فرنسياً . قال طلعت باشا : بل هو إيطالى . إذ ذاك توجهت إلى الحكمدار الإنكليزي وقلت مبتسماً :

— ذلك خير . فلئن أصبح البحر الأحمر ميدان حرب بين إيطاليا

وإنك لترا أثناء سفرنا لنكونن في حمايته الإيطالية .

وسارع طلعت باشا إلى التعقيب على عبارتي هذه بقوله :

— لقد دعوته منذ نشأت الأزمة الدولية الأخيرة ونبهته في حزم إلى احتمال وقوع حرب يشتبك وطنه فيها ، وسألته : ما يكون موقفه يوم ذاك ؟ فأكد لي بشرف البحار أنه يخدم بإخلاص العكتم الذي يُظل الباخرة التي يقودها كائنة ما تكون الأحوال التي تحيط به .

وأردف الحكمदार الإنكليزي بهذه العبارة العميقة المغزى :

— قد تكون الحوادث أحياناً أقوى من كل ما نُقسم به .

ونھضنا وغادرنا غرفة المائدة إلى حيث جلسنا نتحدث ونشهد تقلُّبَ الموج . وتناول حديث بعض الحاضرين زميلتنا في الحج إلى بيت الله ، الأميرة خديجة حلیم شقيقة عباس حلمي خديو مصر السابق وأرملة الأمير سعيد حلیم الصدر الأعظم في تركيا في أخريات حكم السلطان الخليفة محمد رشاد . ودار الحديث حول تصور الأمراء للحج وما يلتمسون أثناءه من مغفرة الله لهم . وإنا لفي هذا الحديث إذ أقبل علينا الأمير محمد عبد المنعم ابن الخديو عباس حلمي وولى عهد مصر السابق ، وكان قد جاء يودِّع عمته بالسويس . وانتقل الحديث لمحبيته إلى موضوعات أخرى كان من بينها فلم « وداد » السينائي الذي أخرجته المغنسية أم كلثوم في شركة مصر للتمثيل والسينما ؛ وكان مدير هذه الشركة في مجلسنا ، وكان حريصاً على أن يسمع رأى الناس في هذا الفيلم قال الأمير عبد المنعم :

— إنما لاحظ على هذا الشريط صورة المسجد فيه والنداء للأذان به .

ولاحظ الأمير صمت الحاضرين وعدم إبدائهم الموافقة على ملاحظته فقال : — صحيح أن المناسبة التي ألقى فيها الأذان من فوق مثذنة المسجد حسنة جداً ؛ فقد كان الناس يختصمون ، فلما سمعوا الأذان انصرفوا عن الخصومة وولّوا وجوههم شطر بيت الله . لكن السينما تنتقل من بلد إلى بلد . ولا عجب أن يعرض هذا الشريط في أوروبا . والغريون يستهزئون حين يسمعون الأذان

وحين يسمعون القرآن . ومن الواجب علينا ألا نعرض ما نقده إلى استهزاء الغير به .

ودار حول رأى الأمير حواراً دل على أن كثرة الحاضرين لا تؤيده وإن اختلطت عبارات هذا الحوار بكثير من ألفاظ التبجيل والاحترام . وتنقل الحديث من بعد في مسائل شتى تركنا الأمير على أثرها ليقم سوية مع عمته قبل سفرها . ولعله تركنا غير راض عن الذين خالفوا رأيه عن الأذان فى السينما .

ولم أشترك فى حوار الذين حاوروا الأمير ، ولم أرد أن أذكر ما ورد فى القرآن عن الذين يستهزئون حين يسمعون كلام الله وأن الله يستهزئ بهم ويردهم فى طغيانهم يعمهون ؛ فما كنت لأثير جدلاً حول أمر يتصل بعقيدة صاحبه ، وليس من اليسير أن يصرفه الجدل عن رأيه أو يحمله على المصارحة بالعدول عن عقيدته فيه .

على أنى لم أعجب لهذا الرأى من شاب نشأ فى أسرة مالكة ، وكان يوماً ولى العهد لعرش دولة لها مكانتها فى العالم الإسلامى كله . فهؤلاء بيالغون فى الحرص على تقديس ما يعتقدونه مقدساً ليبالغ غيرهم فى تقديس الدين وما يصدر عنه . وهم لا يؤمنون كما يؤمن أبناء الشعب بصوت الشعب وأنه من صوت الله ، وإنما يؤمنون بصوت الملك وأنه من صوت الله . فإذا حجوا ليستغفروا أو يطهروا ، كفاهم أن يرتقوا إلى عرفات ولهم فى سعة ما لهم من أسباب الفدية ما يحسبون أنهم يفتدون به كل الأوزار والخطايا . وإن منهم من لا يرضى أن يحرم يوم عرفة لأنه لا يؤمن بالمساواة ، فهو يريد أن يفتدى منها كأنما يفتدى من عذاب يوم عظيم .

وإنما عجبت أن لم يذكر أحد من الذين جادلوا رأى الأمير ما سمعته غير مرة من أن الأذان بصوت حسن كان مما حمل كثيرين من غير المسلمين على أن يدينوا بالإسلام . ولقد عرف هذه الحقيقة من أقاموا من قبل فى تركيا حين كانت تختلط فى عاصمتها زُمر الأمم المختلفة الأديان . والحق أن كلمات الأذان البسيطة العذبة جدية حين ترتل ترتيلاً يؤدى معناها بكل قوته

أن تنفذ إلى أشد النفوس صلابة وأشد النفوس استكباراً . وهل أقوى من قولك  
الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله حي على الصلاة حي على الفلاح الله أكبر  
لا إله إلا الله ! .

وغير المسلمين يسمعون إلى آى الذكر الحكيم حين يقصد من ترتيله إلى  
حسن فهمه بإجلال وإكبار كإجلال المسلمين وإكبارهم . فلا عجب أن  
يحرص المسلمون على أن يذاع القرآن ويذاع الأذان بكل وسائل الإذاعة .  
ولا عجب أن يحتج المسلمون من أقطار الأرض كافة حين يسمعون أن محطة  
الإذاعة في مصر ستعدل عن إذاعة القرآن أو تقلل من تلاوته .

وآن لكثير أن تتحرك ، فتركها المودعون بعد أن ألقوا على المسافرين  
كلمات الأمل الطيب وحسن الرجاء في حج مقبول وعود حميد . وانتقل  
المسافرون إلى ناحية الشاطئ يحيون مودعيهم التحية الأخيرة قبل السفر ، فإذا  
جمع من ألوف الناس على رصيف المرسى لم يلبثوا حين سمعوا الموسيقى تصدح  
أن تعال في الجو هتافهم للإسلام وللحج وللوطن هتافاً حاراً صادراً من حبات  
القلوب ومن أعماق الأفئدة . ما أبلغ أثر هذا المنظر في النفس ! . فهذى الألوف  
الذين جاءوا لتحية المسافرين إلى بيت الله لا يعرف أكثرهم أحداً من هؤلاء  
المسافرين ، وإنما جاءوا يودعون إخوانهم في الدين بقلوب عامرة بالله والوطن .  
لقد كانت مشاعري تهتز أيما اهتزاز كلما علا نداء هذه الجماهير في الجو .  
فهذه أمة تلتمس التوجيه الصالح إلى حياة تريدها حياة مجد وعظمة ،  
وتلتمس هذا التوجيه بصدق وإخلاص ، وتلتمس في كل مظهر من مظاهر  
الحياة المصرية ، يملؤها الأمل من اقتراب هذا اليوم الذى يفتح فيه باب  
الرجاء فتندفع إليه متفانية في سبيله ، كلها التضحية للعقيدة ، وكلها التضحية  
للوطن .

وتحركت الباهرة ، فعدت إلى ناحيتها الأخرى أشهد أمواج خليج  
السويس المصرى ، وأشهد من ورائها مخازن شركة البترول الإنكليزية القائمة في  
الأراضى المصرية ، وأعود بتفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج وإلى ألوف المسلمين

الذين يؤدون هذه الفريضة في كل عام لأنهم يستطيعون إليها سبيلا .

وشُغِلت بخليج السويس ومياهه وأمواجه حتى انحدرت الشمس إلى مغيبها . ولما تناولنا طعام العشاء أسرعنا إلى نخدعي ، على أجد في النوم ما يعوضني عن مجهود نهاري ، وبعض ما يعوضني عن مجهود الأيام التي سبقت .

واستيقظت مع الصبح واستنشقت هواء البحر ، ما أرقه وأعذبه وأصبحه ! . وشكرت لله أنعمه وأنا في خلوتي المبكرة فوق سطح الباخرة أشهد شواطئ خليج السويس التي لم تزل قريبة منا . فلما آن ليقظة النهار أن تجمع أصحابي معي كي نتبادل من الحديث أطرافه ألفتني في رفقة لم ألفت منها أحداً فيما سبق من أسفاري ، وإن يكن منهم من سافر من قبل إلى أمريكا وأوربا ، وإن يكن منهم من يقيم في باريس أكثر وقته . قال صاحبنا هذا :

— أولاً تُعجبكم هذه السكنية التي غمرتنا على البحر منذ غادرنا السويس ! ولو أن « كوثر » كانت مسافرة في رحلة الصيف إلى أوربا لسمعنا الموسيقى على العشاء ، ولشهدنا فلماً من أفلام السينما المسلمية إن لم تحرك الموسيقى شجن ذوى الشجن إلى الرقص . أما وهي مسافرة إلى بيت الله بالذين يريدون وجهه فقد نسيت ما ألفت من ألوان المسرة الساخرة واتشحت برداء من الحكمة هو وحده الجدير بوجهتنا . ولست أخفي عليكم أنني ابتسمت مساء أمس حين ذكرت ما كان على الباخرة التي أقلتني من أوربا منذ أسابيع من مرح شد ما كنا نستطيعه . واشتد بي الشوق أن أسمع إذاعة من مصر على الأقل أتداوى بها من ملال السفر على الماء . فلما جئتني الليل واشتملت الباخرة سكينة ولم أسمع إذاعة ولا موسيقى ، تداويت عن طمأنينة العاطفة بطمأنينة القلب ، وادكرت ما أنا مقبل عليه ، فطابت إلى سكينه القلب نفسي ، وجعلت من ذكر الله وتلبية دعائه أنيسي ، وتذكرت أن الأقلين من أوتوا مثل حظي فداولوا في أسابيع بين النهل من ورد باريس وعلمها ومسارحها ومتاحفها ومجتمعاتها الحافلة بأسباب الأُنس ، وورد المنهل العذب للحياة الروحية بمكة عند بيت الله الحرام وبالمدينة



مشوى قبر رسوله عليه السلام .

وبهت بعض الحضور لهذا القول فتبادلوا النظرات بينهم هنيهة خيم أثناءها الصمت ، ثم قال أحدهم موجهًا الكلام إلينا جميعًا :

— إئذنا لى أن أقدم لكم كتيباً جمعت فيه مناسك الحج وأركانها لعل لكم فى تلاوته بعض ما ينفعكم فيما أنتم مقبلون عليه .

وأخرج من جيب قفطانة عدة كتب صغيرة وزعها علينا جميعًا . عرفت إذ أجلت النظر فيها أنها تلخص مناسك الحج على المذاهب الأربعة . ولم ينجه هذا التلطف من أن يوجه إليه أحد الحاضرين بعد أن استوى الكتيب فى يده قوله :

— وهل ترك مطوفو مكة لأحد فى الحج قولاً ! إنهم ليوجهوننا فى كل دقيقة وجليلة من شؤون حجنا وإن استوى لأحدنا من العلم بهذه الفريضة ومناسكها ما لا علم بعده .

قال صاحب الكتيب :

— الذنب على الحاج لا على المطوف . فلو أنه عرف فروض الحج وواجباته وسنته لما كان لمطوف عليه ما تذكر من سلطان .

ومرّ بنا الخادم فطلبنا إليه قهوة ما كان أشهاها والباخرة تجرى بنا فوق لُجّ صاف ونسيم رقيق منعش . وأقمنا نتحدث أن لم نجد غير الحديث ما يسلىنا فى هذا السفر . فلما نودى لصلاة الظهر قبيل موعد الطعام ذهبت مع القوم إلى حيث يؤمهم فقيه منهم فى صلاة الجماعة . وعجبت حين رأيتهم يتخطون بهوً الدرجة الأولى ؛ فليس وراء هذا البهو فى كوثر إلا « البار » ، ولم يدر بخلقى يوماً ما أن يكون بار من البارات مسجداً . لكن عجبى لم يمنعنى من مشاركة القوم حين رأيتهم اتخذوا من بار كوثر مصلى ! وما لهم ألا يتخذوه وقد طُهر أثناء رحلة الحج من أمهات الكبائر وأمهات الصغائر وفرش بالحصير الطاهر ! وكان هذا المصلى أبلغ آية على أن العمل الصالح يخلع قدسيته على كل مكان يحلّ فيه ، وإن شهد هذا المكان قبل ذلك من الوزر ومن اللهو

ما يجعله إذ يشهدهما مثابة لهو ومهد متاع .

وتناول المسافرون طعام الغداء ، وقال منهم من اعتاد أن يقبل ، وأدّوا فريضة العصر في مصلاهم ثم انتظموا جماعات يتحدثون . وجلس في جماعتنا شاب عرف الحجاز ونجداً وقضى بهما سنوات اتصل أثناءها بابن السعود ورجال حكومته . وكان يرتدى « جلابية » من السكروته وعباءة من صوف دقيق شف لدقته عما وراه ، وقد طرّز ما حول العنق والصدّار منها بالقصب ، وتدلّت من حاشية الصدّار « كراريت » مكسوّة بالقصب كذلك . وسأله أحد الحاضرين عن هذه العباءة ، فقال : إنها لباس أهل الحجاز الرسمى كالجلابية سواء ، أما غطاء الرأس عندهم فالطرحة والعقال ، وحذاؤهم النعال . وهم يسمون العباءة « المشلح » . وسئل عما يقصونه عن النجديين وشدة تعصبهم للذهبهم فقال :

— كان ذلك أول فتحهم الحجاز وانحدارهم من نجد إليه . فقد دُفِعوا يومئذ إلى الغزو والفتح عقاباً للأشراف أصحاب الحكم في الحجاز على استهانتهم بدين الله وارتكابهم المعاصي ، وقيل لهم إن أهل الحجاز قد أقاموا من القباب أوثاناً فهم على عبادتها عاكفون . لذلك كانوا يحطمون القباب أينما ثَفَفوها ، كما كان المسلمون الأولون يحطمون الأصنام ، وكانوا يبالغون فيما يسمونه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى كانوا يعتدون على المدخنين وعلى غير المتّحين . أما اليوم فقد استقرت الأمور إلى نصاب وسط تواضع عليه القوم ، وكان للحجاج من البلاد الإسلامية المختلفة أثر بالغ في تقريره . وما أحسب مسلماً يرى هذا النصاب الوسط اليوم عنثاً . فالإخوان « النجديون » حريصون على أن يسيروا حيث وكّوا الأمر على حكم كتاب الله وسنة رسوله . لذلك يُجزى كل من جتَهَرَ بمعصية بالحد الشرعى ، بذلك اختنى ما كان بادياً قبل توليهم أمر الحجاز من استهتار ومجون ؛ فلم يبق من يعاقر جهرة الحمرا ، أو يغازل جهرة غلاماً . وتطبيق الحدود على الجرائم هو الذى أقرّ الأمر في

نصابه ، حتى صار الحجاز يفاخر بحق أكثر الأمم طمأنينة وأمنًا . والفضل في هذا النصاب الوسط يرجع إلى ما بدأوا به من شدة وتزمت .

« وإنما أدّى بالحكومة الحجازية إلى العدول عن بعض ما كان أهل نجد يشتدون فيه كشدتهم في إرخاء اللحية وقص الشارب وعدم التدخين وما إلى ذلك مما يبيحه غير المذهب الحنبلي من المذاهب الإسلامية ، ما حدث غير مرة من أهل نجد وأهل المذاهب الأخرى من المسلمين أثناء أشهر الحج مما كان له أثره في الحج وفي الحالة الاقتصادية في البلاد . ولو ذكرتم أن التسامح في مسألة التدخين يرجع في كثير إلى تأثير إيراد المكوس ( الجمارك ) الحجازية بسبب منعه لعلمتم ما للحالة الاقتصادية من أثر كبير في العقائد والعادات » .

بيننا كنا نستمع لصاحبنا يتحدث عن الحجاز وما صنع به أهل نجد ، مر بنا جماعة ليسوا مصريين لبسوا لباس الإحرام . وإذا كان بيننا وبين ميقات الحج برايع يوم كامل فقد فسّر أحد الحاضرين سبقهم إلى الإحرام بأنه تعجل لمغفرة الله واستزادة من ثوابه .

وأوينا بعد العشاء إلى مضاجعنا ، فلما أصبحنا كنا على ساعات من ميقات رابع وعلى ساعات كذلك من إعلان النية بالحج والعمرة والإحرام بهما . لذلك لم يكن للمسافرين جميعاً طيلة الصباح حديث غير حديث الإحرام . بعد هذه الساعات إذن يتطهر المسافرون جميعاً ويصلون بنية الحج والعمرة ويحرمون ، وبعدها يكررون التلاوة لقوله تعالى : « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعَاوِمَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » . ثم نلتقي جميعاً على سطح الباخرة وقد تغير لباسنا وتغيرت تحيّننا وتغير حديثنا جميعاً : نلبس غير المَسْخِيط ، ونحني بالتلبية ، وننسى من شؤون الحياة كل شيء سوى الحج ومناسكه . بالرّهبة الموقف وروعة جلاله ! . يجب أن ننسى كل شيء إلا أننا جند الله لَسَبِّنا دعاءه ، ويجب أن يكون كلامنا طاهراً وقلوبنا طاهرة وأعمالنا طاهرة ، وأن يكون كل وجودنا خالصاً لله وحده ، خالصاً إخلاص صدق لا تشوبه شائبة ولا ترقى إليه ريبة من أوهام

هذه الحياة الدنيا . أى سمو بالنفس كهذا سمو وأية مرقاة هذه المرقاة التي نروض أنفسنا على الارتفاع بها لإدراك هذه الغاية ! ما أبلغ هذه الحكمة الأولى من حكم الحج ! وما أعظم هذه الرياضة الروحية للنفس رياضة تبلغ بالإنسان إلى عليا درجات الإنسانية ؛ إلى الدرجة التي يقرب عندها من الأنبياء والصدّيقين والأولياء المقربين ، والتي تطوّع له أن يفنى حقاً في جلال الله ذى الجلال والإكرام ، لئىقوى بهذا الفناء ضعف نفسه ، وتزول بهذه القربى كل عوارض أهوائه . لقد تضاعفت هيبة هذه الصورة في نفسى منذ أحسستها قريبة كل القرب منى ، فامتلاً قلبي بجلالها أضعاف ما امتلاً من قبل حين كنت أصورها لنفسى قبيل السفر .

وتناولنا طعام الغداء ، وأويت إلى مخدعى وأوى الآخرون إلى مخادعهم وإلى غرف الاستحمام نتهياً كلنا للإحرام . ودلقت محروماً إلى بهو الباخرة أتى به هواء البحر ، فإذا من بالبهو جميعاً محرمون . وألقيت عليهم السلام فكان جوابهم أن تنادوا وأنا معهم : لبيك اللهم لبيك . . . هأنذا الآن تنطق شفاهى وأسمع بأذنى ما كان يتصوره ذهنى . وهأنذا يخفق فؤادى لهذا النداء نجيب به داعى الله صادراً من قلوب ملئت بالله إيماناً . ويقبل علينا قادم محرم فتعلو بالتلبية أصواتنا جميعاً فى شىء من الترتيل لا يذهب بمعناها وينتظم نعمها . فإذا انقضت فترة لم نشغلها بالتلبية تحدث الحاضرون فى الحج أو قص أحدهم طرفاً من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام . فلما آن للشمس أن تغيب قام فقيه فنادى مؤذناً بصوت جهورى سمعه أهل الباخرة أو أكثرهم ، ثم أمّ المكان الذى اتخذناه مصلى فنادى فيه للصلاة . وسرعان ما انتظمت الصفوف . ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين نظموا صفوفهم ، بل نظمت السيدات صفوفهن من خلف الرجال وقمن معهم بصلاة الجماعة فى خشوع وإناة ، واستغفرن بعد الصلاة كما استغفروا وطلبن عفو الله كما طلبوه . وخرجت من البهو إلى سطح الباخرة أجتلى فى مؤليات النهار تقلب الموج وألتمس أشعة القمر الناصع ما تزال متألقة فوقه . وإنى لأسير إذ لاقيت رفيقاً يمشى الهوينى

فشيئت معه . ولم يكن رقيق يخفى من آرائه حرصه على حجاب المرأة وعدم اتصالها بغير ذى رَحِيمٍ مَحْرُومٍ من الرجال ، ولا يخفى اعتقاده أن في التقاء الجنسين ، وإن في مجمع حافل ، محرّضاً على الفساد . ولكنه إذ رأى هذا الاجتماع للصلاة يحضره الرجال والنساء في طُهر وإِنابة لم يلبث حين سرت معه أن قال :

— أَرَأَيْتَ هذا الاجتماع الذى ضمّ الجنتين معاً للصلاة ؟ إن طهارة القلب والقصد وسموّ الغاية كفيّلة بأن تزيل كل خوف من اختلاطهما . ولو أن أخلاقنا صلحت وغاياتنا فى الحياة سمت لما تمسك بالحجاب أحد .

وأقررت رأيه ولم أذكر له أن إقبال السيدات المصريات على الاشتراك فى صلاة الجماعة على الباخرة إنما شجّعهن عليه ما نلن فى السنوات الأخيرة من حرية طوّعت لهن الاتصال بالرجال فى تجارة الحياة ، وأنهن لو بقين كما كُنَّ رَهْنٌ خدورهن ، يراهن الرجال عورة ، ويولّين من منظر الرجال فراراً ، لما تركت إحداهن مِخْدَعَهَا ولا تناولت طعامها بالباخرة فى غرفة المائدة لا يفصل بينها وبين الرجال إلا ستار رقيق ، ولظللن حبيسات المخادع حتى يخرجن من الباخرة محمولات إلى مركباتهن ، ثم إلى مِحْفَآت الطواف والسعى .

أقبل المساء وبدأ الركب يتحدثون فى وصول الباخرة بُكْرَةَ الصبح إلى جُدَّة ، ويتسألون : أيتيح لهم الحظ فرصة النزول إلى الشاطئ والذهاب إلى مكة لإدراك صلاة الجمعة فى الحرم ، ولأداء طواف العمرة وسعيها بعد الصلاة كما يَحِلُّوا لإحرامهم لإحلال التمتع ليُحرموا بعد ذلك للحج . واشتركت وإيَّاهم فى هذا الحديث ؛ فلما خلوت إلى نفسى عجبت لهذا الإحرام الذى لا يدوم يوماً كاملاً ، والذى يتحدث أصحابه فى التحلل منه بعد سويعات من ارتدائهم إياه . فما بين رابع وجدة أقل من اثنتى عشرة ساعة فى الباخرة ، وبين جدة ومكة ساعتان أو نحوهما فى السيارة . وما بين ذلك من إجراءات النزول إلى جدة وما بعده من الطواف والسعى لا يستغرق أكثر من

أربع ساعات أو خمس . أين إذن أسوةُ المسلمين بالرسول وأصحابه في هذه الفريضة ! . إن ما بين المدينة ومكة على الإبل ليستغرق عشرة أيام أو أكثر يظل الحجيج محرمين أثناءها ملتزمين ما فرض القرآن أن لا رَفَثَ ولا فسوق ولا جدال في الحج . وهذه الأيام المتوالية لها أثرها في رياضة النفس الروحية وفي تهذيبها هذا التهذيب الرواقى السامى . وإنما فُرض الإحرام في رأي لهذا التهذيب وهذه الرياضة . ولذلك يلتزم الإنسان أثناءه آداباً في التلبية وفي التوجه لله وفي الرغبة عن أهواء الحياة الدنيا . فكيف تم هذه الحكمة بالتجرد أربعاً وعشرين ساعة لا يمتنع الإنسان خلالها إلا عن القليل من عاداته ! . إن رياضة هذا كل أمدها غير جدية بأن تترك في النفس أثراً يذكر .

وأفضيت بخاطرى هذا إلى بعض إخوانى بالباخرة ؛ فكان جواب أحدهم : الدين يُسر لا عُسْر ، والمليقات مكان لازمان . ولو أنك أحرمت من رابع ثم طرت إلى مكة في ساعة أو دونها لكنت قد أدّيت الواجب الدينى المفروض عليك . فأما الرياضة الروحية فليس الإحرام بممهد لها ، ولا التحلل بمنع منها من أرادها .

ردتني هذا الجواب إلى التفكير فيما حسبته من حكمة الإحرام ، وتساءلت :

— فإذن هذا التجرد من الخيط إذا لم تكن له حكمة تسوّغه ؟ أو يكفي أن يتساوى الناس سوية في مظهرهم وهم يعلمون ما بينهم من عظيم التفاوت ! . ولم أرد أن أمعن في هذا الحوار مخافة أن يكون الاعتراض على رأى الغير أو التفكير في قيمته جدالاً فيه ، « ولا جدال في الحج » ، وأنا جدّ حريص على رياضة نفسى هذه الرياضة السامية التى وردت في القرآن .

وأوينا إلى مضاجعنا وكلنا الشغف أن يطالعنا الصبح بشاطئ جده بعد سفر بالغ البحر أثناءه في اللطف بنا ، حتى لو ددنا لو نزل وإياه أياماً لولا شغفنا ببلوغ البيت العتيق . وتنفّس الصبح عن جو صاف ونسيم عذب ويقظة للوجود مستبشرة ضاحكة . وقمنا إلى متاعنا نُعدّه للنزول ، وأخوف ما نخافه

أن تضيق بنا السويعة الباقية عن إتمام إعداده . وأزفت الساعة السابعة صباحاً وتبدى الشاطىء بشيراً بأَم القرى . وإنا لنفكر في النزول إلى جدة وفي الرحيل منها وفي إدراك الجمعة بالحرم إذا « كوثر » تهتز هزة عنيفة وكأنما زلزلت زلزالها ؛ هزة رُجَّت منها مفاصلها جميعاً ، واضطرب لها كل وجودها . وبعد هنيهة من هذه الهزة التي لم تتسع لأى تفكير منا في أمرها وقفت الباخرة لا حراكَ بها وكأنها جسد هامد . وفي أثر وقوفها سَرَتْ إلى مخدعى من بهوها أصوات المسافرين ترتفع مرتلة : « باسم الله ، الله أكبر ، والله الحمد » فلبية في حماسة فيها إيمان وتقوى .

ما هذه الهزة العنيفة يعقبها وقوف مفاجىء ؟ ! لم يدر بخاسدى أن في الأمر ما أخشاه . وما عسى أن أخشى وهذا الشاطىء على مقربة منا قد رأيناه رأى العين ! وكل ما توهمته أن ربان الباخرة أدارها نحو الشاطىء في عنف نشأت عنه هذه الهزة ثم وقف بها انتظاراً لشرطة المرفأ ورجال الصحة به . وآية ذلك هذا الحمد لله من جانب المسافرين . وازددت انهماكاً في إعداد متاعى كَمَا أُسْبِقُ غيرى إلى الزوارق فأسبقهم إلى الشاطىء . وضغطت الجرس أبتغى فنجاناً من الشاى أتناوله قبل أن يبعثنى الوقت . فلما أجاب الخادم جرسى طلبت إليه الشاى ، وسألته عن هزة الباخرة ما كانت ؟ فأجاب :

— لقد شحطت على جزيرة من الرمل ، وعمما قريب تعود سيرتها إلى جدة .

شحطت على جزيرة من الرمل ؟ ! لم تكن الهزة المزعجة إذن لفتة من الربان فيها عنف ، بل كانت صدمة بجزيرة من جزر البحر وشعب من شعابه . الأمر أجلّ إذن من أن أقف عند متاعى وإعداده ؛ فلأذهب لأبين جليته . وتناولت الشاى دراكماً وأسرعت إلى بهو الباخرة في لباس إحرامى ، فألفيت المسافرين مجتمعين كأنهم يتداولون . وخلوت بأحدهم وسألته فقال :

— لقد اصطدنا بشعب من شعاب البحر الأحمر الناتئة بجدة ، هذه

الشعاب المعروفة للملاحين جميعاً . لذلك لا أدرى كيف دفع الربان السفينة إليه في يقظة النهار وضوء الشمس . وقد قيل لنا : إن الربان بعث رجاله

فامتحنوا موضع التصادم من قاع الباخرة واطمأنوا إلى أنه لا خطر على الباخرة ولا خطر علينا . ولست أدري ما الله صانع بنا من بعدُ ونحن في وسط البحر بين صخوره وشعابه .

واشترك معنا في الحديث زميل حاج من رجال التلغراف اللاسلكى فقال :

— لقد صعدت إلى الربان ساعة حدثت الصدمة ، لأننى أعرف في هذا المكان شعباً يدعوهم أهل جدة « شعب السامرى » وتُثبتته الحرائط الأوربية باسم « شعب سانت مارى » . ولم تدر بخاطرى ريبة منذ حدثت الهزة فى أننا اصطدمنا به . وذكرت للربان أننى من رجال اللاسلكى الرسميين . وعرضت عليه خدمتى ، فشكرنى وذكر لى أن عنده رجل اللاسلكى الذى يعمل بالباخرة وأنه لا يخشى خطراً .

وساد الباخرة صمت رهيب بعد ضجة التكبير والتهليل التى اعقبت الصدمة . فقد نسى المسافرون الإحرام والتلبية . ووقف تفكيرهم عند هذا الحادث وأثره . وكان جل تساؤلهم عن مبلغ الخطر وهل يوشك أن يدهمنا . ولم تهدأ وساوسنا بعض الشيء إلا بعد أن علمنا أن الشعب الذى ارتطمت به الباخرة شعب أملس يميل متدرجاً فى هُون إلى الارتفاع ، وأن ميله وملوسته وتدرجه طوّعت لها أن تزحف عليه وأن تستقر فوقه . ولولا ذلك لتحطمت عليه ولكننا منذ وقوع الحادث بين يدي الموت يرحم من شاء ويختار من شاء . وقال الذى نقل إلينا هذا التفصيل :

— لعلمكم علمتم أن الماء دخل من نوافذ الحجرات الواقعة عند مؤخر الباخرة واضطر رجالها إلى إقفال الأبواب الحديدية المتصلة بهذه الحجرات . ذلك أن الباخرة حينما زحفت فوق الشعب ارتفع مقدمها وانحدر المؤخر فهوت نوافذ حجرتها فحاذت الماء فتسرّب جانب منه إليها قبل أن يحكم إقفالها . ولولا أن وقفت الباخرة حيث وقفت بعد أن تقدمت فى زحفها بضعة أمتار ، لجرّها مؤخرها إلى الماء فابتلعها وابتلعنا معها .

انطلق المسافرون يعلقون على هذا الحديث كلُّ بما عنّ له . ولم يَأب



توثب الخيال على بعضهم أن يذكر أن الربان تعمّد وقوع الحادث . وكيف لا يكون تعمده في تصورهم وهو قد وقع في وضوح النهار وفي مكان يعرف كل من مارس البحر الأحمر ما به من شعاب . ولم يعدل هؤلاء عن تصورهم أن أبسط منطق للعقل يأباه ؛ فلا مصلحة للربان الإيطالي في وقوعه ، وأيسر نتائجه يؤذيه أبلغ الأذى . والعقل يأبى أن يعرض إنسان نفسه للأذى بلا فائدة ولا مقابل . لكن منطق العقل ليس المنفرد بالسلطان علينا . وكثيراً ما يغلب خيالنا منطقنا بتسلط تصورنا على حسنا . ولقد كنت أشد الناس اقتناعاً بهذا المنطق وحرصاً على إقناع المسافرين به ، مع ذلك ذكرني وقوع الحادث وخوض الناس في تفاصيله بما كان من حديثنا عن الربان في غرفة المائدة قبيل السفر وقول حكمدار السويس الإنكليزي : قد تكون الحوادث أحياناً أقوى من كل ما نُقسم به .

وعدت وعاد المحرمون إلى الخوض في الحادث وكيف وقع ؛ هذا الحادث الذي لم أحسبه أول الأمر ذا بال ، وما هو ذا يتجسم الآن خطره ويزداد جسامته رويداً رويداً في نظري ونظر المسافرين جميعاً . فلما أدركنا جسامته الخطر على حقيقتها ازدادنا شكراً لله أن وقفت الباخرة حيث هي ، يمسكها الشعب وإن مالت إلى جانبها بعض الميل . وامتألت نفوسنا بالشكر وفاض عنها ، فترجمنا عن فيضه بالإمعان في التلبية مكررة قوية صادرة من قلوب زادها تصور الخطر إخلاصاً وإيماناً ، إن صح أن تزداد قلوب قصدت إلى بيت الله ملبية نداء ربها إخلاصاً وإيماناً .

وكان رجال الباخرة الرسميون في مثل ارتباك المسافرين للحادث ، حتى لقد اختفوا عن الأنظار ، ولم يقف منهم إلى جانب المسافرين من يهون الأمر عليهم أو يبعث الطمأنينة إلى نفوسهم . ولم يعاودهم من الطمأنينة ما يذكرهم واجههم إلا بعد أربع ساعات من الحادث ، إذ ذاك أصدروا بلاغاً قيل فيه إنه لاخطر منه والحمد لله على « كوثر » وركابها ، وإن الباخرة « زمزم » الراسية بمرفأ جدة ستجىء لمعاونتها .

تلقى المسافرون هذا البلاغ بنوع من الاطمئنان لم يكن منه مفر ، وزادهم طمأنينة سكينه البحر وصفاء الجو ورقة النسيم من حولنا . والشمس ساطعة يبعث ضياؤها إلى الأفئدة دفنًا يُنعشها ويزيل كل مخاوفها أن يصيبها من غدر البحر سوء . وهل يغدر البحر بمن أتوا إلى بيت الله حاجين معتمرين ! .

وتناولنا غداءنا ولم تكن « زمزم » قد ظهرت في الأفق . ومع لطف الله في قضائه لم تطاوع أحدنا نفسه أن ينزل إلى حجرته يقبل بها ، بل بقينا نحدق إلى ناحية الأفق منتظرين الباخرة المنقذة . وقبيل الساعة الثالثة بعد الظهر ، أى بعد ثمان ساعات من الحادث ، تبدت « زمزم » مقبلة ، فشدت إليها أبصارنا وبقيت معلقة بها حتى وقفت على مقربة منا تختار مكانًا يهيئ لها القيام بالمهمة التي نُدبت لها حتى يتم انتقالنا إليها بسلام لإيصالنا إلى المرفأ . ذلك ما جاء في بلاغ رجال « كوثر » ، وهو ما دار بخاطرنا . لكننا بقينا ساعة كاملة ننتظر هذا الانتقال ثم لم نر من بوادر التهيؤ له ما يبشر به . وسألنا في ذلك فقبل لنا : إن التفكير منصرف إلى أن تسحب « زمزم » « كوثر » من مكانها إن أمكن لتدخل الباخرتان جدة معًا . فيسدل ذلك على الحادث ستاراً ينسى من علم بأمره في مصر وفي غير مصر أنه وقع .

أقرّ كثير من هذا الرأي حرصًا منهم ألا تشوب سفرة « كوثر » شائبة . وكاد هذا الرأي يسود لولا أن قال أحد الحاضرين :

— فإذا فرض أن بكوثر عيبًا يستره التحامها بالشعب ويبيديه سحبها فتعرض بسببه حياتنا للخطر ، فما عسى أن يكون الرأي ؟ . أليس الأحكم أن ننقل أولًا إلى زمزم ثم نجر زمزم كوثر ، فإن سحبتها من الشعب وعادتنا معًا إلى جدة تحقق الأثر الذي تبتغيه الشركة ولم يتعرض المسافرون لخطر ، وإلا عادت زمزم بنا إلى جدة قبل أن تضيع علينا فرصة الحج ولم يبق على الوقوف بعرفات إلا ثلاثة أيام !؟

وسمعت السيدات هذا الحديث وكن منتحيات جانب البهو المقابل للرجال .

فلما بدا لمن خوف الخطر إذا سحبت ززم كوثر ونحن بها تقابلت نظراتهن في لمح البصر ، ولم تلبث إحداهن أن اندفعت معبرة عن شعورهن جميعاً تقول :

— لن تتحرك كوثر ونحن بها . فلينقلونا أولاً إلى ززم لتكون بمأمن على ظهرها ثم ليفعلوا ما شاءوا . وإذا وجب علينا ، لأننا مصريون ، أن نحصر على نجاة كوثر وسلامتها فواجب على الشركة أن تكون أشد حرصاً على أرواحنا . كذلك قالت ، ثم حدقت بنا معشر الرجال بنظرة الأمر ، وأضافت :

— هذا رأينا ، وعليكم معشر الرجال أن تشاركووا فيه وأن يبلغ للمختصين من رجال الشركة .

ألقيت هذه الكلمة في حزم تجلت فيه كل مظاهر الإرادة الصلبة التي لا تلين ، وأيّدت السيدات قول زميلتهن في حزم كحزمها . وكان الرأي ظاهر السداد ، فلم يكن إلى التردد في تنفيذه سبيل . وأجابنا ممثل الشركة بأن الأمر استقرّ كما أردنا وأن تنفيذه يبدأ من فجر الغد ؛ فقد أرخى الليل سدوله وسادت دولة الظلام .

شهدت ثورة السيدات قبل اليوم غير مرة وفي غير بلد؛ شهدتها في إنجلترا، وفي فرنسا ، وفي مصر . لكنها كانت في هذه المرّات كلها متصلة بمطالب سياسية أو قومية ، فكانت العاطفة التي تدفع إليها تشوب قوتها رقة ويشوب عنفها فنّ يتصل بها اتصال الرقة بسجية الأنوثة . أما هذه الثورة التي بدت في أعين السيدات مذ شعرن بالخطر يهدد حياتهن وحياتهن بعولتهن أو ذويهن فلم تشبها رقة ولم يسر فيها شيء من روح الفن ، بل كانت كلها عنفاً وقوة وحزمًا وصلابة . وهذا طبيعي ؛ فالثورة القومية أو السياسية يمكن أن تنتهي إلى صلح إن لم يحقق أغراضها كان فيه شيء من حفظ الكرامة . أما ثورة من يدفع الخطر عن حياته وحياته من يعزّ من ذويه فلا صلح فيها إلا بالتسليم والنزول على إرادة هؤلاء الثائرات حفاظاً على كيانهن وكيان ذويهن . وكذلك كان .

اطمأنت النفوس إلى الانتظار في كوثر حتى الصباح . وزاد في طمأنينتها

أن بقي الجو في صفوه والنسيم في رفته ، فلم نكن نخشى عاقبة تآثر الباخرة بها وهي مائلة فوق الشعب تأثراً بالغ بعضهم أثناء النهار تقدير نتائجه . وجاء إلى كوثر فنصل مصر في جدة وطبيب القنصلية بها ورجال الحكومة العربية السعودية منتقلين من زمزم إليها مع رجال شركة مصر للملاحة . فشرعنا لوجودهم بيننا ، كي يشاركونا مصيرنا ، كأن الباخرة رست وكأننا وإياهم في أرض جُدة . وتناولوا وإيانا طعام العشاء ، واتصل بيننا وبينهم حديث فيمن سبقونا إلى موسم هذا الحج . وفي هذا الحادث ولطف الله بنا في قضائه ، وفي حسن حفظنا بوجود زمزم بجدة لتيسر انتقالنا فلا يفوتنا الحج . بهذا كله سكنت أعصابنا ، وأتيح لنا أن ننال بعض الراحة بالنوم في أمن من انزلاق الباخرة إلى قاع اللُج ، ممثلين أملاً أن ندرك مكة قبل مغيب شمس الغد .

وابتدأ انتقال المسافرين إلى زمزم في بكرة الصباح . وكان الانتقال بطيئاً لعدم التعاون بين المسئولين عن سرعة إنجازه ، ولولا اندفاع المسافرين وانتقال طائفة كبيرة منهم في زوارق النجاة لما تم طيلة اليوم ، وكمل المسافرون بززم في الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فتحركت بهن على هون حتى قاربت مرفأ جدة والنهار يولي . وبينما كان المسافرون في ابتهاجهم بقرب نزولهم إذا قرار السلطات المحلية في هذا الأمر يحيل ابتهاجهم تجنُّهم ؛ فقد خشيت هذه السلطات أن يصيب « السنايك » التي تنقل المسافرين من الباخرة إلى الشاطئ ما أصاب كوثر حين مرور هذه السنايك بين الشعب في ظلمة الليل ، فقررت مييت المسافرين بززم . ولم يستثن من هذا القرار إلا الأميرة خديجة حلیم وحاشيتها ، واستثنيت أنا منه لكوفي ضيف وزير المالية العربية الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان . فتركنا الباخرة مع رسوله إلى ونزلت ومن معي إلى « اللنش » لينقلنا إلى الشاطئ .

وانطلق « اللنش » مخلفاً وراءه زمزم ومن بها ، وإني ليتنازعت ساعة انطلاقه عاملان : عامل الأسف لمقام إخواني على الماء ليلة أخرى ، وعامل الغبطة لإدراك مكة والبيت الحرام ولقضاء العمرة طوافاً وسعيًا . ولقد تنازع

هذان العاملان نفسى مذ علمت أنى مغادر زمزم قبل إخوانى . وكان عزيزاً على أن أفرقهم أو أتقدمهم وقد قضينا سفيراً نعمت معهم فيه بخير رفقة . لكنهم رأوا الأميرة وحاشيتها يسبقونهم فشجعنى بعضهم على النزول ، وكأتما رأوا فيه مظهر مساواة بين الطوائف ، أو شبهة مساواة على الأقل .

وجرى بنا « اللنش » بين الشعاب قاصداً إلى الشاطئ والشمس وراء ظهورنا تنحدر إلى مغيبها . واتسحت اللجة الزرقاء الأديم بوشاح المغيب ، فلم نأبه لها . وقد شغلنا عنها باستعجال غايتنا . ومررنا بباخرة محطة . غرقت فى الماء فليس يبدو منها إلا أعلاها . تلك هى الباخرة الفرنسية « آسيا » التى احترقت منذ سنوات أثناء وقوعها حيث هى اليوم من غير أن تصطدم بشعب أو يصادفها غير الأجل الذى سلط ألسن النار عليها . وسرى إلينا نسيم المغيب فوق بلجة الماء فأنعشنا وأنسانا بعض وصب النهار . وتلوى الزورق فى انطلاقه متيامناً حيناً متياسراً حيناً محاذراً الشعاب مطمئناً إلى مهارة سائقه وإلى معرفته ما تحت الموج إلى قاع اللج معرفة يأمن معها الاصطدام بالسامرى أو غير السامرى من هذه الشعاب .

اقتربنا من جدة وبدت لناظرنا دورها وعماراتها ، وازدادت وضوحاً على رغم نزول الظلام ، وكان مظهرها يغرى بالظن أنها خططت تخطيطاً جميلاً وبنيت على الطراز الحديث ، وذلك الشأن فى كل ما يبدو للمقبل فى البحر من مظاهر اليابسة ، فإذا اقتحمناه كنا كالجراح إذ يقتحم بمشرطه جسداً جميلاً . وشاهد « نابولى » أو « مرسليليا » أو « بيروت » قبل أن ترسو الباخرة بها يرى جمالا أدنى إلى جمال المرأة فى ثياب زينتها . وأحسب الذين لم يعرفوا من ذلك ما عرفت قد خدعوا بمظهر جدة . وكان من حقهم أن يخدعوا بهذه المباني التى تمتد أمامهم على الشاطئ أميالا عدة فى نظام زاده البعد اتساقاً وجمالا .

وأرسى ( اللنش ) على درج صعداً منه إلى الشاطئ . ولم يثر لإحرامنا تطالع أحد ؛ إذ كان الإحرام لباس عشرات الألوف الذين يفدون إلى جدة كل عام حاجين . وتناول رسول وزير المالية جوازات سفرنا : وتخطينا بناء الجمرك فى منزل الوحي

ولا يكاد يرى الإنسان أثناءه طريقه لضآلة نور المصباح المعلقة إلى جدرانها .  
وتفضل رسول مضيفنا فأمر من تقدمنا بمصباح ذي نور أبيض . وأفضى بنا  
الجمرك إلى ميدان فسيح لولا نور القمر لتعدّر علينا أن نصل منه إلى جانب  
وقفت السيارات فيه وقد أعدت إحداها لتقلنا إلى أمّ القرى .

الله أكبر ! هاأنذا بالأراضى المقدسة ، بلاد النبي العربي محمد عليه الصلاة  
والسلام . وبعد سويعة سأكون في الطريق إلى مكة . ما أكرمك ربى وما أعظم  
رحمتك ورضاك ! . قضيت أن نحج بيتك ويسرت لنا سبيله ، فتقبل ربنا  
حجنا وعمرتنا وهي لنا من أمرنا رشداً .

## العمرة بمكة

تعطينا جمرك جدة إلى الميدان الفسيح أمامه ، ووقفنا إلى جانب سيَّاراتنا ننتظر مرور متاعنا بتفتيش الجمرك . ولم يطل انتظارنا ، بل أكاد أقول أنا لم ننتظر . فلم يكن بالجمرك ما يشغل رجاله عنا غير متاع الأميرة خديجة حلیم وحاشيتها . ولم يتناول التفتيش هذا المتاع . ولم يتناول متاعنا ؛ فتاع الأميرة لا يفتش لأنه متاع الأميرة . ومتاعنا لم يفتش لأننا ضيوف وزير المالية . . . . .  
ولعل متاع الحجاج لا يفتش بوجه عام إلا لشبهة قويّة اعتماداً على أن من جاء بيت الله حاجاً لا يذكر ما يقرره عن متاعه إلا صادقاً .

وإنما أوفد وزير المالية رسوله إلينا وكنت ضيفه لمناسبة أذكرها . فقد كنت عائداً من بيروت إلى مصر في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥ على الباخرة الإيطالية « أوزونيا » ؛ وكان وزير المالية قادماً يومئذ على هذه الباخرة من مصر إلى لبنان وتقابلنا بها حين رست بيروت ، وجاء ذكر كتابي ( حياة محمد ) ، وسألني أحد من حضروا المجلس : هل تعتمزم زيارة الحجاز؟ ولما أجبت أن ذلك بعض ما يدور بخاطري منذ أعوام ، طلب وزير المالية أن أكتب إليه متى صح عزمي على السفر . وكتبت إليه قبيل سفري ، فأوفد إلى رسوله في مياه جدة يبلغني أنني في ضيافته . وكان أول مظهر لهذه الضيافة أن أقلتنا السيارة بأمر الرسول إلى فندق جدة لتناول طعام العشاء فيه قبل ذهابنا إلى مكة . والفندق للحكومة أعدته لراحة الحجاج والمسافرين من أهل البلاد . لذلك كان التقشف في عمارته وفي أثاثه وكل ما فيه .

ولم يطل مقامنا به . فما فرغنا من طعامنا حتى نزلنا إلى السيارة نركبها إلى مكة . وكذلك كان الفندق كل ما رأيت من جدة . وانطلقت السيارة متمهلة في طرق هذا البلد حتى وقفت عند مخفر الشرطة . ونزل السائق منها في رداءه البدوي الحشن يؤشر من المخفر على ( الكوشان ) ، والكوشان جواز السفر

الحلى . فليس يجوز لأحد أن ينتقل داخل الحجاز من مدينة إلى مدينة بغير جواز خاص .

وتابعت السيارة طريقها إلى خارج جدة وإلى ما وراءها من قضاء . وكان الليل قد اشتمل هذه الأجزاء جميعاً في صمته ورقة نسيمة . وأجلت بصرى فيما حولى وجعلت أتمس بصورة بلاد العرب المرتسمة في دخيلة نفسى ، فإذا ضوء القمر يسعد الليل بلجته ويرسل تحية عذبة إلى صمت هذه الأودية قامت كئيبان الرمل عن جانبيها ، وارتفعت جبال يحجب سقف السيارة عنّا فننّها . ولم يعصمى لباس الإحرام من البرد فاتقته متلفحاً بردائى ولم ألبس مخيطاً . وكأنما انتقلت إلينا عدوى الصمت المحيط بنا فأمعنا في الصمت ، فلم تفرج شفاهنا عن ألفاظ غير ألفاظ التلبية .

وبعدت السيارة عن جدة منطلقة في البيداء وحيدة لا يسعدها أنيس . على أنا لم نلبث أن مررنا بقافلة من الجمال تسير على هون متجهة إلى حيث نتجه . وخلقناها وراعنا ، ثم أدركنا قافلة من الحمير أسرع منها سيراً . ونخطينا قافلة الحمير ، ثم إذا بنا نسمع صوتاً يقرب منا ويردد الليل صدها في خشوع وإكبار ؛ أولئك جماعة من الذين لم يجدوا دابة تحملهم فساروا على أقدامهم متوجهين إلى بيت الله بقلوبهم ، وإلى رب البيت بدعائهم : لَسْبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ . ومررنا بهؤلاء وصوتهم يدخل إلى قلوبنا بغير استئذان فيملؤها رهبة ومهابة . وكلما فتنا واحدة من هذه القوافل أدركنا أخرى ، وكلهم في إحرامهم يشتملهم ضوء القمر في لحنه فيزيد بياضهم نصوعاً . والأودية تحيط بها كئيبان الرمل وتحجبها الجبال عما وراءها ترد تلبية الملبين من أهل هذه القوافل وقد انتشحت من جلال هذا النداء المنبعث من قلوب كلها الإيمان والإذعان بما ملأها خضوعاً وإذعاناً .

كم سمعت هذه الطبيعة المحيطة بى من أصوات هذا النداء خلال مئات سنين خلعت منذ بعث الله محمداً نبياً وهادياً ورسولاً . أصوات لا يحصيها العد ولا يتناولها الحصر . وما يحدث في الطبيعة لا ينمحي أثره . إذن فقد ارتسمت



هذه الأصوات هاهنا ونقشت على سفوح هذه الجبال . ولو أن لدينا إبرة تظهرها كما تظهر إبرة « الفونوغراف » الأصوات المسجلة على أسطواناتها لسمعنا عجباً : تلبية الملايين وألوف الملايين مرتفعة إلى بارئها في إيمان يدك الجبال ويزعزع الرواسي ويخر له كل ما في الوجود ساجداً ، لأنه أسمى من كل ما في الوجود برهوت جلاله وقوة عظمته واتصاله بمالك الملك ذى الجلال والإكرام .

كانت أمّ السّلم أول محلة مررنا بها بعد جدة . وقد وقفت السيارة عند مخفر الشرطة وقدم السائق إليه ( الكوشان ) كيما يتابع سيره . ومخفر الشرطة بدوى في بنائه ، لا شيء فيه من مظاهر نظام العمارة ولا يلفت النظر منه غير بدويته الساذجة ، وليس حوله مظهر عمران إلا بعض مبان من نوعه ، وبعض عرائش من فروع الشجر اليابسة يستريح من شاء من الحجاج إلى ظلها ويجد فيها فنجاناً من الشاي الذى يقدم في كل مكان . أما القهوة فدون الشاي حظاً ، وإن كنت تجد النجدية منها إلى جانب الشاي إن أردتها .

وعاودنا سيرنا نمرّ بمثل القوافل التي مررنا بها ، فنجتازها مسرعين حيث كان الطريق صالحاً ، مبطينين كلما أمسكت الرمال عجالات السيارة فحالت بينها وبين الإسراع . وبلغ من إمساك الرمال السيارة في بعض الأحيان أن كانت تقفها عن الحركة ، وذلك حين تبتلع عجالاتها وتجعل دورانها عبثاً لا طائل وراءه . ولطالما وجدنا في هذه الحالات عوناً من رجال القوافل إذ كانوا يسارعون إلى تلبية رجائنا فيرفعون السيارة ويدفعونها لتعاود سيرها .

لم تكن هذه المعونة تقتضى أكثر الأمر غير فترة وجيزة لا يكاد سائقنا ورجال القوافل يتبادلون أثناءها حديثاً ، لكنها كانت تطول حين يغوص بطن السيارة مع العجلات في الرمل الناعم وحين يتعدّر لذلك رفع السيارة إلا بتكرير الجهد . فإذا استراح القوم هنيهة تبادلوا الحديث ترويحاً عن أنفسهم . وكان الحديث كله يدور حول الحج والقادمين له . سأل السائق أحدهم عن قافلته فأجاب أنهم من الجاوة ، وأن زميلاً له يسير بقافلة من أهل

فلسطين . أما الذين أعانونا من السائرين رجالا فقد بدا على وجه أحدهم أنه صيني ، ولم نستطع أن نعرف جنسية آخر ، لا من سحنته ، ولا من لهجة حديثه . وكذلك كانت هذه الجموع المَحْرَمَة كلها، المتوجهة كلها حاجّة بيت الله ، تجمع بين المسلمين من مختلف أقطار الأرض ممن استطاعوا إلى الحج سبيلا ، فجاءوا يحدوهم إيمان بالله تدوب دونه المتاعب وتصبح المشاق في سبيله يسراً ومثوية . ومن عليا السماوات أرسل القمر على هؤلاء السعداء بأداء الفريضة ، فما ينفكون ينادون ربّهم لبّيك لبّيك ، أشعة رطبة نديّة تهون على الدواب السير وتبعث إلى نفوس المشاة في إحرامهم أشعة أعظم منها ضياء ؛ تلك أشعة الأمل الصادق في وجه الله وفي مثوبته وغفرانه ، أمل يتردّد فيما يتبادلونه من حديث الطواف والسعي والصلاة في الحرم والشرب من ماء زمزم .

طبع هذا المنظر أعمق الأثر في نفسي . فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو في ربها الرجاء الأسمى . وهم جميعاً سواسية في اتجاههم ، سواسية في إيمانهم ، سواسية في تفكيرهم . وهم جميعاً قد نسوا كل شيء إلا هذه الغاية الروحية السامية التي تندفع نحوها جسامهم ، وتطير إليها جوانحهم ، وتزداد امتلاء بها أفئدتهم وقلوبهم ، كلما ازدادوا قرباً من مهبط الوحي ومن بيت الله ، ليس يذكر أحدهم ما له من ثروة أو جاه أو ولد وإنما يذكر أنه وهؤلاء المسافرين معه إخوة في الله ، وأنهم جميعاً قد أتوا قاصدين بيته ، ملبين داعيه ، ليشهدوه على أنفسهم ، وليطهّروا بين يديه مما قدمت أيديهم ، وليبدأوا بذلك حياة جديدة يبتغون فيها آتاهم الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ، ويحسنون كما أحسن الله إليهم ، ولا يبعثون الفساد في الأرض . لهذا جاءوا من كل فج عميق ، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شيء إلا الله ، ولهذا أحرموا آية إخالهم ومساواتهم ، إيذاناً بأن أقربهم إلى الله أتقاهم ، ومظهِراً لميلادهم الروحي الجديد ، ليتخذوا من هذا الميلاد عُدَّتْهم حياة جديدة ؛ ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم . وهم يعبرون عن هذا الشعور

بالتلبية تنفرج عنها شفاههم في حبور وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته ،  
إنه يغفر الذنوب جميعاً . لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وبلغ من عمق هذا الأثر في نفسي أن ازددت نسياناً لنفسي وفناء في الله  
وفي إخوتي هؤلاء وقد قصدنا جميعاً وجهه مخلصين له الدين حنفاء . نعم ! نحن  
جميعاً إخوة ، وأقربنا إلى الله أشدنا بهذه الأخوة شعوراً . فأنا المصريُّ أخ  
لهذا العربي ولهذا الجاويِّ ولهذا الصينيِّ وللمؤمنين جميعاً رجالاً ونساءً شباناً  
وشيباً وأطفالاً . وأنا الذي نلت حظاً من العلم أخ في الإيمان لمن نال من العلم  
أضعاف ما نلت ، أخ لمن لم ينل من العلم أي حظ ، أخ للبائس والمحروم  
إخائى للغنى وصاحب الجاه والسلطان . والبائس والمحروم من الجاه والسلطان والعلم  
أدنى إلى قلبي لأنهم أحوج إلى محبتي وإخائى . ذلك وحى هذه الساعة الفذة  
من ساعات حياتي ، والتي اتصلت فيها لأول مرة بمكان خطت فيه قدما محمد  
النبي العربي ، أكبر من دعا إلى المحبة والإخاء ، وأكبر من دعا إلى السعي  
والجهاد .

وفاض بي هذا الشعور فنندت عيني وخفق قلبي وانفجرت شفتاى عن  
آى الحمد والشكر : لَسْبَيْكَ اللهم لبيك لبيك . . . وسمعت أذناى الأودية والجبال  
والقوافل السارية بينها جميعاً يدوى فيها هذا النداء ، فازداد شعورى فيضاً ،  
وقلبي خفقاناً ، وازددت لله شكراً وبه إيماناً .

وقفت بنا السيارة عند بَحْرَة . وبجرة هي المحلة الثانية في طريق مكة .  
وهي تلفت النظر بالأضواء الكثيرة البيضاء المنتشرة فيها دلالة استعداد مقاهيها  
البدوية لاستقبال القوافل بها . ذلك أن قوافل الإبل تقطع الطريق بين جدة  
ومكة عندها تقضى ساعات الراحة بالنهار أو الليل فيها . أما السيارات فتجتازها  
كما تجتاز أم السَّلم بعد وقفة عند مخفر الشرطة يطلع رجاله أثناءها على  
(الكوشان) وقد لا يأبى بعض راكبي السيارات أن يتناولوا فنجاناً من  
الشاي بها .

آخر حجة قبل مكة الشَّمِيسِي . وكنت أعرف من قبل أن الشميسي اليوم هي الحديبية على عهد رسول الله . وكنت لذلك أرجو أن أقف عندها لأنَّ بين مواقع المسلمين الذين جاءوا حاجين فصدتهم قريش ، وكادت الحرب تنشب بينها وبينهم لولا حكمة الرسول وأمانته وجنوحه إلى السلم وحسن سياسته مما انتهى بينه وبين أهل مكة إلى عهد الحديبية وإلى إقرار قريش أن يزور المسلمون مكة معتمرين عامهم المقبل . ولكن أتى لي أن أنزل المكان والليل قد انتصف وقد هدنا الجهد وشاقنا الوصول إلى مكة ! . ولم أطلب إلى السائق أن يقف ، ولم أزد على أن سألته عما بقى بيننا وبين أمّ القرى . وظل هو في انطلاقه يسرع كلما ساعفه الطريق ، ويبطئ أو يقف إذا أبطأه غوص العجلات في الرمال أو وقفه .

وجعلت في السويعة الباقية على دخولنا مكة أرسم في ذهني صورة أمّ القرى كما عهدتها على الخرائط . لكن القمر لم يجعل أمامي الصورة التي خيلت . ولو أن الشمس كانت ساطعة لما زادت الصورة أمامي جلاء . فكيف يحيط النظر المحدود بما حوله من وهاد وجبال بكل ما هو مرسوم على الخريطة من مجموع هذه الوهاد والجبال ! . وكذلك تخطت السيارة باباً فسيحاً قيل إنه باب مكة ، ووقعت العين على مبان قيل إنها مبانيها ، فلم نجد في شيء من ذلك ما يلفت النظر إليه وإن أيقنا أننا صرنا في حدود مناسك الله .

وكان دخولنا مكة منتصف الليل . دخلناها متعبين مما مر بنا في يومنا ويوم أمس وكانت ساعتئذ متشحة برداء الليل وموليات ضوء القمر . فازدادت قداسة ومهابة . والسيارة تجري في طريق لا ينيها غير هذه البقية من ضوء ساهر السماوات . وإنا كذلك إذ نجمت أنوار كثيرة من الكهرباء لدار عند منعطف من الطريق ؛ تلك الدار بيت وزير المالية . وتخطينا هذه الأنوار إلى بقية ضوء القمر حتى كنا أمام أضواء ناصعة لمصابيح معلقة في مكان وقفت السيارة عنده ؛ ذلك مقهى من مقاهي مكة . ونادى صاحبي من السيارة : يا شيخ إبراهيم ، فجاء المطوف وصحبنا إلى بيت مضيفنا أمين العاصمة الشيخ

عباس قطان حيث كانت تسطع أنوار الكهروباء سطوعها عند بيت وزير المالية .  
كان الرجل في انتظارنا . فلما صحبنا إلى الطابق الأول من داره أبلغنا تحية  
وزير المالية وسؤاله المتكرر عنا منذ تركنا جدة . وحيء بالشاي فشربنا ؛  
وبالقهوة فتناولناها رغم انقضاء هزيع من الليل . وسألني الرجل : أأثر  
أداء شعائر العمرة لفورى أم أرجئها للصباح كما أنال بعض الراحة من  
مشقة السفر ؟ أما أنا فأثرت الأداء ولم تحمل نفسي إلى الإرجاء . ولعله الهوى إلى  
بيت الله وإلى حرمه وإلى الصفا والمروة حيث سعت هاجر المصرية سبعاً  
تلتمس الماء لابنها إسماعيل هو الذى دفعنى كى أسارع إلى أداء هذه الشعائر  
رغم الجهد والمشقة . وسالت : أ يوجد إلى إتمام الطواف والسعى فى هذه الساعة  
المتاخرة من الليل سبيل ، فقيل لى : إن الحرم مفتوح ليل نهار ، وإن الناس  
يطوفون ويسعون فى كل ساعة منهما . وخرجت فى لباس إحرامى مع المطوف  
وأقلتنا السيارة التى جاءت بنا من جدة إلى باب الحرم فى دقيقة أو نحوها .  
وما لبثت حين تخطيت الباب والمكان المسقوف من المسجد بعده حتى  
تبدت لى الكعبة قائمة وسط المسجد وقد انسدل على جدرانها لباسها الأسود  
المطرز بوشى الذهب . تبدت لى دون أن يلفتنى أحد إليها . وتبدت وكأنى  
عرفتها وطفقت بها قبل ذلك مرّات . ومالى لا أعرفها وقد رأيت كسوتها يطاف  
بها فى القاهرة منذ طفولتى ، وقد تبعت هذه الكسوة مرات عدة فى سنوات  
متعاقبة حين كانت تنقل من القلعة إلى بيت القاضى مارة بالمشهد الحسينى  
وسط الجموع التى كانت تسير مثلى وراءها فى هذا المشهد الدينى الحافل  
الرهيب !

تبدت لى الكعبة قائمة وسط المسجد ، فشدت إليها بصرى ، وطفرت نحوها  
قلبى ، ولم يجد فؤادى عنها منصرفاً . واقد شعرت لمراها بهزة تملأ كل وجودى  
وتحركت قدماى نحوها وكلى الخشوع والرهبة ، وقلت إذ وقع نظرى عليها  
ما ألقى المطوف علينا أن نقوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينئذ ربنا  
بالسلام ، فزادنى تحرك شفتى بهذه الألفاظ مهابة و رهبة . وأراد مطوفى ونحن

تتخطى إليها أن يحدثني في تاريخ المسجد وأبوابه وما أضيف إليه من عهد الرسول ، ثم أمسك حين لم يجد مني إقبالا على سماعه . وكيف لي في هذه الساعة بالاستماع إلى حديث وقد ملك البيت على نفسي وجذبني لأسرع إليه فاطوف به وأذكر الله عنده .

وارتسمت صورة البيت أمام بصيرتي منذ أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده مثابة للناس وأمثا يقيمون الصلاة ويذكرون الله عنده . وبلغت باباً قائماً وسط صحن المسجد . قال مطوفي : إنه موضع بابه في عهد الرسول ، فاجلبت طرفي بين هذا الباب والبيت العتيق . وذكرت ما حدث قبل مبعث محمد حين كانت قريش تجدد بناء الكعبة ثم اختلفت قبائلها أيها يضع الحجر الأسود مكانه ، وبلغ منها الخلاف أن كادت الحرب الأهلية تنشب بينها ، ثم أشار عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي أن يجعلوا الحكم في خلافهم أول من يدخل من باب الصفا ، وكان محمد أول من دخل منه فارتضوا حكمه ، فجعل الحجر على ثوب رفعه رؤساء القبائل جميعاً من أطرافه ثم أخذه هو فوضعه مكانه . كان البيت يومئذ كما هو اليوم ، إلا أن كسوته لم تكن سوداء مطرزة بوشى الذهب . أما المسجد فكان ضيقاً لا يبلغ العشر مما هو اليوم . وهانذا أتقدم نحو البيت الذي أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده ، والذي وضع محمد قبل مبعثه حجره الأسود في مكانه ؛ والذي طاف به الأنبياء وطاف به الملوك والأمراء على كر الدهور وهم في مثل ما أنا فيه من خشوع ومهابة ، وهم سواسية أمام الله مع من يرعونهم من عباد الله ، وقلوبهم تفيض ندماً وتوبة واستغفاراً ، والذي طاف به ملايين المسلمين ، وربما كان أشدهم فقراً من هو أكرم عند الله من هؤلاء الملوك والأمراء ، لأنه أتى منهم وأعظم بالله إيماناً . هانذا أتقدم اليوم نحو البيت أطوف به طواف العمرة وقد اجتمع هذا الماضي كله المهابة والجلال أمام بصيرتي ، فزادني شعوراً بما بيني وبين الذين أقاموا قواعد البيت والذين تطوفوا به من صلة يمسحها أمامها الزمان والمكان وتتبدى من خلالها وحدة الكون التي لا تعرف الزمان ولا المكان .

وسرت إلى جانب المطوف مأخوذاً ، حتى إذا بلغت الكعبة اندمجت في المثين الذين يطوفون بها وهم مثلي في لباس الإحرام ، وأعلنت نية الطواف بييت الله المكرم سبعة أشواط طواف العمرة . وكان المطوف قد سبقني إلى تلاوة صيغة النية ، فلما حاذيت الركن اليماني وقف المطوف هنيهة فوقفت لوقوفه وقلت على أثره : الله أكبر الله أكبر والله الحمد . واندفعت في حماسة أسير مع السائرين وأعيد بعد المطوف قوله تعالى :

« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

ثم وقفت كما وقف قبالة الحجر الأسود لأقول كرة أخرى : الله أكبر الله أكبر والله الحمد . واندفعت بعد ذلك أتم الشوط الأول وأنا أتلو في حماسة صادقة أدعية الاستغفار والتوبة التي يلقي المطوف على تلاوتها . وبلغت الركن اليماني فوقف المطوف ووقفت ورفعته مثله اليد اليمنى وكبرت كما كبرت وتلوت :

« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

وحاذينا الحجر الأسود فرغنا أيماننا وكبرنا ثانية ، واندفعت أستغفر وأطلب إلى الله الهداية على النحو الذي يلقي إلى وإلى غيرى من الطائفين . وكذلك كنت أفعل كلما حاذيت الركن اليماني أو الحجر الأسود . وأتممت الأشواط السبعة وأنا أكبر الله وأحمده وأدعوه وأستغفره ، وأنا مأخوذ بجلال هذا البيت العتيق ممثلي النفس خشوعاً أمام تاريخه الروحي الرهيب ، يفيض قلبي إيماناً بالله الذي جمع في هذه البقعة الضيقة من الأرض كل هذا الجلال وكل هذه المهابة . والمثون من حولي يطوفون كما أطوف ، ويتلون من الأدعية ما أتلو ، وإن لم يذكر أحدهم ما أذكر من أمر إبراهيم وإسماعيل ومن تجديد بناء البيت قبيل مبعث محمد ومن طوافه به في عمرة القضاء وحجة الوداع .

ودلفت بعد الأشواط السبعة إلى مقام إبراهيم أصلى فيه ركعتين . ومقام إبراهيم يقابل باب الكعبة ويقابل الحجر الأسود وقد قام إلى جانب باب عمده وعقده من الرخام . والذين يطيلون المقام عنده قليلون ؛ لذلك أتممت عنده ركعتين واستغفرت ربى لى ولأهلى ولن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات

ثم انتقلت إلى حجر إسماعيل . والحجر يقع قبالة جدار البيت الموازي للجدار  
المتد بين الركن اليماني والحجر الأسود ، ويحيط به سور في شكل نصف دائرة  
من الرخام . والمصلون فيه يزحم بعضهم بعضاً حتى لا يكاد الإنسان يجد بينهم  
مكاناً ؛ وذلك لما يذكر المؤرخون من أن الحجر يقع داخل رقعة الكعبة كما  
أقام إبراهيم وإسماعيل قواعدها ، فثواب الصلاة فيه كثواب الصلاة داخل  
بيت الله . وأقحمت نفسى بين اثنين يصليان ورفعت يدي أنوى الصلاة ،  
إذ وقع بصرى على رجال أشداء أقاموا في إحرامهم ورفعوا أيديهم إلى أعلى  
السجف من أستار الكعبة فتعلقوا بها متشبثين لا يتركونها وقد ألقوا برءوسهم إلى  
وراء ، فشخصت أبصارهم إلى السماء تستغفر الغفور الرحيم . وذكرت  
إذ رأيتهم ما كان العرب يفعلونه من ذلك قبل الإسلام ، فيكون ذلك مجيراً  
لهم من عدوهم ؛ وذكرت يوم الفتح حين عفا محمد عن أهل مكة جميعاً  
إلا أشخاصاً بأعيانهم أمر أن يؤخذوا وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة .  
وأقمت هنيهةً أنظر إلى هؤلاء المتعلقين أسائل نفسى عما صنعوا ليكون ذلك  
موقفهم منه ، وأنا مُعجَبٌ بإيمانهم إذ لا يجدون ملجأ من الله إلا إليه ،  
ولا يجدون ملجأ إليه خيراً من التعلق بأستار بيته المحرم . ونويت الصلاة  
وأتممتها ، ورفعت طرفي فألفيتهم ما يزالون في تعلقهم بأستار البيت ، وما تزال  
أبصارهم شاخصة إلى السماء تلتمس من رب البيت المغفرة . وأقمت مكانى في الحجر  
فإذا من حولى فيه لا يكاد أحدهم يتركه حتى يحلّ غيره محله ، وكأنما نسوا أن  
الليل انقضى ثلثاه أو أكثر من ثلثيه . وبقيت زمناً في مثل نسيانهم مأخوذاً  
بما حولى مقدساً إياه ، ملقياً وراء ظهرى ما عودنا التفكير الحديث من تعلق  
بالحاضر المحسوس وحده ، ومن مبالغة في هذا التعلق إلى إنكار ما وراء المحسوس  
من معنى ينتظم الوجود ويسمو على الزمان والمكان . وزادنى موقفي توجّهاً إلى الله ،  
فدعوته راجياً أن يستجيب ، واستلهمته الهدى إلى الحق والخير والفضل ، وتبت  
إليه من الآثام ، وأشهدته على نفسى إنه هو رب التقوى ورب المغفرة .

وفاض بى هذا الشعور فصرت من دعاء ربى إلى التسبيح بحمده والتقديس



له ، وإلى إكبار هذه الأخوة التي تصل بيني وبين المؤمنين به جميعاً في مختلف أقطار الأرض ، أخوة شعارها السلام ، ودعامتها السلام ، وغايتها السلام . وظلت كذلك حتى جاء المطوف ينهني إلى ضرورة مغادرتنا المسجد لنسعى بين الصفا والمروة كما تم شعائر العمرة . وما كنت أحسبني مطيعاً إياه لولا حرصى على إتمام هذه الشعائر . وخرجنا من المسجد نبتغي المسعى ، وسرت إلى جانبه والنفس ممتلئة مهابة وتقديساً للواجب الذى أقوم به ويقوم به معى عشرات الألوف من إخواني المسلمين على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم ، والذهن شغيلٌ لذلك عن إطالة التنقيب فيما ينطوى عليه اجتماع المسلمين كل عام في هذه البقعة المباركة منذ مئات السنين من غايات روحية واجتماعية وسياسية سامية . ولعل ما أصابني من الجهد في اليومين الأخيرين فنحنى حتى من السكينة والنوم ، ولعل مجهود الانتقال تَوَّأ بعد ذلك إلى مكة ودخولها في ساعة متأخرة من الليل ، ثم لعل المجهود الروحي الذى اقتضاه الطواف ، ولعل هذا الجهد والمجهود قد زادا في توجهي الآتى وراء المطوف لإتمام شعائر العمرة . وكيف لى أن أصنع غير هذا وقدمائى تسييران في مكان لما تعهداه وإن ألفيته مرتسماً في نفسى وكأن لى به كل العهد من قبل أن أولد . أم أن هذا العهد كان مبعث التقديس الذى امتلأت به نفسى لأنه ميراث الأجيال التى سلفت من أهلى وآبائى ؟ . نعم ! لعل هذا أدنى إلى الحق ، فلقد سار هاهنا آباءى وأجدادى وأمهاتى وجدائى حقبه بعد حقبه وجيلاً بعد جيل ، ولقد طافوا جميعاً بالبيت كما ظفقت ، وسعوا كما أريد أن أسعى ، وتلوا بعد المطوف ما تلوت وما سأتلو . ولقد رأيت الكثيرين منهم وشاركت منذ طفولتى في الاحتفال بخروجهم إلى الحج وعودتهم منه احتفالاً كانت علامتهم الغبطة ترسم أثناءها على أسارير الذين يودعون مَنْ حج ويلقون من عاد من هؤلاء الآباء والأجداد . فلا جرم قد انطبع في نفسى هذا الميراث المنتقل على الأجيال وجعلنى أخطو خلال المسجد وإلى المسعى بقدم مطمئنة كما أخطو في بيتى وبيت أبى وأهلى ، ثم كان لهذا الميراث التليد من عمق الأثر في نفسى ما زادنى حرصاً على الدقة في أداء شعائره .

خرجنا من المسجد وأقلنا السيارة إلى المسعى ، ثم مال بنا المطوف إلى ربوة الصفا وتخطى بنا نحو درجها خلال الذين سبقونا إلى السعى محرمين . وتخطينا خلال هذه المثين من الناس يسير بعضهم فرادى ويسير آخرون جماعات متشابكة الأيدي وقد ارتفعت في جوف الليل أصواتهم جميعاً مستغفرين في ضراعة وإنابة . وعلونا بعض درج الصفا ثم استقبلنا المسعى ورفعنا أيدينا وأعلنا نيتنا السعى سبغاً بين الصفا والمروة سعى العمرة ، ثم هبطنا الدرج وسرنا ونحن نتلو كما يتلو المطوف :

« إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ »

وانقلنا من الصفا إلى المروة ونحن ندعو بما يدعو به مطوفنا ونستغفر كما يستغفر ، والمثون من الساعين يدعون كذلك ويستغفرون . وبلغنا المروة واقتحمنا صفوف الساعين إلى درجها ، واستقبلنا المسعى وسعينا وكبرنا وعدنا إلى الصفا ندعو ونستغفر ، والناس من حولنا يصنعون صنعينا يدعون ويستغفرون . ولقد كنت تسمعهم رافعي أصواتهم في لهجات مختلفة منها البدويّ النجدى الذى يعلو بنفسه عن أن يتخذ من مطوّف إماماً ، ومنها ما تشوبه عجمة تدل على أن العربية ليست لسان أصحابه الأصيل ، ومنها المتضرع في انكسار وخشية ، ومنها هذا البدويّ الذى لا يعرف الخضوع حتى في خطابه ذا الجلال والإكرام . فلما أتممت أشواط السعى السبعة وقف بي المطوف عند حلاق في حانوت من الحوانيت التى تزحم المسعى قصّ لى بعض شعرات من جانب رأسى الأيمن وبارك علىّ أن أتممت عمرتى . وبذلك آن لى أن أعود إلى منزلى وأن أحل إحرامى لإحلال التمتع ، كما أعود إليه بعد يومين حين أؤدى فريضة الحج الأكبر .

وأويت إلى مضجعى في الثلث الأخير من الليل ألتمس فيه الراحة إن لم أسعد فيه بالنوم . وأطبقت أجناتى ، وذهبت على عادتى أستعيد ما حدث

منذ الصباح ، فإذا بي لا أذكر منه إلا غبطني بالطواف والسعي وتمام العمرة ،  
وإذا بي أشعر بيد محسنة يسرى إلى من مسها جسمي سعادة لم أعرف من قبلُ  
سعادة مثلها ؛ سعادة تنسيني كل شيء إلا ما كنت فيه من توجه إلى الله  
بالتوبة والاستغفار ، ومن رجاء في أن يتقبَّل توبتي واستغفاري . وانفجرت  
شفتاي في ظلمة الليل عن ابتسامة طمأنينة ورضا استراح إليهما وجودي كله .  
وبقيت في غبطني بهما مسلماً كل تفكيرى وإحساسى وعقلى وقلبي لمشيشة الله  
التوَّاب الغفور الرحيم . ودخلت بهذه الطمأنينة في عالم النوم ممتلئ النفس  
رجاء وأملا ، صادق الإحساس أن قد زالت عنى أوزار الماضى وأنتى أصبحت  
قريباً من ربى . نعمت سويكات استيقظت على أثرها وقد زالت عن صدرى  
أحمال لم أدر ما هى . وأغرنتى بكرة الصباح بالنزول إلى مكة أجوس خلالها ؛  
لكنى لم أجد دليلاً يرشدنى فأثرت أن أنتظر مُضيفى وأن أنتظر مطوفى ليرسما لى  
خطة يوى ويعاونانى في إنفاذها .

وَأتممت صلاة الإصباح، ورحت أنتقل في حُجْرَ ضيافى أتمشى فيها طويلاً  
وعرضاً ، وأستوحى ذاكرتى صورة هذه الدار الفخمة التى نزلت بها، والطريق  
التى أدتْ بي أثناء مكة إليها ، فلا تسعفى الذاكرة بنافع . وما عسى أن  
تسعفى الذاكرة به وقد تخطيت أمّ القرى لبيل فلم أر من الطرق التى اجتزتها  
إلا القليل ، ولقد اجتزنا إلى دار مضيفنا أزقة ضيقة لم أتبين منها شيئاً . وبرزت  
السيارة من أحد هذه الأزقة إلى فناء فسيح بالقياس إليها هو أشبه الأشياء بصحن  
دار كبيرة تحيط به جدرانها الأربعة ، ويخرج منه زُقاقان غير الذى برزت  
السيارة منه . ويضىء هذا الفناء نور كهربى ينحدر من مصباحين معلقين على  
ناحيتين من جدرانه . ومن هذا الفناء وقفت السيارة أمام دار يتخطى النظر  
بابها إلى دهليز طويل تضيئه الكهرباء . ونزلنا وصعدت بنظرى إلى باب الدار  
فألفيته رفيعاً معقوداً أعلاه بالحجر ، ويصعد الإنسان إليه بضع درجات تعلو به  
وبالبيت كله عن الطريق . وأقبل علينا حين وقفت السيارة رجل تطوَّق ثغره  
ابتسامة رقيقة ، وصافحنا بشوق ومودة . وسألنا عن سبب تأخرنا وما نكون قد لقينا

من مشقة الطريق ، هذا مضيفنا الشيخ عباس قطان أمين العاصمة صاحب هذه الدار التي تبدو الفخامة على ظاهرها . لقد أقام بداره ينتظرنا ، فلما استقبلنا وتلطف بنا ما تطف أنبأني أن الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية قد سأله بالتليفون غير مرة عن مقدمتنا بعد أن علموا من جدة أننا نزلنا من الباخرة إليها وغادرتها إلى مكة . وصعد وإيانا إلى الطابق الأول من الدار على درج أعاد إلى ذاكرتي منازل إيطاليا ؛ فهو محصور بين جدارين يصعدان إلى السقف ، فإذا استدار الإنسان إلى يمينه و إلى يساره عند منتصف الطابق ألقى نفسه من جديد بين جدارين يصعد الدرج أثناءهما إلى غرف الطابق الأول . ودخلنا إلى بهو عظيم فيه ومعنا مضيفنا ومطوقنا . ولم نلبث حين جلسنا على مقاعد من طراز هذا العصر الحديث حتى جىء لنا بالشاي - أو الشاهي بلغة أهل مكة - فكان لنا نعم الدفء بعد برد الطريق . وتحدثنا إلى مضيفنا وتحدثت إلينا ، وسرعان ما ذكرني أني تقابلت وإياه بالقاهرة وأنا تمتينا لولتقي بمكة في هذه الدار . وبعد قليل قمنا إلى المسجد الحرام فأتممنا طواف العمرة وسعيها .

هذا ما عت الذاكرة مما رأيت بمكة حين دخلتها أثناء الليل . وهأنذا الآن أنتقل من غرفة النوم إلى البهو وأعود من البهو إليها ، وقد اتصلت بها دورة المياه فاصلة بينها وبين غرفة الطعام . لشد ما يثير هذا البهو وهذه الغرف في النفس صورة البناء في العهود العربية القديمة ! ولشد ما يثير أثارها معاني النعمة والترف في تلك العهود ! فهذا البهو الفسيح تكاد مساحته تبلغ ستة أمتار في العرض وعشرة في الطول ، تضيئه في النهار وتهويه طيلة اليوم نوافذ تمتد من أقصى جدار عرض البهو إلى أقصاه ؛ وكذلك الأمر في غرفة النوم المحاذية له . وهما الآن يضاءان أثناء الليل كما تضاء الدار كلها بالكهرباء ، تولدها « ماكينة » خاصة بالدار ؛ لأن مكة لا تزال إلى اليوم محرومة من نور الكهرباء ، ولا يضاء فيها على حساب الدولة إلا الحرم الشريف . وإضاءة الدار بالكهرباء لا ترجع إلى أيام بنيت ، ولذلك يتدلى من سقف غرفها نجف فيه لعشرات

الشموع منازل مختلفة الألوان . والسجاجيد التي تفرش أرض البهو وغرف النوم ثمينة قيمة جميلة الرِّقْم كثيفة الخَمَل . وإحدى غرفتي النوم كبيرة تصلح لأن تكون بهواً عند الحاجة . والجدار المقابل لبابها نوافذ كله كجدار البهو الكبير . وقد أقيم إلى جانب هذا الجدار ، كما أقيم على الجدار العمودي عليه ، مصطبة متصلة فرشت بالمراتب المغطاة بأغطية موشاة بالقصب ومتكآت مغطاة بوشى القصب كذلك ، تريح الجالس عليها والمستكى إليها غاية الراحة . وفي الجدار الرابع دولا ب يبدو منه بابه المطعم بالسن تطعيماً دقيقاً كتطعيم سقف الغرفة . أما غرفة النوم الأخرى فقد أعدت للنوم ولا تصلح إلا له ؛ وهي متصلة بهذه الغرفة التي تصلح لأن تكون بهواً ، بل هي مدخلها ، مفروشة كفرشها ؛ وبها (بوريه) مطعم كله بالصدف المختلف النقوش والألوان والذي تبهرك حقاً دقته . فأما غرفة الطعام فيقابل بابها باب الغرفة الأخيرة ، وتفصل بينهما دورة مياه لاتزال على الطراز العتيق ، يتلوها درج يهبط الإنسان على سلّمتيه ليرقى مثلهما قبل أن يدخل هذه الغرفة . وهي أكثر من البهو ومن غرف النوم بساطة في أثاثها ؛ لأنه أدنى إلى طراز عشرين أو ثلاثين سنة مضت من عصرنا الحديث منه إلى أثاث العرب أيام ترفهم ، مع اتساق بنائها مع بناء الغرف الأخرى من حيث النوافذ التي تتصل من أقصى الجدار إلى أقصاه ، والسقف المطعم بالصدف أو المموه بما يشبهه ، والمصطبة القائمة إلى جانب النوافذ .

كان النهار ضحى حين جاء المطوف يسألني عما أريد . وهبطنا المسجد الحرام لأرى منه في وضوح النهار ما أخفاه الليل وما شغلني الطواف عنه ، والمسجد الحرام يشبه صحن الأزهر من حيث إنه فناء مكشوف تحيط به من جوانبه الأربعة قباب قائمة على عمد كالقباب المحيطة بصحن الأزهر ، وتنتهي إلى جدرانها . لكن فناء المسجد الحرام فسيح جداً يزيد على بضعة عشرات من ألوف الأمتار المربعة ، وهو ليس مفروشاً كله بالبلاط كصحن الأزهر ، بل مقسم أقساماً تتعاقب بعضها إثر بعض ، بعضها مفروش بالبلاط ،

وبعضها مفروش بالحصباء ، على تعبير أهل مكة . وفي وسط هذا الفناء الفسيح تقوم الكعبة بيت الله الحرام وقبلة المسلمين جميعاً في صلواتهم . ويتصل بالكعبة حجراً لإسماعيل ، ويقوم على مقربة منها مقام إبراهيم . ومن حول الكعبة مبلغات أربع - ومكبريات أربع على تعبير المكيين - لكل مذهب من المذاهب الأربعة واحدة منها . وعلى مقربة من هذه المبلغات ومن الحجر والمقام والبيت . يقوم بناء فوق بئر زمزم . وقد شيّدت هذه المباني القائمة وسط فناء المسجد من أحجار متينة صلبة جيء بها من الجبال المجاورة لمكة ، كما جيء من هذه الجبال بالأحجار التي شيّدت منها عمدة المسجد وقبابه وما وراء العمدة والقباب من جدران ومبان يسمونها مدارس لأنها كانت كذلك بالفعل يوم شيّدت ؛ لكن الكثير منها يتخذ اليوم مأوى لبعض الطوائف ولا يتخذ أماكن للدراسة . وقباب المسجد وجدرانه بسيطة وفيها مع ذلك فن يتفق مع هذه البساطة . أما أبواب المسجد المؤدية إلى الطرق المحيطة به فأقل من قبابه فناً وأكثر منها بساطة خلا باب علي . وجدران المسجد من الخارج لافن فيها ، بل تزور عين رجل الفن عن بعض جوانبها ازوراراً .

وخرجنا من المسجد إلى المسعى . وهو يقع على مقربة من باب الصفا . وكان المسعى إلى صدر الإسلام طريقاً مستقيماً ينقص طوله عن الميادين ، ويصل بين ربوة الصفا والمروة ، وكان متصلاً بما حوله من فسيح الصحراء تطل عليه الجبال المحيطة بمكة ؛ أما اليوم ومنذ بضع مئات من السنين فقد أحيط بالمباني والعمارة التي طغت عليه ، وقد أحيل كل من الربوتين إلى درج أقيمت نحوه جدران تحجب بين الساعين وفسحة الجو وبهاء السماء . وقد بلغ من طغيان المباني أن اعوج المسعى اعوجاجاً يحول دون رؤية الصفا من المروة أو المروة من الصفا . وتخترق المسعى طرق تسير فيها الإبل والدواب والعربات والسيارات . وقد كان هذا الطريق إلى سنوات مضت كله الرمال ؛ أما الآن فقد رصف بالحجر رصفاً غير منتظم .

عدت إلى الدار بعد هذه الزيارة القصيرة . فقابلني مضيبي يخبرني أن

وزير المالية ينتظرنى بداره قبيل الظهر ، وأن السيارة ستذهب فى وإياه إلى هذا الموعد . وذهبنا نخترق الطرق إلى ظاهر مكة حتى بلغنا غايتنا ونزلنا عند باب الدار . وليس يبالغ من يسمى هذه الدار قصرًا ، فهى فسيحة وإن لم يكن لبنائها طراز ينسب إليه ، فخيمة وإن لم يسعد الفن فخامتها بتأنق أروعته . تخطينا بابها الضيق إلى درج يؤدي إلى ممر من ناحية وإلى فضاء به زرع من ناحية أخرى ، واستدرنا فى الممر إلى حجرة تخطيناها إلى دهليز ، فغرفة أخرى ، ثم غرفة ثالثة هى التى كان وزير المالية ينتظرنا بها ، وهى غرفته الخاصة . وأحسبني لو تركت لأعود وحدى إلى ظاهر الدار من خلال هذه الغرف والممرات لتعذر ذلك على .

والشيخ عبد الله بن السليمان الحمدان رجل بدوى نجدى بكل معانى البدوية والنجدية ؛ نحيف القوام معتدله ، أسمر البشرة ، حاد النظر ، تلمح فى عينيه ذكاء وغضبًا ممتزجين ، يدعو امتزاجهما فى حالة سكونه ودعته إلى مهابته والتفكير فيما وراء نظرتيه ؛ وهو إلى ذلك حلو الحديث رقيق النبرة مبسم اللقيا . تبادلنا التحيات ، ثم ذكرت له ما دار بخاطري منذ غادرت مصر أن تكون مكة مقرًا لعصبة الأمم الإسلامية ، كما أن « جنيف » مقر عصبة الأمم الأوروبية . ووافقنى هو فى الرأى على أن نمحصه بعد انتهاء فرائض الحج واشتغال الحكومة بها .

وبعد الحديث والقهوة تركت الدار وآثرت أن أقوم بجولة بالسيارة أجتلى بها صورة من بعض نواحي مكة . وما دنا بجسرّول عند مدخل مكة من ناحية الشميسى - أو من ناحية الحديدية إن شئت - فلأذهب إلى ناحية غير هذه التى دخلت منها حين مجيئى أمس من جدة ، ولأتبع فى تجوالى هوى نفسى وإرشاد مضيئى . فأما هوى نفسى فقد كان إلى فندق مصر التابع لشركة مصر للملاحة البحرية . وهل تهوى النفس شيئًا هواها لما له بالوطن اتصال! . وأما مضيئى فذكر أن على مقربة من فندق مصر فندقًا للحكومة الحجازية ، وأن مدير هذا الفندق هو مواطنى المصرى الشيخ عبد السلام غالى .

وزرت فندق مصر لماماً ، ومررنا بفندق مكة فلم نجد مديره ولم نقف عنده . وفندق مصر دار عربية فخيمة المدخل ، حاول مديره أن يدخل إلى دورات مياهه شيئاً من النظام الحديث .

وعدنا إلى المنزل وفي نفسى بعد هذه الجولة صورة مبهمة من مكة ، كل دلالتها أن مكة اليوم هي مكة منذ مئات السنين ، لم يطرأ عليها تقدم إلا في منازل بعض الأفراد الذين آثرهم الله ببسطة في الرزق . وهو تقدم نسبي لا صلة بينه وبين تقدم فن العمارة الحديث .

وحال قرب المسجد من منزل مضيبي دون توغلي بمكة منذ اليوم الأوّل ، كما حال دونه ما أكرمني به أهل مكة وزوارها من زياراتهم إياي حيث نزلت . وقد تبادلت مع هؤلاء وأولئك أحاديث شتى عن البلاد المقدسة كان لها أثر في تكوين فكرتي عن العلاقة التي يجب أن تصل بينها وبين العالم الإسلامي .

غدّنا اليوم الثامن من ذى الحجة ، يوم التروية ، ويوم يصعد الحجاج إلى منى وعرفات لقضاء فريضة الحج . وفي غد أغادر مكة بعد يومين اثنين من مقامى بها قضيت أثناء شعائر العمرة ، ولم أر خلاهما من نظامها وحياتها وآثارها شيئاً مذكوراً . فتى أرى ذلك كله ؟ . . . بعد الفراغ من شعائر الحج . فلأنتظر إذن ، إن الله مع الصابرين .



## وقفة عرفات

أصبحت يوم الاثنين الثامن من ذى الحجة ، يوم التروية ، أفكر في عرفات والذهاب إليها محرماً والمبيت بها ، وقضاء ما يجب من شعائر الحج فيها والنزول عنها إلى المشعر الحرام بالمزْدَكِيفَة ، وإلى الصخرات بمنى لأتم بعد ذلك طواف الحج حول الكعبة وسعيه بين الصفا والمروة ، فأكون قد قضيت الفرض الخامس من فرائض الدين الحنيف . ولا يفكر الناس اليوم في التروية ، وهي جلب الماء معهم إلى عرفة ليستقوا منه يوم وقوفهم بها . وهم لا يفكرون في التروية منذ يسّرت عين زبيدة لهم من الماء ما يريدون .

وشتان بين ما اشتملني أثناء التفكير في الإحرام لعرفات من نعيم وغبطة ، وما كنت أخافه قبل مغادرة مصر من أثر الإحرام وقضاء المناسك على صحتي . لقد اشتملني من فجر ذلك اليوم رضا عن الحياة وعن نفسي ، وشعرت بروحي فرحة وقلبي مطمئناً . أقبلت منذ بكرة الصباح أعدتُ لباس الإحرام وما يقتضيه المبيت تحت الحيام ، منشرح الصدر لكل ما أصنع من ذلك ، عميق الإحساس بجلال هذه الفريضة التي يسر الله لي أداءها ، موقناً أني سأشهد أثناءها من آيات حكمته فيها ما يزيد كل مؤمن إيماناً وتثبيتاً . وصوّرت أمام ذهني هذا الجبل المقدّس وقمّته الفسيحة واجتماع عشرات الألوف من المسلمين فوفه مهللين ملبين متوجهين إلى الله بقلوب طهرها صدق الإخلاص من ماضى حوباتها ، وهداها الاجتماع المقدّس بإخوانها المؤمنين سبيل الخير ، وفتح أمامها أبواب حياة جديدة تسمو خلالها بفضل إيمانها وصدق توجهها إلى الدرجات العلا من مراتب الإنسانية السامية ، مراتب البررة والمقربين والأتقياء الصالحين الذين يخشون الله ولا يخشون غيره ، ولا يخافون في الحق والخير والبر لومة لأئم .

بقيت في إعداد متاعى إلى ما قبيل الظهر ، ثم انحدرت من الدار إلى قصر

الملك لموعد ألقى فيه جلالاته . وقصر الملك يقع خارج مكة من الناحية الشمالية الشرقية عند مبدأ الطريق الذاهب إلى منى . وهو قصر بنى حديثاً ليقيم ابن السعود به ما أقام بمكة قبل الحج وبعده . وهو فسيح الجنبات بسيط المظاهر . يجمع بين أبهة الملك وطرز العروبة القريب من البداوة . تلقاك أول ما تتخطى بابه حديقة فيها نباتات صغيرة ، ثم تتخطى دهاليز فرشت بالحصباء إلى أبهاء بسيطة في أثاثها وعمارتها على رغم سعتها وكثرة نوافذها . ويقابل القصر جبل زرود الواقع على مقربة من حراء ، أو جبل النور كما يسمونه اليوم ، ذكراً لنور الوحي الأول الذي هبط على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالغار عند قمته . وتقوم فوق زرود قلعة تحمى مقرّ الملك أثناء مقامه بأمّ القرى . وقد لقيت في ذهابي إلى قصر الملك وعودتي منه مشقة لم ألقها في طريق مكة حين تجول بها في اليوم الذي سبق . فالطريق إلى قصر الملك هو كما قدمت طريق منى ، وهذا اليوم هو يوم التروية . فيه يصعد الحجاج جميعاً إلى منى و إلى عرفات من هذا الطريق . وأكثرهم يصعدون على الإبل لأنها أيسر نفقة على الأكثرين ، ولأن الصعود عليها أكثر مشقة من الصعود بالسيارات ، وهو لذلك أعظم عند الله أجراً في رأى طائفة من المسلمين . لذلك امتلأت طرق مكة يومئذ بقوافل الإبل ، حملت من ركوبها في ألوان مختلفة الطراز والوشى من الهوادج والشقادات ، وبعضها يسير إلى جانب بعض إذا انفسح الطريق ، ويتلو بعضها بعضاً في الطرق الضيقة . وطرق مكة ضيقة كلها إلا قليلاً ، لذلك كانت السيارة تقف في الطرق ذات السعة أمام هذه الإبل المترامية حتى تفسح لها طريقاً ؛ أمّا في الطرق الضيقة فكانت تضطر أحياناً إلى التراجع لتقف في مكان يتسع لوقوفها ومرور القافلة بها بعيراً بعد بعير ، وتضطر أحياناً أخرى إلى الانزواء في طريق غير طريقها حتى تمر القافلة بها . والقافلة تمر بخطى الإبل الممتدة لا سبيل لها إلى أن تسرع في هذه الأذقة المتلوية في ارتفاع وانخفاض . وتمر القافلة وتسير السيارة بضعة أمتار ثم إذا قافلة أو بضعة جمال أخرى تضطرها لتلمس مكاناً تقف فيه أو زقاقاً

تحتفى به . ولقد اقتضانا خوض هذا البحر اللجى من الإبل وسائقها أضعافاً مضاعفة من الوقت الذى كنا نقطع فيه الطريق لو أننا كنا نسير فى غير يوم التروية أو أيام الحج .

وتناولت طعام الظهر ، وأتفتت ومضيت على أن نستقل السيارة إلى عرفات بعد صلاة العصر . وتطهرت لإحرام الحج ولبست لباسه بعد أن نويته وصليت ركعتين سنته . فلما صليت العصر أقمت أنتظر السيارة . لكن المغرب اقتربت ولم تكن قد جاءت ؛ وخشى مضيت أن أضيع بتأخرها ذرعاً ، فهبطنا إلى حديقة صغيرة خلف الدار وفى حرمها ، نستمتع بما فيها من خضرة النبات وبهاء الأزهار . وأنا لذلك إذ بدأ الرذاذ يتساقط . واحتملناه زمناً فرحين آملين أن ينقطع بعد قليل ؛ لكنه استمر ثم هتن وإبلاً لا سبيل معه إلى البقاء فى الحديقة ؛ واحتمينا بإيوان متصل بها ، وجلست بمقعد عند بابه أشهد منه عبث المطر بالزهر والشجر . وفكر بعض الحاضرين فى الترويح عنى بذكر سيول الحجاز التى تنهمر سوية انهماراً يحسب الإنسان معه أنه لن يكف ، ثم إذا السماء أمسكت وعاد إليها صفوها ، وإذا رمال الأرض ابتلعت مياهها ، وإذا الجو أكثر صفاء ورقة . والمطر يهتن والبرق يخطف والرعد يقصف والرجاء فى مجيء السيارة يدوى فى نفسى ، فأسائل مضيت : ألبصعود إلى عرفات فى هذا الوقت سبيل . . . ؟ ويجيبني مضيت مطمئناً : إن الأمر لله ، والحج فرض الله ، ولا بد أن ييسر الله للناس فرضه .

وبينا نحن فى حديثنا أمسكت السماء فجأة ، وذهبت الريح بما فيها من سحب ، وصفا الجو ، وعادت إلى الثغور ابتسامتها . وأقبل الخادم يئبنا بأن السيارة بالباب تنتظر . وركبناها وشققنا بها طرق مكة الضيقة وهى تسير الهوينى تتخطى الإبل وهوادجها وشقادفها التى قاربت بنا قصر الملك . هنالك انفسح الطريق وعظم أملنا فى الوصول عما قليل إلى عرفات . على أن السيارة وقفت هنيهة ليملاها سائقها بنزيناً . وفى هذه اللحظة رفعت بصرى إلى السماء فألفيتها صفواً لم يبق لسحابة فيها أثر ، وألفت القمر لماً يكتمل بدرراً قد

بعث إلى أرجائها من ضوءه الندى ما زاد في صفاء صفحتها بهجة ونوراً .  
وسرّحت الطرف عن يميني وعن يساري وفيما أمامي فإذا لجة القمر تغمر سلاسل  
الجبال القائمة في هذه الأرجاء جميعاً متتابعة في اتصال لا يدع للناظر من خلالها  
فرجة تشف عن شيء مما وراءها . وبدت هذه السلاسل في لجة الضوء أشباحاً  
ضخمة رهيبة جديرة بأن تبعث إلى النفس الخشية منها وما يستكن فيها لولا  
تجرد النفس في هذه الآونة من كل خشية إلا خشية الله ، ولولا سمو النفس  
فوق كل ما في الحياة من آمال وآلام وخاوف إلا عن الرجاء في رضا الله  
عمن لبّوا نداءه ومن جاءوا من كل فج عميق رجلاً وعلى كل ضامر ليطوّقوا  
بيته ويتموا مناسك حجه .

وانطلقت السيارة في طريق منى تسائرننا جبال العقبة عن يسارنا وطلّعت  
تسيّر عن يميننا . وفي لحظة غابت الإبل ولم يبق يرحمنا منها قافلة ولا بعير .  
ذلك أنا خرجنا عن طريقنا إلى طريق آخر استحدثته الحكومة القائمة وخصّصت  
به السيارات تنفيساً عن القوافل وعن السيارات جميعاً . والقمر في كبد السماء  
الندية الزرقة بضياؤه يلتي على المضباب الممتدة عن يميننا وعن يسارنا ضوءاً يبعثها  
إلى يقظة الحياة في هجعة الليل . أما فيما أمامنا فقد غلب ضوء السيارة الباهر  
ضوء القمر الرطب الندى . وجعلنا نصعد فوق السفوح على هون ، حتى طالعتنا  
أضواء كثيرة منتشرة عن يسارنا ؛ تلك أضواء سوق منى يتأهب أصحابها  
لإفاضة الناس من عرفات بعد غد إليها . ثم مررنا بعد قليل بضوء أقل من  
ضوء منى دلنا على أننا إزاء المزدلفة . وتابعنا التصعيد في الجبل على هون بين  
هضاب ورمال انبسطت عنها أشعة اللجين من ساهر السموات . وحاذينا  
بناء ، ذكر أهل مكة أنه مسجد نمرّة ، بدت بعده أضواء قبل إنها سوق  
عرفات . ثم انطلقت السيارة فإذا بنا أمام سهل فسيح ضربت فيه مئات  
القباب والوفها وتلألأت فيه مصابيح النور الأبيض . تلك بطحاء عرفات ،  
وهنا مكان الحج وملتى الألوف من المسلمين الذين فرضوه على أنفسهم .

وقفت السيارة ، وسأل مضيفنا عن مضارب خيامنا . ومن لك بالذاكرة

التي تحيط بمكان كل قبة من هذه المضارب التي يخطئها العدُّ في هذه الساعة من الليل ! بل مَنْ لك بهذه الذاكرة في أشد ساعات النهار وضحاً ! وبدأ الغضب يأخذ من المضيف حين لم يسارع أتباعه إلى إجابة سؤاله . لكن جلال الموقف وعذوبة الهواء وصفوه ورقته هدأت من حدة طبعه . وانفتل شاب من ذويه من السيارة يلتبس منازلنا كي يهدينا إليها ؛ ولم يطل عنا غيابه .

وألفيت الخيمة التي أعدت لنا قد فرشت ببساط من السجاد ، فألقيت عليه فراش النوم ، وخرجت أسرَّح البصر فيما حولي . خرجت في لباس إحرامى خفيفاً فرحاً نشيط النفس ممثلي الفؤاد جهوراً وجدلاً . يا لركة هذا الهواء وجمال هذا القمر وبهاء هذه الساعة الفضة التي سقطت فيها عن الروح كل الحجب وتجلى فيها أمام البصيرة نور الخالق العظيم ! لَسَبَّيْكَ اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك ... أو لا يجمل بي أن أتقدم بين هذه المضارب لأرى ألوف المحرمين مثلي فأزداد برؤيتهم جهوراً . وأتحدث إليهم فيزيدني حديثهم جدلاً ، وأبى وإياهم فتتجاوب هذه الوهاد بأصداء عشرات الألوف من أصوات الملبين ترتفع على موج النسيم وأشعة القمر إلى عليا السماوات !

وأني لي أن أهتدي إلى مضر بي إذا أنا ضللت بين هذه الخيام وليس لي من العلم بالمكان ما لأبناء مكة الذين يؤمونه كل عام ! . ولكن أفضل ها هنا أحد وها هنا موضع الهدى وملاذ الملبى نداء ربه ، اللاجئ إلى فيء رحمته ! . وتقدمت خطوات إلى موضع توسط الخيام ، فتموجت أشعة القمر أمام نظري على رماله . ثم وقفت وأطلت الوقوف ، وبقيت محددقاً بالسماء ، فأخوذاً بصفو أديمها ، شارد اللب في جلال هذا الكون المحيط بي وعظمتته ، أناجيه وقد نصوت عنى زينة الحياة الدنيا فأحس به أبهى جلالاً وأجل عظمة ! . كم طالت بي هذه النجوى ! ؟ لا أدري ! وأرادت قدماي أن تتقدما بي لأتصل بمن أسمع هسيسهم من إخواني المؤمنين . فتلفتُ أتعرف قبتي كيما أتخذ منها مناراً أهتدى به في سيرى ، فلم أعرفها بين الخيام القريبة مني . إذ ذاك آثرت

العودة للبحث عنها والاحتماء بها من ضلّة الليل ، فلما اهتديت إليها وقفت عند بابها ، ولم تطاوعني نفسي على أن أتخذ منها حجاباً بيني وبين السماء وقمرها بالاسم الضياء ، وبينى وبين هذا العالم الروحي العظيم الذى اجتمع ها هنا فى هذه البقعة من بقاع الأرض ، والذى يجتمع فيها فى هذه الساعة من كل عام ، ناسياً كل شىء من زخرف الدنيا متوجهاً إلى الله أن يتم على الأرض كلمة الهدى ويوطد فيها الحق والعدل والسلام .

وجلست مكاني على سجادة صلاة سحبتها من داخل القبة ، وتركت لتصورى عنانه ، وقد ارتسم كل ما تشتمله السماوات والأرض حولى فى دخيلة نفسى . وانتقلت بهذا التصور فى هنيهة من بيئة المكان إلى بيئة الزمن ، وطويت القرون القهقرى إلى أكثر من ثلاثمائة وألف سنة مضت ، وامثلت النبىّ العربىّ محمداً هاهنا فوق عرفات فى حِجَّة وداعه ، مُحْرَماً كإحرامنا ، مليئاً كتابيتنا ، مستغفراً كاستغفارنا ، خاضعاً لله خضوعنا ، عبداً لله كعبوديتنا له . امثلت هذا النبىّ العربىّ وقد تخطى السنين ، وقد فتح الله له فتحاً مبيناً . وقد أسلم لدينه أهل مكة الذين حاربوه وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم ، وقد آن أن يكمل الله للمؤمنين دينهم ويتمّ عليهم نعمته . امثلته واقفاً فى هذا المكان على رأس مائة ألف من المسلمين بعد أن قطع إليه الطريق من يثرب إلى مكة محروماً طوال هذه الطريق ، سائقاً هتديته معه ، مقيماً على إحرامه أسبوعين كاملين . مليئاً والمسلمون من ورائه كل نهاره وطرفاً من الليل ، مسلماً كل أمره إلى الله لا إله إلا هو ، إليه يرجع الأمر كله ، وإليه تصير الأمور .

كم أقمت أذكرك فنفعتنى الذكري ؛ ثلثى الليل أو نصفه أو زدت عليه أو نقصت منه ؟! علم ذلك عند ربى . وشعرت بالسكون يمد رواقه حولى ، حتى لم يبق مما كنت أسمع نبأة أو همساً . عند ذلك دخلت إلى قبتي وأطبقت أجفانى ألتمس النوم .

أفنتم حقاً ؟ وكم نمت ؟ كل ما أذكركه أنى كنت سعيداً وكنت ممتلئاً

نشاطاً حين طرق أذنى صوت المؤذن لصلاة الفجر . طرق هذا الصوت أذنى فابتهج له قلبى وطرب له فؤادى طربه لأغنية عذبة ترتلها ملائكة السماوات . وفتحت عيني فرأيت بشائر الضوء تسرى من فرجات القبة . فقمتم إلى الماء أتوضأ ، فإذا الحياة تسرى فيما حولى من المضارب ، وإذا الذين يلتمسون الماء لغيرهم ينتشرون ها هنا وهناك ، وإذا النداء للصلاة الأولى تتجاوب أصوات المنادين به فى مختلف أنحاء البطحاء ، وكلهم يلقي فى آذان الخليفة التى بدأت يقظتها : « الصلاة خير من النوم » . وفى نواح مختلفة من البطيخ المترامى الأطراف سمعنا الذين قاموا يؤمنون مَنْ معهم للصلاة ، ينادون : الله أكبر . وكلما أتم جماعة صلاتهم علت بالتلبية أصواتهم . وأقام الناس على ذلك حتى ذرّ قرن الشمس فوق الجبال إلى ناحية الشرق . عندئذ بدأوا يتسللون من خيامهم يرون بأعين النهار ما لم تسعفهم عين الليل على رؤيته من مكان الحج المقدس . فلما علت الشمس بدأت حياة النهار ضجّتها وتجاريتها ، وبدأ الناس يلقون بعضهم بعضاً بالتحية والتبريك ، ثم ينتقلون بحديثهم إلى مألوف ما فى الحياة .

وتجارة الحياة فى عرفات تتصل بالحج وبالصدقات التى تهوى بها أفئدة الحجاج إلى الفقراء والمساكين ممن يطوفون بهم . والحجيج تهوى أفئدتهم إلى إطعام الجائع والبر بالحرور . لذلك يسير الأعراب بقطعان من الغنم يبيعونها من يذبونها لساعتهم ويتصدقون بها على ذوى الحاجة من إخوانهم المؤمنين . ومنهم من جاء لأداء الفريضة من أقصى الأرض وهو لا يجد قوت يومه ، وآخرون اتخذوا من البقاع المقدّسة مقاماً ومن الصدقة مرتزقاً . هؤلاء يطوفون بالمضارب يبتغون من ذوى الميسرة بعض ما رزقهم الله ، ثم لا يكفيهم ما ينالونه فيعودون يسألون الناس إلحافاً يستغلون بذلك إحسان من لا يمسكون أيديهم فى يوم الحج عن الإحسان .

وخرجت من قبى أنعرّف ما حولى ، وأشهد صنيع الناس يومهم هذا وقد جاءوا إلى الله حاجّين متجردين . وإنى لأتلفت يمّنة ويسرة إذ وقع بصرى على رجل لا شىء فى سبناه يدل على أنه من أبناء الشرق ، بل هو أذنى إلى أن

يكون من أبناء الشمال في أوروبا بطول قامته النحيفة وببشرته البيضاء المشربة حمرة وعينه الزرقاوين وشعره الأصفر . وأخبرني بعض أهل مكة ممن حوله أنه هولندي « مسلماني » يقيم بجاوة ، وأنه جاء يؤدي فريضته . ودلفت إليه وألقيت عليه التحية بالفرنسية ، وتحدثت إليه بها ، فدلتنى لهجته على أنه ليس من أهل هذه اللغة وأن أغلب أمره أن يكون إنكليزيا . وسألته عن جنسيته فعلمت أنه أرنلندي وأنه يقيم « بسرواك » في بورنيو ، أكبر الجزر البريطانية في أرخبيل الملايا ، وأنه أسلم من سنوات خمس ، وأنه جاء ليؤدي الفريضة ، فأقام بجدة سبعة أسابيع حتى أيقن رجال الحكومة العربية من حسن إسلامه وسمحوا له بما يسمح للمسلمين ، دون غيرهم ، من دخول مكة ومن أداء فروض الحج ومناسكه .

واتصل ببنّي وبينه بالإنكليزية حديث طويل ، ومع ذلك لم تطاوعني نفسي على سؤاله عن سبب إسلامه . وعلى رغم ذلك أخبرني أنه في إقامته بسرواك بين المسلمين منذ أكثر من خمس عشرة سنة لم تطب نفسه بما دون التعمق في درس حالهم الاجتماعية والأخلاقية ، والبحث ، بوصف كونه أرنلدياً ، عن الأسباب التي أدت بهم إلى الخضوع لغيرهم . وكانت عقيدتهم الدينية بعض ما عني بدراسته . ولم يلبث حين بدأ هذه الدراسة أن شعر بحافز قوي يحفزه للإمعان فيها ولقراءة ما كتب في اللغات المختلفة عنها وللتزيد من ذلك ولطول التفكير فيه . ولقد أخذت بساطة العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه . ووصلت من تفكيره إلى أعماقه وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذي نزل على النبي العربي وبحضارة الأخوة والإباء التي يدعو إليها ، ويؤمن بأن الحضارة التي تنتشر أوروبا اليوم لواءها في العالم باسم العلم ليست من العلم في شيء ، وإنما هي اللعنة التي صبها الله على العالم ؛ فهذه الحضارة تتلخص عنده في إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التي تكفل لهم سلامة التفكير وسموّ الغاية ، ليخضعوا لأهوائهم وشهواتهم المادية فتضعف نفوسهم ويدلّوا . وأية صلة بين سعادة الرجل أو المرأة وبين منسوجات « لا نكشير » أو حرائر « ليون » أو عطور « باريس » أو ما إلى



ذلك من مواد الزينة والتّرف . وهذه مع ذلك هي مظاهر الحضارة الأوربية وهي السبب الحقيقي الذي تغزو أوربا العالم من أجله . إنما الصلة الحقيقية بين هذه المنسوجات والحرائر والعمّور ، وبين الأموال التي تريد أوربا استنزافها من الشعوب هي إقناعها كذباً بأن الحضارة في الرداء والتّرف والزينة . أما الإسلام فيدعو إلى معنى هو أسمى المعاني ، إلى نبذ كل عبودية لغير الله ، وإلى الاستهانة بالموت في سبيل الله وإلى البرّ والتقوى وإلى الرحمة والمغفرة . وهو يدعو إلى ذلك كله في بساطة وقوة لا حاجة بهما إلى منسوجات أو حرائر أو عمّور ، ولو أن أهل سرّواك وغيرهم من المسلمين أدركوا سر الإسلام إدراكاً عميقاً لكان عندهم ما يعرضه الغرب عليهم ، ولما خضعوا لحكم الغرب ولا ذلّوا لسلطانته ؛ فدينهم يربأ بمن يؤمن به عن الخضوع لغير الله ويجعل الموت في سبيل التخلّص من هذا الخضوع موتاً في سبيل الله يُجزّى صاحبه الجزاء الأوفى .

وأعجبت بحديث صاحبي « المسلماني » أيما إعجاب ، لأنه صادف موضع العقيدة مني ؛ فسألته عما جاء به إلى الحجاز وعن رأيه في حكمة الحج ، وكان جوابه على سؤالى كحديثه الأول حصافة ودقة ، قال : إنما فرض الإسلام الحج ليُشْهَد المسلم الله على نفسه أمام ملاء إخوانه المؤمنين جميعاً أنه نبذ ما اختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار . والله يغفر له ما صدق التوبة ، ليُولَدَ ميلاداً روحياً جديداً يكون بعده خيراً مما كان قبله من علم وبصيرة .

ونحشنا أثر الشمس فصرنا نقصد مضاربنا . ولم نبتعد إلا خطوات وإذا صاحبي يدعوني أن أدخل معه إلى خيمته لنشرب فنجاناً من الشاي معاً فدخلت الخيمة معه ، فألفيت بها سريرين من أسيرة الميدان جعلهما مضجع الليل ومتكأ النهار له ولزوجته . وزوجه امرأة مسلمة من أهل سرّواك ، عرفها وأحبها ، فلما أسلم تزوجها وجاء بها تؤدي فريضة الحج معه . وكانت ساعة دخولنا جالسة إلى جانب من الخيمة وحولها رجال من أهل وطنها . وهي وسيمة غير بارعة . تبدو في جلستها أدنى إلى القصر منها إلى الطول ، قمحية اللون .

عريضة الأكتاف ، ممتلئة في غير سمئة . اشتركت في الحديث بلغة أهل وطنها فبدا صوتها عريضاً عريضاً لعله يؤذن بجماله في الغناء . ولم تُنساو لنا أقذاح الشاي على عادة الأوربيين ، بل ناولنا إياها أحد الجالسين حولها . وأعجبنى هذا الحفاظ على العادات الشرقية ، كما أعجبتني الدقة الغربية في إحضار أسرة الميدان ، واعتبرتها بعض العُدّة الواجبة للمسافر إلى الحج ، والتي تغنيه عن كثير مما يضيق به ذرعاً حين لا يجد بمكة السرير الذي يستريح إليه ، ولا يجد بعرفات ولا بمنى بديلاً منها يغني عنها ويريح الحاج كما تريحه .

وعدنا إلى حديث طويل تكلم أثناءه صاحبي عن المسلمين وعدم إدراكهم قوتهم العظيمة بسبب ما تخدعهم به مزاعم الغرب . فهؤلاء المسلمون يزيدون في آسيا وحدها على مائتي مليون ؛ ولو أنهم أدركوا مبلغ قوتهم وأدركوا قيمة حياتهم الروحية وعظمتها لاستطاعوا تجديد نشاط الإنسانية ، لكنهم متروكون إلى جهالتهم ليسهل خداعهم واستغلالهم ، فانهين لذلك بضعفهم وراضين عن هوانهم .

وعدت إلى قبتي ، واستقبلت كثيرين من الأصحاب جاءوا يزوروني ويشاركوني الحديث في الحج وما يجب لنظامه . وأذن الظهر وجمع الناس بين صلاة الظهر والعصر ، وقاموا يلبون حين قيل لهم إن الخطيب قائم عند مسجد الصخيرات على بعيره يخطب الناس . لكن زحمة عرفات لم تدع لأحد أن يذهب لسماع الخطيب عند مسجد الصخيرات وفي مسجد نيمرة . ثم إن مثل هذه الخطب قد صارت خطباً تقليدية كخطب الجمعة في مساجد مصر ، ألفت الآذان سماع ألقاظها ومعانيها التي أصبحت لا تتفق وروح العصر ، ولا تتفق كذلك وطبيعة الإسلام الداعية دائماً إلى التجدد في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه .

وكان الناس يفدون طيلة النهار إلى عرفات ليؤدوا فرض حجهم ؛ فالحج عرفة ، وساعة الاجتماع والخطبة هي الساعة التي يتم فيها فرض عرفة ، لذلك اكتمل جمعهم قبيلتها . فلما انتهت بدأوا يفكرون في الإفاضة إلى المزدلفة ليذكروا الله عند المشعر الحرام ، ثم يؤمنون منى ليقموا بها ثلاثة

أيام النحر، يرمون فيها الجمرات ، أو يرحمون فيها الشياطين الثلاثة على تحد  
تعبير أهل الحجاز .

وإن الناس لنى تفكيرهم وتأهبهم ، مغتبتين بصحو الجو ، وجمال الهواء ،  
إذ اكفهر الوجود فجأة وهبت الريح عاصفة وثار النقع وتعالى الغبار فى الجو  
ونخطف البرق وهزم الرعد ، وبلغ من شدة ذلك كله أن نسى الناس أهبتهم  
وتفكيرهم واتجهوا بأبصارهم إلى مضارب الخيام يرون ما الريح صانعة بها .  
واقترنت الريح بعض الخيام ، فأسرع أهلها إليها يطورونها خشية أن يمزقها  
الإعصار العاصف . فأما النساء والضعفاء والأطفال فلجأوا إلى ما آتسوا فيه  
قوة المقاومة من الخيام واحتموا بها . وبلغ من هزيم الريح أن كان يُسمع لها  
شهيق وزفير يدويان فى آذان اللاجىء إلى الخيام أكثر مما يدويان فى آذان  
الفار منها . ولقد لجأت إلى خيمتى لحظة ثم تركتها حين رأيتها تميل فى مهب  
الريح وتهتد من فيها بالسقوط عليهم . ووقفت ومعازى من أهل مكة وتوجهنا  
إلى الله أن يصرف عنا وعن الناس السوء والبأساء . مع ذلك ، ومع ما كنا  
وكان الناس فيه من هذه الشدة ، لم تزايل القلوب غبظتها ، ولا برح الأفتدة  
ابتهاجها ، بل بقيت ابتسامة الرضا تطوق ثغور أصحابى وبقيت ضاحك السن  
أرى فيما حولى بعض ما رآه الرسول عليه السلام فى خسوف الشمس يوم موت  
ابنه إبراهيم ، آية من آيات الله جل شأنه ، لا يغير سُنَّته ؟ ويجب علينا أن نرى  
فى هذه الآيات مظهر قوته ، وأن نتوجه إليه تعالت أسماؤه بالابتهال والدعاء  
إكباراً وإعظاماً وخضوعاً وإسلاماً . كذلك فعلتُ وفعل أصحابى ، فانطلقنا  
نلبي ونكبر .

وإنا لذلك إذ تفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، هَمَّتى غير مندر  
برشاش أو مؤذن برداذ ، أين أين المفر ؟! طار أحد أصحابنا إلى حيث النساء  
والأطفال ، فألفاهم أحكموا أمرهم إذ لجأوا إلى سيارة كبيرة من سيارات  
« اللورى » ونشروا فوقهم قماشاً من الخيمة التى سقطت أثناء احتمائهم بها ،  
فوقاهم المطر والريح . أما أنا فكنت أسعد حظاً إذ آويت إلى السيارة التى

جاءت بي إلى عرفات . وكانت (ليموزين) محكمة الأفعال ، وأوى إليها معي من وسعته . والوابل هتون ، والرياح عاصفة تضرب زجاج السيارة كأنها سيات تهوى على جسم فيشتد منها أئينه . وكان زجاج السيارة ساعة اجتمعنا بها يحجب ما وراءها لكثافة ما علق به من الغبار ؛ أما بعد هذه السيات فقد شفت عما في لون الجو المكفهر القائم من بقية الضياء .

وأقمنا زمناً نرجو أن ينقطع المطر ، بعد أن زال ما أثارته الريح من غبار ونحن في مثل ما كنا فيه من رضا النفس وضحك السن . فلما هدأ هتنته ثم انقطع عاد الناس إلى خيامهم المطوية فنشروها وضرىوا منها ما يكتفيهم السويبات الباقية على انحدارهم إلى المزدلفة ثم إلى منى . ودلفت إلى خيمتى واستلقيت على بساطها ، وبقيت هنيهة مستجماً أمدً بصرى تارة من خصائص بابها إلى ضوء القمر المنبسط على الرمال . وأغمض أعضاني طوراً فأسعد بالنسيم الرقيق العذب الذى خلف العاصفة فأنعش نفوسنا وزادنا طمأنينة ورضا . ثم عدت أفكر فيما كنا فيه وفي رضانا عنه واعتباطنا به ، ولو كنا في غير هذه الحال لثار سخطنا عليه ، واشتد برمنا به ، ولفررنا من ثورة الطبيعة مولين الأدبار لا نعتب . وابتسمت لهذه الموازنة بين محالين نفسييتين ما أبعد البون بينهما ! ثم سألت نفسى : ما سبب تباينهما ، وأيها أدنى إلى الحكمة وإلى موجب العقل ؟

وسبب تباينهما بدهى واضح ؛ فنحن اليوم فى تجردنا من الحياة وزينتها وفى توجهننا إلى الله تسمو أرواحنا عن أن نأسى لشيء من أمره . والطبيعة وظاهراتها جميعاً بعض أمره . وماذا بين ثورتها وصفوها ، وبين قطوبها وابتسامها ! وما لنا لا نستمتع بثورتها وقطوبها استمتاعنا بصفوها وابتسامها . إنا لنستمتع بالليل مثل ما نستمتع بالنهار . وهما نقيضان فيما يبدو لنا . وليس لنا اليوم ونحن فى إحرامنا ما نخافه من ثورة الطبيعة ؛ فلن تحول هذه الثورة دون مصلحة من مصالحنا ؛ ونحن لا نفكر فيها ولن يصيبنا منها أذى لأن حياتنا اليوم روحية سامية فوق المادة واعتباراتها . ولو أننا سمونا أبدأً بالروح فوق

المادة لما ابتأسنا الشيء ، ولكننا أبدأ من الصابرين في البأساء والضراء وحين  
البأس . إنما نبتس ونضيق ذرعاً بثورة الطبيعة حين تخضع أرواحنا لمظاهر  
الحياة التي تتأثر بهذه الثورة ، وحين نجعل سعادتنا وشقاءنا ونعيمنا ويؤسنا رهناً .  
بهذه الظواهر المحيطة بنا غير مستمدة من دخيلة نفوسنا وأعماق أرواحنا . فنحن  
نخشى المطر لأن ملابسنا تبتل به فيفسد ابتلالها هندامنا ، ولأننا نخاف أن  
يتسرب من ابتلالها إلينا ما يسوء أثره في صحتنا ، ولو أن ملابسنا كان في مثل  
بساطة الإحرام لما خشينا على هندامنا ولا على صحتنا . ونحن نخاف الزواجر  
أن تحول بيننا وبين مواعيد ضربانها لقضاء مصالحنا . ولو لم تكن أسرى هذه  
المصالح إلى حد الخوف عليها دون الخوف من الموت لوجدنا في ثورة الطبيعة متاعاً  
نفسياً يعدل هذه المنافع أو يزيد عليها . والحق أن الناس إنما يشقون بالحياة  
حين يذلون لمادتها بدل السمو بروحهم عليها . ولو أنهم عاجلوا هذا السمو  
وأدركوه لآمنوا بالمبادئ الإنسانية العليا ، وامتدت عدوى الإيمان منهم إلى  
غيرهم ، ولسمت الإنسانية بذلك إلى مقام غير مقامها الوضع الحاضر .

فأما موجب العقل والحكمة في الحالين فأشد من سبب تباينهما وضوحاً .  
السنا جميعاً نبتغي السعادة ونطمع في بلوغ درجاتها ! . ولا سعادة في الخضوع  
لغير ما توجهه الروح الفاضلة . والإيمان بالمادة خضوع ، فأما الإيمان بالروح  
فسلطان . ولو أننا آمننا بالروح وازدربنا المادة لسمعت لنا المادة وأقبلت علينا  
تلتمس رضانا طائعة صاغرة . فأما ما خضعنا للمادة عن إيمان بها فنحن  
البائسون الأذلاء بحكمها ، يقتلنا الطمع فيها ونحن نحسب جهلاً أننا نحيا به .  
وأرخص الليل سدوله وظلمت في تفكيرى حتى تسبى الأذان للعشاء منه .  
فصلينا وتناولنا طعامنا وأخذنا أمهتنا للإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام . .  
وطال بنا الحديث والناس من حولنا يفتضون ؛ فقد كان أصحابي يؤثرون مذهب  
مالك من أن المقام بالمزدلفة وذكر الله عند المشعر الحرام يكنى فيه مقدار حط  
الرحال ، على أن يصل الإنسان إلى المشعر قبل أن يتصف الليل . وتناول  
حديث أصحابي الحج ومناسكه وحكمة هذه المناسك . وأصحابي كما قدمت  
في منزل الوحي

مكيون يحجون في كل عام ، ولعل أكثرهم يعتمرون في كل عام غير مرة . وهم لذلك مطمئنون إلى مغفرة الله لهم ، جريثون بذلك على تناول الحديث في الأمور المقدسة ومناقشتها بحرية قد تصل بهم إلى ما يعتبره غيرهم إثماً وتجديفاً . قال أحدهم : إنما الحج ومناسكه أمور تعبدية تغيب عنا حكمتها ولا سبيل للعقل إلى فهمها والمسلمون يتمونها لأنها فرض فرضه الله عليهم . فما عرفات وما المشعر وما الجمرات إلا أماكن كغيرها جعلها الله للمسلمين مناسك لحكمة لا يعلمها إلا هو ويجب أن نؤمن بها وإن لم نفهم شيئاً عن حقيقتها وسرها . وقال آخر : بل الحج وسيلة تهوى بها أفئدة من الناس إلى وادينا اللذي لا زرع فيه ، تلك حكمة الله . وآية ذلك ما جعل على من عجز عن أدائه أيّاماً من مناسك الحج من فدية الدم ليطعم الفقراء مما رزق الله الناس من بهيمة الأنعام . وقال ثالث : ليس هذا كل حكمة الحج ؛ وإنما حكمته الأولى اجتماع المسلمين وتعارفهم وتعاونهم ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله . ومن يلجى دعوة التعارف والتعاون جدير بأن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه ، لأنه آثر أخوة المؤمنين على نفسه وطمأنينتها ، فاحتمل مشقة الحجى إلى بيت الله يلقاهم عنده . وعاد الأول إلى الحديث فقال : هذه أقوال تسوِّغون بها أمر الله في الإسلام . فما مسوِّغه أيام كان حج البيت فرضاً قبل الإسلام ، ويوم لم يكن من أديان العرب دين نزل للناس كافة ليكون في الحجى إلى بيت الله من تجشم المشقة ابتغاء الاجتماع بالمسلمين ما يساوى مغفرة الذنوب . ولم يكن يحج البيت قبل الإسلام إلا أهل جزيرة العرب ، وهم ليسوا أكثر من أهل هذا الوادى يساراً ، فلم يكن في هوى أفئدتهم إلى بنيه ذلك الخير الذى نرتجيه اليوم ممن يحجون إلينا ؟ .

عجبت لهذا الحديث ولم آخذ في شيء منه بنصيب . وكيف أشترك فيه وإن كثيرين ليحسبونه « هَرَطَقَةً » يستعبدون بالله منها ويلعنون أصحابها وينصرفون عن السماع لهم ؟ ولست أخفى أننى دهشت لتناوطني إياه ، لم تنههم عنه حرمة المكان ولم يرددهم عنه إحرامهم لله وتلبيتهم نداءه ، وكأنما نسوا قوله تعالى : « وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » ، والتمست سبب جرأتهم هذه ، فوجدت

الجواب حاضراً ؛ إنهم يصعدون إلى عرفات كل عام ؛ وهم يغشونه في غير أشهر الحج ، فلا يرون منه إلا السطح الأجرد لسلاسل الجبال القريبة منهم بمكة ، ويرون هذا السطح صنفصفاً ليس يعمره إلا بعض البدو في أوبارهم . ولطول ما تردّوا عليه اختلطت صورته المادية بالمعنى الروحي السامى لفريضة الحج ؛ وذلك شأنهم في إدراك المناسك بالمزدلفة وبمنى . وإذا اختلطت الصورة المادية لموضع ما بالمعنى الروحي لأية فكرة سامية تتصل به ، طغت الصورة على المعنى ، إلا أن يكون المؤمن به بالغاً من الإيمان غايته ، أو كان من المهذّبين المثقّفين الذين يستطيعون التفريق الدقيق بين مظاهر المادة الدائمة المور، المختلفة الأطوار ، وبين الروح المتصل الخالد الذى لا تحدّه المادة ولا يعرف حدوداً للزمان ولا للمكان . ولقد كان الكهنة الأقدمون في اليونان وفي مصر أشدّ الناس سخراً من إيمان المؤمنين بالأصنام ، وإن لم ينل هؤلاء الكهنة من التهذيب حظاً يطوع لهم إقناع الناس بوحدة الله ، وبأن الروح من أمره ، وبأنه سام فوق المادة غير محدود بحدودها . ونقص تهذيبهم وما يؤدّى إليه هذا النقص من ضعف إيمانهم هو الذى كان يجعلهم يقصّون على الناس ما يزعمونه معجزات الأصنام ليفيدوا من أعطيات هؤلاء الناس ما ينفعهم في حياتهم المادية . ولو أن إخواني المكين هؤلاء كانوا مع جماعة غير مثقفين لما تحدثوا حديثهم الذى قدّمت ؛ أو لنزعوا فيه ، أغلب الظن إلى ناحية أخرى . لكنهم أرادوا أن يُظهِروا لى مبلغ حريتهم في التفكير لما يعلمونه من شدة حرصى على الحرية وإيمانى بأنها السبيل إلى الإيمان الحق . ولعلمهم أرادوا أن أشاركهم في حديثهم وأن أقصّ عليهم من رأى ما لعله ينفعهم . فلما رأونى ممسكاً عن القول مكتفياً بالإنصات لهم ، أثار أحدهم جدلاً فى مناسك الحج فقال :

— لم يرد فى القرآن عن الحج وفرضه غير قوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » ، والبيت هو الكعبة . فأين فى غير سنة الرسول ما يفرض الصعود إلى عرفات والقيام بما سواه من مناسك الحج ! .

ولقد ورد في القرآن من تفصيل فرائض الوضوء والصلاة والصوم ما لم يرد مثله في الحج إلا ما جاء عن البيت والطواف به .  
وأجاب أحد الحاضرين بقوله :

— من المأثور عن النبي عليه السلام أنه قال : « الحج عرفة » . ولقد ورد في القرآن ذكر عرفات والإفاضة منه بعد الوقوف به ، والمَشْعَر الحرام وذكر الله عنده ؛ فالقول بأن فرائض الحج لم تزد في القرآن فيه تجاوز غير جائز .  
وأدى هذا القول إلى التساؤل عن الجبل الذي نحن عليه ما اسمه الصحيح :  
أهو عرفة أم عرفات ؛ فالحديث أن الحج عرفة ، والقرآن يقول :  
« فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَاقَاتِ » ، ولجأ القوم في تفسير ذلك إلى قواعد البلاغة العربية في إطلاق الجمع وإزادة المفرد وإطلاق المفرد وإزادة الجمع . واطرد حديث القوم والليل ينساب إلى ناحية منتصفه ، وجعلت أنوار المضارب في البطحاء تخبو شيئاً فشيئاً ، ثم طويت الخيام وتحمل القوم مُفِيضِينَ . فلما كان من منتصف الليل على ساعتين أو نحو ذلك كانت بطحاء عرفات قد خلت من الناس إلا قليلاً ، وكان ضوء القمر وحده هو الذي يمدّ على رمالها بساطه الوضّاء . وما أجمل ضوء القمر منسبطاً على الرمال الممتدة إلى حيث لا يعرف النظر غير الأفق حدّاً ! وما كان أجمله في تلك الساعة بلغ صفو السماء وصفو الجوّ فيها من أثر المطر ما زاد ساهر السماوات بهاء ونوراً .

وقمنا يسعدنا نسيم الرقيق إلى سيارتنا لنفِيض كما أفاض الناس . وانطلقت بنا السيارة نحو المشعر الحرام ، وإن في نفسى إلى عرفات لهوى يدعو إلى العودة إليه والمبيت في مضاربه والوقوف به ملبساً شاكراً ، داعياً مستغفراً . ذلك موقف لم أعرف مثله في حياتي كلها روعة وسمواً بالنفس في صدق وإخلاص إلى الله جل شأنه ، ولم أعرف مثله في حياتي كلها دعوة إلى إخوان المؤمنين ليتحابوا بنور الله بينهم .



## أيام التشريق

يقف الناس إذ يفيضون من عرفات عند المشعر الحرام يذكرون الله عنده ثم ينحدرون إلى منى ليقیموا بها أيام النحر ثلاثة أو أربعة يرمون أثناءها الجمرات . وكان العرب قبل الإسلام يسمون أيام النحر هذه أيام التشريق . ولم يمح الإسلام هذا الاسم وإن غلب عليه أيام النحر . وفي المعجمات أسباب مختلفة لتسمية التشريق هذه . فبعضهم يذهب إلى أنها تطلق لأن الضحايا تنحر بعد شروق الشمس ؛ ويذهب آخرون إلى أنها سميت كذلك من تشريق لحم النحر أى تجفيفه . ومهما يكن السبب فى إطلاق اسم التشريق على هذه الأيام فقد بقى هذا الاسم لم يحمه الإسلام ؛ فما تزال كتب السيرة على اختلافها تذكر أن بيعة العقبة الثانية وقعت فى أوسط أيام التشريق ؛ وقد وقعت هذه البيعة بعد ثلاثة عشر عاماً من بعث الرسول ، أى قبيل هجرة المسلمين إلى يثرب .

وبيعة العقبة الثانية ، بل بيعة العقبة الأولى والثانية ، عاتم مضى فى تاريخ الإسلام كغزوة بدر الكبرى . أما وكتب السيرة تجمع على أنهما ، أو كبراهما ، وقعتا فى أيام التشريق فإنى أؤثر أن أحفظ بهذا الاسم ، وأن أطلقه على أيام النحر فى منى ، وأن أجعله لذلك عنوان هذا الفصل من الكتاب .

أفضنا إذن قبيل منتصف الليل من عرفات يسعدنا نسيم الرقيق ويضىء لنا ساهر السماوات ما حولنا ويبهر نور السياره الطريق . وبلغنا المشعر الحرام ، فنزلنا وذكرنا الله عنده ، ثم جمعنا جمارنا ، كى نرجم بها الصخرات بمنى . ورأيت على مقربة منا أنواراً عرفت أنها بعض المقاهى القرية منى ، وأن الحجيج الذين أفاضوا أول الليل يقضون ليلهم بالعراء عندها ليكونوا على أبواب منى قبيل الفجر . أما نحن فقد انتظرتنا سيارتنا حتى أتمنا ذكر الله وجمع الجمار ، فلما كنا فى النصف الأخير من الليل أقلتنا إلى منى فكنا على أبوابها قبيل الفجر . ولمنى أبواب كالتى نعرفها فى الحضر ؛ فهى ليست بطحاء جرداء

كعرفات ، وليست مسجداً قائماً في عزلة كالمشعر الحرام ؛ إنما منى قرية بها مبان ومنازل ، ألا يكن أكثرها عامراً في غير أيام الحج فبعضها مملوك لفخذ من قريش يقيمون به طوال عامهم ، ويؤجرونه أيام الحج لمن يأوى إليه ، وبعضها مملوك لجماعة من أهل مكة يقيمون به أيام النحر أو يؤجرونه لمن شاء من الحجاج أن يستأجره .

وقابلنا عند أبواب منى مخفر للشرطة وقفنا عنده ، وقدّم إليه سائقنا جواز مرونا . فلما جاوزه في طريق فسيح تقوم المنازل على جانبيه قابلتنا صيحات عالية فيها ترتيل يسترعى السمع ؛ تلك صيحات الباعة الذين قضوا ليلهم في انتظار الحجيج بعد إفاضتهم كي يعرضوا عليهم سلعهم من طعام وفاكهة ، ومن سُبَّح وما إليها مما يتبرك به قصّاد الأماكن المقدسة . ومرت السيّارة بنا خلاهم حتى وقفت عند جمرة العقبة الكبرى . هنالك نزلنا فرجمناها ثم عدنا إلى منزلنا بمنى ، وقد آن لنا أن نتحلل التحلل الأصغر . على أنى آثرت بعد أن فكرت ملياً أن أبقى محرماً حتى أطوف وأسعى وأتحلل التحلل الأكبر . وسحبت من متاعى سجادة صلاة فرشتها وألقيت بنفسى إليها أتمس إخفاءً تعدّتي لإتمام مناسكى . وما أحسب أحداً من الحجيج زار النوم أجفانه تلك الليلة إلا لتماماً ؛ فقد أقام الباعة يصيحون حتى ارتفعت الشمس فوق الجبال . ولعل الذين أورا إلى مضارب في صحراء منى لم يكونوا أسعد بالنوم حظاً وإن كانوا عن صياح الباعة أكثر بعداً ؛ فقد نال أكثرهم إخفاءته بالمزدلفة ، فلما بلغوا منى وأتموا شعيرة التحلل الأصغر كان النهار قد نشر في الأرجاء نوره . وأتى لإنسان أن ينام في قبة يسرى الضوء في فرجاتها ! وأتى له أن ينام هذا اليوم ، يوم النحر والعيد الأكبر ، وقد بلغ منى ليصلى الفجر وليصلى العيد وهو في غبطته ونشاط نفسه لقضاء الفريضة في عرفات وذكر الله عند المشعر الحرام !

ومرّ بنى مضينى كما أعدّ نفسى لنهبط إلى مكة نطوف ونسعى . وكان رجاؤنا أن ندرك ابن السعود في طوافه وسعيه . وأقلّتنا السيّارة وانطلقت بنا على

هُونَ بين قوافل الإبل ، فرأيت هذا الطريق من منى إلى مكة لأول مرة في ضوء النهار . ولم أستبين منه كثيراً ونحن في زحمة من هبطوا يقصدون إلى ما تقصد إليه من الطواف والمسعى ، وإن حرص مضيبي على أن يذكر لي أنه طريق جديد شقته الحكومة القائمة في الجبال ، وأقامت إلى جانب قسم طويل منه سوراً يمنع السيول أن تطغى عليه . ولم يطل بنا السير حتى كنا على مقربة من مكة ؛ إذ ذلك اجتمع هذا الطريق بطريق الإبل ، ولم يكن للسيارة بدءاً من التمهّل والوقوف أحياناً . فلما بلغنا قصر الملك لفت مضيبي نظري إلى الجبل القائم عن يميننا بين جبال عدّة وكأنه منها في عزلة الناسك ، وقال : هذا جبل النور . وصادف لفتته نظري وقوف السيارة لمرور قافلة أمامها ، فتوجهت ببصري إلى هذا الجبل الذي اختاره النبيّ العربيّ ليتعبّد فوقه قبل أن يبعثه الله نبياً . توجهت ببصري إليه فاسترعى كل انتباهي بهذه العزلة التي تفرّد بها عما حوله من الجبال ، وبهذه الاستقامة المخروطية في انطلاقه إلى السماء استقامة تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان لغاية خاصة ، منه إلى جبل قائم بين عشرات من الجبال حوله ، لا يميزه عنها إلا الحادث الفذّ الذي جعله القدر نصيبه ، حادث هبوط الوحي الأول على رسول الله فوقه .

ودخلنا مكة وقصد مضيبي إلى دار أحد معارفه لتتوضأ قبل أن نطوف ونسعى . وكانت الدار في طريق يجاور المسعى ؛ فلم يكن بدءاً من أن نخترق صفوف الساعين إليها . وأجلت بصرى أنفوس في وجوه هؤلاء وأتحرى أمر هذا المكان الذي يؤدّي المؤمنون اليوم فيه منسكاً كان إخوانهم يؤدونه فيه منذ مئات وألوف من السنين خلت . ولقد كنت في حاجة إلى الدقة في تعرّفه ؛ فلم ترتسم منه لدى صورة حين سعت فيه سعى العمرة قبيل الفجر أول ما حللت مكة ، لأنني كنت في شغل بالسعى والدعاء ؛ ولم أقف صبح الغد من ذلك اليوم على كل ما أردت منه . وألفيت وجوه الساعين في هذا الصباح من يوم النحر أكثر طمأنينة وأصواتهم في الدعاء أدنى إلى السكينة ، وكأنما شعروا بعد أن أتموا فرض الله بعرفة أنهم أدنى إليه ، فدعاؤهم إياه أدنى أن يستجاب .

ويحصرهم هذا المكان الظليل بسقفه المهلهل والمباني الرفيعة القائمة على جانبيه في غير انتظام رغم فخامة بعضها ، فلا يرون ما كان يراه أسلافهم من زرقة السماء وفسيح الصحراء . وهم يهرولون أول سعيهم أثناءه ثم ينبعثون سائره بخطى مطمئنة ، ولا يفترون أثناء ذلك عن ذكر الله ولا عن التلاوة والدعاء .

وانعطفت وراء مضيبي في زقاق ضيق قدر متصل بالمسعى ، ثم صعدنا بعد خطوات فيه درجاً يشهد بأن الدور تقوم على ربوة قديمة . ودق مضيبي باباً فتحه أهله واستقبلونا بالتحية والترحيب رغم مجيئنا على غير انتظار . وتناولنا القهوة وتوضأنا وصلينا ، ثم قصدنا إلى المسجد الحرام نطوف طواف الحج ، لنسعى من بعد ذلك سعيه . ودخلنا المسجد فعلمنا أن الملك سبقنا إليه فطاف وسعى من بكرة الصباح . وألقيت بنظري أول ما دخلت إلى ناحية الكعبة فألقيتها نصف عارية من كسوتها ، وألقيت القسم الذي لا يزال مكسوراً منها عليه ثياب بيض وضعت قبيل يوم عرفة إيداناً بإحرام البيت العتيق . واليوم، يوم عيد النحر تنزع عن الكعبة ثياب العام الذي ودعنا لتوضع مكانها ثياب العام الذي نستقبله وأبدي عُرْبَيْهَا أحجار الجرانيت الأسود الذي بنيت منه دالّة على صلابة وقوّة على الزمان . والناس يطوفون بها، ومنهم من حل لإحرامه في منى ، ومنهم من لا يزال محرمًا . وانبسبت أشعة شمس الصباح في صحن المسجد الفسيح وأضاءت بنورها كل أرجائه ، والموكلون باللباس الكعبة كسوتها ينزعون عنها الثياب البيض ، ثياب الإحرام ، وينزعون كسوة العام الماضي ليُسَدَّلُوا مكانها كسوة هذا العام . ويفرغ الناس من طوافهم فينحرفون إلى مقام إبراهيم وإلى حجر إسماعيل يصلون فيهما . ثم يقصدون إلى البناء القائم فوق زمزم يلتسسون عنده شربة من مياه بئر إسماعيل . أما نحن فقد يمينا زمزم منذ دخلنا المسجد ، ودق مضيبي باب مقامها ففتحها لنا الموكلون بها ، فتوضأنا من مائها ولبسنا خفصافاً وخرجنا نطوف بالكعبة . ولم يكن معي في هذه المرة مطوّف أتلو من بعده ما يتلو من الأدعية . لذلك تركت نفسي على سجيئتها تتجه إلى الله كما أفهم أنا كيف يجب أن يتوجه الإنسان إلى الله ، فإذا مررنا بالركن

اليماي سميها الله وكبرنا وتلونا قوله تعالى : « رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً  
وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » وعدنا إلى تسمية الله وتكبيره قبالة  
الحجر الأسود، وانطلقنا بعده تم الطواف ونحن ندعو ونستغفر والطائفون طواف الحج  
يسرون سيرتنا يسمون الله كما نسميه ويكبرونه كما تكبره ويتلون من الأدعية  
ما يلقى المطوف عليهم أو ما تحيى به خواطهم وما يريدون الاستعانة عليه بالله  
في أمرهم وفي أمر من يحبون من ذويهم وأهلهم .

وأتمنا الطواف وصلينا في مقام إبراهيم وفي حجر إسماعيل ، ثم انتحينا إلى  
فيء قباب المسجد فجلسنا وتناولنا شربة من زمزم وصلينا . وأقمت مكاني هنية  
محدثاً ببيت الله وبالطائفين به وبالركع السجود . وإني لكذلك إذ مرت  
بخاطري صورة الرسول الكريم عليه السلام في عمرة القضاء . يومئذ ظنت قريش  
به الظنون وحسبته وأصحابه في عسرة وجهدهم وأهناهم وضعضعا من عزمهم . ألم  
يجيئوا ليعتمروا قبل عام من ذلك اليوم فلما صدتهم قريش عن مكة وحالت  
بينهم وبين البيت كفى محمداً أن يعقد معها عهد الحديبية وأن ينصرف إلى  
يثرب ! ولولا العسرة والجهد لما فعل ولما ارتضى أن يؤجل عمرته وعمرة المسلمين عاماً  
كاملاً ، ذلك ما خيّل يومئذ إلى قريش . فلما انقضى العام وأقبل المسلمون إلى  
مكة ومحمد على رأسهم وانصرف قريش عنها إلى الجبال المحيطة بها ، أراد  
الرسول أن يريهم كيف هموا فيما ظنوا من ضعف المسلمين ووهنهم ، فلم يلبث  
حين دخل المسجد ونادى بنية الطواف أن أخرج ذراعه اليمنى من رداءه ، وأن صاح  
بأصحابه : « رحم الله أمراً أراهم اليوم من نفسه قوة ! » ثم استلم الركن عند  
الحجر الأسود وهول ، وهول أصحابه من رداءه ، حتى بلغ الركن اليماني . هنالك  
مشى إلى الحجر الأسود مسبحاً الله مكبراً إياه . ثم هول من جديد وأصحابه  
يهرولون حتى أتموا ثلاثة الأشواط الأولى ومشوا سائر الأشواط السبعة . ورأى  
المشركون من قريش كذب أوامهم ، إذ رأوا محمداً والألفين من المسلمين  
معه أقوياء لم يصبهم نصب ولا لغوب . والمسلمون لا يزالون إلى اليوم  
يهرولون في الثلاثة الأشواط الأولى اتباعاً لسنة الرسول ، وإن لم يعرف أكثرهم

حكمة هذه الهرولة، وإن لم يَدرْ بخاطر أكثرهم ما يدل عليه هذا المظهر من أن الإسلام دين بأس وقوة ونظام .

والمسلمون اليوم يطوفون لا يؤمهم أحد ، وهم لذلك تختلف أثناء الطواف صفوفهم ، لا يهرولون في نظام ولا يتدسّسهم في نظام . وشتان في ذلك ما بينهم وبين المسلمين الأوّلين . شتان ما أرى اليوم وما كان في عمرة القضاء أو في حجة الوداع . كان محمد يؤمّ ألفين في عمرة القضاء ، ومائة ألف في حجة الوداع ، يسرون كلهم سيره ، ويتبعونه ، في نظام أدق نظام ، هرولة ومشيّاً واستلاماً للركن أو للحجر الأسود . وهذا النظام المتصل بروح الإسلام سبب من أسباب القوة ، بل هو مصدرها وملاكها . وهذه الإمامة يقوم بها رجل مطهر يؤمن أصحابه بصدقه هي روح هذه القوّة وقوامها . ولو عاد المسلمون إلى الإمامة والنظام في الحج وفي غير الحج ، ولو أنهم واءموا كما يوائم دينهم بين حرية تامة أساسها الإيمان بالله وحده وإبائه الخضوع لكل من سواه ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وبين هذا النظام الكفيل بحرية الجماعة وحياتها — إذن لاستطاعوا أن يؤدوا في العالم رسالة الإسلام كرّة أخرى، ولسعد العالم بهذا الدين كما يجب أن يسعد به .

مرّت هذه الخواطر بنفسى وأنا في مكاني من فيء المسجد ، فانطلق ذهني على أثرها يفكر فيما يجب أن تكون الإمامة والنظام في العالم الإسلامي الحاضر ، وكيف يجب أن يكونا في الطواف والسعي وسائر فرائض الحج ومناسكه . وإلى لني تفكيرى إذ نهى مضيقى إلى القيام لنسعى . وأتمنا السعى بين جماعة الساعين يزحمننا هذا ويدفعنا ذلك ويعترضنا بين آن وآخر صف من النجديين شكوا أيديهم بعضهم ببعض ، فإذا صادفهم ساع صاحوا به : طريق ! طريق ! وانطلقوا في سعيهم ينادون ربهم بلغتهم : « رب اغفر . حتما تغفر . إن لم تغفر من ذا يغفر » وذكر بعض أصحابى أنه سمعهم يقولون : « رب اغفر . حتما تغفر . إن لم تغفر جنتك تصفر » . ويمر بين هذه الصفوف كما يمر بين صفوف الطائفين بالبيت ما بين حين وحين جماعة يحملون مِحْفَةً عليها

شيخ أو عجوز أو مريض لم تستطع قدماه حمله ليطوف ويسعى . فطاف به هؤلاء وسعوا ، والمطوف يسير إلى جانبهم يدعو والحمول في المحفة يدعو معه . وكما يسعى الناس رجالاً وفي المحفّات يسعى بعضهم ممتطين جياداً أو مستقلين السيارات وهؤلاء يرون أن لا جناح عليهم وقد سعى رسول الله في عمرة القضاء راكباً بين الصفا والمروة ، وإن رأى بعض الفقهاء في السعى على الأقدام مزيداً في المثوبة . وكان الشيخ عبد الله بن بليهد عالم نجد يسعى ممتطياً جواداً . ولقد كان يحدثنا ساعة نزلنا معاً من منى أنه يريد السعى في سيارة لأنه لا يطيق السعى ماشياً ولا يحب السعى في محفة . ولهذا العالم النجدى عذره ، فهو عالم تقدّمت به السن فتضعفت صحته بعد أن لوّح وجهه هواء الصحراء في أسفاره بين نجد والحجاز ، فهو أشعث أغبر . وهو رجل ناحل الجسم ، يعلو عنقه الدقيق رأس عريض الجبين ، ذكّى النظرة تلمع عيناه يبريق لم تطفئه السنون ويدل على حيلة واسعة وبصيرة نافذة . وهذا الرجل خليفة محمد بن عبد الوهاب الحنبلي مجدد المذهب في نجد . والذي خلع اسمه على الوهابيين الذي اقتدوا به في اتباع ابن حنبل . وابن بليهد هو لذلك روح الحركة الوهابية في هذا الدور الحديث من أدوار حياتها وهو موضع التبرجيل والاحترام من النجديين جميعاً . من مليكهم عبد العزيز بن سعود إلى أصغر صغير فيهم . وهو مع ذلك وعلى ما رأيته ، من أشدّ الناس زهداً في الدنيا وزخرفها وغرور متاعها .

وأتمنا السعى سبعمًا ، وأن لنا أن ننصرف وأن نتحلل التحلل الأكبر . على أنى وقفت هنيهة قبل منصرفنا أمام مقهى من المقاهى القائمة وسط المسعى وقلت لصاحبي : أفيليق أن تقوم أمثال هذه المقاهى والحوانيت على حافة هذا المكان المقدّس ؟ قال : إنها ليست على حافته . بل هي قائمة داخل حرمه . والذين أقاموها لم يتقوا الله ولم يرعوا حقه ، بل اعتدوا عليه عدواناً مبيهاً . والعجب أن منهم من اجترح هذا العدوان تبركاً بأرض هذا المنسك ، فاسياً أنه يؤثر بها نفسه ويحرم منها ملايين المسلمين على تعاقب الأجيال .

ولقد ثارت نفسى حقاً لمنظر هذه المقاهى وهذه الخوانيت التى تتجر فى السَّبَّحِ والمنسوجات وما إليها مما يتبرك الحجاج به ، وزاد نفسى ثورة منظر صياقة النقود الذين يصكون الأذان بصريريالانهم السعودية إعلاناً بها عن أنفسهم ! ما لهذا المكان الذى يتوجه فيه الناس إلى الله بالتوبة والاستغفار وصرف النقود والجلوس إلى المقاهى وتبادل التجارة ! وما لهذا المكان الذى ينسى الناس فيه تجارة الحياة ليتصلوا فيه ببارئهم وهذه الحماقات من تجارة الحياة ! أليس من الخير أن تظل لهذا المكان حرمة كاملة وأن تكون الخوانيت فى طريق غيره قريب منه ، إن لم يكن بد من أن ينصرف الناس بعد استغفار ربهم إلى شرب القهوة وشراء السبحة والمكحلة وإلى صرف النقود للتبادل .

وليس ذلك كل ما يثير النفس لحال المسعى ؛ فقد بلغ من إهمال شأنه وهو منسك من مناسك المسلمين ، حدّاً بعيداً . واجتياز بعض الطرق إياه ومرور الدواب والعربات والسيارات فى هذا الطريق بين الساعين بعض مظاهر هذا الإهمال . فإذا أنت تحدثت فى ذلك قبل لك : وما عساك كنت تقول من عهد قريب وقبل أن ترعى الحكومة الحاضرة هذا المنسك بعنايتها ؟ فقد كان حرماً للكلاب تقيم فى ظلاله نهارها وليلها لا يُزعجها من مرقدتها أحد وكأنها حمام الحمى .

لقد كان المسعى إلى صدر الإسلام طريقاً مستقيماً يصل بين ربوق الصفا والمروة متصلًا بما حوله من فسيح الصحراء وهضابها وتطل عليه الجبال المحيطة بمكة ، أما منذ مئات من السنين فقد بلغ من طغيان الدور التى أقيمت فى حرمة أن اعوج اعوجاً يحول دون رؤية الصفا من والمروة أو رؤية المروة من الصفا كما حال سقفه بين الساعين وفسحة الجوّ وبهاء السماء ، وأحيلت كل من الربوتين درجاً أحيطت جوانبه الثلاثة بالجدران ؛ أما أرضه فقد رصفت بالحجر رصفاً غير منتظم .

تثور النفس لهذه الحال التى عليها المسعى . ولولا أن الناس يحسبونه كذلك منذ وجد ، ولولا أنهم إذ يرونه يشغلهم السعى عما سواه ، لقام بينهم من يدعوهم



إلى الثورة لإصلاحه ، وإزالة هذا المساس بجرمة مكان يجب أن يحاط بكل تقديس وإجلال . ذلك كان شعورى ساعة منصرفى من المسعى . وما زال هذا الشعور يحزّ في نفسى . فلعلنى أجد من يشاركنى في دعوة المسلمين إلى إصلاح منسك من شعائر الله ، ولعلنى أجد من الحكومات الإسلامية استباقاً للخيرات وإجابة لهذه الدعوة .

انصرفت من المسعى إلى الدار بمكة ، فحلت إحرامى ولبست العقال والعباءة العربية - أو المشلح - كما يسمونها ، وأقلتنى السيارة عائدة إلى منى ، ولا يكاد من يرانى يشك في أنى عربى من أهل البلاد . فلما حاذت السيارة حراء استوقفت سائقها لأمنع النظر بهذا الجبل كرة أخرى ، فلقد شعرت له في نفسى بهوىّ أىّ هوىّ ، ووددت لو استطعت أن أحيط خُبراً بكل ما جلّ أو دق من أمره .

وبلغنا منى قرابة الظهر ، وأويت إلى الدار فيها . ودور منى غاية في البساطة ، وليس بها من الأثاث إلا ما يحمله الحاج من مكة إليها . لذلك كان سرير الميدان من نوع ما رأيت عند صاحبي « المسلمانى » بعرفات ذا فائدة بها أكبر الفائدة . وهذه الدور بعد معدودة لا تسع من الحجيج إلا عدداً محدوداً . وهى تقع بين سلسلتى الجبال المتحاذيتين المارتين بمنى ، ويمر من بينهما الطريق الرئيسى إلى مكة . فإذا كنت مقبلاً بإحداها رأيت من نافذة الدار المطلة على الطريق كل ما في منى من حياة أيام التشريق ، ورأيت الدور المقابلة لدارك مطمئنة في أحضان الجبل الشامخ عليها ، ثم رأيت من النافذة الخلفية سلسلة الجبال الأخرى تحدد نظرك عن تبيين ما وراءها كما تحده سلسلة الجبال الأولى . وقد خلع أهل الحجاز على جبال منى من بهاء الأساطير ما لا يكاد يترك حجراً منها إلا جعل له قصة من الأفاصيص المتصلة بحياة الأنبياء . فهذا الطريق الصاعد في الجبل هناك والذي نراه قبالتنا من نافذة الدار ، هو بحجر الكعبش الذى ذبحه إبراهيم الخليل فداء لابنه إسماعيل . وهذا الحجر الثانى في الجبل المقابل له هو طاوية النبي حين اختفى يوماً من قريش أو غير قريش فلاذ بهذا

المكان . والطاقيّة هي هذه الفجوة التي دخل فيها رأس النبيّ إذ لان حجر الجبل لاختفائه فيه . وهناك هناك في موضع لا يحدّده العرّافون من الجبل مكان أَرادت الشياطين فيه أن تعبث بنبيّ من الأنبياء فانتهرها . وأكثر هذه الأساطير لا سند له في كتب السيرة أو كتب التاريخ المحترمة . وأهل مكة يقرّون بذلك لمن سألمهم عنه . والأذكياء منهم لا يسلمون بصحة ما يقصونه . مع ذلك يتبرك أكثر الحجاج من الأقطار الإسلامية المختلفة بهذه المواضع ويُرَوون ظمأهم الروحي بمشاهدتها . وما لم لا يفعلون وكثير من هذه الأساطير مدوّن في كتب متأخرة أراد أصحابها بها سحر الجماهير السريعة إلى تصديق الخوارق ، والتي لا تعنى من الروايات إلا بما يتفق مع هواها .

تقع دور منى على جانبي الطريق الفسيح المؤدى إلى مكة . وتقوم في هذا الطريق الصخرات الثلاث التي يحصبها الحجيج بجمارهم ، ولذلك صارت تسمى الجمار الثلاث . كبرها جمرّة العقبة ، وعلى مقربة منها الجمرتان الوسطى والصغرى . وهذه الصخرات أو الجمرات هي اليوم قوائم من الحجر ناتئة من الأرض إلى ما فوق قامة الرجل الفارع الطول ، أحيط كل قائم منها بسور من الحجر يقف الناس عنده ويحصبون هذه الأحجار قضاء لمتنسك منى . والجمار لا تلتقى يوم النحر ، إنما يحصب الحاجّ جمرّة العقبة أوّل بلوغه من بعد الإفاضة من عرفات ليتحلل التحلل الأصغر . أما الجمرتان الوسطى والصغرى فترجمان في اليومين التاليين ليوم النحر . فإذا تم هذا المنسك تم الحج ، وهبط الناس إلى مكة ليعودوا منها بعد طواف الوداع إلى أوطانهم أو ليذهبوا لزيارة مدينة الرسول . وأكثر الناس يهبطون إلى مكة ثالث أيام النحر ويهبط بعضهم رابعها . ويطلق أهل الحجاز على هذه الصخرات اسم الشياطين . فإذا أراد أحدهم أن يدلّك على منزل شخص معين من منى قال : إنه إلى جانب الشيطان الكبير ، أو على مقربة من الشيطان الصغير ، أو بين شيطانين معينين من الثلاثة . وترجع هذه التسمية إلى ما تزويه بعض الكتب عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأن الله بعث ملكاً يُريه مناسك الحج حين أمره أن يؤدّن في الناس به .

وظاف الملك معه بالبيت وسعى به بين الصفا والمروة ثم صعد وإياه متجهًا إلى الجبل ؛ فلما كانا بمنى تبدى الشيطان لإبراهيم يُغويه فحذفه إبراهيم بالحصى فولى هاربًا ، ثم تبدى له كرة أخرى فحذفه فولى ، ولما حذفه للمرة الثالثة ولّى مدبراً ولم يعقب . وتذهب الرواية إلى أن الشيطان تبدى في كل من هذه المرات الثلاث عند صخرة من هذه الصخور الثلاث ، ولهذا أطلق أهل الحجاز اسم الشياطين عليها . وانطلق الملك بإبراهيم من منى إلى المشعر الحرام وسار وإياه حتى بلغا عرفة . هنالك قال له : الآن عرفت مناسكك . وسمى هذا الجبل عرفة أو عرفات لأن إبراهيم عرف عنده مناسك حججه .

والحمرات مناسك منى . والناس يرحمونها لأنها تنقص الشياطين فيما يقول أهل الحجاز . وهم لذلك يرحمونها ناقلين عليها أشدّ النقمة . ولقد بلغ من نقمة أحدهم أن قذفها بجذائه ؛ وأطلق بعضهم على أحدها « مسدسه » أملًا أن يقتل الشيطان بقذيفته . أما وهذه عقيدة الناس فيها فليس طبيعيًا أن يتلمسوا البركة منها ؛ إنما يتلمسون البركة من منازل الأنبياء والقديسين فيما ترويه الكتب ، كما أنهم يذكرون الله ويتلمسون مغفرته وثوابه في مساجده .

ومنى مسجدان يقعان في سفح ثبير ، وأحدهما أقرب إلى طريق مكة من الآخر . فأما الأوّل فمسجد الكوثر ، وهو مسجد صغير يقوم في مكان يروى أن النبي عليه السلام كان به حين أوحى الله إليه سورة الكوثر . والناس يتبركون لذلك بهذا المسجد ، ويؤمه كثيرون من الزمّنى يتمرغون في ترابه ثقةً منهم بأنه يشفيهم من أمراضهم . أما الآخر فمسجد الخيف ، وهو أكبر مسجد بين مكة وعرفات بعد المسجد الحرام ، وكان أكبر من المسجد الحرام في الصدر الأوّل من الإسلام .

ومسجد الخيف قديم العهد حتى لتروى بعض كتب التاريخ أن أربعين أو خمسة وأربعين نبيًا صلّوا فيه . ويذكر بعضهم حديثًا عن الرسول عليه السلام أن هذا المسجد هو الذي تبايعت فيه الأحزاب من العرب واليهود على قتال محمد والمسلمين بالمدينة ، وأن الأحزاب خرجوا منه لغزوة الخندق .

وبمسجد الخيف صلى رسول الله في حجة الوداع حين مقامه بمنى أيام التشريق . ولا يزال المسلمون يصلون به يوم النحر وأيام الجمرات ، فهو وحده الذى يتسع لعشرات الألوف منهم إذ يجتمعون للعبادة والتعارف .

وقل أن يصلى بمسجد الخيف أحد في غير أيام الحج حين تكون الصلاة به سنة يجتمع لها ألوف المسلمين وعشرات أوفهم . وهو لذلك البساطة كل البساطة في عمارته التى لا تزيد على جدران أربعة تحيط بمساحة فسيحة من الأرض ، تتوسطها مبلغة - أو « مكبرية » - لصلاة الجمعة أو الجماعة ؛ على أن الجانب المتصل منه بجدران القبلة مستوف بقباب قائمة على عمد متينة من الحجر تتسع لما بين الألف والألفين من المصلين . وجدرانه الأربعة متينة البناء . وبابه الكبير معقود على عمد أربعة عقداً قوياً يبعث في الذهن صورة الآثار القديمة . وللمسجد أبواب أخرى يسلك المصلون أثناء الحج طريقهم إليها ، لأن الباب الكبير لا يتسع وحده في هذه الفرصة لأوفهم الكثيرة .

وإن بمنى لمكاناً يثير الذكرى ويستوقف النظر ، وإن لم يكن في فسحة مسجد الخيف ولم تكن له عمارة كعمارته . والمسلمون يؤمنون هذا المكان أول إفاضتهم من عرفات ، وقل من يذكر منهم حين وقوفه أمامه أكثر من أنه منسك من مناسك الحج تؤدى شعائره ؛ ذلك مكان العقبة الكبرى حيث تقوم الجمرة التى يلقىها المسلمون ليتحللوا الأصغر . هذه الجمرة وعلى مقربة منها مسجد العقبة يثيران في النفس ذكرى البيعتين اللتين تمتا بين أهل يثرب ورسول الله ، فهتدنا لهجرته وكاننا بذلك مبدأ الفوز وأذاناً من الله بأن يفتح لرسوله وينصره نصراً مبيناً .

قل من المسلمين من يذكر هاتين البيعتين حين يلقى الجمرات على صخرة العقبة . أما أنا فوقفت عند العقبة وعدت إليها من بعد كما عدت إلى مسجد البيعة ووقفت عنده طويلاً باحثاً عن الشعب الذى احتفى الرسول والمسلمون من أهل المدينة به حين بايعوه . وإن من الواجب أن يذكر المسلمون يوم إفاضتهم وحين وقوفهم أمام جمرة العقبة هذا الموقف الغد في التاريخ من مواقف

النبي العربي ، فهو من المواقف التي وجهت التاريخ وجهة جديدة ، والتي وجهت الإنسانية كلها إلى النور والهدى .

لا يؤدّي الناس أية شعيرة من شعائر الحج بمنى طول يوم النحر ولا صبح غداته ؛ إنما يتزاورون يهنئ بعضهم بعضاً بالعيد ، ويفضي بعضهم إلى بعض بخلجات نفسه ، ويذهب كثيرون منهم في صحوة الصباح من ثانی أيام النحر ليشتريكو في تشریفة الملك ابن السعود وفي تشریفة كل من ولديه سعود وكي عهده ويفصل نائب الملك بالحجاز ووزير خارجية المملكة العربية وأمير مكة .

ولقد ذهبت مع جماعة من أصحابي نحضر هذه التشریفة للملك ولولديه . وتشریفة الملك تقع في قصر أقيم له بمسنى منذ سنوات قليلة . وفي نعت هذا المكان بالقصر شيء غير قليل من التجوز ؛ فهو أبسط في أثنائه وفي بنائه من أن يسمى قصرًا وإن اتسعت أرجاء غرفه . والذين يذهبون لحضور التشریفة ينتظرون قبل الدخول على الملك في خيام أقيمت أمام القصر . وليس في هذه الخيام دفاتر يكتب الناس أسماءهم فيها ؛ ولا يسأل أحد من الجند ولا من حاشية الملك أحدًا من الذين قصدوا إلى التشریفة عن اسمه أو جنسه أو شيء من أمره . ويقوم الناس من الخيام فوجًا بعد فوج دون اعتبار للطوائف أو لغير الطوائف . فإذا بلغوا باب القصر ارتقوا أربع درجات تؤدّي إلى باب هو باب الغرفة التي يستقبل الملك فيها . ويمر الناس به ويحيونه ، فيدعو ذوى المكائنة منهم إلى الجلوس في المقاعد المجاورة له . ولم يكن يرضى أول ملكه على الحجاز عن تقبيل أحد يده لما في ذلك من مخالفة عقيدته الوهابية ، ومن مخالفة قواعد الإباء والشم العربية . على أن أهل الحجاز أصروا على تقبيل هذه اليد ، فصار في السنوات الأخيرة لا يحول بينهم وبينها ، أما النجديون فلا يزالون كما كانوا يهزون يد عاهلهم ويسمونهم باسمه ويحيونه بتحية الإسلام ، فيقول له أحدهم : كيف حالك يا عبد العزيز ؟ فإذا أرادوا المبالغة في التحية أطلقوا عليه لقب « طويل العمر » . ويمر المهنتون بالملك ، ويشرب المقربون قهوته النجدية ، ويلقى بعضهم أمامه القصائد والخطب ؛ كل ذلك في بساطة بدوية تطاطب

أمامها الديمقراطية إكباراً وإجلالاً .

أما سعود وفيصل فيستقبل كل منهما في خيمة فسيحة لا مقاعد فيها . ويجلس كل منهما على فراش بسيط . فإذا دعا أحدهما بعض ذوى المكانة للجلوس إلى جانبه جلسوا على البساط المقروش في الخيمة .

خرجت بعد التشريرة أطوف بمنى لأرى بعض الصحاب وزملاء الحج . وخيمتا سعود وفيصل متصلان بمضارب الخيام القائمة في مسيل الوادى الفسيح بين جبلى منى . وهذه المضارب أشد من مضارب عرفات تشابكاً ، لأن بطحاء عرفات أكثر فسحة . وحبال الخيام تلتقى وتشتبك بعضها ببعض حتى ليتعذر على الإنسان أن ينتقل بينها دون مشقة . وما أدرى كيف يهتدى إليها أصحابها ولا كيف يُعلمونها . على أن لإخواننا المصريين من اليسر في ذلك ما ليس لغيرهم ؛ فهم يتخذون مضاربهم إلى جانب السبيل المصرى أو على مقربة منه ، فلا يتعذر عليهم أن يجعلوا من هذا السبيل مناراً للاهتمام به .

والسبيل المصرى هو وحده الواحة الباسمة وسط هذه الجبال والرمال العابسة الجرداء . بنته مصر في عهد الملك فؤاد الأول بناءً أنيقاً على الطراز العربى كبناء مساجد القاهرة أو دار الكتب المصرية . تراه من بعيد فيتعلق به نظرك ، وتسير إليه فيلقاتك سور محيط بحديقة فسيحة أمام البناء . تتخطى الباب فإذا أنت بين خضرة باسمة ونبات وزهر ، وإذا عن يمينك مجلس صفت على بسطه وسائد يستند إليها الجالسون فيه . ويستقبل الموظفون المصريون كل مسلمٍ قصد إلى السبيل في أى من أيام العيد بكل إكرام وتجلة ، هذا وإن وجد أولئك القاصدون سبيل مصر في المياه الصالحة التى يشربونها به غاية ما يطعمون فيه . دلفت بعد التشريرة إلى السبيل ، فكان لىفسى مسرة أى مسرة . إنه فلذة من وطنى قامت في هذه البقعة المقدسة فتحدثت عن وطنى خير حديث . إنه مصر تنتظر أبناءها الذين جاءوا ملبين ربهم ليكون مثابتهم للقاء إخوانهم المسلمين ممن ينظرون إلى مصر نظرة تقدير ومحبة وإخلاص . إنه المأوى لمن شاء أن يتخذ من الحج فرصة اجتماع للتحدث في شئون المسلمين كافة . كان به

ساعة دخلته طائفة من بني وطني ومعهم مسلمون أحدهم هولندي وآخر صيني من أقصى الشرق وبين هذا وذاك من مختلف الأمم ألوان شتى . ولم يطل بي المقام ولا الحديث حتى رأيتنا جميعاً نحس إحساساً واحداً وتحركنا عاطفة واحدة هي عاطفة الأخوة الإسلامية الصادقة . فلهولندي الجالس إلى جانبي ، والمغربي الجالس قبالي ، والجاوي الذي يجاورني ، نحن جميعاً عباد رب واحد لا إله إلا هو ، لا نعبد إلا إياه ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دونه . فأرض الله أرضنا جميعاً ، وسماؤه سماؤنا جميعاً ، وما خلق جل شأنه في السموات والأرض هو لنا جميعاً ، والله جل شأنه يورث ذلك من يشاء من عباده الصالحين .

سمعنا جميعاً في خشوع وإنابة إلى قارئ يرتل القرآن ترتيلاً حسناً بصوت جميل . ثم تناول حديثنا الحج وشئون المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . عند ذلك ذكرت قول رسول الله : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فازداد شعوري بإخاء المسلمين في أقطار الأرض جميعاً عمقاً وقوة ، وجعلت أنصت إلى حديث المجتمعين معي بهذا السبيل المصري وأنا أشد ما أكون تعلقاً بهم ومودة لهم .

وتركت السبيل أبتغى زيارة بعض معارف في الخيام المتصلة به . وبعد لأي في السير بين خيام يقصر الطرف دونها ألفت أصحابي جلوساً بها تحت سقوف واطئة يتسكطون بحرّ الشمس وما نزال في الشتاء . تُرى ما حال أمثالهم إذا استدارت أشهر الحج إلى أيام القيظ وأرسلت الشمس من أشعتها شواطئاً ولهباً ! أو لا يجمّل بأهل البلاد وبحكومتها أن يقيموا بدل الخيام مساكن قليلة النفقة يجد الحاج فيها من طمأنينة الحياة ما لا يجده في الخيام ! . وأفضيت بهذا السؤال إلى بعضهم ؛ فعجب منه وظن فيه تيسيراً لمشقة الحج يذهب بالكثير من ثوابه ، لأن الأجر على قدر المشقة . وعجبت لما قاله صاحبي وسألته : أفلا يشجّع التيسير الناس على أداء الفريضة فيزداد عدد الذين يؤدونها وينالون ثوابها آلافاً مؤلفة ! .

وأويت إلى الدار ممتلياً القلب بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وشغل ذهني أمر المنازل في منى حين الحج . أو ليس حقاً على الذين آتاهم الله من فضله أن يعملوا لمزيد من الطمأنينة لإخوانهم الذين يحجون البيت ، كما يفكرون في طمأنينة أنفسهم ! لقد كان النبي وأصحابه يقيمون بالخيام أيام منى لأن الخيام كانت منازل ذلك العصر في شبه الجزيرة ، فلم يكن أحد من أهلها ليضيق بالخيام ذرعاً . أما اليوم فهذا عاهل شبه الجزيرة ابن السعود ، وهو بدوي شديد الوله بالبدوة ، وهؤلاء أبناؤه وأهله ووزراؤه وذوو اليسار من عشيرته ، يقيمون في منى بمنازل تتوفر من الطمأنينة ما لا توفر الخيام ، وإن كانت البساطة كل البساطة ولم يكن فيها من الرف شيء . فمن الحق علينا لكمال إيماننا أن نوفر مثل هذه الطمأنينة لكل من نستطيع أن نوفرها لهم ممن يفرضون الحج ويجيئون إليه من أقصى الأرض .

عدتُ غداة يوم النحر من رجم الجمرة الوسطى ومعى صاحب يسألني عن رجم الجمار ما حكمته وأية مثوبة فيه ؟ وتمثل لي وأنا أسمع لقرله صاحب عسرات إذ يقول : إن مناسك الحج فروض تؤد بها ولا تعرف حكمتها ؛ كما ذكرت ما يقوله أهل الحجاز من أنهم إنما يرحمون الشيطان بالجمرات حتى لا يعود فيسوس إليهم ليردهم إلى المعصية والإثم . لكن صاحبي لا يقتنع بهذا القول ولا بذلك ، وإنما يريد أن يعرف رأي المجددين من مفكري المسلمين . قلت له : إن هؤلاء العلماء يرون في إلقاء الجمار إعلان المشيئة على طرح ما في النفس من زيف ، وصدق الإرادة لدوام طهرها بعد أن غفر الله بالحج ماضي حنوباتها ، وإشهاد ملاء المسلمين على ذلك كله . قال صاحبي : « هذا كلام أدنى إلى تصور العقل ، وإن يكن كلام أهل الحجاز أكثر اتفاقاً مع ما يقصده الرواة الأقدمون في بطون الكتب ، لكنني أحسب حكمة الله أبلغ من هذا ومن ذلك » .

وتداولنا الحديث في الأمر ، وانتهينا إلى رأي لعله أكثر اتفاقاً مع ما جاء



في القرآن من حكمة الحج . فأول اجتماع للمسلمين في الحج بعرفات . وهم يومئذ يجتمعون مُحرمين ملبّين مستغفرين ربهم مستمعين إلى خطاب أمير المؤمنين أو من ينوب عنه . وفي ذلك كله ما يشغلهم عن التعرف والتشاور وشهود المنفعة المشتركة التي تربطهم بعضهم ببعض . لذلك يجب عليهم ، متى أفاضوا من عرفات وزلوا منى ، أن يجتمعوا وأن يتعارفوا وأن يشهدوا منافع لهم . واجتماع ألوفهم المؤلفة ساعات معدودة لا يحقق هذا الغرض . لذلك فرضت أيام النحر الثلاثة ليُحسنوا التعرف والتشاور وشهود المنافع . ولإتمام ذلك بما يتفق وروح الإسلام وجلال موقف الحج سنّت لهم مناسك يؤدونها إلى الله لتظل نفوسهم نقيّة وأرواحهم طاهرة . وأى منسك خيرٌ من أن يشهدوا العقبة التي شهدها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن يلقوا بسواعدهم جمرات يعلنون بإلقائها أنهم على عهده في بيعة العقبة ، ينفع بعضهم بعضاً ويذود بعضهم عن عقيدة بعض ، ويكفل الكل بذلك حرية العقيدة الإسلامية وحرية الدعوة إليها، ويشهدون على أنفسهم إذ يلقونها أنهم على استعداد لإلقاء مثلها في وجه عدوّهم إذا حاول فتنّتهم عن دينهم أو حاول إخضاعهم وقهرهم .

لعلّ هذا الرأي أدنى من غيره إلى روح الإسلام وحكمة الله فيه . فهذا الدّين كله البأس والقوة على الحياة ، وكله النظام الذي يضاعف هذه القوة أضعافاً مضاعفة . ولقد جمع الإسلام بين النظام والحرية ما لم يجمع بينهما دين غيره . هو يصل بالحرية إلى غاية حدودها ، وبالنظام إلى غاية حدوده ، فلا عبادة إلا لله ، والأمير ورجل البادية سواسية في التزام حدود الله . ومن يتعدّ منهم حدود الله فقد ارتكب إثماً وبهتاناً عظيماً . هم في هذا سواء وإن تفاوتوا في الثروة وفي الجاه وفي كل مظاهر هذه الحياة الدنيا . والحرية أعزّ ما يجب للإنسان لنفسه ؛ ويجب أن تكون أعزّ ما يجب لأخيه إذا أراد أن يكمل إيمانه . وحرية الفرد ملاكها قوة الجماعة . ولا قوة لجماعة إلا بالنظام يبلغ من دقته أن يكون كنظام جسم الفرد في تألف ذرّاته وفي اتساق عملها جميعاً تمام الاتساق ، كل اضطراب في هذا الاتساق يفسد حياة الفرد ويجعله

عُرْضة للأمراض والعلل . وكل اضطراب في نظام الجماعة يُضعفها ويجعلها عُرْضة لتسلط الغير عليها ولتحكّمه فيها .

ومظهر النظام في الإسلام بالغ غاية الدقة من غير أن يجنى مع ذلك على الحرية أو أن يمسخها . وهو يقوم على أساس من المساواة الصحيحة والتعاون الصادق . ذلك شأنه في أركان الإسلام جميعاً . في صلاة الجماعة ، وفي الصوم ، وفي الحج . ومظهره في الحج أوضح جلالاً وأعمق في النفس أثراً . واجتماع المسلمين بمنى وإلقاؤهم بالحمرات ختامٌ شعائر الحج بعد الوقوف بعرفة والطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة . أما وغاية الحج اشتراك المسلمين من أقطار الأرض في التفاهم على منافعهم واشترائهم في ذكر الله ، فيجب لنجاح هذه الغاية أن يبلغ نظامهم أثناء الحج غاية الدقة ، ويجب لذلك أن يكون إلقاء الحمرات والتعارف والتشاور خيراً مما هي اليوم نظاماً .

والمسلمون يشعرون اليوم بواجبهم في تحقيق هذه الغاية أكثر مما كانوا يشعرون به من قبل . دعا الشباب العربي السعودي ذوى المكانة من الذين جاءوا يؤدّون فريضة الحج من أهل الأمم المختلفة إلى اجتماع بمنى للتعارف والتشاور . وقد اجتمعنا في الموعد المضروب ، وجاء مجلسى بين هندى وتونسى . وبادل الداعون ضيوفهم التحيات ؛ وأحدثوا بينهم من التعارف ما يُستطاع إحداثه في مثل هذه الحفلة ، ثم دعوا بعضهم ليتحدثوا إليهم . وكم تمنيت لو كان بين من يؤدّون فريضة الحج من أهل المكانة والرأى والكلمة المسموعة في بلادهم من يحضر مثل هذا الاجتماع ، لتتم حكمة الحج ، ولتكون مكة مقراً لعصبة الأمم الإسلامية تسمع كلمة أهلها ويكون لهم في العالم رأى معدود . لكن ذوى الكلمة المسموعة ممن حضروا لم يكونوا يمثلون من العالم الإسلامى إلا أقله ، ولم يكونوا يقصدون باجتماعهم إلى غاية وراء الاجتماع . لذلك ضعُف الرجاء في أثر ما ألقوا في هذا الاجتماع من أقوال لم تتعدّ الدعوة العامة إلى إخاء المسلمين وتحابّهم . ولو اجتمع ذوو الكلمة المسموعة لغاية يريدون تحقيقها لكان لاجتماعهم أثر يدوى في العالم كله . .

أزمت الانصراف عن منى عصر اليوم الثالث من أيام النحر ، ومررنا  
بالحمرات فرجمناها ، ثم أقلتنا السيارة تؤم مكة . واسترعى « حِراء » نظرنا  
ساعة مررنا به ، وأذكرني تحنُّث النبي العربيِّ فوقه ونزول أول الوحيِّ وأول  
الرسالة عليه بعد سنوات من تحنُّثه . فلما أويت إلى الدار واشتملني مُخدعي  
بها جعلت أفكر : لقد أتمَّ الله لي فريضة الحج ، وهأنذا الآن بمكة مسقط  
رأس محمد ، أفأغادرها إلى المدينة لأزور قبره ثم أعود إلى وطني ؟ . . . وأطرتُ  
هنيهة إذ تمثَّل لي حِراء ، وامتثلت محمداً فوقه في عزله ، ثم امتثلته يوم الوحي  
الأولِّ عائداً إلى خديجة يقول : « زملوني زملوني » . ولما تمثَّل لي في حياته  
كلها آليت على نفسي أن أبقى لأسير حيث سار ، ولأتبع خطواته قبل هجرته  
من مكة وبعد عوده إليها فاتحاً ، علني أتزوّد من ذلك بما ينفعي قبل أوبي  
إلى قومي ، فإذا عدت إليهم عدتُ وفي يدي قبضة من أثر الرسول .

الكتاب الثاني  
البلد الحرام

## مكة الحديثة

أشرت لمامًا إلى ما رأيت بمكة أوّل نزولي بها ، وذكرت دار مُضَيِّقِي ودار وزير المالية وقصر الملك وصورة عمارتها . ولقد حاولت أن أجد فيها ، وفي المنازل التي دُعيت أثناء مقامي بمكة لزيارتها ، والمنازل التي فزلت بها بضواحي مكة ، ما أستشفّ منه روح عصرنا الحاضر في العمارة أو في نظام الحياة ، فعدتُ من محاولتي مقتنعًا بأن مكة القديمة الخالدة ما تزال بريثة من هذا الروح ، وإن لم يبق فيها كذلك شيء من الروح العربي القديم مما تحدثنا به تواريخ مكة من عدّة قرون . وغاية ما يستشفه الإنسان من خلال الحياة في أمّ القرى اليوم ، فذلك أن شبابها يصبو بكل وجدانه إلى الحياة الحديثة ، وأن هذه الصبوة لم تقم بنفسه إلا بعد أن انفصل الحجاز عن دولة الخلافة بالثورة التي أعلنها الحسين بن عليّ ، والتي يسمون ما تلاها عهد النهضة . لذلك لم يبلغ الشباب من أمانهم شيئًا مذكورًا ، بل بقيت تمثل حياتها خليطًا من حياة البلاد الإسلامية المختلفة في المراتب البدائية من هذه الحياة . ولا عجب ! فأهلها اليوم هم على الحقيقة خليط من أبناء البلاد الإسلامية قصدوا المدينة المقدسة حاجين ، ثم جذبتهم قدسيّتها فأقاموا بها ، ومنهم من تيسرت له أسباب العيش ، ومنهم من ظلّوا يعتمدون في عيشهم على الصدقات وعلى معاونة الحاجين في أداء الشعائر .

وصبّوة شباب مكة للحياة الحديثة قوية آخذة بنفوسهم تدفعهم إلى تتسبّع ما يكتب ويقال عن هذه الحياة وإلى التعلّق بما يظنونه من صورها وأمثالها . ويبلّغ اندفاع بعضهم في هذا السبيل حدًّا يكاد ينكره ماضي البلد الحرام في العصور القرية ، بل يكاد ينكره حاضره ممثلًا في الجيل الذي تخطفى الشباب إلى الكهولة . فهذا الجيل ما يزال يفكر تفكير الآباء : يبالغ في تصوير الإسلام لله مبالغة تنعدم معها الإرادة الإنسانية وينعدم معها الفكر الإنساني ، ولا يرى

في غير ما قاله السلف شيئاً يُحترم أو يعار التفاتةً ؛ بل يرى في العلوم والفنون الحديثة أفانين من هو الخيال لا تتصل بالحق أى اتصال جدير بأن يثير عناية الذهن .

كان الشيخ حافظ وهبه - ممثل الحكومة العربية السعودية لدى بلاط لندن الآن - مديراً للتعليم بالحجاز إلى سنة ١٩٣٠ . وقد أراد أن يُصلح التعليم بإدخال علوم الجغرافيا والرسم واللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية الموجودة دون سواها بالحجاز . لكن العلماء وكبار المشايخ من أهل نجد ما لبثوا حين سمعوا بأمر هذا الإصلاح أن ثارت ثائرتهم واحتجوا لدى الملك ابن السعود على هذا البدع المنكر . واتصل الشيخ حافظ بهم وحاول إقناعهم بأن لا بدعة فيما صنع . فأجابوه بأنهم أبدوا للإمام عبد العزيز الحجيج التي لا تُنقَضُ عما يترتب على هذه العلوم من فساد ؛ فالرسم هو التصوير وهو محرم قطعاً ، واللغات ذريعة للوقوف على عقائد الكفّار وعلومهم الفاسدة ؛ وفي ذلك الخطر على الأخلاق والعقائد . وأما الجغرافيا ففيها كُروية الأرض ودورانها والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف . ولقد استطاع الشيخ حافظ أن يتغلّب على عناد كبار المشايخ ، لا من طريق إقناعهم ، ولكن من طريق تأييد الملك إِيّاه .

وهذا الذي يقول به علماء نجد هو ما يقول به أهل الحجاز ممّن سيوى الشباب . ولا عجب في ذلك وقد بقي التعليم مهملاً في بلاد العرب إلى عصرنا الحاضر . يقول الشيخ حافظ في كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين) : « الأمية تكاد تكون سائدة في جزيرة العرب . وربما كانت أول محاولة لتثقيف العقول والقضاء على شيء من الأمية كانت من جانب السيد محمد علي زين الرضا في الحجاز ؛ فإنه في سنة ١٣٢٦ هجرية وما بعدها قام بإنشاء مدرستين : إحداهما في جدة والأخرى في مكة . ومع ما وُضع في طريقه من العقبات وما أحيط به مشروعه من الشكوك من الأتراك والأشراف فإن هذه المدارس قد قامت بنصيب وافر في الحجاز . وربما كانت الشبيبة الموجودة في

الحجاز اليوم هي من غرس هذه المدارس . وهذه المدارس ، وإن كانت تسير في التعليم على الطريقة القديمة العتيقة التي تعتمد على الحفظ لا على التفكير ، كانت المدارس الوحيدة في الحجاز . على أننا لا ننسى هنا بعض المعاهد التي أسسها الهنود في مكة والمدينة فإنها قامت أيضاً بنصيب يذكر ، وكل ما كان في الحجاز هو حلقات الدروس في المسجد الحرام على نظام التدريس في الأزهر قديماً . ولم يكن العلماء يلمون إلا ببعض العاوم الشرعية واللغوية »

هذه الشببية التي يذكرها الشيخ حافظ هي التي تصبو بوجودها للحياة الحديثة ويتعلق خيالها بما تظنه صورها وأمثالها . وشببية ذلك مبلغها من العلم لا تستطيع أن تحدث في حياة بلد مقدس كمكة انقلاباً في نوع العيش أو في تفكير أهله . لذلك ما يزال الأمر في التفكير إلى الأقدمين ، وإن كان النشاط العملي لهذه الشببية المتحركة المترامية المطامع والآمال . والتفكير هو الذي يصوغ الأشياء على غرارها . فبيتك الذي تقيم به ، وغرفتك التي تكتب فيها ، ومكتبك وتنظيم الكتب عليه ، كل ذلك مظهر من مظاهر تفكيرك . وتخطيط المدن والعناية بالميادين فيها وتنظيم عمارتها هو كذلك مظهر لتفكير أهل المدينة . أما وتفكير أهل مكة ما يزال محافظاً على قديم لا هو بالعربي الصرف ولا هو بالإسلامي الصرف ، ولكنه خايط مما قدمنا ، فإن عمارتها وطرقها ومسالكها هي كذلك من هذا النوع ، لمّا يغزها التغيير ولما تعمل فيها أيدي التجديد والبناء .

ولو جازت المقارنة لعدت إلى كلمة الشيخ حافظ من أن التعليم في الحجاز كان على نظام التدريس في الأزهر قديماً . وحسبك أن ترجع إلى كتاب من كتب الأزهر القديمة وإلى نظام وضعه لترى صورة الحياة بمكة حتى في التنظيم والعمارة . فأنت ترى المتن في كتب الأزهر منشوراً خلال الشرح محاطاً بالحاشية وعليه إلى جانب ذلك التقرير ، مما يجعل هذا وذاك متداخلاً بعضه في بعض وما لا يدع في فراغ الصحيفة بياضاً قط . القراءة في هذه الكتب تطبع التفكير بطابع صورتها ، وتطبع الحياة بطابع هذه الصورة كذلك . وهذا ما لا تزال

تراه بمكة ، وما كنت تراه إلى عصر قريب جداً في الأحياء المحيطة بالأزهر .  
وقد أزيل جانب عظيم من هذه الأحياء في العهد الأخير من حياة مصر .  
لكنك إذ ترى ما بقي من آثار حين تخترق الأحياء التي ما تزال باقية على حالها  
كحى الكحكيين وما جاورها ، ترى فيها الأثر الواضح لهذا النوع من التفكير .  
وإنما حدث هذا التجديد بالقاهرة و ببعض مدن الشرق الإسلامى فى  
عهود متأخرة . أما إلى أوائل هذا القرن العشرين فقد كانت هذه المدن مخططة  
تخطيط مكة اليوم ويسودها تفكير كتفكير كهول مكة فى هذا الزمن  
الحاضر ؛ بل لقد كانت مكة أسبق إلى التقدم فى كثير من العصور فى  
عمارته وفى لون الحياة عند أهلها . وهى من أقدم مدن الأرض برواية التاريخ  
الإسلامى . وقد ذكر أبو التاريخ « هيرودوتس » بيتها الذى تعظمه العرب .  
وهيرودوتس عاش بين سنة ٤٨٤ و سنة ٤٢٥ قبل الميلاد ، أى منذ أكثر من  
ألفين وأربعمائة سنة . لكن بيتها المعظم أحاطها بسجلال جعل منها مثابة  
الرائح والغادى فى كل العصور . وجعل أحدث ألوان التفكير والحياة ترد إليها  
لا على أنها أجنبية عنها غازية إياها ، بل على أنها مقبلة فى إجلال وإكبار  
إلى دار السلام مقر الحقيقة فى أسمى صورها . وأكبر ظنى أن يكون ذلك شأنها  
من حياتنا الحديثة فى زمن غير بعيد .

ولقد زارها الرحالة السويسرى « بورخارت » الذى أعلن إسلامه وتسمى  
باسم الحاج عبد الله فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى - سنة ١٨١٥ -  
وكتب عنها طويلاً فى مؤلفه (جولات فى بلاد العرب) . ومراجعة ما كتبه  
تؤيد أنها كانت موضع تجديد دائم يتم فى رفق وعلى هون ، ولا تبدو فيه مظاهر  
الثورة التى لا تتفق ومهابة البلد الحرام ووقاره . يقول « بورخارت » فى وصفه  
ما ترجمته : « الميدان العام الوحيد فى قلب البلد هو مربع المسجد الفسيح .  
وليس ثمة أشجار أو حدائق تبهج النظر . وإنما تدب الحياة إلى مكة أثناء الحج  
بما يملأ الحوانيت الكثيرة المنتشرة فى كل أنحاء من ألوان التجارة . وفيها خلا  
أربعة منازل أو خمسة يملكها الشريف ، ومدرستين صارتا مخازن للغلال ،



والمسجد بما حوله من المباني والمدارس ، فلا فخر لمكة بأية عمائر عامة تقوم بها . وربما كان نقصها في هذه الناحية أشد وضوحاً من مثله في أى بلد شرق آخر في حجمها . فليس بها « خانات » لنزول السائحين بها أو إيداع البضائع إياها ، ولا ترى فيها قصوراً للعظماء ، ولا مساجد كالتى تزين كل حى من أحياء بلاد الشرق الأخرى . وقد يكون السرّ في عدم وجود عمارات فخمة بها تقديس أهلها معبدهم تقديساً يحول دون إقامة بناء يُخشى أن ينافسه .

« وطريقة البناء عندهم شبيهة بطريقة البناء في جدة ، مضافاً إليها نوافذ مطلّبة على الطريق يبرز الكثير منها من الجدار ويحيط به إطارٌ متقن الحفر أو ذقيق التلوين . وتتدلّى أمام النوافذ أستار من عيدان دقيقة تمنع الذباب والبعوض وتُدخل الهواء النقيّ . ولكل بيت سطح مرصوف بالحجر في ميل لطيف تنزلق عليه مياه المطر إلى ميازيب تلقى بها في الطريق . فأمطار مكة ليست منتظمة السيلان ؛ ولا يتيسر لذلك جمع مياهها في خزانات ، كما يفعلون في سوريا . وتُحجّب الأسطح عن الأبصار بجُدُر قصيرة . ذلك لأنهم في الشرق يرون الظهور على السطح غير لائق بالرجل حتى لا يتهم بالنظر إلى النساء في الدور المجاورة . فالنساء يقضين كثيراً من الوقت على الأسطح مشتغلات بأعمال منزلية شتى كتنشيف الغلال أو تجفيف الملابس وما إلى ذلك .

« وفيما خلا منازل السّرة وذوى الرياسة تبنى منازل أهل مكة لراحة النازلين بها ، فتقسم إلى شُقق في كل منها غرفة للجلوس ومطبخ لتكون صالحة لنزول الحاجّين بها .

« والطرق كلها غير مرصوفة ؛ ولذلك يشتد أذى الرمل والتراب صيفاً ، كما يشتدّ أذى الوحل في الفصل المطير ؛ إذ يتعدّر المرور بها بعد نزول المطر ، ويبقى ذلك شأنها حتى يجفّ الماء منها . وربما عزى إقفار مكة من المباني القديمة إلى انهيار السيول الخربية ؛ فهى تنهمر بقوة وغزارة ، وإن كانت أقصر أمداً من مثلها في البلاد الحارة الأخرى . وقد أصاب المسجد نفسه من هذه الأمطار

ما قضى بإصلاحه غير مرّة على عهود سلاطين مختلفين ، حتى لىسمى لذلك بناء حديثاً . أما المنازل فلا أحسب أقدمها ترجع عمارته إلى أكثر من أربعة قرون . من ثمّ لم تكن مكة موضع بحث السائح عن ألوان العمارة القديمة التى تسترعى النظر ، أو عن بقايا المباني العربية الجميلة مما يثير الإعجاب فى سوريا ومصر وبلاد المغرب وأسبانيا . وإن أصغر مدن سوريا ومصر لتسبق فى هذا المضمار مكة القديمة الذائعة الصيت .

« ومكة متأخرة من حيث نظام الشرطة المعروف فى مدن الشرق . طرقها حالكة الظلام فى الليل لا يضاء بها مصباح . وأحيائها لا أبواب لها ؛ فهى بذلك تختلف عن أكثر بلاد الشرق ؛ إذ يُقفل كل حىّ فيها بعناية تامة كل ليلة عقب الصلاة الأخيرة . وتلقى بقايا منازلها فى الطرقات لتصير تراباً أو وحلا يختلط بما فيها على اختلاف فصول السنة .

« والماء ، وهو أهم ما يطلب الآسيويون وموضع سؤالهم الأول ، ليس خيراً فى مكة منه فى جدّة ؛ فالصهاريج التى تجمع مياه المطر قليلة جداً ، ومياه الآبار غير صالحة للشرب وإن شربتها فى موسم الحج طبقات الحجاج الدنيا . وبئر زمزم المشهور بالمسجد الحرام تكفى بالفعل حاجات البلد ؛ لكن مياهها عسيرة الهضم غير مقبولة الطعم على قداستها . مع ذلك تمنع الطبقات الفقيرة من أن تنال منها بغيتها . وخير ماء بمكة هو المجلوب من عرفات على ست ساعات أو سبع من البلد الحرام . وهو مجلوب فى مسجّر مبنية بالحجر لا تنظف . ولقد سمعت أن لها اليوم خمسين سنّة لم تمسها يد التطهير ؛ وهذا ماء عين زُبَيْدَة » .

هذا الوصف يرسم أمام الذهن صورة بلد شرقى فى أوائل هذا القرن ، ويدلّ بذلك على أن مكة كانت دائماً التطور فى حياتها إلى ما تتطور إليه المدن الإسلامية الأخرى . وما يذكره الشيخ حافظ وهبه من نقشى الجهل بها ، وما يصوره « بورخارت » منها منذ قرن وربع قرن ، لا يردّها عن مصاف البلاد الشرقية المتقدمة . على أن طابعها الخاص يجعل تطورها غير متأثر بعقليّة

أهلها أو خاضع لتفكير ذاقى نستطيع أن نسميه التفكير العربى أو التفكير المكيّ .

فكرة اليوم ليست بلداً عربياً ، ولم تكن بلداً عربياً منذ زمان طويل مضى . إنما هى كعبة المسلمين ، فهى بلد الإسلام على اختلاف أجناس أهله ولغاتهم . وأنت تراها كذلك اليوم ، وكذلك رآها « البتانوفى » ورآها « بورخارت » قبله ، كما رآها كذلك كل الذين زاروها فى حقب الزمن المختلفة . وأنت إذا ذكرت أن الملك لم يبق عربياً صرفاً بعد الأمويين ، بل دخلت العجمة بطانته منذ العباسيين ، وتقلبت عليه من هذه العجمة الأشكال والألوان أدركت السر فى أن يستدرج بلد المسلمين جميعاً هذه الأشكال والألوان إليه . فإذا علمت أن أغنياء المسلمين من مختلف الأصقاع يسجرون الصدقات والأعطيات على كثيرين ممن يقيمون بمكة ، وأن منهم من يسجرها على قوم بالذات من المغرب أو من الجاوة أو من الهند أو الأتراك أو الأفغان أو التكرانة ، لم يبق لديك موضع لعجب أن تجمع مكة شتيتاً من هؤلاء جميعاً ، ترفع الأقدار بعضهم إلى مكان الرياسة ، وتمسك آخرين عن مجرى الأرزاق ليعيشوا من حسنات المسلمين .

خرج الملك من مكة منذ فتحها النبىّ العربىّ ، ولم يعد بعد ذلك إليها ، وإن بقيت عاصمة الحجاز من عهد الأمويين . فقد استأثرت المدينة بالسلطان من يوم فتح الرسول مكة إلى أن انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم انتقل الملك من بعد ذلك إلى دمشق وإلى بغداد وإلى القاهرة وإلى الآستانة ؛ واتصلت الخلافة بالملك فى هذه البلاد جميعاً . أمّا البلد الأمين فقد انحلت عنه السلطة الزمنية وإن بقى له بالبيت الحرام كلّ الجلال الروحىّ . ولما قام الحسين بن علىّ الهاشمى فاعلن الثورة على الأتراك وانضم إلى الخلفاء فى سنة ١٩١٥ ، حاول أن يجعل من مكة عاصمة العرب لا عاصمة الحجاز وحده ؛ فكان هذا بدء الخلاف بينه وبين ابن السعود فى نجد ، وكان المقدمة التى انتهت إلى جلاء الحسين وأبنائه عن الحجاز واستئثار آل سعود بأمره . وكذلك عادت مكة فى منزل الرحى

عاصمة الحجاز وحده كما كانت منذ زمن الأمويين .

وكانت مكة على حِقَبِ العصور ميدان صِدام بين المذاهب الإسلامية التي تنازعت الملك ؛ وهي اليوم ميدان صدام بين المذهب الوهابي وسائر السنيين من المسلمين . فالنجديون الحاكسون يتبعون مذهب ابن عبد الوهاب ، وهو مذهب أحمد بن حنبل ؛ وهم يتبعونه في شدة وغلوّ كانوا أوضح أثراً أوّل تسلطهم على الحجاز في سنة ١٩٢٦ . ويقرّ كثيرون بأن الوهابية طهرت البلد الحرام من مفسد كثيرة كانت تجرى فيه . يذكر « بورخارت » أنه رأى حوانيت قائمة بالمسعى بين الصفا والمروة تبيع الخمر وإن كانت لا تعرضها للبيع إلا ليلاً . وكانت زُمَرُ المسلمين من أخلاط الأمم ترخى لشهواتها أعتها ، فتشهد مكة من مختلف ألوانها ما لا يجتمع في بلد واحد . أما اليوم فلا شيء من ذلك فيها . وإذا بلى أحدهم بشيء منه استتر . وإنما يشكو الناس من الإغراق في المنع وإن كانوا يعترفون بأنه خفّ اليوم ، فلم يعد شيئاً إلى جانب ما كان منذ سنوات ، إذ كانت جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النجديين تطوف بأنحاء مكة فتردع وتزجر وتوقع العقاب بالناس لما تراه هي منكر ، وإن لم يكن منكراً في رأى أكثر المسلمين . كان الرجل الذي لا يُرَخِي لحيته عرضةً للأذى . وكان من يدخن علناً معرضاً من صرامة هذه الجماعات لما لا يجب ولا يرضى . أما اليوم فقد بطل عمل هذه الجماعات وإن بقي أثره ، وإن بقي من هذا الأثر أن صار الناس يرون الكبيرة كبيرة حقاً ، تستحق الأزدراء والتعزير لا التسامح والإغضاء .

على أية صورة تكون صبوة شباب مكة إلى الحياة الحديثة في هذه البيئة المحيطة بهم؟ وما هي هذه الحياة الحديثة في نظرهم؟ أم هي حياة الفكر الحر؟ كما يصور الغرب الفكر الحر؟ أم هي حياة العلم والبحث العلمي كما نراها نحن في مصر أو كما يراها أهل أوروبا؟ أم هي حياة الصناعة وتسلّطها على قوى الطبيعة وإخضاعها إياها لإرادة الإنسان؟ أم أنها ليست هذا كله لأن هذا كله لا يتفق وحياة مكة وتفكير أهلها وقلسية ما فيها ، وإنما هي نوع آخر أدنى

إلى ما يسمونه أدب القوة وأكثر إيمانًا بأن الأمم الأخلاق ؟ الحقيقة أنك لا تستطيع أن تعرف . وشباب مكة أنفسهم لا يعرفون أية ناحية من هذه الحياة الحديثة يأخذون ، وأية ناحية منها يدعون . هم يرون بلادهم ضعيفة ، ويرون لغيرهم السلطان عليها ، ويرون من آثار مصر وما تنقله من ثمرات الغرب الأدبية والعلمية ما يُعجبهم ؛ فهم يريدون أن تكون لهم مثل هذه الآثار ، ليكون لهم من الحياة حظ كهذا الحظ الذى يتصورونه منها لأهل مصر ولأهل الغرب ، دون أن يكون لذلك أثر لا تحمد مغبته فى حياة مدينتهم . ومنهم من يتصور فى محاكاة حياة الغرب الوسيلة لذلك ، ومنهم من يرى العلم وحده الوسيلة إليه . وهم بين هذا وذاك يعملون تاركين للزمن أن يُنضج من ثمرات عملهم ما يرجون أن تطمئن به نفوسهم وأن يصل بهم إلى هذه الحياة الحديثة التى يصبون إليها بوجدانهم .

تفضل غير واحد من رجال الحكم فى مكة فدعانا إلى تناول الطعام عنده . وأفضل الطعام عند أهل مكة اللحم والثريد . وهم يتناولونه عادةً كما كان يتناوله أجدادنا . يسلق الضأن أو يشوى ويترد الثريد ويوضع فى قصعة على خِوان من تحته السَّمَط ، ثم يتناول كلُّ من الثريد واللحم بيده إلى شبعه . ولقد تناولت الطعام وإياهم على هذا النحو بعرفات ومكة وحيثما ذهبت من بلاد العرب ، وكنت أجد فى ذلك من ذكر أيام الصبا الأوّل ما أسعد به . لكن أولئك الذين تفضّلوا بدعوتى مع من جاءوا مكة من المسلمين أولى المكانة لم يروا أن نأكل وإياهم على طريقتهم ، بل آثروا الطريقة الحديثة ، طريقة الغرب ، وما ألفه من ألوان الطعام العديدة والصحاف التى يدور بها الخدم لينال كل منها لنفسه فى صحنه ، وليأكل بالشوكة والسكين بدل أن يأكل بيده . وإنهم ليؤثرون اليوم أن يجلسوا على الكراسى بدل الجلوس على المصاطب أو على السجّاد فوق الأرض . وهم يرون فى هذا من محاكاة المدنية ما يسرّ ضيوفهم من ناحية ، وما يقربهم من الحضارة الحديثة من ناحية أخرى .

كان ذلك شأننا حين تناولنا طعام العشاء عند الشيخ عبد الله السليمان

الحمدان وزير المالية ، وعند السيد محمد سرور الصَّبَّان وكيل المواصلات والمشرف على حركة النقل بالسيارات . على أننا كنا نعود بعد تناول الطعام إلى غرف الاستقبال الوثيرة وكلنا مرتدون الملابس العربية ، فننتقل بذلك من جو لا تتلاءم فيه هذه الملابس مع أدوات الطعام إلى جوٍّ أكثر انسجاماً مع حياة العرُوبة . فغُرِف الاستقبال على ما بها من مقاعد وثيرة تحتفظ بالطابع الشرقى القديم ، ما خلا إضاءةها بالكهرباء المجلوبة إلى هذه المنازل دون سواها من منازل مكة . ثم إنهم ليحرصون على عادة انتقلت إليهم مع النجديين هي التبخّر والاجتار بالعود ؛ فما تكاد غرفة الاستقبال تحتوى الناس حتى يدور عليهم الخدم بالشاي وبالقهوة وبمجامر يحرق فيها عود ذكيّ الرائحة يستنشق كل "عبّقه" ويحتبسه في أردانه تحت المشلح وبينه وبين الصمادة . وأدوار القهوة والشاي والعود لا تكاد تنقطع ما بقي الناس في سمرهم .

وقد دُعينا إلى عشاء من هذا النوع بدار مضيبي أمين العاصمة الشيخ عباس قطان . وعلى أنه كان عشاء على الطريقة الغربية في تقديم الألوان في الصحون ، لقد رأينا يومئذ ما أعاد إلى الذاكرة صورة ليلة من ليالي كتاب ألف ليلة وليلة . كمل عقد اجتماعنا قبل تناول الطعام في بهو فسيح بالطابق الأعلى فوق البهو المجاور لغرفة نومي ، والذي كنت أقضى به الكثير من وقتي . وكان البهو مفروشاً كله بالسجّاد العجمي ، وثير المقاعد ، تضيئه ثُرِيَّات من الكهرباء ساطعة النور . فلما آن لنا أن نتقل إلى الموائد ألفتناها مُدَّت في هواء الأسطح الطلق وقد أثارها ثريات الكهرباء القائمة بين الفاكهة وصحاف الحلوى . ولما طَعِمنا هبطنا إلى الإيوان الذي أويت إليه أتقى المطر يوم أزمعت الصعود إلى عرفات . لكنه أضىء ليلة هذا العشاء على طريقة جعلته جديراً ببعض ليالي هارون الرشيد ، لولا أننا لم نُغَسِّنا القيسان ، ولم يدر علينا فيه غير الشاي والقهوة ومباخر العود . ولقد قرأ القرآن حجازيٍّ بإيقاع غير مألوف في مصر ؛ غير أن الإيقاع المصرى في القراءة قد طغى حتى على أهل الحجاز فصار قارئوهم يتأثرونه وينحون نحوه .

هذا الجمع بين طريقة الطعام في الغرب وبين الحياة الشرقية الأصيلة هي صورة هذه الصبوة في نفس الشباب المكي إلى الحياة الحديثة . فهم يرغبون في اجتناء ثمراتها ؛ لكنهم يرغبون في ذلك على استحياء ، ومع الحرص أشد الحرص على طابع البلد الأمين وتقاليدِهِ . وهم يُعجَبون بالأدب الحديث ويأخذون بحظ منه في صحافتهم ، لكنهم يقفون منه عند بعض الصور . فأما الروح في أعماقها فعربية أدنى إلى البداوة المحيطة بهم ، ولذلك نذر أعمق الأثر حتى في نفوس من نزحوا إلى مكة من غير العرب الذين أقاموا بها وأصبحوا فيها بعيدين كل البعد عن موطنهم الأصلي . وهم يفكرون في نظام سياسي كهذه النظم الديمقراطية التي نقلها الشرق عن الغرب ولمّا « تتأقلم » فيه . لكن تفكيرهم لا يخرج بهم عن حدود أهل الرأي ومن تكون منهم الشورى كما كانت في العهد الأوّل للمسلمين — وهم يودّون لو تكون لهم حياة اقتصادية كحياة غيرهم من الأمم . لكنهم لا يتصوّرون هذه المذاهب الاقتصادية السائدة في الغرب ، التي تتنافى في جوهرها مع الفكرة الإسلامية الاقتصادية . وهم لذلك ما يزالون يقفون من تعلّقهم بالحياة الحديثة عند نقد ما هم عليه في بلادهم ، دون أن يتصوّروا اللون الجديد للحياة التي توأم مزاجهم والتي لا ينكرها تفكيرهم .

ذلك ما بدا لي واضحاً أثناء الأحاديث الكثيرة التي دارت بيني وبين شبان مكة الذين شرفوني بزيارتهم منذ اليوم الأوّل لنزولي بينهم ، والذين ما فتشوا يزوروني طول إقامتي ببلدهم . إنهم جميعاً يشعرون بحاجة بلادهم إلى التعليم ، وهم يتحدّثون في ذلك بلهجة صادقة ، ويصلون منه في بعض الأحيان إلى عيب الحكومة بأنها تنفق الطائل من الأموال على السيارات واقتنائها وإصلاحها في حين تضمنّ بالتعليم وما يجب أن ينفق عليه . لكنك إذ تسألهم عن نوع التعليم الذي يروونه صالحاً لذويهم وأبنائهم وعن الفكرة التي يجب أن يقوم هذا التعليم على أساسها ، تراهم يضطربون ولا يكادون يُحَيرون جواباً . قد يكون ذلك راجعاً إلى تأخر العلم عندهم ، وإلى أن الحظ الذي

فالوه منه لا يكفى لإبداء رأى فى مثل هذه المسألة العويصة . لكن ثمة أمراً آخر يزيد فى حيرتهم ، ذلك تعلقهم بمكانة مكة المقدسة وحرصهم عليها . فكل علم يزيد هذه المكانة تموراً محبب إليهم . وكل علم لا يجعل منها موضع عنايته كلها ، أو لا يضعها فى المكان السامى ، أو يراها أمراً لا يدخل فى نطاق العلم ، مزهود فيه مرغوب عنه . فإذا حدثتهم فى حرية العلم وفى حرية الأدب رأوا ذلك أدخل فى باب الجدل النظرى ورأوه لذلك لا غناء فيه .

قد يكون غلوّاً مطالبه شباب مكة بتصوير الحياة الجديدة التى يصبؤون إليها صورة واضحة الحدود وحظ بلادهم من العلم ما رأيت . بل إننا فى مصر وفى بلاد الشرق العربى المختلفة ما نزال فى دور التقدم لم نعدّه إلى دور التصوير والتصميم ، على ما اتصلنا بالغرب وما وقفنا على علمه وأدبه . لكننا خطونا بحكم الحوادث خطوات إيجابية لا تعاون أحوال مكة ولا أحوال الحجاز على مثلها . وما دفعنا إلى هذه الخطوات وجود الأجانب بيننا وتمتعهم بمدى أزمان طويلة بامتيازات طوّعت لهم أن يعيشوا كما يعيشون فى بلادهم ، لا يغيّر أحدهم زيّه ولا طريقة طعامه أو حياته فى شىء ، كما طوّعت لهم إنشاء مدارس تنشر بيننا ثقافتهم وتعليمهم . ومن ذلك نفوذ الدول الأجنبية الذى تغلغل فى الولايات العثمانية المختلفة خلا البلاد المقدسة منذ زمان بعيد . فقد ظلت مكة وداخلية بلاد العرب وما تزال حراماً على غير المسلمين . والأجانب الذين يريدون دخولها يُضطرون قبل حضورهم إلى معقل الإسلام أن يُظهروا إسلامهم وأن يدرسوا العربية وأن يُتقنوا التزبى بلباس العرب والعيش على مثالهم . فإن لم يفعلوا لم يكن اجتيازهم الساحل إلى داخل البلاد ميسوراً . وإن فعلوا حرصوا على إخفاء طواياهم ومظاهرهم ما استطاعوا . ومن ثمّ لم يكن لوجودهم بين العرب أثر المشكّل الذى يحتذى ، فيحدث احتداؤه النتائج الإيجابية التى حدثت فى مصر والشرق . وقد صدّت هذه الأسباب عن هجرة الأجانب إلى شبه الجزيرة ، كما صدّت عنها قلة الأمل فى الربح المادى بسبب شدة الأحوال الاقتصادية بمكة وبالبحجاز كله . والذين غامروا فى اجتياز هذه البلاد من أبناء الغرب قليل عددهم



حتى لَيْحَصُونَ فرداً فرداً ، ويُنظَر إليهم نظرة إعجاب لمغامرتهم . ولقد رأيت بضعة رجال منهم أثناء مقامي بمكة . وأكثر هؤلاء ذبوع صوت بين الناس الحاج عبد الله « فلبى » كما يعرفه المسلمون ، أو « سنت جون فلبى » كما يعرفه الإنكليز . وقد سعت إلى معرفته ولقيته غير مرة . لقيته مرتين أو ثلاثاً في التكية المصرية ، وزرته مرة في بيته ، وهناك أهدى إلى خرائط من صنعه عن الطريق من مكة إلى الطائف وإلى المدينة . وهو رجل عجيب على ما يصفه أبناء وطنه . فهو يعيش عيش البدو من النجديين ويحتمل احتمالهم ، طعامه كطعامهم ، وسكنه كسكنهم . وهو موضع الثقة عند الملك ابن السعود ، كما أنه شديد الملازمة لمجلسه . ولقد جاس خلال شبه الجزيرة من كل أطرافها ونواحيها ، ووضع لها الخرائط ووصفها أدق الوصف . وكتابه (الربع الخالي) يصف شيئاً من مجهوده الشاق في ارتياد الصحارى ، ومن عمله الدقيق في وضع الخرائط المفصلة التي تطبعها له وزارة الحربية البريطانية . لكن حياته العلمية حياة عزلة تامة . فالبدو الذين يصحبونه في رحلاته لا يفهمون من أعماله شيئاً ، وهو لا يطالعهم بشيء من هذه الأعمال التي لا يفهمونها وإن اهتمى بهم في كل ما يحققه منها . لهذا ، ولأنه يعيش عيش البدو ، لا يروى وجوده في بلاد العرب إلى أهلها جديداً في تصوراتهم للحياة الجديدة التي يصبون إليها . ذلك شأنه وشأن غيره من الأجانب الذين تثير بلاد البداوة خيالهم وتدعوهم للإقامة بها ما أطاقوا هذه الإقامة .

هذه كانت حالة الرحالين الغربيين في بلاد العرب منذ قرون مضت . وإن بعضهم ليلظن أنها وشيكة أن تتغير فيما سوى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، بعد أن أعطت الحكومة العربية السعودية امتياز استخراج الذهب إلى شركة « توتشل » الإنكليزية الأمريكية ، وامتياز استخراج البترول من الأحساء إلى شركة أجنبية أخرى . فإذا تغيرت أسرع الحياة الغربية إلى البلاد العربية . ويذهب القائلون بهذا الرأي إلى أن غزو الحضارة الأوروبية الشرق إنما تم عن طريق الصناعة والتجارة ، وعن طريق التدخل السلمى أكثر

مما تمّ عن طريق الفتح الحربى والغزو بقوة السلاح . والهند التى تحرص بريطانيا اليوم أشد الحرص عليها باعتبارها أكبر مستعمرة للتاج البريطانى ، إنما بدأ غزو بريطانيا إياها من هذا الطريق حين تألفت بها شركة الهند الشرقية . وقد اهتدت شركة « توتشل » إلى مهد الذهب فى بلاد العرب على ثمانى ساعات من المدينة المنورة ؛ وهى تمهّد الآن طرق تصديره إلى الخارج . فإذا لم يكن فى استقرار هذه الشركة وفى قيام شركات مثلها ما يثير المخاوف أن يصيب بلاد العرب ما أصاب الهند ، فأيسرُ ما فيه تمهيدٌ لتغلغل الحضارة الغربية من ناحيتها الصناعية ومن ناحية ظواهر العيش والحياة ، فى هذه البلاد التى ظلت محتفظة حتى اليوم بطابعها العربى . ولا عَجَبَ يومئذ أن نرى هذا اللباس العربى يتوارى ليحل الزى الغربى محلّه ، وأن نرى لون الحياة العربية الذى يوحى الطمأنينة إلى زائرى البلاد المقدّسة جميعاً من المسلمين يحول إلى لون غربى ، شأنه فيها شأنه فى مصر وغير مصر من بلاد الشرق . وهناك يسرع التجدّد إلى مكة ، وتصبح جديرة باسم مكة الحديثة حقّاً . ويومئذ يعود شباب مكة يفكرون : أسعدوا وسعدت مدينتهم بهذا التغيير الذى تصبو اليوم إليه نفوسهم ؟ أم أن بلادهم فقدت به طابعها السحرى ؛ كما فقدت بوسائل النقل الحديثة شيئاً كثيراً من روحها الشعرية ؟

وعلى رغم بقاء الأجانب إلى اليوم مبعدين عن بلاد العرب خلا مدن الشاطئ لقد تحوّلت أسباب المواصلات فيها بقدر عظيم من الجمل ، سفينة الصحراء ، إلى السيارات بأنواعها المختلفة ، ومن البريد إلى البرق وإلى التليفون وإلى آخر مُحدثات الصناعة . والسيارة سريعة مريحة عظيمة الفائدة فى إنجاز الأعمال . وقد أفادت أمانة العاصمة منها أن اتخذتها وسيلة الكنس والرشّ وإطفاء الحريق ، وأن اقتنت سيارات لهذه الأغراض التى لم تكن تعتبر ذات بال من قبل . لكن السيارة هدّامة لروحى الصحراء مُضِيعَة لشعر البادية . وأنّى لراكبها أن يتأمّل البادية وما فيها وهى تقطعها فى لمح البصر ، فما يكاد البصر يستقر منها على شىء يتأمّله ! والبرق والتليفون شأنهما فى ذلك شأن السيارة ،

لا يدعان للذهن أن يستقر ، ولا للخيال أن يفتن في التعبير لمن نكتب إليهم عن عواطفنا وآمالنا وآلامنا . ولقد كان من العرب من يرغب عن هذه الوسائل أول دخولها بلاد العرب ، وكان منهم من يراها حراماً . أما اليوم فقد ألفوها ، وصار بعضهم يستغنى بها عما ألف من الوسائل من قبل . ولهذا لا ريب أثره في التفكير ، وله عند شباب مكة من الدلالة على عدم صلاح أسباب الحياة القديمة لهذا العصر الحاضر ما يجعلهم أشد صبوة إلى الحديث في كل شيء . لكن هذا كله لم يصل بعد من موضع التفكير إلى تصوير الحياة صورة غير التي عرفوها عن السلف ؛ بل هو يجاور هذه الصورة في ذهن العربي جيّاراً يتعذر على الإنسان أن يتنبأ بآثاره .

وتجارة الغرب ذات رواج اليوم في أسواق مكة ، فلا يكاد الإنسان يجد من صناعة مكة أو صناعة بلاد العرب فيها شيئاً . وإذا قلت الغرب قلت اليابان أيضاً ؛ فالمصنوعات اليابانية منتشرة بأثمان زهيدة تدعو إلى أشد الرغبة فيها . ولقد بلغ من حدق الصناعة أن صارت اليابان وصار الغرب يبعث إلى مكة بالأشياء التي يبتاعها المسلمون للتبرك بها على أنها من البلد الأمين . فالسبح والعطور تصدر من مصر مصنوعة في خان الخليلي والتربيعة خلا ما يُصنَع من مَرَّجان إيطاليا . والمباخر ورشاشات العطر والمكاتل تصنع في الخارج ، وقل منها ما يُصنَع في بلاد العرب . وهذا كله تجده في سوق المسعى بين الصفا والمروة ، وتجده في السوق (أو السوق الصغيرة كما يسمونها) معروضاً مع الأقمشة المختلفة ، يُقبل عليه المسلمون من شتى أقطار الأرض ويصيبون منه ما يعودون به إلى أهلهم في هذه الأقطار ، ليكون عندهم بركة يحافظون عليها ويحتفظون بها .

ولا تختلف مكة الحديثة في استيراد تجارتها من الخارج عن مكة القديمة العربية الصميمة . وقد كانت مكانة مكة التجارية قبيل الإسلام وفي عهده الأول عدل مكانتها الدينية ، وكانت ملتقى تجارة الغرب والشرق . وإنما الفرق بين يوم مكة وأمسها أنها كانت أمس طريق التجارة ، فكان أهلها يذهبون في

رحلة الشتاء إلى اليمن يجيئون منها ببضاعة الجنوب ليتجروا بها في الشمال ،  
 وبتجارة الشرق ينقلونها في رحلة الصيف إلى الغرب وإلى الشام يصرفون فيها  
 ما جاءوا به من اليمن ويجيئون بألوان أخرى من التجارة مكانه . أما اليوم  
 فالتجارة تجيء إلى مكة وتوزع على الحجاج في أسواقها من غير أن يكون  
 لمكة في ذلك أى نشاط إيجابى ؛ بل تنقل البواخر التجارة من أقصى الأرض  
 من اليابان أو أوربا إلى جدة ، وتنقلها السيارات من جدة إلى مكة ليتولى  
 أهل مكة بيعها للذين فرضوا حجّ بيت الله الحرام بريح هو مصدر حياة أهلها إلى  
 جانب ما يتبرع به المحسنون للبلد الحرام من أرزاق . وقد أصبح الكثير من  
 موادّ التغذية نفسها ، كالفاكهة والأطعمة المصنوعة من « بسكويت » وجبن  
 وما إليها ، يرد إلى مكة من الخارج كما يرد غيره من البضائع . أما المواد الطازجة  
 فترد من وادى فاطمة ومن الطائف .

وهؤلاء الألوف وعشرات الألوف من المسلمين الذين يفرضون الحج إلى  
 البيت كل عام هم اليوم ، كما كانوا في كل عصر ، عاملُ التطور في مكة  
 نحو حياة العصر . فهم يجيئون إليها ويقيمون بها زمناً ليس بالقليل . ولهم عقائد  
 وعادات يراها أهل مكة ويندرسونها بعناية فطرية ليجيبوا مطالب هؤلاء الغرباء  
 وليكفلوا لهم خير قسط من الراحة يجبّ إليهم الإنفاق ويجعل منهم بعد عودهم  
 إلى بلادهم دعايةً صالحةً لمكة وحجّ بيت الله فيها . وبما لوحظ في السنين  
 الأخيرة أن عدداً من أثرياء المسلمين وأولى الرأى فيهم يقصدون إلى الحج  
 أكثر مما كان يفعل أمثالهم من قبل ، وأنهم يلتقون بأهل مكة وبأولى الأمر في  
 الحجاز ويبدون لهم من العناية الواجبة على العالم الإسلامى كله بالأماكن المقدسة  
 ما يزيد أهل مكة وذويها تفكيراً في التماس أسباب الراحة لهؤلاء الأثرياء وأولى  
 الرأى . ولقد كان من ذلك أن فكرت الحكومة الحاضرة في إنشاء حىّ بضاحية  
 الشهداء من ضواحي مكة تُراعى فيه حاجات الحياة الحديثة في النظام الصحى  
 والماء والإنارة تشجيعاً لأمثالهم على الحج . ذلك بأن الأماكن الصالحة لنزولهم  
 بمكة قليلة جداً ؛ والكثيرون منهم يلقون أشدّ العنت في توفير المسكن الصالح

لهم . فإذا نظمت لهم ضاحية مهياة بأسباب العيش الذى ألفوا كان ذلك خير دعاية لأمة القرى ، وكان خطوةً فسيحة نحو التطور إلى حياة العصر ، وفى سبيل التقريب بين المسلمين ذوى الرأى من أهل البلاد المختلفة .

يدلّ على ما لهذه المنشآت من فضل التطور ما كان للتكية المصرية بمكة وما يزال لها من أثر فى حياتها . والتكية من الآثار الجلييلة التى أنشأها محمد على الكبير جدّ الأسرة المالكة بمصر بعد أن استقر له الأمر بالحجاز . وقد بقيت التكية على عمارته فى سنة ١٢٣٨ هجرية حتى جدّها الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٩ هجرية . وهى تقع بشارع أجساد من شوارع مكة ، ويقابل بابها باب المسجد الحرام الذى سُمى باسم باب التكية لشهرتها . وكانت تجرّى فيها الأرزاق على الفقراء فيما مضى ، فكانت تطعم فى أشهر الحج نحو أربعة آلاف منهم كلّ يوم . وكانت تطعم أربعمائة فقير كل يوم فى غير أشهر الحج . لكن الخلاف الذى حدث بين مصر والحكومة العربية بعد دخول الوهابيين مكة فى سنة ١٩٢٦ ، وما أدّى هذا الخلاف إليه من إنقطاع سفر المحمل ومن حبس أوقاف الحرمين ، حال دون استمرار التكية فى إجراء هذه الأرزاق . وأكبر الظن أن يعود الأمر إلى نظام جديد بعد أن استتبت العلاقات المصرية الحجازية من جديد . لكن الذى لا ريب فيه أن وجود التكية المصرية فى مكة منذ أكثر من قرن من الزمان كان له أثره فى تطوّر الحياة فى مكة . فالتكية لا يقف أمرها عند هذه الأرزاق وصرفها ؛ بل إن بها طبيبياً يعالج المرضى الذين يقصدون إليه أياً كانت جنسيتهم ويصرف لهم الدواء من عنده . ولعل ما قامت وتقوم به التكية من ذلك كان أوّل ما عرفه أهل مكة وأهل بلاد العرب بوجه عام عن العلاج بالطريقة الحديثة ، بعد أن كان العرب لا يعرفون من وسائل العلاج إلا ما يعرفه أهل البادية ، وبعد أن كانوا يؤمنون بأن آخر الداء العياء الكى . . هذا إلى أن التكية صورة من الحياة المصرية بمكة ، إليها يقصد المصريون جميعاً أثناء أشهر الحج ، فهى بهذه المثابة ممثّل يشهد العرب ما يجرى فى بلاد أقرب منهم إلى الحضارة وأعظم اتصالاً بها .

ثم إن أهل مكة أنفسهم ، ورجال الحكم في بلاد العرب جميعاً ، يتصلون اليوم بالبلاد الإسلامية المختلفة بعد أن يسرت أسباب المواصلات الحديثة سبل الانتقال وقرّبت بين أجزاء العالم ، مما يجعلهم أكثر استعداداً لقبول التجديد في مدينتهم . وإن منهم من يزور أوروبا ، ويقف على أساليب الحياة فيها . هذا إلى أن كثيرين من موظفي الحكومة العربية ينتسبون إلى مصر وإلى سوريا وإلى بلاد إسلامية شتى . صحيح أن الماضي يحول دون الطفرة في دعوة هؤلاء إلى الإصلاح كما تحوّل الأحوال الاقتصادية دونها . لكن هذا العامل له قيمته لا ريب في تجديد صورة الحياة بمكة ، وله أثره في تفكير الشباب من أبنائها .

وهذا الماضي الذي يُشقى خنطاً دعاء الإصلاح يجد في ناحية من نواحي الحياة بمكة ما يشدّ من أزره إزاء المحاولات التي تبذل للتغلب عليه . هذه الناحية هي التفكير القديم الذي أشرت في أوّل هذا الفصل إليه ، والذي يجعل فكرة التوكّل قائمة على التواكل والكسل وعدم السعي في الحياة والقناعة في الرزق بما يجيء من غير مشقة أو عمل . وإن ألوفاً وعشرات الألوف من المقيمين بمكة ليرون حقاً لهم أن يعيشوا من الصدقات التي تُسجّرى عليهم ، ولا يفكر أحدهم في مزاولة عمل يقيم أوده وأود أهله . وهذا الروح هو الذي يجعل التسوّل منتشرًا بمكة ، وخاصةً أثناء الحج ، انتشاراً مروّعاً . فأنت كلما ذهبت إلى المسجد الحرام للصلاة وجدت على كل باب من أبوابه الكثيرة العدد ، وهي تبلغ ستة وعشرين باباً ، عشرات من الصبية والنساء يتكففون الناس ويسألونهم إلحافاً . ويرى كثيرون من الحجاج ، وكثيرات منهم بنوع أحص ، فرضاً عليهم أن يعطوا هؤلاء . فهم يُنفقون في ذلك العطاء الرخيص الشيء الكثير مؤمنين بأنهم يعطون الفقير مما أعطاهم الله من فضله ، فلهم مثوبة ذلك عند ربهم ، وكثيرون من هؤلاء المتسولين أقوياء البنية أصحاب الأجسام قادرين على العمل . وكثيراً ما رأيت منهم من لو وُجد في أحياء القاهرة أو في أرياف مصر لأنذر بالشرّ ولشدّت الشرطة عليه العِناق . لكنهم في المدينة الإسلامية المقدّسة يجدون عطفًا عليهم من حجاج المسلمين ، وتسامحاً معهم من جانب الحكومة .

ولعلك لو سألت في ذلك لقليل : إنهم من ذرية إسماعيل ، وإنهم تنطبق عليهم الآية : « رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » ؛ وأن ما يبذله الناس من هذه الصدقات إنما هو هذا الهوى من أفئدة الناس إلى ساكني البلد الأمين . هذا وإن لم يكن بين سكان البلد الحرام من ذرية إسماعيل اليوم إلا القليل ؛ أما الأكثرون فخليط من أبناء البلاد الإسلامية في آسيا وإفريقيا .

ولقد ذكرني مشهد هؤلاء المتسولين بما تقرره مذاهب عصرنا الحاضر من حق العمل للأفراد كي يعيشوا منه ، وذكرت دعوة القرآن الناس ليمشوا في مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله ، وحاولت أن أجد مسوغاً لانتشار التسول بمكة ، فلم أجده إلا في سوء التأويل للفكرة الإسلامية، ذهبت إليه طائفة أرادت استغلال العواطف لفائدة قوم كسالى لا يعملون ، وهم على العمل قادرون . وهذا التأويل الفاسد لا يقره مذهب سليم . فالدعوة الإسلامية أساسها العمل في الحياة والجهاد للرزق فيها . ولقد كان المسلمون الأوّلون من أهل مكة من أكثر الناس سعياً ودأباً . فلما هاجروا مع الرسول إلى المدينة وأراد الأنصار أن يشاطروهم أموالهم أبوا ذلك على أنفسهم على رغم حاجتهم إليه ، وذهب يعمل في التجارة منهم من تؤهله مواهبه للتجارة ، ويعمل في الزراعة من يفضل العمل في الزراعة . ولم تكن الأرزاق يومئذ تجري إلا على العاجزين عن الكسب ، شأنهم في ذلك شأن أمثالهم اليوم ، في أرقى الأمم حضارة . فأما القادر على الكسب فلاحق له في الحياة ما لم يعمل . والعمل للقادر عليه عبادة لها مثوبتها عند الله ، ولها كرامتها واحترامها عند الناس .

ولو أن الألوف التي تعيش اليوم بمكة من الصدقات زاولت من الأعمال ما تستطيعه لتغير وجه الحياة في مكة . ولو أن ما يُخرجها المسلمون من مالهم صدقات للمتسولين جُمع وأنفق في أعمال يقوم على استغلالها هؤلاء لكان

أعوَدَ عليهم وعلى مكة بالفائدة ، ثم لتغيرت هذه العقلية المريضة ، عقلية التواكل والكسل المزرى العجيب ، ولتغير تبعاً لذلك تفكير الناس تغيراً يدفع مكة إلى ناحية الحياة الحديثة . لست أجهل ما في ذلك التغير من عسر وأهل مكة لا تجمع بينهم رابطة الجنس . ولهذا الرابطة أثرها القويُّ في تكوين الحياة القومية . ولقد كنت أتحدث يوماً إلى مكىِّ صميم في حرب الأشراف النجديين ، وكنا نفرض الأسباب التي أدت إلى دخول الإخوان مكة من الطائف موفورين . وما اتفقنا عليه من هذه الأسباب تكوين أهل مكة من خليط من أجناس المسلمين في أنحاء الأرض جميعاً . فإذا يعني المغربي أو الجاوي أو الأفغاني أو الهندي أن يكون حاكمه عربياً قرشياً أو بدوياً نجدياً ما دام هذا وذاك مسلماً ، وما دام كلٌّ منهما يدع له من أسباب الرزق بلا سعي ولا عمل ما اعتاد منذ قرون خلت ! أما وذلك شأنه فليس يعنيه أن يشترك في نزاع على حكم مكة أو حكم الحجاز ، وليس يُصيبه من تغير الحاكم خير ولا أذى . ولو أن أهل مكة كانت تجمع بينهم رابطة الجنس لتغير وجه تفكيرهم في الدفاع عن مدينتهم ، ولرأوا هذا الدفاع واجباً عليهم متصلاً بكرامتهم لأنه الدفاع عن الوطن ، ثم لرأوا على كل فرد من أبناء الوطن أن يعمل لخير الوطن ، وألا يعيش عالةً عليه ما دام قادراً على العمل .

ولقد أدركت الحكومات العثمانية هذا السرّ في الماضي فلم تعمل لتغيير عقلية التواكل في مكة وفي الحجاز كله ، بل عملت على تثبيت قواعدها وتعميق جذورها بإجراء الأرزاق على هؤلاء الأعراب الذين نزحوا إلى مكة واستوطنوها ، وتشجيع ذوى اليسار على حبس الأوقاف لإجرائها عليهم . بذلك توطد روح التواكل والقعود بالبلد الحرام وانتشر منه إلى ما حوله من بلاد الحجاز ، وبذلك تعذر القيام فيه بأى حظ من الإصلاح . فإذا فكر أحد في إصلاح شوّه مقصده ونعت بأنه يريد إخراج الناس من طمأنينتهم السعيدة التي أرادها الله لهم ، والزجّ بهم إلى حظيرة العمل الشاق والأفكار الضاربة المارقة . لست أقصد مما سبق إلى أن الطبيعة قضت ببقاء فكرة التواكل سائدة



أهل البلد الأمين ممتدة منهم إلى ربوع البلاد العربية المختلفة ؛ وإنما أقصد إلى أن التغيير لا يتم سِرَاعًا كما يتم في بلد تربط وحدة الجنس بين أبنائه . لكن تمامه أمر لا مفرّ منه ، كما أسلفت ، لتزايد أسباب الاتصال بين بلاد العرب والعالم الخارجى . هذا الاتصال يسرع بألوان التفكير الحديث إلى مكة على أيدي المسلمين الذين يحجون البيت من مختلف الأقطار ، كما يُسرع به إليها ما بين الحكومة العربية والحكومات الإسلامية الأخرى من أسباب التفاهم .

ومن أسباب الانهيار في تفكير التواكل ما تم الاتفاق عليه بين حكومة مصر والحكومة العربية السعودية في أمر الأرزاق التي تجرى من مصر إلى الحجاز غلة لأوقاف الحرمين ، وفي أمر الأموال التي ترسلها حكومة مصر إلى الحجاز . فقد كانت هذه الأرزاق والأموال توزع فيما قبل الاتفاق صدقات ضئيلة القيمة على أهل مكة وعلى أهل المدينة ؛ أمّا بعد الاتفاق الذي تم عام ١٩٣٦ فقد أصبحت هذه الأرزاق تجمع لتنفق في أعمال ذات فائدة عامّة كتعميد الطرق وتعمير المنشآت الإسلامية في البلاد المقدّسة . وقد كان الناس هناك يكتفون بالصدقات عن مزاوله الأعمال لإقامة حياتهم . فإذا انقطعت هذه الصدقات أو قلّت فصارت لا تكفى حاجات العيش ، اضطرب أهل البلاد للعمل ، وحلّوا بذلك محل العمال المصريين وغير المصريين ممن يجاء بهم لإتمام هذه الأعمال .

وسيكون الاتفاق الذي تمّ بين مصر والحكومة العربية مثلا لغير مصر من الأمم الإسلامية التي تجرى الأرزاق إلى الأماكن الإسلامية المقدّسة . ومن ثمّ لا يبقى أمام هؤلاء الكسالى إلا أن يعملوا ، غير مكثفين بما يصلهم من صدقات الحجاج . وأغلب ظنى أن الحكومة العربية ستنظم هذه الصدقات كذلك وتضرب على أيدي المتسولين وتعمل جهدها للقضاء على حالة محزنة تثير اليوم إشفاق الكثيرين ، ولكنها تثير إلى جانب إشفاقهم الزرابة بمن يقيمون في موطن الرسول العربى أعظم داع للسعى والعمل ، وللإخاء في السعى والعمل . هنالك تتغلغل فكرة العمل في حياة مكة وحياة الحجاز ، على أنها الفكرة

الإسلامية الصحيحة ، بعد أن كانت تعتبر مخالفة لروح الإسلام وتعاليمه .  
 هذه لمحات سريعة تشفُّ عن العوامل التي تدفع مكة نحو الحياة الحديثة .  
 وثمة عامل آخر لا يظهر له أثر وإن كان يجول بأخلاق الكثيرين . كنت  
 أتحدث إلى طائفة من أهل مكة فيما يستطيع المسلمون القيام به من إصلاح  
 الأماكن المقدسة كتعميد الطرق بين جدة ومكة وبين مكة وعَرَقات وبين  
 جدة والمدينة وتنظيم المياه الصالحة للشرب في مناسك الحج جميعاً ، وتنظيم  
 المضارب لنزول الحجاج بها ؛ فأشار واحد من ذوى الرأي من أهل مكة بالرجاء  
 أن يتناول الإصلاح إنشاء جامعة بالطائف يتعلم فيها أبناء البلاد العلوم الحديثة .  
 وقد اختار الطائف للتخلص من اعتراض المعارضين على تعليم العلوم الحديثة  
 بمكة . وفي رأى هؤلاء أن تكون مقارنة المذاهب الإسلامية بعض ما يدرس في هذه  
 الجامعة . وهذا روح علمي حرُّ لمجتمه في محادثاتي مع كثيرين . فإذا تحقق هذا  
 الأمل وإنشئت هذه الجامعة بالطائف أو بمكة - وأفضل أن يكون إنشاؤها  
 بالحل من ظاهر مكة - وإذا ساهم علماء المسلمين من مختلف الأقطار بنصيب  
 في تفتيه أبناء البلاد ، فسيكون ذلك إيذاناً بإسراع التطور نحو الحياة الحديثة  
 في صورة من هذه الحياة تتصل بماضى بلاد العرب وتتصل اتصالاً وثيقاً بروح  
 الإسلام الصحيح ، وتجعل من مكة مقصد العلماء وذوى الرأي وموضع  
 الأفكار التوفيقية المستندة على أصول ثابتة من الكتاب والسنة ومن العقل والمنطق ،  
 والقائمة بأن تحدث في أنفس أربعمائة مليون من المسلمين وفي حياتهم العقلية  
 والروحية من الأثر ما لم يحدث مثله منذ مئات السنين .

لست أدري متى يتحقق هذا الأمل . ورجاؤى أن يكون هذا الكتاب  
 باعثاً على الدعوة إلى تحقيقه . على أن قيامه في نفوس الذين يعملون لتطور  
 الحياة العربية ويدعون إلى اتصالها بحياة العصر هو لذاته عامل من العوامل  
 الكثيرة التي تهيبُّ لهذا التطور ؛ والتي تجعل مكة اليوم على أبواب نهضة  
 علمية استجنت فكرتها في نفوس بنها عشر سنين أو نحوها ، وقد آن لها أن  
 تؤتي ثمراتها وأن يبداً بتحقيق أغراضها .

واعتقادي أن ليس بين المسلمين من ذوى الرأى أحد إلا يرجو أن يرى هذا التطور يسرع إلى هذه البلاد المقدسة . وما أظن الأمر يقف منهم عند الرجاء ، بل أحسبهم جميعاً على استعداد لمدّ يد المعونة والعمل لنشر الدعوة كى تتسع دائرة هذه المعونة .

يوم تمتدّ أيدي المسلمين متصافحةً من مختلف أقطار الأرض للتضافر على هذا العمل العظيم بصدق وإخلاص ، يومئذ تنهياً مكة كربةً أخرى لنضىء العالم بنور الحق الذى أشرقت منها شمس يوم بعث الله نبيه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وما أشدّ تَعَطُّشَ العالم اليوم إلى هذا النور العظيم !

يومئذ تصبحُ سنننا جميعاً سنّة النبيّ العربيّ وتوحيدنا الله كتوحيده . وسنّة النبيّ تجتمع فى هذا الأثر : « المعرفةُ رأسُ مالى ، والعقلُ أصلُ ديني ، والحُبُّ أساسى ، والشوقُ مرهكبى ، وذكرُ الله أنيسى ، والثقةُ كَنزى ، والحزنُ رفيقى ، والعلمُ سلاحى ، والصبرُ رداً ، والرضا غنيمتى ، والفقرُ فخرى ، والزهدُ حِرْفى ، واليقينُ قوتى ، والصدقُ شفيعى ، والطاعةُ حسبى ، والجهادُ نخلتى ، وقرّةُ عيني فى الصلاة » .

والتوحيد الحق ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

إذا اجتمعت هذه السنّة إلى هذا التوحيد ، وانبعث نورهما كربةً أخرى من منزل الوحي الأوّل فقد آن لمنطق العقل وإيمان القلب أن يلتقيا فى الله وفى سننّه التى لا تبديل لها ، وأن للعلم — بأحدث ما اهتدت إليه بصائرنا — أن يكون سلاحنا إلى الحقيقة ، وأن للمعرفة وتوقّ النفس الدائم للتزيد منها ، أن تزيد آفاق العلم سعة وقواعد الإيمان تثبيتاً ، وأن للإنسانية أن تسير فى ظل التسامح والإخاء إلى الكمال الذى تتشده من أقدم العصور فلا تهتدى إليه ، لتنازع العقل والقلب على تولى زمامها وتوجيهها الوجهة التى يحسب كل منهما أنها أدنى إلى هذا الكمال .

يومئذ تعود مكة الحديثةُ المكانَ الذى تشخص إليه القلوب والأبصار

وتتعلق به تعلق جهاد في سبيل الحق ، متخذة إليه من العلم سلاحها ، ومن العقل أصل دينها ومن الزهد فيما سوى الحق حرفة لها ، ومن الرضا بالحق غنيمتها .  
ويومئذ يرضى الله عن الإنسانية وترضى عنه ، وتؤمن بأنها اهتدت الهدى الحق إلى سبيل الكمال .

## ابن السعود بمكة

كنت أسمع اسم ابن السعود عاھل العرب منذ زمان طويل . فلما بدأ يغزو الأشراف ، وعلى رأسهم الحسين بن علیّ ملك الحجاز ، كنت أتتبع أنباء النزاع بين الملكین العربیین دون أن أقف طويلاً عندها . فلما انتهى الأمر إلى فرار الحسين وإلى قيام علی ابنه مقامه ، ثم إلى استقرار السلطان في الحجاز لابن السعود ، بدأ الحديث عن هذا الفاتح النجدي لبلاد العرب يتردد في صحف الغرب والشرق . وقد لقيت إذ ذاك غير واحد من الصحفيين المشهود لهم بالانزان وبدقة الحكم على الأشياء والأشخاص ، فما كان أشدّ عجبی حين سمعت من أحدهم « فون فيزل » الألماني المعروف ، مبالغة في الثناء على ابن السعود إلى حدّ نعته إياه بأنه « بسْمَرْكُ الشرق » . هذا وكان « فون فيزل » قد لقي ابن السعود وتحدث إليه وعرف مرأى سياسته . فلما اختلفت مصر والحجاز بسبب حادث المحمل في سنة ١٩٢٦ ، حين اضطرّ أمير الحج المصري أن يأمر بإطلاق الرصاص دفاعاً عن نفسه فيما قيل يومذاك ، بدأت الأنباء ترد بأن ابن السعود ورجاله يقيمون بالحجاز نوعاً من الحكم لا يطيقه أهل السنة ولا غيرهم من المسلمين ، وأن حكم الوهابيين بالحجاز سينتهي لذلك بعدول الأكثرين عن الحج ، وأن حكومة الحجاز ستلقَى من جرّاء ذلك شدةً أيّ شدة .

لكن الحج استمر ، وبدأت أنباء جديدة تغالب الأنباء القديمة وتتغلب عليها . فالحجاز قد أصبح مضرب المثل في الأمن بعد أن كان مضرب المثل في القوضى ، وبعد أن كان الحاج لا يأمن فيه على نفسه وأهله ولا يأمن على ماله . وطرق الحج قد بدأت تمهدّ وتجرى فيها السيارات بما يكفل راحة الحجاج وطمانيتهم . وقد أصبح الحج بسبب الأمن وإصلاح الطرق ميسوراً قليلاً المشقة بعد أن كان المشقة والعسر . وقد دعت حكومة الحجاز الصحفيين

في شتاء سنة ١٩٣٠ إلى حفل تتويج الملك عبد العزيز ، فعادوا يلهجون كلهم بالثناء على الأمن والنظام هناك . وسئلوا عن شدة الوهابيين في معاملة من لا يرضون لحاهم ومن يدخنون ، فهوّنوا الأمر غاية التهوين . وكذلك اختفت الأنباء القديمة وجعل قصّاد الحجاز يصوّرون الملك عبد العزيز بن السعود صورة خلافة تحببه إلى النفس وتدعو إلى الإعجاب به .

وقد ذهبت إلى قصره يوم دُعيت لمقابلته غداة وصولي مكة وفي نفسى منه صورة غير واضحة المعالم لا تستبين فيها قسّامات حيّاه ولا جلسته أو وقفته . ونزلت من السيّارة أمام باب القصر ، فتخطيته إلى حديقة غرست فيها نباتات صغيرة وأزهار . ورفعت طرقي فإذا أمامي درج فسيح لم أكد أثبت نظري فيه حتى التفت الذي يتقدمني إلى اليمين . وسرت وراءه ، فتخطينا باباً استدرتُ عنده في دهليز فرش بالحصباء ، ثم ألفت إيواناً أشار مضيبي إلى أن أدخله ، وتلقاني وزير المالية على بابه . وأردت أن أسرح بصري في المكان المفروش بالسجاد كي أجتلي منه صورة كاملة ؛ لكن وزير المالية التفت إلى الناحية المقابلة للباب ، فالتفت معه فألفت رجلاً ضخماً الجليسة على مصطبة مفروشة بالسجاد وقد لبس عباءة — أو مشلحاً على التعبير الحجازي — من الصوف البني اللون ، واعتجر بصمادة مخططة بالأحمر والأبيض من فوقها عقال مذهب . وتقدّم الشيخ عبد الله السليمان فأسرّ له شيئاً ، وتقدّم من ورائه الشيخ عباس قطان ، ثم تأخرا وتقدّمتُ ؛ فوقف عاهل العرب ومد إلى يده الضخمة فحيّاني وأشار إلى مقعد بجانبه فجلس وجلست ، وانصرف الرجلان . وبدأ جلالاته الحديث بقوله :

— لم أقابلك من قبل ولكنني أعرفك .

واغتبطت لهذه التحية الرقيقة التي لم تكن تتفق مع ما يبدو على وجه الرجل في هذه اللحظة من اشتغال باله ، وأجبت :

— جئت أقدم التحية وأعرض الرجاء في تعاون المسلمين لرفعة هذه الأماكن

المقدسة .

وكان لم ينس الرجل ما كان بينه وبين مصر خلال السنوات العشر الأخيرة من خلاف ، ولم ينس النزاع الذي استحال حرباً بينه وبين إمام اليمن من سنتين ، ولم ينس المناوشات التي كانت تقع على حدود العراق ولم ينس هذه الخصومات تثور بين الأمم العربية والأمم الإسلامية آنأ بعد آن ؛ لذلك أسرع في الجواب على ما أبديت من رجاء بقوله :

— نحن لا نبتغي من الدول الإسلامية غير امتناع أذاها ، ويكفيها صدق مودتها معنا . ونحن ها هنا في هذه البلاد بفضل الله لا بإرادتنا نحن . القرآن في رقابنا ، وسيوفنا في جنوبنا . وأكبر ما نغضب له أن تجتمع كلمة المسلمين . فالمسلمون أكثرهم عرب ، بل كلهم عرب ، واجتماع الكلمة هو أوّل واجب على الدول الإسلامية .

لما رأيت هذا التحفظ من جانب الرجل ، وذكرت إلى ذلك أنه سيذهب إلى منى على ركاب<sup>(١)</sup> بعد ظهر ذلك اليوم ، يوم التروية ، أى بعد ساعة أو نحوها ، آثرت أن أقتحم الحديث إلى غايته دون تمهيد لها فقلت :

— ونحن المسلمين نحصر على أن تكون مكة من الدول الإسلامية كجنيف من الدول الأوروبية ، وأن نتعاون جميعاً لرفعة هذه الأماكن المقدسة .

وأجاب وما يزال في تحفظه :

— لقد عرفت رأيك في مكة وما يجب أن تكون عليه . وهذه الحكومة تشاطرك الرجاء في أن تكون مكة مقرّ عصابة الأمم الإسلامية ومكان الإصلاح بين المسلمين إذا اختلفوا . أما من أراد إحساناً إلى حجاج بيت الله فله أجره عند الله وله شكرنا . ونحن نعلم أن الشعوب الإسلامية تؤيدنا بعواطفها ، فأما الدول الكبرى كلها فتبغى رضانا .

سرتني أن أفضى وزير المالية إلى الملك بالحديث الذي دار بيني وبينه عن مكة ، وأن أبدى جلالته موافقته على رأيي ، ودار بخاطري أن أوضحه ؛

(١) الركاب : الهجين .

لكنى حرصت على وقته فقلت :

وفق الله هذه الحكومة لإعلاء شأن العرب .

وكان جوابه :

— نحن قد جئنا هنا فوجدنا أمناً مضطرباً فوطدناه ، ووجدنا شيوخاً لهم عاداتهم وشباناً لا سلطان لهم ، فعالجنا أمر الشيوخ لننزع بالحسن ما يخالف الدين من العادات ، وأتحننا للشباب الفرصة لتأييد الفكر الإسلامي الصحيحة .

وأمسك الرجل من القول عند هذا الحدّ على سعة الموضوع الذي استفتحه .

إذ ذاك قلت :

— أخشى أن تحول مشاغلكم الكثيرة بسبب الحج دون طول الحديث .  
وتحرك الرجل إلى ناحيتي حين سمع مني هذا القول وقال مبتسماً :  
أرجو أن نلتقي بعد الحج .

وودعني فانصرفت ، وشغلت منذ وصلت الدار بالتهيؤ لعرفات وصعوده .  
ولكنى بقيت بعد ذلك أعود إلى التفكير في هذا الرجل المديد القامة المقتول العضل القويّ الساعدين الحاد النظرة الضخم في كل شيء ، وأفكر في هذا الذي قاله أثناء حديثنا وفي شدة تحفظه . فلما ذهبت ثاني يوم العيد إلى تشريفته بمنى وألقيته يقابل الناس جميعاً ، من عرف منهم ومن لم يعرف ، ويقابلهم ببساطة بدوية لا شيء من التكلف فيها ، ازدادت عجباً منه وإعجاباً به . وأفضيت بخواطري عنه إلى بعض السوريين من موظفي الحكومة العربية وإلى بعض الشباب العربي من أهل مكة ، راجياً أن أجد في حديثهم ما تكمل به في نفسي صورته . ولقد فهمت منهم أنه رجل محب للإصلاح مبال بكل نفسه إليه ، وأنه ، وهو السياسي العليم بشدة قومه ، يحاول ما استطاع التوفيق بين مذهبه في الدين وبين الأمر الواقع ، ويحاول هذا التوفيق بمقدرة وذكاء يبدو بهما طبيعياً موقفاً .

لما اشتد رجاله النجديون في تحريم التدخين على المقيمين بمكة جميعاً ،



سواء منهم أهل البلد ومن جاءوا إليها حاجين البيت ، بدأت إيرادات المكوس ( الجمارك ) من الدخان تهوى سريعاً وتهبط هبوطاً تأثرت به ميزانية الدولة التي تعتمد على المكوس بقدر عظيم . وتحدث إليه رجاله في هذا الأمر من ناحيته المالية ، ومن ناحية الدعاية به ضد حكومته بالحجاز بأنها تغلو في تحريم ما لا تحرمه أكثر المذاهب الإسلامية ، إذ ذاك أسرعت الحكومة بموافقة فنادت في الناس أن لا إكراه في الدين ، وأن الذين يعيشون للحج من أهل المذاهب المختلفة لا جناح عليهم أن يدخنوا أو أن يحفوا لحاهم أو أن يفعلوا ما يبيحه لهم مذاهبهم ما دام لا يُحِل ما حرم الله في كتابه . والتهمت الحكومة الفتوى بذلك عند عالم نجد الشيخ عبد الله بن بليهد ، فأفتى بأن الدخان لا يسكر كثيره ولا قليله فهو غير محرّم وإن كان مكروهاً ، وبذلك أبيع التدخين لمن شاءه من الحجيج ، وعادت موارد المكوس منه إلى مثل ما كانت من قبل تحريمه .

وكان النجديون أشد الناس طعنًا على « التليفون » و « الراديو » ، وكانوا يزعمون أن الشياطين هي التي تتكلم فيهما ، فكانوا لذلك يحرمون استعمالهما . ولما كانت الحاجة إلى هذه المنشآت ماسة ولم يكن الاستغناء عنها ممكنًا ، فقد دعا ابن السعود كبار المشايخ وسألهم : أتستطيع الشياطين أن تتلو القرآن ؟ فلما أنكروا ذلك طلب إليهم أن ينصتوا لما في سماعة التليفون فإذا هو قرآن يتلوه قارئ جميل الصوت ، فلم يبق لديهم ريب في حله ؛ وكان ذلك شأنهم أمام الراديو . وكل ما استطاع غلاتهم بعد ذلك أن يقوله : أن هذه الآلات تصلح لنقل السبي من الأخبار وإذاعة المحرم من الغناء وأسباب الطرب . لكن الرد على هذا القول كان ميسوراً . فكل ما أحل الله قد يكون ذريعة لأمر محرّم . الخمر بنت الكرم ، ومن كروم الطائف كان بعضهم يصنع الخمر في البلد الحرام ؛ فلم يكن عملهم سبباً لتحريم زرع العنب أو غيره من الفاكهة التي يصير عصيرها خمراً إذا عتق . وأدوات القتل هي بذاتها أدوات الصيد وأدوات الدفاع عن النفس وأدوات صد المغير على الوطن ؛ وإنما الإرادة والتمييز عند

الإنسان هما اللذان يفرقان بين الخير والشر ، يبيحان الحلال ويحرمان الحرام .  
 قصص على من تحدثت إليهم بعض هذه الأنباء ومثلها ، مما دلّني على  
 حيلة الرجل وسعتها وعلى دقة إدراكه لعقلية أهل بلاده والسبيل التي يسلكها  
 لإقناعهم وتوجيههم نحو ما يراه الخير والحق . وإن قوماً من أهل الحجاز  
 لا يحبونه قد أرادوا يوماً أن يدلّوا على مبلغ قسوته ؛ فكان ما ذكروا دليلاً على  
 دقة الإدراك والقدرة على التفريق بين المبادئ الواجبة الاتباع والضرورات  
 التي تبيح المحظورات . سمعني هؤلاء أذكر ابن السعود وحكومته وأقول : لو لم  
 يكن من أثرهم إلا أنهم أقرّوا الأمن في ربوع الحجاز بعد الذي كان من  
 فسادهم واضطرابه لكفاهم فخراً . قال أحدهم : لو عرفت أنهم لم يبلغوا ذلك  
 إلا بمظالم ارتكبت لما أضفيت عليهم كل هذا الفخر ؛ فلقد كانوا يأخذون البرئ  
 بجريرة المذنب ، ويلقون تبعه جريمة تقع على قبيلة بأسرها فيستأصلون القبيلة  
 استئصالاً . ولولا ذلك ما تم لهم ما يفاخرون به من أمن مستتب يرى الناس  
 اليوم استتبابه ولا يذكرون كيف كان الاستتباب ولا الأرواح التي أزهقت في سبيله .

قلت : وكم من القبائل استأصلوا أخذاً للبريء بجريرة المذنب ؟ .

وأجاب محدثي : المعروف عندنا قبيلة واحدة . لكنني لا أستطيع ولا يستطيع  
 غيري أن يجزم بأن غيرها من القبائل لم تستأصل كذلك . وما تزال الشدة ديدن  
 الحكام النجديين . وإنك لتسمع اليوم عن أمير المدينة عبد العزيز بن ابراهيم  
 ما يدل عليها ؛ وسأراه وستقف من أخباره حين تزور المدينة على ما يقطع  
 عندك بصحة هذا القول .

قلت : والقبيلة أو القبائل التي عوقبت لأن أفراداً منها كانوا يعيشون في  
 الأرض فساداً ، ألم تكن على علم بما يجترحه هؤلاء الأفراد ؟ أو لم يكونوا هم  
 يشعرون بحمايتها إياهم ؟

وسكت محدثي هنيهة ثم قال : الحق أنهم كانوا يشعرون بهذه الحماية ؛  
 وقبائلهم كانت تعرف أمرهم ؛ لكنهم لا يزيدون في ذلك على شقي من أبناء

الأسر الكريمة يجدُّ في جاه أسرته الحماية مما يأتيه من أعمال شقاوته . أفعدل أن تؤخذ الاسرة بذنبه ؟ ! إن الله تعالى يقول : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . « وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » .

قلت : فإذا تعدت شقاوة الشقي إلى الغير ، فأندر الأسرة أن تنزع منه حمايتها فلم تفعل ، وظل يأتي المنكر وهو لها جار ، أفليس من حق الغير أن يحمل الأسرة وزره وأن ينزل بها عقابه ؟ .

لم يجد محدثي ما يجب به عن سؤالي . وأردفت : إن كثيراً من الأمم لتصنع ما صنع ابن السعود هنا ؛ فحماية الأمن واجبة على الأفراد وجوبها على الحكومة . ونحن جميعاً مطالبون بأن نعاون أولى الأمر عليها . فإن لم نفعل ثم لم نقف عند التقصير ، بل شعر الجاني بحمايتنا إياه ، حق لصاحب الأمر أن يؤاخذنا بتقصيرنا ، وأن يؤاخذنا أضعافاً مضاعفة بحماية هذا الجاني . وهذه شدة واجبة ما تعلق الأمر بالسكينة التي يجب أن يفيد الجميع منها . وإذا جاز لصاحب الأمر أن يتسامح في انتفاض سياسي يوم ينتصر على خصومه ، فليس من حقه أن يتسامح في العبث بالأمن مع من يريدون كسب المال حراماً كما يفعل أولئك الذين يعتدون على حجاج البيت . فالحاج ضيف الله . وأولى الضيف بالكرامة ضيف الله . ذلك كان الشأن في الجاهلية ، وكذلك كان يقول جد النبي . أفلم يكن من الواجب على المسلمين من أهل هذه البلاد أن يكرموا الضيف ما كان يكرمه العرب في الجاهلية ! . فإن لم يفعلوا وعاقب ابن السعود جناتهم وحماة الجناة فلا تثرىب عليه ، بل ذلك واجبه . ولذلك يشكر المسلمون جميعاً في مختلف أقطار الأرض هذا الذي جعل الطريق إلى البلد الأمين أمناً وإلى بيت الله مهاداً سكينته وسلام .

ولقد صدقت أحاديثي مع ابن السعود هذا الذي سمعت من حصافته وحسن رأيه . لما تم الحج وعدنا إلى مكة اجتمع قوم من بلاد مختلفة يتحدثون فيما يجب لهذه الأماكن المقدسة على المسلمين . وكنا من مصر ومن العراق ومن سوريا ومن فلسطين ومن إيران . ووضع القوم قرارات لتمهيد طرق الحج وجلب

الماء إلى منى أيام الفريضة وغير ذلك مما شعرنا جميعاً بضرورته حين أداء الشعائر . ووكّل القوم إلى جماعة منا أن يقابلوا ابن السعود وأن يحدثوه فيما اجتمع عليه رأى الذين تحدثوا في الأمر . وأفضينا إلى فؤاد بك حمزة وكيل الخارجية بما حدث ، كى يضرب لمقابلتنا الملك موعداً . وقبلناه مساء ذلك اليوم وقرأ أحدنا ما وقعته المجتمعون ، وشرحتُ ما دار في الاجتماع . فلما أحمنا حديثنا استوى الرجل في مجلسه وكان في غرفة القصر العليا وقال :

— إننى شاكر لكم تفكيركم في أمر هذه الأماكن المقدسة ، مقتنع بأن اجتماعكم ستكون له نتيجة متى عدتم إلى بلادكم . وغاية رجائى أن يبقى اتصالكم بعضكم ببعض من بعدُ ليتيسر الاستمرار في القيام بشيء مما فكرتم في القيام به . ورجائى الأجلّ من هذا أن تكون هيئتكم أكثر تمثيلاً للشعوب الإسلامية . فأنتم ، على ما فهمت ، تمثلون أربعة شعوب أو خمسة . ومن الشعوب الإسلامية من ليس ممثلها معكم ، ومن له من المكانة ومن الآثار في هذه البلاد في الماضى ما لا ينسأه أحد . فالهند مثلاً لم يمثلها في اجتماعكم أحد ، ولم يمثل أحد المغرب الأقصى ولا الصين . ثم إن في كل أمة من الأمم الإسلامية ، وبينها أممكم ، رجالاً سبقت منهم إلى الحجاز وإلى الأماكن المقدسة فيه أباد وأعمالٌ برٌّ . وخير أن ينوب هؤلاء عن بلادهم ؛ فأسمائهم اللامعة في هذا الموضوع مدعاة للنجاح . وأذكر بنوع خاص طلعت حرب باشا فى مصر . لقد عمل هذا الرجل لتيسير الحج ما استطاع ؛ وهو على رأس مؤسسات كثيرة ذائعة الصيت فى البلاد الإسلامية كلها . فلا إخالكم إلا تريدون أن تجعلوه فى مقدمة الذين يشاركون فى هذا العمل . والحكومة هنا ترحب بكل إصلاح يريد المسلمون القيام به لخير المسلمين جميعاً ولخير أهل هذه البلاد .

وخرجنا بعد تحيات بادلنا ابن السعود مثلها . وسألنى بعض إخوانى رأى فيما حاز مشروعهم لدى الملك من القبول ؛ فأجبت بكلمات مطمئنة ، لكنى كنت أعلم أن الأمر ليس هيناً بمقدار ما ظنوا . ولقد لفتُ نظرهم ونحن فى اجتماعنا قبل أن تلقى الملك إلى أن إصلاحاً يراد إشراك العالم الإسلامى فيه ،

لا بد لنجاحه من تحديد أعماله ونفقاه ووسيلة تحصيل هذه النفقات واليد  
الأمينة التي تتولى الإنفاق منها . لكنهم كانوا متأثرين بروح الحج ولما يمرض  
على إتمامهم فرضه غير أيام ، فلم يأبهوا طويلا للاعتبارات العملية ، وحسب  
بعضهم أن الأمر لا يزيد على أن يكتب بقدر من المال تتولى حكومة الحجاز  
إنفاقه في الإصلاح ناسياً أن اكتتاباً يتم في وقت كوقت الحج من غير أن  
يوضع نظام لإنفاقه ، لا يمكن أن يؤدي إلى الأغراض التي يقصد إليها  
منه ، أو يزيد على صدقات تعطى وتتولى الحكومة توزيعها في حدود المبالغ  
المكتتب بها توزيعاً لا يتصل بالإصلاح في شيء .

ولم يكن ما لفت نظرهم إليه وليد تفكيرى أو ملاحظتى وحدى ؛ فقد  
اتصلت قبل سفرى إلى الحجاز بأشخاص لهم تجارب في الأمر ، وتحدثت  
إليهم فيه واقتنعت وإياهم بما أسلفت . وكان هذا اقتناع حكومة الحجاز من  
جانباها هى كذلك ؛ فقد تقابلت بعد يومين من حديث الملك وإيانا مع بعض  
رجال الحكم من الوزراء وغيرهم وتحدثنا ، فأنبأونى بأن مثل هذا الاجتماع يقع  
في كل عام على أثر الحج ، ثم تقدم مثل هذه الاقتراحات إلى الحكومة ،  
وينصرف الناس بعد ذلك إلى بلادهم ، فتتسيهم مشاغل الحياة ما اجتمعوا فيه ،  
وتتسيهم ما تحتاج إليه البلاد المقدسة من إصلاح . على أن هؤلاء من رجال  
الحكم الذين حدثونى كانوا مع ذلك كبيرى الرجاء في قيام حركة الإصلاح  
من ناحية مصر بعد الذى أبدته حكومتها ، والذى أبداه طلعت باشا حرب  
كما أبداه غير واحد من رجالها ، من صادق الحرص على إتمام أعمال لا مفر من  
إتمامها لخير المسلمين جميعاً في هذه الأماكن التي يقصد المسلمون جميعاً إليها .  
مع ما أبداه ابن السعود من الحصافة في مقابلة هذا الوفد الذى ذهب  
إليه فإننى لم أفز منه بصورة أقدر بها مبلغ ذكائه ودهائه ؛ وإنما فزت منه  
بهذه الصورة عشية سفرى من مكة إلى المدينة . فقد استأذنت في مقابلته  
لأشكر له ولحكومته ما لقيته من معاونتهم إياى في بحوثى أثناء مقامى بمكة  
وبالطائف ، ولأستأذن في مغادرة مكة إلى المدينة لأعود بعد زيارتها إلى ينبع

فصر . وكان ذلك في يوم السبت ٢١ مارس ، وقد أخبرني مضيبي أمين العاصمة أن وزير المالية سيكون في انتظارنا بداره بـجـرّوـل في الساعة الثانية والرّبع بالحساب العربي ، أى نحو الثامنة والرّبع مساء ، وأنا سنذهب من هناك إلى قصر الملك كى أقابله في الموعد الذى حدّده . وذهبنا إلى دار وزير المالية ، فأقمنا بها ريثما تناولنا الشاي والقهوة ، ثم غادرناها إلى قصر الملك فبلغناه قبيل الساعة الثالثة .

وسأل ابن السليمان فقيل له إن القراءة انتهت . ذلك أن الإمام الذى يصلى بابن السعود يقرأ له بعد العشاء من كل مساء شيئاً من تفسير القرآن في تفسير ابن كثير ، أو شيئاً من الحديث في ابن كثير كذلك . ويشترك الحاضرون في تبادل الرأى فيما يسمعون . وكثيراً ما يشارك الملك في الحوار ابتغاء الحقيقة ؛ فهذا كتاب الله وهذه سنة رسول الله ، لكل مسلم منهما حظ ونصيب . فيهما هدى لكل مسلم ، وهما سبيله إلى الله ؛ فالكل متساوون أمامهما لا تفاوت بينهم بسبب مناصبهم أو جاههم أو مالهم . ويحضر الحاج عبد الله فلبى — أو سانت جون فلبى إن شئت — هذه الجلسات وقد يأخذ في الحديث بنصيب . فهو قد درس أمور الإسلام دراسة دقيقة وبلغ منها مبلغاً جعله يفضلها ، باعتبار أنها نظام يسمو على الديمقراطية وغير الديمقراطية من نُظُم الاجتماع المعروفة اليوم ؛ كذلك ذكر لى حين زرته بداره بظاهر مكة . فإذا تمّت القراءة انسحب الملك إلى مخدعه وانصرف الحاضرون الذين يجتمعون في كل مساء حوله يصلون معه ويشاركون القارئ الرأى فيما يقرأ . أما في هذه الليلة فقد جعل الملك موعدى بعد تمام القراءة ليخلو لنا الجو . وقد دخلت عليه في هذا البهو السماوى الكبير الذى كان فيه حين قابله الوفد من أيام ، فلقيني هَسّاً بِسّاً من غير تحفظ . وستانا الخادم القهوة ثم انسحب ، وبقيت أتحدّث وأستمع ساعة شعرت أثناءها أنى انتقلت على الزمن إلى عهود العرب الأقدمين ، لولا ما كان يتناوله الحديث من شؤون متصلة بحياة العالم الحاضر . ولقد غادرت الرجل بعد هذه الساعة شاكرّاً رفة عواطفه مقدراً هذه الثقة التى انعقدت بيننا وأوصرها بعد الذى

كان من تحفظه أول ما لقيته يوم التَّروية ، راجياً أن تحقّق الحوادث ظني فتزِيل ما بين مصر وبينه من جفاء . فلقد كنت لقيت رئيس الوزارة المصرية قبيل سفرى وأفضيت إليه بما يتردّد في خاطرى من الأسف للجفوة بين مصر وحكومة البلاد الإسلاميّة المقدّسة . ولتّأ بادلتى على ماهر باشا الرجاء أن تزول هذه الجفوة ، على رغم ما فى نفس الملك فؤاد من الاعتقاد بعدم صراحة هؤلاء العرب وصدق إخلاصهم فيما يقولون ، تحدّثت فى ذلك إلى وزير المالية السعويّة وإلى وكيل الخارجية فؤاد بك حمزة ، كما أفضيت به إلى رجال القنصلية المصريّة بجُدّة . ولقد ترك الحديث الذى دار بينى وبين ابن السعود تقديراً للرجل فى نفسى أكتفى عن بيانه برواية ما وقع تاركاً لمن شاء أن يبدى فيه من الرأى ما يشاء .

بدأت حديثى بشكر جلالته وشكر حكومته على معاونتهم إياى فى بحوثى ، وأبديت له عظيم إعجابى لما تم فى الحجاز وخاصةً فى أمر الأمن ، ورجوت له ولحكومته دوام التوفيق فيما أخذوا أنفسهم به من إصلاح هذه الأماكن المقدّسة ، وما يعتزمون فيها من مشروعات لخير أهلها وخير المسلمين الذين يقصدونها جميعاً . هنالك قال جلالته :

— نحن لا فضل لنا فى شىء من هذا وإنما الفضل كله لله . وأنا لم أفكر يوم تركت نجداً إلى هذه البلاد فى حكمها أو فى الإقامة بها . ولقد بقيت معتزماً العمود إلى بلادى متى تمّ لى مقصدى من تأمين حدود نجد والحصول للنجديين على حرية الحجىء إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . لكن إرادة الله كانت غالبية فلم يكن بدّ من نفاذها ومن أداء ما فرض الله علىّ أدائه .

« لما فكرت منذ خمس وثلاثين سنة فى القيام ضدّ ابن الرشيد كى أسترد منه حقوق أبائى لم يكن حولى يومئذ من يؤازرنى . ولقد عمل أبائى منذ عشرات السنين ليقروا التوحيد الصحيح وحكم الكتاب الكريم فى هذه الربوع التى انبعث منها نور التوحيد ؛ فرأيت هذه الدعوة خير ما أقوم به وما أقيم على أساسه جهادى . وعاهدت أربعين رجلاً من أهلى فأقسموا لئىنصرنى فيما أريد

أو نموت جميعاً . وخرجنا نبعي « الرياض » وسيوفنا معنا واعتمادنا على الله ؛  
وغامرنا مخاطرين والظفر يحالفنا حيناً وتدور علينا الدائرة حيناً آخر . ثم استقر  
لنا الأمر بالرياض ، والتفّ حولنا من العشائر من كان ملتفّاً حول أجدادنا .  
ولما استتب لنا الأمر في نجد رأيت الشريف وأبناءه من حوли ، ورأيت الملك حسيناً  
في الحجاز يحاول أن يصدّق قومي عن بيت الله ويأبى أن يتصالح وإيانا في مؤتمر  
الكويت . عند ذلك طلبت إلى رجالي أن يذهبوا إلى الطائف وأن يحتلوها وأن  
يقفوا عندها حتى أعرف ما يؤول إليه الأمر من بعد . ولقد قدرت يومئذ أن  
إنجلترا لا يرضيها أن نتقدم في الحجاز وأنها ستقف منا ما وقفت من قبل  
صديقةً وحاميةً للملك حسين . وكنت حريصاً على استبقاء ما بيني وبين الإنجليز  
من علاقات المودة . ولكني رأيت حسيناً ينقض كل عهوده معنا ومع غيرنا  
ولا يعبأ بعلاقات الصداقة يربط بها بينه وبين الأمم الإسلامية المختلفة ؛ فلم أر  
بدأً من إقناعه بضرورة الاعتدال ؛ واحتلال الطائف خير وسيلة لهذا الإقناع .  
وأقام رجالي ببادية الطائف زمناً ، انهزم أثناءه رجال الحسين وتضعفت  
قوتهم . وعزّ على الملك حسين أن يتصالح وإيانا وقد كان يحسب في مؤتمر  
الكويت أنه قدبر أن يفرض علينا إرادته ؛ فأثر الانسحاب من مكة إلى جدة  
والنزول عن الأمر لابنه عليّ . وتوسطت إنجلترا أثناء ذلك تريد الصلح .  
على أن حادثاً وقع دعاها أن تترك الأمر في الجزيرة لمن يتم له الغلب .  
ذلك حين طرد الأتراك الخليفة العثماني من بلادهم وتلقته إنجلترا حامية إيتاه .  
فقد ارتج العالم الإسلامي لهذا الحادث ؛ إذ قامت جمعية الخلافة في الهند تنادي  
بأن الخلافة من أمر المسلمين دون سواهم ، وتنادي الناس من البلاد المختلفة  
أن أمر المسلمين في شؤونهم الدينية يجب ألا تتدخل فيه دولة مسيحية . من أجل  
ذلك آثرت إنجلترا أن تترك المسلمين يفعلون ما يشاءون ، حتى لا تتهم بأنها  
تنصر فريقاً منهم على فريق لأغراضها السياسية . وشجعتني ما حدث بعد ذلك  
على التقدم ، فحاصرت جدة ونقلت ميدان جهادنا إليها ، كما ذهبت قوات  
نجدية إلى المدينة .



« إلى يومئذ لم يكن حكم الحجاز قد دار بخلدى . وكلُّ ما كنت أبتغيه أن أجلى عنه جماعة الأشراف فأخلّصه بذلك من مظالمهم ومن عبثهم ؛ فإذا فرغت منهم جعلت الأمر فيه للمسلمين كافة يرون في أمره رأيهم . ولقد أذعت على العالم الإسلامى كله رسالة صارحته فيها بهذا العهد أن يكون الأمر له في مصير الأماكن المقدسة . وكنت كلما تحدّثتُ إلى إنجلترا أو تحدثتُ لى غيرها في الصلح كان هذا العهد جوابى لهم ؛ وهذا العهد هو ما كاشفت إليه الأستاذ الشيخ المراغى حين جاء في سنة ١٩٢٥ مع عبد الوهاب بك طلعت موفدين من قبل جلالة ملك مصر للبحث في أمر الحجاز . ولقد زدت عليه أنى لا أبتغى ملكاً ولا خلافة ، وأنى أرحب بملك مصر ملكاً للحجاز برضا أهله . وكان عزى متجهاً إلى عقد مؤتمر لتنظيم شؤون الحجاز بمشورة ذوى الرأى في العالم الإسلامى يكون له اختيار ولى الأمر فيه . وأذعت منشوراً بذلك على أهل الحجاز كى يخلدوا إلى السكينة حتى ينعقد المؤتمر لينظر في مستقبل الحجاز ومصالحه .

« لم أكد أذيع هذا المنشور حتى جاء إلى وجوه أهل الحجاز ، وجاء إلى رؤساء العشائر من نجد ، وكلهم غاضب يحتج على هذا المصير الذى أريده لهم . قال أهل الحجاز : كيف يقرر المسلمون من مختلف أقطار الأرض مصيرنا وطريقة الحكم في بلادنا والحجاز لنا ونحن أهله وأولى الناس بالرأى في أمره وباختيار الحاكم الذى يتولى شئونه ، وليس للمسلمين أن يشاركونا في غير الحجّ وما يتصل منه بشأن مكة والمدينة ! . وقال رؤساء العشائر من أهل نجد : نحن فتحنا هذه البلاد وطهرناها من الأشراف واخترانك قائداً لنا وأميراً علينا . فإن شئت أن تنزل عن القيادة والإمارة فإنما يعود أمرها لنا لا للمسلمين من الهند والجاوه والصين ممن لا يعرفون من شئون هذه البلاد شيئاً . وقال أهل الحجاز : إنك هنا منذ سنين عرفناك أثناءها وعرفنا أغراضك وطريقة حكمك ، فنحن نختارك ملكاً علينا . وقال رؤساء العشائر من أهل نجد : أنت أميرنا المختار ما لم تنزل ، على رغمنا ، عن هذه الإمارة . وألح هؤلاء وأولئك وأعادوا

القول في أيام متعاقبة ؛ فلم يكن لي بدٌّ من النزول على إرادتهم بعد أن رأيت الشعوب الإسلامية لا تبدى بأمر المؤتمر الذي دعوت إليه أية عناية . وكذلك بايعني أهل الحجاز ملكًا عليهم .  
قلت :

— لعل هذا ما أحفظَ ملك مصر . فقد فهم من حديثكم مع الأستاذ المراغى أنكم جعلتم أمر الحجاز له ، وأنكم كنتم على أهبة معاونته في تحقيق هذا الغرض . فلما بايعكم أهل الحجاز ملكًا عليهم عدَّ الملك فؤاد هذا الأمر نقضًا لعهد عاهدتموه عليه .

— هذا ما لم يخف على يومئذ . ولقد فكرت طويلا في كلام أهل الحجاز ورؤوس العشائر من نجد قبل أن أقدم على قبول ملك الحجاز مخافة ما قيل . لكن الأمر كان قد تخرج إذ بلغ القلق من نفوس أهل الحجاز على مصيرهم ما خشيت معه اضطراب الأمر إن لم أقم بعمل حاسم . ولم يكن العمل الحاسم ممكنًا بقوة السيف وقد كان موقف رؤساء العشائر من نجد ما شرحت لك . ولو أنني حاولت يومئذ شيئًا من ذلك لازداد الأمر اضطرابًا ولقامت الفتنة بين عشائر نجد وانقلب الأمر إلى نقيض ما أبغى ويبغي كل مسلم محب لهذه البلاد .

« ولقد دعوت إلى المؤتمر ، واجتمع هاهنا بمكة بعد ذلك الحادث بأشهر ووضع قرارات لم ينفذ منها شيء ؛ لأن المطامع في ملك الحجاز انكششت فلم تحرك المؤتمرين عاطفة لها في نفوسهم سلطان هذه المطامع . على أنني بقيت عند رأي من أنني لا مطمع لي في الخلافة . ولقد دعا جلالة الملك فؤاد بمصر إلى مؤتمر للنظر في مسألة الخلافة بعد أن انقض مؤتمر مكة ؛ وكان من رجالى من دُعِيَ إليه . وقد بعثت يومئذ إلى جلالة الملك برسالة رقيقة ذكرت فيها مؤتمر الخلافة ودعوة رجالى إليه ، وقلت : إننى أول من يبايع بها إذا بايع أهل مصر بها مليكهم ، وأبديت الأسف ألا يستطيع رجالى الذين دُعوا إلى المؤتمر أن يشتركوا فيه لأنهم لم يبدعوا عن طريق حكومتهم ، وأنهم وقد بايعوني مسلكًا

عليهم ، يبايعون معى بالخلافة من يبايعه أهل مصر بها .

« مع ذلك ظلت الحكومة المصرية حانقة علينا . ولما جاء الحمل فى تلك السنة التى كان فيها مؤتمر الخلافة لم يحفل رجاله بعقائد أهل نجد الدينية . ومع أننا رجوناهم أن يحتاطوا لكى لا يقع احتكاك بسبب هذه العقائد ، وعملنا جهدنا لضبط عواطف رجالنا ، فقد حدث ما تعرفونه من إطلاق حامية الحمل نيران المدافع على المسلمين من النجديين . وقمت بنفسى أول ما بلغنى الخبر وقام معى أبنائى فعملنا جهدنا حتى حصرنا الشرّ فى أضيق حدوده . ولم أريد أن أكبر من شأن الحادث فلم أذع أنه قتل فيه خمسة وستون رجلا وخمس وثلاثون امرأة من عشائر نجد . وإنما فعلت ذلك إبقاء على مارجوت بقاءه من علاقات المودة بينى وبين مصر . لكن حكومة مصر عاملتنا معاملة أدّى بنا الحذر إلى توقعها وإن لم يجز بخاطرنا أن تبلغ ما بلغت . فقد أبدت حكومة مصر أنها ستُرسل كسوة الكعبة أيّاً كان الرأى فى الحمل وإرساله . وبقينا ننتظر مجىء هذه الكسوة إلى أواخر ذى القعدة ، إذ جاء النبأ بأن حكومة مصر لن ترسلها . وهذه مسألة لا ضرر منها ؛ فنحن قادرون على القيام بها . ولكنك تقرّنى على أنها مسألة تَغْيِظ . فأمرت رجال حكومتى فعملوا ليلا ونهاراً حتى كسونا الكعبة فى العاشر من ذى الحجة على سابق العادة . ومن يومئذ أنشأنا دار الكسوة بمكة ، فأنشأنا بذلك صناعة لم تكن متداولة فى هذه البلاد من قبل . »

قلت :

— إننى أعتقد أن الوقت قد حان لحل المسائل المعلقة بين مصر والحجاز جميعاً . فقد أثبت الزمن أن لا خير لأيهما فى بقائهما من غير حل . وما بذل من الجهود فى هذا السبيل أثناء السنوات الماضية كان يعترضه قرب العهد بهذه الحوادث التى تركت من الأثر فى النفوس ما لم يتيسر التغلّب عليه . ولقد فهمت قبل حضورى إلى هنا من حديث جرى بينى وبين رئيس الوزارة المصرية أنهم يرحبون بإعادة النظر فى كل اقتراح مقبول يعرض عليهم . وفهمت من محادثاتى مع رجال حكومتكم هنا أنهم حريصون من جانبهم على حل هذه فى منزل الوحي

المسائل ، خصوصاً وقد حل الزمن غير واحدة منها كمسألة الجنسية . هذا ، وعواطف الشعب المصرى إزاء الحجاز عواطف مودة صادقة ؛ وشعب الحجاز يبادل هذه العواطف بمثلها فيما رأيت . وهذا فى نظرى خير عربون لتسوية حالة معلقة يودّ الجميع تسويتها .

قال جلالتة :

— لقد جاءنى قنصلكم حافظ عامر من خمس سنوات يحدثنى مثل هذا الحديث . وقلت له يومئذ : اسمع يا حافظ ! إنكم تقولون إنكم أكثر منا حضارة وعلماً ، وإننا قوم من البدو ، بيننا وبينكم فى ذلك مراحل . وأنا أوافقكم على هذا . إذا كان ذلك شأنكم وكنتم ترون أننا نطمع فى مسألة صغيرة كالاعتراف بنا كى تكون مقدمة لتسوية مسائل ترون فى تسويتها خيراً لكم وللمسلمين وللبلاد المقدسة ، فلم لا ترضوننا بهذه المسألة الصغيرة ، مسألة الاعتراف ، لتأخذونا فى كنفكم وتحت جناحكم ؟ ! إن عدم اعترافكم بملكى على الحجاز لن ينزع هذا الملك عنى بعد أن اعترفت به إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وكلّ الدول العظمى . فالملك أمر واقع لا ينزعه إلا أمر واقع يتغلب عليه . وما بيننا وبينكم من المصالح قد اقتضاكم إنشاء قنصلية لكم بجدة ، واقتضانا أن يكون لنا وكيل لديكم بالقاهرة ، يرعى هذا وذاك ما لا سبيل إلى إنكاره من هذه المصالح . أليس عجيباً أن يكون ذلك واقعاً ، ثم نتجاهله وتجاهلونه ! ولقد أبدى حافظ عامر اقتناعه بأقوالى وما عرضه فؤاد حمزة عليه من حلول للمسائل التى بيننا وبين مصر ، ووعده أن يُقنع الحكومة المصرية برأيه . لكنه لم يعد بعد ذلك إلى الحديث فى هذه المسائل .

« ولم يفتنى فى وقت من الأوقات أن أعمل ما استطعت لتقريب مسافة الخلف بين هذه البلاد ومصر . فقد أرسلت حافظ وهبه فى سنة ١٩٢٨ إلى مصر فعرض حلولا كثيرة ؛ ولكنه لم يجد استعداداً من لدن مصر لقبول ما عرضه . وإننى لسعيد بما ذكرته من حسن استعداد الحكومة المصرية الآن ، فإننى أكين لجلالة الملك فؤاد كل احترام ومحبة وأعتبره فى منزلة والدى عبد الرحمن .

وأرجوك متى عدت إلى مصر أن تبلغه عواطف مودتي الصادقة ورجائي في أن تكون علاقات مصر والبلاد العربية علاقات مودة وإخاء إسلامي صادق (١) .

شكرت لجلالته هذه العواطف نحو مصر ومليكتها ، وشعرت بأني استنفدت غير قليل من وقته ، فقلت :

— لقد سعدت بما اتصل بين جلالتك وببلاد العراق من حسن العلاقة ، وسعدت كذلك بما كان من ترحيبكم بوساطة المسلمين بينكم وبين إمام اليمن . ويسعدني أن يتصل هذا العمل في توثيق أواصر المودة بين هذه البلاد العربية والإسلامية المتجاورة . وإني أستأذن جلالتك في مغادرة مكة شاكرًا راجيًا لكم ولرجال حكومتكم كل التوفيق .

وحسبت الرجل يتحرك فيأذن لي بالانصراف ، لكنني رأيت استدار قليلا إلى ناحيتي وتوجه إلى أكثر من ذي قبل وقال :

— اسمع يا أخى ! إن هذا الكلام الذى تقوله حسن . وهذه البلاد العربية والإسلامية المتجاورة ترتبط منذ مئات السنين بروابط قوية إذا تعهدا من يعنيه أمرها ازدادت متانة وقوة . وليس أحب إلى من أن تتحد هذه البلاد كلها في أغراضها مع بقاء كل منها محتفظًا بكيان سياسى له وحده الخيار في تغييره . لكننى أقول لك : إن الدعوة إلى هذه الوحدة لا يجوز الاعتماد فيها علينا معشر الملوك ، ولا يجوز الاعتماد فيها على الحكومات . فنحن مرتبطون مع أسلافنا بماض له فينا أثر لا نستطيع الفكاك منه . ونحن مرتبطون كذلك باعتمادات سياسية لها عندنا وزنها . ثم إن للملوك مطامع تجعلهم يحميدون ، حرصًا على تحقيقها ، عن الفكرة التى لا يضطر أمثالك أن يحميدوا عنها لمثل هذه الاعتبارات . والحكومات خاضعة للأحوال المحيطة بها ، مضطرة لمجاراة ظروفها . ويوم علمت أن سعد زغلول قبيل تولى الوزارة في مصر لم يخامرني ريب في أنه سيضطر إلى النزول على حكم الظروف في أمر الغرض الذى نذب نفسه كى يحققه

(١) لم تتح لى الفرصة أداء هذه الرسالة وقد اختار الله الملك فؤادا إلى جواره قبل أن أستطيع

مقابلته بعد عودى من الحجاز .

لبلاده . فأما الرجال الذين يؤمنون بفكرة ويَهَبِّسون لها حياتهم ، لا يبتغون من ورائها حكماً ولا سلطاناً ، وإنما يريدون لها أن تتحقق ، فأكثر أمرهم أن يصلوا إلى غايتهم . وفكرة الإخاء الإسلامى فكرة سامية بلا ريب من غير حاجة إلى سند لها من وحدة سياسية تؤازرها . وإنى لأرجو لك ولأمثالك ممن يدعون إليها التوفيق والنجاح .

واعتدل ابن السعود ووقف بقامته الطويلة ومدّ إلى يده الضخمة وصافحني بحرارة ، ورجا لي الخير قائلاً : « اعتمد علىّ يا أخى واعلم أنّي دائماً أخوك » . فشكرت له هذه العواطف وودعته راجياً أن أراه من بعد بالحجاز وبنجد حين أعود إلى هذه البلاد .

خرجت من عنده وهبطت الدرج يتقدمني حاجبه . وألّفت وزير المالية وأمين العاصمة بالطابق الأول ؛ فلما رأيتني ذكرنا لي والغبطة بادية عليهما أننى قضيت مع الملك ساعة كاملة . وبادلنى وزير المالية التحية ، وعدت مع مضيفى أمين العاصمة إلى داره وأنا أفكر فى هذا الملك البدوى وحديثه ، وأذكر ما قاله لى أولئك الصحفيون الغربيون الذين أعجبوا بذكائه ومقدرته على كسب محبته ، وأذكر حديث أولئك الحجازيين الذين كانوا خصومه أول دخول النجديين مكة ، والذين بلغت خصومتهم أن هجر أكثرهم بلاده ، فذهب منهم إلى الهند من ذهب ، وذهب إلى جاوة من ذهب ، ثم عادوا بدعوة منه وأصبحوا اليوم فى مقدمة العاملين مع رجال حكومته من أهل نجد . من هؤلاء شاعره اليوم الأستاذ إبراهيم الغزوى ؛ فقد هجر هذا المكى الحجاز وذهب إلى الهند وأقام بها واحتمل لفراق أهله وذويه أشد الألم ، ثم لم يعد إلا بدعوة من ابن السعود وإلحاح من أهله أن يرجع إليهم ليرى بعينه أن الأحوال بالحجاز صارت إلى خير مما كانت عليه فى كل عهد سلف . ومنهم الشيخ طاهر الدباغ الذى يتولى اليوم إدارة المعارف ، والذى سافر مع الغزوى إلى الهند وظل مقيماً بها إلى ما بعد عودة الغزوى منها . وغير هذين كثيرين كانوا كلهم يتمنون أن تكون حكومة الحجاز للحجازيين ، وأن يكون ملك الحجاز رجلاً من أهل الحجاز . لكنهم جميعاً يقرّون بأن أحوال الحجاز اليوم خير مما كانت فى أى عهد عرفوه .

ولقد أقر هذا القول كثيرون من غير أهل الحجاز ، ومنهم جماعة من بنى وطننا المصريين . فقد تحدثت إليهم وسألتهم فيما يشكو بعض شبان الحجاز منه من إنفاق أموال الدولة في أمور ليست جليلة الخطر في حياة الدولة ، ومن إسناد أعمالها إلى غير أبنائها ؛ فقبل لي إن كثيراً من الأمور في حاجة إلى الإصلاح هنا ومن المستطاع أن توزع ميزانية الدولة على نحو أكثر فائدة وجدوى مما يحدث اليوم . فأما ما لا مِريّة فيه فهو أن الحجاز لم يتمتع منذ مئات السنين بما يتمتع به اليوم من أمن ، وأن الأخلاق العامة في المدن أرقى كثيراً مما كانت ، وأن ما ينفق في التعليم وما إليه من مرافق الإصلاح أكثر مما كان ينفق في العهود السالفة جميعاً . قال لي طبيب مصري أقام بمكة سنوات طويلة : « إنني لم أر فيما رأيت أو سمعت عهداً كهذا العهد بالنسبة للحجاز وحسبي أن أذكر لك أن أمّ القري هذه كانت مثلاً في الاستهتار الخلقى قبل حكم النجديين ، حتى لقد كان الرجل لا يأبى أن يسير وفي صحبته غلام يعرف الكل صلته به ، وأن كل شيء فيها كان مباحاً في رأى أهلها لأن الحج إليها مصدر المغفرة . أما اليوم فلا يقع شيء من ذلك في العن ؛ وما يتصل أمره بأولى الشأن مما يقع خفية يعافه الناس فلا يجد مشجعاً عليه . ولو أن الحكومة وجدت أموالاً أكثر مما تجد ، ورجالا أقدر وأكثر كفاية ممن عندها اليوم ، لاستطاعت أن تقوم بأضعاف ما قامت به من إصلاح » .

ولقد أبدى مثل ملاحظة الطبيب المصرى بعض رجال الحكومة العربية السعودية حين ذكروا أن ابن السعود قد شغل منذ فتح الحجاز بحروب خارجية وثورات داخلية استنفدت الكثير من جهده ومن مال الدولة ؛ ولولا ذلك لكان الإصلاح أشمل وأوضح . ويرجع بعض الثورات إلى أن قومًا من رعوس العشائر الذين أخلصوا للدعوة الوهابية ما أخلص ابن السعود ، كانوا يبالغون في إخلاصهم ، حتى ليعتبرهم غيرهم من المسلمين كفاراً ومشركين . لذلك لم يرضهم أن يتصالح ابن السعود مع غيره من المسلمين على المذهب ، أو يتهاون فيما يرون التهاون فيه إقراراً للكفر ؛ ومن ثم لم يستطع ابن السعود أن

يوجه من الجهود إلى الإصلاح غاية ما يرجو ؛ لأن الاستقرار الواجب للقيام بالإصلاح ما يزال معرضاً لهزات الثورات ؛ والحروب تستنفد من أموال الدولة أكثرها .

أما عن الرجال وكفائيتهم فلا ين السعود فيهم رأى لم يتّسنّ علىّ به أثناء هذا الحديث الذى رويته ، قال : « لقد فكرت فى الاستعانة برجال من المشهود لهم بالقدرة والكفاية من أهل البلاد الإسلامية المختلفة . لكننى قدرت أن يكون هؤلاء الرجال من المطالب فى الإصلاح ما قد تنوع به موارد هذه البلاد . فإن أنا أجبتهم إلى إصلاح لا أشك فى فائدته اضطررت إلى اقتضاء أموال لا يهون على الناس دفعها فتعرّضت لامتعاضهم . وإن أنا لم أجبهم إلى ما يطلبون من هذا الإصلاح خلقت لنفسى منهم خصوماً ، وما أشدّ حاجتى إليهم أعواناً ومؤازرين ! . لذلك أكتفى بما تطيقه موارد البلاد وما يطيقه أهلها من تدرّج بطيء . وقديماً قالوا : ( فى الأناة السلامة ) » .

لست أريد فى ختام هذا الفصل أن أحكم لابن السعود أو عليه . وحسبى ما قصصت من هذا الحديث الذى رويته عنه ، وهذه الأنباء التى يقصّها الناس عن آثار حكمه . وإنما أضيف إلى ما سبق أن الرجل خرج بنجد من عزلة كانت فيها بعيدة عن العالم ، وأتاح لهؤلاء البدو أن يتصلوا من طريق المحترعات الحديثة بعالمنا السريع التغير والتطور . فهذا النجدى الذى كان لا يعرف غير بعيره أو جواده من عشر سنوات مضت قد ألف السيارة والطيارة والإذاعة اللاسلكية ، وأدرك أنها من عمل الإنسان ، وكان يحسبها من قبل من عمل الشيطان ؛ وهو اليوم يفيد من مزاياها ما يقربه من العصر وأهله وما يعده لتطور سريع لعلنا نراه بأعيننا قريباً .

روى بعضهم حديثاً لطيب أوربى يقيم بالأحساء أو بالكويّت يدعى الدكتور « ديم » قال فى أثناءه : « لقد غزا أهل نجد الحجاز بقوة سواعدهم وثابت يقينهم . ولم يجد الأعرابى القليل الحاجات والمطامع مشقة فى الانتصار على ابن الحجاز الذى ألف رخاء العيش وطمأنينته . لكن أهل الحجاز



غزوا نجداً في حياة أهلها وفي عاداتهم غزواً أعمق أثراً . فهذه الصمادة الحجازية البيضاء النظيفة قد بدأت تحل عند النجديين محل صماداتهم ذات المرّبات الحمراء . وأهل نجد يشربون الشاي اليوم أكثر مما يشربه أهل الحجاز ، وكانوا قبل الغزو لا يعرفونه ولا يعرفون القهوة . ومن طريق العيش ورخائه بدأت أخلاق أهل نجد تعرف المواد والتسامح ، وكانت من قبل متعصبة لا يطبق أحدهم أن يضع يده في يد من لا يدين بمذهبه ولا يعتقد عقيدته » .

مدلول هذه العبارة من كلام الدكتور « ديم » أن تبادل الغزو بين أبناء نجد وأبناء الحجاز قد مهدّ الطريق لوحدة في شبه الجزيرة أدنى إلى الاتصال ب حياة العالم الحاضر ، وأدنى كذلك إلى انتشار قوة جديدة في حياة هذا العالم لم تكن معروفة من قبل .

وابن السعود هو الذي مهدّ لهذه الوحدة ، وهو الذي لفت أنظار المسلمين في مختلف أنحاء العالم إلى البلاد العربية وأهلها ، ولم يكن يفكر أحد فيها من قبل إلا من جهة أنها البلاد المقدّسة .

ترى هل لهذا البعث من مغزى في حياة العالم الإسلاميّ ؟ لا يزال الجواب عن هذا السؤال مطويّاً في ضمير الأيام .

## الجمعة في الحرم

المسجد الحرام مثابة المسلمين الذين يَفِدون إلى مكة من أقطار الأرض جميعاً في أشهر الحج ؛ وهو مثابتهم ما أقاموا بأَمّ القري: يَفِدون إليه لصلاة الفجر وعند الظهيرة ، ويعودون إليه لصلواتهم الأخرى وللطواف بالبيت كلما هوت نفوسهم إلى التطوّف به . وهم يقضون فيه الساعات الطوال يتحدثون أثناء النهار ويستمعون إلى جماعة من الفقهاء يحدّثونهم في الإسلام ويفقهونهم في الدين قطعاً من الليل ، وإن منهم لمن يقضى فيه يومه يجاور البيت ، ومنهم من ينصرف نهاره إلى شئون الحياة ، فإذا أقبل الظلام قضى بالمسجد ليله يقوم إلا قليلاً ، يذكر الله كثيراً ، ولا ينال من النوم إلا القدر الذي يكفيه لسعى النهار وتهجد الليل .

لذلك قلّ أن يصلى بغير المسجد الحرام أحد من المقيمين بمكة على كثرة مساجدها . وما رأيت أحداً قام بهذه المساجد مصلياً على كثرة مروى بها ووقوفى عندها ؛ ولا تقام بها صلاة الجمعة مطلقاً . ومن ذا الذى تطاوعه نفسه وهو بمكة على أن يصلى بمسجد غير المسجد الحرام والإجماع منعقد على أن مشوبة الصلاة به تزيد على مشوبة الصلاة بغيره أضعافاً مضاعفة . وهذا الإجماع صحيح أساسه . فالإسلام دين جماعة ودعوة للجماعة ؛ ولا شيء يمقته الإسلام كالخروج على الجماعة في غير حق . ولا تجد الجماعة بمكة مكاناً كالمسجد الحرام مقام بيت الله لتقوم بفروض الله فيه .

وصلاة الجمعة بالحرم من أروع مظاهر الإيمان في الجماعة الإسلامية ؛ هذا الإيمان القوى في بساطته ، البالغ في قوّته ، الذى يجمع بين الحرية والنظام جمعاً لم أفق على ما يقرب من رفعته في أىّ من الملل والنحل الحديثة أو القديمة التى اطلعت عليها . ولقد رأيت في أسفارى الكثيرة ببلاد يدين أهلها بغير الإسلام من شعائر العبادة ومن نظم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام ، ولقد

حضرت صلاة الجمعة في بلاد إسلامية شتّى ، ولكنني لم أر في شيء من ذلك ما قد يقرب في جلال مظهره وقوة روعته ، وفي جمعه بين الحرية والنظام ، وبين الاعتداد بالذات والإسلام لله ، مما رأيت في صلاة الجمعة بالمسجد الحرام ، ولم يطبع شيء من ذلك كله من الأثر العميق في نفسي ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أثر بالغ في عمقه ؛ فما أفنأ كلما أذكره أشعر به متغلغلا في أطواء روحى ، يسمو بها إلى ذروة الإيمان ويرقى بها إلى ما فوق مستوى الإنسانية الذى نألفه .

قصدت إلى المسجد ومعى صاحبي ودخلنا وما يزال بيننا وبين أذان الظهر فسحة من الوقت تزيد على ربع الساعة ؛ مع ذلك وجدنا الأماكن الظليلة حينما دخلنا صحن المسجد قد اكتظت كلها بالذين سبقونا إليها ، وبقي صحن المسجد خالياً إلا من حمام الحمى . وسرنا نتخطى الصفوف نلتمس لنا فرجة للصلاة ، فلا تقع العين بين الجالسين على موضع لواقف . ثم رأيت صاحبي وقف على قوم وتحديث إليهم ، ثم أشار إلى فدنوت منه ، فتتسح القوم حتى استطعت أن أقف بينهم ، وانطلق هو بين الصفوف يلمس لنفسه مكاناً آخر . وصليت ركعتين ثم جلست ما استطعت أن أجلس ، وسرحت الطرف فيما حولى . وأسرع إلى جارمينى وجار يسارى فمد كل منهما يده مسلماً على ، بعد أن أتممت ركعتى ، سلام تحية فيه مودة وفيه إخاء . وتفرست أثناء السلام في وجه كل منهما فلم تهذبني سيما أيهما إلى جنسيته ، ولا دلتنى على شيء إلا أنه ليس من أهل هذه البلاد . وعدت أسرح طرفى ناحية صحن المسجد فإذا الناس يتفدون إليه في سيل دافق ، يحاول السابقون منهم أن يكون مجلسهم أدنى إلى منبر الخطيب أو إلى أحد المكبريات حول الكعبة . وامتلاً الصحن في دقائق حتى لم يبق موضع لواقف ؛ وجعل الواقدون إليه يتخطون صفوفه يلمسون لهم مكاناً كما كنا نتخطى الصفوف في ظلال القباب نلتمس لنا مكاناً ، ومنهم من إذا تهيأ له المكان جلس فيه ، ومنهم من يؤدي للمسجد تحيته بصلاة ركعتين . ولما لم يبق بالمسجد موضع أقام الناس خارجه يأتون لصلاة الجمعة

بإمامه ، مكثفين بصلاة الجماعة وثوابها ، وإن لم يكن لهم ولا لكثيرين ممن وصلوا المسجد رجاء في سماع خطبة الإمام .

وعلا صوت المؤذن بالنداء للصلاة : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . ما أجمل هذا النداء وأعظم وقعه في النفس ! إنها لتتهتز له وتفويض حين سماعه إكباراً وتقديساً . والقلب والروح وكل جارحة وكل عضو تتجاوب لسماعه وتردد صداه في إيمان وإسلام . وكلما ألقى المؤذن مَقْطَعاً منه دوى المسجد بالجواب عليه صادراً من عاطفة قويّة في صدق إيمانها بالله ؛ فلا يكاد المؤذن ينادى : « الله أكبر ، الله أكبر » ، حتى يعجبه المسجد كله كتلة واحدة : « الله أعظم والعزّة لله » ؛ ولا يكاد ينتهي من نداءه : « حتى على الصلاة حتى على الفلاح » حتى يدوى المسجد كله مجيئاً : « لا حول ولا قوّة إلا بالله » . ويربط هذا النداء وتربط هذه الإجابة بين قلوب المصلين برابطة تزيد إخوانهم في الله قوة على قوة ، فتنهار القوارق بينهم ولا يبقى منهم قوىٌ وضعيف ولا غنىٌ وفقير ، بل يصبحون رجلاً واحداً وقلباً واحداً كله الإيمان بالله والتوجه إلى جنابه جل شأنه توجه صدق وإخلاص .

وأمّ المؤذن أذانه ، فقام من شاء يصلي ركعتين لله تعالى ، وأقام القوم بألوفهم المؤلفة ينتظرون خطبة الخطيب ليؤمهم بعد ذلك في صلاة الجمعة ، وسكن كل من في المسجد وما فيه حين بدأ الخطيب يتكلم . أما نحن البعيدين عنه فلم نسمع مما قال شيئاً ؛ وما أحسب الأكثرين من الحاضرين كانوا خيراً منا في ذلك حظاً . أتى لصوت رجل ينطلق في الفضاء فلا يحجزه جدار أن يصل إلى هؤلاء الذين جلسوا في مئات متلاصقة من الصفوف وكلهم متوجه إلى ناحية الكعبة من جهاتها الأربع ! . قلت في نفسي : أليس من الخير أن يستعين الخطيب بمكبّر للصوت ينقل خطبته إلى جميع المصلّين في المسجد وفيما وراء جدرانها ! . إن خطبة الجمعة ركن من أركانها . والغرض من خطبة الجمعة إرشود الناس إلى ما يجب عليهم في أمر دينهم ودنياهم حسب الأحوال المحيطة

بهم . وهى تتكرر فى كل أسبوع ، لأن الحوادث تتلاحق بما يحتاج الناس معه إلى من يرشدهم إلى الخير يسلكون سبيله . وأىُّ رشد إذا لم يسمع الناس لقول المرشد! وما أحرى هذا المرشد أن يهون عليه أمر خطبته إذا علم أن الناس لا يسمعونها ! وما أحرأه أن يُعيرها كل عناية متى علم أنهم جميعاً يسمعونها ويفيدون منها ! . ولقد رأيت خطباء ذوى رأى وبصيرة يوجهون الناس فى بعض مساجد القرى توجيهاً ينتظم حياة القرية كلها . فما أجدر خطيب المسجد الحرام أيام الحج أن يحيط خبراً بأمر المسلمين كافةً وأن يصل إلى المصلين صوته ليكون لهم هداية ورشداً .

وفهمت أن الخطبة تمت حين نودى للصلاة من فوق المبلّغات ، أو المكبريات إن شئت . وقام الناس جميعاً من أقصى المسجد إلى أقصاه يأتمون للصلاة . وكان كلُّ يكبر بعد نيّة الصلاة ثم يقف خاشعاً مطرقاً ذاكراً قوله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وإن لم يستمع إلى قراءة الإمام إلا الذين كانوا على مقربة منه . ساد هذه الألوف المؤلفة صمت خشوع كله جلال ورهبة : جلال النظام ورهبة الإيمان ، فهم جميعاً يستمعون إلى الإمام يتلو « الفاتحة » فى صمتهم المهيب كأنهم فى ساعة الحشر لإكباراً وتقديساً . فلما أتم الإمام تلاوته انفرجت الصدور كلها عن « آمين » قيلت فى خشوع وصوت خافض ودوى المسجد بها فازدادت القلوب والمشاعر رهبة واهتزازاً ، ثم انطلق كل يتلو الفاتحة وصمت الإمام . فلما أتموها تلا هو ما تيسر من القرآن ، ثم كبر وكبر المبلّغون على أثره . ورُكع هذا الجمع الحافل كله يسبح بالله العظيم . وكبر المبلّغون ، فاعتدل الناس ؛ ثم كبروا فسجدوا يسبحون باسم ربهم الأعلى . وكبروا للركعة الثانية ، فتلا الإمام الفاتحة ودوى المسجد من بعده بـ « آمين » وكبر الناس وركعوا وكبروا وسجدوا وتلوا التحيات ثم ختموا صلاتهم بتحية الختام : « السلام عليكم ورحمة الله » لافتين رعوسهم ناحية اليمين فاليسار .

لم تترك صلاة الجماعة ولا تركت صلاة الجمعة فى نفسى من الأثر

ما تركته هذه الصلاة في الحرم . ولطالما وازنت بين صلاة الجماعة يقوم بها المسلمون في مساجدهم وما رأيت من صلوات في الكنائس المختلفة ، فألفت صلاة المسلمين أعظم في النفس أثراً ؛ لأنها توجه لله الأحد « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ، ولأن المسلم هو الذى يصلى بنفسه ويتصل بالله بقلبه ويستغفر الله عن ذنبه ، ليس للإمام عليه سلطان ؛ بل يقف عمل الإمام عند تنظيم صلاة الجماعة ، بلا قيد لحرية الفرد في صلته بربه إلا عمله وتقواه . أما صلاة الجمعة في الحرم فقد اهتز لها كل وجودى ، وقد أثارت أمام ذهنى صورة مجسّمة من المعانى السامية كنت أفدّسها من قبل ولكنى لم أكن ألمسها لمساً مادياً ، ولم أكن أراها بارزة بالوضوح الذى رأيتها به أثناء هذه الصلاة ولا إثرها . ولقد جلست مكافى والناس ينصرفون من المسجد أفكر فيما رأيت فلا أجد من مزيد التفكير فيه إلا مزيداً فى تأثرى به وإكبارى له . ولولا أن جاء صاحبي يدعونى لمغادرة المسجد إلى الدار لأقمتُ حيث كنت مسترسلاً فى تفكيرى ملتمساً العبرة البالغة منه . وما أكبرها عبرة وما أبلغها عظة ! .

وأبلغ أثر تركته هذه الصلاة فى نفسى هذا النظام الكامل لعشرات ألوف يُسَخِّطُهَا العد عن إسلام به ، وإيمان بوجوبه ، وحب إياه ، وإقبال عليه . فها هى ذى عشرات الألوف تقف وراء الإمام صامئة خاشعة متجهة بكل قلوبها إلى الله مؤمنة إيماناً كاملاً بكل كلمة وكل حرف من هذه السبع المثاني التى يتلوها الإمام إذ يتلو سورة الفاتحة ، ثم تتلو هذه السبع المثاني من بعده تحمد الله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، لا تعبد إلا إياه ، ولا تستعين إلا إياه ، تستهديه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم فلم يغضب عليهم ولم يضلوا . وهامى ذى عشرات الألوف من كل الأجناس والألوان واللغات ينظمها إيمان واحد بهذا الذى تتلو ، إيمان لا يتلجلج ولا يكبو ، فإذا سمعت التكبير للركوع ركعت جميعاً مؤمنة تسبح بحمد ربها العظيم الذى تؤمن به وتقده ، وإذا سمعت التكبير للسجود سجدت تسبح بحمده كرة أخرى . وهامى ذى تعبد فى الركعة الثانية حمدها وتسيبها واستغفارها ربّها

وعبادتها لإياه واستعانتها به في مثل نظامها في الركعة الأولى . وتتوجه كل هذه الألوف في هذا النظام الذى يأخذ بالقلوب والأفئدة إلى بيت الله من جوانبه الأربعة . أى جيش جيش الإيمان هذا ! وأية قوة في العالم تستطيع أن تغلب هذا الجيش لو أنه عرف كيف ينظم الحياة مثل نظام الصلاة الجامعة ، وأن يجعل الإيمان قواماً لنظام الحياة كما أنه قوام هذه الصلاة ! . ألا لو أن ذلك كان واجتمع من في الأرض جميعاً لما غلب قوماً ذلك إيمانهم ، وذلك نظامهم ، وذلك سموهم إلى الله ، وهذه عبادتهم لإياه وحده لا شريك له .

الإيمان قوام هذا النظام البالغ في كماله ، الذى جمع الأوربى والإفريقى والآسيوى وأهل الأرض جميعاً في صعيد واحد . والإيمان هو الذى جعلهم إخوة متفاهمين على تباين لغاتهم واختلاف أجناسهم . وإيمانهم له كل هذا السلطان لأنه إيمان تجرد من كل ما سوى الفكرة السامية ، لا تشوبها شائبة ، ولا تندس إليها غاية من غايات هذه الحياة الدنيا : الفكرة المجردة من كل مطمع ومن كل هوى إلا رضا الله رضاً يستعذب المسلمون التضحية بكل شىء في سبيله؛ التضحية بالهناةء والطمأنينة ، وبالمال والجاه ، وبكل ما في الحياة ، بل بالحياة نفسها . وهذه الفكرة السامية يؤمن بها عشرات الألوف هؤلاء ويؤمن بها المسلمون جميعاً ، تتلخص في كلمتين اثنتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانية منذ وجدت ، ولا يمكن أن تعرف أبلغ ولا أقوى منهما إلى أن يبىد الله الأرض وما عليها : « الله أكبر » .

نعم ! هاتان الكلمتان هما أبلغ ما عرفت الإنسانية ، وما يمكن أن تعرف . هما مظهر السموى الإنسانى على ما يتصل به الإنسان من سائر الكائنات . وهما مظهر سمو النفس وقوتها ، فلا يعترىها ضعف ولا يزعزع منها سلطان . يكفى أن يحيط الإنسان بمعنى هاتين الكلمتين كاملاً ، وأن يؤمن به إيماناً صادقاً ، ليتصل بالله اتصالاً صحيحاً ، وليترقى بهذا الاتصال فوق الألم ، وفوق الأمل الخادع ، وفوق الغرور الكاذب ، وفوق كل ما في الحياة الدنيا . إننا نحن المسلمين لنسمع هاتين الكلمتين ولنقولهما في كل يوم عشرات المرات : نسمعهما

مرات ساعة الأذان ، ونسمعهما ونقولهما مرات حين الصلاة ، ونرددهما في مناسبات كثيرة وذاؤمن بهما حقاً ؛ لكن الكثيرين منا يؤمنون بهما ولا يحيطون بمعناهما إحاطة إدراك تام وشعور متنبه لهذا المعنى .

فما أعظم سلطان المال وما أكبر حكم أصحابه ! نعم ! لكن الله أكبر . وما أعظم سلطان هذا الملك الحاكم فوق العباد ! نعم ! لكن الله أكبر . وما كان أعظم سلطان رومية وامتداد إمبراطوريتها ! نعم ! لكن الله أكبر . وما أعظم سلطان الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس عن أملاكها ! نعم ! لكن الله أكبر ! وما أعظم سلطان أوربا سلطاناً تحكّم به الشرق وتحكّم به في مصير العالم كله ! نعم ! لكن الله أكبر . فإذا أنت اتصلت بالله وحده ، وعبدته وحده ، واستعنته وحده ، لم يكن للمال ولا للملك ولا للإمبراطورية البريطانية ولا لأوربا ولا لقوة من القوى بالغماً ما بلغ كبرها أي سلطان عليك .

وما هذه القوى جميعاً وهي لا تساوى عند الله جناح بعوضة ! وإن من التجديف حين نذكر أن الله أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم أن نذكر هذه القوى الضئيلة في حياة الكون والتي تبدو اليوم وتختفي غداً ، وتقوى اليوم وتضعف غداً ، وتوجد اليوم وتعدم غداً . يبتلع البحر من الأرض ما شاء الله أن يبتلع ، ويذهب الأقوياء فلا يبقى لهم بعد ذهابهم إلا ذكر قوتهم ؛ لكن الأرض التي يسير عليها هؤلاء يعيشون ويأكلون وإلى ثراها يرجعون ، ما أكبرها ! لكن الله أكبر . والشمس ما أكبرها ! لكن الله أكبر . والوجود كله من محسوس نشهده وغائب نتوسّمه ما أكبره ! لكن الله أكبر ! وسع كرسية السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم .

وعباداة الله والاستعانة به تقتضيانك علم ما خلق ، والسعى في مناكب الأرض ، وإدراك أسرار الحياة . وأنت أعظم اتصالاً بالله كلما كنت من هذا العلم وهذا السعى وهذا الإدراك أكبر حظاً . وإيمانك الحق بهاتين الكلمتين ينقلب إيماناً آلياً لا ينفع ولا يضر إذا لم تتسع ولم تدرك ولم تتصل بنوره العظيم . إذا علمت هذا وعملت به ودأبت لتدرك عظمة الله في خلقه ممّا نرى



وما لا نرى، وما نحس وما يجاوز إحساسنا، إذن فلن يغلبك غالب وأنت فرد .  
فأما إن علمته أمة وعملت به وآمنت عن إدراك صحيح بأن الله أكبر ، فقد حق لها أن تتولى هدى العالم إلى الحق في أسمى صوره وأرقى درجاته ، هدى يصل بالإنسانية إلى ما تبغى من مجد الإخاء في الله ؛ إخاء هو وحده الجدير بالإنسانية حين تبلغ من التقدم درجة حسنى .

ما بال هذه الألوف المؤلفة من المسلمين الذين يصلون الجمعة في الحرم ، ثم ما بال إخوانهم الملايين من المسلمين المنتشرين في بقاع الأرض جميعاً ، وهم يؤدون صلاتهم في هذا النظام البالغ ويسمعون هاتين الكلمتين ويكررون في صلاتهم « الله أكبر » مرات وعشرات المرات ، ما بالهم فيما هم فيه من ضعف وجمود وخضوع لسلطان الغير وحكمه ! ؟ فكّرت في هذا حين أويت إلى الدار واعتكفت في غرفى ، فكرت فيه متأماً ثائراً بهؤلاء الذين أوتوا أسباب القوة فضعفوا وهانوا ، وأوتوا سبيل العزة فذلوا واستكانوا . وكيف لا تثور النفس حين ترى هذا النظام البالغ ثم ترى ما هم فيه من هوان وفوضى ، ومن شأن من ينتظمهم الإيمان السليم به أن يكونوا العزة والقوة . ولم ألق عسراً في الوقوف على علّتهم ؛ فنظامهم هذا ينقصه الروح ؛ ولذلك غاضت حياته ، فانقلب آلياً ، فانقلبت على أهله غايته . وهذا هو السبب فيما هم فيه وما سيظلون فيه ، حتى يغيروا ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم .

الروح ينقص هذا النظام لا ريب ؛ الروح المستمدّة من الإيمان الكامل .  
أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . والكثرة من هؤلاء المصلين لا يفكر أحدهم في أخيه ولا يحب إلا نفسه . هو لم يحضر إلى مكة ولم يفرض الحج ولا يستوى مع الناس في صلاة الجماعة بالحرم ليكون لإخوانه المؤمنين كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، بل جاء إلى مكة حاجاً وحضر صلاة الجماعة ابتغاء المغفرة لنفسه والثواب لنفسه دون تفكير في المؤمنين ممّن حوله . وليس هذا شأن المسلمين اليوم وفي هذا العصر الأخير وكفى ؛ بل هو شأنهم — مع الشيء الكثير من

الأسف - منذ مئات السنين التي خلت ؛ منذ انتقل الأمر بينهم من الشورى إلى الاستبداد ، ومن الاجتهاد إلى التقليد ، ومن الاستهانة بالموت إلى حب الحياة ، ومن عبادة الله وحده إلى عبادة المال وأرباب المال . من ذلك اليوم البعيد عنّا ، حينما كان تاريخ الأمة الإسلامية ما يزال مزدهراً ، بدأت الأثرة تلبغ من المسلمين أن صار أحدهم لا يعرف إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ، ويحسب مع ذلك أنه يستطيع الوصول إلى رضا الله باعتزال إخوانه المؤمنين وبالانقطاع عن التفكير في أمرهم إلى التفكير في أمر نفسه . ومن يومئذ نسى المسلم أنه إذ يقول وهو يصلى لله « إياك نعبد وإيّاك نستعين » ، أنه يتحدث عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين ، وكأنما خُيّل إليه في غروره أنه بهذه الصيغة يعظم نفسه وهو يخاطب ربه . وحينما بلغت الأثرة من النفوس هذا المبلغ ضعف إيمانها وتزعزع يقينها وتعلقت بالحياة وأذعنت خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة في الحياة . هنالك تنزوى الروح ويضمحل سلطانها على النفس . وهنالك تتهلل أواصر الاتصال بين المؤمنين وتضعف أخوتهم فيضعفوا جميعاً . وهنالك تصير حياتهم حياة أفراد تنتهى بالموت لاحياة أمة تتصل على الزمان ولها في شهدائها وفي موتها أعلام مجد وعزة تتعلق بها وتضحى للاحتفاظ بما شادوا من هذا المجد ولإكباره والمزيد منه .

وذكرت وأنا أفكر في هذا وفي مثله أولئك المسلمين الأولين الذين كانوا يجيئون للصلاة عند الكعبة كما نجىء نحن للصلاة عندها اليوم ، فيصدّهم المشركون ويؤذونهم ويبالغون في تعذيبهم . لم يكن يومئذ حول الكعبة مسجد معمور تحيط به هيبة الإسلام شأن المسجد الحرام اليوم ؛ بل لم يكن حولها مكان مسور؛ إنما كان حرمها متصلاً بالطريق ومتصلاً بالمساكن اتصال المسعى بين الصفا والمروة في وقتنا الحاضر . مع ذلك كان المسلمون الأولون يذهبون إلى الصلاة متّحدين متضامين وهم يعلمون أنهم معرضون للأذى وللموت ، وأن تحابهم وتضامنهم يجعلانهم أكثر للموت وللأذى تعرضاً . ولقد كثر عدد المسلمين بمكة قبل الهجرة ، واعتز الإسلام بحمزة بن عبد المطلب وبعمربن

الخطاب ، وجعل عمر يدفع من أذى المشركين للمسلمين ما يستطيع دفعه ؛ مع ذلك ظل المشركون على عداوتهم للنبي وأصحابه وإيادتهم إيتاهم ، وظل المسلمون على تضامنهم وحبهم لبعض في الله وصبرهم على الأذى في سبيل الحق وإيمانهم بأن النصر لهم ما صبروا ، يذهبون إلى حرم الكعبة للصلاة مستهينين بالأذى وبالموت ، مؤمنين بأنهم رجل واحد فلا يموتون ما بقي منهم من ينادى مؤمناً : « لا إله إلا الله الله أكبر » ، محباً لإخوانه في الله ، موقناً أنه لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ولم يكن هذا الحب الصادق الذي يكمل به الإيمان حب عاطفة هوجاء يرى صاحبها في الإلقاء بيده إلى التهلكة استهانة بالموت ؛ بل كان حب تعقل وروية وحرص على معرفة الحياة وما فيها إلى غاية ما يبلغ المرء من معرفتها في ذلك العهد . كان المسلمون يجتمعون بالرسول في كل يوم يتشاورون ، وكانوا ينتظسون أخبار المشركين ليقفوا على دخائل نفوسهم ، وكانوا ينافسونهم في العلم بالأمور ليدفعوا حاجتهم بالحجة وقوتهم بما يستطيعون من قوة . لم يكن أحدهم يرى في الإسلام لله والتوكل عليه ما يصرفه عن التفكير ليومه وغده ، ولشد أزر وليته ودفع عدوه ؛ بل كانوا يرون في الإيمان بالله والإسلام له سموً على كل إذعان لغير الله واستهانةً بكل مجهود وكل مشقة لبارغ هذا السمو ؛ وبذلك كانوا حرباً على كل ضعف في أنفسهم ، كما كانوا حرباً على قوة خصومهم . من أجل ذلك استلوا من نفوسهم كل سلطان للأثرة عليها ؛ فقوى اعتداد الفرد منهم بنفسه وحبه لإخوانه ، وبذلك كانوا الغالين .

وكان لهذا الاعتداد بالنفس مع إنكار الذات أثره في أولى المواهب وأهل الزعامة منهم . لم يكن أحد من هؤلاء يرضى إذا آمن بشيء أن يكتم إيمانه مخافة ما يجره إعلان هذا الإيمان عليه من أذى ؛ ولم يكن أحدهم ينتظر حتى يرى أين تكون منفعته ليكيّف بوحيا رأيه أو عقيدته ؛ بل كانوا جميعاً يؤمنون بأن العقيدة والرأى معا ملك « مشاع » للجماعة ؛ فيجب أن يطالعهما الفرد بما يرى ، وأن يحاول إقناعها به في صراحة وشجاعة وإيمان . لهذا نجم منهم القادة

وأولو الرأي ، وتوارى من جماعتهم المرءون والمنافقون الذين يريدون أن يتخذوا من كل شيء ، حتى من الرأي والإيمان به مطية أهوائهم ووسيلة منافعهم ولذلك آمنوا بأن الروح من عند الله ، وأن الحياة الإنسانية متصلة بكلمة الله ، وأن الله خلق الإنسان على صورته ؛ فهو من ثمّ روح قبل أن يكون مادة ، وحياته من ثمّ فكرة متصلة بالروح ، وليست حركة آلية ، ولا حركة فطرية كحركة النبات ، ولا حركة سلكيية كحركة الحيوان .

وحيثما آمن الإنسان بأن الحياة فكرة استهان بالموت في سبيل الفكرة . ومن استهان بالموت عننت له الحياة . وكلما ازدادت الفكرة سموّاً ازداد صاحبها استهانة بالحياة وسموّاً لذلك عليها . والجماعة التي تعيش من أجل فكرة إنسانية سامية ولا تخشى الموت في سبيلها ، تصل من القوه إلى حيث لا يغلبها غالب . كذلك كان شأن الجماعة الإسلامية الأولى . كان الإيمان بالوحدانية يملأ نفوس أهلها ، حتى ليصغر كلُّ ما في الحياة إلى جانبه . وكانوا يعلنون إيمانهم هذا ولا يكتُمونه ؛ لم يكن يصرفهم عنه وعدٌ ولا وعيدٌ ، ولم تكن لتتردّ الصادقين منهم تضحية وإن عظُمت وإن بلغت التضحية بالحياة ؛ وبذلك نصرهم الله وفتح لهم فتحاً مبيناً .

ولأنه ليأخذ مني اليوم العجب حين أرى قومًا ينادون بغير هذا الرأي أو يعلموا الناس ما يخالفه . وأعجب هذه التعاليم وأشدها فتكًا بالقوى الإنسانية قوهم : إن الإنسان آلة وأعضاء جسمه كأعضاء الآلة ، ووجوده وروحه رهينان بسلامة هذه الأعضاء رهن حركة الآلة ونشاطها بسلامة أجزائها ؛ فإذا أصاب الإنسان الموت أصبح جثة هامدة كما تصبح الآلة ركامًا من أجزائها التي فقدت أسباب الحركة . ويزيد في عجبى ما يزعمه قوم من أن هذه الفكرة الآلية هي أساس الحضارة الغربية التي تحكم العالم اليوم ، كأنما تستطيع المادة أو يستطيع شيء غير الفكرة أن يتطور الحياة أو ينشئ فيها جديدًا .

وهذا القول بأن حضارة الغرب تقوم على هذه الفكرة الآلية وهمّ يدلّ على

سوء الفهم لحياة الغرب . فعلماء الغرب ومفكروه يقسرون ما عرفته الإنسانية الحية في كل أطوارها من أن الفكرة أساس الحياة وأساس كل نشاط فيها . بل إن حياة العلم في هذا العصر لتستند إلى الكلمة التي قالها « ديكارت » في القرن السابع عشر : « أنا أفكر ، فأنا إذاً موجود » . وليس يصح في الذهن أن يكون التفكير أساس الوجود ، وأن يكون الوجود الإنساني آلياً لا يساوي الوجود الفطري للنبات والحيوان .

وإنما أدى إلى فكرة الآلية في الحياة الإنسانية أن بلغ بعضهم بالفكرة الروحية مبلغاً أخرجه عن حكم العقل ، ثم أراد مع ذلك أن يصورها في صور من المادة ؛ فهوت بذلك فكرته فيها إلى درك الجمود والتعصب . وحيثما قام التعصب ناضله تعصب يتضيق به ذرعاً . من ثم قامت الفكرة الآلية لنضال أوهام زعمها أصحابها صادرة عن الفكرة الروحية . فأما الحق في الغرب والشرق وفي كل زمان فإن الحياة الإنسانية روح قبل أن تكون مادة ، وفكرة متصلة بالروح ، وليست حركة آلية تنظم حياه الجسم وحدها .

والنضال هو الذي نزل في الغرب بالمثل الأعلى إلى الرغبة عن النظر في الروح وفي اتصال الإنسان بالكون نظراً لطريقه العقل ، ثم إلى التقيد بالمحسوسات المادية واستنباط سنن الكون منها بمنطق العقل وحده . على أن كثيرين من كبار علماء الغرب ومفكريه لم يلبثوا حين رأوا ما في هذا التقيد بالحس من حد لحرية الفكر ، أن دعوا لتحطيم هذا التقيد ، وأن عاجلوا الظاهرات الروحية على الطريقة العلمية ، طريقة الملاحظة والتبويب والاستنباط ، أملين أن يصلوا من هذا الطريق إلى نتائج أسمى أثراً من ثمرات النظريات النفعية والمادية في الخلق وفي الحياة وفي اتصال الإنسان بالوجود وبارئ الوجود . وما يحاول الغرب اليوم من سمو هو ما حققه الإسلام منذ نشأته للذين دانوا به . لذلك كان الروح أساس ما دعا إليه من نظام ومن حرية ؛ ولذلك كان المسلمون الأولون أشد حرصاً على حرية أرواحهم منهم على حرية أبدانهم ، وكانوا يفتنون حرية الروح للفرد بكل قيد للبدن ، ويفتدون نظام الروح للجماعة

بما شَهِدَتْ في صلاة الجمعة بالحرم . لم تكن المظاهر تغريهم عن الحقيقة ، ولا كان الغلاف يحجب اللب عن أنظارهم . لم يَعْنِيهِمْ أن كان المسجد مما حول الكعبة غير مسور ، ولم يروا في بيت الله إلا أنه منارة روحية يتوجه إليها المسلمون جميعاً على أنه الجامع لقلوبهم وإيمانهم وتوحيدهم ربهم . لم يتوجه أحد إلى الكعبة بالعبادة لأنها بيت الله ، بل قصرُوا جميعاً عبادتهم على رب البيت . كان عمر بن الخطاب يقول وهو يقبل الحجر الأسود حين طوافه : « والله لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . وكذلك كان هُذَاهُمْ روحياً في كل شيء ، وكانوا يلتمسون هذا الهدى في كل ما يقع عليه الحس ليروا فيه سنة الله لا تبادل لها ، وآية الله شهيدة بربوبيته جل شأنه .

ولم يفكر المسلمون في أن يسوروا ما حول الكعبة ليتخذوا من سياجه قدساً لصلاواتهم إلى أن اختار الرسول الرفيق الأعلى وطيلة خلافة أبي بكر . وعلى عهد عمر امتدّ الفتح الإسلامي وكثر الذين يشهدون الحج ، وضاق القضاء المحيط بالبيت بهم حين الصلاة ، إذ كانوا يدخلون إليه من الأبواب القائمة بين الدور المحذقة به . عند ذلك اشترى عمر دوراً حول الكعبة وهدمها وأدخلها في حرمها وأحاطها بجدار قصير . ولقد أبى بعضهم يومئذ أن ينزل على إرادة عمر ، فأجلاهم عن دورهم ووضع لهم ثمنها في خزانة الكعبة ، وقال لهم : إنما نزلتم على الكعبة فهو فناءها ، ولم تنزل الكعبة عليكم . وازدادت رُقعة الفتح الإسلامي في زمن عثمان وازداد الذين يشهدون الحج عدداً ؛ فاحتذى عثمان مثال عمر وأضاف إلى الكعبة دوراً اشترها .

كان المسجد الحرام يومئذ محاطاً بجدار قصير وكان غير مسقف ، وكان الناس يجلسون حول البيت وحول جدران المسجد بالغدادة والعشش يتفشيون الظلال ؛ فإذا تقلص الظل تفرقت المجالس . ولم يفكر أحد من خلفاء المسلمين ولا من رجال هذا الصدر الأول في زينة المسجد ولا في فخامته . فبساطة الإسلام الحق تنأى بالمؤمن عن هذا التفكير ، وعبادة الله لا تعرف الزخرف ولا تتصل به . إنها ابتهاج خالص بالقلب إليه جل شأنه ، وتوجهه

ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ويسمو بالنفس على غرور الحياة الدنيا .  
لذلك لم يزد عمر حين ضم إلى المسجد من المنازل المحيطة به ما ضمّه على أن أقام  
جداراً لا يرتفع إلى قامته الرجل ، وكذلك فعل عثمان . ويذكر بعضهم أن عمر  
وضع على الجدار مصابيح تضيء المكان للذين يصلّون العشاء ؛ أما قبل عمر  
فلم تكن ثمة مصابيح ، بل كان الناس يقصدون إلى فناء الكعبة ليصلّوا وهم في  
غير حاجة إلى نور يهتدون به ، اكتفاء بنور بصائرهم وهدى قلوبهم .

في هذه الأيام الأولى كانت صلاة الجمعة بالحرم يدعو إليها روح مبعثه  
الإيمان ونظام قوامه الأخوة . والإيمان والأخوة يسموان بطبيعتهما على الزينة  
والزخرف . لذلك لم يفكر عمر ولا فكر عثمان في أكثر من توسيع رُقعة المسجد  
ليسع المصلين حين الحج ، وإضاءته ليتهدى في أرجائه من لا عهد له به .  
ولم تغر عثمان أموال الفتح التي كانت تتدفق من الأقطار الجديدة التي رُفرف  
عليها العلم الإسلامي ، فلم يصنع بالمسجد ما صنع قومه في الجاهلية بالكعبة  
حين كشف عبد المطلب عن زرم بعد أن بقيت مطمومة ثلاثة قرون ؛ فلقد  
أخرج من بئر إسماعيل غزالتين من الذهب كان العجرهسي الذي طمها قد  
أخفاهما بها ؛ فضر بهما في باب البيت الحرام حلية له . لم يصنع عثمان صنع من  
سلف ؛ لأن الإسلام جعل التقوى قربان الإنسان إلى ربه ، ولم يجعل من  
مساجد الله هياكل آلهة تعبد ويتقرب إليها المتقربون بالأموال ، كما كانوا  
يتقربون إلى هُبَلٍ وإلى غيره من الأصنام قبل أن يطهر النبي الكعبة منها .

ولما انقضى عهد الخلافة وشبت نار الحرب الأهلية بين المسلمين باسم  
الثأر لعثمان من قتلته ، بدأت الشوائب تشوب قلوب طائفة من المسلمين وقد  
حرّكتها مطامع هذه الحياة الدنيا . فغشت فيها طُهرَ دين الله وصفاءه .  
على أن الذين أقاموا إلى جوار بيت الله من عترة النبي كانوا أبعد أن تشوب هذه  
الشوائب قلوبهم ، وكانوا أشدّ لبيت الله ولحرم البيت إكباراً وتعظيمًا . أقام  
عبد الله بن الزبير بالحجاز حفيظاً على التقاليد الأولى ؛ فلما كانت سنة أربع  
وستين من الهجرة اشترى دوراً وسع بها المسجد الحرام على نحو ما صنع عمر

وعثمان من قبل ، ولم يزد على أن أحاط الزيادة بجدار المسجد .  
لكن بنى أمية كانوا قد اتصلوا في الشام بأهل البلاد التي دخلت في الإسلام بحكم الفتح ، ورأوا من عناية النصارى بكنائسهم وعمارتها وزينتها ما جعلهم يفكرون في القيام للمسجد الحرام بشيء من هذا الذي رأوا . وكان عبد الملك بن مروان أول من سن هذه السنة حين حج في السنة الخامسة والسبعين من الهجرة . فهو لم يجد المسجد في حاجة إلى زيادة فيه ، فأمر فرفعت جدره وسُقف بخشب الساج الداكن اللون المتين ، وجعل في رأس كل أسطوانة خمسين مثقالاً من الذهب . وفي ذلك عمودٌ لتقاليد الجاهلية . لم يعترضه يومئذ من المسلمين أحد لأن أمير المؤمنين هو الذي أمر به . وزاد الوليد بن عبد الملك في عمل أبيه بعد أن نقضه ، فوسع المسجد ، وزخرف الساج الذي سقفه به وأزّر أسفل جدرانه بالرخام وجعل له شرفاً ، ونقل إليه أساطين الرخام وجعل على الذهب في رأسها صفائح من النحاس ، وزخرف أعلى أبواب المسجد بالفضة . وإنما صنع الوليد ذلك لأنه كان إذا شئد المساجد زخرفها كما يزخرف النصارى كنائسهم .

ودالت دولة بنى أمية ، وقام بنو العباس على إمارة المؤمنين . وبنو العباس يمتون إلى بيت النبوة بأصرة قريبة ، وقد جعلوا من صلتهم به أساس دعوتهم . فلا عجب أن يتجه نظرهم إلى البيت الحرام وإلى الزيادة فيه وإعظامه ، وإن لم يفكر أحد في الرجوع به إلى البساطة الأولى . فلما اطمأن لهم الأمر أصدر ثاني خلفائهم أبو جعفر المنصور أمره إلى زياد بن عبد الله الحارثي واليه على مكة ؛ فزاد في المسجد الحرام وجعله ضعف ما كان عليه وزينه بالذهب وأنواع النقوش ، وبنى مئذنة بنى سهم ؛ وأتم ذلك فيما بين سنة سبع وثلاثين ومائة ، وسنة أربعين ومائة . وفي هذه السنة حج المنصور ورأى حجارة حِجْرٍ لإسماعيل بادية ، فأمر زياداً أن يغطيها بالرخام ، ونفذ زياد الأمر ليلاً وأصبح المنصور فراها كما أراد . وزاد المهدي بعد أبيه المنصور ما جعل المسجد قُرابة ما هو اليوم .



وكانت الكعبة في جانب من المسجد لأن ما أضافه إليه عمر كان يتجه إلى الناحية التي لا يخشى انحدار السيل إليها . وكره المهدي أن تكون الكعبة في ناحية من المسجد وأراد أن تكون في وسطه ، وقال المهندسون حين استشارهم : إن وادى مكة له سيول قوية العزم ، ونخشى إن حولنا الوادى عن مكانه ألا يتم لنا ما نريد . قال المهدي : لا بد لي من سعة المسجد حتى تكون الكعبة في وسطه ولو أنفقت فيه جميع ما في بيوت المال . وأحكم المهندسون أمرهم ، وترك لهم المهدي المال وعاد إلى العراق . واشتط أصحاب الدور التي تدخل في هذه الزيادة في أثمان دورهم ، حتى بلغ ثمن الذراع مما دخل المسجد خمسة وعشرين ديناراً ، أى اثني عشر جنيهاً ونصف الجنيه . وأتم المهندسون العمل في عهد الهادي بن المهدي بعد أن جلبت أساطين الرخام لهذه الزيادة من مصر ومن غيرها وحملت على العَجَل من جدة إلى مكة .

لم يضاف إلى المسجد بعد ذلك غير إضافتين جزئيتين تمتتا في عهد الناصر والمقتدر من العباسيين . على أن عمارته جددت مرات من بعد ، وكان للملك مصر وأمرائها حظ من ذلك عظيم ، وكانوا لا يقفون من العمارة عند الترميم أو البناء بل كانوا يضاهاون العباسيين في تزيين المسجد وزخرفته وإن لم يبلغوا من ذلك ما بلغوا في تزيين حرم المدينة وزخرفته مما سنقسه عليك . ومع ما كان من انتقال الخلافة من مصر إلى آل عثمان بالآستانة ، ومن عناية آل عثمان بالحرمين ، لقد ظلت مصر أشد البلاد الإسلامية حرصاً على عمارة الأماكن الإسلامية المقدسة وأكثرها سخاء في الإنفاق على هذه العمارة . كان المعلم محمد المصرى هو الذى استصحبه شيخ المهندسين أحمد بك المصرى لعمارة المسجد الحرام حين أصدر السلطان سليم أمره إلى حاكم مصر سنّان باشا للقيام بهذا العمل . وكان لمصر نصيب وافر من النفقة على هذه العمارة التي بلغت خمسة وخمسين ألفاً من الجنيهات عدا مائة ألف من الذهب الإبريز ، وعدا ما دخل من مصر من مواد العمارة كالخشب والحديد وأهلة القباب المطلية بالذهب ، على نحو ما يرى الإنسان بالمسجد إلى يومنا هذا . وفي هذه العمارة عُنِي

المهندس بخفض أرض الطريق المنحدر إلى وادي مكة لتنحدر منه السيول إذا دخلت المسجد . وكثيراً ما كانت هذه السيول سبباً في توهين بنيان المسجد من قبل .

ليس غرضي مما قدمت تفصيل عمارة المسجد ومن قام بها ؛ لذلك لا أقف عند عمارة داخل المسجد من مقام إبراهيم وحجر إسماعيل وبر زمزم ومقامات الأئمة الأربعة ؛ إنما سقت ما ذكرت لأبين ما أدت إليه صلاة الجمعة في الحرم من توسيع المسجد على مرّ السنين ليسع المصلين ، وعناية خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين بذلك عناية بدأت من عهد عمر واستمرت على القرون بعده ، وما أدى إليه تطور التفكير الإسلامي من البساطة القوية الأولى ، بساطة الإيمان والنظام للفرد والجماعة ، إلى الترف والزخرف في العصور التي سبقت الانحلال في الحضارة الإسلامية . فقد رأيت أن الخلفاء الأولين لم يعنهم من أمر الحرم وتوسيعه إلا أن ينفسح المكان للمسلمين في أيام الحج ليصلوا حول بيت الله ، ثم آل الأمر إلى تزيين المسجد وإلى زخرفته شيئاً فشيئاً حين أصبح الإيمان فناً والنظام حواراً وجدلاً . فقد بدأ الإيمان يتزياً في أزياء ويتصور في صور تجعل الإنسان درجات تتفاوت بتفاوت ما يتقرب به صاحبه إلى الله من مادة الحياة بعد أن كان أمره روحياً خالصاً ، يتصل تفاوته في الدرجات بمبلغ سمو الروح به إلى الله . كان هذا السمو الروحي دأب المسلمين الأولين ، وكانوا يقرّون لفقراء لا يملكون قوت يومهم أنهم أقرب إلى الله لأنهم أكثر به إيماناً وله إسلاماً . وأن من الأغنياء الذين يستفنون في التقرب إلى الله بإقامة المساجد وما إليها من لا يبلغ في الإيمان درجة هؤلاء الفقراء . فلما شابت السمو الروحي الشوائب خيل إلى الأغنياء وذوى الأمر والسلاطان أن من درجات الإيمان ما يبذلون من مال في توسيع الحرم أو زخرفته . ثم تطور أمر الإيمان إلى التقرب إلى الله عن طريق الأولياء والصالحين ، ثم ضعُف هذا الإيمان وصار إلى ما صار إليه في زماننا إيماناً تقليدياً يكفى صاحبه أن يقول ألفاظ الإيمان وإن لم يؤمن منها بشيء ، ثم يحسب بعد ذلك

أنه أرضى الله . ولعله لا يعنيه من هذا الرضا أكثر مما يعنيه من حقيقة إيمانه .  
هذا التطور وما انتهى إليه هو علة ما قدمنا عن النظام في صلاة الجمعة بالحرم وأن الروح ينقصه . على أن هذا الحرم ، حرم الكعبة ، كان له في نفوس المسلمين جميعاً من التقديس ما حال دون غلبة التطور في بنائه على روح الإسلام القويّ ببساطته ، فلم يبلغ ما رأيت من جهود الملوك والأمراء أن جعل من هذا الحرم هيكل عبادة على صورة هياكل العبادة في غير الإسلام من الأديان ، ولم يبلغ أن جعله على صورة مساجد المسلمين مما تراه في غير مكة من بلاد العالم الإسلامي ؛ بل ظلّ الحرم تطبعه بساطة تجمع بين الصراحة والمهابة وتجعلك ترى الفقير المعدم يقف إلى جانب الغني المسترف ويصلي وإياه كنفياً إلى كتف ، وهما يتجاوران في هذا الحرم المقدّس تجاور إخاء واتساق كما تتساق فيه الحصباء إلى جانب الحجر المرصوف به ما يجاورها من صحنه ، ويظلهما إيمانها بالمحبة والسلام وهما يريان في حمام الحِمَى رمزاً يدل على المحبة ؛ إذ يجاوره المصلون فلا يطير ولا يخاف لأنه في حمى الله وفي حرم بيت الله .

لم يغلب التطور في بناء الحرم على روح الإسلام القويّ ببساطته . لكن هذا التطور كان له أثره في النفسية الإسلامية منذ بدأ الانحلال بعد ازدهار الحضارة إبان العصر العباسي . وقد رأيت مبلغ ما هوت إليه هذه النفسية ، حتى نسى المسلم أن إيمانه لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى صار المسلم أثراً لا يعرف إلا نفسه ، ولا يفكر إلا في نفسه . يصلى رجاء التوبة لنفسه والمغفرة لذنبه ، لا انتهاء عن فحشاء ولا عن منكر . ويقف في صفوف الجماعة وهو لا يفكر إلا أن يعود عليه من ثواب صلاة الجماعة ما يعادل الثواب الذي يعود عليه من صلواته وحيداً أضعافاً مضاعفة . وهو يؤدي فريضة الحج ليغفر الله له ذنبه وليعود نقيّ الصحيفة ، وسيان عنده بعد ذلك ما يحل بسواه . حتى البرّ ، وهو عماد التقوى ، قد تضاعل في نفسه ما لم تتحقق لديه المثوبة عنه . لم يعد يفكر في أن يخرج من ماله عن حظ معلوم للسائل

والحرّوم ابتغاء وجه ربه ، لا رغبة ولا رهبة ، ونسى أن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده الصالحين . لا يفكر في دار علم يقيمها ، ولا في مكتبة ينشئها ، ولا في مستشفى أو مصلى ينفق عليه . غاية همه أن يستغفر عن الخطايا ، كأن حياته كلها خطيئة يريد أن يكفّر عنها ، وكأنما يعجز عن أن يجعل من الحياة عملاً صالحاً يكون به عند الله راضياً مرضياً .

وإنما هوت النفسية الإسلامية في عصور الانحلال إلى هذه المكانة ، لأن من المسلمين من اتخذ إلهه هواه ، ورفعته تدهور الجماعة إلى مكان الزعامة منهم والحكم فيهم . وقد ألف كثيرون أن يقولوا : « الناس على دين ملوكهم » ، فجرت الجماعة مجرى هؤلاء الملوك والحكام ، وجعلت إلهها هواها ، واقتصر من عبادة الحق على ما ترى فيه مغفرة وزرّها والتخفيف من إثمها ، ولم تقصد وجه الحق جل شأنه لذاته ، إياه تعبد وإياه تستعين ، ووقفت عبادتها عند ألفاظ تتلوها ، وفاتها أن العمل عبادة ، والعلم عبادة ، والسعي عبادة ، ومعرفة سنة الله في خلقه بالاجتهاد والجد أسمى معاني العبادة .

مَنْ لِي بَأَن يُدْرِكَ المسلمون هذا الذي فاتهم ، وأن ينفضوا عنهم جمود الأثرة ، وأن يجعل كل منهم إلهه الله لا يشرك به هواه ولا يشرك به أحدًا ، وأن يذكروا أنهم إخوة ، أخوة إيمان وعبادة ! إن يفعلوا فقد آن للزمن أن يرتفع بهم إلى السّمّاء كما ارتفع بهم من قبل ، وأن يجعلهم هُدّاء الإنسانية ؛ ويومئذ يتم وعد ربك فينصر دينه على الدين كله .

ما عسى أن تكون صلاة الجمعة بالحرّم يومئذ ؟! فيومئذ يؤمه حين الحج أضعاف من يؤمه اليوم من المسلمين ، ويومئذ يؤمه أولو الرأى والعلم منهم ومن يريدون أن يشهدوا في الحج منافع للأُمم الإسلامية كافة . ويومئذ يؤمونه والروح مبعث إيمانهم وقِيّام نظامهم ، والحبّة الصادقة رباط وثيق بينهم . هؤلاء جميعاً إذ يقفون في الحرم منادين : الله أكبر ، يحمّدون الله ، إياه يستعينون ، يكونون قلباً واحداً وجناناً واحداً وقوّة واحدة . أية قوة في الأرض لا تحدّق إلى هذه القوة مطّاطة إكباراً وإعجاباً ! . بل أية قوة في الأرض

لا تسير وراء هذه القوة في طريق الخير والحق والجمال والسعادة والسلام !  
 هل لي أن أرى ذلك اليوم ! . لشد ما أسعدُ به إن رأيته ! . فإن متَّ قبله  
 فما أسعدَ روحى به يوم يتحقق ، وما أشدَّ ما تهتف روحى يومئذ : الآن  
 عاد للإسلام مجده ! .  
 والمجد لله في العلا ، وعلى الأرض السلام .

## في جوف للكعبة

منذ فرغت من شعائر الحج وعدت إلى مكة كان الدخول إلى جوف الكعبة في مقدّمة أغراضى . لكن كثرة تجوالى بمكة وما حولها ، وذهابى أثناء ذلك إلى الطائف ، أجلّ قيامى بهذا الواجب حتى غادر أكثر الحجيج أمّ القرى ؛ ولقد أجلّه كذلك أن الحجيج لا يفتشون طيلة مقامهم بالبلد الحرام يلتمسون المثوبة من رب البيت بالدخول إلى جوفه . وهم يدخلون الكعبة زُمراً ؛ فإذا احتوتهم لم يجد من يكون بينهم فرصة تفكير أو استجمام . فلما خلت مكة من غير أهلها وآن لى أن أغادرها ، فكرت فى تحقيق غرضى بإتمام هذه الزيارة . وقيل لى يوماً إن سادن الكعبة يفتح بابها بعد صلاة الظهر ، فأقمت بالمسجد أنتظره ؛ لكنه لم يحضر إلى العصر ولم يفتح الباب لداخل بقيّة ذلك اليوم . إذ ذاك رجوت مضيّ أمين العاصمة فكتب إلى الشيخ الشيبى ينبئه بما أريد . وردّ السّادن ردّاً رقيقاً ضرب لنا فيه موعداً ضحى الغد .

وذهبت فى الموعد فطفت بالبيت وصليت بمقام إبراهيم وبججر إسماعيل ، ثم عدت إلى المقام قبالة باب الكعبة أنتظر فتحه . وكان مطوّفاً يتنطس أخبار السّادن خيفة أن يطول بنا انتظاره . وأقبل الشيخ الشيبى بعد سويعة فى لباسه الضمّافى وسار خدام الكعبة من ورائه ، ورآهم الناس فتفرجوا عند الباب ، ووضع الخدم السلم وصعدوا عليه وفتحوا باب البيت ودخلوا إليه ، ولم يؤذّن بالدخول لغيرهم . وسألت فى ذلك فعلمت أنهم يكسسون الكعبة ويطلقون فيها البخور . ولما أتمّ القوم واجبههم وقف السّادن بالباب وأشار إلىّ ، فتقدمت نحو هذا الدرج الذى يوضع كلما فتحت الكعبة ويرفع بعد تمام زيارتها .

تقدمت ممثلىّ النفس خشوعاً وإكباراً . أنا أعلم مما قرأته أن الكعبة ليس بداخلها شىء منذ طهرها النبي العربى من الأصنام يوم فتح مكة . ولقد

دخلت قبل اليوم هياكل ومَحَارِيب من آثار مصر يرجع تاريخ بنائها إلى بضعة آلاف من السنين ، كما دخلت متاحف ومعابد في بلاد أوربا المختلفة . ولقد كنت أشعر في الكثير من هذه الأماكن بالهيبة والإجلال . لكن شعوري ساعة تقدمت لأصعد إلى الكعبة كان غير هذا الذي شعرت به في هذه الأماكن ؛ كان شعوراً قوياً عميقاً آخذاً بمجامع القلب ، صادراً من أعماق الروح ، ملئك على كل وجودي فجعلني أتعثر في مشيتي وأنا أخطو إلى الدرج وما أكاد أرفع بصري إلى باب الكعبة . وكيف لا يأخذني الخشوع والإكبار وأنا أصعد إلى بيت الله ، وأنا أؤمن بأن الله أكبر من كل كبير في الأرض وفي السماء !

وصعدت الدرج ودخلت البيت العتيق . وتلقاني الشيخ الشيبسي أول دخولي فحياني هشاً بششاً ، وأشار لي بيميناه إلى علامتين في إزاء الجدار الذي يقابل الباب وقال : هنا يصلي الإنسان ركعتين في المكان الذي صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقدمت نحو المكان أصلى ركعتين . وما أذكر أنني شعرت في حياتي بمثل ما شعرت به في هذه اللحظة من غبطة ورضا . تباركت ربي ! أقف أنا الآن حيث كان يقف عبدك ورسولك ، وأعبدك مخلصاً لك الدين كما كان يعبدك ! ليتني أستطيع السمو بفضلك إلى هذا الرضا . ولكن غفرانك ! أين الروح الذي يستطيع السمو إليك سمو من اصطفيته لرسالته ، ويطمع في أن يبلغ من الصفاء ومن الحب لبني الإنسان ما بلغ نبيك الكريم ! . وأتممت صلاتي ، وبقيت في جلستي أستغفر الله وأعبده وأستعينه . ولعل السّادَن أدرك ما أنا فيه فتركني في استغفاري وادّكاري . نعم . ذكرت وأنا بموقفي هذا كيف صدّ أهل مكة نبيّ الله عن بيت الله . وكيف فتح محمد مكة دون أن يسفك دمًا ، وكيف عفا يومئذ عن أشد خصومه لَدَدَا في عداوته ؛ ثم انطوى الزمن أمام بصيرتي فخلتني وأنا أقف حيث وقف الرسول وكأنما أشهد هذا كله ، فيزيدني ما أشهد خشوعاً وإكباراً .

وقمت فدلّنتي السّادن على مواضع صلى فيها الأنبياء والخلفاء قبالة الجدران الأخرى ، فضليت حيث صلّوا منذ قرون مضت ، وتلوت بعد صلواتي ما طلب إلى السّادن أن أتّلوه . فلما أتممت التلاوة جعلت أسأله عن شؤون البيت وكسوته وبنائه ، وجعل يجيبني في ظرف ورقة سائغين ما أجدره بهما وهو من سلالة نبي شيبه الذين أقر الرسول فيهم سداثة الكعبة يوم الفتح لا يأخذها منهم إلا ظالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها !

والتفت السّادن إلى والدتي وجعل لها كل عنايته ، يجيبها عما تسأل عنه ، وتتلو وإيّاه ما يطيب به قلبها ويطمئن له روحها . إذ ذاك أدت بصري في جوانب البيت . ما أشده بساطة وما أعظمه مع ذلك مهابة ! . هو غرفة أو - إن شئت - بهو رفيع خال من كل زخرف ، وهنا بساطته . وهو هيكل التوحيد في أشد صور التوحيد صفاء وأشدّها للشرك إنكاراً ، وهنا عظّمته ومهابته . وهو كذلك اليوم ، وكان كذلك منذ أقام لإبراهيم وإسماعيل قواعده . تقلبت عليه أجيال أنكرت التوحيد وأشركت بالله وجعلته مثابة أصنامها ، وجاءت بعد الإسلام أجيال تنكّر له بعض بنيتها ولم يعرفوا له حرّمته . وها هو ذا هيكل التوحيد اليوم كما كان حين أقيمت قواعده ؛ وهو يزداد كل يوم تعظيماً حتى ينصر الله دينه على الدين كله ، فيكون قبلة العالم جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها .

وإني لفي إكباري لبيت الله وفي تعظيمي حرّمته إذ رأيتني أردّد في دخيلة نفسي : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم » . وتمثلت لي عقيدة التوحيد في صفاء جوهرها السّامى يتضافر الدين والعلم على إكبارها ؛ فعجبت كيف لا تمتثلها النفوس جميعاً كما امتثلتها نفسي ! وكيف



لا يدرك الناس جميعاً ما في هذه الآيات التي رددتها روحى من حقيقة تراها البصيرة واضحة محسوسة ! وكيف لا يرى الناس وجه الله أينما ولّوا وجوههم ! كيف لا يرونه مضيئاً بنور الحق في خلق السماوات والأرض والليل والنهار وما نعلمه نحن وما لا يعلمه إلا هو ! . إذ ذلك ازدادت إكباراً لهيكل التوحيد على إكبارى إياه ، وازدادت عجباً لأولئك الذين يملكهم حب الحياة عن أن يروا وجهه الكريم متجلياً في كل ما حولنا ؛ وهو أشد تجلياً في ذات نفوسنا وأعماق قلوبنا وفي كل حس وفي كل جارحة .

الكعبة بهو رفيع نخال من كل زينة أو زُخرف . وسقفها يعتمد اليوم على ثلاثة عمد من الحشب الضارب لونه إلى حمرة تشوبها صفرة . ويرجع العهد بهذه العمدة إلى أجيال طويلة خلت . فعبد الله بن الزبير هو الذى وضعها حين جدد بناء الكعبة . ولم يصب هذه العمدة فساد على طول العهد بها إلا ما كان منذ خمسين سنة أو نحوها حين تآكل أسفلها فشدت بدوائر من خشب طوقت بها وسمرت عليها . وتعلو هذه الدوائر عن أرض الكعبة ما يزيد قليلاً على ثلاث أذرع . وأرضها مفروشة برخام أبيض عادى ، قصد منه إلى المتانة ولم يقصد إلى الزخرف .

فأمّا الجدار فأحيط أسفله برخام ملون مزركش بنقوش لم تعمل فيها يد ذوى الفن ولم تُخرج بيت الله عن بساطته .

وغطيت جدران الكعبة بستر من الحرير ، قيل إنه كان أحمر وريئاً في زمانه ، ثم أحالته السنون إلى ما يشبه الرمادى الضارب إلى الخضرة . ولقد أنبأنى السادن أن هذا الستر ، الذى شدّ إلى جدرانها في عهد الخليفة العثمانى عبد العزيز منذ ستين سنة أو يزيد ، قد أثار قدمه واستحالة لونه العاهل النجدى عبد العزيز بن آل سعود فأمر بصنع غيره ليُستبدل به . وهذا الستار القديم قد زرکش بالنسيج الأبيض طرزت عليه عبارات وألفاظ توأم روح العصر الإسلامى الذى كتبت فيه من حيث دلالتها . فمنها : « سبحان الله وبحمده . سبحان الله العظيم » و « يا حنّان يا سلطان . يا متّان يا سبحان » . وهذه

العبارات الأخيرة مكتوبة داخل دوائر من النسيج الذي طرّزت به . ولست أدري أية عبارات طرزت على السّتر الذي أمر ابن السعود بصنعه والذي يكسو اليوم جدار الكعبة في جوفها : أهي آيات قرآنية تتصل بالبيت وإقامته . أم بالتوحيد وصفائه وقوّته . أم هي أحاديث الرسول في يوم الفتح ، أم هي ألفاظ تعبدية كالألفاظ التي كانت على السّتر يوم رأته .

يختلف الركن الأيمن مما يلي باب الكعبة حين دخولك منه عن سائر جُدُرِها وأركانها ؛ ففي هذا الركن يقوم الدرج الصاعد إلى سطح الكعبة . وقد وضع عند باب هذا الدرج ستر أسود مطرّز بالقصب الفيضيّ المموه بالذهب من نوع السّتر المنسدل على باب الكعبة .

هذا كل ما في الكعبة من داخلها . وهو لا يغير من بساطتها شيئاً كما ترى ، فهذا السّتر الذي يكسو جدارها ليس منها ، وهو بعدُ كل ما فيها من زخرف . أما ما وراءه فالبسطة كل البسطة القوية التي تأخذ بمجامع النفس ، البسطة الجديرة بهيكل التوحيد في بدايته وصفائه وقوته .

أمّا والتوحيد هو العقيدة الأزلية الثابتة جاءت بها الأديان وأثبتها العلم ، فقد برع خيال الكتّاب والمؤرخين في تصوير نشأة بيت الله الأحد ومبدأ بنائه . وقد تحايّلوا لذلك على تفسير ما ورد من آيات القرآن الكريم فيه . فالقرآن صريح في : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ » ، وفي أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا قواعد هذا البيت . مع ذلك رأى بعض المؤرخين أن يجعل الملائكة بناء البيت قبل أن يبرأ الله الأرض ومن عليها ، وأن آدم بناها بعد ذلك . وذكر بعضهم أن شيئاً أوّل من بنى الكعبة . فأما المشهور عن أكثر العلماء فهو أن أول من بنى البيت إبراهيم ؛ بهذا قال عليّ بن أبي طالب وجزم به ابن كثير في تفسيره .

والذين يذكرون أن الملائكة بسّوا البيت يقصّون رواية لها جمال شعري فيه طابع الفن ، إذ يصورون المعنويات صورة مادية . فهم يروون أن الله غضب على الملائكة حين قال لهم : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » فقالوا :

«أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ». وكان مظهر غضبه جل شأنه أن أعرض عنهم . فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقاً من هذا الغضب ، وطافوا بعرش الله سبعةً كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك . ربنا معذرةٌ إليك . نستغفرك ونتوب إليك . فنظر الله إليهم ونزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور على أساطين أربع من زبرجد تغشاهن ياقوتة حمراء ، وسمى ذلك البيت الضُّرَّاحَ . ثم قال الله تعالى للملائكة : طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش . فكان طوافهم به أيسر من طوافهم بالعرش . ثم أمر الله الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور ، وأمر مَنْ في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . وفي بعض الروايات أن هذا البيت الذي بنى في الأرض هو الذي سمي الضُّرَّاحَ ، وأن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألني عام فكانوا يحجونه . فلما حجَّه آدم قالت له الملائكة : برِّ حجِّك يا آدم . حجَّجنا هذا البيت قبلك بألني عام<sup>(١)</sup> .

وفيما روى عن بناء آدم الكعبة روعة شعرية كروعة بناء الملائكة إياها . فقد قيل : إن آدم سأل ربه بعد أن هبط وزوجه من الجنة . يا رب مالي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم ؟ قال : بخطيئتك يا آدم ؛ ولكن اذهب فابن لي بيتاً فطف به واذكرني حوله كنهحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي . فأقبل آدم يتخطى الأرض حتى بلغ مكة . هنالك ضرب جبريل عليه السلام بجناحه في الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة ثلاثون رجلاً . وعلى هذا الأساس بنى آدم البيت متخذاً أحجاره من خمسة أجيال : من لبنان ، وطور سيناء ، وطور زيبتا ، والجودي ، وحِراء . وفي رواية تفرَّد ابن لهيعة في نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم

(١) راجع كتاب (تاريخ الكعبة المعظمة) لحسين عبد الله بإسلامه ص ١٤ وما بعدها و به الإسناد إلى الرواة .

أنه قال : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيَا لي بيتًا ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، حتى إذا أجا به الماء نودى من تحته حسبك يا آدم . فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به . وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » . ولم يرد في الرواية التي تذهب إلى أن شِيثًا بنى الكعبة ، شيء من التفصيل ، وإنما قيل إن طوفان نوح أغرق البيت وغير مكانه حتى بوأ الله لإبراهيم مكان البيت فأقام قواعده مع ابنه إسماعيل ، على ما ورد في الذكر الحكيم . وهذه الروايات الشعرية عن بناء الملائكة وآدم وأبنائه ممن سبقوا إبراهيم الكعبة يعتبرها أكثر العلماء من الإسرائيليات التي دُستت على الإسلام ؛ فليس لها في كتاب قديم سبق نزول القرآن سند . والقرآن لا يشير إليها بما يسوغ استنباطها ؛ وما يذهب إليه الذين ذكروها من ألوان التفسير لا يثبت صحتها . والقرائن كلها على أن وادي مكة كان غير ذي زرع حين جاء إبراهيم بهاجر وابنه إسماعيل إليه . فلو أن هيكلًا للعبادة ، أو أثرًا لهذا الهيكل كان قائمًا به ، لأقام في جواره كهان وسدنة ينالون من قاصديه رزقهم ، ولقد ظلت هاجر مع ابنها بهذا الوادي إلى أن شب إسماعيل فتزوج من جرهم .

ولقد دس على الإسلام من الإسرائيليات الشيء الكثير . ولم يفتأ بنو إسرائيل مذ كانوا يحاربون النبي بالمدينة يحاولون أن يشوهوا صفاء التوحيد في الإسلام وأن يحيلوا روحانيته مادية ليضعفوا من نفوس الآخذين به . فليس ادعى إلى ضعف النفس من أن يصبح العالم أمامها مادة بدل أن يكون فكرة معنوية سامية . وليلغوا من ذلك غايتهم دسوا الكثير من الأحاديث ونسبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وحركوا الفتن على أساس ما دسوا بأن جعلوا مطامع المسلمين مادية غايتها الحكم أو المال أو ما إلى ذلك من متاع الغرور الإنساني في هذه الحياة الدنيا . وإن العالم ليعانى اليوم من آثار هذا التفكير في أقطاره الإسلامية والمسيحية جميعًا ما ترى مظاهره في هذه المذاهب الاقتصادية المختلفة ، وفي الثورات الدامية التي تقوم بسببها

فتحرق الأخضر واليابس وتأتى على خير مخلقات الإنسانية من علم وفن بيد التخريب ، يجرکہا الجهل والتعصب والطمع المادى الأحمق الوضيع .

فأما بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة فقد ورد نبؤه فى القرآن ، ولكنه ورد موجزاً فى قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . وما روى بعد ذلك من تفصيل فرجع أكثره أحاديث أفراد أو روايات لا تستند إلى سند تاريخى يقره العلم . فقد ذهبت رواية إلى أن جبريل أمر إبراهيم فصحب هاجر وابنها - وإسماعيل ما يزال طفلاً - وركبوا البراق ليلبغوا موضع البيت لبنائه ، وكان إبراهيم كلما مرّ بقربة سأل جبريل : أهى التى اختارها الله لبناء بيته ؛ وكذلك ظلوا حتى بلغوا مكة . وذهبت رواية أخرى إلى أن ملكاً من الملائكة جاء إلى هاجر أم إسماعيل حين أنزلهما إبراهيم مكة قبل أن يقام البيت فأشار لها إليه ، وهو ربوة حمراء مدرة ، فقال لها : هذا أول بيت وُضع فى الأرض ، وهو بيت الله العتيق ، وأعلمها أن إبراهيم وإسماعيل يرفعانه . وفى رواية ثالثة أن إبراهيم جاء إلى مكة بعد سنوات من مقام إسماعيل وأمه بها ، وبعد أن شب إسماعيل وتزوج وقوى ساعده ، فوجد إسماعيل يبرى نباله تحت دوحة قريبة من زمزم ، وتبادلا تحية الأبوة والبنوة ، ثم قال إبراهيم لابنه : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمر ربك . قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبني هنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ؛ وعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يجيء بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى ارتفع البناء .

وهذه الرواية الأخيرة أدنى إلى تصور عقلنا الإنسانى . يضاف إليها أن البناء لما ارتفع طلب إبراهيم إلى إسماعيل أن يجيء بحجر ؛ فجىء بالحجر الأسود . والروايات فى الحجر الأسود وأصله تختلف : قيل إن إسماعيل ذهب إلى الوادى يطلب حجراً يضعه أبوه فى البناء وعاد فألنى عند أبيه حجراً أسود فسأله : من جاءك بهذا الحجر ؟ قال إبراهيم : من لم يكلفنى إليك ولا إلى

حجرك . وكان جبريل هو الذى جاء بالحجر الأسود من السماء ، إذ كان قد رفع إليها حين أغرق الطوفان الأرض . وقيل : إن جبريل جاء بالحجر الأسود من الهند حيث هبط به آدم من الجنة ؛ وكان أبيض ناصعاً ، فأسودّ من خطايا الناس . وقيل : بل كان الله عز وجل استودعه جبل أبي قبيس حين طوفان نوح . فجاء به جبريل ووضعه فى مكانه وبني إبراهيم عليه وهو حينئذ يتألاً نوراً حتى لقد أضاء بنوره شرقاً وغرباً وشمالاً ويميناً إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية ؛ وإنما سوّده أنجاس الجاهلية وأرجاسها .

وذكرت الروايات أن إبراهيم بنى الكعبة من الجبال الخمسة التى ذكرها من تحدثوا عن بناء الملائكة البيت .

يقول مؤلف ( تاريخ الكعبة المعظمة ) : « فتحصل من عموم ما روينا عن صفة بناء إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وابنه إسماعيل عليه السلام للكعبة المعظمة ، أنه بناه بأمر الله سبحانه وتعالى . وكان البانى إبراهيم والمساعد له إسماعيل ، وأنه بناه بالحجارة . وجعل ارتفاعه إلى اليسار تسع أذرع ، وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلي الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعاً ، ومن الشمال إلى الجنوب مما يلي الجهة الغربية أيضاً إحدى وثلاثين ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب مما يلي الجهة الجنوبية ، أى من الحجر الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب أيضاً مما يلي الجهة الشمالية أى من جهة حجر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعاً ، وجعل له بايين ملاصقين للأرض ، أولهما من الجهة الشرقية مما يلي الحجر الأسود ، والآخر من الجهة الغربية مما يلي الركن اليماني على سَمْت الباب الشرقى . وحفر فى داخله بئراً تكون خزائنه له ؛ ولم يجعل عليه سقفاً ، ولا وضع على بابه أبواباً تفتح وتغلق والله أعلم » .

رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وطهره لاطنقين والعاكفين والركع السجود ، وجعله مثابة للناس وأمناً . وخلّف العمالقة وجرهم إسماعيل على مكة أجيالاً بعد ذلك متعاقبة ثلاثمائة سنة ؛ فأعاد هؤلاء ثم أولئك بناءه وزادوا

فيه وأقاموا على تعظيمه والطواف به . ولم يكن أحد يجزؤ أن يأخذ من هدايا البيت المحفوظة بالبئر مخافة ما ينزل به من عقاب رب البيت . على أن السُّهَيْلِي روى في الروض الأنف : أن سارقاً سرق من مال الكعبة في زمن جرهم وأنه دخل البئر التي فيها كنزها ، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه ، ثم بعث الله حيّة لها رأس كرأس الجدى بيضاء البطن سوداء المتن ، فكانت في بئر الكعبة خمسمائة عام فيما ذكر رزّين . ولعل رزّينا والسُّهَيْلِي لم يقف أحد منهما على نقوش قدماء المصريين ؛ إذ كانوا يجعلون الحيّة التمثال الحارس على أبواب الحارِب التي تكون فيها المومياء والنقائس المدفونة معها .

وبناء العمالقة وجرهم الكعبة بعد إبراهيم مختلف عليه . ومنهم من يذكر أن أول من جدد بناء الكعبة بعد إبراهيم قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي العربي ، وأنه سقّفها بخشب الدوم وجريد النخيل . والمعروف أن الكعبة كانت إلى عهد قصي قائمة في الفلاة لا يبنى أحد حولها إعظاماً لحرمتها ؛ فلما آل إليه أمر مكة أمر الناس فبنوا حول البيت ولم يتركوا إلا قدر المطاف . ولم تذكر المراجع المختلفة أن أحداً تولى تشييد الكعبة بعد قصي وقبل أن تبنها قريش قبيل بعث محمد نبياً ، إلا ما رواه تقي الدين القاسمي في كتاب (شفاء الغرام بأخبار المسجد الحرام) أن عبد المطلب جدّ النبي بناها . ولعله أبدع هذه الرواية ليكسب عبد المطلب بها تشریفاً ؛ فإن ما أصاب جدران الكعبة من الوهن بعد موت عبد المطلب بعشرين سنة أو نحوها لا يتفق مع هذا القول .

أمّا الثابت الذي أجمع عليه المؤرخون وكتّاب السيرة ، فذلك بناء قريش الكعبة على عهد محمد حين طغى السيل عليها ووهن جدرانها . فلما بلغ القوم مكان الحجر الأسود اختلفوا وكادت تنشب الحرب الأهلية بينهم ، ثم احتكموا إلى أول داخل من باب الصفا ؛ ودخل محمد من هذا الباب وحكم بينهم بأن وضع الحجر على ثوب رفعه أهل القبائل المختلفة من أطرافه ثم رفع محمد الحجر

ووضعه مكانه من البناء .

ذكرتُ هذا الذى تداولته الروايات المختلفة عن بناء الكعبة وأنا بموقفي في جوفها . فلما بلغت باستعراضى إلى قيام محمد بين قومه مقام الحكم في وضع الحجر الأسود مكانه ، تنبّهت إلى موقفي وذكرت أن رسالة محمد وما جاء فيها من فرض الحج على الناس هي التي جاءت بي إلى هذا المكان ووقفتني هذا الموقف . واقتربت من باب الكعبة أنظر إلى ما حولها ، وخيَّلت لِنفسي صورة هؤلاء الذين رفعوا الثوب والحجر الأسود فوقه ، وموقف محمد منهم وهو يقضى بينهم قضاء تظمئن له نفوسهم وتستريح إليه أفئدتهم .

وما لبثت حين ارتسمت هذه الصورة أمامي أن انتقلت فجأة أرى صورة أخرى تبعث أمامي واضحة المعالم ، ممثلة حياة وقوة ، كلها الروعة وكلها الجلال ؛ تلك صورة محمد والمسلمون من حوله يوم فتح مكة . فها هو ذا ممتط ناقته القصواء يجيء متجهماً إلى الكعبة وأصحابه من ورائه ، ومن ورائهم عدد من سادة مكة وكبرائها ؛ ويطوف رسول الله بالبيت سبعاً ، ثم يقف أمام بابه فيدعو السادن ليفتحه له . ويفتح عثمان بن طلحة الباب فيقف محمد فيه وقد تكاثر الناس من حوله ، فيخطبهم ويتلو عليهم قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

ويسأل أهل مكة فيقول : يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فيقولون :

خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . ويجيبهم : فاذهبوا فأنتم الطلقاء . ويدور

فيلقي ببصره إلى جدران الكعبة وهو واقف من بابها مثل موقفي الساعة فيرى هذا

الهيكل الذى أقامه إبراهيم وإسماعيل هيكلًا للتوحيد قد انقلب هيكلًا للوثنية

والشرك ؛ فلم يبق من ثم له بساطته ولا بقيت له مهابته وقوته . عبث الفن

بجدرانه وبجوفه ، فأنشأ من الصور والتماثيل ما يأخذ النظر إليه والفكر إلى

تقدير دقة صنعه عن التفكير في وحدانية الله جل شأنه وفي قوته وقدرته . نقش



على الجدران صور الملائكة نساء ذوات جمال ، فصارت هذه الأرواح النورانية ذات كيان مادي يطغى على المعنى الروحي فيها . وصوّر إبراهيم وفي يده الأزرار يستقسم بها ، وصوّر النبيون من حوله في أوضاع مادية كوضعه . وفي جانب وُضع تمثال حمامة من عيدان . وقام الصنم هبسَل في جوف الكعبة تحف به هذه الصور على جدرانها وهو على صورة الإنسان قد صنع من العقيق إلا ذراعاً له كُسرت فأبدله القرشيون منها ذراعاً من ذهب ، وشدّت أصنام كثيرة بالرصاص إلى جدر الكعبة ، ولبعضها من جمال الفن بعض ما هُبسَل .

أى متحف هذا المتحف ! إن صورته لتثير في الذهن صورة قاعة من قاعات المتحف المصرى بالقاهرة أو بهو من أبهاء متاحف العواصم الأوربية . ولم يكن أهل ذلك العصر ينظرون إلى هذه الصور والتماثيل كما ننظر نحن اليوم إليها ، ولا كانوا يعتبرونها بعض آثار الفن كما نعتبرها ، بل كانوا يبعثون إلى هذه الصور المادية حياة يتوهمونها ثم يكبرونها ثم يشركون أصحابها في الألوهية أو يتخذونها إلى الله زُلْفَى . لذا كانت الكعبة إلى تلك الساعة حين دخلها محمد هيكل الوثنية والشرك كما كانت هيكلهما قبل ذلك أجيالا وأجيالا . أما والإسلام ينكر الشرك ويدعو إلى التوحيد كما دعا إليه إبراهيم منذ أقام البيت ، فليعد بيت الله هيكل التوحيد كما كان . لذلك أمر محمد فطمست الصور وحطمت الأصنام وألقيت إلى ظهورها وطهرت الكعبة من كل أثر لها وعادت إليها بساطة التوحيد ومهابتة بمعناه الروحي السامى توحيه إلى من يطوف بها ويدخل إلى جوفها فتوجه قلبه إلى الله وحده ، له وحده الحمد وله الملك وإليه يرجع الأمر كله .

يا لعظمتها ساعة من ساعات التاريخ تلك التى طهر محمد الكعبة فيها من فنون الشرك وآثامه ! . لقد تمثلت لى مناظرها جميعاً واضحة جليلة فى بهاء جلالها كأنها تمر أمام باصرى على شاشة بيضاء ، بل كأنها تحيا فى عالمنا من جديد ككرة أخرى . وجعلت أشهدا وأنا واقف على عتبة باب الكعبة ، فتمتلئ بها روحى وتتغذى بها نفسى ، فيزيدنى ذلك تعظيماً

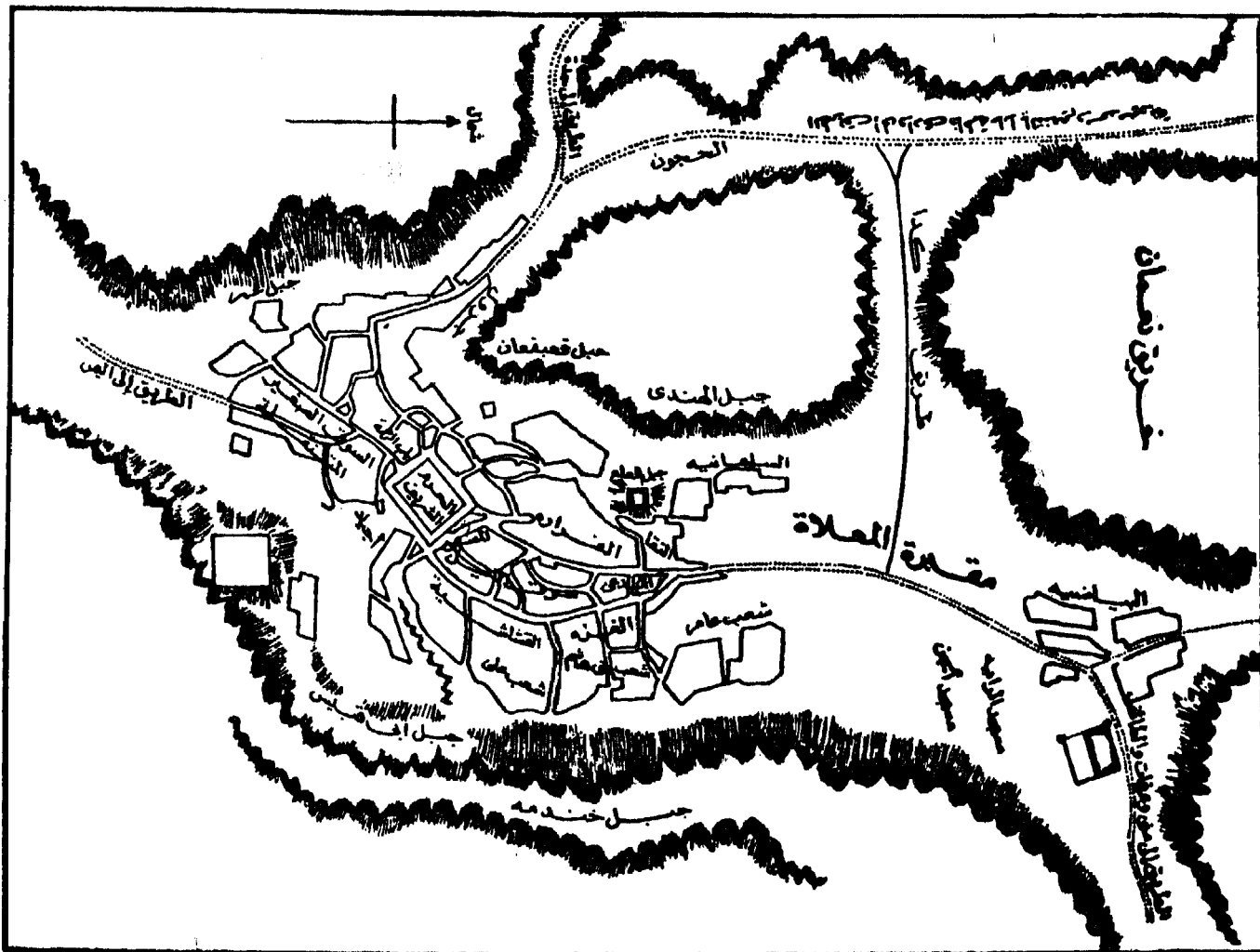
لموفق وإكباراً للرسول الكريم الذي محا آية الضلال ؛ ثم تنفرج شفتاي عن كلمة هي جِمَاعُ هذه الروحانية العظمى : « لا إله إلا الله ، الله أكبر » .

لو أدرك المسلمون ذلك كله إدراكًا حل منهم محل اليقين لما نزل بالإسلام ما نزل به ، وما اجترأ على بيت الله يومًا مجترئ . لكن الفتح الإسلامي أدخل في دين الله أقوامًا لم تمثل نفوسهم مبادئ هذا الدين في سمو صفائها وفي دعوتها إلى الإسلام الصحيح لله ، وفي احترامها حرمة بيته احترامًا وقَرَّ في النفس العربية من قبل الإسلام ثم زاده الإسلام قوة وتثبيتًا . لذلك قامت الفتن بعد مقتل عثمان واستقل بنو أمية بالملك وجعلوا دمشق عاصمتهم . .

فلما آل الأمر إلى يزيد بن معاوية كان عبد الله بن الزبير ما يزال منتفضًا على إمارة الأمويين نائراً بهم بمكة . ولقد جرّد يزيد جيشًا لإخضاعه وأمر عليه الحصين بن نُمَيْرٍ ، فسار إليه وضيّق عليه الحصار بمكة . ولم يطق ابن الزبير ورجاله مقاومته فلجئوا منه إلى الحرم وبنوا حول الكعبة حصاناً من القصب يختمون بها من حجارة المنجنيق الذي نصبه ابن نمير على جبلي مكة :

أبي قبيس وقيقعان . ولم تمنع هذه الحصان اللاجئين إليها ؛ فقد أمر الحصين أصحابه أن يرموا الكعبة من المنجنيق بعشرة آلاف حجر ؛ وكانوا يرمون ويرتجزون ، وكانت الحجارة تصيب الكعبة حتى تمزقت كسوتها وبدت أحجارها . وأصاب الذين يقيمون بالحصان والخيام حول الكعبة الفزع ؛ حتى إن أحدهم ليوقد ناراً في خيمة قائمة بين ركن الحجر الأسود والركن اليماني ، إذ طارت منه شرارة أحرقت الخيام وتعلّقت بأستار البيت . ولما كان بناء الكعبة يومئذ مدماماً من حجر ومدماماً من خشب السياج ؛ فقد احترق الخشب ووهن البناء كله حتى كان وقوع الحمام على الكعبة كافياً لتناثر حجارتها .

ولقد فزع لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعاً . وترك ابن الزبير الكعبة ليراها الناس ، فيكون مرآها محرّصاً لهم على أهل الشام . وظل الأمر كذلك ، وظل الحصين بن نمير محاصراً للبلد الحرام حتى بلغه نعي يزيد بن معاوية .



خريطة مكة المكرمة

وتحدّث إليه رجال من أهل مكة واتهموا رجاله بأنهم رموا الكعبة بالنفط وقالوا له : أما وقد توفّي أمير المؤمنين فعلى ماذا نقاتل ؟ . ارجع إلى الشام حتى ترى ما يجتمع عليه رأى صاحبك ؛ يريدون معاوية بن يزيد . ورجع الحصين إلى الشام تاركاً الكعبة واهية توشك أن تنقض .

وتحدّث ابن الزبير إلى أهل مكة : ماذا يصنع بالبيت ، أ يصلح ما وهى منه ؟ أم ينقضه ويعيد بناءه ؟ وكان عبد الله بن عباس على رأى المعارضين للهدم وإعادة البناء ، قال موجهاً كلامه لابن الزبير : دعها على ما أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها وبينها ، ثم يأتى بعد ذلك آخر ، فلا تزال أبداً تهدم وتبنى فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم ، ولا أحب ذلك ، ولكن أرفعها . وأجابه ابن الزبير : والله ما يرضى أحدكم أن يرفع بيت أبيه وأمه ، فكيف أرفع بيت الله سبحانه وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله ، حتى إن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته . وأقام أياماً يشاور ويستخير ، ثم أجمع على هدم الكعبة . وهدمها وأعاد بناءها . وإذ كانت خالته عائشة أم المؤمنين تذكر أن رسول الله قال لها : « يا عائشة ، لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم » ، لذلك زاد ابن الزبير فى مساحة الكعبة فأدخل فيها حجراً إسماعيل بعد أن كشف عن أساسها وجعل لها بابين وألصقها بالأرض .

ولمّا هدم ابن الزبير الكعبة وشرع فى إعادة بنائها بعث إليه عبد الله ابن عباس يقول : « لا تدع الناس بغير قبلة . انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها » . ونفذ ابن الزبير مشورة ابن عباس . فلما بلغ البناء الركن وأن أن يوضع الحجر الأسود فى مكانه أمر ابن الزبير ابنه عباساً وجبسى بن شيبه بن عثمان أن يجعل الحجر فى ثوب وقال لهما : « إذا دخلت فى صلاة الظهر فاحملاه

واجعلاه في موضعه فأنا أطول الصلاة . فإذا فرغتما فكبّرا حتى أخفف صلاتي » . فلما وضع الرجلان الحجر في موضعه وطوّقا عليه الركن كبّرا وخفف ابن الزبير صلّاته . وغضب رجال من قريش حين لم يُحضّرهم ابن الزبير وأعادوا قصة تحكيم أجدادهم أول داخل من باب الصفا ، وحكم رسول الله قبل بعثه بينهم . لكنهم كانوا أمام الأمر الواقع ، فلم يزيدوا على أن غضبوا ثم رضوا .

ولما تم بناء الكعبة اعتمر ابن الزبير محرّماً من التّسعين واعتمر الناس معه ونحروا وأقاموا يطعمون ويطعمون شكراً لله على تيسير بناء بيته الحرام ، وكان ذلك في السنة الخامسة والستين من الهجرة .

وظلت الكعبة كما بناها ابن الزبير عشر سنوات . فلما كان عهد عبد الملك بن مروان وحاصر الحجاج ابن الزبير وقتله ، كتب إلى عبد الملك يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها باباً آخر ، ويستأذنه في رد ذلك إلى ما كان عليه في الجاهلية . وأذن عبد الملك ، وغير الحجاج الحدار الذي من جهة الحجر وسد الباب الغربي ورفع البناء ورفع باب الكعبة على ما كانت في الجاهلية . ويذكرون أن عبد الملك ندم على إذنه للحجاج ولعنه وقال : « وددنا أننا تركنا أبا حسيب وما تولى من ذلك » .

وقد اختلف المسلمون من بعد : أفيتركون الكعبة كما بناها الحجاج ؟ أم يعيدونها إلى بناء ابن الزبير استناداً إلى حديث عائشة . فلما تولى هارون الرشيد الخلافة سأل الإمام مالكا في هدم الكعبة وردّها إلى بناء ابن الزبير . فقال مالك : يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعباً للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها . فترك الرشيد الكعبة كما هي .

وبقى الأمر على بناء ابن الزبير وتعديل الحجاج إياه ، لا يزيد المسلمون على أن يشدوا من بناء الكعبة ما قد يعثره الوهن . فلما كانت سنة ١٠٤٠ هجرية ( ١٦٣٠ ميلادية ) هطل بمكة مطر عظيم استمر يومين كاملين ، فدخل المسجد الحرام ثم ارتفع حتى دخل الكعبة ووهن بناءها ، وكان قد انقضى

على إقامته قُرابة ألف عام . فلما أمسكت السماء وبدأ المطر ينحدر من الكعبة بدأت جدرانها تتساقط ، وكان جدارها الشمالى أول جدار سقط ، ثم سقط بعض الجدارين الشرقى والغربى . هنالك انزعج الناس وزلزلوا زلزالا شديداً . ونزل أمير مكة إلى المسجد الحرام وأمر بإخراج قناديلها خشية الضياع . وتبلغ هذه القناديل عشرين كلها من الذهب ، وأحدها مرصع باللؤلؤ . وجعلت أحجار الكعبة تتساقط لشدة ما أصابها من الوهن وجعل الناس يزدادون وجلاً . ثم تقدم الأمير وجوه مكة وتبعهم الناس ينظفون المسجد وقد جرفت السيول إليه من الرمل والتراب ما تعذر معه التنظيف بغير المساحى والمكاتل ، بل أحوج الأمر من بعد إلى إحضار الأبقار من جدة لتحرث أرض المسجد بعد جفافها لإزالة ما بها .

وتشاور الناس في أمر الكعبة وما يصنعون بها . وانعقد رأى الجماعة من علماء مكة وسادتها على المبادرة إلى عمارتها من مال الكعبة . وأن يعرض الأمر على السلطان ، وألا يمنع أحد من عمارتها من ماله إذا لم يكن فيه شبهة . وترامى نبأ الكعبة وما أصابها إلى الأقطار الإسلامية المختلفة ، فهاج الناس له واضطربوا . ولم ير والى مصر محمد باشا الألبانى أن ينتظر ورود أمر السلطان من الآستانة مخافة أن يزداد التصدع فى الكعبة ، ولأن أشهر الحج كانت قد اقتربت ، فأرسل رسوله إلى مكة ليرى فى عمارة الكعبة رأيه . وبلغ الرسول مكة فى منتصف شوال من تلك السنة .

وانقضت أشهر الحج والسلطان يشاور أصحابه ما يصنع . فلما استقر رأيهم على العمارة بعث رسوله الذى بلغ مكة فى ربيع الأول من سنة ١٠٤٠ ؛ وكان أول ما صنع هؤلاء جميعاً أن أحاطوا الكعبة بسياج من الخشب يطوف الناس به ويتخذونه قبيلتهم كما فعل ابن الزبير . ثم إنهم جعلوا يتشاورون ما يصنعون ، وإنهم لكذلك إذ سقط مطر هدمت منه بعض أحجار الجدار الغربى . هنالك اتجه رأى إلى هدم ما بقى من جوانب الكعبة ، ولم يقع خلاف إلا على ركن الحجر الأسود ، لكن فتوى المهندسين بأن هذا الركن يوشك أن

ينقضّ كذلك أزالته تردد القوم جميعاً ، فهدموا البيت كله ليقيموا بناءه ثابتاً قوياً .

واشترك في هذه العمارة جماعة من المهندسين (والمعلمين) المصريين . وأنفق القوم في البناء ستة أشهر وأموالاً طائلة . ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التي بنى ابن الزبير بها الكعبة إلا ما وجدوه ما يزال صلباً قوياً ، فأما ما وهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره . ولم يجدوا في ذلك مشقة وقد كان لا يكلفهم إلا تسوية الأحجار ودقة نحتها . لكنهم واجهوا مشكلة ذات خطر حين أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود مكانه . فهذا الحجر كان قد أصابه بعض التصدّع في عهد ابن الزبير ؛ فلم يجد مشقة في شدّه وتقويته وربطه بسور من الفضة . فلما أراد البناءون وضعه مكانه أثناء هذه العمارة الأخيرة في عهد السلطان مراد ألقوا به شطوباً مستطيلة ورأوا الفستات يتناثر منه . وللحجر الأسود من التقديس ما لا يصح معه أن يسقط من أجزائه كثير أو قليل ، أو أن يتناثر منه فتات ولو كان ضئيلاً ، لذلك عاجله المهندسون على هدى فن المعمار ، مصطنعين الصبر والأناة مستهينين بكل مشقة أو تعب ، عاملين على ملء ما بين أجزائه بمركب يعيد إليها قوتها ويكفل بقاءها مشدودة في إطار الفضة لا يصيبها سوء .

ولما فرغ القوم من بناء الكعبة وسقفها ووضع عمدتها وترميمها ، بنوا حجر إسماعيل . وكانوا حريصين على أن يعيدوا من أحجاره ما نقرت فيه أسماء من سبقوا إلى عمارته . على أنهم ألقوا رخامةً مفقودة من الجدار الذي تم بناؤه في عهد ملك مصر الملك الأشرف « قانصوه الغوري » ، فلم يعتنوا أنفسهم بنقش غيرها ليضعوها مكانها ، بل وضعوا رخامة ملساء . ولعلمهم في ذلك قد أخذوا بإحدى النظريات التي يقرها الفن الحديث للمعمار ، إذ يحترم صنع الزمن بالأشياء فلا يحاول ردها إلى أصلها أو إبدال ما يشابهها بها ، بل يقوّم مكانها مكتفياً بذلك معتبراً إياه بعض ما يوجب الفن في عمارة الآثار التاريخية .

ولما أتم القوم البناء كتبوا محضراً أرسلوه إلى مصر فيه شهادة المكيين بحسن عمارة البيت المعظم . وفي ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود في هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة إسلامية أخرى . ولا عجب في ذلك وقد أرسلت مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة ، وأنفقت مع ذلك ستة عشر ألفاً من الجنيهات لإتمامها .

وهذا البناء الذي شاركت فيه مصر بالحظ الأوفر هو بناء الكعبة القائم اليوم .

أنا الآن أقف إذأ من بيت الله الحرام في بناء شاده أجدادى وبنو وطنى . هذا البناء ما يزال قوياً إلى اليوم ، ولن يزال قوياً على الزمن ما في طبيعة بناء تشيده الأيدى المصرية أن يقف قوياً على وجه الزمن . نعم ! أنا أقف حيث وقف لإبراهيم وإسماعيل ، وحيث وقف النبي العربي عليه السلام ، وحيث وقف ألوف وملايين من الناس كانوا إلى ما قبل العمارة الأخيرة للكعبة يذكرون العرب الذين بنوها أيام قصى وأيام ابن الزبير ، وهم اليوم يذكرون العالم الإسلامى كله ، ويذكرون مصر درة التاج من هذا العالم الإسلامى كله . ولكن ! أفيساورنى فخر بمصريتى وأنا هنا في بيت الله . ونحن جميعاً عباد الله عبودية لا تعرف وطناً ولا تعرف فخراً ولا غروراً ، بل تعرف الحب والأخوة للمؤمنين جميعاً فلا يكمل إيمان الإنسان إلا إذا كمل !!

ونجالت من تفكير شابه الغرور الإنسانى ، واستغفرت الله منه ، وعدت إلى تفكير أكثر سموً ، عدت إلى التفكير في موقف الرسول من الكعبة في حجة الوداع : في موقف هذا البشير الهادى يحف به مائة ألف أو يزيدون وهم يستغفرون الله جميعاً ويتوبون إليه ، وهو على رأسهم يعلمهم مناسك حجهم ، وهو ليس دونهم استغفاراً وخضوعاً لله ، مع ما يعلمه من أنه رسول ربه وأنه بلغ رسالته وأدى أمانته واحتمل في سبيل ذلك ما تنوء به العصبية أولو القوة . لكنه يعلم كذلك أنا أبدأ في حاجة إلى مغفرة الله لنا ورضوانه عنا ، وأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه جل شأنه له الأمر وهو العفو



الغفور . فكثرت في هذا الموقف الأخير للرسول وطوافه بالبيت وطواف مائة ألف من المسلمين وراءه وهو مع ما جاوز الستين يسرع في أشواط الطواف الأولى والمسلمون يسرعون إسرعه ، وهو يذكر وهم يذكرون يوم طاف في عُمرة القضاء ومعه ألفان ، وهو يسرع ويقول لإصحابه : « اللهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » . والمشركون من أهل مكة ينظرون من أعلى الجبال إلى أولئك الذين زعموهم ضِعافاً أرهقتهم يثرب وأرهقتهم الحروب فإذا هم البأس والقوة والعزيمة الصادقة بإذن الله .

كان أهل مكة ينظرون إلى المسلمين في أثناء طوافهم وراء نبيهم في عمرة القضاء ، أما في حجة الوداع فكان أهل مكة قد أسلموا وقد أصبحوا مع سائر العرب بنعمة الله لإخواننا ، وكانوا يطوفون بالبيت مع الطائفين ، ويذكرون الله مع الذاكرين ، وقد هداهم الله إلى الدين القيم ، وأنجاهم من ضلال الشرك ومذلة الوثنية .

ألا إن هذا البيت العتيق لينطوى من أسرار التاريخ وعيسره على قَدْر يعادل ما يستكن في جوفه هيكلا للتوحيد من مهابة وجلال . وإن هذا الجو الذي يبدو صامتاً حوله للميء من أصداء العبادة بما لو انفرج عنه كما تنفرج أسطوانة الحاكي عن الأصوات المسجلة عليها لدوت الأرض كلها مؤمنة مقدسة منادية نداءً يسمعه أهلها وأهل السماء جميعاً : لا إله إلا الله والله أكبر .

وأن لى أن أهبط من الكعبة إلى المطاف وإلى المسجد ، فودعت السادن وودعني بكلمات كلها الرقة والظرف . وقصدت مذهبط إلى حجر إسماعيل وإلى مقام إبراهيم فصليت فيهما . وغادرت المسجد الحرام بعد ذلك ممثلي\* القلب روعةً وإكباراً وتعظيمًا ، وكل ما حولي يدوي في أذني بذكر الله والتسبيح بحمده : ربنا لك الحمد .

## آثار مكة

قلّ من زوّار مكة من يُعنىّ بحضرها وما يجيش بخاطر أهلها من رجاء في هذا الحاضر وأمل في المستقبل . فهم يقصدون إليها ليحجوا بيت الله كما يغفر لهم ربّهم ذنوبهم ويطهرهم من ماضي حوباتهم . وبيت الله فيها هو لذلك مشأبتهم . فإذا أقاموا بها التمسوا مزيداً من المثوبة بزيارة ما بها من آثار النبي وأهل بيته والسلف الصالح عليهم رضوان الله أجمعين . من ثمّ كانت نفوسهم لا تتعلق بما في مكة إلا بما يتصل بالماضي البعيد ابتغاء ثواب المستقبل في الآخرة . فإذا عناهم من أمر مكة غير ذلك شيء فما يتناعون منها تبرُّكاً به وحبّاً في ثواب ينالهم أو ينال من تُهدى إليه هذه البركات من ذويهم والمقرّبين منهم .

ولقد أردت أن أقوم بزيارة هذه الأماكن التي يُضفي أهل مكة عليها ثوب التاريخ لعلّ أجد فيها من الفائدة العلمية ما يشيد بذكرى الذين شادوا المساجد والذين يرقدون الرقدة الأخيرة في المقابر . وتحدثت في ذلك إلى غير واحد من شبان مكة ومن أولى الرأى فيها . ولشّدّ ما كان عجبى لقولهم : إن هذه الآثار لا تجد سنداً ثابتاً من التاريخ ، وإن المؤلفين مختلفون على أكثرها إن لم يكن عليها جميعاً . . . وبلغ بعضهم في تأكيد رأيه أن قال : إن ما يروى عما سوى الكعبة وما يحيط بها بالمسجد الحرام وعن حراء وثور كلّه رجم بالغيب ، وهو إلى القصة أدنى منه إلى أنباء التاريخ . وأردت أن أمحص قولهم ، فرجعت إلى بطون ما استطعت الرجوع إليه من الكتب ، فلم أجد فيها ما يطمنن إليه السند العلمى الصحيح ، وإن روى بعضهم من الأنباء المتواترة عن بعض هذه الآثار ما يجعل الإنسان يتردد بين صحة النبأ وبطلانه تردداً ينفي الثبوت العلمى ، ولكنه لا يثبت النفي العلمى كذلك .

وأفضيت إلى مضيبي بقصدي ، فأنبأني أن الشيخ عبد الحميد حديدي خير من يرشدني إلى ما أقصد إليه . والشيخ عبد الحميد حديدي يعمل الآن

مع الشيخ عباس قطان في أمانة العاصمة ، وكان قبل ذلك قد اشتغل بالتعليم في جدّه ، وبالقضاء عند أدنى حدود الحجاز من اليمن ، كما تنقّف بالأسفار إلى الهند وجاوة حين شبّت نيران الثورات والحروب بالحجاز في العهد الأخير . ولم أسأله عن سنه ، ولكنه يبدو في جوار الخمسين ، وهو رجل أسمر اللون كسمرة العرب ، مديد القامة نحيفها ، لا يلبس العقال بل يكتفي (بالصادة) على عادة أهل العلم في بلاده . وكانت معرفتي به في هذا اليوم مقدّمة صحبة اتصلت طوال إقامتي بالحجاز إلى يوم سفرى من يَنْبُع إلى مصر . ولقد أنست إلى هذه الصحبة واطمأننت إليها كل الاطمئنان . وهل كنت أطمع في أكثر مما كان عبد الحميد عليه من سعة الفكر والبعد عن التعصب وعدم التقيد إلا بموجب العقل ، ومن تبادلته الرأى لذلك معى تبادلًا حرّاً في كل ما يعرض لنا حين نقف أمام مشهد نمحصّ ثبوته التاريخى أو موضعه من أنباء حياة الرسول . وأبدى الرجل من هذا اليوم الأول اغتباطاً بصحبته إيّاي ، فشكرته عليه ولن أنساه له .

وكان الشيخ عبد الحميد حديدي يشاطر شبان مكة رأيهم أن ما بمكة من الآثار ليس له من التاريخ سند ثابت على رغم كثرته . ولعل ذلك هو الذى جعله لا يببى كبير اهتمام بزيارتى وإياه هذه الآثار أول الأمر ، وخاصةً زيارة ما لم يكن منها وثيق الاتصال بحياة محمد . ولعل سبباً آخر دعاه إلى ذلك ، فلقد كان لكثير من هذه الآثار فيما مضى قيمة فنية بما أقيم عليه من قباب وما شيّد لذكوره من مساجد . أما اليوم ومذ حكم الوهابيون بلاد العرب ، فقد هدمت هذه الآثار الفنية واحمت رسومها . فهم أعداء الّداء لكل ما يحسونه يورث الشبهة في توحيد الله جل شأنه ، وهم يرون في المقابر وزيارتها وإقامة القباب عليها إشراكاً يسيّب القضاء عليه ، وهم يرون فيها ، على الأقل ، منكرًا تجب إزالته . وما عسى أن تغنى مثلى زيارة آثار لم يبق منها اليوم إلا ما يحفظه الناس أو يروونه عنها ! وأية فائدة في أن أذهب إلى مقابر المعلاة مثلا حيث قبر خديجة وقبور أجداد النبي وأعمامه وقد سوّيت هذه

القبور بالأرض وأصبح ما يرويه حراس المقابر عنها أشبه شيء بمحدث خرافة . ولم يُخفِ عبد الحميد ما ساوره من ذلك ، ولم يخف أسفه على زوال القباب الجميلة التي كانت مزاراً لعشرات الألوف من الحجاج ، والتي كانت تدرّ لذلك على مكة الخير الوفير . لكنني أبديت من الحرص على زيارة هذه الآثار ما أزال تردده . ولم يلبث حين تبادلنا الحديث بعد زيارتنا في اليوم الأول أن أقبل يضع خطط تجوالنا بهمة لا تعرف الملل .

وكانت مقبرة المعلاة أول ما اتجهت إليه زيارتنا . وإن بي لزيارة المقابر لهوى ملحاً . فالمقابر مستقر الأعراء الذين سبقونا إلى دار الخلد ، وهي مستقر الإنسانية وموضع سكنها بعد الفراغ من واجب الحياة . والمقابر هي العبرة الباقية تحدثنا عن الوجود وتصور لنا قيمته . أليس القبر هو الإنسانية الماضية كلها بل الحياة الماضية كلها لهذا الكون ! وإذا صح ما قيل من أن من مات قامت قيامته فالقبر هو المظهر المادي لصلة الأحياء والأموات . والأموات هم إخواننا وآباؤنا وأبناؤنا الذين سبقونا إلى الرحيل ، والذين يتصلون بنا بعد موتهم بما خلقوا لنا من آثارهم ، وتتصل بهم نحن اتصالاً لا ينقصه إلا تبادل المنافع في الحياة . ألم يخاطب الرسول عليه السلام قتلى بدر من المشركين بعد أن دفنهم المسلمون في القليب بقوله : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » . فلما تحدث المسلمون إليه قائلين : « يا رسول الله أتنادى قوماً جيئوا » . كان جوابه : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني » .

ومقبرة المعلاة تقع في الشمال الشرقي من مكة . وهي فضاء فسيح محصور بين الجبال من شماله وغربه ، وتفصل بينه وبين الجبال من الشرق بعض المساجد والمسكن ، ويتصل من الجنوب بمنازل أهل مكة . وهذه المقبرة قديمة ترجع إلى عهد الجاهلية ، وهي ما تزال مع ذلك مقبرة أهل مكة في هذا الزمن الحاضر . ولعل بقاءها مقبرة حتى اليوم يرجع إلى تقديس المكيين للقبور القديمة التي بها أكثر مما يرجع إلى رغبتهم عن اتخاذ مقبرة لمدينتهم فيما وراء الجبال التي تحصرها .

وقبور المعلاة مسوأة بالأرض اليوم ، وهي لم تكن كذلك قبل أن يدخل الوهّابيون الحجاز . ويفصل بينها وبين الطريق منحدر من الأرض يسمو بها وبما تحويه من ذكريات إلى سفح الجبل . وإنك لترى بها على رءوس قبور شواهد نقشت عليها بالخط الكوفي أو بالخط الثلث الجميل آيات قرآنية في أغلب الأمر ، وأسماء ساكني هذه القبور في بعض الأحيان . ولقد صحبنا حارس المقبرة في مسيرنا يهدينا أثناءها إلى مقابر بعض الصحابة والتابعين .

وتقدّمنا غير بعيد ، ثم وقف يشير بإصبعه إلى قبر ذكر أنه قبر عبد الله ابن الزبير صاحب الجهاد المشهور في مقاومة بني أمية ، والذي أقام بناء الكعبة في السنة الرابعة والستين من الهجرة بعد أن رماها الحُصَيْن بن نَمِير قائد جيوش يزيد بالمنجنيق . وإلى جانب قبر ابن الزبير أشار الحارس إلى قبر آخر ذكر أنه قبر أمه أسماء بنت أبي بكر . ومدّ الحارس بصره إلى ناحية الجبل من الشمال ومددنا البصر معه ، فأشار إلى جدار قائم في سفح الجبل يحجب ما وراءه ولم ينبس ببنت شفة . أما الشيخ عبد الحميد حديدي فقد أخبرني أن الإخوان الوهابيين شادوا هذا الجدار ليستروا به قبر خديجة أم المؤمنين وقبور بني هاشم من أجداد الرسول عن الأعين ، وليحولوا بين الحجاج وزيارتها للتبرك بها ، لأنهم يرون في الزيارة والتبرك إثمًا هو إثم الشرك بالله ، أو اتخاذ هذه القبور زُلُمَى إليه . وهذا أو ذلك يخالف عقيدتهم الإسلامية ويجعلهم يرمون من يُقدِّم عليه بالمروق والكفر .

وتقدّمنا الشيخ عبد الحميد إلى ناحية هذا الجدار متخطيًا المقبرة التي كنا بها إلى فضاء يعترض السبيل إليه عارض من خشب سدّ به الطريق . وطأطأنا رءوسنا واجتزنا هذا العارض ، وتسلقنا السفح حتى كنا عند باب قديم قائم في الجدار الذي بصرنا إليه . ودق عبد الحميد الباب بيده وشعرنا بحركة وراءه ، ذلك حارس هذه المقبرة المحرّمة يزِيل الأحجار التي أوصد بها الباب حتى لا يقتحمه مقتحم . وفتح الحارس المصراع ، ودخلنا فحيانا بتحية من يعرف الشيخ عبد الحميد ومن كان معنا من ذوى قرابة أمين العاصمة . وبعد هنيهة

أشار إلى قبر علي يسار الداخل قال إنه قبر خديجة بنت خويلد أم المؤمنين وجدّة جميع المنتسبين إلى الرسول بأنهم من أبناء ابنته فاطمة وابن عمه علي بن أبي طالب . وقد سُوّي هذا القبر بالأرض كما سويت سائر القبور بأمر الوهابيين . وتقدمنا خطوتين بعد ذلك إلى قبور قال الحارس إنها قبور جدّتي الرسول : عبد المطلب وعبد مناف وعمه أبي طالب . ثم أشار إلى قبر ذكر أنه قبر أمه آمنة . ولم يدهشني ما ذكره عن قبر آمنة مع علمي أنها توفيت ودفنت بالأبواء بعد الذي ذكره أهل مكة عن هذه الآثار وقيمة سندها من التاريخ . فالقول بوجود قبر آمنة في هذا المكان إنما كان يقصد به إلى الاستزادة مما يدفعه الحجاج أثناء زيارتهم هذه القبور للتبرّك .

وعدت أدراجي خطوات ، ووقفت مستقبلاً قبر خديجة . هنا إذاً يرقد جد النبي وعمه اللذان احتضناه طفلاً أيام يتمه ! وترقد زوجة الوفية التي وهبتها مالها وقلبها وحبها وروحها أيام شبابه وبعد بعثته ! في هذه البقعة يسوّى أولئك الذين شب محمد بينهم واستظل ببرهم ورعايتهم من يوم وُلد إلى أن جاءهم الموت لسنوات بعد رسالته تعرّض أثناءها للسوء والأذى والهلاك . عبد المطلب ! أبو طالب ! خديجة ! ما أجلّ هذا الأسماء وأبقاها على الدهر مذكورة بالتعظيم والإكبار ! وإنما بقاؤها واحترامها في اتصالها بهذا الاسم الأكبر ، اسم محمد النبي العربي الذي استعذب العذاب في سبيل الحق وهداية الناس أداءً لرسالة ربه . فعبد المطلب الجد البار العطوف هو الذي كان يجلس كل يوم إلى جوار الكعبة مثابة عبادة العرب جميعاً ، فإذا جاء حفيده الطفل اليتيم أذناه منه وأجلسه معه على فراشه وربّت على كتفه وغمره بحبه وإعزازة ، وأبناؤه أعمام هذا الطفل جلوس من حول القراش ما يدنو منهم أحد كما يدنو هذا الطفل ، ولا العباس الذي كان ضريب محمد في سنه وطفولته . وأبو طالب العم المسن هو الذي احتضن محمداً من يوم مات عبد المطلب ومحمد ما يزال في الثامنة من عمره ، والذي بقي يوليه من العناية والرعاية أكثر مما كان يولى أبنائه إلى أن شب عن الطوق وتزوج خديجة ، والذي أظلمه بحمايته حين دعا إلى

دين الله ، ووقف دونه مخافة أن يناله من قريش أذى . ولئن ينسى التاريخ من أحداثه ما عساه أن ينسى ليذكرنّ أبدأً في لوحه يوم مشت قريش إلى أبي طالب تنذره بالحرب إن لم يسلم ابن أخيه أو يئنه عنهم ، وليسطرنّ بأحرف من نور كلمة محمد حين دعاه عمه وقص عليه أمر قريش وقال له : « فأبى علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » ، ليسطرنّ بأحرف من نور قول الرسول لعمه : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . أما خديجة التي اختارت محمداً لنفسها ، والتي ضحّت من أجله بما لها ، والتي آمنت برسالته أول ما أفضى بها إليها ، والتي كانت سنده وقوته في أدق الساعات التي مرت به أول نزول الوحي عليه وحين إيذاء قريش إياه ، أما خديجة أم المؤمنين فلن يفيتها حقها كل ما يسجله التاريخ إشادةً بذكرها فكيف لا تتخلّد هذه الأسماء في لوح الوجود خلود إجلال وتعظيم وإكبار .

وآن لنا أن ننصرف من المقبرة ، فاستوقفنا الحارس إذ مدّ يده ممسكاً بها قطعة من القاشاني الأخضر الجميل اللون زينت أطرافها بنقش في دقيق وقال : « هذه قطعة من جدار القبة التي كانت على قبر السيدة خديجة » ! فقد كان على قبر خديجة قبة شاهقة بارعة الجمال ، يذكر المؤرخون أنها بنيت في السنة الخمسين والتسعمائة من الهجرة أثناء ولاية داود باشا بمصر ، وأن الذي بناها أمير دفاتر هذا الوالي الأمير الشهيد محمد بن سليمان الجركسي . وقد أزال الوهابيون هذه القبة فيما أزالوا من القباب أول دخولهم مكة لإرضاء لهوى إيمانهم ، ثم بقيت صورتها الشمسية تشهد بأنها كانت آية بارعة الجمال في فن العمارة براعة تصدّ من يفهم هذا الفن عن أن يصيبها بسوء . وكانت إلى جوارها قباب لجدّي النبي عبد المطلبّ وعبد منسّاف ولعمه أبي طالب . بذلك كانت هذه المقبرة يدعماً يعيشه من يحبون جمال الفن ، وكان الناس يزورونها إجلالاً لهذه القباب وتبركاً بذكرى ساكنيها . أما اليوم فلا يفكر أحد في القباب وقد أزيلت ، ولا يزور أحد القبور وقد حيل بين الناس وبينها بهذا الجدار الذي

يصدّهم عنها . على أنهم مافتثوا يحضرون اليوم كما كانوا يحضرون من قبل فيقفون عند هذا الحاجز الذى تخطيناه قبل أن نصعد سفح الجبل فيقرءون الفاتحة ويلتمسون البركة ثم ينصرفون .

قال صاحبي : أرايت كيف عدا الوهّابيون على آثار أهل بيت النبي ولم يرعوا لعواطف المسلمين إزاءها حرمة ! وأجابه آخر : وهل كان لشيء من هذه الآثار وجود في عهد النبي ! إنما أحدثها الذين حسبوا فيها قربى إلى الله يثابون عنها ، وأزالها الذين يرون في بقائها ما لا يرضى الله والرسول . فالأمر من هذه الناحية نضال بين عقيدتين . وفعل الذين أزالوها أدنى في عقيدتهم إلى حكمة الإسلام وسنة الرسول . لما توفى إبراهيم ابن الرسول وتم دفنه ، أمر أبوه بسد القبر ، ثم سوّى عليه بيده ورش الماء وأعلّم عليه بعلامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تُقِرّ عين الحى ، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يُستقنه » . ولقد سوّى قبر خديجة بعد دفنها في حياة زوجها ولم يقم عليه أحد قبّة في عهده ، ولا أقام أحد عليه قبّة في أيام خلفائه من بعده ، وبقى القبر ألف سنة حتى جاء هذا الأمير الشهيد الحركسى فأقام القبّة التي هدمها الوهّابيون . وإنما شاع بناء القبور والقباب في عهد الانحلال ومنذ بدأ الناس يتخذون من سيقتهم زُلفى إلى الله . فليس من الحق وذلك نبأ التاريخ أن يوصف عمل الوهّابيين إذ هدموا هذه القباب بأنه عدوان على أهل بيت النبي ، إنما هو نضال بين عقيدتين كما قدّمت . وما دام الباعث على بناء هذه القباب قد كان باعثاً دينياً ، فيجب أن ينظر في حكم إقامتها وهدمها إلى ما قرّره الإسلام في كتاب الله وسنة رسوله . ولو كان الباعث لإقامة القباب غير ديني لوجب النظر في إقامتها وهدمها نظرة أخرى ، ولكان حقاً أن يلام الوهّابيون على ما صنعوا أبلغ اللوم .

كأنما شجعت العبارة الأخيرة صاحبي ، فقد انبسطت أساريه لسماعها واتجه إلىّ بعد أن كان يسبقنا إلى باب المقبرة وقال :

— ولم لا نعتبر الباعث إنسانياً هو أن تهوى أفئدة من الناس إلى أهل



هذا البلد الأمين القائم بواد غير ذى زرع ١٩ ولم لا نعتبره دينياً دعا إليه تشجيع الذين يؤمنون بعقيدة المقابر والقباب إلى أداء فرض الله بحج بيته ١٩ لقد أضاع الوهابيون على مكة بهدم القباب مورداً من خير موارد المال فيها ، وإنهم ليحسون ذلك اليوم وبعد أن أقاموا بمكة كما نحسه . ولعلمهم يأسفون على ما ضيعوا ، وإن كنت في ريب من أن يجد الأسف على أمر إلى نفوسهم سيلا .

وشاركت في الحديث فقلت : لو أنك يا صديقي رجعت الباعث على بناء هذه القباب إلى فكرة في فن العمارة لشاركتك في تأثيم الذين هدموها ، فالفن جلال وسلطان في حياتنا اليومية وفي حياتنا الروحية جاهل من ينكرهما . وكان لأتباع ابن عبد الوهاب مندوحة عن هدم هذه الآثار الفنية الجميلة بتحريم التقرب إلى الله بوساطة المدفونين طيئ تراها تقرباً ينكره مذهبهم في الإسلام ، ومن ثم أراهم حقيقين بالثريب عليهم ولومهم ، ولو عئف لذلك من شاء في هذا اللوم ما خالفته . لكنني في ريب من أن تنفيذ القباب بعد ذلك في جلب المال إلى مكة أو جعل أفئدة من الناس تهوى إلى أهلها .

أتمنا هذا الحديث ونحن في طريقنا إلى السيارة كى نجوس بها خلال مكة ، وأمستك صاحبي حين ركبناها فلم يتابع حوار . وانطلقت بنا السيارة تقف عند مسجد مرة ، وعند بر أخرى ، وعند دار تارة ، وعند شعيب أو مَضِيْق في الجبل طوراً . وكذلك فعلنا أياماً تباعاً ، وعبد الحميد يقف مستقبلاً الأثر الذى نقف عنده موقف الدليل أو الحارس يقص على ما تسطره الكتب وما ترويه الأساطير عن كل واحد منها . بذلك حصلت فكرة ، لا أقول عن آثار مكة ، ولكن عما يروى عن هذه الآثار اليوم ، ومنها ما هو باق يدل مظهره على شيء من القيد ، ومنها ما لم يبق له على وجه الحياة أثر .

المساجد الأثرية بمكة لا شيء من الجمال ولا من الفن فيها . ولا عجب ، فهى لم تُقسم للعبادة ولا لاجتماع الناس بها ، فالناس من أهل مكة ومن زائريها

ومن حجيج بيت الله يقصدون المسجد الحرام ولا يقصدون مسجداً غيره .  
لذلك نرى هذه المساجد الأخرى لا تزيد على مربع من الأرض تحيط به  
جدران غاية في البساطة ، يعلوه من ناحية المحراب سقف ساذج يستند إلى عمد  
ليست دون السقف سداجةً في بنائها . وقلَّ أن تجد بالمسجد حصيراً أو قشاً  
أو أى فرش يشعرك أن الناس يصلون فيه ، بل الأرض فيه عارية يكسوها  
التراب . فإذا سألت : فيم إذاً أقيمت هذه المساجد ؟ علمت أنها أقيمت ذكرى  
لحادث وقع حيث تقوم . فهي إذاً أدنى إلى أن تكون نُصباً تذكاريّاً تحتفظ  
بأنباء تسجلها بطون الكتب أو يرويها الرواة منها إلى أن تكون بيوتاً يذكر  
اسم الله فيها ، أو مقصداً للناس كي يقيموا الصلاة بها .

وقفنا قبالة مقبرة المعلّاة عند مسجدين متجاورين : أحدهما مسجد  
الراية ، والآخر مسجد الجن . وسمى الأول مسجد الراية لما يذكر من أن الرسول  
عليه السلام ركز رايته عام الفتح حيث يقوم اليوم هذا المسجد . وسمى الآخر  
مسجد الجن لأن الله أوحى إلى النبي في هذا المكان الذى كان الجن يستمعون  
فيه إليه : « قُلْ أُوْحِيَ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا  
عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا » . ولمسجد الجن  
باب بأفضل الطريق غير بابه المطروق ، وينزل من شاء إليه بضع درجات دون  
مستوى أرض المسجد . وأهل مكة يذهبون إلى أن الجن كانت تستمع في  
المكان الذى يؤدى هذا الباب إليه ، ولذلك كان الناس يزورونه . وقد أقفل  
هذا الباب في العهد الأخير بالطين والحجر منعاً للتبرك بزيارته .

وهذان المسجدان من الطراز الذى ذكرناه ، والذى يعتبر طراز المساجد  
في مكة جميعها . وقد زرت عدداً منها بينها مسجد الإجابة ومسجد حمزة ،  
فلم أجد ما يدعو إلى استقصاء شيء عن سائرهما . ولم يكن تشابهها في العمارة  
هو وحده الذى أطفأ ظمأ تطلّعى ، بل أطفأه كذلك أنك لا تقف على نبأ  
صحيح للذكرى التى يقوم المسجد شاهداً عليها . فالناس لا يعرفون عن مسجد  
حمزة القائم بحى المسفّلة أكان موضعاً لمولده أم كان أثراً لنبأ لم يدون في بطون

الكتب . وكل ما يذكره الذاكرون عن مسجد الإجابة القائم داخل الشعب على مقربة من حيراء ومن قصر الملك أنه قائم حيث حل النبي عليه السلام إحرامه بعد عوده من منى . ولئن صح ذلك لكان بعد حجة الوداع ، وهذا أمر لا يقطع بصحته أحد .

والحق أن تعيين الأمكنة التي نزل فيها الوحي أو التي أوى إليها الرسول في مناسبة ما ليس أمراً ميسوراً . فكتب السيرة لم تكتب إلا بعد قرنين أو نحوهما من وفاته . والحديث لم يُجمع كذلك ولم يدون إلا في عهد العباسيين . وإلى يومئذ كان المسلمون في شغل بالغزو والفتح وبالثورات الأهلية عن تدوين آثار الرسول . بل لقد اختلفوا في جواز تدوينها ، حتى نادى عمر في الناس : إن من كان عنده شيء عن الرسول غير القرآن فليمحهُ . والخلاف واقع على آثار أذن بطبعها إلى التحديد من المواضع التي نزل فيها الوحي بسورة من السور أو آية من الآيات . فهو واقع على أماكن لها خطرها ، كتحديد مكان حنين ، وهي من أشهر غزوات الرسول وفيها نزل قرآن . وتحديد منازل الوحي بالسور والآيات لم يتيسر إلا فيما اتصل من هذه السور والآيات بحوادث معينة . والخلاف مع ذلك واقع على التحديد الدقيق للمواضع التي نزلت فيها هذه الآيات والسور ، وعلى الحوادث التي نزلت فيها . ولا جرم إذاً أن يتعدى القول بصحة ما للمساجد القائمة اليوم من دلالة على الآثار المسندة إليها . والراجح أنها أقيمت على الظن لا على اليقين ، وأقيمت لأغراض تتصل بهوى النفوس إلى مكة أكثر مما أقيمت لأغراض علمية ثابتة .

فأما ما سوى المساجد من آثار فبعضه أدنى إلى الصحة فيما يدل عليه ، وإن لم يكن أوفر حظاً من الثبوت العلمي لمن أراد البحث والتمحيص الدقيق .

والآبار بعض هذه الآثار ، وهي تختلف عن المساجد في أنها لم تنشأ بعد أجيال من عهد النبي ذكراً لقصة أو حديث رواه الرواة أو تداوله الكتاب ، بل كان منها في عهد النبي عدد غير قليل اندثر بعضه وجدّ من بعده ، لكنك قلّ أن تعثر في تواريخ مكة على شيء ثابت عنها . وما سوى زمزم

من الآبار تختلف عليه الرواية أشد الاختلاف .

وليس يذكر « الأزرقى » فى كتابه ( أخبار مكة ) عن آبار الجاهلية إلا الشيء القليل ، وإن ذكر أساطير شتى عن الآبار التى أنشأتها قريش حين بدأ تكاثر الناس بأمر القرى . فأما ما جدّ بعد الإسلام فكثير ، بقى موضع الرعاية ما استقى الناس منه . فلما أجرت زبيدة زوج الرشيد الماء إلى مكة لم يبق ما يثير العناية بهذه الآبار ، وإن احتفظ أهل مكة منها بما علّقوا عليه ألوان القصص الدينى ليثيروا به تطوع الذين يزورون مكة ، والذين يبتغون أثناء زيارتهم لبيّاتها كل سبيل للتبرك والمثوبة .

كنت أحفظ فى حياتى كثيراً من الشعر العربى نسبت الآن أكثره .  
وبما لا يزال عالقاً بذاكرتى قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمّر بمكة سامر  
ولم يكن للحجون ولا للصفا أية صورة معيّنة فى ذهنى . وقد عرفت الصفا حين سمعت بين الصفا والمروة ، وعرفت أنها ربوة أحيطت بالجدران . أما الحجون فطريق بين جبل كدّى وكدّى . ويقع أوطأ بأعلى مكة ، ويسير الآخر حتى يصل إلى أسفلها . وطريق الحجون يصل بين السفوح التى تقع عليها مقبرة المعلاة وما عند المسفلة نحو الجنوب من مكة . ولقبينا أول ما برزنا من الحجون بئر عليها بناء غير مرتفع ، قال صاحبى : إنها بئر طوى وإن الرسول اغتسل منها حين دخوله مكة عام الفتح ، ولهذا يسنّ الاغتسال منها عند دخول مكة . ويضبط الأزرقى وغيره من قدماء المؤلفين اسم هذه البئر على أنها الطوى . والبناء القائم عليها بناء حقير لا أحسب الذين أقاموه قصدوا إلى أكثر من إعلام البئر وحفظها به . والبئر من داخل البناء قد أحيطت فوهتها بأحجار تشبه البناء ، وتدلت فيها دكو يشدّها حبل غليظ معلق إلى بكرة أحدثها المعاصرون من أهل مكة .

ولم أقف داخل مكة على آبار أخرى غير بئر عثمان المنسوب لإحداثها إلى عثمان بن عفان ، وهى تقع الآن فى رباط المغاربة . والدخول إلى هذا الرباط

واجتيازه إلى البئر يعيد إلى الذاكرة أشد أحياء القاهرة القديمة قذارة وبعثاً عن أسباب الصحة ؛ فقد اجتزنا حارة ضيقة لا تدخلها الشمس ، قدرة لا تنظفها مكنته ، تزكم الأنف رائح نفوح منها وتجري فيها جراثيم الأنيميا ، ودخلنا الرباط ، فكأننا دخلنا مستوقداً أو شراً من مستوقد . ولقد حدثتني نفسي أن أعود أدراجي قبل أن نبلغ البئر لولا الحياء من معي من أهل مكة . ومدخل الرباط أشد من مدخل الحارة ضيقاً وأكثر قذارة . وألقيت إلى جانب جدرانها أشباحاً أحسبهم أشخاصاً يعيشون في هذا الرباط . وبلغنا البئر فإذا فوقها بناء أكثر ارتفاعاً من بناء بئر طوى ، وفوهتها كفوهتها محاطة بأحجار البناء ، يتدلى فيها حبل يدور على بكرة ويمسك في نهايته دلواً هي التي يمتح بها ماء البئر .

الدور التاريخية بمكة أثبتت نسباً من المساجد والآبار . وإذا قامت الشبهة في نسب الكثير منها ، فبعضها متواترة أنباؤه ولا يشتد عليه خلاف . وأنت واجد من ذكر هذه الدور الشيء الكثير في أقدم ما كتب من تواريخ مكة ، لكن ما يتصل منها بعهد الرسول وما يثبت على التاريخ قليل .

ودار الأرقم أو الخيزران من أشهر هذه الدور وأثبتها نسباً ، وهي تثير في النفس ذكرى من أروع الذكريات في حياة محمد عليه السلام . فقد كان يجلس في هذه الدار يوماً مع أصحابه والإسلام لا يزال في أول عهده ، وقريش ما تزال تحاول القضاء عليه . وكان عمر بن الخطاب على الجاهلية إلى يومئذ ، ولقد فكر في أن يريح قريشاً من هذا الذي سب آلهتها وفرق أمرها بأن يذهب إليه فيقتله . ولقي في طريقه نعيم بن عبد الله وأظهره على طويته . قال له نعيم : والله لقد غررتك نفسك من نفسك يا عمر ! أتري بني عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ! وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما . وكرر عمر راجعاً إليهما حين عرف من نعيم أمرهما . ودخل البيت عليهما وعندهما من يقرأ القرآن . فلما أحس أهل الدار دنوّه ، اختفى القارئ

وأخفت فاطمة ما يقرأ . وسأل عمر : ما هذه الهيئمة التي سمعت ! لقد علمت أنكما تابعتما محمداً على دينه . وبطش بسعيد ؛ فقامت فاطمة تحمي زوجها فصدما فشحها . إذ ذاك هاج هائج الزوجين وصاحا به : نعم أسلمنا ، فاقض ما أنت قاض ! واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم ، وغلبه بره وعطفه فارعوى وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التي كانوا يقرءون ، فلما قرأها اهتز وأخذته إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التي تدعو إليها ، وخرج يريد محمداً كي يعلن إليه إسلامه ، وسار متوشحاً سيفه حتى إذا بلغ دار الأرقم ضرب الباب على من فيه . وقام رجل فنظر من خلسل الباب ثم عاد فزعاً يقول : هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . قال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بدلنا له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . وأمر رسول الله أن يؤذن لعمر ، وقام فتقدم نحو الحجر التي تلى الباب . ولما دخل عمر أخذ النبي بمجمع رداءه وجذبه بقوة وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فو الله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة . قال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله ورسوله وما جاء من عند الله . فكبر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر أسلم ، ففترقوا من مكانهم فرحين مؤمنين بأن عمر وحمزة سيحميان رسول الله من خصومه وأذاهم .

وفت إسلام عمر في عضد قريش وقد دخل في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها . لم يرض عن اختفاء المسلمين حين صلاتهم ، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . ثم كان عمر بعد ذلك للإسلام عزاً في حياة الرسول ومجداً في خلافة أبي بكر وخلافته .

هذا حادث جليل في تاريخ الإسلام ؛ فكانه جدير بأن يذكر والدار بأن تصان وأن تزار . وقد ذهبت إلى زيارتها على مقربة من الصفا وانعظفت إليها في طريق من حارة الباب . وأشار الشيخ عبد الحميد إلى باب مغلق وقال لي : هذه هي الدار . وسألته هل من سبيل إلى دخولها ؟ فعلمت أنها أصبحت مسكناً لإحدى الأسر منذ جاء الوهابيون مكة ، وأنها من يومئذ

لا تزار . وقد رأيت بأعلى الباب كتابة لم أثبتتها على رغم صعود الطريق المنعطف  
قبالتها صعوداً يجعل نظر الإنسان يكاد يحاذيها ، وعلى رغم استعانتى  
بالمنظار المكبر .

وقد أسفت لحرماني من زيارة هذه الدار ، أنا الذي زرت بأوربا أماكن  
ودوراً صانتها الحكومات ذكرى للعظماء الذين ولدوا بها ، أو أقاموا فيها ،  
أو لأنها شهدت من حوادث حياتهم أمراً خلدته صحف التاريخ . وإنما هون  
على الأسف ما علمته من أن دار الأرقم تغيرت معالمها ولم يبق فيها ما يذكر  
بهذا الحادث العظيم في حياة العالم الروحية . حسبك أنها تدعى اليوم دار الخيزران ،  
لما يزعمون من أن الخيزران أم الخليفين موسى وهارون عمرتها أيام العباسيين .  
والذين زاروا هذه الدار قبل الوهابيين يذكرون أن بابها يفتح على دهليز مكشوف  
إلى السماء طوله ثمانية أمتار وعرضه أربعة ، وإلى يساره إيوان مسقوف على عرض  
ثلاثة أمتار ، وإلى يمينه غرفة في مثل مساحته مفروشة بالحصير ، وقد وضع  
في زاويتها الشرقية حجران أحدهما فوق الآخر ، كتب على أعلاهما :  
« بسم الله الرحمن الرحيم . في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها  
اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران  
وفيها مبدأ الإسلام . » ، وكتب على الحجر الأسفل مثل هذه العبارة الأخيرة  
واسم من أمر بإنشاء هذا الأثر ، وهو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور  
الأصفهاني وزير الشام والموصل . قال الفاسي في شفاء الغرام : « وعمره أيضاً  
الوزير الجواد . وعمرته مجاورة يقال لها مرة العصمة . وعمر أيضاً في  
سنة ٨٢١ هـ . والذي أمر بهذه العمارة ما عرفته » .

ليست دار الأرقم التي قص الفاسي نبأها ، والتي تحدث صاحب الرحلة  
الحجازية وصاحب مرآة الحرمين عنها ، هي إذن الدار التي أعلن بها عمر بن  
الخطاب إسلامه . وخير ما يقال إن البناء القائم اليوم قائم مكان هذه الدار .  
ولقد هون على نفسي الأسف كذلك أنني لم أجد إلى زيارتها الوسيلة لأنها  
كانت مغلقة ، وكان يسكنها قوم من أهل هذا الجبل لا يزورونها الناس ،

ولا يرون لها حرمة خاصة ، لأنهم على رأى ابن عبد الوهاب ، فهم يظنون أن كل أثر صنم أو نصب قد يعبد أو يتخذ إلى الله زُلْفَى . وربما قام ما يصنعه المسلمون من التبرك بهذه الآثار عذراً للحكومة النجدية في تحريمها زيارة هذه الأماكن . لكنها كانت تستطيع أن تفعل غير ما فعلت ثم تبلغ غايتها ، بأن تحرم التبرك والزلقى ، وتُبيح الزيارة وتجعلها جمة الفائدة إذ تعين من يفسر للزائرين مغزى هذه الآثار . ولو أنها فعلت لكان صنيعها أجل فائدة وأعظم أثراً . ولقد اضطرت إلى مثل هذا الصنيع في أماكن أخرى فأثمر صنيعها خير ثمرة .

تسم غير دار الأرقم دار أبي سفيان . والمسلمون يذكرونها لقوله عليه السلام يوم فتح مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابها فهو آمن ، ومن داخل المسجد فهو آمن » . وتقع دار أبي سفيان بمكان يقال له القسبان بشارع المدعى . وما بقى منها اليوم لا يمت إلى أصل بنائها بصلة أو نسب ، بل دخل في أرض عمرتها الحكومة المصرية على عهد محمد علي ، وأقامتها إلى جانب تكية فاطمة التي أنشأتها الحكومة العثمانية إذ ذاك . وأكبر الظن أنها عمرتها لتكون مدرسة يتعلم فيها أهل مكة ؛ فتقسيم البناء على ما رأيته يشهد بذلك ، لكن الحكومة العثمانية صاحبة الأمر في الحجاز لم تر أن يبقى المكان مدرسة بعد أن جلت عنه قوات مصر ، فجعلت منه مستشفى للمجاذيب الذين يخشى خطر هياجهم . أما اليوم فهو مستوصف يزوره الناس ويصرف منه الدواء . وقد لقينا الموكل به ، وهو سورى ، فدار معنا في جوانبه ؛ فكان مما رأيناه به مسجد صغير يقال إنه قائم موضع دار أبي سفيان حيث كانت على عهد الرسول : وبهذا المستوصف حديقة في داخله ترى فيها من الشجر الأخضر ما لا ترى منه بمكة إلا في بيوت ذوى اليسار .

ويذكرون دار أم هانئ ، وهي الدار التي كان بها الرسول عليه السلام ليلة الإسراء . وليس لهذه الدار اليوم أثر ؛ فقد دخلت في المسجد حين توسيعه وهي الآن إحدى المدارس المتصلة بالمسجد إلى جوار باب الحميدية ، وينطلق عليها اسم مدرسة أم هانئ .



ووقفنا عند دار قال الشيخ عبد الحميد إنها دار الصديق ؛ ولم أعر بهذا الاسم في تواريخ مكة . وهي مقفلة اليوم لا يدخلها أحد . وموقعها إلى جوار البازان المجرور من عين زبيدة بالمسفلة . ولست أدري مبلغ ما في نسبة هذه الدار إلى الصديق من صحة .

لم يَطْمَ الوهابيون الآبار ، ولم ينقضوا الدور ، كما هدموا قباب قبور المعلاة . ولعلمهم لم يروا الناس يعكفون على الآبار ما يعكفون على القباب ؛ فكفاهم أن أقفلوا الدور وأن تركوا الآبار لمن شاء أن يغتسل منها ، كما تركوا من شاء يتوضأ من ماء زمزم . لكنهم كانوا أشد بطشاً بآثار أخرى ؛ حتى لقد عفوا عليها ولم يتركوا لها ذكراً ؛ وكانت هذه الآثار أعز على المسلمين من كل ما تركوا . ولا عجب فهى مولد النبي ، ومولد فاطمة ابنته ، ومولد على بن أبي طالب ابن عمه وصهره وأخيه حين آخى بين المسلمين في المدينة . وأنت تمر بها اليوم فتحسبها ميادين خالية حيناً ، معمورة بالحيام حيناً آخر ، وكثيراً ما تراها مناخاً للإبل في زمن الحج . وإن قوماً يرونها اليوم وكانوا قد رأوها من قبل أن يطمس الوهابيون على آثارها فيحز الأمل في نفوسهم ، وتخفق بعضهم العبرة وقد تسيل على خده أسفاً لما أصاب هذه المواقع التي كانت من قبل موضع إكبار وتقديس كما يجب أن تكون . بل إن منهم من يهون على نفسه هدم القباب ، ومنهم من لا يرى به بأساً ؛ لكن هؤلاء وغيرهم يرون في التعفية على معالم هذه الأماكن التي ولد فيها الرسول وابنته وصهره وزراً لا يعد له وزر . وإكبار هؤلاء لما صنع ابن السعود ورجاله من إقرار الأمن والنظام بالحجاز ومن القضاء على المنكرات فيه ، لا يثنى عنهم عن مصارحة وزرائه وعن مصارحته هو ، برأيهم وإنكارهم هذا القضاء على آثار للرسول وأهل بيته قضاءً لا مسوغ له .

ويشعر أولو الأمر من الوهابيين بما في قول هؤلاء من صحة ، ويرون أن رجالهم الذين فتحوا الحجاز ودخلوا مكة غلوا في تطبيق المذهب غلواً كبيراً حين هدموا من الآثار ما هدموا . قال لى أحدهم : لو أن الملك ابن السعود كان على

رأسهم لما وقع من ذلك كل ما وقع ؛ لكننا وجدنا أنفسنا أمام الأمر الواقع .  
ولسنا نستطيع أن نصرح للناس بأن غزواتنا الأولى أخطأوا ؛ فهم أصحاب  
الفضل في الفتح وهم الذين طوعوا لابن السعود البلوغ بالحجاز في مضمار الإصلاح  
إلى ما بلغ . على أن شعورنا نحن بخطأ هؤلاء الغزاة يدعونا إلى التفكير في  
إصلاحه . ولقد فكرنا في أن ننشئ مكان مولد الرسول داراً للكتب تضم كتب  
التفسير والحديث والسنة جميعاً . لكن صعوبة واجهتنا لم نستطع التغلب  
عليها ، فقد وقف علماء نجد يسألوننا : وكيف تضعون في هذه الدار كتباً  
تنطوي على ما يحكم مذهبنا بخطئه ؟! إنكم إن فعلتم تكونون قد ارتدتم  
عن المذهب ، ونزلتم على حكم أهل الحجاز ، وقلبت فتحنا إياه استعماراً مكان  
استعمار ، ونحن إنما فتحناه لإقرار حكم الإسلام الصحيح فيه .

قال محدثي : هذه صعوبة واجهتنا لم نستطع التغلب عليها ؛ فنحن في حاجة  
إلى إقرار الرأي العام في نجد أعمالنا لأنه ساندنا ؛ وما لم نستطع التوفيق بين  
سياستنا ومعتقداته فلا بد لنا من النزول على حكمه . فللملك ابن السعود خصوم  
من رؤساء القبائل في نجد يتهمونه بأنه سخر عقيدة أهل نجد الإسلامية لأغراضه  
ومطامعه السياسية ، فلما تم له ما أراد ، واستتب له أمر الحجاز ، أنس إلى  
الطمأنينة بترك أهل الحجاز يزاولون من العقائد ما يجاور الشرك ويأباه الإسلام ،  
ولذلك له الفتك بمن يثور على هذه العقائد من أهل نجد أولى الحفاظ على الدين  
الصحيح والمذهب السليم . وهذا كلام يلقى آذاناً تسمعه وتسيغه . فلا بد لنا  
من التوفيق بين آراء العصر الحاضر بما لا تأباه العقيدة السليمة عندنا ، وبين  
تصور قومنا لموجب هذه العقيدة . ونحن لا نستطيع أن نقنع أحداً منهم بفكرة  
حرية الرأي ؛ فحرية الرأي عندهم معناها حرية الباطل في غزو العقول . لذلك  
لم نجد بدءاً من أن نعرض عن إقامة دار الكتب في موضع مولد النبي ، وأن  
نؤثر عليها إقامة مسجد يذكر فيه اسم الله وتلقى فيه التعاليم الإسلامية الصحيحة .  
ولم أجد ما أعترض به على هذا الكلام بعد الذي ذكرته في فصل « مكة  
الحديثة » من حديث الشيخ حافظ وهبة مع علماء نجد عن التعليم ، ورافقي

أن يبنى مسجد حيث ولد من يذكر اسمه إلى جوار اسم الله في كل مسجد : محمد عبد الله ورسوله . ثم إنى خشيت أن يكون حظُّ هذا المسجد كحظ مساجد مكة إذ يذرها الناس ابتغاء ثبوت الصلاة في المسجد الحرام وعند البيت العتيق . لكن محدثي طماننى إلى أن المسلمين سيجدون لأريب من المثوبة في الصلاة بالموضع الذى ولد فيه رسول الله ما يدعوهم إلى الإقبال على هذا المسجد إقبالهم على المسجد الحرام أو بعض إقبالهم عليه .

ويقع مولد النبي بشعب بنى عامر في أحياء مكة من شرقها . والخلاف يقع على هذا المكان : أولد فيه النبي حقاً ؟ ولقد أورد صاحب المواهب اللدنية مما روى من ذلك ما قيل من أنه ولد بمكة في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف الثقفى ، وكانت في هذا المكان المشهور اليوم ، ومن أنه ولد بشعب بنى هاشم ، ومن أنه ولد بالردم ، ومن أنه ولد بعسفان . ثم إن المسلمين تواضعوا في عصور متأخرة على أن المكان المشهور اليوم هو مولد الرسول . ومنذ القرنين السادس والسابع الهجريين بدأ ملوك الإسلام في اليمن وفي مصر يفكرون في عمارة هذا المكان ، ثم فكر ملوك بنى عثمان في عمارته في القرن العاشر الهجرى ؛ فأقيمت فيه قبة عظيمة ومنارة ورتب له مؤذن وخادم وإمام . وكان الطريق الجاور لهذا المكان يرتفع عنه نحو متر ونصف متر ، وكان النازل إليه ينحدر على درج يصل به إلى فناء وصفه البتانونى في رحلته وذكر أن طوله يبلغ اثني عشر متراً في عرض ستة أمتار ، وفي جداره الأيسر باب يدخل الإنسان منه إلى القبة ، حيث يجد مقصورة من الخشب ، في داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين الموضع الذى ولد فيه الرسول . ومن هذه القبة ومن الفناء خارجها تتكون دار مولده عليه السلام .

نقل صاحب مرآة الحرمين قول العياشى في رحلته تعليقاً على موضع المولد : « ويعد عندى كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف ، لما تقدم من الخلاف في كونه بمكة أو غيرها . وعلى القول بأنه فيها فى أى شعابها . وعلى القول بتعيين هذا الشعب فى أى الدور . وعلى القول بتعيين الدار فيبعد

كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار وانقطاع الآثار . والولادة وقعت في زمن الجاهلية ، وليس هناك من يعنى بحفظ الأمكنة ، لا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك . وبعد مجيء الإسلام قد عُلِمَ من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بتعيين الأمكنة التي لم يتعلق بها عمل شرعى لصرفهم اعتناءهم رضوان الله عليهم لما هو أهم من ضبط الشريعة والذب عنها باللسان واللسان . وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام من مساجده عليه السلام ، ومواضع غزواته ومدافن كثير من أصحابه ، مع وقوع ذلك في المشاعر الجليلة ، فما بالك بما وقع في الجاهلية ، لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له كمولد على ومولد عمر ومولد فاطمة رضوان الله عليهم جميعهم » .

عفى الإخوان الوهابيون كذلك على كل أثر لمولد فاطمة ؛ فهو الآن فضاء كمولد أبيها . وما ذكره المؤرخون عن مولد الرسول ، يصدق على مولد ابنته في مبلغ ثبوته . وفاطمة قد ولدت بدار خديجة ، كما ولد بها أبناء النبي . ودار خديجة أقام النبي منذ تزوجها إلى أن هاجر من مكة ، أى من الخامسة والعشرين إلى الخمسين من سنه ؛ فهي إذن قد شهدت بعثته . وشهدت ائتمار قريش به وأذاها إياه وتعذيبها أصحابه لعقيدتهم . ولقد نزل عليه الوحي فيها غير مرة ؛ فطبيعى وذلك شأنها أن يبقى على التاريخ أثرها ، وفي نفوس المؤمنين جميعاً ذكرها .

عفى الوهابيون على كل أثر لهذه الدار ، فهدموا ما كان الناس يزورونه من رسومها . وهم لم يهدموا في الحق دار خديجة ، إنما هدموا ما أقيم ذكرى لها ؛ وهي قد عمرت في عهد الخليفة الناصر العباسي ، ثم عمرت في عهد الملك الأشرف صاحب مصر ، وعمرها كذلك ملك مصر الظاهر برقوق ؛ وأعلها عمرت بعد ذلك غير مرة . والظاهر أن عمارتها كانت تختلف شكلا ، فيما يتصوره الناس ، عما كانت عليه في عصر النبي ، فما وصفها به الفاسي في (شفاء الغرام) يختلف عن صفتها في رحلة البتانوني . فبينما كانت في عهد الفاسي على صفة في منزل الوحي

المسجد وكانت لها عقود وأساطين إذا هي في رحلة البتانوني بالغة غاية البساطة تنحدر عن الأرض انحدار مولد النبي ، وينحدر النازل إليها درجات عدة ، فيواجهه عن يمينه بهو وغرفة فسيحة ، وعن يساره باب يدخل الإنسان منه إلى ثلاث غرف ، كانت إحداها سكنًا للنبي مع خديجة ، وكانت الثانية سكنًا لبناتها ، وغرفة الثالثة صغيرة يطلق الكتاب عليها اسم غرفة الوحي ، وكانت فيما يذكرون مصلى النبي ومهبط الوحي عليه . وأمام ذلك كله يعرض البيت مكان مرتفع يظن البتانوني أن خديجة كانت تخزن فيه تجارتها .

أسائل نفسي : لو أن داراً في الغرب حوت من الذكريات الخالدة ما حوته دار خديجة ، وأراد رجال الفن هناك أن يقيموا هذه الذكريات رمزاً ، فإذا عساهم يصنعون ؟ فهي قد حوت ذكريات نفسية وروحية وعقلية لم تحو مثلها دار غيرها : في هذه الدار وقفت خديجة ترقب في عليّة لها عود محمد بتجارتها من الشام ، فلما دخل عليها في شبابه وقوته وذكائه وأمانته وقع من قلبها وهي في الأربعين سنّاً . وفي هذه الدار عرف محمد اليسر بعد العسر ، ورخاء العيش بعد شدته . وفيها أنجب أبناءه من خديجة ، فكان الوفاء لزوجه والبر بأبنائه ، وكان في ذلك أسوة ومثلاً كما كان في أمانته بين قومه . وفيها رغب عن الرخاء وعن نعمة العيش وسما فوق عواطف الزوجية والأبوة وانقطع للتحنث في حراء بعد أن سما بخديجة إلى مثل سموه ، وجعلها أشدّ تطلعاً إلى موضع تأمله منها إلى ربح تجارتها وازدياد مالها . وإليها رجع من حراء بعد الوحي الأول وقد ملك عليه الفرع كل نفسه وهو يقول : زملوني زملوني ، فوجد في خديجة الزوج الوفيّة البارة العطوف . وفيها انقطع إلى ربه يعبده ويدعوه أن يهيّئ له الأسباب للدعوة قومه إلى الهدى ودين الحق . وفيها نزل عليه الوحي بعد فتوره . وفيها ذاق لذة الحقيقة والدعوة إليها لذة تسمو على خصومة قريش وأذاها . وفيها ماتت خديجة وحزّ الألم في نفسه لراقها ثم هوت رسالته الكبرى عليه ألمه . وفيها بات ليلة اعتزم الهجرة إلى يثرب ، وقد أحاط بها فتيان مكة يريدون قتله . إن في كل واحدة من هذه الذكريات الباقية على الدهر

ما يلهم ربّ الفن أسمى صور الفن وألوانه . ولكنها إذ تنداعى جميعاً إلى نفسه تدره في حيرة لا يجد وسيلة إلى صورة أو معنى مستقل بذاته يجسمها جميعاً ويطبع منها في النفس أثراً باقياً بقاءها ، اللهم إلا أن يلمهم صورة تمثل الدعوة إلى التوحيد في أسمى صور التوحيد صفاء وقوة ، فهذه الدعوة هي جوهر الحياة ورحيقها في حياة النبي العربي وفي تعاليمه .

أصاب الوهابيون مولد عليّ في شعب بنى هاشم بما أصابوا به مولد النبي ومولد فاطمة ؛ فهو اليوم فضاء لا أثر فيه . ولعل أولى الأمر في الحجاز يفكرون في تعميره ، ولعلمهم يوقفون حين يعملون لأثر لا يثير الحفائظ بين الشيعة وأهل السنة .

بمكة آثار غير المسجد والآبار والدور : بها الجبال وشعابها حيث كان المسلمون يأوون من أذى المشركين . والأساطير التي أضفيت على هذه الجبال ليست أقل بهاء مما يضيفه أهل مكة على سائر الآثار فيها . لكن التاريخ لا يثبت من هذا كله شيئاً .

والأثر الخالد الحق في مكة بيت الله ، وكل أثر غيره يتصل به ويعنوا له ؛ إليه يولى الناس وجوههم وهم بمكة ، وحيثما كانوا ولّوا وجوههم شطره .

## في غار حراء

الكعبة والحرم أول ما يتجه إليه من يحج مكة وأشد ما يسترعى نظره فيها . فإذا أتم الناس شعائر الحج طوافاً وسعيًا ، ظلت الكعبة وظل الحرم مع ذلك مثابتهم ما أقاموا بالبلد الحرام . وإن كثيرين منهم ليتجهون بعد زيارة الحرم إلى زيارة مقابر آل البيت . هذه المقابر التي كانت موضع تقديس ورعاية من حكومة البلاد وأهلها ، ومن زائريها ، ومن المسلمين في شتى بقاع الأرض ؛ حتى إذا تولى النجديون أمر الحجاز أنكروا تقديس هذه الأماكن واعتبروه إشراكًا بالله في عبادته ؛ فهدموا ما أقامه السلف عليها من قباب ومساجد ، وجعلوا على بعضها حراسًا وأبوابًا توصل . ولم يصرف الحراسُ الناس عن زيارة مقابر آل البيت ، ولم تحل الأبواب بينهم وبين الوقوف بها والدعاء لساكنيها واستغفار الله لهم وقراءة الفاتحة لأرواحهم .

ويتجه بعضهم بنظره إلى حِراء وإلى الغار الذي بأعلاه . ولقد قلَّ عدد هؤلاء بعد حكم النجديين الحجاز ، وبعد أن هدموا القبة التي كانت مقامة فوق هذا الجبل . وجنت قلة الصاعدين إلى قمة حراء على مقهى كان قائمًا على مقربة من القمة عند صهريج كان يخترن مياه المطر ، كما جنت على الطريق المعبد الذي كان يتخذ الصاعدون إلى القمة . أما المقهى فلم يبق له أثر ، وأما الطريق ففسد وشقَّ الصعود عليه . بذلك زاد عدد الصاعدين إلى غار حراء قلة ، ولم يبق منهم من يكابد مشقة الصعود إلا الذين درسوا تاريخ الرسول وعرفوا نزول الوحي لأول مرة على محمد أثناء تحنثه بحراء . هؤلاء يحرصون على أن يصعدوا جبل النور وأن يصلوا إلى الغار الذي اتخذته محمد مقرًا ، والذي جاء إليه جبريل أثناء مقامه به يلقى عليه أول ما جاء به من القرآن : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . وهؤلاء يرون في الجبل

وفى الغار فوقه أقدس مكان تجب له الزيارة بعد حج البيت ؛ فهو منزل الرسالة ، وهو مهبط النور ، وهو مقام الرسول قبل البعث يلتبس الحقيقة حتى أوحاها الله إليه ؛ وهو اليوم كما كان منذ خمسة عشر قرناً مضت ، لم تعد عليه عادية ، ولم يغير منه حاكم ولا محكوم ، وسيبقى كذلك علماً على الوحي وعلى الرسالة حتى يوم الدين .

ومذ وقع نظرى على حراء حين ذهابى إلى قصر الملك غداة وصولى إلى مكة تعلق به نظرى وشدت إليه مشاعرى ، وتمثل لى حيثما ذكرته بهذه العزلة العجيبة التى تفرد بها عما حوله من الجبال ، وبهذه الاستقامة المخروطية فى انطلاقه إلى السماء ، استقامة تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان منه إلى جبل قائم بين عشرات من الجبال حوله . والحق أن الحادث الفذ الذى جعله القدر نصيب هذا الجبل ، حادث نزول الملك على محمد بأول الوحي وهو يتحنث بالغار فوقه ، جدير بأن يجعل منه علماً فى تاريخ الإنسانية يتعلق به ذهن كل إنسان ويتوجه إليه قلبه أكثر من كل موضع سواه . ويزيد الذهن تعلقاً به والقلب توجهاً إليه أن هذا الحادث لم يكن حادثاً عارضاً من خوارق أعمال القدر لم يمهّد القدر له ، بل كان نتيجة لتمهيد طويل خلال سنوات عدة أدب محمداً ربه أثناءها وطهر نفسه ، وأعدّه لتلقى رسالته وإبلاغها للناس . على هذا الجبل ، حراء ، كانت خاتمة التمهيد والتهديب والإعداد قبل الرسالة . إذن لقد شهد حراء هذه الرياضة الروحية العظيمة منذ هدى الله محمداً إلى الحق حتى أضاء أمامه سبيل هذا الحق بنور الرؤيا الصادقة ، وإلى أن أوحى إليه النبوة ليكون من بعدُ بشيراً ونذيراً . وليس ثمة موضع نعرفه فى العالم شهد هذا كله . فلا جرم ، وذلك شأنه ، أن يتعلق به الذهن ، وأن يتوجه له القلب ، وأن تشدّ إليه المشاعر .

وحسبك أن تقف قبالة حراء وأن تتأمله لتذكر هذا المشهد كله ، ولتراه مرتسماً أمامك وكأنما حدث بمراى منك ، أو كأنما حدث منذ عهد قريب . فها هو ذا محمد يسير وحيداً منفرداً حاملاً من الزاد ما لا ينوء رجل بحمله ،



يخترق طرق مكة من جنوبها الشرق حيث يقع اليوم شعب عليّ ، وحيث كانت دار خديجة ، إلى شمالها الشرق حيث يقوم هذا الجبل . وها هو ذا على سفح حراء يصعد إليه ، وسيا التفكير مرتسمة على قسبات مُحيّاه ، وليس فيما حوله من أسباب الحياة ما يرفه عن تفكيره أو ينبهه إلى جديد في الحياة . ويستمر في تصعيده ، وزاده معه ، حتى يبلغ قمة الجبل . هنالك يجد ماء المطر القليل قد اختزنته بعض أخاديد شعابه . ويجلس على مقربة من هذا الماء ومن غار قريب منه ، هو مأواه أثناء نومه ، ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله ، ثم يرجع البصر ويغمض عينيه الواسعتين الجميلتين إغماضة تأمل وادّكار لكل ما سمع وما رأى . فإذا جنّ الليل وتألقت النجوم وانتشرت في قبة السماء ، أجال بصره فيها ، وفكر في أمرها وفي خلقها وفي خلق هذا العالم العظيم كله ، وقضى أشطر الليل متأملاً يقلّب في صحف ذهنه كل ما يقول قومه في العالم وفي خلقه وفي الآلهة والملائكة وفي هذه الأصنام التي يعبدون . وينسيه التفكير نفسه ، وينسيه طعامه ونومه ، وينسيه الوقت ومرّته ، ويذره متعلقاً بما ينشد من حقيقة العالم والوجود والكون . ويستريح في الغار سويعات لا يلبث حين يقظته بعدها أن يعود إلى تفكيره وإلى تأمله وإلى نشدانه حقيقة العالم والوجود .

لقد كان — إلى أن مال به حبه العزلة إلى التحنث والانقطاع عن الناس — محبوباً من قومه ، مقدّراً بينهم لوفائه وصدقه وأمانته ، وقد كان مضرب المثل بينهم لبره أبناءه ووجه زوجته وعطفه على الضعيف والمحروم . وكان يشارك قريشاً في أحاديثهم وتمرهم : يجلس وإياهم في داو الندوة إلى جوار الكعبة ، وينصت إليهم وهم يتحدثون في تجارتهم وفي مصالحهم ، ويشير عليهم برأيه ، ويستمع إلى حديثهم ويراهم إذا اختلفوا في أمر ذهبوا إلى هبكل فصر يواعدده بالقداح ليشير عليهم الصم بما يجب أن يصنعوه . وكان يرى منهم قوماً عُرفوا بالحكمة وحسن الرأي ينظرون إلى هبكل وإلى من دونه من الأصنام التي يغلبها بنو وطنهم نظرة ريبة في ربوبيتها وفي صحة عبادتها . وكان يسمع الخطباء من

هؤلاء الحكماء ينادون في الأسواق التي تنعقد حول مكة إبان الحج بأن لله دينًا غير هذا الدين الذي عليه قومه ، ويرى قومًا من أهل الكتاب يعيبون العرب لوثيتهم ويبشرون بالنصرانية يريدون بالعرب أن يهتدوا بهداها . وكان قومه يسمعون لما يسمع ، ويتناقلون أخبار الرهبان الذين يلقونهم أثناء رحلتهم إلى الشام في تجارة الصيف ، فلا يثنونهم ذلك عن التعلق بما ألفوا من تجارة الحياة ، ولا يعدل بهم عن دينهم وعن عبادتهم أو ثأنتهم ، ولا ينصرف بتفكيرهم إلى شيء غير الدفاع عما لمكة من مكانة دينية قائمة يومئذ على الوثنية ، وعما تيسره هذا المكانة لها من مزيد في الرخاء وسعة في التجارة . أما هو فقد انصرف منذ عهده الأول عن عبادتها ، وتاقت نفسه إلى معرفة الحق ، فتعلق به ودأب على البحث عنه والتفكير فيه . وشغله هذا الدأب عن تجارة خديجة فلم يخرج فيها إلى الشام كما فعل قبل أن يتزوجها ؛ بل كفاه منها أن أغناه الله بها ؛ وانصرف يلتمس هذا الحق الذي شغلت نفسه بالبحث عنه والتفكير فيه يريد أن يراه واضحًا صريحًا لا لبس فيه ولا غموض .

اعتزل الناس وأمعن في الانقطاع عنهم ، ووجد في حراء خير مرصد روحي يمتحن به أسباب الحقيقة التي تتجلى أمام بصيرته في أناة ودقة . فإذا جاء شهر رمضان من كل عام صعد إليه واستعان بالصوم والزهد في متاع الدنيا على استجلاء الحقيقة في كل ما تقع عليه عينه أو يتعلق به حسه ، وفيما يتوسمه من حياة وراء ما يقع عليه الحس أو تدركه العين . وكذلك ظل حتى أماطت له الحقيقة عن لثامها وتبدت أمامه في كل صفاتها وتجردها ؛ وصار يراها في يقظته كأنها وضوح الصباح . بهذا كله أدبه ربه . فلما تم لنفسه صفاؤها ، أنزل الله عليه أول الوحي ، فارتاع له وخافه . ثم أمره أن يندثر الناس وأن يدعوهم إلى الحق الذي اهتدى إليه ، فصعد بأمر ربه ودعا الناس إلى الهدى .

تُرى هل يأخذ بالنفس في الحياة شيء ما يأخذ بها هذا المرصد الروحي الذي تجلت الحقيقة فيه لمحمد كاملة واضحة صريحة ؟! لقد وقفتُ أمام جبال شتى أخذ بعضها بمجامع قلبي بحماله ، وبهرقني بعضها بعظمتها ، وشدهت

لما احتوى عليه بعضها من عجائب الخلق والحياة . ولقد وقفت ذاهلاً مأخوذاً أمام آثار شادها الإنسان تزرى بالزمن وتسخر من الدهر ؛ ووقفت معجباً أمام مرصده أقمها العلم لتزيد ما في العالم وضوحاً أمام الحس . لكنى لم أشعر يوماً بما شعرت به خلال المرات التي وقتتها قبالة حراء أرسم من هذا المرصد الروحي صورة في نفسي فلا يكاد يعدله شيء مما شهدت في حياتي من عظمة الطبيعة وجلالها ، ومن فن الإنسان وبراعته ، مع يقيني ببساطته وبأن الصاعد إليه لن يرى فوقه إلا ما يرى فوق سائر الجبال .

ألحّت علىّ الرغبة في ارتقاء هذا الجبل لأقف حيث كان يقف محمد ، وأشهد من مظاهر الخلق ما كان يشهد ، ولأرى الغار الذي كان يقضى فيه ليله والذي نزل عليه الروح الأمين بالوحي فيه . وأفضيت إلى أصدقائي برغبتى ؛ وأبدي جماعة من أهل مكة الرغبة في مصاحبتى ، ليشهدوا معي ما لم يشهدوه من قبل على قربهم منه . وكان بعد صلاة العصر من يوم الجمعة موعداً ؛ فأقلتنا السيارة ، حتى إذا كنا قبالة قصر الملك تياسرت بنا ثم انحرفت إلى مضارب جماعة من البدو لا يابون أن يقدموا القهوة لمن شاء أن يتناولها . وقد جعلهم مقامهم بالحضر يتوقعون ما لا يتوقعه أبناء البادية من اقتضاء ما تفحهم به مقابل تقديمهم إياها ، ومقابل حراستهم السيارة أثناء مقامك بالجبل إذا صحبك سائقها .

ماذا أرى ؟ لقد كان حراء ينحدر وأنا أنظر إليه من بعيد في استقامة مخروطية تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان ، وما هو ذا الآن وله سفح كسفوح الجبال ، وتبدو على السفح آثار طريق لسير الناس فيه . لكن قمته أكثر استقامة من سائر ما حوطا من القمم . أتراها أشد عسراً في الصعود إليها ؟ سألت عن ذلك فهوّن القوم علىّ الأمر ، وذكر من تسلقوا هذا الجبل من قبل أن الله يهيئ للصاعد فيه من أسباب اليسر ما لا يهيئه للصاعد في غيره من الجبال . لكننا أتينا بعد الظهر ، وهذا السفح الذي يصعد الناس منه تظالعه أشعة شمس المغرب وينحسر الظلّ لذلك عنه . ولو أننا أتينا مصبحين لكان

صعودنا في الظلال أكثر يسراً . على أن أصحابي ذكروا أن الإنسان يستدير في صعوده إلى النوى حين يقرب من القمة ، وأنه يرى منها عند المغيب وقربته كل ما حول حراء إلى أبعاد نائية مما يحجبه الضوء الباهر حين الظهيرة .

وسرنا إلى السفح وبدأنا نتسلقه . بدأنا في نشاط رجونا ألا يفتر قبل الغاية . وما له يفتر والجبل أماننا ليس بالغنا في ارتفاعه ما يخاف الإنسان معه اللغوب ! وسرنا في الطريق المألوف خلا شاباً منا أثر أن يختزل هذا الطريق وأن يتسلق الجبل في استقامة تدنيه من غايته . وأذره أصحابه أنه جاهد نفسه بهذا الصعود العنيف فمُنْقَطِعٌ به دون القمة . ولم يسمع شبا به لإنذارهم ، وانطلق انطلاقة السهم ، يسبقنا مبعداً ويقف بين آن وأن فوق صخرة من الصخور يصبح بنا صيحة الفائز المنتصر . وقطعنا في تسلقنا دون ربع الساعة ، ثم بدأنا نشعر بالمشقة ونقدر طول الطريق الذي حسبناه من قبل قصيراً . واعتذر لي أصحابي عن سوء حال هذا الطريق وألقوا التَّسْبِعة في ذلك على حكومة الوهابيين الذين هدموا قبة حراء فصرفوا الناس عن الصعود للتبرك بها فأهمل الطريق وساءت حاله . وزاد بنا الشعور بالمشقة ، فاتخذنا من فيء صخرة حمى نستريح إليه . وعاودنا سيرنا حتى عاودتنا المشقة فاسترحنا كربة أخرى . وكلما أخذنا الجهد ارتفعنا بأبصارنا نحزُرُ ما بقي من الطريق إلى القمة .

واستدردنا في تصعيدنا إلى النوى ، وسرت إلينا نسائم منعشة أشعرتنا بنشاط كان وشيكاً أن يفتر . وجلسنا ننعيم بهذا النسيم ونعد العدة للوثبة الأخيرة إلى القمة . ما كان أحوجني إلى هذه الجلسة ! كانت أنفاسي تضطرب وصدري يعلو ويهبط فيكاد يمزق أضلاعي ، والعرق يسيل من كل مسام جسمي ويبلل كل ملابسني ؛ وأمسكت لا أنفوه بكلمة ، وفتحت خياشيمي أستنشق النسيم بكل قوة ألتمس هدهاء لصدري واستعادة لسكينة نفسي . وقال أحد أصحابنا من أهل مكة وقد طاب له المكان الظليل : إني ناظركم هنا حتى تعودوا من القمة ؛ فلم يعد في مستطاعي أن أصعد . ولعله أراد أن يمتحن صبري ويبلو احتمالي . وكيف لي أن أقف دون غاية قصدت إليها ما بلغ الجهد مني ، ولست

أدرى متى يتيسر لى أن أعود إلى مكة . ولهذا الجبل وللغار من السحر فى قلبى والسلطان على مشاعرى ما يهون معه كلَّ جهد وتطيب به كل مشقة ! ولم تك إلا دقائق حتى رأيتنى أكثر نشاطاً وقد اطمأن صدرى ، وعادت إلى نظامها أنفاسى ، وسررت إلى فؤادى مع النسيم بهجة لم أشعر من قبل بمثلها . وخلفنا صاحبنا وقيمت ومعى رجلا ن يحمل أحدهما الماء المثلوج ويحمل الآخر الشاى الساخن فى « تر مُدَيْنِ » كانا لمثل هذه الرحلات خير عون .

وانطلقنا مصعبين نتيامن ونتياسر مع الطريق خلال شعاب الجبل ، وقد جدت الراحة نشاطنا ، وزاد فيه الظل والنسيم ، وقواه اقتراب الغاية والثقة بالنجاح فى إدراكها . وتلفتت بعد فينة ، فإذا ورأى عبد أسود ناداه أحد الرجلين اللذين معى : يا فى ! وحسبت أنه يعرفه ، ثم علمت أن العبد من التكرارة الذين يقيمون أوفياً بمكة ، وأن هذا اللقب يطلق على كل فرد منهم ، وأنهم يلتمسون مثل هذه الفرصة لمعاونة صاعد متعب لعلهم ينالون منه بلغة يومهم . ولم أكن فى حاجة بعد ما نلت من الراحة إلى معونته ؛ ولكننى اطمأنت إليه وأنست بوجوده إلى قدرتى على تحقيق غايتى ، وازدادت قدامى قوة فى الصعود والتسلق . وزادنى أنساً إليه أنه لزم الصمت ولم يشارك من معى فى الحديث ، فدل بذلك على أنه لا يتغنى غير بذل العون لمن يحتاج إلى عونه .

ودعانى صاحبى إلى الجلوس كما أستريح . وإنى لأحاورهما متردداً إذ سرى على النسيم إلى سمعنا صوت ذلك الشاب الذى اختزل الطريق إلى القمة يهيب بنا أن هلموا . ورفعت بصرى كما أراه فإذا بالجو ينكشف ، وإذا ما حولى أكثر ضياء ، وإذا الشاب قد تسم مكاناً زعم أنه الغاية التى جعلناها مقصدنا . وأزال ما رأيت ترددى ، فلم أجلس ولم أعبأ بما عاودنى من البهر (١) ، وتابعت تسلقى وأنا أستدير حول صخرة حيناً وأقف مكدوداً بين صخرتين هنيهة . وطالعنا الشمس كرة أخرى ؛ لكن أشعتها تسربت إلينا من ناحية القمة فكانت بشير الفوز ، وزادت عزمنا مضيئاً ، وحريصنا على بلوغ الغاية

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء .

قوة . والشاب ما يفتأ يهيب بنا ويثير حميتنا ، ونحن نتسلق ثم نقف ، ونقف ثم نتسلق ، حتى انفرجت الشعاب والصخور أمامنا عن سطح مستو اندفعنا إليه مطمئين إلى أنا إذ بلغناه قد صرنا من القمة والغار على بضعة أمتار .

وليس استواء هذا السطح من عمل الطبيعة ، وهو لم يكن مستويًا أيام كان محمد يصعد حراء للتحنث فوقه ؛ إنما سواه الناس حين كان الألوف من الحجيج يصعدون يبتغون القبة المشيدة على القمة للتبرك بها . سووه ونقروا فيه صهريجًا يخزن مياه المطر ، وأقاموا عنده مقهى يستريح الناس إليه ويتناولون طعامهم فيه إذ يصعدون لزيارة القبة . فلما هدمها الوهايون وانقطع الناس عن الصعود أقفر المكان من المقهى ولم يبق من يعنى بأمر الصهريج وما يجيء من الماء إليه . لكن السطح بقى مستويًا كما كان ، وبقى الذين يصعدون ابتغاء الغار يقفون عنده ، يستريحون إلى فيئته ويستجمون مما أرهقهم من الصعاب مستندين إلى جدرانها ؛ وكذلك فعلنا . فلما اطمأنت أنفاسنا إلى صدورنا درنا في المكان نرى الصهريج وبضع الدرجات التي ينزل الإنسان بها إليه ، ونرى استواء الجدران حيث كان المقهى ، ونلقى في هذا المكان الموحش ، بعد أن خلا من كل مؤنس آثار أولئك الألوف الذين كانوا يتسلقون إليه ويجلسون في مقهاه منشرحة صدورهم لأنهم يؤدون واجبًا مقدسًا ، منفرجة شفاههم عن آى الغبطة يرجون رحمة الله ورضا رسوله عما قدموا بين يدي نجواهم من صدقات حين جاءوا بيته ملتمسين مغفرته وعفوه .

وارتقيننا من هذا السطح عشرين مترًا أو نحوها ؛ وبلغنا القمة التي كانت تقوم القبة عليها . وهناك انكشف لنا الوجود المحيط بنا كله . فهذه القمة أعلى حراء ، وهي ضيقة لا يزيد مربعها على الثلاثين أو الأربعين مترًا ؛ وهي مكشوفة لا يحيط بها صخر ولا يحجب الناظر منها إلى ما حولها حجاب . وتبدو سلاسل الجبال المحيطة بحراء من جهاته الأربع كأنها كلها دون هذه القمة ارتفاعًا ، وهي لذلك تتكشف للناظر من القمة عن سفوحها وعن شعابها وعن كل ما عليها وكل ما فيها . وأظلت قبة السماء هذه القمة ، فما يغيب عن النظر مما فيها سحابة

أو شامة وإن ذق حجمها . وهذا موقع فريد قلّ في غير حراء من الجبال نظيره . فأنت إذ تنفّ ينكشف لك كل ما حولك ، وتبدو لك عظمة الكون في كل جلالها ، وتشعر وأنت تشهد من موقفك السماء والجبال ، وتشهد مكة ومسجدها الحرام وبيتها العتيق ، وتشهد ما وراء ذلك مما لا نهاية له — تشعر أنك تشهد آية الله تجلّى كمالها في الكون وفي خلقه ، وتشهد سنة الله في هذا الكون ، سنة لن تجد لها تبديلاً وإن تعاقبت الدهور وخلفت القرون القرون . فإذا طال بك موقفك وطال تأملك فيما حولك تجسّمت في نفسك هذه الآيّة واستولت على كل حسك وشعورك ، ففَسَنَيْتَ فيها وغاب حسك بنفسك وكنت في تيهاء لا تدري بعدها ما حظك وما نصيبك .

كان ذلك شعورى حين وقفت فوق القمة أهدق من عليائها فيما حولى . ولقد استعنت بمنظار مكبر أعددته لأستعين به على مثل هذا المشهد . وما عسى أن ينفع المنظار وأنت لا ترى مما يقربه لك من الأبعاد إلا مزيداً في عظم الخلق وجلاله ! هذا الخلق الهائل من الجبال المتعاقبة لا ترى خلاها من مظاهر الحياة إلا حياتها هي ، حياة صحور عابسة وكألاً لا يكسر من حدة هذا العبوس ولا يزيد الناظر إليها إلا مهابة ورهبة ؛ وهذا البيت العتيق قائم في أم القرى يحدث عن حياة العالم الروحية منذ أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل ؛ وهذه الجماعات من الناس والقوافل من الإبل لا يكاد المنظار يبين عنها لصغر حجمها ودقة شأنها ، وهى حول البيت أو بين الجبال تتيه على الجبال وتطوف بالبيت ، ناسية أنها قليلة البقاء إلى جانب البيت والجبال ، وأنها تتعاقب أجيالها والبيت قائم ، ولليبت ربّ يحميه ، والجبال مطمئنة تترى بالقرون والأجيال .

وسبقنى أصحابى إلى الغار وبقيت فوق القمة وحيداً أجبل الطرف فيما حولى فأزداد لخلق الله إكباراً وبالله إيماناً . وما عسأى أستطيع أن أرى من خلق الله في هذه السويعة ، وتقلب الوقت وتنقل الشمس وانتشار الليل ، كل ذلك يجلو أمام البصر والبصيرة في كل لحظة جديداً . والبصر والبصيرة يريان الأشياء في

ألوان تختلف باختلاف سكينه النفس واضطرابها ، وهدوء العصب وهياجه ، وبحالنا من الصحة والمرض ، والرضا والغضب ، والراحة والنصب . ودع عنك ما تحجب الجدران بيننا ، نحن سكان المدن ، وبين الأبعاد الشاسعة . وكيف تُرانا نبليغ أن نرى ما يزعم قوم من أهل مكة أن أفوياء البصر يرونه من هذا المكان الذى أقوم فوقه ! فهم يذكرون أنهم يرون منه ساحل البحر الأحمر ساعات مغيب الشمس .

وعاد إلى بعض أصحابي فأنحدرنا إلى الغار الذى كان ملجأ رسول الله والذى نزل عليه الوحي الأول فيه . وبين الغار والقمة عشرون متراً أو نحوها ، وهى مقدار ما بين السطح الأول والقمة . والوصول إليه يقتضى المرور بين صخرتين تكادان تتلاصقان ، فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلا بمشقة وإن كان نحيفاً . فإذا تخطاهما وجد الغار فى داخل الجبل محجوباً عن كل ما حوله بالصخور الضخمة وهو أشد من كل ما فى الجبل وحدة وعزلة ، ووجده لا يتسع لأكثر من شخص واحد ينام فيه نوماً خشناً جافياً كل الجفاء . دخل الشاب الذى معنا إليه وتمطى فيه ، فلم يطق المقام به غير لحظة ارتد بعدها إلينا ووقف معنا يشهد وإيانا فى هذا الوسط الموحش ذلك الوكر المخوف ، يفزع منه من يجهل أن الحياة لا يملكها إلا من سما فوق الخوف من كل ما فى الحياة .

وهو مخوف حقاً . ولولا ما تنطوى نفوسنا عليه من تقديس إياه لما طوعتنا إلى البقاء أمامه ، ولفررنا مشفقين مما فيه . وأنتى لنا أن نعرف ما فيه والصخور الضخمة حوله لا تدع مسرباً للنور إلى أبعد من فوهته ، فأما ما وراء الفوهة فظلام لا تهتك العين حجابها . والجبل بشعابه من وراء الصخور أجرد داكن اللون فى حمرة قائمة يزيد المخاوف ولا يهون منها .

وعدنا أدرجنا نقصد القمة وقد امتلأت النفس مهابة ورهبة . ووقفت فى منتصف الطريق أستنشق هواء هذه الساعة رق حين ذنا المغيب فأسعد النفس وزادها غبطة بما حوفا من جلال وهيبة . وحدثت نفسى : هنا كان الرسول يقضى شهر رمضان من كل عام . عدة أعوام تباعاً ، قبل أن يبعثه الله نبياً .



في هذه البقعة المنعزلة الموحشة كان يقيم وحيداً يؤنسه تفكيره وتأمله ، يقلب في صحف نفسه هذه الحقيقة السامية التي كان الله يهيئها لها ليعيثره إلى الناس بها . لم يكن في عزلته وفي وحدته وفي انقطاعه يخاف الجبل ولا الغار وما قد يكون فيهما من وحش أو هوام . أية قوة روحية يهبها الله لمن يتخذ هذا المكان القفر له موثلاً ! إنها قوة فوق ما أوقى الناس جميعاً وفوق ما في العالم كله . لا يؤتاها إلا الذين اختارهم الله لرسالته ورضى عنهم ورضوا عنه .

وبلغت القمة ، وتناولت قدحاً من الشاي ، وجلست مستنداً إلى بقية جدار لعله أثر من بناء القبة التي هدمها الوهابيون ليحولوا بين الناس وبين التبرك بها ، لما يرونه في هذا التبرك من معنى تقديسها . وأقام أصحابي معي هنيهة ثم تركوني وذهب كل في ناحية من شعاب الجبل يستطلع ما قد يحتويه جبل النور من آثار لا يحتويها غيره من الجبال . وتركت لخيلالي العنان وأنا في عزلي هذه ؛ فتمثل لي الرسول الكريم جالساً حيث أجلس ، مشتملاً في نظره هذا الكون العظيم المحيط بي متأملاً ، مفكراً فيما يرى وفي دلالاته . ترى ما بال أهل مكة لا يعجبهم أنهم من يتعبد في حراء طول شهر رمضان كما كان النبي يفعل قبل بعثه ؟ أليس لنا معشر المسلمين في رسول الله أسوة حسنة ! وهل لمكان أن يعين المعتزل على التفكير وعلى التأمل ما يعينه هذا المكان من حراء ! فهو بعيد عن ضجة الحياة وضوضائها ، قريب من الحياة ومن كل ما فيها . فيه يعكف الإنسان على نفسه ما شاء ، ويتصل بالكون وبخلق الله ما أراد . ليست هذه القمة صومعة تحجبنا عن الحياة وتحجب الحياة عنا ، ولسنا فوقها رهن محبس تحيط به الجدران ، أو كهف غائر في الصخور ؛ إنما هي مرصد يطالع الحياة وتطالعها ، تبرز الشمس عليها ساعة تشرق وتنحدر عنها ساعة تغيب ؛ وتتألق النجوم ويحبو البدر في السماء ، وتهوى الشهب وتنتطح السحب ، وهي شهيدة على هذه الأحداث كلها . فأين يجد المعتزل مثل هذا المرصد يرى منه ما يشاء من غذاء الروح وأسباب التفكير والتأمل !

فإذا هو أقام من كل سنة شهراً كاملاً صائماً منقطعاً عن تجارة الحياة إلى

التفكير فيما يرى آناء الليل وأطراف النهار ، وإلى التأمل في مشاهد هذا الكون المتراعى الأجزاء إلى حيث يقصر النظر ، وإن بلغ من القوة والدقة نظر زرقاء الياقوت ، وإلى حيث تسلم المحسوسات لقوة الإنسان العاقلة أسرارها ، فليس من ريب في أن يصل من معرفة هذه الأسرار إلى نتائج باهرة . إنه لن يكون نبياً ولن يبعثه الله رسولا ، فحمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ لكنه يصل من طريق العلم بالمشاهدة والملاحظة والترتيب والاستنباط إلى خير ما يصل إليه مشاهد من مرصد يسجل حركات الأفلاك وموج ما في السماء ، وإلى خير ما يصل إليه من يسجل نتائج اتصال الإنسان بالكون في أسمى مراتب الاتصال . وهو إلى ذلك وما يزاوله من ألوان الصوم وكبت هوى النفس وشهوات الجسد يصل بالروح إلى درجات الطهر والتنزه والسلطان على المادة وعالمها دون أن يكون للمادة أى سلطان عليها .

ما للمسلمين من أهل مكة ، وما للمسلمين ممن يقصدون إلى مكة للحج أو لعمرة رجب ، لا تميل بهم الأسوة إلى معالجة هذه الرياضة العقلية والروحية ولها في تهذيب النفس أكبر الأثر ، ولها من النتائج في العلم ما أشرنا إلى شيء منه ! وأى تهذيب للنفس كاتصال الإنسان بالكون في مثل هذا المنقطع الرفيع فوق حراء اتصالاً يسمو به المرء فوق حاجات الحياة ، ويرى أثناءه في شظف العيش وفي الغنى بالنفس عن كل شيء ما يزيده إيماناً بالله وحده ، وبأنه دون سواه تجب له العبادة ، باسمه يسبح من في الأرض جميعاً ومن في السماوات ! وهل شيء غير مشاهد الكون تقوم عليه النتائج العلمية ! إنما تقوم هذه النتائج على ما في السماء والأرض ، في الضحى ، والليل إذا سجا ، والنجم إذا هوى ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والجبال وما أساها ، والهواء في مسراه ، والماء في مجراه ، والحب إذا نبت ، والصخر إذا تقمت ، والضوء إذا تحلل ، والمطر إذا ترقرق ، والريح إذا اصطفت ، والنفس إذا سكنت لأمر ربها وفكرت . أى شيء غير هذا هو العلم في أحدث صورته أثمرتها حرية الفكر ؟ ! وهل طريقة علمية أدق من هذه الطريقة لمعرفة سنن الكون

وما ينطوى عليه !

إنما يرغب المسلمون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم انحرفوا عن أمر الروح الذى يكيّف المادة وأذعنوا لسلطان المادة يكيّفها غيرهم بقوة عقله وروحه ، ولأنهم آثروا راحة التقليد على عناء الاجتهاد ، ولأنهم نسوا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، ويجب عليه لذلك أن يهب من نفسه لإخوته المؤمنين ؛ فتولت عليهم الأثرة ، وصار ما يرضى الأثرة من ابتغاء المال والجاه وما إليهما كل شئ عندهم . وأنى لمن هوى إلى هذا الدرك أن يفكر فى الحقيقة ينقطع لها ويجعل العلم سبيله إلى إدراكها ، وأن يحمل نفسه على نشر نورها يستضىء به الناس جميعاً ، وهو لا يريد العلم إلا لنفسه ، ولا الحقيقة إلا لنفسه ، ولا الحياة إلا لنفسه ، ولا المال إلا لنفسه ، ولا السلطان إلا لنفسه ! وأنى لمن هوى إلى هذا الخفيض أن يدرك ما فى بذل النفس لدى الغير من سمو يتضاءل أمامه الجاه والمال والسلطان ، ويصبح الفقر معه فخراً ، وتصبح التفضيلة معه لباس المتقين ! والناس متى هَوَوْا فى هذا المنحدر فاتهم معنى العبادة على وجهها الحق ، ففاتهم أن العمل عبادة ، وأن العلم عبادة ، وأن هداية الناس عبادة ، وأن البذل للمحتاج من مال أو علم أو شفقة وبر عبادة . وأن الله يقبل عبادة من يؤثر على نفسه راضياً عنه . فأما الأثر الذى لا يعرف إلا نفسه فى حاجة إلى أن يطهر نفسه قبل أن يطمع فى مغفرة الله له . وفوت هذا المعنى قد جعل الناس يحسبون أن خير العبادة ما كان فى هياكل فخمة العمارة ذات محاريب وأبراج تأخذ روعتها بالنظر ، وينسون أن خير العبادة ما توجه الإنسان فيه بكل قلبه إلى الله ، ناسياً نفسه ، محبباً فى الله إخوانه ، مستعيناً ربه ، كانت عبادته فى هيكل مشيد ، أو كانت فى فضاء الله وبين خلقه الذى لم تعد عليه يد الإنسان .

والمسلمون يرغبون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم لا يطبقونها . فالوحدة للتفكير ابتغاء الحقيقة إنما يطبقها ذوو الأرواح القوية . هؤلاء يتلمسونها تلمساً ويتخذونها ملجأ من ضعف الجماعة وأقنيتها . يرى أحدهم

ما تخُصَّبُ الجماعة فيه وما تضعُ من ضلال يسبغها عن الطريق السوي ، طريق الحق والخير والجمال ، فيزورُ عنها ، ولا يجد في غير العزلة موثله ، وفي غير التفكير أثناء هذه العزلة وسيلة خيرا وصلاحتها . ومنهم من يذر بيئته إلى بيئة أخرى ليست منه وليس منها فلا سلطان لها عليه ، وقد يفيد من الاتصال بها ؛ وهو أثناء مقامه بها في عزلة عما ألف ، تفتح له الحزبية من أبوابها ما كان مقفلاً في جماعته . ومنهم من لا يرى في الجماعة الإنسانية مظهر الحق ، ويراه في أطواء النفس ودخيلة القلب ؛ فهو ينقطع عن الناس وينظر في الكون كله ويعود بنظره إلى صورة هذا الكون مرتسمة في أعماق وجوده تترشده إلى الحق وتضيء أمامه بنوره . فأما الأولون الذين يتلمسون الحق عند الناس من غير ذويهم فهم أقوياء ، لكنهم عاجزون عن مواجهة الوجود فهم يريدون الحق عند جماعة يحسبونها أرقى من جماعتهم ، ويريدون أن يحملوا جماعتهم على تقليد من يحسبونهم أدنى إلى الكمال وأبعد عن الضلالة . وأما الذين يرجعون إلى أنفسهم يتلمسون الحقيقة في أعماقها فأولئك هم الأقوياء حقاً ، وهم الذين يقدرون النفس الإنسانية قدرها الصحيح ، والذين يتوجهون إلى القوة العليا التي برأتهم وكان الروح من أمرها يرون فيها الحق لاحق إلا هو ، ويتأملون في خلق الله سنة الله فيه ؛ فإذا اهتدوا اهتدت الإنسانية بهداهم وسعدت برأيهم .

ليس يطمع أحد في أن يؤتبه الله من هذه القوة ما أوتي محمد صلى الله عليه وسلم . وقد حاول أفراد في مختلف الأمم أن ينقطعوا عن العالم ، فإذا هم قد انقطعوا عنه إلى غير أوبة إليه . فمنهم من ضل عنه عقله ولم يثب إليه رشاده ، ومنهم من هجر العالم فراراً من آلامه . ومنهم من أخذ عن الجماعة الإنسانية ببدايع الطبيعة . ومنهم من فنى في الخالق جل وعلا وهام به ونسى أن هدى الناس خير ما يرضى الخالق . وقليلون منهم عادوا إلى الإنسانية بمحائق أضاءت سبلهم فساروا على هداها ؛ وهؤلاء هم الذين اتبعوا سنة الرسول . لكن الله لم يؤت أحداً ما أتى عبده ونبيه ورسوله ؛ فلم ينطبع العالم في نفس بالقوة التي انطبع بها في نفس محمد ، ولم تصل الرياضة الروحية بأحد ، ولن تصل بأحد ،

إلى الرؤيا الصادقة التي انتهت إليها قبيل بعثه وبعد أن قضى السنين يتعبد شهراً كل عام في حراء . ولقد ظل محمد طوال حياته مشغولاً بالوحدة تطمئن إليها نفسه القوية ويستمد أثناءها من ربه نور الهدى حتى تنزلت عليه كلمة الله وحياً ونوراً .

ومن هذه القمة التي كان الرسول يتعبد فوقها متخذاً لإياها المرصد الروحي لتلمس الحق في الحياة ، يرى الإنسان منظراً يدل على أن المسلمين لم يفهموا أن بل يطبقوا أسوته عليه السلام بل نسوها ، وتعلقوا بالعرض دون الجوهر ، وبالقشور دون اللب . لست أقصد إلى أنهم أقاموا قبة يتبركون بها حيث كان الرسول يتعبد وظلوا على ذلك حتى هدم الوهابيون هذه القبة ، فلا عجب أن يقام في هذا المكان الخالد الذكر بالحادث الذي خصّه القدر به تذكاريه الغافل إليه ، فأما البركة الحقة في العبادة وفي التقوى ؛ بل أقصد أن تفكيرهم هوى إلى أسفل من هذا الدرك بمراحل . ومن ذلك أن ثمة شقاً في قمة حراء يجرى حوله جدل أشار إليه صاحب «مرآة الحرمين» ورده على أنه غير صحيح . وهو جدل ، لا غناء فيه ، عن هذا الشق وأصله ، ومداره : هل شق الملكان صدر النبي في هذا المكان وطهره وأسال ماء الطهور من هذا الصدع في الجبل . ما أكبر الفرق بين هذا التفكير ممن يقف على قمة حراء وتفكير الرسول حين تعبد فوقها قبل بعثه ! لقد كان يتلمس الحقيقة وكان يراها في خلق الله مما حوله وكان يجاهد لاختراق حجب الحياة إليها حتى أسلمها الله إليه بالوحي كاملة . كانت حقيقة العالم وخلقه وخالقه هي التي تشغل روحه ، وهي التي تصرفه عن تجارة الحياة وطعامها وشرابها وتنسيه كل شيء فيها . لم يكن يعنيه أن يزداد ارتفاع جبل على جبل ، أو أن يكون في شعب من شعاب الجبل شقاً أو نتوء لا شبيه له في الشعب الآخر ؛ بل كان متعلقاً بما هو أسمى من هذا وأرفع مكاناً : كان يبحث عن الكون وعن الزمان والمكان فيه ، وعن منشي ذلك كله . أما اليوم فينصرف أكثر المسلمين عن هذا السمو الفكري ويتعلقون بروايات تصح أو لا تصح ويجعلونها علة

لخلافهم ونضالهم وإقامة الفرق والشيع المتناحرة بينهم ، بل لرى بعضهم بعضاً بالمرق والكفر .

كانت الشمس تنحدر إلى ناحية المغرب ، فيجلو انحدارها قطوب الجبال ويكسو السفوح الظليلة سلاماً وسكينة . وكان أصحابى يدورون في شعاب الجبل ويعود أحدهم الفسنة بعد الفينة فيرأى منصرفاً عنه إلى ما حولي لا أوجه إليه كلمة فيرتد إلى إخوانه . فلما طال بهم الأمدُ ورأوا المغرب زاحفًا علينا ، نبهى أحدهم فاستمهلته رويداً وهبطت وإياه إلى الغار ، غار حراء ، ورجوته أن يدعى هنيهة إلى نفسى . ووقفت بين هذه الصخور الضخمة قبالة الحجر الموحش في الجبل القفر وقد تسللت إليه الظلمة فزادته وحشة وقفرأ . ووقفت وحيداً مفكراً أتخطى بذهني القرون إلى الماضى وقد امتلأت نفسى بصورة ذلك اليوم الفذ في التاريخ ، يوم نزول الوحي الأول ؛ ونسيت كل ما حولي ، ونخيل إلى " أنى أرى ، نعم ! رأيت محمداً متمطياً في الغار الموحش وعلى محياه الجميل سياً الرضا وكأنما يتقلب من هذا الصخر في فراش وثير . وإنى لأحدق في قسما وجهه وقلبي كله الرضا والحب ، إذ رأيت هذا الوجه أضاءه نور لألاء زاده جمالا ، ورأيت ابتسامة مطمئنة ترسم على ثغره ثم شفتاه الرقيقتان عن معانى التأمل وعظيم الأمل . وأخذت بما رأيت ، وازددت بصاحب الوجه المنير شغفًا ، وفي قسامته الخلوة تحديقًا . وفيأ أحدق شعرت أن الجبل كله يهتز ، وبهرى من الغار نور لم تطق عيناي ساطع ضيائه . سمعت صوتًا ملائكيًا يهيب بالتمطى في الغار : « اقرأ » . ويجيب محمد في صوت مرتعش ونبرات تهتز من الخوف : « ما اقرأ » . والنور الساطع والبهر<sup>(١)</sup> يتولانى من كل مكان وأحس النزاع يجرى في عروقي ، وأحاول الفرار فتخوننى قواي ، وأسمع الصوت الملائكى مرّة أخرى يهيب بمحمد : « اقرأ » ، ومحمد ملؤه الخوف والوجل يجيب بصوت من أرسل بعد اختناق : « ما اقرأ » . ويكرر الصوت الملائكى : « اقرأ » . ويشعر محمد أنه لم يبق في ملك نفسه وأنه لا مفرّ له من أن يقرأ أو يظلّ صاحب الصوت يخنقه ويرسله ، فيجيب : « ماذا اقرأ ؟ ! »

(١) البهر (بالفتح) : العجب .

ويتلو الصوت الملائكى : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »  
ويتلو محمد هذه الآيات من بعده .

خيَّلَ إلىّ وأنا في موقفي من الغار أنى أرى هذا المشهد القدّ في التاريخ ، وأنى أسمع هذه الأصوات لم أسمع قط مثلها . وصفدنى الفزع مكانى وأقمت أنتظر ما يكون من بعد ، فإذا النور الباهر يرتفع ، ومحمد في الغار يتصبب عرقاً ويدور بنظراته فيما حوله ويهتز مضطرباً من رأسه إلى أخمصه ثم يفرك عينيه ويمسح بيده جبينه العريض المضيء سمة من يخشى مكروهاً أصابه . ويزداد به الرعب فينطلق من الغار هائماً في شعاب الجبل لعل في هوائه ما يدفع عنه روعه . ها هو ذا يقف منصتاً كأنما يتأديه سناد من السماء . إنه الصوت الملائكى الذى كان يحدثه في الغار . وهو يحدق في مصدر الصوت ، ويرى صاحبه فيزداد فزعاً ويقفه الرعب مكانه وهو يلتقى بنظره إلى الجبل ويصرف وجهه يَمْنَةً ويسرة ثم لا ينفك يسمع ويرى . ليست حواسه إذن مصدر سمعه ورؤيته ؛ إنما مصدرهما روحه . وهو مع ذلك يراه لأنه تجلى بإذن الله له ولم يتجل لغيره . وهو من بعد في فزع يتقدم في شعاب الجبل ويتأخر ولا يبرح يسمع الصوت الملائكى ويرى صاحبه . ما أشد هذه الساعة هولاً ، وهى مع ذلك للإنسانية ساعة النور والرحمة والهدى !

رأى أصحابى واقفاً في شعاب حِراء على مقربة من فوهة الغار ؛ فأقبل علىّ أحدهم يسألنى أن نهبط الجبل قبل أن تدهمنا الظلمة وقد آذنت الشمس بالمغيب . وأقمت لسماع صوته مما كنت فيه ، وطلبت إليهم أن يأتونى بشربة ماء . وتناولت القدح وشربت من ماء « الجِعران » المثلوج فأعادنى شربه إلى الحياة المحيطة بى . وتهيأت للهبوط فجمعت قوتى ، وبدأنا جميعاً ننحدر في الطريق المتعرج و ( التكروى ) يتبعنا دون أن ينبس ببنت شفة . ولقينا رجل من الهنود وامرأته يصعدان ، فسألانا فى لكنة أعجمية عما بقى إلى القمة . وجعلنا نتلوى يمنا ويسرة منحدرين دون أن تكون بنا حاجة إلى الوقوف لنستريح ؛ ففى نسيم هذه

الساعة التي تتلو المغيب ما ينعش ويريح .

وألفيت صاحبي المكيّ الذي وقف دون القمة قد سبقنا إلى أسفل الجبل . فلما رأني سألني عن حالي واعتذر عن تخلفه في الطريق بجرح أصاب به الصخر قدمه . وأقلّتنا السيارة إلى المأوى وصلاة العشاء تكاد تؤذن . وشعرت وأنا أصعد الدرج إلى مخدعي أن بفخذى وساقى ألمًا ، وأفضيت إلى مضيفي بما أشعر ؛ فسألني : ما عسى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ؟ قلت ألف الجبال وتصعّادها وأحب خشونة العيش وشظفه ، فما يشق اليوم علينا كان رياضة له ، وما يعجزنا اليوم كان في متناول يده ؛ حياتنا متاع غرورنا ، وحياته متاع روحه ورضاه . والرجل لا يتمتع غروره في ناحية إلا على حساب الأخرى ، يتمتع غروره بقوة عضله على حساب عقله أو على حساب روحه ، ويمتع غروره بكثرة ماله على حساب خلقه أو حساب كرامته . أما متاع الروح بما يرضى الله فلاضعف فيه ، وهو القوة على كل شيء . ومتاع الروح الرياضة : رياضة الجسم بالسعي في مناكب الأرض ، ورياضة العقل بتدبر ما في الكون ، ورياضة القلب بالحب والإخاء . وذلك بعض ما رأيت وأنا فوق حراء ، وبعض ما شعرتُ به وأنا أنحدر عنه .

وبكرت إلى مضجعي حتى أهبتني مؤذّن الفجر عنه . وجلست بعد الصلاة أفكر في حراء ، وفي الغار ، وفي المسك ، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي يوم الرحى الأول . جلست أفكر والخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود من الفجر . وذكرت رسول الله بعد يوم الغار ، وتمثلت لي رسالته تتبين من خلال الظلمات المحيطة بها ، ظلمات الكفر والوثنية والشرك ، كما يتبين هذا الخيط الأبيض من ظلمات الليل البهيم . وجعل الضياء ينتشر حولي شيئًا فشيئًا كما انتشر الإسلام فأضاء الأرجاء بنوره . إذ ذاك توجهت إلى الله بكل قلبي ودعوته : اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . ربنا منك السلام وإليك السلام فحيّنا ربنا بالسلام .



وقمت عن مصلاى ممتلى\* النفس من مشهد الجبل والغار فوقه ، ومن مشهد  
يوم الوحي الأول حين أراد الله للناس الهدى فبعث به عبده ورسوله محمد بشيراً  
ونذيراً . وإننى اليوم لأذكر هذا المشهد ممتلى\* النفس من جماله وجلاله وهيبته ،  
عامر القلب إيماناً بهذا النور الذى أضاء العالم بالحق علّمه الله الناس بالقلم  
ولم يكونوا يعلمون .  
ربنا جل ثناؤك ، وتعال أعمائك ، لا إله إلا أنت ، بيدك الخير ،  
ومنك الهدى ، وإليك المرجع والمآب .

## في غار ثور

أما وقد آن لنا أن نغادر مكة إلى المدينة فهلم بنا إلى غار ثور . وأوما الإخوان الذين صحبوني في صعود حراء وفي جولاتي بالبلد الأمين وما حوله أنهم سيكونون في صحبتي . وقال اثنان منهم : وسنصحبك إلى المدينة ؛ فشكرتهما . ثم حددنا موعد الذهاب إلى ثور والصعود إلى غاره في الغداة . أو ليس الرسول عليه السلام قد احتمى به من كيد عدوه حين أزمع الهجرة إلى المدينة ! فلنذهب إليه ولنشهد أثر الرسول فيه ولنحسب بأفياء الصخور وظل الغار وإن لم يطاردنا عدو ولم ياتمر بنا ليقتلنا أحد . قال رجل من أفاضل المكيين لم يكن صحبنا من قبل : وأنا زميلكم في رحلتكم هذه إلى ملجأ رسول الله في هجرته ، وإن لم يكن بي إلى زيارة المدينة هذا العام عزم . وسألته فذكر أنه لم يصعد ثوراً ولم ير الغار من قبل ؛ ثم ابتسم وقال : إن مئات من الهنود والجاويين والصينيين وغيرهم ليتسلقون ثوراً ويصلون الغار في كل عام ، أما نحن أهل مكة فتصرفنا الحياة وشغلها عن الصعود إليه . ولم أجد في ذلك عجباً ، فالسائحون الغربيون الذين يجيئون إلى مصر أشد حرصاً من أهل مصر على مشاهدة آثار الفراعنة والرومان ومساجد العرب والمسلمين . والشرقيون الذين يزورون أوربا يرون من آثارها ومتاحفها أضعاف ما يراه أهلها . ذلك بأن المقيمين على مقربة من هذه الآثار والمتاحف لا يستعجلون زيارتها طمأنينة منهم إلى أنهم سيقومون بهذه الزيارة يوماً ما ؛ فأما الذين جاءوا من بلاد قاصية فلا يعرفون هل قدر لهم أن يعودوا ؛ ولذلك يحرصون على أن يروا كل ما يستطيعون رؤيته . وهؤلاء المسافرون قد جاءوا وفي برنامج رحلتهم أن يروا هذه الأماكن ؛ فأما المقيمون حولها فلديهم من مشاغل الحياة اليومية ما يحملهم على إرجاء زيارتها ، وكثيراً ما يطول هذا الإرجاء فلا تتم الزيارة أبداً .

ورحبت بصحبة صديقنا المكي لنا وقلت مبتسماً : لطالما يتحدث أهل مكة

عن آثار الرسول فيها ؛ فلعلك تفيدنا في هذه الرحلة بمعلوماتك عنها — ولم ير الرجل في حديثي هذا محلاً لدعابة بل قال : نعم ! فإن ما لدى من العلم بآثار مكة كثير وقفت عليه في بطون الكتب ومتون التاريخ ، ووفقت غاية التوفيق في بحثه وتمحيصه . وهل قصة يشوق الإنسان بحثها ما تشوقه قصة الهجرة ؟ هذه القصة التي لم يرو التاريخ قط مثلها من أنباء المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوة وروعة ! - رجل ثور وغاره يتصلان بهذه القصة أبلغ اتصال . وجدير بكل ما اتصل بها أن يخلد على التاريخ . وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد أصبحت الهجرة مبدأ تاريخ لذاتها ، فإنها فصلت على الزمان بين عهد الوثنية والشرك بالله وعهد التوحيد القائم على أسس الروحية والعقلية والحلقية .

كان الرجل يلقي هذا الحديث وبيانه يتدفق حماسة وإيماناً مع أنه لم ير ثوراً ولا صعد إلى الغار فيه ؛ إنما دفع إلى قلبه هذه الحماسة وأفاض على لسانه هذا البيان إيمانه بالله ورسوله . ثم إن أهل مكة قد ألفوا الحديث عن آثار بلدهم المقدس بلهجة تزيد المسلم حباً لهذه الآثار وحرصاً على رؤيتها ، وإن لم يكن المتحدث من أهل مكة قد رأى أثراً منها ، وإن أفضى إليك إذا خلوت إليه بأن التاريخ لا يثبت من هذه الآثار إلا الكعبة والحرم والصفاء والمروة وحراء وثوراً . فأما ما سوى ذلك فلا تنهض حجة موثوق بها على صحة أنه المكان الذي ينسب إليه . وقال أحد الحاضرين وكان قد صعد ثوراً إلى الغار من قبل :

— لولا قصة الهجرة لما ذكر ثوراً ولا ذكر الغار الذي بأعلاه ذاكر . فهو واحد من الجبال الكثيرة التي تحيط بمكة ؛ ليس أرفعها وليس أهبهاها ، وليس يمتاز عليها بشيء مطلقاً من حيث طبيعته . والغار الواقع في قمته لا يمتاز على أي غار آخر مما يرى الإنسان في جبال الحجاز وفي جبل ثور نفسه . أما وقد لجأ الرسول ولجأ الصديق معه إلى هذا الغار وأقاما به ثلاثة أيام ، كانا موقنين أثناءها بعثور الباحثين عنهما من فتیان قريش بهما وقتلهم إياهما ، فقد

صار هذا الغار علماً من أعلام التاريخ ومُنسكاً يحج إليه كثير من الناس ذكراً لهذه الهجرة التي كانت مبدأ فتح الله لرسوله ، ونصر الله دينه ، وإعلانه كلمة الهدى والحق .

وأقلتنا السيارة صباح الغد حتى بلغت بنا سفح ثور ، وهو يقع إلى جنوب مكة في طريق المنحدر منها إلى اليمن ، وتقوم على جانبه إلى اليمين وإلى اليسار جبال مشابهة له كل الشبه ، مع ذلك لا يعنى أحد بأن يعرف اسمها لأنها لا تتصل بجداث من حوادث التاريخ .

والذهاب من مكة إلى جبل ثور ميسور اليوم كما كان ميسوراً من قبل للسائر على قدميه ؛ لكنه العثار للسيارات لكثرة رماله وتنقل هذه الرمال مع الريح تنقلا يتعذر معه بقاء طريق تمهده السيارات صالحاً لسيرتها فيه . ولقد غاصت بنا السيارة غير مرة ، فنزلنا منها وأعنا سائقها على دفعها خلال الرمال أو على إزاحة الرمال من حول عجلاتها ، أو على رفعها إذا بلغ غوصها أن طمرت الرمال العجلات وجزءاً من قاع السيارة الأسفل . وبصبر بنا بعض الأعراب في إحدى وقفاتنا فأبأننا أن الطريق التي نسير فيها كانت سوية من أسابيح مضت ؛ وأن الطريق السوية انتقلت إلى بعيد عن يميننا ، وأن من الخير أن يعدل بنا السائق إليها عند عودتنا . فلما سألناه عن المكان الذي نصعد منه ثوراً أشار إلى بناء حقير على مقربة منا . وبلغناه فالفينا جماعة من أهل المنطقة جعلوا من هذا البناء مقهى يستريح فيه من يقصدون إلى الجبل ساعة صعودهم أو هبوطهم منه .

وما أظن أصحاب هذا المقهى يفيدون منه إلا قليلا ، خلا ما يصيبهم من جود من يقصدون ثوراً ومن لا يبتغون عندهم قهوة ولا شايًا . فالأكثر من هؤلاء يحملون معهم قوت يومهم لأنهم يمضون النهار بأعلى الجبل ؛ فإذا هبطوا كانوا أحرص على اللحاق بمكة منهم على تناول الشاي أو القهوة .

بلغت بنا السيارة هذه البنية التي يتخذها الناس علماً يهتدون به إلى موضع الصعود ، فترجلنا واتجهنا نحو الطريق الصاعد في سفح الجبل . وقد

خيل إلينا إذ رأيناه أن تسلَّقَهُ يسيرٌ وأنه أقل مشقة من الصعود في حراء أوفي جبال الطائف . كذلك كان شعورى وشعور الأصدقاء الذين جاءوا معى ، وكذلك قال لنا أهل المنطقة ، لذلك أقدمنا مقبلين على الصعود بنفوس مطمئنة وبالمستريح . ولم تكذب المقدمات ظننا على رغم حر الشمس في الضحى . ولم نر في صعود السفح عَسْتًا يصدنا عن المضى في طريقنا أو يدعونا لنستريح إلى ظِلِّ صخرة ما لم ينل منا التعب . صعدت ببصرى فخييل إلى أننا صرنا على مقربة من القمة . فهذا الجبل الذى نتسلقه قد أوفى على غاية ارتفاعه ، وهذا الجبل الذى يبدو أمامنا بعيداً عنا وأكثر من ثور ارتفاعاً لابد أن يكون فى سلسلة أخرى لأشأن لها بشور ولا بغاره . أن لنا إذآ أن نبلغ الغار وأن نطمئن إلى مجلس عنده ريثما نعود إليه ليحدثنا حديث الهجرة وينشر أمامنا مما طوى الزمن ما يفيض القلب بإجلاله وتقديسه . لكنى ما لبثت حينما بلغنا هذه القمة التى تتسلق السفح إليها أن ألفتها قمة وسطاً بين هذا السفح الذى ارتقىناه وذلك الجبل الذى كنت أحسبه فى سلسلة أخرى أكثر ارتفاعاً من ثور ، وأن ألفت بين السفحين طريقاً ممهداً يسير الصاعد عليه وكأنه برزخ بين الجبلين . وهو يطل على سلاسل جبال أخرى كان السفح الأول يجحبها عن النظر ، وعن جانبيه ينحدر سفحان إلى أودية لم أعن نفسى بالسؤال ما اسمها ، وأنا فى شغل بهذا الجبل المنقسم إلى جبلين وتسلقه .

فلما اجتزنا الجسر المهد إلى السفح من بعده سألت أصحابى : أليس بعده سفح ثالث قبل الغار ؟ ونفى أصحابى وأكدوا أن الغار فى قمة هذا السفح . وبدأت أتسلق كرة أخرى ، فإذا طريق التسلق وعمر لا يقاس طريق حراء إليه فى وعورته . كنت أراى مضطراً إلى الاعتماد على ساعدى أرفع جسمى كله بهما أحياناً لتخطى مضيق فى هذا الطريق لا أجد وسيلة إلى تخطية غير هذا الاعتماد ، وكنت أزحف أحياناً أخرى معتمداً بيدي على جدار الطريق من صخور الجبل مخافة الانزلاق ، فإذا أعيانى الجهد اعتمدت بظهري على صخرة ذات ظِل حتى تهدأ أنفاسى . ولن يبلغ منى الإعياء أن

يصلني عن غايتي من بلوغ الغار ما دمت قد فرضتُ بلوغه . فالإرادة الصادقة أقوى من كل مشقة في الحياة . فإذا عززَ الإيمانُ الإرادةَ وقلتَ للجبل انتقل من مكانك انتقل . وما مشقة الصعود إلى ثور وها هم أولاء أبناء المنطقة يهرعون إليه ويجرون في مساربه ومزالقه خفافاً كأنهم القطا ، ما ينوء أحدهم بشيء مما أنوء به ، فإذا اتجهت بإرادتي إلى بلوغ الغار فأجهدني ذلك فإنما يجهدني أنى استنمت من الحياة إلى الراحة في الحياة ، ناسياً أن الراحة سبيل التعب ، كما أن التعب سبيل الراحة ، بل سبيل النعمة في الحياة بخير ما وهبنا الله من أنعم الحياة .

بهذه الإرادة تقدمت في ارتقاء الجبل لا ينال الجهد الذي ألقاه من عزيمتي ولا يقل التعب من قوتي . كنت أتصيب عرقاً فأستند إلى الصخر وأمسح بمنديل عرقى وأعود فأتقدم مجتازاً من الطريق أشده وعورة . وكنت أجد أمامي من أسباب الانزلاق وخطره ما لا أتردد في التحايل عليه وتخطيه . وتعرضتُ صخرة مقوسة ؛ أنت في اجتيازها بين تسنُّمها ، وقد تهوى بك ، والانحناء للمرور من تقوسها وقد تهوى عليك ؛ فأنحيت ومررت غير عابئ . هذا وأشعة الشمس مسلطة علىّ منذ بدأت الصعود تزيدني جهداً ، وتزيد عرقى تصبباً . وإني لذلك إذ استدار الطريق إلى ناحية الغرب ، واحتجبت بذلك عن أشعة الشمس ، وأويت إلى صخرة جلست عليها أستريح كما تهدأ أنفاسي .

وبينا أجلس قال صاحبي الذي يتقدمني : هذا هو الغار ، فلم تبق إلا خطوة لتبلغه . وعدت أسير والطريق ، ثم رفعت بصري إلى مصدر الصوت فإذا صاحبي معتمد في موقفه على صخرتين متقابلتين ، وإذا به يشير بيده أن هلم . لكن الطريق زلّك والخذاء الذي ألبسه لا يستقر عليه ؛ فلألحاً مرة أخرى إلى الاعتماد بساعديّ فوق الصخور ، والاعتماد على قوتها في رفع جسمي . وفعلت ، فلم أتقدم إلا قليلاً . عند ذلك انحنى صاحبي وأدنى يده مني وطلب إلىّ أن أعتد عليها في صعودي ، ومددت إليه يداً مسها بالجهد وآذاها مس الصخور ؛ ولم يجنح إلى قوة يعينني بها ، فقد طفرت إليه فوق الحجر الزلّك طفرةً كنت بها إلى جواره . وصنعت صنعه فاعتمدت بقدمي

على الصخرتين المتقابلتين وأمسكت بىدى صخرة ألفتها معلقة فوق رأسى .  
هأنذا أمام فوهة الغار الذى احتفى به النبي العربى من كيد أعدائه حين  
أذن الله له فى الهجرة من مكة إلى يثرب ؛ وأمسك أنفاسى على شدة اضطرابها  
فى صدرى لأحرق فى داخله علتى أرى السر العظيم الذى يستجم منذ أربع  
وخمسين وثلاثمائة وألف سنة فى مهابة ظلمته . ووقفت حيث أنا مشدوها  
مأخوذاً لا أدرى أأتقدم للخطوة الأخيرة فيما بعد فوهة الغار إلى سطح القمة  
أنفياً ظل صخرة جاثمة تقوست فوقها تحميها من لظى الشمس أوقات الهجرة ،  
أم أظل حيث أنا ممسكة يدى بالصخرة حتى لا تنزلق قدى ، محدقاً من فوهة  
الغار فى داخله ، أم أدخل الغار لأقيم حيث أقام الرسول عليه السلام فى أدق  
الساعات التى مرت به منذ بعثه الله نبياً وهادياً ورسولاً ؟ وكنت أشد شوقاً  
للدخول إلى الغار والمقام به ما استطعت ، لولا أن حال زلتى الصخور حيث  
أقف دون تنفيذ هذا العزم لساعتى ، رغم جهد أنسيته أمام جلال المشهد  
العظيم .

ونظوت إلى القمة ونفيات ظل الصخرة قبل أن يدركنى أكثر أصحابى  
الذين تسلقوا الجبل معى . ولم تكن القمة فسيحة الأرجاء ؛ فربّعها لا يتجاوز  
الثلاثين متراً ، لكنها كانت ذات بهجة بظلمها وبالصخور المحيطة بها والتي  
تجعل منها بهواً تستريح النفس إليه ويطيب لها المقام به .

فلما هدأت أنفاسى تناولت شربة من الماء ، ثم قمت أدور حول الصخرة  
ومعى منظارى ، فشهدت مكة والحرم ، وشهدت ما وراء مكة إلى حد  
الأفق ، وشهدت الجبال بين ثور ومكة يتلو بعضها بعضاً ولا تستبين العين  
ما بينها من الطرق .

هذه إذآ أم القرى التى أخرجت محمداً منها لأنه دعا إلى الحق أهلها ؛  
وهذا البيت الحرام الذى أقامه إبراهيم وإسماعيل مثابة للناس وأمنناً يتوسطها  
وينفس عنها ؛ وهذه البادية الفسيحة الممتدة أمام النظر إلى غاية الأفق تدعونى  
أرجأؤها إلى التأمل وإلى الأناة وإلى تدبير ما فى الكون من حاضر أمام نظرننا ومن

غيب نتوسمه ولا نعلمه ، فليس يعلم الغيب إلا الله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

أدركني أصحابي وجلسوا يفتيئون ظل الصخرة ، وجلست إليهم ، وتناولنا الشاي إذ كنا نتناول بالقول انصراف المسلمين عن زيارة هذه الأماكن اتقاء المشقة وخوف ما يذكرونه عن بطش العرب في الماضي بمن ينقطع عن قافلته . وجعل القوم ينصرفون واحداً بعد واحد ، يقصد أحدهم إلى الغار ، ويدور الآخر حول الصخرة ، ويلتمس ثالث مسالك الجبل في غير الناحية التي صعدنا منها . فلما اطمأننت إلى وحدتي فوق القمة عدت بذهني إلى الليلة التي هاجر فيها الرسول ، فرأيته قائماً صدر الليل في داره يعبد ربه ويتلو كتابه ، ورأيت أبا بكر بداره في طرف آخر من مكة لا يطرق النوم جفنه ولا يدرى ما الله صانع به . لقد أسر محمد إليه أن الله أذن لهما في الهجرة ، فتي تكون ؟ وكيف تكون ؟ إنه أعدّ رحلتين تحملا لهما من مكة إلى يثرب ؛ لكنهما لن يخرججا بأعين الناس والناس لمحمد بالمرصاد وقد ائتمروا به ليقتلوه ؛ واللييلة موعده من الرسول فلينتظره وليصبر ، إن الله مع الصابرين . وهذا عليّ بن أبي طالب في دار محمد قد تسجى برده الحضرمي الأخضر ونام حيث ينام ابن عمه مبلبل النفس منذ أسر إليه أن ينتظر بمكة بعد مغادرته إياها حتى يؤدي ما لديه من ودائع للناس . وهؤلاء الفتان قريش بالباب وحول الدار ينظرون لعلمهم يصيبون من محمد فرصة يفتكون به فيها فتكة رجل واحد حتى يضيع دمه بين القبائل . والليل يردف أعجازاً وينوء بكلكل فيأخذ هؤلاء الفتان غمض ليس بالنوم ولكنه أدنى إلى الأرق ، ويخرج محمد من داره إلى دار أبي بكر فلا يراه منهم أحد ولا تقع عليه عين ، ويلبني أبا بكر في انتظاره أشد ما يكون شوقاً إلى هذه الساعة التي يهاجر معه فيها بأمر ربه .

نحن الآن في ساعة الهجود قبيل الفجر ، فليس بمكة همس ، ولست تسمع فيها ركزاً ؛ والرجلان يسريان متجهين إلى أقرب مخرج من مخارج مكة صوب الجنوب ، لا ينبس أحدهما ببنت شفة ولا يحس مسراهما أحد . ها هما ذان الآن قد خرجا بين الجبال ، وأن لهما أن يخرججا من صمتهما ليسر محمد



إلى صاحبه أنهما في الطريق المستقيم إلى ثور . ويلزمان الصمت كرة أخرى وإن أيقنا أنهما صارا من العيون بمنجاة ؛ فليس يدور بوهم أحد أنهما اتخذتا وجهة اليمن بعد أن هاجر المسلمون قبلهما إلى يثرب ؛ ومحمد مستغرق أثناء مسيره في التفكير ، فما يكاد يحس وجود أبي بكر إلى جواره ؛ ويتلفت ملتصقا بإياه فإذا هو يسير خلفه ، فيتتظره حتى يكونا كنفما إلى كنف ؛ ويعود محمد إلى تفكيره ، ثم يلتمس صاحبه فإذا هو قد سبقه يسير أمامه ؛ والجبال حولهما تشهد مسراهما وحيدين حيث لم يسر قبلهما في مثل هذه الوحدة أحد . ويفطن محمد إلى أبي بكر يسير تارة خلفه وطورا أمامه ، فيعجب ويسأله في ذلك ، فيجيبه صاحبه : يا رسول الله ، أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك . ويبتسم محمد وتنفخ قلبه المسرة لإخلاص صاحبه ويسأله : يا أبا بكر ، لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟ ويجيب أبو بكر في حماسة : نعم والذي بعثك بالحق ! وترسم على محيا محمد سيما الغبطة ، ويظل في انطلاقه هو وصاحبه إلى غايتهما يسعدهما نسيم الليل الرقيق حتى يبلغا أسفل ثور ثم يندفعا إليه يصعدانه . وما كان لهما أن يتخوفا من التصعيد مشقة أو عنتا وهما من أبناء الجبال ، قد ألفا خشونة العيش وألغا في المشقة النعماء المستعذبة .

ما أبهى هذه الصورة وما أعظم روعتها في نفسي ! لقد انتشرت أمام ذهني وأنا في مجلسي من القمة فتعلق بها قلبي ونقشت فيه نقشا . إن كثيرا ما يسرى رجلان أو تسرى قافلة جوف الليل في هذا الطريق ، طريق اليمن أو في طريق غيره ، وقد يكون لصورة هؤلاء السراة جمالها وعدوبتها ، لكنه جمال مادي وعدوية فنية ؛ فأما هذان الرجلان اللذان يسريان ، وقلبيهما مغمم بجذوة الإيمان المقدسة ، فرارا بإيمانهم إلى الله ممن يآتمرون بمحمد ليقتلوه ، فلمسراهما في النفس صورة أخرى ، صورة روحية بالغة غاية السمو ؛ صورة من يستهين بالحياة ومتاعها ، ومن لا يمسك عليها إلا حرصا على الحقيقة أن يبلغها الناس ، وأولهم المؤمنون به ، وإن ناله في تبليغها الأذى وأصابه العذاب .

ويبلغ الرجلان الغار ؛ فتقدم أبو بكر فاستبرأ المكان مما حوله ، ثم استبرأ الغار مخافة أن يكون به ما يؤذى الرسول . وصلى الرجلان شكراً لربهما ، ولجأ إلى الغار يحتميان به ويستريحان فيه من مشقة يومهما .

بلغت هذا الموضع من الصورة الذهنية التي ارتسمت في نفسي إذ عاد صاحبي الذي لزمى في صعودي وأعاني فيه . فلما رأيته لم أمهله أن قلت له : هلتم بنا إلى الغار نلتمس الدخول إليه . قال : خير لك أن تدور حوله وأن تدخل من صغرى فوهتيه ؛ فالدخول منها آمنٌ عثاراً وإن لم يكن أشد يسراً . ودرت ودخلت ووقفت ما أتاح سقف الغار لي أن أقف ، واطمأن صاحبي إلى سلامتي فتركني ومضى . وتلفت فيما حولي ثم طاب لي أن أجلس فجلست . جلست في شبه الظلمة التي تشتمل كل ما في الغار ، ونظرت إلى فوهته الكبرى وأسفت كما أسف غيري أن اجترأ أمير من أمراء المسلمين فأوسعها عن حسن نية ليسر الدخول لمن أراد . وهذه الفوهة الكبرى مستديرة يبلغ قطرها متراً أو نحوه ، أما الفوهة الصغرى فلا تبلغ نصف مساحتها . فإذا استوى الإنسان في الغار رأى سقفه يرتفع إلى حيث يستطيع أن يطمئن إلى مقامه فيه طمأنينة العابد المنقطع إلى ربه في خلوته .

جلست مكاني وحيداً ممثلي النفس من هبة هذا الغار الذي أرى إليه رسول الله وصاحبه نجاة بنفسيهما من قريش الظالمين . ومحت ظلمة الغار آية الزمن أمام بصيرتي وتمثّل لي اللاجئ العظيم في مجلسه هنا بهذه البقعة متوجهاً بكل قلبه إلى ربه يناجيه ويدعوه أن يصرف عنه كيد عدوه . وينقضي النهار وهو في مناجاته ودعواته وصلواته مطمئن إلى ربه واثق من نصره ؛ وصاحبه إلى جانبه مطمئن بطمأنينته . أما قريش بمكة ففي حيرة من أمرها كيف استطاع محمد الفرار ! فهي في حوار دائم تلتمس الرأي للعشور به وقتله . وعبد الله بن أبي بكر يقف على ما يأترون ويدبرون . وكان عبد الله قد عرف من أبيه حين الهجرة من مكة أنه سيلجأ مع النبي إلى غار ثور ، فكان إذا جنّ الليل ينطلق إلى الغار فيقص على محمد وعلى أبيه ما رأى وما سمع . وينطلق

عامر بن فهيرة مولى أبي بكر بأغنامه فينال الرجلان من ألبانها ولحومها طعام يومهما ، ثم يعود عبد الله بن أبي بكر ويعود عامر بالقطيع وراءه ليعفَى على أثره ، ويعود اللاجئان إلى عزلتهما بالغار والله معهما يسمع ويرى .

وقريش ما تنفك تأتمر وتدبر . فقد ذهب فتيانها الجللاء الموكلون بمحمد وقتله إلى كل ناحية مما حول مكة : ذهبوا إلى الشمال حاسيين أنه مسارح ليلحق بمن سبقه من أتباعه المسلمين إلى يثرب فلم يقفوا له على أثر ؛ وشرقوا وغربوا وتيامنوا وتياسروا وقصاصوا الأثر يحاولون أن يعرفوا أى طريق سلك فتذهب محاولتهم هباء . فليذهبوا إذًا إلى الجنوب من ناحية اليمن ، وإن كان سلوك محمد هذا الطريق مما لا يرد بالخاطر . وذهبوا إلى الجنوب وتسلقوا من الجبال ما تسلقوا وصعدوا ثوراً واقربوا من الغار الذى أوى الرجلان إليه ، وكانوا مع ذلك لا يميلون إلى الظن بأنهم سيصادفون من النجاح في الجنوب أكثر مما صادفوا في غيره من النواحي . وكان على مقربة من الغار راع لم يلبثوا حين رأوه أن سأله : هل رأى محمداً أو أبا بكر ؟ وهل عرف أين ذهبوا ؟ وأجاب الراعى :

— قد يكونان بالغار وإن لم أر أحداً أمه .

وسمع الرجلان هذا الحديث وسمعا وقع أقدام الفتیان وهم يتقدمون إلى ناحية الملجأ الذى تحصنا به . وسرت رعدة الخوف في عروق أبي بكر لما سمع ؛ فأمسك أنفاسه واقرب من محمد وألصق نفسه به وقد أيقن أنهما مأخوذان لا محالة بالتلايب فسوقان إلى مكة أو مقتولان دونها . أما محمد فبقى في سكينته ملتزماً الصمت متوجهاً بقلبه إلى ربه واثقاً من أنه لن يصيبه أو يصيب صاحبه مكروه . وتقدم أحد الفتیان حتى كان عند فوهة الغار ؛ فلو أنه حذق بعينيه اللتين اعتادتا الأبعاد واعتادتا الظلام لرأى الرجلين ولنادى أصحابه فأمسكوا بخناقهما . وبصره أبو بكر فتصيب من شدة خوفه عرقاً وازداد بالرسول التصاقاً . ولم تزايل محمداً سكينته ولم يزايله اطمئنانه إلى ربه . ودار الفتى حول الغار وتلفت يمنة ويسرة ، ثم عاد أدراجه . وسأله أصحابه :

مالك لم تنظر في الغار ؟ فهزّ كتفيه وأجاب : إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد .

تمثّل لي هذا المشهد كله وأنا مكاني بالغار ، وبلغ من امتثالي إياه أن كدت أسمع حديث المطاردين مع الراعي وأرى الفتى كما كان يراه أبو بكر ؛ وامتلاً قلبي رعباً من هول ما أرى وأسمع ، وشعرت بصيحة تكاد تنطلق من صدري وتفرج عنها شفتاي وكأني أهيب مستغيثاً بالذين يطاردوني : على رسلكم ! فهأنذا مسلمكم نفسي ورفقاً ! وما عسى أن أصنع وهذا مدركي ثم قاتلي لا محالة ! ففعل لي في التضرّع والاستغاثة من الموت منجاة ! وإن نجوت بعد هذه المغامرة فن ذا يلومني على الإذعان . هذا منطق إنساني لا غبار عليه . لكن الفتیان الجلدهاء لا يطاردوني بل يطاردون محمداً عبد الله ورسوله . ومنطق محمد ليس كمنطقنا ؛ لأن روحه ليس كروحنا وإن كان بشراً مثلنا . وخيل إليّ أني انتحيت ناحية من الغار وأني أشهد فيه محمداً وصاحبه . ما أشد أبا بكر جزعاً ! ها هو ذا يرتعد كأن به الحمى ، وها هما تان شفتاه تتحركان كأنما يريد أن يقول شيئاً . أما محمد فأحيط بهالة من جلال أفاء الله بها عليه سكينته ، فليس يهتز لشيء مما حوله ، وكأنما يطارد الفتیان شخصاً غيره . وطال بي ما أرى ، ثم تحركت شفتا أبي بكر فهو يهمس في أذن صاحبه : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » . وأسر الرسول في أذنه : « يا أبا بكر ما ظنك في رجلين الله ثالثهما » ! وفي هنيهة أضاء وجهه نور لألاء ثم تحركت شفتاه بما أسمع أبا بكر قوله : « لا تحزن إن الله معنا » .

ووجمت حين سمعت هذه الكلمة وحدقت في معالم أبي بكر فإذا به زايله الروح وسادت السكينة نفسه . ومم عسى أن يخاف والله معه ! إن الفتیان ليتحاورون على مقربة من الغار ، ثم يحاول بعضهم أن يتقدم نحوه ؛ فيردّهم صاحبهم الذي دار حوله ويدعوهم أن يتشروا في أنحاء الجبل لعلمهم يلقون نجاحاً . ويسمع أبو بكر هذا الحوار فلا يعاوده شيء من الروح الأول ولا تزايله سكينته لأنه أنس إلى صاحبه وأنس إلى ربه . ويتقدم هذا الفتى في منزل الوحي

الذي رآه أبو بكر منطلقاً إلى شعاب الجبل ويتبعه أصحابه ، وتبعد بهم خطاهم عن هذا المكان حتى لم يبق من أثرهم نبأ . فيتنفس أبو بكر الصعداء ، ويصيح رسول الله : « الحمد لله ، الله أكبر » .

آن لى أن أدع مجلسي بالغار بعد أن رأيت هذا المشهد التاريخي الفذ فامتلاّت نفسي من رؤيته إلى غاية ما تمتلئ النفس مهابة ورهبة . هذان رجلان يواجهان الموت ولا يخافانه ثقة بأن الله معهما ، والله مع من وثق به ؛ ومن لم يخف الموت في سبيل الله عنت له الحياة فلك زمامها . آية نفس مطمئنة هذه النفس الكبيرة التي لا تعرف غير الله ولا تثق إلا به ولا تخشى شيئاً في سبيله ! وآية أسوة أكبر من هذه الأسوة يضربها النبي العربي للناس في جميع الأمم ليعيشوا أعزة كراماً ، فيعيشوا بذلك كما يجب أن يعيش الإنسان ، وكما أمره الله أن يعيش ما أبقى له الأجل على حياة !

وخرجت من الغار إلى القمة ، فألفيت أصحابي جميعاً يستريحون إلى فيها . وتناولنا أقداح الشاي وقصصت لهم بعض ما مر بخيالي وأنا بالغار . قال أحدهم : وكيف تمثل لك موقفهما بعد انصراف الفتیان عنهما إلى أن غادرا ملجأهما ؟ كم أقاما بالغار بعد ذلك : يوماً أو بعض يوم أو أكثر أو أقل ؟ فكتب السيرة لا تحدثنا عن ذلك فيما قرأت ، وكل ما تحدثنا عنه أنهما أقاما بالغار ثلاثاً حتى خمدت عنهما نار الطلب ؛ فلما سكت الناس عنهما أتاها عبد الله بن أريقط ببيعيريهما اللذين استأجرا وبيعير له فسلك بهما إلى يثرب طريقاً غير الطريق الذي ألفه الناس ، أفما دار بخاطركم كم مرّ بين انصراف الفتیان ومجيء الإبل ؟

لم أكن قد فكرت في هذا ولا عنيت به . ولست أدري هل فكر غيري فيه . لكنني مع ذلك أجبت : أحسبهما لم يطل بهما المكث بالغار بعد أن مرت بهما هذه الساعة العصيبة التي تمثلت لي وأنا به . فهؤلاء الفتیان لم ينحدروا إلى الجنوب ميممين ثوراً حتى بدا لهم اليأس أن يجدوا محمداً في غير الجنوب من النواحي . فلما عادوا من بحثهم بخفي حنين أدرك اليأس قريشاً وألقت

سلاحها . وما لبث عبد الله بن أبي بكر حين رأى ذلك أن أخبر به النبي وصاحبه . وأكبر ظني أن ذلك حدث أمسية اليوم الذي عاد الفتيان بالخبيبة فيه إلى أهلهم بمكة ، وأن عبد الله استصحب أخته أسماء وأسرَّ إلى ابن أريقط أن يتبعهما ملث<sup>(١)</sup> الظلام ، وأن هؤلاء جميعاً التقوا قبل الفجر بأسفل ثور . فلما تحمل محمد وأبو بكر وسارا في طريقهما ميممين الشاطيء عاد عبد الله وأخته إلى مكة ولم يفطن إلى عودتهما أحد .

لم يعن أكثر الحاضرين بالإنصات إلى هذا الحديث ، ولم يعنهم أن يكون الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قد ترك الغار بعد انصراف الفتيان عنه بساعة أو بيوم أو بثلاث ليال . حسبهم أنه صلى الله عليه وسلم لجأ إلى هذا الغار ، وأن الله تعالى يقول فيه : «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » وحسبهم ما جاء في كتب السيرة من معجزة العنكبوت والشجرة والحمامتين . وما عسى أن يعجدي هذا البحث الذي دفع بي إليه صاحبهم ! وأية فائدة للتاريخ أن يكون اللاجئان قد نزلا من الغار بعد يوم أو يومين من خروج القرشيين للبحث عنهما ! هذه محاورات لا تقدم ولا تؤخر ، وقد تؤدي ببعض ادعاء العلم إلى التجديف باسم التنقيب والبحث تجديفاً مصدره الهوى ومبعثه الخيال السقيم .

وكأنما أراد أحد أصحابنا أن يظهر برمه بهذا الحديث ، فالتفت إلى أحد الإخوان من معنا وطلب إليه أن يسير معه إلى الغار ليدخله فيصلي ركعتين فيه ، وتركتنا وذهب لأداء هذه السنة المستعجة . فقد شعرت ، حين أديتها ، وأنا بالغار ، بفيض من الرضا يغمرني طمأنينة منى إلى أننى أصلى حيث

(١) ملك الظلام : اختلاطه .

صلى رسول الله . وشعرت وشعر من وجهه الحديث إلى بما في عمل صاحبنا من معنى الاحتجاج على حوارنا ، فأمسكت عن القول خشية أن يكون هذا الذى احتج معبراً عن رأى أصحابنا الآخرين وإن لم يظهر وا من البرم ما أظهر لإكراماً لى . أما من وجه الحديث إلى فلم يعبأ بشىء من هذا ولعله لم يفهم منه ما فهمت ؛ فقد وجه إلى الحديث ككرة أخرى ينبغى أن غاراً غير هذا الغار الذى زرتة ويزوره الناس يقع على مقربة منا بين القمة والغار المأثور ويسألنى : لم لا يكون هذا الغار هو الذى أرى الرسول إليه ؟

كان جوابى عن سؤاله أن قمت إلى هذا الغار الآخر مع شاب كان معنا والتمست إليه مدخلا . ونادانى الشاب من داخله ، ولم أعرف كيف سلك إليه سبيله ؛ ثم رأيتته تمتد يده من فرجة ضيقة لا سبيل إلى الانزلاق منها ، فذكر لى أن بالجانب الآخر منه فرجة أكثر سعة وأيسر سرباً . واستلقيت على ظهرى ودليت ساقى وانزلت شيئاً فشيئاً حتى احتوانى هذا الوكر الضيق الموحش . وخرج الشاب وتركنى أمتحن الرمل الذى يعلو قاع هذا الغار وأدور بنظرى فيه وما أكاد أستوى إلى جلسة أستريح إليها كما فعلت فى الغار الأول . ولم يكن خروجى من هذا الغار دون دخولى إليه عسراً ومشقة .

وألفتيت صاحبنا الذى دلف إلى الغار المأثور فصلى به جالساً فوق القمة فى ظل الصخرة مع سائر الرفاق . وبادرتة بالتحية أن يتقبل الله منه صلواته حيث صلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فرجا أن يتقبل الله منه ومنى . وسألنى الذى يجاورنى عما رأيت فى الغار الآخر ، وهل يسبغ العقل أن يكون هو الغار الذى أوى إليه الرسول دون الغار الأول ؟ ولم يكدهم كلامه حتى زأيت الذى صلى بالغار المأثور قد امتنع لونه وظلل الغضب وجهه وانطلق فى حدة يقول :

— ما هذا الكلام الذى لم يسمع به ولم يجرؤ على قوله من قبل أحد !  
 إن الأجيال المتعاقبة منذ عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لتحدثنا بأن هذا الغار الأول هو المأثور عنه صلى الله عليه وسلم أنه لجأ إليه وأنه هو الذى نزل فيه القرآن ؛ فما هذا التشكيك فيه يا شيخ . . ! ؟ أو قرأت فى كتب

السيرة أو في كتب الحديث ما يجعل لقولك شبهة من الحق حتى تفكر فيه ! ؟  
ونخشيت مغبة هذه الحدة أن يضاعفها الجواب عليها فقلت :

— فضلا عن أن الغار الأول هو المأثور فكل الدلائل تنهض حجة على صحة الأثر ، وتدلل على أن الغار الآخر لا يمكن أن يكون ملجأً للاجئء سويعات من زمان . فهو على ضيقه وانخفاض سقفه أدنى إلى القمة وأيسر لذلك أن يكتشف . وما دام الغاران متقاربين ، والالتجاء إلى المأثور والمقام به ثلاثة أيام أدنى إلى العقل ، فلا موضع لشبهة يثيرها إنسان بحجة الدقة والتمحيص ، أو بأية حجة أخرى .

تخطت الشمس للزوال وأن ننحدر إلى مكة . . ولم نكن قد جئنا بطعام يقيمنا طول يومنا ؛ وقد أوفى الماء واليزاد الذى معنا على النفاد . لكن مجلسنا إلى ظل الصخرة فوق القمة لذيد حقا ، والنظر منه إلى مكة وما وراءها من فسحة البادية بالغ من الجمال ما تود العين منه كل مزيد . أو ليس من الخير أن نبقى إلى المغيب ؟ إننا إذاً لتتقى شدة القيظ وما ترهقنا من ضيق حين انحدارنا ، ثم إننا إذاً لنستمتع من هذا المنظر الساحر بما يزيد ساعة الشفق سحراً .

أفضيت إلى أصحابي بهذا الذى رأيت ، وودّ غير واحد منهم لو نقيم إلى ما بعد المغيب ، وذكرنا يوم حراء وهبوطنا منه إقبال الليل وجمال الشفق على هذه الجبال الكثيرة المتتابعة حول جبل النور . والجبال التى تحيط بثور أكثر من تلك عدداً وأعظم ارتفاعاً .

لكن أصحابنا اعتذروا بأعمال لدى بعضهم لا سبيل إلى أن تؤجل . وهبوطنا من الجبل وأنا أجد فى الهبوط أكثر مما أجد فى الصعود من مشقة . وإنى فى ذلك لعلى خلاف الناس جميعاً إلا من كان مثلى . فصعود السلم أسهل لى من هبوطه وارتقاء الجبل لا يزعجنى ؛ لكن الانحدار منه يحدث لى شيئاً يشبه الدوار . وأنا أتقيه بأن أحصر نظرى بين قدمى حتى لا يقع على الهاوية أمامى أو عن جانبي . وبلغنا المقهى عند أسفل السفح ، فإذا أصحابى سبقونى إليه



واستراحوا به . فلما رأوني قاموا إلى السيارة فأقلتنا إلى الدار .  
لقد كان لقصة الهجرة في نفسى من المهابة أكبر نصيب ؛ ذلك كان شأنى  
منذ نعومة أظفارى . لكنى منذ سعدت ثوراً ودخلت الغار وتمثل لى به ما تمثل  
لى ، قد صرت أشد لها إكباراً وإجلالا . وهأنذا قد تركت مكة وسافرت إلى  
نواح من الحجاز مختلفة وعدت إلى مصر وقمت بأسفار أخرى ، وما أزال  
كلما ذكرت ثوراً والغار المجاور لقمته ذكرت قصة الهجرة فامتألت نفسى  
لها مهابة ورهبة .

أخطأ الذين يحسبون فى حياتنا المادية سبب سعادتنا أو سبب قوتنا ؛ إنما  
سعادتنا وقوتنا فى حياتنا النفسية . لنكن طلقاء فى البادية أو حبيسين فى الغار  
أو حيثما شئنا من أرض الله ، فنحن سعداء ونحن أقوياء بإرادة الله وإرادتنا  
ما وهبنا نفوسنا لله وفى سبيل الله نريد غاية سامية نحققها لإخوتنا بنى الإنسان .  
وهذا بعض ما يدعو محمد إليه حين يقول : « لا يكمل إيمان المرء حتى يجب  
لأخيه ما يجب لنفسه » .

هذه بعض العبرة فى ذلك الغار وقصته . وقصة الهجرة أكبر عبرة لقوم  
يعقلون .

## ظاهر مكة

كان وادى مكة خالياً إلا من بعض مضارب الخيام حين أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ولما جاءت جرهم ثم خزاعة فأقامتا بالوادي ، ثم لما تزوج إسماعيل من جرهم ، لم يُقيم أحد منهم جوار بيت الله بيتاً غيره ، بل تركوه قائماً يطوفون به أثناء النهار وزُلْفاءً من الليل ، فإذا جنّهم الظلام ذهبوا إلى الحِلِّ فقضوا ليلهم فيه . كذلك تجرى الروايات إذ تقص تاريخ مكة . وتزيد الروايات إلى ذلك أن قصياً ، الجد الخامس للنبي ، لما اجتمع له أمر مكة وأصبح الأمير المطاع فيها جمع قريشاً وأمرهم أن ينشئوا الدور فيها وأن يقيموا حول البيت ما شاءوا . وبنت قريش دورها حول الكعبة فلم يتركوا خالياً إلا مكان الطواف بها ، وتركوا بين كل دارين طريقاً ينفذ منه إلى المطاف . وسبقهم قصي إلى البناء في جوار الكعبة ، فأقام دار الندوة لأهل مكة جميعاً يجتمعون فيها يتحدثون ويتشاورون ويعقدون العقود ويتمون من أمورهم ما يريدون إتمامه .

أين كانت حدود الحرم أيام جرهم ؟ وأين كان هذا الحِلِّ الذي يذهبون للمبيت به حتى أمر قصي<sup>١</sup> بالبناء بالحرم ؟ يتعذر اليوم تحديد ما كان ذلك عليه في الأيام الحالية . وإن قوماً ليذهبون إلى أن الحرم قد كان محصوراً إذ ذاك في حدوده المعروفة اليوم ، والتي تعينها الأعلام القائمة على منافذ أم القرى . وهذه الأعلام قائمة اليوم في خمس جهات تحيط بمكة من نواحيها جميعاً . فممنَّ علمان عند الحُدَيْبِيَّة ، وهي التي يطلق عليها اليوم الشَّمْسِيَّة في طريق القادم من جدة إلى مكة ؛ وعلمان عند التنعيم في طريق القادم من المدينة إلى مكة ؛ وعلمان عند الجعرانة في طريق القادم من العراق ، وعلمان عند عرفة في طريق القادم من الطائف ، وعلمان عند آضاعة في طريق القادم من اليمن . والأعلام التي يشهدها الإنسان اليوم أحجار مستقنة النحت ترتفع عن الأرض قرابة متر

وتقوم متحاذية على جانبي كل طريق من هذه الطرق . وتختلف أطوال المسافة من الحرم إلى كل واحد من هذه الأعلام . فعلاًما الحديدية يقعان على نحو عشرين ميلاً من المسجد الحرام ، وعلماً التنعيم يقعان على نحو ستة أميال منه ، وعلماً الجِعْرَانَة يقعان على مسافة ثلاثة عشر ميلاً ، وعلماً عرفة يقعان على ثمانية عشر ميلاً ، وعلماً أضاعة يقعان على اثني عشر ميلاً . فأما ما يجيء وراء هذه الأعلام إلى مواقيت الحج فذلك هو الحل ، ومن وراء الحل تمتد الآفاق إلى أقصى الأرض في مختلف بقاعها وقاراتها .

يذهب قوم إلى أن الحرم كان محدوداً من عهد جرهم بالحدود القائمة هذه الأعلام عندها ؛ بل يذهب بعضهم إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول من نصب الأعلام تعظيماً للبيت وتشريفاً . ويقول آخرون : إن إسماعيل بن إبراهيم هو الذي نصب هذه الأعلام . ويذهب قوم إلى أن قصيباً هو الذي عين هذه الحدود حين أمر بالبناء حول الكعبة . ويقال إن عدنان أول من وضع أنصاب الحرم ، وإن قريشاً نصبتها بعد ذلك في عهد النبي وقبل هجرته من مكة . وفي قول يرجحه بعضهم أن النبي وضع حدود الحرم عام الفتح ونصب الأعلام حوله ، ثم نصبها عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم معاوية بن أبي سفيان ، ثم عبد الملك بن مروان ، ثم المهدي العباسي . وقد أمر جماعة من الملوك والأمراء بتجديد هذه الأعلام بعد ذلك . وأحدث ما تذكره الكتب من تجديدها أنه كان في سنة ٦٨٣ هـ بأمر المظفر صاحب اليمن . والحالة التي عليها الأعلام اليوم تدل على أنها جددت بعد ذلك غير مرة وأنها لا ترجع إلى أكثر من بضع عشرات من السنين .

فيما بين حدود الحرم ومواقيت الحج يقع الحل . وليس بين أعلام الحرم ومواقيت الحج أبعاد نائية إلا فيما بين مكة والجُحُفَة ، وفيما بين مكة وذى الحليفة . وتقع ذى الحليفة بظاهر المدينة ، وهي ميقات أهل المدينة ، منها أُحْرَم الرسول وأصحابه حين خرجوا إلى عمرة القضاء ، وحين خرجوا إلى حِجَّة الوداع . أما الجُحُفَة فتقع في منتصف الطريق بين مكة والمدينة وهي ميقات

المصريين والشاميين وكل من حاذها في البر والبحر . أما ميقات العراقيين فذات عِرْق على مقربة من الجِعْرانة . وأما ميقات النجديين فَتَقْرُن المنازل على مقربة من العُشَيْرَة . وأما ميقات أهل اليمن فَيَسَلَمَتِم ، وعلماء أضاعة يقعان بينها وبين مكة ، وهي لذلك تلى الجُحْفَة في بُعد مواقيت الحج عن مكة . وعند هذه المواقيت يُحْرَم المتبَلِّون للحج ويظَلُّون على إحرامهم حتى يدخلوا مكة ويتموا العمرة ثم يحلوا لإحلال التمتع ما لم يسوقوا الهَدْى معهم ينحرونه . فمن ساق الهدى فقد وجب عليه أن يبقى على إحرامه حتى يتم العمرة والحج جميعاً قازلاً غير متمتع .

أما فيما خلال أشهر الحج فشان ما بين المواقيت وأعلام الحرم كشأن الآفاق مما وراء المواقيت إلا لمن ذهب معتمراً إلى مكة ، فإنه يحرم من ميقات الحج إحرامه بالحج ، ولا يحل إحرامه إلا إذا أتم عمرته .

وقد جعل كتاب الله حرم مكة من البيت العتيق إلى هذه الأعلام مثابة للناس وأمنياً ، وحرم التعرض لصيده ولنباته وحيوانه . فلما أزمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة جعل كل همة أن يدخلها من غير أن يسفك دمًا . ولقد تم له ذلك إلا ما سفك دفعاً لاعتداء جماعة من قريش على جيش خالد بن الوليد . فلما كانت الغداة من يوم الفتح قتلت خزاعة رجلاً من قريش وهو مشرك ، فقام الرسول في الناس خطيباً وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ مِنْ حَرَامٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيءٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا أَوْ يَعْصِدَ فِيهَا شَجَرًا ، لَمْ تَحْلَلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي ، وَلَمْ تَحْلَلْ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ غَضِبًا عَلَى أَهْلِهَا ، أَلَا ثُمَّ قَدْ رَجَعَتْ كَحَرَمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، فَلْيَبْلُغُ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ . . . . » .

كان حرم مكة إذاً أمنياً من قبل إلى عهود بعيدة ، يذكر بعضهم أنها ترجع إلى أيام إبراهيم وإسماعيل كما قدّمنا ، وكان شأن الحل في أشهر الحج كشأن الحرم مدى السنة جميعاً . وما روى عن سرية عبد الله بن جحش يصور هذا

الأمر خير تصوير ، فقد بعثه رسول الله في رجب من السنة الثانية للهجرة على رأس جماعة من المهاجرين ودفع إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً . وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نَسْخَةَ بين مكة والطائف فَتَرَصِّدْهَا قَرِيشًا وَتَعَلِّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ » . وما لبث عبد الله ومن معه حين نزلوا نخلة أن مرت بهم غير قريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي ، وكان يومئذ آخر رجب ، ورجب من الأشهر الحرم . وتشاور المسلمون وقال بعضهم لبعض : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة لسيء دخلن الحرم فليمتنعن ، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام » . وترددوا ثم شجعوا أنفسهم وأغاروا على المشركين وقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا رجلين وعادوا إلى المدينة بالخير والأسيرين . فلما رآهم الرسول وعرف خبرهم قال لهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . وانتهزت قريش الفرصة فنادت في كل مكان : إن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال . ولقد ظل المسلمون في حيرة من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه حتى نزل قوله تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا » .

الفرق بين الحرم والحل والآفاق إذاً فيما خلا أمر الإحرام والمناسك ، أن الحرم يتحرّم فيه القتل والغزو والأسر طيلة العام ، وأن الحل لا يتحرّم ذلك فيه إلا في الأشهر الحرم ، في حين لا يحرم في الآفاق دم لم يحرم الله سفكه إلا بالحق . وحرم مكة فسيح كما رأيت ، لذلك لا تشغل عمارة مكة منه إلا أقله . فأما ما وراء عمارة مكة إلى أعلام الحرم فذلك ظاهر مكة ، ويعتبر أكثره من ضواحيها ، وهو

بعد بادية تتداول فيها الجبال والأودية نداولها في كثير من جهات البادية ،  
وقلّ أن تترامى فيه الصحراء تراميها في سائر أرض تهامة مما يلي البحر . وهذا  
التداول بين الجبال والأودية وما يكون أحياناً من ترمى الصحراء يجعل ظاهر مكة  
متغيرة ألوانه بتغير اتجاهه إلى الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب ، أضف إلى  
ذلك أن به من الأماكن الأثرية على التاريخ ما جعلني أحرص على أن أجوس  
خلاله وعلى أن أقف على أسراره . وما وقفت عليه من مظاهره وأبناؤه المتصلة  
بسيرة الرسول وبتاريخ الأيام الأولى التي سبقت الإسلام والتي عاصرتة هو الذي  
أدى بي إلى كتابة هذا الفصل ، كما أدى بي إلى كتابته ما أدركته من وحى البادية  
إلى العرب الأولين فيما خلفوا لنا من صور الشعر وأخيلته .

أقرب أعلام الحرم إلى مكة علما التنعيم ، ويخرج الإنسان إلى التنعيم  
من مكة في طريق القوافل إلى المدينة ، وقد أطلق على هذا المكان اسم التنعيم  
لاعتبارات تاريخية يسوقها واضعو تاريخ مكة ويختلفون عليها ، وأشهرها أنه يقع  
بواد يقال له نَعْمَان محصور بين جبلين اسم أيمنهما ناعم واسم الأيسر نَعِيم .  
ولعل أشهر حادث في تاريخ جهاد المسلمين على عهد النبي وقع عند التنعيم مقتل  
خُصَيْب بن عَدِي . وخبيب أحد المسلمين الستة الذين بعثهم النبي من المدينة  
في السنة الثالثة من الهجرة لإجابة لطلب رهط من هُدَيْل ليعلموهم شرائع الإسلام  
ويقرؤهم القرآن . وسار خُصَيْب مع رهط حتى بلغوا ماء هُدَيْل بالحجاز بناحية  
تُدْعَى الرَّجِيع ، هنالك خرج عليهم من هُدَيْل رجال بأيديهم السيوف وأرادوا  
أن يذهبوا بهم إلى مكة أسرى ، فأبى المسلمون وقاتلوا هُدَيْلاً حتى قتل أربعة منهم  
وأسر الرجلان الباقيان وأحدهما خبيب بن عدى . وذهبت هُدَيْل بهما فباعتهما من  
قريش ، إذ كانت لا تزال في نشوتها بيوم أحد . أما صاحب خبيب فقتل  
بمكة ، وأما خبيب فخرج به القوم إلى التنعيم ليصلبوه ، وصلى ركعتين ثم رفعوه  
إلى خشبة وأوثقوه إليها ، فنظر إليهم بعين فيها الغضب وصاح : « اللهم أحصهم  
عدداً ، واقتلهم بئداً ، ولا تغادر منهم أحداً » . وأخذت القوم الرهبة من  
صيحته ، فاستلقوا إلى جنوبهم حذرًا أن تصيبهم لعنته ثم أنهضهم البغي

فقتلوه وهو موثق مكانه .

أما الذكريات الدينية المتصلة بالتنعيم فأشهرها عمرة عائشة أم المؤمنين .  
 روى عن النبي أنه قال لعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : « أردف أختك  
 عائشة - فأعمرها من التنعيم ، فإذا هبطت بها الأكمة فمُرّها فلتُحْرِمَ فإنها  
 عمرة مُتَقَبَّلَةٌ » . وفعل عبد الرحمن وأحرمت عائشة من التنعيم وطافت وسعت  
 بعمرة . وقد بنى مسجد هناك باسم مسجد عائشة ، ذكر صاحب مرآة الحرمين  
 أن آخر من جدّه السلطان محمود في سنة ١٠١١ هـ . وخلف المسجد حوضٌ لحزن  
 المياه ، وصهريج كبير قديم كان يمتلئ من السيول ويتوضأ منه المعتمرون ،  
 ثم تخرب فأصلحه الوزير سينان باشا في سنة ٩٧٨ هـ ، وأصلح بئراً قريبة منه  
 وأقام عليها ساقية . لكن الصهريج والبئر أهملتا وعفنت عليهما يد الزمن .

ولما بنى عبد الله بن الزبير الكعبة بعد مهاجمة الحُصَيْنِ بن نُمَيْرٍ قائد يزيد  
 ابن معاوية إياه وتوهمته البيت ، خرج مع أهل مكة في ليلة الإسراء في السابع  
 والعشرين من شهر رجب لسنة أربع وستين من الهجرة فأحرموا من التنعيم وذبح  
 مائة بدنة ، وذبح كل واحد على قدر سعته . وقد بقيت هذه عادة أهل مكة  
 إلى اليوم .

والمقيم بمكة إذا فرض الحج أحرم من بيته بمكة ثم صعد إلى عرفات وعاد  
 بعد الحج فطاف وسعى . ذلك أن الحج عرفة ، فالإحرام للحج إنما يكون من  
 مكة ، إلا حاج جاءها يسوق هديه معه . أما من اعتزم العمرة وهو مقيم بمكة  
 فقد وجب عليه أن يغادر مكة إلى الحل فيحرم منه . والتنعيم أفضل أعلام الحرم  
 بعد الجعرانة ، ذلك أن عائشة أحرمت معتمرة من التنعيم . أما الجعرانة فقد أحرم  
 منها رسول الله بعمرة ، على ما ورد في كثير من الروايات .

ويقع التنعيم اليوم بظاهر مكة على الطريق إلى المدينة كما قدمنا . ويمتد  
 الطريق بعد التنعيم إلى وادي فاطمة ماراً بسرف حيث بنى رسول الله بميمونة  
 بعد عمرة القضاء . وتذهب أنباء السلف إلى أن قرية تدعى بأجج كانت قائمة  
 عند التنعيم ، كما أن سرف كانت قرية كذلك ، فأما اليوم فليس عند التنعيم

غير العلمين ، علمى الحرم ، وليس عند سرف شيء يدل عليها غير مسجد ميمونة . وأنت تسير من مكة إلى وادى فاطمة فلا تكاد ترى مظهراً لحياة فيما قبل هذا الوادى ، بل تحيط بك الجبال والأودية منسابةً بينها الدرب الذى تسير فيه القوافل صوب المدينة . وهذه القوافل تكثر أيام الحج كثرة تجعلك تلقاها كلما خرجت إلى هذا الطريق .

ويذهب أهل مكة إلى التنعيم كما يذهبون إلى الشهداء والزاهر للرياضة . والطريق إليها ميسور فى السيارة . ولقد ذهبت إليها غير مرة أستمتع بهواء الصحراء الصفو ساعة المغيب ، كما ذهبت بعدها إلى سرف وإلى وادى فاطمة ، فرأيت من حياة الصحراء ومن حياة البادية غير ما رأيت من حياة الصحراء فى مصر ، وما كان مقدمة لما رأيت من حياة البادية بالطائف وفيما حول المدينة . وقد كشفت لى حياة البادية هذه من وحيها لشعراء العرب فى الماضى ما لم تكشف الكتب التى درست فيها الأدب العربى ، فبدت لى معانيه فى وضوح شعرت به مذ رأيت حياة البادية بعينى وأحسستها بجوارحى إحساس بدوى يسير مع أهل الحجاز ويعيش عيشهم . ولقد آمنت بعد الذى رأيت من ذلك بأن الشعر ثمرة بيئته حقاً ، وأن الفن والأدب هما أصدق صورة للبيئة التى ينشأن فيها .

لى بمصر صديق مُدَلِّهٌ بالأدب شديد الإعجاب بأبى نواس كثير التريد لبيت له يتهكم فيه بشعراء العرب الأولين ، ذلك قول ابن هانى :

قل لمن يبكى على رسم دَرَسٍ واقفياً ، ما ضرَّ لو كان جلس !  
وكنت أشارك صديقى فى الإعجاب بهذا البيت وبدقة النكتة وبالتهكم اللاذع فيه . فلما خرجت إلى التنعيم ثم إلى سرف وإلى وادى فاطمة ورأيت القوافل متجهة صوب المدينة ورأيت إبلا تنقطع عن القافلة وتسير فرادى وعلى هون ، ذكرت هذا البيت من شعر أبى نواس فلم يثر منى إعجاباً ولا طرباً ، بل سخرت منه ومن أبى نواس . فهذه البادية المترامية الأطراف يرتحل أهلها البدو من مكان إلى مكان ، يضربون خيامهم إذا نزلوا ، فإذا ارتحلوا درس رسمهم ، ليس فيها معنى أبعث للتشوق وللحنين من هذه الرسوم الدوارس ، كانت إلى أمس عامرة بمن جاء



إليهم هذا السائر على بعيره يحث مطيته من بعيد وقد براه الشوق إلى محبوبته ،  
 وما هوذا يراها اليوم خلاء تحمّل أهلها ولم يتركوا بعدهم أثراً. ماذا تراه يصنع وقد  
 ذهب أمله في لقاء المحبوب هباء ؟ أفيجلس ليبكي ! أم هو يقف ساعة ثم يستحث  
 بعيره قافياً أثر هؤلاء الذين جاء في طلبهم ، وليس أمامه في هذه الساعة التي يقف  
 فيها من يتحدث إليه أو من يسأله إلا هذا الرسم الدارس يبت له شوقه ويعلن إلى  
 صمت البادية عنده وجده ؟ ! وهو فيما يفعله من ذلك صادق العاطفة بليغ  
 التعبير عنها .

من عيون قصائد الشاعر الفرنسي « لا مارتين » قصيدة البُحيرة . وأبداع ما في  
 هذه القصيدة تحنان الشاعر لأيام كانت تجيء فيها محبوبته إلى شواطئ هذه  
 البحيرة ، بحيرة ليان ، فتقف معه عندها ، ويستلهمان معاً وحيها وتوحى إليه هي  
 مزيداً من المتاع بجمالها . والبادية والرسم الدارس فيها ، والحين إلى من تركوا  
 وراءهم هذا الرسم حين ارتحلوا ، والشدو بما خلفوا وراءهم في قلب الحب من  
 لوعة ، لا يقل في بهاء روعته الشعرية عن البحيرة وموجها والجبال المحيطة بها  
 والسماء المطلّة عليها . فإذا تحدّث بعد ذلك عن هذه الرسوم الدوارس من لم  
 يشهدا ، بل تحدّث عنها مقلداً ، فثله في ذلك كمثل من يتحدث عن البحيرة  
 مقلداً « لامارتين » من غير أن يشعر بشعوره . أما وحي البادية البديعة في صفاء  
 جوها ورهبة صمتها وموج رملها وتتابع هضابها وجبالها ، فما يلهم الشاعر الصادق  
 العاطفة عيون الشعر وغرر الصور والإحساس والمعاني .

اجتازت السيارة بنا يوماً علكمى التنعيم قاصدة وادى فاطمة ، وظلت في  
 مسيرها حتى بلغت بنا سرف ووقفت منه عند مسجد ميمونة أم المؤمنين . وقل من  
 يعرف اليوم اسم « سرف » أو يُطلق على المكان اسماً غير مسجد ميمونة ، فقد  
 درس هنالك كل ما سوى المسجد ، ولم يبق من المسجد إلا أطلال دوارس .  
 وتخطت السيارة القوافل القاصدة إلى المدينة وانفسح أمامنا واد تموج جنباته بالرمال  
 وتقوم الهضاب على جانبيه . وتمهلت السيارة حيناً ، فأدرت البصر فيما حولي ،  
 ما أجمل هواء الصحراء ! وما أجمل هذا الفضاء المترامى صمته فلا نسمع فيه

هسيساً أو نبأة ! كم مرّ ها هنا من أقوام لم يذروا من بعدهم أثراً نذكره ، وكان لهم على الحياة من فسيح الأمل ما لنا اليوم . وستنقضى كما قضوا ، وسيمر بعدنا من يقول عنا ما نقوله عن قبلنا . لكن التاريخ لا ينسى قوماً مروا بهذا المكان آتين من المدينة معتمرين يريدون بيت الله ثم صدّهم المشركون عنه وكادت الحرب تنشب بينهم حتى عقد رسول الله معهم عهد الحديبية . ولكن التاريخ لا ينسى هؤلاء القوم حين جاءوا بعد ذلك بعام فدخلوا مكة وطافوا بالبيت وأتموا مناسك عمرة القضاء وأقاموا بمكة ثلاثة أيام والرسول على رأسهم ، ولا ينسى أن قريشاً جلت أثناء هذه الأيام الثلاثة عن مكة نزولاً على حكم العهد الذي وقع بالحديبية في العام الذي قبله . وبعد ثلاثة الأيام خطب رسول الله ميمونة إلى عمه العباس . ثم جاء بها بلال إلى سرف فبنى محمد في خيامه بها . والتاريخ لا ينسى عشرة آلاف من المؤمنين جاءوا بعد ذلك بستين ومحمد على رأسهم يغذون السير ليفتحوا مكة ، فيدخلونها ولم يلتحموا في حرب ولم يسفكوا دمماً . والتاريخ لا ينسى بعد ستين آخرين مائة ألف من المسلمين مروا بهذا المكان والرسول على رأسهم وقد فرضوا حج البيت على أنفسهم ، ولا ينسى طوافهم وسعيهم ووقوفهم بعرفة وقضاءهم مناسك الحج جميعاً . نعم ! لا ينسى التاريخ أولئك المسلمين الأولين الذين مروا بهذا الدرب آتين من المدينة لأنهم هم الذين فتحوا مكة ، وهم الذين قضوا على عبادة الأوثان ، وهم الذين أقرروا التوحيد في العالم . ونحن الذين نسير اليوم في عشرات الألوف وفي مئات الألوف من كل عام متخذين هذا الدرب الذي مروا به طريقنا بين مكة والمدينة إنما نسير على نهجهم ، نبتغي أداء فرض الحج ليغفر الله لنا ذنوبنا ، لا نريد بمسيرنا غزواً ولا فتحاً ، ولا نخاف أن تصمد قريش لقتالنا لتصدنا عن بيت الله . ما أعظم الفرق بين مسيرنا ومسير أولئك المسلمين الأولين ! هو الفرق بين المجاهد الذي يفتح الطريق عنوة ، مخاطراً بحياته ، غير مبال يتسم أولاده وحن ذويه وشقاهم ، ومن يسير في الطريق الذي عبده المجاهد ، لا يخشى أن يصيبه من بأساء الحياة وضرائها إلا ما يصيب غيره ، دون أن يكون له في ذلك فضل الجهاد وفضل الإقدام .

وحين بلغنا سرفَ نزلنا من السيارة وزرنا مسجد ميمونة . وهو قائم اليوم وسط الصحراء في عزلة الناسك ، إلا أن يزوره من يقصد إلى زيارته . فأما قبل أن يحل النجديون بالحجاز ويتولوا حكمه فقد كان أهل مكة يزورون هذا المسجد زرافات وقيمون حوله ويشربون من البئر المقابلة لبابه في الثالث عشر من شهر صفر من كل عام . وكانت أنباؤهم تدعو كثيرين من الحجيج إلى زيارته تبركاً بقبر أم المؤمنين ميمونة . فلما حل النجديون بالحجاز واحتلوا مكة كانت القبّة القائمة على هذا القبر بعض ما هدموا ، وكان تحريم زيارة القبر والتبرك به بعض ما صنعوا . لذلك انصرف الناس عن زيارة القبر والمسجد ، وأصبح هذا المكان خلاء لا يكاد ينزله إلا من قصد إلى الوقوف عنده ومعرفة أمره .

ومسجد ميمونة أفسح من مساجد مكة ، وهو خير منها نظاماً وأجمل بناء . وجدرانه من الخارج تشهد بأن عمارته ليست بالغة في القدم ؛ فقد حاولت أن أقف على تاريخ بنائه فلم أجد في الكتب القديمة شيئاً عنه . وكل ما رواه الأزرقى في كتابه (أخبار مكة) عن قبر ميمونة قوله : « قال أبو الوليد : وقبر ميمونة بنت الحارث الهلالي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهي خالة عبد الله بن عباس ، على الثنية التي بين وادي سرفَ وبين أضواء بني غِفَار . ماتت بسرفَ فدفنت هنالك » . وكانت وفاة الأزرقى في القرن الثالث للهجرة . ولم يذكر الأزرقى ولا ذكر الذين جاءوا من بعده ممن دونوا تاريخ مكة ما يدل على وجود مسجد على قبر ميمونة في أيامهم ، فلا عجب أن يكون المسجد قد استحدث في عهد متأخر ، وأن تكون القبّة قد بنيت على القبر للتبرك في العصر الذي أصبح التبرك بالقبور وبناء القبّاب فوقها والمساجد حولها بعض ما يؤمن به جماعة من المسلمين .

ويرتفع مسجد ميمونة عما أمامه من أرض البادية ، ولكنه يتصل في ارتفاعه بما خلفه من هضبة لا ريب أنها الثنية التي أشار إليها الأزرقى إن كان المسجد قد بنى فوق القبر حقاً ، وأغلب الظن أنه بنى فوقه . ويصعد الإنسان إلى باب المسجد بضع درجات فيجد الجُدْرَ مما حوله أرفع من جُدْر مساجد مكة ،

ويرى في شُرف البناء حلية من أقواس صغيرة متتابعة تُعيد إلى الذاكرة الطراز العربي ، ثم يرى أمامه عقدين من ورائهما المحراب ، ومن وراء المحراب القبر مكشوفاً إلى السماء بعد أن هدمت القبة التي كانت فوقه . وليس يفرش أرض المسجد حصير ولا فرش أيّاً كان نوعه ، مما يدل على أنه غير مقصود ، فشأنه في ذلك شأن غيره من المساجد خلا المسجد الحرام .

وعدنا إلى السيارة فانطلقت بنا في الطريق بين المسجد والبئر وبلغت بنا وادي فاطمة بين العصر والمغرب . تباركت ربّي ! هذا اليوم الذي جئنا فيه إلى هذا الموضع هو يوم السبت الرابع عشر من شهر مارس . ثمانية عشر يوماً قد انقضت إذاً منذ غادرت مصر . وهأنذا لأول مرة من يومئذ أشعر بنشوة الطرب لمراى الحضرة الناضرة والزرع البهيج . نعم ! فالوادي الذي كان أجرد قاحلاً قد استحال جنة يانعة تجرى فيها جداول المياه ، وتقوم على جانبيها زروع مختلفة من نبات وشجر ، وتتفسخ خضرتها عن ابتسامة عذبة تهون من وحشة الرمال والهضاب التي كانت تحيط بي مذهبت الحجاز . لقد شعرت لمراى النبات في هذا الوادي كأنما وجدت شيئاً فقدته ، وأحسست ما يحسه أبناء مصر — بلد الخصب والنماء — من الشوق والوحشة إذا التمسوا مظاهر الخصب والنماء فلم يجدوها ! وعلى حافة وادي فاطمة قامت أكواخ أكواخ أهل العزب من سكان مصر . وأحسن أبناء هذه الأكواخ استقبلنا حين سرنا في حذر على حافة الجدول نستنشق عقب الحضرة والحياة ، فجاءوا لنا برداء جلسنا عليه ، ودعونا إلى قهوة اعتذرنا عنها شاكرين . ووضعت في الجدول يدي وأنا بمجلسي على الرداء كأنى في ريب من مسيل الماء فيه ، أو أنى أردت أن أضيف إلى شعوري المعنوي بالمسرة شعوراً مادياً بمصدر هذه المسرة . وجاء أحد الغلمان من أهل الوادي بأبراج من قطن قيل لنا إنهم يزرعونه ، وذكروا لنا أنهم يعيشون بالكثير مما ينبتون من الخضر إلى مكة ، وأما ما ينبتون من الفاكهة فقليل .

وأقمنا زمناً على حافة الجدول ، ثم قمنا ندور في أنحاء هذه الحقول حتى أذنت الشمس بالمغرب . هنالك استأذنا القوم وعدنا إلى سيارتنا فأقلتنا إلى مكة ، ولشدة ما كان اغتباطنا حين سمعنا ونحن على مقربة من التمتع غناء مصرياً

تردده قافلة تقصد المدينة على طريقة غناء الحجاج . فلما جاوزنا التنعيم ألفتني فرح القلب بما رأيت من ماء وخضرة وما سمعت من غناء ، وإن كان الماء جدولا وكانت الخضرة قليلة ولم يكن في ترجيع الغناء من سبب للطرب إلا أنه مصرى . ما لي لا أقنع بالقليل يوم أحصل عليه ! بل ما لي لا أجد فيه غاية النعمة ولذاذة العيش ! أليس هذا القليل خيراً من كثير تخصّ به النفس وكثيراً ما يورثها الملل !

\* \* \*

أدنى أعلام الحرم إلى مكة بعد التنعيم علّمنا الحديبية وعلّمنا الجعرانة . وقد مررت بعلمى الحديبية ليلاً حين مجئنا من جدة إلى مكة أول ما وصلنا الحجاز مُحرمين ، ثم مررنا بهما بعد ذلك نهراً في طريقنا من مكة إلى جدة لتتخذ طريقنا منها إلى المدينة . والطريق بين مكة وجدة عامر بالمارة أكثر مما سواه من الطرق لكثرة المتنقّلين بين البلدين من أهل الحجاز ، بلكه الحجاج . لذلك يمر الإنسان في الطريق من مكة إلى الحديبية بمشرب قهوة يقف عنده بعضهم إذ يخرجون من مكة يستشقون هواء الصحراء ، فأما ما بعد مشرب القهوة فالرمال والهضاب حتى نصل الحديبية . هنالك يجد الإنسان فندقاً من الفنادق التي أقامتها حكومة الحجاز لينزل بها من شاء . واسم الفندق أدنى هنا إلى الحجاز منه إلى الحقيقة ، فتلك منازل قائمة في الصحراء بها غرف ضيقة في بعضها فرش لمن أراد النوم ، ولعل فندق الحديبية من خيرها . ومن بعد الفندق وعلى مسافة غير قليلة منه يجد الإنسان مسجد الرضوان ، وهو مربع مكشوف نصفه إلى السماء مسقوف نصفه الآخر بعقود الحجر تقوم على ثلاثة عمد ، وقد كتبت بأعلى محرابه هذه العبارة : « هذا مسجد بيعة الرضوان ، ماثرة من مآثر حبيب المنان ، عمّره الفقير إلى رحمة الرحمن ، المغفور له السلطان محمود خان سنة ١٢٥٤ هـ » . وتجرى الرواية بأن هذا المسجد أقيم في الموضع الذي كانت تقوم فيه الشجرة التي بايع المسلمون رسول الله تحتها بيعة الرضوان . وقد أمر عمر بن الخطاب بقطع هذه الشجرة من خوف أن يفتن المسلمون بها لورود ذكرها في القرآن فيتخذوا منها

مَنَسَكًا من المناسك يحجون إليه . وكان عمر رضى الله عنه حريصاً غاية الحرص على أن يظل التوحيد في صفائه لا تشوبه شائبة ، ولا يرضى أن يسبغ المسلمون على هذه الأماكن من التقديس ما يخاف معه الشرك ، ولا يرضى أن يكون التقديس لمكان غير بيت الله ، وألا يحج المسلمون إلا إياه .

ولقد وقفت عند مسجد الرضوان هذا ، وجعلت أصور لنفسى موقف المسلمين الذين صحبوا محمداً قاصدين العمرة ثم بايعوه في هذا المكان على جهاد المشركين ، وأذكر ما كان من سياسة محمد مع ذلك وحرصه على السلم حتى كان عهد الحديبية فتحاً مبيناً . فقد جاء المسلمون معه يريدون الطواف بالبيت معتمرين ، فلما سمعت قريش بمسيرهم قررت أن تحول دون دخولهم مكة ، حتى لا يقال : دخلها محمد عليهم عنوة . وعقدت لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين . وتراءى الجمعان وأبدى المسلمون استعدادهم للقتال . ولكن النبي لم يخرج غازياً بل خرج حاجاً ، وهو قد خرج مسالماً لا يريد حرباً ، لذلك انحرف بمن معه عن طريق مكة وساروا حتى بلغوا الحديبية وهناك نزلوا . وأوفدت إليه قريش من يسأله : ما الذى جاء به ؟ ولم يعجب قريشاً أن اقتنع رسلها بأنه جاء حاجاً لا يريد حرباً ، بل أوفدت غيرهم ثم غيرهم . ورأى رسل قريش تحفز المسلمين للحرب لولا حرص النبي على السلم ، لكنهم لم يستطيعوا إقناع أهل مكة بما رأوا . هنالك أرسل النبي عثمان بن عفان سفيراً إلى أهل مكة . وغاب عثمان عندهم حتى ظن المسلمون وظن النبي أنه قتل ، وعظم عليه هذا الغدر من قريش ، فدعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة في الوادى فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت ، وهنا كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . ولما أتم القوم البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان . وإن المسلمين ينتظرون يوم الظفر أو يوم الاستشهاد إذ علموا أن عثمان لم يقتل . ثم جاءهم عثمان يروى نبأ قريش وأنها أيقنوا أن النبي وأصحابه إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت ، لكنهم وقد تأهبوا للقتال لا يستطيعون أن يدعوه يدخل مكة أو تتحدث العرب بأنه دخلها عنوة بعد

أن هزمهم ، وبذلك تسقط في نظر العرب مكانتهم ، لذلك هم يصرون على موقفهم منه ، موقف الخصومة إلى أن يجدوا من خوف العار مخرجاً . وتفاوض رسل قريش مع الرسول وانتهوا إلى عهد الحديبية أن تتهادن قريش والمسلمون ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة هذا العام على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام .

جعلت وأنا بموقفي من مسجد الرضوان أصور لنفسى هذا الموقف من مواقف رسول الله ، فيبلغ من الإعجاب بالحكمة السياسية التي أملت عليه خطته ، والتي جعلته يرغب عن القتال ويحرص على السلم ويبلغ من ذلك حتى يغضب عمر بن الخطاب على قوة إسلامه وعظيم إيمانه ، ثم تشهد الحوادث بأن خطته كانت الحكمة حقاً ، وأن ما أغضب عمر وأكثيرين من أصحاب الرسول من طول أناته وعظيم صبره وجميل محاسنته لخصمه ، إنما كان الفتح المبين الذي مهد للإسلام أن يزداد انتشاراً وللمسلمين أن يفتحوا مكة بعد عامين اثنين من صلحهم . وكذلك كان عهد الحديبية حجراً لا ينقض في سياسة الإسلام والمسلمين .

وتقع الجعرانة إلى الشمال الشرق من مكة ، على حين تقوم الحديبية إلى الغرب المنحرف شمالاً منها . ويقع طريق التنعيم وسرف ووادى فاطمة وما وراء ذلك فيما بين الحديبية والجعرانة . والذاهب إلى الجعرانة ينحرف عن طريق السيارة إلى الطائف مغرباً إلى الشمال بعد أن يبلغ من طريق الطائف منتصف ما بين حراء والشرايع . ولا يشير كثيرون إلى الجعرانة على أنها من أعلام الحرم ، لأنها لا تقع على طريق متصل بما وراء الحجاز من بلاد يقام لأهلها ميقات الحِلّ كى يحرموا عنده حين مجيئهم إلى مكة معتمرين . لكن ما بقي للجعرانة على التاريخ من ذكر ، وما كان من إحرام الرسول صلى الله عليه وسلم منها عام حَسَيْنِ إحرام العمرة ، قد جعلها أفضل مكان في حرم مكة للإحرام بالعمرة . من تسم كان الحديث عن حرم مكة وأعلامه لا يتم إلا إذا تناول الجعرانة ، وكان المؤرخ الذي يسير في أثر الرسول وينسى الجعرانة قد نسى موقعاً في تاريخ الإسلام مذكوراً . وهذا ما استحسني للذهاب إليها والوقوف عندها

والشرب من مياه بئرها والتصعيد في الهضاب المحيطة بها .

روى الأزرقى في (تاريخ مكة) أن النبي لما غزا حُنَيْنًا وحاصر الطائف ثم رجع منها اثنتى في طريقه نحو مكة إلى الجعرانة ، « فقسم بها مغنم حنين في ذى القعدة ثم دخل مكة ليلاً معتمراً فطاف بالبيت وبين الصفا والمروة من ليلته ، ومضى إلى الجعرانة فأصبح بها كبائت ، فأنشأ الخروج منها راجعاً إلى المدينة فهبط من الجعرانة في بطن سرف » حتى لقي طريق المدينة من سرف . وذكر القاسى في (شفاء الغرام) أن النبي أحرم من المسجد الأقصى الذى تحت الوادى بالجعرانة ، ولم يجز الوادى إلا محرماً ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ، وأن أهل مكة يحرمون كل عام من الجعرانة ليلة سبع عشرة من ذى القعدة ، وربما أحرموا منها العشى في السابع عشر إذا خافوا من الإقامة بها إلى الليل .

وبالجعرانة مسجد يقابل البئر ، وهو مسجد من طراز مساجد مكة ، وقد ذكره الأزرقى في تاريخه ، فدل بذلك على قدمه ، وأضاف أن عمرة النبي قد كانت من المكان الذى يقوم المسجد اليوم به ، وأنه خرج في عمرته هذه إلى مكة ليلاً وأصبح بالجعرانة كبائت ، لذلك خفيت هذه العمرة على كثير من الناس . ومسجد الجعرانة اليوم أدنى إلى أن يكون أثراً . أما بئرها فعنى بها ، أقيم بناء مستدير حول فوهتها وعلقت فيها دلو يشرب الناس منها . وذلك أن ماء هذه البئر عذب ليس كمثلها بمكة ماء ، والموسرون من أهل مكة يؤثرونه على ماء زُبَيْدَة ويجيئون به إلى دورهم لأنه أصلح من كل ماء غيره . وأشهد إنهم لصادقون ، فلطالما شربت من هذا الماء بمنزل مضيبي فلذت لى عذوبته وأعجبتنى رقتة .

والطريق من مكة إلى الجعرانة طريق صالح للإبل وللسيارات جميعاً . يخرج الإنسان من مكة حتى يحاذى حراء ويكون في أول طريق مِئْنَى ؛ هنالك ينطف يسرة بين الجبال دائراً حول حراء . ولقد استمهلت السائق فسار مبسطاً في هذا المنعرج كما أملاً ناظرى من جبل النور في عزلته ولما أكن قد صعدت



إليه ، وكان لى بالوقوف أمامه وبالتحديد فيه من الشخف ما ازداد بعد أن وقفت أمام الغار الذى نزل الوحي الأول على الرسول فيه . ثم انبعثت السيارة فى طريقها بين الجبال حتى نفذت بنا إلى فرجة واد ضيقٍ نَمَتَ فيه أعشاب اتخذت منها الإبل مرعاها ، فهى تمرح منها فى كلاً تجد فيه الشبع والنعمة ، وهى تسير أسراباً فى رعيها لا يحول بينها وبينه وعث الطريق ولا التصعيد فى الجبال . ولشدة ما كانت دهشتى حين رأيت بعضها يتسلق الهضاب إلى قممها يبحث فيها عن أسباب العيش . فقد ألفت جمالنا فى مصر رقيقة العظم على ضخامتها حتى ليبلغ أحدها حجم اثنين من جمال الحجاز . ورقة عظمها تدعو للإشفاق عليها أن يصيبها مكروه إذا زلقت فى اليوم المطير ، أو هفت خطواتها عند قناة ، أو ارتطمت بحجر . فأما هذه القطعان من إبل الحجاز فتسير أسراباً وتجرى أفراداً وتتسلق الجبال ولا يأخذ الإشفاق عليها راعيها . ولعلها كذلك تفعل لأنها نشأت فى أحضان الطبيعة معتمدة على ذاتها ؛ فالبادية بيتها ، وهى تعيش فيها كما يعيش الإنسان فى داره . أما بيتنا المصرية فى الوادى فالجمل فيها ضيف على دواب الحمل الأخرى ، وإن يكن سفينة صحارانا كما أنه سفينة صحراء العرب . وكيف لا تعتمد هذه الإبل فى بلاد العرب على نفسها فى تسلق الجبال والتماس الكلاً بين الصخور وليس لديها سبب غير ذلك من أسباب العيش ! والجبال فى البادية تتصل بالأودية ويتصل بعضها ببعض ، فهى محيطة بهذه الإبل حينما توجهت وأنى سارت .

ولقد أحاطت بنا هذه الجبال طول الطريق إلى الجعرانة ، فما تكاد تنفرج إلى أفسح من الطريق إلا فى أماكن قليلة ، مع ذلك تتابعت أسراب الجمال تسير عشرات وعشرات ، وتسير مطمئنة لا تزعجها السيارة ولا تدعوها إلى الفرار لطول ما ألفتها فى السنوات الأخيرة . وتياسرت السيارة بعد مسير ساعة فإذا واد فسيح ينفرج أمامنا ويمتد النظر فى فسحته إلى حيث يشاء ؛ ذلك وادى الجعرانة . وانكشف لنا المسجد وتبدت لنا فوهة البئر ووقفت السيارة بينهما ، فأسرع إلينا صغيران ينتظران الخير من محيئنا ومن وقوفنا .

وزرت المسجد وشربت من ماء البئر ووقفت أسرح الطرف فيما حولى وأستعين  
بمنظاري المقرب أرى به ما يكسو قمم الجبال من كالأ لا يُفلّ من حدة  
عروسها . وماذا عسى أن يكشف المنظار عنه غير هذا الكالأ وليس هاهنا  
إلا ومال الوادى والجبال المحيطة به ! وقصدت هضبة على مقربة من المسجد  
صعدت فيها حتى بلغت منتصفها ، ثم درت بالمنظار كرهة أخرى فيما حولى  
فلم أر غير ما رأيت من قبل ، ولم أر فى صخور هذه الجبال شيئاً يلفت  
النظر .

وسألت صاحبي : ألهذا المكان موسم يقصده الناس فيه كما كانوا  
يقصدون أسواق العرب قبل الحج إلى مكة ؟ قال : إنهم يخرجون إلى هذا  
المكان فى شهر رمضان فيُحرمون بالعمرة ؛ ذلك لما روى عن النبي عليه السلام  
أنه قال : « عمرة فى رمضان تساوى حجةً معى » ؛ كذلك كانوا يفعلون  
قبل حكم الإخوان ، ولا يزالون كذلك يفعلون وإن كانوا أقل على هذه العمرة  
إقبالاً .

وسأته فى هذا الحديث وروايته عن النبي ، فابتسم وقال : لعلك تحسبه  
من روايات المكيين مما يجذبون به الغلاة فى الدين إلى مدينتهم . أما أنا فلا أحقق  
سنده ، لكنى أحسبه يرجع إلى الأسوة بالنبي فى عمرته من الجعرانة بعد عودته  
من الطائف ، وإن كان هذا الحديث يجعل العمرة فى شهر رمضان ،  
وكانت عمرة الرسول من الجعرانة فى ذى القعدة . ولئن صح ظنك ليكون  
قصد روايته أن يباعدوا ما بين عمرة شهر رمضان والحج ليجعلوهما موسمين ، بدل  
أن تجتمع العمرة والحج فى موسم واحد .

قلت : لك رأيك ؛ ولكنى أفكر الساعة فى المسلمين الذين عادوا يقتسمون  
هاهنا فى حنين . فالذين سمعوا حديث العمرة فى شهر رمضان لا يزيدون على  
مائة أو بضع مئات ، أما الذين عادوا مع النبي من حصار الطائف فكانوا  
ألفاً بلغت العشرة أو زادت عليها ، وكان الوء الذى جاءوا يقتسمونه هنا ستة  
آلاف من الأسرى واثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاء خلا

أربعين ألف أوقية من الفضة . أفشَّهَدَ هذا الوادى فى كل ما مضى من تاريخه مثل هذا العدد من الناس ومن الإبل والشاة! ومحمد على رأس المسلمين يقسم بينهم هذا النىء ، إذ جاءه وفد من أسلم من هوازن يرجونه أن يردَّ عليهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم . ويقول له أحدهم : « يا رسول الله إن فى الحظائر عَمَمَاتِكَ وخالاتك وحواضنك اللواتى كن يكفُلُنك، ولو أنا مَلَحْنَا (١) للحارث ابن أبى شَمِيرٍ أو للنعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت به لرجونا عطفه وعائده علينا ، وأنت خير المكفولين » .

كلا : ما عرف تاريخ الجعرانة كله يوماً كهذا اليوم . وإن من الأرض لبقاعاً جرداء ، قلَّ أن تصلح لمقام أو حضر ، ثم يكون بها حادث يتغير له وجه التاريخ ، فإذا هى علم باق بين الناس ذكره ، وإن عادت بعد هذا الحادث جرداء غير صالحة لإقامة أو حضر . وهل ينسى الجعرانة من يعرف حُسَيْنًا ! وهل ينساها من يعرف سيرة محمد بن عبد الله ، وهى اليوم كما كانت على التاريخ ، فيما خلا أيام حُسَيْن ، واد غير ذى زرع ، لا يستوقف النظر منه إلا ما يحتفظ به من ذكرى أيام حنين ! ولعل لهذه البقاع من الأرض عزاء فيما تحتفظ به من هذه الذكريات الخالدة عما تعانیه من عزلة وإحمال ، كما أن من الناس من يجد فى ذكريات ماضيه من المجد ما يملأ حياته خيراً ألف مرة مما يملأ أكثر الناس الحياة به مما يثرونه فيها من ضجة وضوضاء .

جالت هذه الخواطر بنفسى وأنا بموقفي فوق الهضبة المجاورة لمسجد الجعرانة أجبل بصرى فى هذا الوادى الخلاء اليوم وقد ملأته الذكرى بما أعاد إلى خيالى صورته يوم قسمة النىء مليشاً بالحياة وضجتها . مليشاً بالرضا والتذمر ، وبالصفو والغضب . عفا رسول الله عن نساء هوازن وأبنائهما ، فغضب لذلك رجال حديثو عهد بالإسلام ، وأقشى محمد أعطياته فى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة ، فغضب المهاجرون والأنصار وتهامسوا ، وبلغه الهمس فوقف مُغَضِباً إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال :

(١) ملحننا لفلان : أرضنا له .

« أيها الناس ، والله مالى من فيثكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس . والخمس مردود عليكم » . ولم يرض عباس بن مرداس عن نصيبه الذى أخذه فقال النبي : « اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه » . فأعطوه حتى رضى فكان ذلك قطع لسانه . ويقول الأنصار بعضهم لبعض : « لى والله رسول الله قومه » ، فيحدثهم النبي ويقول فى ختام حديثه لهم : « ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رجالكم ! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . فيتأثرون ويبكون ويقولون : « رضينا برسول الله قسماً وحطاً » .

أية حياة كالحياة التى كان يموج هذا الوادى ذلك اليوم بها ؟ ! لقد ارتسمت صورته فى هذه الساعة أمام خيالى ففج الوادى بمن فيه من الناس وما فيه من الإبل والشاء ، وختنى أراهم جميعاً ، ترهق الذلة وجوه الأسرى ، وتبدو العزة على وجوه المسلمين فى حالى الغضب والرضا ، وختلت التاريخ مطلقاً من عليائه على هذا المشهد وكأنما قرأ فى لوح القدر ما ستتجه الأمة العربية إليه بعد أن مهدت هذه الغزوة لتوحيد صفوفها ، وما ستقوم به من فتح العالم ونشر الإسلام فى ربوعه ، ثم ما سيكون بعد ذلك من ثورات وتقلبات ومن انحلال وبعث ، حتى ينصر الله كلمته ، ويعود الدين كله لله .

ونادانى صاحبى فعُدنا إلى السيارة فارتدّت بنا صوب مكة . فلما بلغنا حراء كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان القمر يحبو من ناحية المشرق ، وكان النسيم صفواً عليلاً . وقضينا ساعة نتحدث ثم تواعدنا أن نزور وادى نَعْمَان عصر اليوم التالى .

ووادى نَعْمَان يقع بعد عَرَقة ، والذاهب إليه يسلك طريق منى إلى المزدلفة فعرفات ، وكذلك فعلنا . فلما جاوزت السيارة بنا قصر الملك قال صاحبى : هتلمّ بنا نقف عند مسجد البيعة فأنى لأظان العقبة الكبرى كانت عنده ولم تكن عند جمرة العقبة . ووقفت بنا السيارة إلى يسار الطريق قبالة

المسجد ، فسرنا بضع عشرات من الأمتار حتى بلغناه ، وألفيناها مقفلا ، فدرُنا حوله فدللتنا جدرانها على أنه مسقوف كله أو أكثره على خلاف مساجد مكة ، ورأينا شيئاً يشبه الكتابة بظاهر محرابه فحاولنا عبثاً أن نقرأه . ويقع المسجد الآن في فسيح من الأرض ، تحيط الجبال بكل نواحيه إلا ناحية الطريق ، مما يدل على أن هذه الجبال نسفت نسفاً ، أو دُكَّت دكّاً ، لينكشف المسجد لمن يريد زيارته . لذلك يتعذر على الإنسان أن يجد الشعب الذي تسال إليه الأنصار جوف الليل من أيام التشريق حين بايعوا النبي بحضرة عمه العباس بيعة العقبة الكبرى . وأغلب الظن أن يكون هذا الشعب قد نُسف فيما نُسف من الجبال ، وأن مسجد البيعة قام مكانه .

يرجح هذا الرأي ذهاب المسجد في القدم إلى القرن الثاني للهجرة ، فقد ذكره الأزرق في كتابه ( تاريخ مكة ) وإن لم يصفه . وفي كتاب قطب الدين النهرواني ( الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ) ذكر مسجد البيعة وبنائه . قال : « مسجد البيعة مسجد على يسار الذهاب إلى منى ، بينه وبين العقبة التي هي حد منى غلنوة أو أكثر ، وهو مسجد متهدم فيه حجران مكتوب فيهما ما يدل على ذلك . في أحدهما : « أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله تعالى ببناء هذا المسجد ، مسجد البيعة التي كانت أول بيعة بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقدتها العباس بن عبد المطلب وأنه بنى في سنة ١٤٤ هـ . والمشار إليه أبو جعفر المنصور العباسي . وعمره أيضاً المستنصر العباسي ، كما في حجر آخر : « بناه في سنة ٦٣٩ ، وتلك الأحجار ملقاة بهذا المحل الخراب يخشى عليها الضياع فيندثر هذا المسجد . وكان المرحوم إبراهيم دفتر دار مصر سابقاً أمين عرفات رحمه الله شرع في تجديد هذا المسجد وأسسها وبني بعض طاقاته وجدرانها ، وتوفى إلى رحمة الله قبل أن يتمه ، وما وفق أحد بعده إلى الآن لإتمامه » .

وهذا الذي ذكره النهرواني وذكره غيره ممن أرخوا مكة هو حجة القائلين بأن هذا المسجد يقوم حيث كانت البيعة ، وأن جمرة العقبة لا تؤرخ

العقبة الكبرى ، وإن أمكن أن تؤرخ العقبة الصغرى أو العقبة الأولى . يؤيد ذلك أن البيعة الكبرى وقعت في أواسط أيام التشريق بمنى حيث يجتمع الناس من مختلف بلاد شبه الجزيرة وهم لما يؤمنوا برسالة محمد، ويرون مثل هذه البيعة حلفاً لحربهم . ولقد حدث بالفعل بعد أن تمت هذه البيعة أن سمع المسلمون صائحاً يصيح بقريش : إن محمداً والصُّبَاء معه قد اجتمعوا على حربكم . وفي رواية أخرى : إن الأوس والخزرج بايعوا محمداً على أن ينصروه . وقد فرغت قريش لما بلغها من ذلك . وفرغها هو الذي جعلها تحسب لهجرة محمد من مكة ألف حساب . فمن الحق إذاً أن تكون البيعة قد تمت بعيداً عن مجتمع الناس بمنى ، وذلك حيث يقوم اليوم مسجد البيعة .

تقوم مساكن منى بعد هذا المسجد ، ولقد تابعنا السير إليها ونحن نعلم أنها لم يبق بها من ضجة الحج كثير ولا قليل ، لكنني لم أكن أحسبها موحشة بمقدار ما رأيتها حين دخلناها . لقد خلقتها بلداً أثرياً كمدينة « حابو » وما إليها من مدن الآثار بالأقصر ، خيم عليها سكون عميق كسكون البادية حيث لا حياة ولا أنيس . لا تسير فيها الإبل كما تسير في طريق الجعرانة . فليس فيها للإبل مرعى ، ولا تؤنسها القوافل ليناسها طريق المدينة ، فلم يبق للقوافل بعد أيام التشريق بها من حاجة . وكل ما بقي من أثر أيام النحر بعض مناخذ معدودة في مكان كان مقصوداً في الأيام المذكورة وهو اليوم صنف لا ترى فيه إنساً .

وقفت السيارة أمام هذا المكان ، ونادى صاحبي نداء من يطلب المعونة وجاء غلام لا أدري من أين خرج ، فطلب إليه أن يجيئنا بمحمد على . وانطلق الغلام ، فذكر لي صاحبي أن محمداً علياً هذا من أهل منى ، وأن نسبه يرجع إلى قريش أجداد النبي ، وأن قبيلته تقيم هاهنا ، ولعلها البقية الباقية حول مكة من هؤلاء العرب الأقدمين . وأضاف : وتقيم قبائل بالطائف وبغير الطائف من أرض الحجاز تتسمى باسم قريش ، وليست أدري مبلغ الصحة في انتسابها إلى أجداد الرسول .

وأقبل محمد على فلم أشك إذ رأيته في أنى أرى قرشيًا صميمًا تبدو العروبة الخالصة على محياه ، أسمى السحنة ذو عينين سوداوين شديدتى البريق ، وشعر كث فاحم ، وأنف أقى ، وشفاه رقيقة ، معتدل القامة ، عريض الأكتاف ، يبنى مظهره عن رجوليّة بدوية لا تعرف الإذعان ولم تعرف الحضارة . ترى أهو مثلك لأهل قبيلته فصورتهم صورته ، ورجوليّتهم رجوليته ؟ أما النساء ، فلم أر منهن ما أحكم به على جمال كان فتنة لشعراء العرب الغزّلين .

وتقدّمنا محمد على مصعداً في الجبل القائم عن يسار الذهاب إلى عرفات ، ووقف عند صخرة مفلوقة من وسطها قال : إنها مسجّر الكبش ، وإن سكين أبينا الخليل إبراهيم عليه السلام أخطأت ابنه إسماعيل لما تلّه للجبين ليذبحه فسست الصخرة ففلقتها . وتقوم على مقربة من هذه الصخرة صخرة أخرى أضخم منها يدور حولها طريق هو الذى تسلقنا منه ، هذا الطريق هو مجرّ الكبش حيث سار إلى إبراهيم ليذبحه فداء لإسماعيل . وكان في هذا المكان مسجد عليه قبة يقال له مسجد الكبش يؤمه الحجّاج ، فهدمه الإخوان الوهابيون .

ورافقنا محمد على إلى مسجد الكوثر ثم إلى مسجد الخيف ، وذكر أن القبة التى تتخذ مكبرية ( مبلغة ) بالخيف تقوم موضع الخيمة التى صلى بها النبي في حجة الوداع . والتاريخ لا يبنى هذه الرواية ، والثابت فيه أن المسجد لم يكن يومئذ كما هو اليوم ، بل كان خلاء تحيط به جدران بسيطة ، وإنما استحدثت عمارته في القرن الثالث للهجرة بأمر المعتمد الخليفة العباسي ، ثم جدد بعد ذلك في القرن السادس ، وأنفق أهل التقوى من المسلمين مبالغ طائلة لصيانته . وفي القرن التاسع أمر سلطان مصر قايتباي فبنى المسجد كله من أساسه بناء محكمًا ، وأقيمت القبة موضع مصلى النبي ، وبُنيت إلى جانبها مثذنة من طراز مآذن مصر ، كما بنيت مثذنة أخرى على باب المسجد . وقد عمّر بعد ذلك مع بقاء بناء قايتباي على أصله .

ويقع غار المرسلات بجبل تسيير إلى الجنوب من مسجد الخيف . وهذا الغار

يسمى اليوم غار الكوفية أو الطاقية ، ويقص المطرّفون أن النبي اختفى به فلان الحجر موضع رأسه فدخلت طاقيته أو كوفيته فيه . وإنما سمي من قبل غار المرسلات لما يذكرونه من أن الله أوحى إلى النبي سورة المرسلات فيه . وكان الحجاج يؤمّونه للتبرك به ، ويزدحمون عنده حتى يبلغ ازدحامهم أشدّه ، أما اليوم فقد قلوا نزولاً على مذهب حكام الحجاز في التبرك .

والمشعر الحرام يقع بالمزدلفة بين منى وعرفات . ويمرّ الإنسان في مسيره من منى إلى المشعر بوادٍ اشتهر الآن باسم وادى النار ، وكان يدعى من قبل وادى مُحَسَّر . ويقع هذا الوادى الأجرد بين جبلين يدعى أحدهما جبل قُزَح ، ويزعمون أن واقعة الفيل المشار إليها في القرآن وقعت فيه . والتاريخ المعروف لا يروى أن واقعة حدثت في عام الفيل ، إنما يروى أن أبرهة حاكم اليمن جاء على فيله ومن ورائه جيشه لهدم البيت بمكة بعد أن رأى انصراف الناس عن البيت الذى أقامه وزخرفه بصنّعاء ، وأنه نزل بظاهر مكة ودعا إليه قومًا من أهلها وعلى رأسهم عبد المطلب جد النبي . ورأى أهل مكة أنهم لا يطيقون قتاله فأخلوا مكة عشيةً اعتمزم دخولها لهدم البيت . فلما أصبح أبرهة وجد الجدرى تفشى بجيشه نفسياً أفزع الناس وأفزعته فارتدّ عن مكة ، وما إن بلغ اليمن حتى مات . ولعل هذا الذى أصاب أبرهة وجيشه هو الذى دعا إلى تسمية هذا الوادى باسم وادى النار ، ووادى الحسرة أو مُحَسَّر ، لأن نار المرض أصابت القوم فانقلبوا إلى قومهم فى حسرة خاسئين .

أمّا المشعر الحرام بالمزدلفة فسجدٌ صغير ، إن صح أن يسمى الفضاء من الأرض مسجداً إذا أحيط بجدرٍ قصيرة تحدّه . وكل ما يدل على المشعر الحرام مثذنة وسط هذا الفضاء تضاء أثناء الحج . وفى جوار المسجد بازان مياه حسن البناء ذو فوّهة يستقى الناس منها ، ويتصل بمجرى الماء المنحدر من نَعْمَان إلى مكة والمعروف بعين زُبَيْدَة . وللبازان درج ينزل الإنسان فيه إلى حيث يصل إلى فوّهة الماء ، فأما ما حول ذلك ففضاء المزدلفة تحيط به جبال أحدها قُزَح الممتد من قبالة جبل المحسّر .



ولم يكن بهذا المكان مسجد على عهد الرسول ، بل كان المشعر جبلا في هذه الأودية اعتادت العرب في حجِّها أن تشعر جمالها عنده (أى تضربها في صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم) . وكان العرب قبل الإسلام يوقدون النار فوق قرح عند المزدلفة كى يهتدى بها الصاعد من منى إلى عرفات ، والفيض من عرفات إلى منى . وأوقدت هذه النار في عهد النبي وفي الصدر الأول من الإسلام إلى عهد عثمان . أما المنارة القائمة اليوم فلم تشيّد إلا بعد ذلك بقرون . ويذكر النهروانى أن أحدث بناء لها كان سنة تسع وخمسين وسبعمائة أو السنة التى بعدها فيما علم . وبناء المشعر الحرام من البساطة بما رأيت مما يتفق مع هذه البيئة البدويّة المحيطة به . ولو أن هذا البناء في غير الحجاز وورد ذكر مكانه في كتاب مقدّس كما ورد ذكر المشعر الحرام في القرآن ، لشاده أهله في أضخم عمارة وأجملها .

كان الطريق ما بين المزدلفة وعرفة ضيقاً في قرون الإسلام الأولى ، فكان من السنّة المستحبة أن يمتسح الإنسان لغيره ما استطاع ، أما الآن فقد انفسح بما لا تخشى معه الزحمة إلا فيما ندر في بعض سويحات الإفاضة . وهو يمر بجبلين متقاربين هما مآزما عرفة ، ويمر بنمرة حيث يقوم المسجد بالمكان الذى وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتطياً ناقته القصواء فخطب الناس في حجة الوداع . ويطلق على هذا المسجد أسماء : مسجد نمرة ، ومسجد عُرنة ، وجامع إبراهيم ، ومصلى عرفة . ونمرة جزء من بطن عُرنة ، فالتسمية بهما نسبة إلى المكان . أما اسم مسجد إبراهيم فيرجع إلى ما يقال من أن جبريل علّم إبراهيم أبا الأنبياء شعائر الحج وهما في هذا المكان . فأما مصلى عرفة فاسم يطلق لأن الحجاج بعرفة يجتمعون فيه بين صلاة الظهر وصلاة العصر جمع تقديم تأسياً بالرسول في حجة الوداع . ويقع المسجد على مقربة من علمى عرفة . وهو فسح مترام الأطراف ، كما تقدّم القول ، له محراب يرتفع ثلاثة أمتار وقد أحاطت الأروقة به من جميع جوانبه . وصحنه مكشوف تقوم فيه مكبرية لصلاة يوم عرفة . ويرجع إنشاء هذا المسجد إلى القرن الثانى بعد الهجرة . وقد عمره

ملوك المسلمين في مصر وفي غير مصر بعد ذلك غير مرة . تقع بطحاء عرفة على يسار الصاعد إليها من المزدلفة ماراً بمسجد نمرة . وفي الجانب الآخر من هذه البطحاء يقع مسجد الصُّخَيْرَات ، وهو اليوم أثر متهدم كما شهدت . وقد تخطت بنا السيارة بعده أثناء وادي نَعْمَان والجبال تنفسح عنا تارة وتقترب منا أخرى ، حتى بلغت بنا مضدرة عين زُبَيْدَةَ التي تُروى مكة وتروى الحجيج اليوم ، والتي تعتبر عملاً من الأعمال الهندسية الخالدة الاسم على التاريخ ، وإن تغيّرت من بعد وتطور رسمها مع تقدم العلم .

وسميت هذه العين باسم زبيدة زوج أمير المؤمنين هارون الرشيد لأنها أول من أجراها ، فقد كانت مكة قبلها تستقى من الآبار والعيون ، وكانت الآبار كثيراً ما تغيض والعيون كثيراً ما تُطَسَم . وقد كان معاوية بن أبي سفيان أجرى الماء إلى مكة من العيون والآبار في قنوات واتخذ حياضاً بعرفة لسقيا الحجيج منها ، بيد أن هذه القنوات والحياض لم تلبث أن تخرّبت وأصاب الناس بذلك جهد شديد . هنالك أمرت زبيدة بإجراء عين حنين بوادي نخلة إلى مكة بعد أن اشترت الأراضي التي كانت مياه العين تسقيها ، كما أمرت بإجراء عين من وادي نَعْمَان إلى عرفة . وتتبع عين نعمان من جبل كترآء الذي يصل بين عرفة والطائف . وقد أجريت مياه نعمان حتى بلغت منى ، وتعدر إجراؤها بعد ذلك إلى مكة لشدة صلابة الأرض . وتعرض هذا العمل لأفاعيل الزمن ، فكان يتخرب أحياناً وينقطع منه الماء عن مكة وعن عرفات أحياناً . ولقد أمر كثيرون من أمراء المؤمنين بإصلاحه في عصور وأزمان مختلفة ، وأنفقوا عليه نفقات طائلة ، لكن ذلك لم يحل دون تخربه واضطراب مسيل الماء إلى مكة وإلى عرفة . ففي النصف الأخير من القرن العاشر الهجري طلبت الأميرة فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان الإذن في تعمیر العيون وفي القيام بعمل جديد عظيم هو إيصال ماء نعمان إلى مكة . وكان المال المطلوب لذلك ثلاثين ألف دينار . وأذن لها أبوها وتم هذا العمل العظيم في عشر سنوات .

وكان يوم تمامه من أعياد مكة الكبرى ، تصدَّق الناس وأجروا الخيرات وقاموا من أعمال البر بما أعاد إلى ذاكرتهم ما فعله أسلافهم يوم أتم عبد الله بن الزبير بناء الكعبة .

ولقد طغت السيول بعد ذلك غير مرة على مجارى هذه المياه تحت الأرض ودخلت الأثرية من البازانات إليها ومست الحاجة إلى إصلاحها . وكان ولى مصر محمد على ممن أصلحوها . ولا يزال المهندسون يرون تعديل نظام المجرى الحالى تعديلا يجعل مياهه أبعد عن التلوث وعن أن تفسدها الأثرية والرمال التى تدفعها السيول .

ولقد دهشت أيما دهش ونحن نسير فى هضاب نعمان حين ذكر لى صاحبي أننا بلغنا مبدأ العين . فهذا المبدأ أشبه بيئر تنحدر إليها المياه لتسرى خلال الجبال ولا يبدو للناظر منها شئ ، وليس يبدو من المجرى غير البازانات المختلفة يراها الإنسان فى الطريق من مكة إلى عرفة ويراها فى أماكن مختلفة من مكة . ولست أدرى لعل صاحبي لا يعرف أين تبدأ العين حقاً ، وإن أكد لنا رجل لقيناه هناك ما قاله صاحبي رغم إلحاحي فى السؤال وإظهار التردد فى تصديق النبأ .

يسير الطريق بعد نعمان إلى شدّاد على سفح جبل كَرَاء . ومن هناك يبدأ الصاعد إلى الطائف صعوده حتى يبلغ جبل كَرَّ ، ثم ينحدر منه حتى يبلغ الطائف . ولم نجاوز نحن نعمان إلى ما بعده ، بل قفلنا منه راجعين إلى مكة . هذا الطريق الذى سرنا فيه كثيراً ما طرقه الرسول عليه السلام فى حياته ، وإن كان مسيره فيه فى حجة الوداع أشهر ما يذكر التاريخ . كثيراً ما سلكه فى السنوات الأولى من بعثته وإلى حين هاجر من أم القرى ، فهو قد كان يذهب فى موسم الحج يبادى القبائل بالدعوة إلى دين الله . وخير مكان كان يلقاهم فيه عرفة ومنى . فى تلك الأيام النائية منذ أربعة عشر قرناً كان الرسول يخرج وحيداً أو فى نفر ممن اتبعوه ، فإذا أنس إلى قوم من القبائل الآتية إلى الحج اتصل بهم وتحدّث إليهم وجادلهم بالحقى هى أحسن ودعاهم

إلى دينه ، ومن هؤلاء من كان يردّه ردّاً غير جميل ، ومنهم من كان يُنصت إليه ثم ينصرف عنه مفكراً ، ومنهم من لم يكن الرسول يكاد يتركه حتى يجيئه من قريش من يحذره مغبّة دعوة فرقت أهل مكة شبيعاً . ويرى الرسول إعراض الناس عنه وتحذير قومه إياهم منه فلا يصدّه ذلك عن دعوته ، بل يزيده استمساكاً بالدعوة وحرصاً عليها . وتؤذيه قريش بمساءتها ويؤذيه شعراؤها بهجانهم فلا يهين ، ولا يتردد . وينقضي العام ويتلوه العام وهو أشد على الدعوة حرصاً . والناس يتأون عنه ، وقريش تحارب دعوته ، فلا يصرفه عنها صارف وقد أمره ربه أن يبلغ رسالته . لقد كنت أتصور هذه المواقف ونجى نمرٌ بهذه الأماكن ، ثم أتصور موقف الرسول الذى صدّقه العرب جميعاً فى حجة الوداع ، فيشيع الإكبار فى نفسى وأكاد أسمع بأذنى قوله تعالى : « قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » .

وهذا الطريق الذى رأى محمداً يطارده قومه وتزور القبائل عنه ثم رآه من بعد ذلك وقد فتح الله له فأنصوى العرب كلهم تحت لوائه ، هو الطريق الذى رآه وليدًا يوم حملته حليلة السعدية معها من مكة ذاهبة إلى الطائف فى طريقها إلى قبيلة بنى سغد بن بكر . نعم ! فى هذا الطريق سار الرضيع تحمله مرضعته الفقيرة على حمارها تتخطى به بين الجبال ثم تصعد به سفوح كُـرِّ وكراء ، وتتخطى به بوادى الطائف حتى تصل إلى قومها !!

أليس هذا عجباً ! الطريق الذى سار فيه محمد طفلاً لأول ما ولد هو الطريق الذى سار فيه شيخاً يعلن إلى الناس أن رسالة ربه بلغت غايتها ، إذ يبلغهم قوله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

هذه أعلام الحرم التى قصدت إليها . ولم يسعدنى الحظ بالذهاب إلى عكسمى أعضاء فى طريق اليمن ، وإنما قطعت من هذا الطريق ما بلغنى إلى غار ثور .

أما علما نخلة في طريق الطائف فكانا في الطريق إليها . ولقد قصدها وأقيمت بها أياماً كانت أيام نشاط وسعادة . لقيت فيها من أثر الرسول ما اطمأن له قلبي ورضيه تفكيرى ، ولقيت فيها من تاريخ العرب بعد الإسلام ما أثار ألى وأخرج صدرى ، لولا رجاء يخالغ نفسى أن تكون هذه البلاد في المستقبل خيراً مما كانت في الماضى بعد أن انتقلت منها عاصمة الإسلام .

الكتاب الثالث  
الطائف وآثارها

## طريق الطائف

بيننا أنا بالتكية المصرية ظهر السبت الرابع عشر من مارس لقيت الحاج عبد الله فلبي - أو سينت جون فلبي كما تشاء - فبادلته الحديث في أمور بلاد العرب حاضرها وباديها . وأدى بنا الحديث إلى لغة القوم بمكة وبعدها ما بينها وبين اللغة العربية الفصحى ، وسألت الجواله البريطاني : أيوجد في شبه الجزيرة عرب يتكلمون هذه اللغة الفصحى ؟ قال فلبي : « إنما يوجد هؤلاء في الجبال وفي البادية . وأنت إذا ذهبت إلى شدّاد في طريقك إلى الطائف عثرت ثمّ على طَلَبِيَتِكَ » . ولما علم أنني ذهبت إلى عرفات وإلى وادي نعمان حيث تبدأ عين زبيدة قال : « إن بين شداد ووادي نعمان أمداً قريباً ، فإذا بلغت بك السيارة شداداً على سفح جبل كُورٍ وجدت مَحَلَّةً بها قوم من الأعراب عندهم الدواب التي تصعد بك كُوراً وكراء وتذهب بك إلى الطائف ، وهناك تسمع العربية التي تتوق إلى سماعها » .

لم يعترض أحد من الحاضرين على هذا الكلام فلت إلى تصديقه . وكان لي زيارة الطائف شغف ، ففيها من أثر الرسول قُبَيْل هجرته وفي أعقاب غزوة حنين ما يدعو إلى زيارتها . لكنني تصورت ركوب الدواب في صعود الجبال فذكرت يوماً من سنة ١٩٢٤ كنت فيه بلُبنان وصعدت فيه إلى الأرز مع رفاق كثيرين . ولم تكن طريق الأرز قد عبّدت للسيارات حينذاك ، فاكرتنا الدواب من بلدة « بشرري » وامتطينا لتصعد بنا في طريق فيه سعة ونظام . مع ذلك بقيت أذكر ذلك اليوم والصعود على الدواب فيه فتمتلي نفسى من صعودها مخافة ورهبة . فهي تأبى إلا أن تسير على حافة الطريق المتصلة بالهاوية حتى يشعر الإنسان أنه مُوف في كل خطوة على حفته . وعبثاً يحاول الإنسان أن يلزمها السير في منتصف الطريق فإنها لا تلبث أن تعود إلى حافتها وتلزمها . وما أغنانى عن كُورٍ وكُوراء وصعود سفوحهما على الدواب إذا

كان للطائف طريق غير هذا الطريق ! أما ولها طريق تسلكه السيارة هو الطريق المعبد ، وما دام مقصدي من زيارتها أن أسمع العربية في صفاتها ، فلأترك طريق شداد لمن شاء أن يسلكه وحسي ما قرأته عنه في كتب الرحلات ، فهو لا يغرى بركوب المشقة المضنية لأجتيازه .

ولم يتدرّ بخاطري أن الدواب ستصادفني حين تجوالى بجبال الطائف ، وستجعلني أحمد للمقادير عدولي عن مشورة « فلي » إلى طريق السيارة لتقطع الطريق ما بين مكة والطائف في بضع ساعات .

ولقد استشرت مضيبي أمين العاصمة في الذهاب إلى الطائف وسألته عن خير طريق إليها ، وذكرت له ما أشار به فلي ، فقال : هذا رجل ألف البادية ومتاعبها ، فما لك أنت وما ألفه ، في وسعك أن تسلك الطريق الذي نسلكه كلنا حين نصعد من مكة لقضاء الصيف بالطائف ! ثم ذكر لي أنه مخبر وزير المالية الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان بعزمي على السفر بعد ظهر يوم الاثنين ١٦ مارس . وفي الغد أخبرني أن وزير المالية سرّه عزمي على زيارة الطائف ، وأنه سيضع تحت تصرفي عربية « بكسفورد » تكون جنياً للسيارة التي خصصت لنقّلي منذ نزلت مكة ، وأنه سيختار من يصاحبني في هذه الرحلة ويكون دليلي فيها .

وفي صباح يوم الاثنين زرت فلي بمنزله على موعد بيننا ، وأفضيت إليه بأنني ذاهب إلى الطائف بعد الظهر . ويقع منزل فلي بحي جرّول في أطراف مكة فوق ربوة يسيرة الارتفاع . وقفت السيارة أمام بابه فصعدنا درجة كان من الخير أن تكون درجتين أو ثلاثاً . وتخطينا الباب إلى حديقة تبدو أشجارها الباسقة من فوق السور ولا تحجب الدار القائمة بعدها . وليست الحديقة بالفسيحة ولا بالضيقة ، تراوح مساحتها بين المائة والخمسين والمائتين من الأمتار المربعة . وهي أدنى إلى أن تكون مهملة قل أن تمتد إليها يد التنظيم ، لكنها مع ذلك متعة للنظر في مكة حيث لا تقع العين على حديقة إلا في الدور التي تشبه القصور . ويسير الإنسان من باب المنزل خلال الحديقة في طريق صاعد يكاد يكون مستقيماً . فإذا دخل المنزل وجدّه أقرب إلى البداوة من كثير من



منازل أهل مكة . وقابلنا فلبي على باب غرفة إلى يسار الداخل من باب الدار مرتدياً جلباباً أبيض ونعلين ، مكشوف الرأس ، يُم شعره الأحمر وذقنه الحمراء المحيطة بكل وجهه الأبيض المشرب حمرةً كما تم عيناه الزرقاوان عن أصله الإنجليزي الذي يخفى تماماً حين يرتدى المشلح والعقال ، فيبدو نجدياً وسياً أنيق الملبس . وتقدمنا إلى داخل الغرفة فخلع نعليه حين بلغ البساط الذي يفرش أرضها . وتبعته وجلست إلى جانبه أسمعه وأجيبه وهو يميني بكلمات قليلة كلها الرقة والظرف . ولقد اعتذر عن موعدين سبقا بيننا ولم نلتق فيهما بأنه يقضى من النهار في حضرة ابن السعود ما لا يدع له من وقته إلا الصباح الباكر يعمل فيه أو يلتقى من يريد لقاءه أثناءه . فإذا أضحى النهار ذهب إلى القصر فقضى فيه إلى الظهر ، ثم عاد إليه بعد العصر فلم يغادره حتى تم القراءة للملك بعد العشاء فيفيض المجلس .

وفيا نتحدث سمعت تصفيقاً ورأيت الرجل خف بنفسه إلى خارج الغرفة ولم يلبس نعليه ثم عاد يحمل صينية الشاي وعليها أدواته . وتناولنا الشاي وسألته أثناء تناولنا إياه : « ألا تكنب حياة محمد وقد عرفت بلاده وسرت في خطاه ودرست دراسة المدقق كل مكان له اتصال بسيرته ؟ » . وكان جوابه : « أنا لا أريد الاختلاف مع العلماء المسلمين في أمر لا يفيد الخلاف فيه ، وكثيراً ما يضر . وليست كتابة التاريخ من عملي العلمى ، وإنما عملي وضع الخرائط للأماكن التي أمرّ بها والتي لم يسبقنى معاصر إلى وضع خرائطها » . فلما تحدثت وإياه عن الإسلام ، ذكر أنه مقتنع تمام الاقتناع بأن الديمقراطية الإسلامية والحكومة الإسلامية خير أنواع الديمقراطيات والحكومات .

ولما فرغنا من تناول الشاي قال فلبي : « سأطلعك على بعض الخرائط التي أضعها » . وقام فأعاد أدوات الشاي إلى داخل الدار وعاد بمجموعة كبيرة من الخرائط . وبدأ فأراني الطريقة التي يسير عليها في وضع الخرائط وكيف يتخذ مكة مركز الدائرة فيها ، وكيف يحقق موضع كل محلة أو مكان على الخريطة تحقيقاً علمياً دقيقاً ، بأن يسلك إليه عدة طرق من مكة ويجرى في

التحديد على قياس الزوايا . ولقد سألته أثناء ذلك : أَوْضَعَ لِمَكَّةَ خَرِيْطَةً تَفْصِيْلِيَّةً ؟ فَذَكَرَ أَنَّهُ شَرَعَ فِيهَا وَلَمَّا يَتِمُّهَا . وَأَطَّلَعَنِي عَلَى خَرِيْطَتِهِ عَنِ الرَّبِيعِ الْخَالِي وَهِيَ الْمَوْجُودَةُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي يَحْمِلُ هَذَا الْاسْمَ *The Empty Quarter* ، كَمَا أَطَّلَعَنِي عَلَى خَرَائِطِ الطَّرِيقِ بَيْنَ مَكَّةَ وَجُدَّةَ وَالْمَدِيْنَةِ ، وَبَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَالخُرْمَةَ . وَلَا كَانَتْ هَذِهِ الْخَرَائِطُ مَطْبُوعَةً فَقَدْ أَهْدَاهَا إِلَيَّ لِأَسْتَعِيْنَ بِهَا فِي رِحْلَتِي إِلَى الطَّائِفِ وَإِلَى الْمَدِيْنَةِ . وَقَدْ اسْتَعْنَتْ بِهَا فَكَانَتْ نَعْمَ الْعَوْنُ ، وَاسْتَعْنَتْ بِهَا فِي رَسْمٍ غَيْرِ وَاحِدَةٍ مِنْ خَرَائِطِ هَذَا الْكِتَابِ . وَلَقَدْ شَكَرْتَهُ يَوْمَئِذٍ وَأَشْكُرُ لَهُ الْيَوْمَ فَضْلَهُ فِي هَذِهِ الْمَعْوَنَةِ الْقِيْمَةِ ، كَمَا أَشْكُرُ لَهُ جَمِيْلَ اسْتِقْبَالِهِ لِيَايَ وَمَا أَمَدَّنِي بِهِ مِنْ مَعْلُومَاتٍ أَفَادَتْ مَبَاحِثِي فِي أَمَاكِنَ عَدَّةً .

وَانصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِهِ فَهَرَرْتُ بِالتَّكْيَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، ثُمَّ عَدْتُ إِلَى دَارِ مَضِيْبِي فَتَنَاوَلْنَا طَعَامَ الْغَدَاءِ ، وَأَقَمْتُ أَنْظَرَ رِفَاقِ السَّفَرِ إِلَى الطَّائِفِ . وَأَقْبَلَ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ صَالِحُ الْفَزَازِ أَمِيْنَ أَمْوَالِ الدَّوْلَةِ بِالطَّائِفِ . وَهُوَ شَابٌ وَسِيمٌ حَلُوُ الْحَدِيثِ ، أَحَدَثَ مَضِيْبِي التَّعَارُفَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ سَيَصْحَبُنِي فِي رِحْلَتِي إِلَى الطَّائِفِ وَسَيَدَلَّنِي عَلَى كُلِّ مَا فِيهَا مِمَّا تَصْبُو إِلَيْهِ نَفْسِي ، فَهُوَ بِكُلِّ مَا فِيهَا خَيْرٌ . وَأَضَافَ الشَّيْخُ صَالِحٌ أَنَّهُ سَعِيدٌ أَنْ وَقَعَ اخْتِيَارَ الْحُكُومَةِ عَلَيْهِ لِيَصْحَبُنِي . وَفِيمَا نَتَحَدَّثُ أَقْبَلَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ سُرُورُ الصَّبَّانُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الْمَوَاصِلَاتِ فِي الْمَمْلَكَةِ . وَلَمْ يَطَّلْ مَكْتَهُ مَعْنَى لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَسَافِرًا وَإِنَّمَا جَاءَ يُوَدِّعُنِي مِنْ مَكَّةَ وَيَرْحُبُ بِي ضَيْفًا بِمَنْزَلِهِ بِالطَّائِفِ . وَأَقْبَلَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْحَمِيدِ حَلِيدِي الَّذِي أَزْمَعُ مَعَاوَنَتِي فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ كَمَا كَانَ لِي نَعْمَ الْعَوْنُ بِمَكَّةَ فِي بَحْثِي وَفِي إِقَامَتِي وَفِي حَلِي وَتَرْحَالِي . وَجَعَلَ الشَّيْخُ عَبَّاسُ قَطَانَ كُلِّ هَمِّهِ أَنْ يَبْعَثَ الطَّمَأَنِيْنَ إِلَى نَفْسِي وَيَزِيدَ أَوَاصِرَ الْمُدَّةِ بَيْنِي وَبَيْنَ رِفَاقِي . وَسَمِعْنَا نَفِيرَ سَيَارَةِ كَانَتْ « الْبِكْسْفُورْد » الَّذِي بَعَثَتْ بِهِ الْحُكُومَةُ لِيَصْحَبُنِي . وَبَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ سَيَارَتِي وَأَعْلَنَ السَّائِقُ حَسَنٌ عَنِ مَقْدَمِهَا بِصَوْتِ النَّفِيرِ . إِذْ ذَاكَ نَزَلْنَا إِلَيْهَا وَصَحَبْنَا مَضِيْفَنَا حَتَّى وَدَعْنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عِنْدَهَا .

وَانطَلَقَتِ السَّيَارَةُ فِي طَرَقِ مَكَّةَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ عِنْدَ قَصْرِ الْمَلِكِ تِيَّاسَرْتِ

في طريق الجِعْرانة دائرة حول حراء ، وقبيل منتصف الطريق إلى الجعرانة تيامنت منطلقة في واد فسيح بين الجبال حتى وقفت في محلة الشرائع أمام كوخ هو وحده مظهر الحياة الإنسانية في هذا الوادي . وأهل هذا الكوخ يستقون من عين جارية تُروى أشجاراً قليلة ، وقد جعلوا من كوختهم مقهى يتناول فيه السائر الشاي ، ويجد به شربة من ماء وفنجاناً من القهوة النجدية .

وسألني الشيخ صالح أريد النزول ؟ فلما علمت أن ليس بالمكان غير المقهى آثرت أن نطلق إلى المحلة التي تلى الشرائع . على أن الشيخ عبد الحميد حديدي استوقف حسناً السائق هنيهة ليقصّ عليّ من نبال التاريخ ما له اتصال بالسيرة النبوية . ومن موقفنا أشار إلى الجبل القائم عن يميننا وإلى مكان منخفض بعض الشيء عند قممه وقال : هذا شِعْبُ الثَنِيَّةِ الذي تخطى منه النبي إلى مكة حين عودته من الطائف منفرداً بعد أن أساء أهلها لقاءه وردوه بشرّ جواب . قلت : من أين إذا ذهب إلى الطائف ؟ قال : من طريق كُورٍ وكُورَاء بعد اجتياز عرفات وشدّ آد . وحدقت في شِعْبِ الثنية بهذا الجبل المرتفع عن اليمين ، وصورت لنفسى ما كان يلقاه محمد من المشقة في سبيل الدعوة إلى الحق الذي بعثه الله به . فهذه جبال جرداء قاحلة لا أنيس بها تغشاها السباع كما تغشى جبل كراء ، مع ذلك لم يكن محمد يخشى وحشتها ، بل كان يسير خِلالَها مطمئناً إلى رسالات ربه يبلغها للناس . وقد بلغها إلى العرب أثناء الحج حين مقامهم بمكة ومنى وعرفات فلم يسمعو له . وقد ذهب إلى غير واحدة من القبائل في منازلها فردوه منكبين . وهو يعلم أن ثقيفاً بالطائف من أمنع قبائل العرب وأعزها جوراً . لذلك ذهب إليها سالكاً طريق الجبل الوعر ، فردته بشرّ ما رده به قبيلة ، وأغرته به صبيانها فقتلوه بالحجارة ، فانصرف عنهم من طريق آخر في الجبل الوعر متخطياً هذه الثنية القائمة قبالة الشرائع ، لم يغير الأذى من عزمه ولم يضعضع من قُدُسِ إيمانه وجلال يقينه . وأية قوة أو مشقة تضعضع من هذا الإيمان المتصل بالله الواحد الأحد ، المستمد من روح الله ووحيه ! أمره ربه أن يبلغ رسالته فانطلق يبلغها

مطمئنًا إلى ربه واثقًا من نصره .

وتخطت السيارة مَحَلَّةَ الشرائع في مضيق بين جبلين ، وتابعت سيرها حتى بلغت الزَّيْمَةَ . ووقفت السيارة هناك عند منظر يستوقف النظر في تهامة كلها ، ذلك منظر الماء والشجر الأخضر .

لقد رأينا بالشرائع أغراسًا دعوها بستانًا فلم نحفل به . أما هاهنا فقد رأينا الماء ينهمر منحدرًا من الجبال يسقى بساتين عدة ، ورأينا أشجار الموز تكظ بعض هذه البساتين ، والنفس مبتهجة ما رأت الماء والخضرة . لذلك قضينا في هذه المحلة زمنيًا ما كان أحوجنا إليه والوقت يسرع نحو المغيب ، وبيننا وبين الطائف طريق ما يزال طويلًا .

قال صاحبي : « يذهب بعضهم إلى أن وادي حُنَيْنٍ ، حيث وقعت غزوة حنين بين المسلمين وبين هوازن وثقيف في أعقاب فتح مكة ، إنما يقع بين الشرائع والزَّيْمَةَ ، وأن جيوش المسلمين قضت الليل على أبواب الوادي الذي تخطيناه الآن بين هاتين المحلتين ، والذي كان يسمى يومئذ وادي حنين . فلما كانت بُكْرَةَ الفجر تحركوا والنبي على بغلته البيضاء في مؤخرتهم يريدون أن يأخذوا عدوهم على غرة . وإنهم لمنحطون إلى الوادي إذ شدت عليهم القبائل بإمرة مالك بن عوف النَّصْرِي شِدَّةَ رجل واحد ، وأصلحوهم وإبلا من النبال . هنالك اضطرب أمر المسلمين فولَّوا الأدبار منهزمين وقد زلزلوا زلزالًا شديدًا . ورأى محمد فرار أصحابه فلم يتزحزح من مكانه ، بل ثبت وجعل ينادى في الناس وهم يَمْرُونَ به منهزمين : « أين أيها الناس أين ! » ووقف عمه العباس بن عبد المطلب إلى جانبه يصيح في الناس بصوت جهورى أسمعهم جميعًا : « يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمدًا حيٌّ فَهَلِّمُوا » . وكشفت تباشير النهار عن عَمَايَةَ الفجر ورأى الناس موقف رسول الله وعظيم ثباته ، فتنادى القريبون منه يعجبون نداء العباس : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ! وارتدوا إلى المعركة ، وتبعهم من لاذ قبلهم بالفرار ، وذكروا جميعًا ماضيهم في النصر ، فحاضوا غمار الموت لا يبالونه ،

فتم لهم النصر وولى عدوهم مدبراً ولم يعقَّب ، تاركاً وراءه النساء والأبناء والأموال غنيمة للمسلمين .

قلت : فما بال اسم حنين المجيد في تاريخ الإسلام قد عُصِيَ على أثره فلم يبق عَسَمًا على مكان من الأماكن ؟ أترأه قد اختلف فيه من بعد وأن من الناس من يرى أن الواقعة وقعت في مكان غير هذا المكان الذي تحدثني عنه ؟

قال صاحبي : « حقٌ ما تقول ، وإن من الناس لمن يحسبها وقعت بعد الزيمة في مكان بينها وبين السيل الكبير ، وهي المحلة التي تليها . أما أنا فأميل إلى اعتقاد أنها وقعت حيث ذكرت . ويحملني على ذلك أن المسلمين قاموا من مكة للقاء عدوهم ففضَّضُوا في طريقهم بياض النهار ولم يزيدوا عليه ، أو بياض النهار وبعض الليل . وما بين مكة والزيمة يستغرق بمسير الإبل هذا الزمن كله . ثم إن المسلمين ذهبوا بالنِّء الذي ضمنوا إلى الجعرانة وجعلوه بواديتها حين أجمعوا حصار الطائف . والجعرانة تقع إلى شمال الشرائع وتبعد عن السيل . فلو أن حنينًا وقعت حيث يذكرون لترك المسلمون النَّيء بوادي السيل الفسيح أو لعادوا به إلى وادي الشرائع ، أقرب مكان منهم إلى مكة .

« ولعلك تسألني : وما لهم لم يفعلوا إن كانت حنين قد وقعت حيث تذكر والشرائع أدنى إليهم من الجعرانة ؟ ولماذا السؤال لا ريب موضعه . ولقد ألقينته على نفسي والتمست الجواب عنه ، فكان ذلك أن الناس يميلون إلى النزول حيث ألقوا ، وقد ألقوا العرب في عهد الرسول ومن قبله مواضع الأسواق التي كانت تقام حول مكة قبيل الحج في عكاظ ومجنة وذى الحجاز . وليس من اليسير أن تحدد اليوم مكان هذه الأسواق . ولكن الراجح في شأن مجنة أنها كانت تقام بين الشرائع والجعرانة إلى شمالها ، ومن ثم سلك المسلمون طريق الشرائع إلى السوق التي تقع بينها وبين الجعرانة ثم تخطوها إلى وادي الجعرانة الفسيح الذي يسع النَّيء ومن يقوم على حراسته . »

وأبديت الميل إلى تصديق صاحبي ، وإني لأخاله اليوم صادقاً . فقد ذكر الأزرق في تاريخ مكة أن العرب كانوا يذهبون إلى عكاظ يوم هلال

ذى القعدة . وعكاظ تقع عند السيل الكبير أو بعده على خلاف فى الأقوال سنتناوله من بعد . فإذا قضاوا بعكاظ عشرين يوماً انصرفوا إلى مَسْجِنَة فأقاموا أسواقهم بها عشرة أيام ، وإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى الحجاز فأقاموا به أسواقهم ثمانية أيام ، ثم خرجوا يوم الترويه من ذى الحجاز إلى عرفة . وإنما سُمى الثامن من ذى الحجة يوم التروية لأن الناس كانوا يأخذون فيه الماء من ذى الحجاز ليرَوِّوا منه بعرفة وبالمزدلفة حيث لا يوجد الماء . فالظن الغالب إذاً أن يكون الطريق بين الشرائع والبحرانة طريق مَسْجِنَة .

السيل الكبير هو المحلة الثالثة فى طريق الطائف . والطريق بينه وبين الزيمة طويل يقارب ما بين مكة والزيمة . ويبدوهُ من الزيمة درب الياينة . وهذا الدرب مشورة فيه أحجار كثيرة تنحدر إليه مع السيل من أعلى الجبال القائمة عن جانبه . لكنها أحجار لا تعوق السيارة فى انطلاقها وإن اضطرتها إلى عدم الإسراع . وعجيب أن تظل هذه الجبال جرداء على رغم ما ينحط عليها من سيول وأمطار ، فلا تنبت الأشجار فى قُنْسِنها وعلى سفوحها . أيرجع السر فى ذلك إلى أنه لم يُعْن أحد باستنبات هذه القن والسفوح فظلت جرداء أن لم تُبْدَر فيها بذور ولم يُغْرَس بها شجر ؟ ما أظن ؛ فى صحارى تهامة وأوديتها ألوان من الشجر تنبت بذاتها ، منها السَلَم والعَشْر والطلح . ولعل هذه الألوان لا ترقى إلى سفوح الجبال وقُنْسِنها ، ولذلك ظلت جبال الياينة جرداء رغم المياه التى تنحدر عنها .

ينتهى درب الياينة حيث تنتهى هذه الأحجار المنثورة خلاله . ويقوم على جانبه عند نهايته جبلان متقابلان يطلق عليهما اسم السؤمان . ويحسب صاحبي أن هذا الاسم محرف أصله التويمان .

بعد هذين الجبلين ينفرج الوادى ويصلح الطريق وينفسح ويصبح فى سعته وصلاحه كأنه بعض طرق برلين الكبرى . فهو طريق حجرى أصفر اللون فى صفرة الرمل ، تنطلق فيه السيارة بما يشاء لها سائقها من سرعة . وهذا الطريق يدعى البهيتة بلغة البدو ، والبُهيتاء بالعربية فيما ذكر صاحبي . وقد

أضاف أنه سمى كذلك لأنه يبهت الإبلى أى يجهدا . ذلك أنه متدرج في الارتفاع من الزيمة إلى السيل الكبير تدرجاً لا يحسه راكب السيارة في انطلاقها ، لكنه يراه بعينه إذا نظر إلى الطريق أمامه وارتد ينظر فيما وراءه . وصدق . وقد فعلت ، فذكرت طرق الجبال في لُبنان وفي أوروبا ، لا يقدر الإنسان ذهابها في الارتفاع أو الانخفاض أثناء انطلاق السيارة حتى يجعل نظره فيما أمامه وفيما خلفه منها . والبهيتاء تظل ذاهبة في ارتفاعها منذ تبدأ من الهائية حتى تبلغ السيل الكبير .

علمت بأنا بلغنا السيل الكبير حين رأيت جبالا تقوم في الطريق فتسده . ولقد رأيت بأسفل سفحها دوراً من الحجر أدنى إلى الأكواخ منها إلى الدور ، ورأيت المياه تجري أمام هذه الأكواخ . وقد عبرتها سيارتنا ووقفت في فناء فسيح تحيط الأكواخ به . وهبطنا منها ، وأقبل علينا بعض ساكني هذا السيل ، فطلب أصحابي إليهم أن يُعِدّوا لنا شايًا . وفي انتظار إعداد الشاي صلّينا العصر والشمس توشك أن تغيب . وتناولنا الشاي جلوساً على الفراش الذي مد لنا وصاحبى يقول : « من هذا الطريق الذى جئنا منه جاء جيش المسلمين الذين أرادوا حصار الطائف . ويذهب بعضهم إلى أن هذا المكان الذى نقيم الآن به هو الذى وقعت به غزوة حُنين ، وإن كانت الشواهد كلها تُدحض هذا القول . وهذا المكان هو في المشهور وادى نخلة ، ولذلك كان وما يزال ميقات أهل نجد والعراق . وبعد ما بين حنين ونخلة ، ولذلك أميل كما قدمت إلى أن حينئذ تقع بين الشرائع والزيمة » .

وأجلت بصرى في هذه الدور التى حولى التى تتكون منها هذه المحلة ، فذكرت الدّساكر ( العزب ) في الريف المصرى . وزادنى ذكراً إياها أننى قمت أدور في أنحاء المحلة ، فألفيت بعض الخليل والدواب في أحد جوانبها ، وألفيت الماء هاهنا وهناك فيما أمامها . ولم أعجب لوجود الماء واسم المكان عكس عليه ، بل عجبت لقلته . قال الشيخ صالح : هو قليل الآن لانتهاه فصل السيول . لكنه يكثر حين الأمطار حتى يجعل السير في هذا المكان متعذراً .

وكذلك تراه يتبع في قلته وكثرته ما تنحدر عنه الجبال من مياه المطر .  
ولم يكن عجبى من هذا المكان لقلّة الماء ولا لكثرة فيه ، بل لهذا الجبل  
الذى يسد الطريق ولا سبيل لاجتيازه . فمن أين تُرى تتخذ سيارتنا طريقها !  
وإذا كان قد قُدد لها في الصخر طريق فمن أين سار جيش حنّين لحصار  
الطائف ؟ لقد كانوا اثني عشر ألفاً ومعهم من الإبل ما يكفي لحملهم وحمل  
مشونتهم ؟ أفتسلقوا الجبل خفافاً وتسلقت إبلهم معهم ؟ أم داروا حوله وستدور  
سيارتنا الآن كذلك حوله ؟!

ثم ألقيت نظرة إلى الطريق الذى جئنا منه ، إلى هذه البهتاء المنحدرة  
نحو اليمانية فالزيمة ، الجامعة بين فسحة الوادى وصمت الصحراء ، وقد ألقيت  
عليها الشمس المنحدرة إلى مغيبها أشعة ندية أوحت إلى صمتها معانى ينشرح  
لها الصدر ويفتح لها القلب وتسبغ عليها الروح ما يفيض عنها من صور  
ومثّل . وما أبهى ما يفيض عن الروح فى هذه الساعة وما أشد صفاءه ؟  
إنها الطمأنينة إلى الطبيعة الفسيحة المترامية إلى ما وراء الأفق حيث لا يتصور  
خيالنا للكون نهاية ، طمأنينة تضمنا إلى أحضان الطبيعة وتجعلنا نضم الطبيعة  
إلى أحضاننا ، إنها سكينّة الفؤاد إلى هذا الصمت المهيب العذب ، لا تفسده  
ضجة الحياة ولا تغشيه مشاغلها بسحب الموم حرصاً على المال والسلطان .  
إنه التأمل فى هذا السكون العظيم وفى بارئه الأكبر ، تعالى جل شأنه ، تأملاً يثير  
أمام الذهن صورة الماضى مجتمعة فى النفس إلى أول الخلق ، وصورة جهاد  
الإنسان أثناء هذا الماضى ليبلغ الكمال . ومن هذا الجهاد مسيرة جيش حنين  
فى ذلك الطريق مترنماً بأغنيات الفوز والظفر رافعاً عقيرته إلى السماء منادياً:  
لَسْبِيكَ اللَّهُمَّ وَسَعَدَيْكَ . ومن هذا الجهاد مسيرة الرسول فى عزلة يريد الطائف  
كما أريدها أنا اليوم ، لكنه يريد لها لغاية أسمى وغرض أرفع من غرض الدرس  
وغاية المعرفة ؛ يريد لها ليدعو أهلها إلى الحق وليتقدمهم من ظلمات الضلال .

ودعاني أصحابى لتتابع سيرنا . وتخطت السيارة الماء عائدة إلى الطريق ،  
ثم سارت إلى صدر الجبل كأنما تريد أن تقتمحه ، وهى تتخطى أثناء سيرها



مياهًا تجرى هاهنا وهناك منحدره على هون من أعلى القنن . وما لبثت حين استدارت بين صخور الجبل حتى ابتلعها الجبل في جوفه ، فهي تشق خلاله طريقًا وعرًا ما تكاد تتقدم أثناءه ؛ ترتفع آناً على حجر وتهبط آناً إلى طريق لا يستوى بضعة أمتار حتى تكظه الأحجار فيضطر السائق إلى أن يعنّف بالسيارة كما تتخطاها . والجبل تقوم قممه عن يميننا وقممه الأخرى عن يسارنا قد حجب عنا كل شيء إلا طريقًا في السماء تدلنا زرقته على أن الشمس لما تغرب . وأبدت لصاحبي عجبى لوعورة الطريق بما لم أر قط مثله ، وخشيت أن يكون ذلك شأننا فيما بقي أماننا إلى الطائف . قالا :

« لا عليك ! فإنما هذه ذات عرق ، وهذا الرّيع الذي تصعد بنا السيارة خلاله لا يزيد على بضعة كيلو مترات هي وحدها كل ما في الطريق من مشقة . فإذا اجتزناها عدنا إلى مثل طريق الهانية وطريق البهيتاء تداولاً بينهما حتى الطائف . وإطالما حاولت الحكومة أن تصلح هذا الجزء من الطريق فغلبتها السيول تخريباً إياه وإلقاء للأحجار من قنن الجبال أثناءه » . وبينما نتحدث كانت السيارة تبدل مجهوداً أشق مجهود وأعسره ، مجهود الجبل تريد أن تقذف بمن في جوفها سليماً إلى الحياة : أتنجح وتنجو بجنينها ، أم يروح مجهودها سدى فتذهب هي وجنينها ضحيته ، أم يخرج من جوفها وتكون هي الضحية ! والسائق يعاونها في هذا المجهود ويفادى بها الصخر حيناً ويدفع إلى محرّكها مزيداً من البنزين حيناً آخر ، وهي بين هذا وذاك تن تارة كأنما تتأوه ، وتقف أخرى مستسلمة للمقادير وقد بدا منها اليأس . وإنها لتندفع بين الصخور وفوقها وقد قاربت نهاية الرّيع إذ ارتطم بطنها بصخرة اشتدت من هول صدمتها صيحتها . وسألنا حسناً ما بالها ؟ فهوّن الأمر . لكنه نزل من مكانه يفحصها ثم انبطح أرضاً يحاول أن يعالجها ، ووزلنا نحن منها وتخطينا ما بقي من الرّيع ، فانكشف أماننا سهل فسيح تبينا أثناءه أن الشمس قد انحدرت في هوة المغيب . ولم يبطئ السائق بل أدركنا بالسيارة وأبأننا أن عطباً غير ذى بال أصابها ، وأنها قديرة على أن تبلغ بنا الطائف . وقد اقتضاه

عطبها ألا يسرع بها كما كان يود أن يسرع .

وسرنا نشق سهلا فسيحاً تمشّت بشائر الليل في جوفه فأكسبته رقة وجمالاً وإن حجبت عن النظر الكثير مما وددت لو استمعت به . ويطلق السائق للسيارة العنان إذا رأى الطريق صالحاً فتسرع ، ولكن لا كما كانت تسرع في البهتاء . ويبعث أضواء فواره الساطعة ما بين آن وأن لتكشف له الطريق كلما غمّ عليه . وقليلاً ما يغم الطريق على هؤلاء البدو الذين اعتادت أعينهم أن ترى خلال الظلام . وسألت عن أشجار تبدت أطباقاً إذ نمر بها فقيل لي إنها الطلح الثابت في الصحراء .

قال صاحبي : « أنساني ما عانت السيارة ساعة ارتطمت بالريع أن أذكر أن المكان الذي وقفنا عنده بعد خروجنا من ريع ذات عرق ، والذي يتصل بهذا الطريق الذي نسير فيه الآن ، هو مفرق الطريق بين الطائف والعُشيرة . فنحن قد سرنا إلى يمين ذات عرق نقصد الطائف . فأما الذين يقصدون العشيرة ونجدنا فيسيرون إلى اليسار . وقد تواضع الناس على تسميته مفرق العُشيرة » .

وبعد هنيهة أردف يقول : « ونحن الآن نقرب من السيل الصغير . وتقع ديار القُشمة بين مفرق الطريق والسيل الصغير فهي التي تمر السيارة بها الآن . والقُشمة قبيلة من هوازن لعلها اشتركت في غزوة حنين مع سائر هوازن وثقيف . وسمر الآن عند السيل الصغير بمكان اشتهر باسم القهاوى . ولو أن النهار أسعدنا بضوئه لرأيت آثارها . وإنما يعنيك من ذلك ما يدور على أفواه الكثيرين من أن سوق عكاظ كانت تعقد عندها ، وما يؤكده بعضهم من صحة هذا القول . لكنك قد سمعت أنها كانت تعقد عند السيل الكبير ، وستسمع كذلك أنها كانت تعقد في وادي عُشيرة مما يلي رُكبة ، وهو المشهور قديماً بوادي العقيق . ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن هذه السوق كانت تعقد على مقربة من الطائف بواد يقال له وادي عقرب . ولقد حاول بعضهم تحقيق هذه الأقوال والقطع برأى فيها . فلعل ما تقوم به من البحوث يصل بك إلى

ما لم يصل إليه غيرك . فلقد كان لمكاظ ذكر في سيرة الرسول عليه السلام قبل أن يبعثه الله نبياً .

وهذأت السيارة من جريها ، وقال السائق : « هذه القهاوى . وهنا المكان الذى يقولون إنه عكاظ » . أما أنا فلم أر شيئاً أستطيع أن أتبينه . فقد هبطت كِسْفُ الظلام وانطوى الوجود فى دُجْنَةِ الليل . وكنا فى الثلث الأخير من ذى الحجة ، فلم يكن للقمر فى السماء أثر ، ولم تكن النجوم لتكشف من غِطاء الليل شيئاً . وهذه الأودية الصامتة فى رابعة النهار هى الساعة أشد صمتاً ومهابة . فالنهار يجلو أمام النظر ما فيها من حزون وبطون . أما الآن فالعين لا ترى إلا ظلاماً . فإذا تبينت خلال الظلام شيئاً فأطياف لا تدرى أهى أطياف الشجر أم مَرَدَّةٌ من الجن تسبحُ الليل فى مهامه هذا القفر الموحش . وما لها لا تكون أطياف أولئك الأعراب الذين يقطعون على الناس الطريق وينزعون عنهم ما يملكون ، إن رضوا كرمًا منهم أن يتهببوا حياتهم ! هذه أخيلة تدور بخاطرى الساعة وأنا أصف الطريق . أمّا والسيارة تسرى بنا الليل أثناءه فلم يمر بى طيفها ، بل كنت مطمئناً كل الطمأنينة . ولم يكن مرجع طمأنينتى إلى أننا كنا أربعة بالسيارة ، وأننا كانت تتبعنا عربة « البكسفورد » . فلا خوف علينا من مرده الجن ولا من مرده الإنس . بل كان مرجعها إلى حال نفسية ألفتها فى حياتى ، كنت فى الحجاز أشد إلفاً لها . فأنا قَلَمًا يساورنى الخوف من شيء . لكننى كنت فى الحجاز أشعر كأنما تضاعفت قوة الحياة فى نفسى ، لأننى تضاعفت ثقتى بالله وتضاعف إسلامى له .

وتكلم صاحبى بعد زمن من عودة السيارة إلى انطلاقها كأنما يريد أن يقطع الصمت الذى سادنا خلال هذا الليل الذى يشتملنا : « لقد صرنا على مقربة من الطائف ، وهذا الوادى الذى يسبقها تعمره قرى كثيرة ، فعلى مقربة منا الآن أم الحمض ، ويجىء بعدها وادى لُتْقِيم ، ثم المُسَلَيْسَاء ، ثم هَضْبَةُ الزوار ، ثم شربة ، ثم الطائف . وقد لا نحتاج فى اجتياز هذه جميعاً إلى غير ساعة أو أكثر قليلاً .

شعرت من لهجة هذا الحديث أن صاحبي يريد أن يهونَ عليّ مشقة الطريق ، فقلت : « إن الجوّ الآن جميل يبعث إلى نفسى الغبطة والمرح ، ولا حاجة بنا أن نعجّل غايتنا . وما دامت السيارة لا تسرع بنا فليت "البُكْسُ" يدركنا لندخل الطائف معاً » .

قال الشيخ صالح : « أحسبني أسمع صوت نفير لعله نفيره . وأحسبه على خمسة أميال منا . وهو لا يرب قد تخطى الريح دون أن يلحقه أذى . فعجلاته عالية تيسر للسائق تفادى الصخور التي تعترض سبيله ، وسائقه جرىء لا يخاف ، وأكبر ظني أنه مدرّكنا قبل نصف ساعة من وقتنا هذا . بذلك ندخل معاً الطائف حيث ينتظرنا الناس ، فلا نضطر نحن ولا غيرنا إلى انتظاره هناك » .

ولم يخطئ ظن الشيخ صالح . فبعد دقائق سمعنا جميعاً صوت نفير قرر سائقنا أنه نفير « البكس » ، ثم قرر وقد التفت وراءه أنه يرى ضوء فواره . فنحن إذأً بمأمن إن أصاب سيارتنا عطب يحول دون بلوغها الطائف ؛ إذ نستطيع أن نركب البكس ونتم الطريق .

وأدركنا البكس بعد نصف ساعة ، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً ، بل لعلها قاربت التاسعة . وانطلقت العربتان تجريان في طريق معتدل قدر ما يكون طريق السيارة فوق رمال البادية معتدلاً . وشعر الشيخ صالح أني أضخم إلى رداًئى ومشلحى فقال : « هذا جو الطائف ، والطائف ترتفع عن سطح البحر ألفاً وسبعمائة متر أو تزيد ، وهى لذلك مَصِيْف أهل مكة . فلا عجب أن أدركك من جوها شيء من البرد . ولكن لا تخف فهى مَصَحَّح لا يضر جوه » .

انتهز الشيخ عبد الحميد فرصة هذا القول فأردف : « إذا كنت تضم إليك رداك من البرد فما كان عسى أن يصنع جيش حنين ولم يكن يحول بينهم وبين هواء البادية زجاج كالذى يحول بينك وبينه ! » وتبسمت ضاحكاً من قوله وأجبت : « لقد كانوا في دفع بالظفر والغنيمة ، وكانوا كذلك في دفع بالسير

على أقدامهم أو على ظهور إبلهم . ولعلمهم كانوا يقطعون هذا الطريق في الربيع أو الصيف فكان لهم نعيماً وغبطة .

انقضت الساعة التاسعة وتنصفت الساعة العاشرة والظلمة المحيطة بنا درّ دَبَّيس لا يرى الإنسان أثناءها كفه . والسيارتان تجريان على هُون حتى لا يزيد ما بسيارتنا من العطب . وتحدثت آنأً ونلزم الصمت آخر وقد حُجِب عنا كل ما حولنا فلا نرى إلا ما يضيئه فانار السيارة من الطريق . وإنّا وكذلك إذ بدا من ناحية الشرق ضياء وخط سواد السماء ، ثم أضاء القمر الأرجاء . ومددت البصر ذات اليمين وذات الشمال فرأيت ما حولى سهلاً فسيحاً لا تقف الجبال البعيدة دون تجوال النظر فيه . وبدت الجبال لبعدها عنا أشباحاً مهولة لا تميز منها إلا ارتفاعها وضخامتها . وفي هنيهة صمت قال السائق : هذه الطائف . وحدثت أرجو أن أرى بناء فارتد بصرى ولم أر شيئاً . وإنما تعزيت بالمثل العربى : « القول ما قالت حزام » . ولئن كانت حزام تبصر إلى مسيرة ثلاثة أيام لقد عودنا حسن الصدق حين يتحدث عما يرى .

هذه الطائف . فى هذا السهل الفسيح حولنا كانت إذآ جنود النبي العربى منتشرة حين جاءت من حنين لحصار المدينة الحصينة وأهلها ذوى البأس والمنسعة . وفى مكان منه ضربت خيمتان من أديم أحمر لمقام أم سلمة وزينب أمى المؤمنين . ترى أين يكون هذا المكان ؟ أكان هاهنا على مقربة منا فنحن نسير حيث نزلوا ! إنهم جاءوا إلى الطائف من ناحية ليبة . وهى لا ريب قريبة من هنا . ولكن أين كانت مضارب خيامهم ؟ لعلى لو سألت لمتاً أجبني أحد . فتحديد المواقع التى مرّ بها الرسول أمر لا يعرفه الناس من أهل هذه البلاد إلا ظناً ، إلا من يكون قد عنى منهم بدرس السيرة درساً تطبيقياً . ولقد كنت سمعت أن الشيخ عبد الله بن بليهد عالم نجد قد قام بشيء من هذا الدرس ، فأحاول بعد عودتى إلى مكة أن أراه ، وإن كنت لا أثق كثيراً بأننى سأجد طلبتى عنده . فأما الحاج عبد الله فلبى - أو سير سينت چون فلبى - فلم يجعل من هذا الأمر موضع عنايته مخافة الخلاف مع علماء الشريعة على قوله ،

أو لأنه أكثر عناية برسم خرائط بلاد العرب الحالية كما يبدو من عمله .  
قال صاحبي : هذه شبرة . وعجبت كمصري لسماح اسم يتداوله سمعي  
أثناء مقامي بعاصمة بلادي . وفطن صاحبي لعجبي فقال : « وهذا قصر  
الملك هنا . ولقد بناه الشريف عبد الله بن عون وأحاطه بالبساتين ، وسمي هذا  
المكان شبرة باسم شبرا الحجاورة للقاهرة ، لحجاورة هذا المكان للطائف . وهذا القصر  
من أفخم قصور الحجاز ، بل لعله أفخمها جميعاً » .  
كان صاحبي يقول هذا الكلام والسيارة تتخطى على هون بين جدران  
أغلب الظن أنها من الحجر الأبيض ألقى عليها القمر أشعته البيضاء فزادها  
بياضاً ، فأما ما وراء هذه الجدران من قصور وبساتين يتحدث عنها صاحبي  
فلم يلفتني إليه ولم يوقظ إليهِ انتباهي . لقد أزيّت الساعة على الحادية عشرة  
مساء ، أو الخامسة بالوقت العربي إن شئت ، وقد كنت مجهوداً غاية الجهد .  
ولعل لو رأي في هذه الساعة أحد من أهل أو أصدقائي بمصر لذكر لغيره قول  
عمر بن أبي ربيعة :

أخا سَفَرَ جَوَابَ أَرْضِ تَقَادَفَتْ بِهِ فَلَواتُ فَهُوَ أَشَعَتْ أَغْبُرُ  
اجتازت بنا السيارة شبرة ثم تيامنت فمّرت ، بعد فضاء يبدو إلى جانبه  
سور لم أدر ما هو ، بمنازل أشبه بالأطلال ، لكن بناها يبدو جديداً لم يتم  
بعد ، فلم توضع أبوابه وفوافذه . وتيامنت السيارة ثم تياسرت ثم وقفت بباب  
لقينا عنده من ينتظرنا . وهبطنا من السيارة واجتازنا الباب إلى حديقة لمع تحت  
ضوء القمر نباتها ، ثم سرنا إلى بهو فسيح مظل على نافورة ماء لم أقف عندها  
وفي يمين البهو باب دخلنا منه إلى غرفة بها مقاعد وثيرة دعاني القوم إلى الجلوس  
فيها ، فجلست سعيداً أن قطعنا رحلتنا هذه وبلغنا غايتنا منها بعد الذي  
أصاب السيارة سالمين . وجرى لنا بالقهوة فشربناها ، وتبادلنا من الحديث ما رد  
إلينا بعض الطمأنينة . وغاب عنا الشيخ محمد صالح القزاز زمناً ثم عاد فجلس  
يحيينا . وكان ما تمثل به :

يا ضيقنا لو جئتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وَسِمَتْ فِيهِ إِذْ تَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ الرَّوْحَ الْعَرَبِيَّ الْقَدِيمَ ، رُوحَ الْكِرَامَةِ وَالْكَرَمِ وَالشَّهَامَةِ وَالنَّخْوَةَ ، فَشَكَرْتُ لَهُ وَبَادَلْتُهُ تَحِيَّةً بِتَحِيَّةٍ . وَأَقَمْنَا بِمَجْلِسِنَا حَتَّى دُعِينَا لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ . وَتَنَاوَلْنَاهُ وَاعْتَذَرْتُ عَنِ الْقَهْوَةِ وَتَمَحَدَّثْنَا حِينَئِذٍ ثُمَّ أُوِينَا إِلَى فِرَاشِنَا . وَكَانَ فِرَاشِي فِي غُرْفَةٍ بِأَبْهَا يُقَابِلُ بَابَ غُرْفَةِ الْجُلُوسِ فِي الْجِدَارِ الْمُوَازِي مِنَ الْبُهِوِّ ، وَمِنْ دَاخِلِ هَذِهِ حَمَّامٍ بِهِ صِنَابِيرٌ لِلْمَاءِ سَاخِنًا وَبَارِدًا . وَنَمَتُ مَلءَ جَفُونِي ثُمَّ اسْتَيْقِظْتُ بِكَرَةِ الصَّبَاحِ مِمْتَلِنًا نَشَاطًا . وَأَقَمْتُ أَنْظُرَ كَيْفَ أَعَدَّ السَّيِّدُ صَالِحُ الْقِرَازِ بَرْنَامِجَ يَوْمِنَا . وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ جَاءَنِي بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْحَمِيدِ حَدِيدِي وَمَعَهُمَا وَرَقَةٌ كَتَبَهَا فِيهَا بَرْنَامِجًا لِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ مَقَامِنَا بِالطَّائِفِ . وَكَانَ بَرْنَامِجَ يَوْمِنَا الْأَوَّلِ مَدِينَةَ الطَّائِفِ وَمَا حَوْلَهَا .

## الطائف

الطائف مدينة من أقدم المدن في بلاد العرب . ولعله لا يغلو من يحسبها أقدم من مكة أو من المدينة ، وإن كانت الأساطير تذهب إلى أن بقعة الأرض التي تقوم منطقة الطائف عليها لم توجد ببلاد العرب إلا بعد أن أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . فقد ذكروا أن إبراهيم لما جاء بهاجر وإسماعيل إلى وادي مكة فأقام قواعد البيت توجه إلى الله بقوله : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » . عند ذلك أمر الله الملائكة فانتزعوا قطعة من أرض الشام ووضعوها في المكان الذي تقوم الطائف به . وعلماء الجغرافيا وعلماء طبقات الأرض يُنكرون لا ريب هذا الكلام وإن رُوي فيه حديثٌ للنبي صلى الله عليه وسلم . وهم ينكرون هذا الحديث ويؤكدون أن النبي لم يقله ، لأن الطائف وباديتها وأوديتها وجبالها وجدت مع بلاد العرب ومع الشام جميعاً ، فلم يُنقل منها إلى الشام شيء ولم يُنقل من الشام إليها شيء .

والتسليم برأى هؤلاء العلماء لا يبنى ما تصوره الأسطورة من تباين بين طبيعة الطائف وطبيعة مكة ، يتجلى لكل من قرأ كتب الأدب القديم ، وقرأ سيرة النبي العربي ، ومن عنى بتاريخ بلاد العرب بوجه عام . وأقل مظاهر هذا التباين مما تحدثت عنه الكتب خِصْبُ الطائف وإحمال مكة ، وما ترتب على هذا الخصب وهذا الإحمال في الطبيعة من أثر في الرجال . فالعرب الذين تركوا على التاريخ الإسلامي ذكراً أكثرهم من ثقيف وهوازن ، وأقلهم من مكة والحجاز . ولولا بيت الله بمكة ، ولولا أنها مسقط رأس النبي العربي ، لكانت الطائف صاحبة الأمر في الحجاز ، وخاصة بعد أن فقدت مكة مكانتها التجارية حين تحول من ذلك اليوم البعيد طريق التجارة من البر إلى



البحر ، ومن سفينة الصحراء إلى سفينة الماء . وأقول اليوم البعيد لأنه يبدأ قبل الإسلام ، ولأن طريق القوافل المار بمكة فقد كلَّ خطره منذ صدر الإسلام وحين انتقلت العاصمة الإسلامية من بلاد العرب إلى الشام والعراق ومصر .

وليس هذا التباين في الطبيعة هو وحده الذي يجعل للطائف هذه المكانة المرموقة ؛ فتاريخها يكفُّل لها مكانة مثلها . وليس يستطيع الباحث في سيرة النبي العربي أن يمر بالطائف دون أن يقف عندها . فنازل بنى سعد الذين استرضع النبي فيهم قرية من الطائف بل هي من باديتها . وإذا لم يكن يسيراً أن يقطع الإنسان بأن حكيمة السعدية ظنَّ النبي مرت بالطائف في ذهابها إلى مكة أو في عودتها منها ، فإن طبيعة الطائف وباديتها الخصبية الكثيرة الأودية والجبال قد كانت أول ما وقعت عليه عينا محمد الطفل المترعِّع في هذه البيئته البدوية ، الناعم بهوائها وبين أهلها ذوى النفوس الحرة الطليقة من كل قيد . ولما بُعث النبي وقضى من السنين ما قضى بمكة فلم تُشْمِرِ دعوته الثمرة التي تُهيئ له التغلب على ضلال قومه ، كانت الطائف في مقدمة البلاد التي اتجه نظره للامتناع بها وببأس أهلها . صحيح أنهم لم يسمعو له . وأنهم كانوا أشد حرصاً على عبادة اللات منهم على اتباع هذا الذي جاء بصرفهم عن دينهم كما حاول عبثاً أن يصرف أكابر قومه عن دينهم ، لكن تفكير محمد في أمرهم ، وذهابه وحيداً إليهم ، وتعريضه نفسه لما تعرض له منهم ، وهو لا يملك في وحدته دفاعاً عن نفسه ، كل ذلك يدل على أنه رآهم أرجح عقلاً وأدنى إلى إجابة داعي الحق من غيرهم . فأما ما كان من صدهم إياه ومن تحرش صبيانهم به ، ثم ما كان بعد ذلك بينه وبين عداس النصراني ، فتلك آية الله على أن الحق في حاجة إلى صلابة في النفس وقوة في الخلق لينتصر ، فإذا دعا إليه القوى الأمين الذي يُخلص في الدعوة تم له النصر ولو بعد حين .

ذهب محمد يومئذ إلى الطائف وحيداً بعد أن تولاه اليأس من قومه لما اشتهر عن الطائف وأهلها من رجاحة الحكم وسعة الصدر وقوة البيان ، وجعل يصعد الجبل وينحدر إلى السهول ثم يصعد ثم ينحدر ، حتى إذا بلغ القوم

في ديارهم قصد إلى دار أبناء عمرو بن عُمَيْر بن عوف الثقفي وهم يومئذ سادات قومهم : أولئك عبد ياليل ومسعود وحبيب . وجلس إليهم يحدثهم عن رسالته ويدعوهم إلى القيام معه على من خالفه من قومه ويَعِدُّهم النصر والجنة . لكنهم كانوا كغيرهم من أهل شبه الجزيرة ، يُريدون العاجلة ، ويَجِدُون في أصنامهم الوسيلةَ إلى ربهم ، ثم كانوا يرون مخالفته على قريش أمراً قليل النفع مخشى الضرر ؛ هو كذلك بخاصة لأن الخلاف يتصل بعبادة الأصنام ، على حين لم تنازعهم قريش عبادة اللات ولا نازعتهم قدسية بيتها ، كما أنهم لم ينازعوها حرمة البيت العتيق وأصنامه . جال هذا كله بخاطر القوم ومحمد يحدثهم ، فلم يجدوا مجادلته موضعاً ، بل أنكروا عليه رسالته في غلظة وفضاظة . قال أحدهم : « هو يَسْرُطُ ثيابَ الكعبة إن كان أرسلك » . وقال الثاني : « ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! » ورأى الثالث ما في هاتين العبارتين من قسوة فاجأ إلى التهكم وقال : « والله لا أكلمك أبداً . إن كنت رسولا من الله كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك ؛ وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي أن أكلمك » .

حزن النبي لما سمع منهم وأيقن أنه ملاق من سائر ثقيف مثل ردهم . لقد كان يطمع في معونتهم لحكمتهم وسيادتهم ونزول قومهم على حكمهم ؛ أما وذلك جوابهم فلاخير في التحدث إلى غيرهم . لكن قريشاً بمكة لن يفوتها أن تسمع بما أصابه إذا تناقل أهل الطائف روايته ، فيزداد محمد والمسلمون هواناً عليها وتزداد إيذاء لهم وقسوة بهم . لذلك ألح محمد على محدثيه الثلاثة أن يكتموا ما دار بينه وبينهم حتى لا تصيبه قريش بأذى . أما عبدُ ياليل وأخواه فخافوا مغيبة الكتان وما يمكن أن تقول به زيارة محمد إياهم فلم يسمعوا له ، بل أغرّوا به سفهائهم حين خرج من عندهم . وتعبه السفهاء يقذفونه بالحجارة ، فالتجأ منهم إلى حائط لشيبة وعثبة ابني ربيعة وجلس إلى ظل شجرة فيه ورفع طرفه إلى السماء يشكو إلى ربه سوء ما حل به . ورآه ابنا ربيعة ورأيا ضراعتة وما هو فيه من سوء حال ، وبعثا مع غلامهما عدّاس النّصراني بقِطْف من عنب يَروى به ظمأه ويرفّه به عن نفسه ؛ ومد النبي يده إلى العنب

وقال : باسم الله ، ثم أكل . ودهش عداس لما رأى وسأل محمداً عن شأنه ؛ فلما علم أنه نبي أقبل عليه يقبل رأسه ويديه . وحدّر صاحباً الكرم غلامهما من أن يؤمن به ، فنصرانية عداس خير عندهما من هذا الذي يدعو محمد إليه . وانصرف محمد عن الطائف كسير الخاطر ، وعاد يصعد في الجبال وينحدر في السهول ثم يصعد ثم ينحدر حتى بلغ مكة ، فإذا الأنبياء سبقته إليها ، وإذا قريش تستقبله بالسخرية وتناله وأصحابه من الأذى بأكثر مما نالته ونالتهم به من قبل .

لو أن محمداً كان رجلاً كالرجال لفتّ ما صنع أهل الطائف في عَصْده ولآثر السلامة بين قومه ، فعاد إليهم وانضوى تحت لوائهم . لكنه أقام يدعو إلى هذا الحق الذي لم تأبه له ثقيف ، قوية بالحق نفسه ، عامراً بالله قلبه ، حتى نصر الله هذا الحق بعد حين . فعاد محمد بعد عشر سنوات أخرى إلى الطائف قوياً بلواء هذا الحق الذي أظلم بلاد العرب كلها ، فتحصن أهلها منه ولم يُدْعُوا لدعوته كرة أخرى . لكنهم مالوا ، حين رأوا أن لا ملجأ من الحق إلا إليه ، أن بعثوا إلى محمد من تلقاء أنفسهم يلتمسون الانضواء إلى دينه والأخذ بنصره . أو ليس عجيباً أن يأبى الناس الحق إذا دُعوا إليه بالحسنى وأن يجاربوا الرسول الذي يدعوهم إليه ، فإذا تولى عنهم ورأوا أن لا قبل لهم باعتزال الحق بعد أن آمن الناس به أقبلوا طائعين يلتمسون رضوان من سخروا منه من قبل وأغروا به سفهاءهم ، ثم حاربوه ومنعوا منه وطنهم ! فلقد تحصنت الطائف من المسلمين بعد انتصارهم في حنين فلم يستطيعوا فتحها وانصرفوا عنها ، ثم بعثت هذه الطائف سادات ثقيف يُعلنون إلى محمد إسلامهم ويكلون إليه أن يبعث معهم من يفقههم في الدين ويرشدهم إلى عظمة الحق فيه . هذه آية خالدة على الزمن تشهد بأن للحق لا محالة النصر آخر الأمر ما استمسك به صاحبه عن إيمان ويقين وبأن النفس الإنسانية تهفو إلى الحق ما اطمأنت إلى اقتناع الداعي إليه وإلى إيمانه به .

خرجت مع أصحابي أزور هذه الطائف ذات التاريخ المجيد ، وصحبنا في زيارتنا رجل من أهل الطائف هو الشريف حمزة الغالبي . ولقد أقبل هذا الرجل

علينا منذ الصباح ، وقدمه إلى السيد صالح القزاز ؛ فبادر الرجل فحياني ضيفاً للطائف أجمل تحية . وهو بدوي في سحنته وفي حديثه وفي لباسه وفي تحيته وفي كل ما يبدو من مظهره . أسمر السحنة ، عربي التقاطع ، تلمع عيناه السوداوان بيريق من ذكاء فطري ، وتدل لهجة حديثه اللينة على دهاء وسعة حيلة . يلبس الصمادة والعقال الصوف على رأسه ، وجلباباً يتمنطق فوقه بقماشة حمراء أشبه شيء بالفوطة ، تتدلى من خصره إلى أسفل ظهره حتى تحاذي الركبتين في مثلث لا يبدو منه من الأمام غير انحدار القماش من حيث يربط حتى يستدير ليبدو في صورة المثلث وراء ظهره . وهو يلبس في قدميه نعلين حجازيتين لا شيء فيهما من زخرف النعال التي يلبسها اليوم أهل مكة ، والتي زُخرفت منذ الفتح الوهابي الأخير على طراز النعال النجدية . ولما ذكر السيد صالح القزاز وهو يقدمه أنه سيكون دليلنا في بادية الطائف وما حولها أبدى الرجل من الاغتراب بذلك ومن تفرح قلبه له ما زادنا اغتراباً برفقته وأنسا به .

يقع منزل السيد محمد سرور الصبان ، حيث أقمنا ، في أقصى الطائف بضاحية تدعى قروة . وبهذه الضاحية عدة آبار أشهرها بئر عجلان المعروفة بعذوبة مائها . ومكان هذه البئر منها على مقربة من جبل السكارى في جنوب الطائف . ويطلق هذا الاسم على الجبل الذي تسمى به منذ العصور الأولى ، وأنت لذلك تجده في الكتب القديمة . وسبب إطلاقه فيما يذكرون أن أهل الطائف كانوا يذهبون إليه في أعيادهم الأهلية يسمرون ويسكرون . ومنازل قروة قليلة ، وبها مبان لم تم ، وبها آثار منازل مهدامة ؛ هذا مع وفرة مائها وكثرة آبارها وصلاحها للسكنى والاصطياف . ويذكر أهل الطائف ، وتؤيدهم كتب الرحلات إليها ، أن قروة كانت عامرة كثيرة الدور مقصودة من المصطافين من أهل مكة وغيرهم ، وأنه كان بها خمسة عشر بستاناً . فلما وقعت الحوادث الأخيرة ودخل الوهابيون الطائف دمرت أكثر منازلها وهجرها أهلها وصارت إلى ما رأيتها عليه من قلة المنازل وانعدمت بستانها .

غادرت المنزل مع أصحابي ومعنا الشريف حمزة وركبنا السيارة نبتغي زيارة

الطائف ذات التاريخ المجيد . فلنذهب إذاً إلى البقعة التي تفاخر بها الطائف كل مكان آخر في بلاد العرب ، تلك حيث دفن أصحاب الرسول الذين قتلوا حين حصار الطائف ، والذين بقى اسمهم علمًا على التضحية بالحياة في سبيل الحق ، كما بقى أبناء الطائف المثل الأعلى لاستماتة أبناء الوطن في الدفاع عن وطنهم . وذهبت بنا السيارة إلى مسجد ابن عباس القائم حيث كان جيش المسلمين الذين حاصروا الطائف على عهد النبي ، والمجاور لقبور الصحابة الذين استشهدوا في هذا الحصار ، إذ تقع القبور في مكان مسور بجوار المسجد من ناحية الشمال . وقد سلكت السيارة إلى المسجد طرفًا خارج المدينة ثم انحدرت من طريق ينتهى إلى ميدان المسجد . ولم يكن ذلك عسيرًا والمسجد يقع من المدينة في الطرف الذى يقابل موقع قروة ، فلا حاجة بالذاهب إليه أن يجوس خلال مساكنها . وبين الميدان وباب المسجد ممر يبلغ طوله بين الخمسة عشر مترًا والعشرين ، وعرضه نحو ستة أمتار أو سبعة . وإلى يسار السائر في هذا الممر متجهًا إلى المسجد مبان يذكرون أنها مدرسة ومكتبة . وهى على نظام المباني المتصلة بالمساجد القديمة في مصر ، والتي كانت مكاتب ومدارس إلى أول القرن العشرين . لها نوافذ واسعة تتقاطع فيها قضب الحديد لتحول بين داخلها والخارج . ويتعرج الممر عند باب المسجد ، فإذا سار الإنسان فيه ألقى بابًا مقفلا بالحجر ، ذلك باب قبر ابن عباس الذى كان يزار فيما مضى ولا يسمح لأحد اليوم بزيارته . وكانت على هذا القبر قبة هدمها الإخوان فيما هدموا من القباب حين دخلوا الطائف والحجاز كله .

وباب المسجد يقابل الميدان ؛ ويتخطى الإنسان منه إلى فناء مكشوف لا تقام فيه صلاة . فإذا وقف فيه متجهًا إلى ناحية القبر كان المسجد أمامه والحراب في صدره . والمسجد مسقوف كله ، قائم سقفه على عمد فوقها عقود ، مفروش كله ، بعضه بالسجاد وبعضه بالحصير ، فسيح الجنبات يتسع لبضعة آلاف من المصلين . وللقبر باب من ناحية المسجد غير بابه المثل على الخارج والذى أقفل بالحجر . وقد أقفلت أبواب مقصورة القبر من ناحية المسجد لإقفالاً

محكمًا لا سبيل معه إلى دخول أحد عند القبر للتبرك به أو لاتخاذ صاحبه إلى الله زليق ؛ فذهب الإخوان في هذا الأمر حاسم لا يقبل هواده .

وكان الناس فيما مضى يصلون الجمعة في مساجد الطائف الأخرى ولا يقصدون إلى هذا المسجد العباسي . ذلك بأن أهل المدينة وما حولها اتخذوه مقبرة تيمناً بدفن موتاهم إلى جانب الصحابة ورجاء أن يلتقوا في الآخرة بهم فيكونوا لهم شفعاء عند الله . وقد كثرت القبور في المسجد في بعض العهود حتى امتلأ نصف صحبته بها . فلما كان مستهل القرن الحادى عشر الهجرى نهى الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه خيفة أن يصير مقبرة كله ، وأمر بأن يصلى الناس الجمعة فيه بعد أن كانوا يعتبرونه مقبرة لاتقام فيها الصلاة .

ولم يكن المسجد يومئذ على ما هو اليوم عليه من سعة . ولعله لم يبسن إلا بعد زمن غير قليل من حكم العباسيين إكراماً لقبر ابن عباس ، على أنه كان موضع التجارة والإكرام في مختلف العصور ، فكان كلما تخرب منه جانب عُمّر . وقد تضافر أمراء المسلمين من أهل اليمن والحجاز ومصر على عمارته . كذلك كان شأنه ، حتى لقد عهد وإلى الشام محمد باشا العظم إلى أحد المعماريين المشهور لهم بالتفوق بأن يزيد في عمارته فزاد فيه اثنتين وثلاثين ذراعاً في الطول ومثلها في العرض وذلك في سنة ١١٩٣ هجرية .

وابن عباس صاحب هذا القبر والذي سمي المسجد باسمه ، أو الحبر ابن عباس كما يسميه بعضهم ، هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم النبي العربى ، وجد الخلفاء العباسيين . وليس أحد قرأ علوم الإسلام إلا يعرفه كل المعرفة . فهو من رواة الحديث المعروفين ، وهو من أكثر أهل زمانه ذكاء وعلمًا . وكان أبيض وسيمًا جسيمًا مُشربًا صفرة طويلا صبيح الوجه له وفرة يخضب بالحناء ويلبس الخبز ويعتم بعمامة سوداء يُرُخِيها شبراً . توفى سنة ٨٨ هجرية بعد أن كُفَّ بصره .

أما قبور الصحابة الواقعة إلى جوار المسجد من ناحية الشمال فيبلغ عددها اثني عشر قبراً ويحيط بها مكان مسور ويقوم فوقها زرع أخضر . وليس

يعرف أحد من تحدثت إليهم لمن من الصحابة الذين استشهدوا في الحصار هذا القبر أو ذلك ، مع أنهم جميعاً معروفة أسماؤهم . ولقد سألت : أيعرف أحد قبر عروة بن مسعود الثقفي ، فلم أجد من يعرفه أو يدلني عليه . هذا مع ما كان لعروة من مكانة وسؤدد في الطائف على عهد الرسول . صحيح أنه لم يكن ممن استشهد مع المسلمين في حصار الطائف ، فقد كان عروة يومئذ على دين قومه ولم يكن قد مات . لكن له في تاريخ النبي العربي مواقف تجعل له من المكانة في النفوس ما يخلد به ذكر قبره ، وما يخلع عليه أسطورة من مثل الأساطير الكثيرة التي يسمعاها الإنسان بمكة عن مساجدها وقبورها وآبارها . فقد كان عروة سفير قريش إلى النبي عام الحديبية . هو الذي خرج إليه يذكره بأن مكة بيضته ، وأنه إن يفضضها على أهله المقيمين بها كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد لأهله وإن اتصلت الحرب بينه وبينهم ما اتصلت . فلما عاد إلى قريش قال لهم : « يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وإنهم لن يُسلموه لشيء أبداً » . وكان عروة هو الذي أسرع إلى محمد بعد غزوة تبوك يُعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه للدخول في دين الله . فلما حذرته النبي قومه وقال له « إنهم قاتيلوك » ، كان جواب عروة جواب المعتز بمكانه منهم أن قال : « يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبصارهم » . وعاد عروة إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام ؛ فتشاوروا بينهم وعز عليهم أن يتركوا عبادة اللات . فلما أصبح عروة قام على عليّة له ينادى للصلاة ، فضاقت قومه به ذرعاً فرموه بالنبل ، فقال وهو يُسلم الروح : كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم » . ثم طلب أن يدفن مع هؤلاء الشهداء فدفن معهم .

هذه بعض مواقف عروة بن مسعود الثقفي ؛ ومع ذلك لا يعرف أحد من

ثقيف قبره بين هذه القبور لشهداء المسلمين . ولقد دعاني ذلك إلى كثير من التدبر وأنا بموقفى أستذكر صورة اليوم الذى استشهد فيه أولئك الشهداء ، واليوم الذى استشهد فيه عروة بن مسعود من رمية النبل وهو ينادى : « الله أكبر الله أكبر » ويدعو الناس للصلاة<sup>(١)</sup> .

وعدتُ وأصحابي من مسجد ابن عباس ندور في المدينة . وقد مررنا على مقربة من مسجد ابن عباس بمسجد السنوسى ، يسميه بعضهم مسجد الطرابلسى ، فألفيناه مُخْلَقًا ، فنظرت من ثَقَبٍ في أعلى بابه فإذا هو على طراز مساجد مكة بسيط العمارة غير فسيح ، يتقدمه لدى الباب صحن مكشوف ويقوم المحراب قبالة الباب ، ويعتمد سقفه على عمد فوقها عقود تفصل بين الصحن والمسجد . فلما تخطينا سوق المدينة منحدرين غربًا استوقفنا مسجد الهادى ، وهو مسجد فسيح من مساجد الطائف السبعة التى يصلى أهلُ الطائف بها كل أوقاتهم ، ما خلا صلاة الجمعة فهم يجتمعون لها في مسجد ابن عباس . من هذه المساجد بالطائف مسجد له قصة طريفة جديرة بالرواية ؛ ذلك مسجد المحجوب الواقع في سفح جبل السكارى بقروة . وتتصل قصة هذا المسجد بمحاربه المشهور بأنه محرر على القبلة بدقة لا تعادها دقة تحرير المحارب في سائر مساجد الطائف . وقصة هذا المحراب أن السيد محجوب الميرغنى السودانى أمر ببنائه . فلما أقام البناءون المحراب اشتبه في دقة استقباله القبلة وقال لرئيس البنائين : « أصلح قبلك » ، ثم مدَّ كُمَّ جبهته أمام هذا المعلم فنظر فيها فرأى الكعبة من كُمِّ الجبة وبذلك حرر المحراب على عين القبلة . وأنا أضع هذه الرواية تحت نظر القارىء ، وليس لى منها إلا حظ الناقل .

(١) المأثور أن هذه القبور لسعيد بن سعيد بن العاص ، وعرفطة بن عبد الله بن أمية ، والسائب بن الحارث بن قيس القرشى ، وعبد الله بن الحارث بن قيس ، وطلحة بن عبد الله بن ربيعة ، وثابت بن الجزع ويسمى ثلمبة ، والأنصارى الخزرجى السلمى ، والحارث بن سهيل ابن أبي صعصعة الأنصارى ، والمنذر بن عبد الله الأنصارى الخزرجى ، ورقم الأنصارى ، وعبد الله بن عامر بن أبي ربيعة . أما عبد الله بن أبي بكر الصديق فقد جرح في حصار الطائف ثم اندمل جرحه ؛ لكنه نفر عليه حين بلغ المدينة فتوفى متأثرًا به .



مررنا بسوق الطائف في انحدارنا من مسجد ابن عباس إلى مسجد الهادي .  
وسوق الطائف كما رأيت أشبه شيء بما نراه في حوانيت القاهرة إذ تمر بالفحامين  
والمعزبين وتحت الربع . ولقد عادت بي ذاكرتي وأنا أجتازها إلى أسواق  
أم درمان . وإن بينها وبين أكثر الأسواق بمكة لشبهًا عظيمًا . وهي تشبه  
أسواق دمشق كما رأيتها في سنة ١٩١٤ - إذا لم تخنني الذاكرة - وهذا كله  
يدل على أنه طراز السوق المعروفة في بلادنا الشرقية قبل أن تغزونا حضارة  
الغرب وأن تجعل من أسواقنا ما نراه اليوم بالقاهرة والإسكندرية ودمشق  
والخرطوم في الأحياء الجديدة . فالحوانيت صغيرة ضيقة لا تُعنى بعرض  
ما فيها عناية تلفت النظر . والجالسون فيها هم أصحابها . وهم يرتبطون بصلة  
المودة حتى ليدع أحدهم عميله جالسًا إلى باب حانوته ليقوم بنفسه فينتاع له  
من الحوانيت الأخرى ما ليس عنده . وتمتلئ هذه الحوانيت الصغيرة الضيقة  
بركة من الله وفضلا لقيام أصحابها بأنفسهم على تصريف تجارتها .

إذا اعتبرت الطائف هذه المدينة التي تتوسطها السوق ويقع فيها مسجد  
ابن عباس والمساجد الستة الأخرى فهي لا ريب مدينة صغيرة لا تزيد على مدن  
المراكز في مصر . لذلك تُضاف إليها الضواحي المتصلة بها والتي يتخذها أهل  
مكة مصيفًا ويعتبرونها من الطائف كما يتخذ أهل مصر رمل الإسكندرية  
مصيفًا ويعتبرونه من الإسكندرية . وقد أشرت إلى ضاحية قروة حيث يقع  
منزل مضيفنا الشيخ محمد الصبان . ثم إلى جوار الطائف من ناحية الشمال  
بستان اسمه نجمة ، جميل الموقع غاية الجمال ، وبه قصر تمنيت إذ رأيته  
أن يكون لي . فوقع نجمة بديع حقًا . يقع من خلفه واد يطلقون عليه اسم  
وادي العقيق ، وإن أنكر الشريف حمزة الغالبي قِدَم هذا الاسم . ويقوم  
من وراء هذا الوادي جبل أبي صحفة . وهذا كله يحيط نجمة بهالة طبيعية  
بارعة تبلغ روعتها ساعة المغيب حين تنحدر الشمس وراء الجبل وتلقى بأشعتها  
على وادي العقيق مبلغًا تتعلق به النفس ويأخذ القواد منه البههر . لذلك  
اختارها الشريف عون الرفيق أمير مكة السابق لبناء هذا القصر الذي بها والذي

أريد بالبستان أن يحيط به . لكن تصارييف القدر أقوى من إرادة الإنسان ، وله فيها العبرة البالغة ؛ فقد بغت حوادثُ النهضة في بدء الحرب الكبرى بناء هذا القصر فلم يتموه ، وبقى لذلك بناءً قائماً من الآجرُ الجميل لم يجصص ولم توضع له أبوابه ونوافذه . لكن متانة البناء حفظته مدى هذين العقدين من السنين اللذين انقضيا منذ بنائه ؛ فهو اليوم قائم كأنه ينتظر بُنائه يستأنفون عملهم فيه صباح الغداة . أما البستان فصار اسماً لا مسمى له . وهلك عون الرفيق وتركت ذريته الحجاز وهي تقيم بمصر الآن، ولا يفكر أحد في استئناف هذا البناء البديع في ذلك الموقع الساحر ، ولا في غرس البستان حوله ليكون مصيفاً بارعاً قلَّ نظيره .

أما وهذا شأن نجمة فهي أدنى إلى الأثر منها إلى الضاحية ، وإن تكن أثراً يسهل بعثه إلى الحياة ليكون قصرأ فخمأ وبستانأ جميلاً . فأما الضاحية البديعة حقأ فتلك شبرة التي مررنا بها في طريقنا من مكة إلى الطائف ، والتي تقع على أبواب الطائف . ولم تقف السيارة بنا إذ ذاك عندها ، ولم ألتفت يومذاك إليها رغم انبساط ضوء القمر عليها ، لتقدم الليل ، وشدة الجهد ، وطول الشُّقة التي قطعناها . لكنني عدت إليها قبيل المغيب ذات يوم من أيام مُقامنا بالطائف فخلتني إذ دخلت قصرها واخترقت بساتينها كأنما انتقلت من بلاد العرب كلها إلى جزيرة الروضة بالقاهرة أو إلى بعض الجوانب النضرة من سويسرا . هذا مع أنني كنت قد مررت قبل ذلك ببساتين عدة في بادية الطائف ، وكنت قد نسيت الجذب والإحمال المحيطين بمكة واللذين ينتشران في تهامة إلا في قليل من أوديتها .

وشبرة ليست مع ذلك بالضاحية القديمة ، فقصورها وبساتينها من بناء آل عون في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن العشرين . بنى الشريف عبد الله بن عون القصر الأول ، أو شبرة القديمة كما يسمونها ، وبنى الشريف على ولده القصر الثاني أو شبرة الجديدة . وغرست حول القصرين بساتين فخمة يقصر دونها الطرف ، بها من أشجار الفاكهة النادرة والأزهار البالغة في البهجة

ما جلبه بناء القصرين من مختلف بلاد الأرض ، كما جلبوا رخام القصرين من إيطاليا ، وأخشابهما من تركيا . وقد آل هذان القصران إلى الملك ابن السعود بعد جلاء الأشراف عن الحجاز ، فاتخذهما مصطافاً له ولعائلته . أما وحریم ابن السعود من زوجات وملك يمين يفقنُ في العد ما يتصوره ذهننا المصرى ، أما وأبناؤه منهن يجاوزون العشرات ، أما ولكل زوجة في القصر جناح ، فالقصران جميعاً لا يسعان الأسرة الملكية السعودية كلها . لذلك يضطر الأمير فيصل ، وزير خارجية ابن السعود ونائب الملك بالحجاز ، أن ينزل بالطائف إذا اصطاف بها ، لأن قصرى شبرة وبساتينها تضيق به .

وبينا يصطاف ابن السعود وأهله بشبرة الطائف إذا الشريف على باشا الذى أقام شبرة الجديدة بعد أن أقام أبوه الشريف عبد الله بن عون شبرة القديمة يقيم بمصر يستعيد ذكريات عهد سلف ، ويتطلع بأماله إلى هذه البادية التى شهدت عظمة سلطانه ثم نسيته كما نسيت عتاة سبقوه وكان لهم فيها السلطان ، وإن حفظت ذكر الذين عطروا جوها من عهد رسول الله بالتضحية بحياتهم جهاداً في سبيل الله .

عدت إلى شبرة قبيل المغيب ذات يوم من أيام مقامنا بالطائف بعد أن قضينا نهارنا بالبادية نصعد في الجبال وننحدر عنها . وكان السيد محمد صالح القرزاز قد أبلغ حارس القصر أن يلقانا عنده وأن يفتح لنا بابه أول وصولنا إليه . ووقفتُ قبالة القصر أهدق في عمارته . ولم يدهشنى ألا ينم شئ منه عن الطراز العربى في قليل ولا كثير رغم قيامه في قلب بلاد العرب ؛ فقد شاده الأشراف في عصر كانت صفة العربية تدل على الانحطاط والتأخر في كل ما تنسب إليه ، وكان سلطان الحضارة الغربية متغلغلا في نواحي الحياة في ربوع العالم جميعاً . إنما بنى القصر على طراز أدنى إلى الرومانى . فتح حارسه لنا بابه فصعدنا إليه درجات فسيحة مريحة تبلغ عرض الباب ، أى نحو المترين . ومصرعا الباب من خشب جميل النقش ثمين . وطالعنا سلم القصر وراء الباب وهو في مثل عرضه ، صُنع من رخام إيطالى جميل ، وقام عن جانبيه في منزل الوحي

درايزون من الحديد الدقيق الصناعة . وتدل آثار من النحاس باقية بأعلى الدرايزون على عناية بنقشه وزخرفته . وقد قيل لنا إن الوهابيين لما وصلوا الطائف واقتحم جندهم القصر حسبوا النحاس ذهباً فنزعه واعتبروه من الغنائم الثمينة . ويفضى هذا السلم إلى الطابق الأول للقصر فيفضى بذلك إلى أبهاء فسيحة وغرف تُذكرك سعتها بأبهاء الفنادق ؛ وزادها سعة خلوها من الأثاث . وأردت أن أعرف هذا الأثاث ما يكون حين نزول الأسرة المالكة أثناء الصيف بالقصر فلم أجد إقبالا على إجابتي ، فحسبت القوم غلبهم الحياء دون الحديث في أمر ملكي ذلك مبلغه من الاتصال بالحياة البيتية في الليل والنهار . وأردت أن أشجعهم فذكرت ما يراه الإنسان بالقصور الملكية في إنجلترا وأوربا من الطنافس وأدوات الزينة وأسرة النوم ، فنظر أحدهم إلىّ في دهشة وقتنى عن المضي في القول وذكرنى أنني في بلاد العرب ولست بأوربا .

ولم نصعد إلى الطابق الثاني من القصر إذ قيل إنه على نظام الطابق الأول . وعدنا من الغرف إلى السلم لهبطه ، فأشار إلينا الشيخ صالح القرزاز فدخلنا من باب قبالة السلم يؤدي إلى طُنْف ( بلكون ) مطل على بساتين القصر ؛ فجلسنا حتى تناولنا القهوة ، ثم هبطنا إلى البساتين نسير فيها متنقلين من بستان شجرة القديمة إلى بستان شجرة الجديدة نقضى من الوقت أثناء سيرنا بهما ووقفنا أمام أشجار مختلفة فيهما ما يُشيع في النفس المسرة ويذهب عنها نصيب النهار في متاعها بمنظر شجرة باسقة لفاكهة نادرة، وأخرى متشعبة الفروع لزهردكي عَطِر، وإن لم يكن الفصل بالطائف بعدُ فصل جي الفاكهة أو تضوع أريج الزهر .

وهذه البساتين ، على ما فيها من أشجار ثمينة نادرة ، لم يُعَنَّ أحد بتنسيقها أو بتنظيم الطريق خلالها لتيسير المرور بها والوقوف عند محاسنها والمتاع بعطر زهرها وأريج فاكهتها ، هي أدنى إلى أن تكون غابة مستوحشة ألفت المصادفة إليها بهذه الأشجار فنمتها تربتها الخصبّة في نضرة وبهاء دون أن تجمع بين المتشابه منها أو تُعَنَّى باتساق ألوان الزهر فيما يجتمع من أشجاره . يشير لك البستاني إلى شجرة من الورث ويصف لك بهاء لون زهرها ، ثم يذكر

لك أن شجرة مثلها تقع في ناحية من البستان نائية أو قريبة ، وأن شجرة من فصيلتها تقع في الطرف الآخر منه . وما سوى الورد والفاكهة مبعر في هذه البساتين كالورد سواء . فسيبلك إلى معرفتها أن تدرس مواقعها من هذه الغابة وأن تقتحم طريقك إليها خلال الأشجار الباسقة البارعة النمو المتشابكة الغصون .

وبلغنا باباً صغيراً بآخر البساتين فيما وراء القصور ، واتجه أصحابي يريدون الخروج منه . وإني لعلى أهبة اتباعهم إذ وقف إلى جانبي الشريف حمزة الغالي وقال :

— أتعلم أن لهذه البساتين كرامة لن ينساها أهل الطائف ولا أهل مكة ؟  
وعجبت أن تكون البساتين أولياء أولى كرامات ؛ فقال :

— لا تعجب ! فقد كان أهل مكة يصطافون بالطائف حين أغار الوهابيون عليها ، ولم تكن بالطائف حامية تصد غارتهم . فلما سلمت المدينة ودخلها الإخوان أخذوا مَنْ بها أسرى ؛ وبحثوا عن محلة تتسع لهم جميعاً فلم يجدوا إلا هذه البساتين فحشروهم فيها زُمراً ولم يدفعوا إليهم بطعام ولا شراب . وكان الفصل فصل الفاكهة ؛ فوجد هؤلاء الأسرى فيها طعامهم وفي العيون التي تستقى منها البساتين شرايهم ، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً وعطشاً . ألا ترى هذه كرامة لهذه البساتين تسجل لها مع ما ينسب لبعض الآبار والآثار من الكرامات !

وألقيت على هذه البساتين كأنها الغابات قبل خروجنا من بابها الصغير نظرة أحاطت بها ، ثم سرت وأصحابي بعد أن انحدرت الشمس إلى المغرب تاركة وراءها بقية من الضوء تنير الطريق للسالكين . وأفضيت إلى أصحابي والسيارة تجرى بنا إلى الدار بما رأيت من عدم تنسيق البساتين وتركها غابة غير ذات نظام ؛ فقال أحدهم : « لعلها كذلك أجمل ! ولعل ذلك رأى الأشراف الذين نسقوها » .

وبلغنا الدار فعلمنا أن شعراء البادية سيحضرون إلينا في المساء ، ودخلت غرفتي أزيل غبار النهار ، ثم توضأت وصليت وأقمت على سجادة الصلاة

أذكر ما رأيت . وتمثلت لى البساتين فى غاباتها وسألت نفسى : أهى حقاً كذلك أجمل مما لو نسقت ونظمت وخططت فيها الطرق وجمع فيها كل ضريب من الأشجار إلى ضريبه ، وكل لون من الزهر إلى نظيره . أم هى كذلك أجمل لأنها فى بلاد العرب بين أحضان الطبيعة البكر لم تنظمها يد الإنسان ، وأنها لو نظمت لكانت نابية فى هذه البيئة ؛ فالبدوى المتنقل من مكة أو من نجد إلى الطائف ، والذي قضى فى البادية ما قضى يَسْحَبُ به الجمل تتقاذفه الفلوات ، أو تجرى به السيارة منذ غزت السيارة هذه الربوع جرياً مضطرباً بين المرتفعات والمنخفضات ، لا يألف نظره البستان المنظم ما يألف هذه الغابة الموحشة فى روعة جمالها البارح ! أم يرجع عدم تنظيمها إلى بقاء الخلق البدوى متأصلاً فى النفس العربية فهى لما تألف الحضارة ونظامها ، وهى لا تحتمل هذه الحضارة ولا تسيغها إلا أن تُحمَل على ذلك حملاً وتكره عليه إكراهاً ! والحق أن أهل هذه البلاد ما يزالون مترددين بين الاعتزاز ببدويتهم والإعجاب بالحضارة الحاكمة . فهم يتمنون أن يتاح لهم المتاع بكل ما تيسره هذه الحضارة من متاع بالحياة ، وهم يخشون ألا تطيق نفوسهم هذا المتاع ، أو لا تطيقه بلادهم ويبتئهم لو أنه جلب إليها ، كما يخشون أن يَضِيع ما تجلب هذه الحضارة إليهم ما ينعمون به من حرية البداوة ؛ فهم يعتزون بها ويذكرون ماضى مجدها ويرجون لو يستطيعون الجمع بينها وبين ما فى الحضارة من خير ، ناسين أو متناسين أن الخير وحده لا وجود له ، وأن الشر وحده لا وجود له ، وأن اجتماعهما طبيعى فلا مفر منه ولا معدى عنه ، وأن غاية ما نستطيعه أن نستتر البشر عن الأعين ، كما يتوارى المريض أثناء مرضه عن أعين الناس .

وأقبل المساء وأقبل شعراء البادية إلى بهو الدار يبلغون الخمسة عشر عدداً ، وجلس كل منهم فى المكان الذى تؤهله له مكانته . فى الصدر جلس رجل منهم يناهز الستين ، تحدث سيماءه ويحدث لباسه عن وجهة فى قومه وتقدم على أبناء قبيلته . وجلس على مقربة منه من لا يبلغ الثلاثين ولكنه فصيح القول ،

في نبرة صوته أمانة الرياسة . وجلس الباقون وقد اختار كل منهم مكاناً لا ينازعه إليه غيره . وألقى كثير من هؤلاء مشالهم عن أكتافهم ؛ أما أولو الصدارة فقد احتفظوا بها وكأنها بعض أمارات الصدارة . وبادلتهم التحية جميعاً ، ثم فسّسحو إلى في الصدر مكاناً وسألوني عما شهدت بالطائف وعن رأيي فيه . واتصل بيننا حديث سرعان ما خالظه ذلك الود الفياض من ميراثنا المشترك في اللغة والتاريخ والعقيدة ؛ ذلك الود الذي يجعلنا نشعر حيث كنا من بلاد هذا العالم العربي أننا بين أهلنا وذوي قربانا ؛ التي أجدادنا وأجدادهم ، وجرى في عروقنا وعروقهم عن طريق النسب دم مشترك ، فأصبحنا أمة واحدة وإن تباعدت البلاد وتباينت العادات .

ولم أكن أطمع في أن أسمع من شعراء العرب هؤلاء شعراً عربياً كالذي انتهى إلينا عن الجاهلية وعن شعراء العرب أيام سلطانهم وازدهار حضارتهم . فلقد طمعت في أن أسمع بالبادية حديثاً عربياً في صفاء اللغة التي درسناها ، فلم أسمع في الأودية ولا في أعلى الجبال من ذلك شيئاً ، وإنما هي لهجات تعذر على فهم بعضها كما يتعذر على فهم لغة أهل الصعيد الأعلى في مصر ، وفهمت بعضها في عسر كما لو كنت أسمع بعض اللهجات في سوريا ولبنان . وليس في البادية مدارس يتعلم أبناء البادية العربية الصحيحة فيها ويدرسون الشعر القديم كما يدرسه أبناءنا ليقولوا الشعر متأثرين ببيتهم محاكين الأقدمين في نظمهم . ولم يخلف هؤلاء الشعراء ظني ؛ فقد بدعوا يلقون مقاطع في الغزل وفي ذكر الأيام ، أيام البادية المحيطة ، هي أشبه شيء بالمواويل الحمر في صعيدنا الأعلى . ولقد كانت طريقة الإلقاء تبعث إلى النفس من معاني ما يقولون أكثر مما تبعثه الألفاظ الغريبة عنى والتي تنطوي عليها لهجاتهم المختلفة . وكثيراً ما حاول الشريف حمزة الغالبي أو الشيخ صالح القزاز أن يترجم لي هذه المقاطع باللغة التي نتفاهم بها ، لغة أهل مكة الجامعة بين خليط من لغات المسلمين في أقطار العربية المختلفة . وكنت أقف من هذه الترجمة على صورة بدوية بديعة في هذا الشعر الساذج أكاد أذكر بها معاني الأقدمين .

وجاءت نوبة الشريف حمزة الغالي فألقى قصيدة باللغة العربية الفصحى ،  
 وكأنما أراد أن يرفه عنى بلغة يتيسر على فهمها . وعاد أصحابه إلى مقاطعهم ،  
 ثم عاد هو فألقى قصيدة أخرى ، وعاد في نوبته فألقى قصيدة ثالثة . إذ ذاك ضاق  
 القوم به ذرعاً أن رأوا أسرع إلى فهم ما يقول . فحدثه أسنهم يعيب عليه  
 أن يحاول إبداء تفوقه عليهم أو ازدراء لغتهم ولغة آبائهم . واعتذر الشريف في  
 تأدب بأنه إنما يريد أن يُطلعنى على شيء مما يقولونه ولم يعد بعدها إلى إلقاء  
 شيء من شعره .

وكان الطريف في هذه القصائد الثلاث التي أنشدها أنه يمدح بأولها حكم  
 الترك ، وبالثنائية حكم الأشراف ، ويشيد في الثالثة بحكم ابن السعود ، دون أن  
 يرى في ذلك ما يعاب به أو يقدر فيه . ألم يكن هؤلاء جميعاً حكاماً لبلادهم ،  
 فهم سواسية عنده ، يقول فيهم جميعاً قولاً واحداً ، ويتخذ لإزاءهم من شعره  
 ما يتقى به ظلمهم وما يصل به إلى رضاهم وإلى ما يسبغه هذا الرضا على من يناله  
 من خير ونعيم .

ومدت لشعراء العرب الموائد وقدم لهم العشاء ، فالتفوا حوله بعد تمنع  
 ونالوا منه شعبهم . وبعد أن تناولوا القهوة وتحدثوا استأنفوا قول الشعر . لكنهم  
 لم يقولوه مقاطع كما فعلوا قبل العشاء ؛ بل بدعوا بالمطارحة : يرتجل أحدهم في  
 أمر فيجيبه آخر ارتجالاً في هذا الأمر . وما كان لى أن أحكم بينهم ولم أكن  
 أفهم مما يقولون إلا قليلاً . لكننى رأيت بعضهم يتحمس لما يسمع من جانب ،  
 ورأيت آخرين يتحمسون لما يسمعون من الجانب الآخر . وذكرت شيئاً من  
 هذه المطارحة سمعته في لبنان ورأيت هناك ما رأيت بالطائف من تحمس لهذا  
 ولذلك من المترجلين ؛ فأيقنت أن الشعر شعبي يثير الحماسة وأن قائله يتوخى  
 في قوله أن يثيرها في النفوس ليُدكى فيها من صرام هذه الحماسة غاية  
 ما يستطيع إذكاهه .

وانتهى القوم من هذه المطارحة يتبادلونها جلوساً ، ثم قاموا فريقين يواجه  
 كل منهما الآخر ، وقد أمسك الزعيم من كل فريق عصاً ، واندفعوا يتطارحون



في حماسة أشد من الأولى وأنا لا أكاد أفهم مما يقولون شيئاً ، لبعد ما بين لهجتهم وما عرفت من لهجات البلاد التي تتكلم العربية الفصحى . وحمى وطيس المطارحة وأخذت الحماسة من نفوس الفريقين أعظم مأخذ . ولم يصبح الأمر بينهم أنهم يريدون إظهارى على شعر البادية ما هو ، بل أصبح منافسة واستعلاء ، يريد كل فريق أن يكون له التفوق والغلب . وهل بقي من أمرى ما يعينهم وقد رأوني لا أفهم ما يقولون ! لكنهم يفهم بعضهم بعضاً ، ولكنهم رأوا حديقة الدار قد امتلأت بأهل الطائف كباراً وصغاراً يلقون إليهم السمع ويتحمسون لهم فيزيدونهم حرصاً على الإجادة والتفوق . وامتلات حديقة الدار منذ بدأت هذه المنافسة ولم يكن بها أول المساء إلا القليل ؛ فلا عجب أن يحرص كل فريق على أن يحكم النظارة بتفوقه ، وإن امتد به القول ، وإن أقام مكانه حتى الصباح يتلقى الهجمات ويدفعها حتى يبلغ من ذلك إلى إخفات صوت خصمه .

وأدرك الشيخ صالح القرزاز أنى أقيم معهم مجاملة لهم ما دمت لا أفهمهم ، وأنى في حاجة إلى الراحة والنوم . وكان الليل قد انتصف ولا بد لنا من التبكير في اليقظة صباح الغد لنخرج إلى جبال الشفأ ؛ لذلك أخذ يشكر القوم علامة الإذن بانتهاء الحفل . إذ ذاك سمعت زجاجة استياء من ناحية الحديقة وبدا على المتنافسين الضجر مما سمعوا ، وكأنما كان كل فريق يحسب النصر قد دنا . أو أن فريقاً طرب للانتهاه لأنه كان وشيك الخلدان ، في حين كان الفريق المتفوق هو المزجر استياء لهذا التبكير بفض الحفل قبل تمام انتصاره ! على أن حركة الاستياء لم تلبث غير ثوان جلس القوم بعدها ثم استأذنوا وانصرفوا . وقمت إلى مضجعي مكدوداً فلم تك إلا اللحظات حتى اشتملني عالم النوم .

واستيقظت بكرة الصباح وصور هؤلاء الشعراء ما تزال ماثلة أمام عيني . وساءلت نفسي عن هذه المطارحة وهذا التفاخر : أهما صورة ما كان يقع عند العرب من سكان هذه البادية في العصور القديمة حين كانت الفصحى ما تزال في سلامتها ، وأن ضياع الفصحى لم يحل دون انتقال هذه الصورة على العصور

من الآباء إلى الأبناء ؟ ولم أعنّ نفسي بالوقوف عند هذا السؤال والتاس  
الجواب عنه ، مكتفياً بما علقته الذاكرة من كتب الأدب عن المطارحة  
ارتجالاً وذيوها عند العرب الأقدمين . فأما هذه المفاخرة في صفتين يقف  
أحدهما قبالة الآخر فقد تكون صورة من المطارحة في الفخر لم تُطل كتب  
الأدب الحديث عما كان يقع منها فيما مضى ، وقد لا تكون مما ورثه عرب البادية  
اليوم عن أسلافهم . وإنما هي بدعة انتقلت إليهم من بعض البلاد التي غزاها  
هؤلاء الأسلاف بعد الفتح الإسلامي بزمن قصير أو طويل .

وسألت الشيخ عبد الحميد حديدي ، ونحن نتناول طعام الإفطار ، عن  
المكان الذي لقي النبي فيه عدّاساً النصراني السّينوي حين جاء إلى الطائف  
مستنصراً أهلها فخذأوه وأغرّوا به صبيانهم فوجد في عدّاس هذا عزاء وسلوى  
عن تحرش الصبيان به وتنكر الرجال له . وأجاب الشيخ عبد الحميد :  
إن مسجد عداس يقع بالمشاة إحدى قرى بادية الطائف ، ولا يقع بالطائف  
المعروفة اليوم . أما وكتب السيرة جميعاً تشير إلى أن عدّاساً لقي النبي  
بالطائف حين احتفى بحائط شيبة وعتبة ابني ربيعة ، كما تشير إلى أن  
مضارب المسلمين حين حصارهم الطائف كانت تقع على مرمى النّبل منها ،  
وإلى أن قبور الشهداء الذين أسلموا الروح أثناء هذا الحصار ، وهي القبور  
الواقعة إلى جانب مسجد ابن عباس ، تقع حيث كانت تقوم هذه المضارب ،  
ففي هذا كله ما يدل على أن الطائف لا تقوم اليوم حيث كانت تقوم على  
عهد الرسول ، وأنها نقلت من مكانها ، حيث كانت تحيط بهذه المشاة التي  
يشير الشيخ عبد الحميد إليها وإلى وجود مسجد عدّاس بها ، وشيدت  
حولها قبور هؤلاء الشهداء تبركاً بهم وتيمناً بهذا المكان الذي أقام النبي به أثناء  
حصار الطائف . وقد أفنعتني تجوالى بادية الطائف ووقوفى بالمشاة من قراها  
بصحة هذا الرأي ، وبأن موقع الطائف اليوم غير موقعها القديم ، وأن إحاطتها  
بمسجد ابن عباس وقبور الشهداء من المسلمين إنما ترجع إلى هذه الاعتبارات  
التاريخية التي رواها صاحبي .

وبادية الطائف فسيحة مترامية الأطراف تجعل من الطائف قطراً كاملاً ومملكة لو أنها عُمُرت لكانت كبعض الممالك الصغرى بأوروبا . وحسبُك أن تعلم أننا أقمنا أربعة أيام نجوب أنحاءها بالسيارة من بُكُرة الصباح إلى ساعة متأخرة من المساء أحياناً وإلى ما بعد مغيب الشمس دائماً ، ما خلا يوم زرنا شبرة ولم نبلغ من هذه البادية بعد ذلك إلا بعضها . وأقرب بادية الطائف إليها بستانان يضيفهما بعضهم إليها لأنهما يقعان حيث كانت تقع الطائف على عهد الرسول ، ولأن موقعهما يختلف في طبيعته عن البادية . فبادية الطائف تقتضيك لكى تباغها تسنم هضاب وتسلق جبال وجوِّب أودية ليست في شيء من طبيعة الطائف ولا من موقعها في سهلها المترامى الأطراف بين الجبال المحيطة به ، وهذان البستانان يقعان في هذا السهل كما تقع فيه قروة وشبرة ونجمة وسائر ضواحي الطائف . وهذا ما يؤيد رواية الرواة أن الطائف القديمة كانت تقع حول هذين البستانين . فالمشهور أن مسجد ابن عباس كان يقع على بعد من أسفل المدينة القديمة من الجهة الشمالية . أما اليوم فهو يقع في أعلى المدينة من الجهة المذكورة ، وهذان البستانان يقعان جنوب الطائف الحالية .

البستانان هما حَوَايا وشِهَار وهما واحتان خصيبتان بين هضاب قليلة الارتفاع مليئة بالأحجار التي قذف بها السيل من أعلى الجبال . وفي كل بستان منهما مياه جارية تسقى أشجاره الباسقة الجميلة . ويتوسط حوايا بناء يقيم به أهله وقد بنيت أمام أبوابه بركة ماء فسيحة يرتفع الماء فيها فوق مستوى الأرض لتيسير ريتها منه . وماء البركة يؤتى به من بئر سهل ممتح الماء منها لقربه من سطحها . ويوجد على مقربة من هذه البئر بئر أخرى يُشيدون بصلاح مياهها لشفاء رمل الكلى ، ويتحدثون متعجبين عن مجاورتها للبئر الأخرى مع اختلاف خواص مياههما بحيث يكون ماء هذه البئر شافياً صالحاً للشرب ولا تكون الأخرى كذلك .

ويريد بعضهم أن يجعل اسم حوايا تحريفًا لاسم سبغه هو هوايا ؛ ويذكر أن هذا الاسم قد أطلقه على هذا المكان من وجد في مياه بئر الشافية ما يرضى

هواه . وعندي أن هذا خيال لا سند له في كتاب من الكتب التي يصح الاعتماد عليها والتي ذكرت اسم هذا المكان .

أما البستان الآخر فشهارة . وهو يشبه حوايا ، غير أنه لا بناء فيه ولا بئر ، وبه شجرة نبق هندي لذيدة الثمر ، وآلة رافعة للمياه يديرها الهوا . وقد دُقت هذه الآلة في البستان من زمن قريب على سبيل التجربة . وأهل الطائف ينتظرون نتيجة هذه التجربة قبل أن يُقدموا على الاستعانة بمثل هذه الآلة في استنباط مياههم من العيون .

حول هذين البستانين إذاً ، وبين التلال الواقعة أمامهما من الجهة الغربية كانت تقوم الطائف القديمة فيما يروى بعض أهلها اليوم . وفي هذا المكان إذاً ، كانت تقوم اللات صنم ثقيف حتى عفى الإسلام على أثره إذ هدمه المغيرة ابن شعبه ونساء ثقيف حسراً يبيكين ، وكان يقوم بيت اللات ضريباً لبيت الله بمكة كما كانت تقوم دار عروة بن مسعود أول من أسلم من ثقيف ، ودار عمرو بن عُمَيْر بن عوف التي قصدها النبي يوم نزل الطائف وحيداً فرده أبناء عمرو رداً غير جميل . وفي هذا المكان كانت تقوم المدينة التي حاصرها النبي على رأس جيش الفتح فاعتصمت بحصونها وامتنعت من هؤلاء الذين لم تمتنع عليهم مكة ولم يمتنع عليهم في بلاد العرب كلها بلد ولا حصن . أين يومنا اليوم من تلك الأيام العظيمة التي شهدت عز الطائف وعز العرب جميعاً ببطولة العرب وبمجد الإسلام ! وأين تلك الطائف القوية ذات الأيد والمسنعة والحصون التي لا تُقهر ، من هذه الطائف التي يمتنع بها الترك أول الحرب الكبرى فيحاصروهم الأشراف فيها ويأخذونهم أسرى ، ويمتنع بها الأشراف في سنة ١٩٢٥ فيحاصروهم النجديون فيها ويقتحمونها عليهم ويأسرونهم بها ! بل أين بلاد العرب كلها اليوم من بلاد العرب تلك حين كانت الطائف قطعة من الجنة أو قطعة من الشام نقلها الملائكة إلى شبه الجزيرة ، وحين كانت ثروة الطائف وخصبها مضرب المثل !

وتمثل لى جيش المسلمين أيام النبي مقبلاً من ناحية الجبال الواقعة شرق

الطائف بعد أن انتصر في حنين وخلف أسراها في الجِعْرانة . تمثل لى هذا الجيش يزيد رجاله على عشرة آلاف كلهم إيمان بالنصر ، وكلهم حرص على الاستشهاد فى سبيل الله ، وقد أحاطوا بالطائف ، فرماهم أهلها بالنبل من أعلى الحصون واضطروهم للانزواء بعيداً عن مرمى النبل . وهناك عند مسجد ابن عباس أقام الجيش وضربت للنبي خيمتان بعيداً عن هذا المرمى . ويطول حصار القوم وهم متحصنون بمدينتهم الغنية لا يسلمون . وهم فيها كالثعلب فى جحره لا سبيل إلى إخراجهم منه إلا بطول المكث . ثم يدهمهم المسلمون فيرمونهم بالمدجنيق ويبعثون إليهم بالدبابات وقد دخل تحتها نفر منهم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فيكروه رجال الطائف هؤلاء الزاحفين على الفرار بأن يلقوا الحديد المصهور على الدبابات فيحرقها . ويأمر النبي بإحراق كروم الطائف ، ويبدأ المسلمون ينفذون ، فيبعث أهلها إلى النبي أن يأخذه لنفسه إن شاء ، وأن يدعه لهم ولأرحم لما بينهم من قرابة إذا أراد . وينتهي الأمر بأن يرفع المسلمون الحصار وأن ينصرفوا عن الطائف ليعث الثقفون بعد قليل من ذلك يطلبون إلى النبي أن ينضموا إلى لوائه .

كيف صارت الطائف إلى ما صارت اليوم إليه ؟ وكيف هوت من تلك المكانة التي كانت لها والتي كانت تنافس بها مكة حتى أقامت ثلاث بيتاً جعلته منافساً للبيت الحرام ؟ ! لعل ما حول الطائف مما تحدث عنه باديتها يجلو لنا من ذلك ما يزيدنا فهماً لما يحدثنا به التاريخ وما تنطوى عليه الكتب . فلنزرُ بادية الطائف ، ولنحاول أن نقف منها عند كل ما نستطيع الوقوف عنده .

## بادية الطائف

كانت الطائف القديمة تقع بين التلال القائمة أمام البستانين حوايا وشِهَار من الجهة الغربية على رواية أهلها اليوم . أما في هذا الزمن الحاضر فالبستانان يقعان خارج الطائف ويبعدان عنها بضعة أميال . لذلك يحسبهما البعض بحق باب بادية الطائف ؛ فأنت لا تكاد تراهما بالمنظار المقرب ، وإن رأهما البدو بالعين المجردة . فإذا أنت جاوزت البستانين إلى الجهة المقابلة للطائف لقيتكَ البادية مترامية أمام نظرك ، منطلقة كأنها السهل حيناً ، منشورة فيها الأحجار التي حطها السيل من أعالي الجبال حيناً آخر ، ناتئة جبالها المتباينة الارتفاع على مقربة من النظر أو عند مرماه .

آثر أصحابي يوم زرنا بستانى حوايا وشِهَار أن نمنع بعض الشيء في البادية ، وأغرورني على الإمعان بما ذكروا من أننا سنلقى على مقربة منهما آثاراً تثير أمانى السبيل لما أبحث عنه من تاريخ هذه البقاع . وانطلقت بنا السيارة تؤم وادى السدّاد حيث تقع هضاب الرُدْف . وفيما تجرى السيارة مسرعة حيناً ، متعثرة بالأحجار المنثورة في الطريق حيناً آخر ، لفت رفيقي نظري إلى واد تتمخضاه وذكر لي أنه وادى وَّج ، وأنه يمر بقربة المَسْتَنَاءة منحدرًا إلى ناحية الطائف ، وأن الماء الذى يسيل به في فصول الأمطار ينحدر من جبل بَرَد ومن جبال الطلحات حيث تقيم بعض قبائل هُدَيْل . . وعجبت أن لفت نظري إلى هذا الوادى ولا شيء فيه يلفت النظر ؛ ولكنه استطرد قائلاً : إنه من الأودية المأثورة ؛ فقد روى أن النبي عليه السلام حرّم صيده ، وإن تكن هذه الرواية موضع خلاف . ولم أرد أن أناقشه في الأمر أو أذكر أولئك الذين دعاهم الرسول إلى الإسلام فأبوا إلا أن يحرم واديهم كما حرّم مكة فلم يجيبهم إلى ما طلبوا ، لأن حرمة مكة من أمر الله ومرجعها إلى البيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمنًا .

وبلغت السيارة وادى السّداد وقد أحاطت به هضاب الرُدّاف ، ووقفت على مقربة من صخور ضخمة مركومة بعضها فوق بعض فهي وحدها هضبة مستقلة ناتئة أثناء الوادى . وهبطتُ منها فى لباس البدوىّ وجعلتُ أُجبل النظر فيها حولى فلا أرى إلا جبالا قليلة الارتفاع تحجب ما وراءها وأحجاراً متفاوتة الأحجام قذف بها السيل فى أنحاء الوادى . أين ترى تكون الآثار التى حدثنى أصحابى عنها ؟ وسألتهم فأشاروا إلى هذه الهضبة المستقلة وقالوا : إنها رموز وعبارات كتبت على الصخور العليا منها . وتسلفنا الهضبة ، ودار أحدهم فوقها ثم دعانى إليه ، فعلمتُ صخرًا وهبطتُ آخر وتسلفتُ ثالثًا ، ثم وقفت إلى جانبه أحاول وإياه أن نحل رموزًا خطوط أدنى إلى الكوفى نقشت على صفحة الحجر ، وأحدّق وإياه فى صخور أخرى فنرى رموزًا لم ندر ما هى ، ولعلها خط للغة من لغات البلاد الإسلامية فى آسيا أو أمريكا لم يبلغنا علمه ولم تبلغنا رسالته . وأراد بعض الحاضرين أن يرد هذه الكتابات إلى عصور قديمة ؛ فاعترضه آخر بأنّها قد لا ترجع إلى أكثر من عشرات من السنين ، وقد ترجع إلى بضعة قرون ، وأنها على الأرجح لجماعة ممن زاروا هذه المنطقة من أزمان غير بعيدة جذبهم وادى وجّ إليها ، فجعلوا على أحجارها عبارات متداولة مثل : الحمد لله وحده ، وآمن بالله فلان ، أو خطوا عليها صوراً استعاضوا بها عن الكتابة لأنهم لا يعرفون الكتابة .

وما رأيت من كتابات ونقوش يجعلنى أميل إلى هذا الرأى الأخير . ووجود الكتابة الكوفية لا ينهض بذاته دليلا على قِدَم العصر الذى كتبت فيه . فالكتابة الكوفية تعتبر فى يومنا الحاضر زخرفاً يجيد تصويره كثيرون ؛ وهى قد كانت أكثر ذبوعاً منذ بضع عشرات من السنين خلت . وإنما يدعونى لترجيح هذا الرأى تشابه العبارة فى هذه الجمل المنقوشة على الصخر وعدم دلالتها على شىء يتصل بالطائف أو بالعرب أو بشىء من حوادث الماضى ذات الجسامة والخطر . ولو أنها كانت قديمة بمعنى أنها ترجع إلى العصور الإسلامية الأولى لبدأ فيها طابع تلك العصور ولأشارت إلى

ما حدث فيها من حروب وما تم فيها من أعمال عظيمة . أما وهي كما رأيت فإنما هي عبارات تقليدية ينسخ فيها زوار هذا المكان كل على طراز من سبقه . ولو أنني فكرت في أن أصنع صنيعهم وأن أنقش على هذه الصخور المرموقة ما أسجل به وقوفى عندها لنقشت عليها أغلب الأمر عبارة كعبارة « آمن بالله فلان » مقلداً بذلك من سبقنى ؛ فالتقليد أيسر مشقة ، والعبارة التي اختارها أولئك السابقون أيسر نقشاً على الحجر من سواها .

وليس يعدل في عن ترجيح هذا الرأي ما يروى عن قدم بعض النقوش حتى يقال إنه كان من زمن الجاهلية ، وإنه من الخط الكوفي القديم الذي لم تألفه ؛ اللهم إلا أن تكون نقوش على جبال أو صخور أخرى كالنقوش التي يذكرين وجودها بجبل السكارى مما لم أقف عنده ولم أفكر في أمره . على أن القائلين بقدم هذه النقوش يذكرين أنها خالية من التاريخ ، وأن الباحث لا يستطيع لذلك أن يستنبط منها ما يقوم عليه حكم من الأحكام ، أو تتحقق به حادثة من الحوادث .

فأما وادى وجّ الذى أشار صاحبي إلى أنه من الأودية الماثورة لقوله عليه السلام : « صيد وجّ وعِضَاهَه حرام محرّم » فقد اختلف في أمره . يقول ابن منظور في لسان العرب : « وج موضع بالبادية ، وقيل : هو بلد بالطائف ، وقيل : هي الطائف » . وبعد أن روى حديث تحريمه قال : « ويحتمل أن يكون حرّمه في وقت معلوم ثم نسخ . وفي حديث كعب أن وجّاً مقدس ، منه عرّج الربّ إلى السماء . وفي الحديث أن آخر وطأة وطنها الله بوجّ . قال . وجّ هو الطائف . وأراد بالوطأة الغزاة هاهنا ، وكانت غزوة الطائف آخر غزواته صلى الله عليه وسلم » . ويذهب غير واحد من الذين كتبوا في تقويم البلدان إلى أن وجّاً اسم للطائف قبل أن تسمى الطائف . وروى الفاسى في كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » رواية مستندة إلى الزبير بن العوام أنه قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلة حتى إذا كنا عند السدرة وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عند طرف القرن الأسود — والقرن : جبل صغير



ورأسه مشرف على الهدّة - فاستقبل نخبياً ووقف حتى اتفق الناس ثم قال : « إن صيد وِجٍّ وعضاهه حرام محرم لله عز وجل » وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفاً . وقد ورد هذا الحديث في سنن أبي داود ومسند ابن حنبل ، وإسناده ضعيف على ما قال النووي . وقال البخارى : لا يصح . وذكر ابن عبد ربه أن ثقيفاً جاءوا إلى النبي بعد مقتل عروة بن مسعود فعرضوا عليه إسلامهم فكتب لهم بحرمة واديهم .

لم أُعْنِ كثيراً بما قيل عن تحريم وادى وِجٍّ ومدى هذا التحريم . وكيف لى أن أعنى به وهذا الخلاف واقع عليه ، والبخارى ينكره ! وإنما عنيت من أمره بأنه على أبواب الطائف من ناحية ليّة عند انحذار المسلمين منها إلى الطائف . وكل ما أستطيع أن أستخلصه من الروايات التى سبقت أن الرسول عليه السلام وقف بهذا الوادى حين بلغه ، وأنه جمع المسلمين هناك حوله ، وأنه هياً صفوفهم لحصار الطائف ، وأنه حرم عليهم ، وكانوا من قبائل مختلفة ، أن يثيروا بينهم شقاقاً أو أن يستبيحوا بينهم ما ليس مباحاً لهم فى البلد الحرام . فلما انصرفوا عن الطائف لم تبق لوجّ حرمة أكثر مما لغيرها من الآفاق .

قمت وأصحابى صبح الغد من ذلك اليوم مبكرين بعد أن نلنا بالنوم راحتنا ليوم جهد ومشقة . فقد رأى الشيخ صالح القزاز أن نتناول إفطارنا فوق السد السَّمَلَجِيّ ، وأن نتناول طعام الغداء فوق سطح جبال الهدّة ضيقاً على محمود المغربى . والسد السملجى يقع شمال الطائف ، وجبال الهدّة تقوم فى جنوبها الغربى . فلا سبيل إلى الجمع بينهما إلا أن نستقل سيارة البكس بكرة الصباح لنشهد السد وموقعه ولنعود بعد ذلك إلى جبال الهدّة فترتقيها إلى دار مضيئنا نتناول الغال ونشرب القهوة ونذره ينطحر الضأن وينضجه ، فإذا عدنا تناولنا العقال وهو قائم فى خدمتنا لا يقرب الطعام ولا ينظر إلينا ونحن نأكل .

والغال هو ما نسميه فى مصر « التصبيرة » ، أما العقال فطعام الغداء . وهو

الذى يعقل به الرجل معدته فلا تتحرك إلى طلب الطعام . والبدو لا يُعدون العقال ولا ينحرون إلا بعد أن يصل إليهم ضيفهم .

غدونا إذاً مصبحين وتناولنا قَدْحًا من الشاي وآخر من القهوة ثم ركبنا السيارة فانطلقت بنا قاصدة السد السملجى . وكما مررنا أمس بوادى وَجَّ في طريقنا إلى هضاب الرُدْف فقد مررنا أول ما تبدت البادية أمامنا بوادى لفت صاحبي نظري إليه قائلاً : إنه وادى نَسْحِب ؛ والمأثور أنه بوادى النمل الذى ذكره القرآن في قصة سليمان إذ يقول تعالى :

« وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَّبِعْتُمُ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

وسألت صاحبي : وأين سليمان من الطائف وقد كان ملكه بالشام ؟ قال : « لقد جند الله لسليمان الوحش والطير فكان يسيرهم إلى حيث شاء من بقاع الأرض ، وكانت الطائف بعض ما مر به من البقاع في ذهابه إلى اليمن . وقد اختلف الرواة : أمَرَ الجيش بها طائراً في الهواء بأمر سليمان وبإذن الله ؟ أم مرَّ بها سائراً على الأرض ؟ والقائلون بالسير يستندون إلى ما ورد في الآيات السابقة . فلو كان الجيش طائراً لما حذرت النملة قومها منهم . أما القائلون بالطيران فقد ذهبوا إلى أن جيش سليمان أتى على وادى النمل ولم يحطم منه نملة ، ولو كان سائراً لفضى على النمل وقريته . وإنما قالت النملة لأصحابها ما قالت يدفعها الحذر والحرص على الحياة .

ولم يذكر صاحبي أن وادي النمل حرم كما حرم وادي وجّ وإن على خلاف ، ولم يشر كذلك إلى ما أورده الروايات المختلفة في وادي النمل وموقعه . فقد ذهب قوم إلى أنه بالشام ، وذهب آخرون إلى أنه باليمن . وتوسط الذين قالوا إنه بالطائف بين الشام واليمن . ولغير هؤلاء جميعاً مذهب في النمل وواديه لا اتصال له بالطائف ولا بوادي نخيب بها ولا بالسدر منها . ولم أر ما يدعو لمناقشة هذه الأقوال جميعاً إذ كنت لا أقصد من تحقيق ما أرى إلى معرفة شيء فيما قبل عهد النبي ، وقد كان سليمان قبل عهده بأكثر من خمسة عشر قرناً . فليكن وادي النمل بالطائف أو بالشام أو باليمن ، فليس تحقيقه مما يدخل في نطاق بحثي .

وقيل لي : إذا تخطت السيارة هذا الوادي فإنها تجتازها إلى وادي لية وأنا أعلم أن الرسول جاء من حنين إلى الطائف على رأس جيش المسلمين فاجتازوا لية . لذلك شاقني أن أقف على هذا الوادي وأن أرى بعيني طريقاً مرّ به الرسول . وزادني شوقاً إليه ما قيل من أنه يمثل خصب الطائف وثمارها الشهية ، وإن لم يكن الفصل فصل ثمار تجتنى وإن اشتبهت . ومددت بصري إلى ما أمامي لعلني أرى طلائعه ، فإذا الجبال تحيط بنا من كل جانب ، وإذا السيارة تندفع نحوها كأنما تريد أن تقتحمها اقتحاماً أو تتسلقها تسلقاً . وبدأت تتيامن وتتياسر تنقي الأحجار المنثورة حولها مصعدة أثناء ذلك على هون كأنما تريد أن تتخير سرباً خلال الجبال القائمة أمامها تصدّها . ولم يخطئ حدسي ؛ فلقد وجدت السرب الذي تنفذ منه خلال السلتين القائمين عن جانبها ؛ ذلك عرق في الجبل حطمت لتمر السيارات من خلاله في ربيع ليس اجتيازه فوق الجنادل المكدسة فيه بأقل من تسلق الجبل عسراً ومشقة . وسائق « البكس » يدفعه بكل قوة الوقود واحتراقه ، وهو مع ذلك يسير متعزراً كالطفل أول مشبه ، يترجّع إلى اليمين تارة وإلى اليسار طوراً ، ويكاد يهوى في كل لحظة إلى هذا الجانب أو ذاك والسفحان عن الجانبين يحصراننا ولا يزيلان مخاوفنا أن تهوى السيارة بينهما وأن تتحطم على جنادلهما الصم الصلاب .

ووقفت السيارة هنيهة لا تتقدم ولا تتأخر . ويريد أحدهم أن يبدي للسائق رأياً لعله يعينه ، فيثور ثائر السائق بهذا الذي يتدخل فيما لا يعنيه ، يدعو إن شاء أن يجلس مكانه ليرينا من معجزاته ما عجز السائق عنه . والرَّبع ممتد لا ينتهى ، والسفحان لا ينفرجان عن سطح أو واد يبعث إلى النفس الأمل أن قد بلغنا مأمناً . وكلنا واجم لا تنفرج شفتاه إلا عن كلمة تشجيع للسائق وإعجاب بمهارته مخافة أن يثور ثائرة كره أخرى ، وكلنا مع ذلك مطمئن راض باسم الثغر لهذا النهار المشرق الوضاح السماء ، ولهذا الجو الصفو الرقيق الذى ينعش الفؤاد ويشيع المسرة فى كل أنحاءه . وترقى السيارة خلال هذا الربع ثم تنحدر بعض الطريق لتعود إلى الارتقاء من جديد ، وهى فى انحدارها أشد حذراً منها فى تسلقها . والسائق ملق بكل انتباهه إلى كل حجر أمامه ، وإلى كل حركة من حركات السيارة فى تيامنها وتياسرها ، وقد جمدت يدها على مدارها فلا تتركه . وخفت حركة رجله على معيار الوقود ينفق معه مدققاً فى حسابه ألا يزيد ما ينفقه وألا يتقص عن حاجة السيارة فى حركتها أثناء هذا الوقت الدقيق .

ربنا لك الحمد ! ها نحن أولاء قد سمونا إلى القمة وتكشف الأفق عن يميننا ويسارنا ، وانكشف أمامنا الوادى منبسطاً أسفل منا ، تحيط الجبال على مرى النظر بأطرافه . وما هو ذا السائق يتنفس الصعداء كمن كَرَبَه أمرٌ ثم غلبه وغلب كَرَبَه . وانحدرت السيارة متجهة صوب دار قامت فى عزلة هذا الوادى وانبسط أمامها زرع أخضر ذو رَوَاء وبهجة . هنالك تحدثنا ، وذكر أصحابنا هذا الوادى ، وادى لِيَّة ، وجمال حدائقه وأعنابه وفاكهته اللذيذة الجميلة وأشادوا بجودة رمانه وسفرجله ، وتمنوا لو أتاح لنا الفصل أن ننال منها طعام إفطارنا ، لكن فصل الفاكهة لم يأن بعد ، فلنَطِب نفساً بما حملنا للإفطار من الطائف .

ودارت السيارة حول هذا الزرع البهيح ثم انطلقت مسرعة فى الوادى . وما لبث ما حولنا أن تغير : ازداد الجو صفواً ، والنسيم رقة وعدوبة وسرت إلى

الصدور غبطة مسعدة ضاعفت نعمة الحياة . ذلك أثر الماء في مسيله والسيارة تحاذيه حيناً وتجتازه حيناً ، ثم تعود إلى محاذاته ثم إلى اجتيازه . ونهبط منها بين آن وآخر حين يخاف السائق غوصها في الرمال ثم نعود إليها فرحين مطمئنين كما هبطنا منها . وتغوص في الرمل فيدفعها أصحابنا متضامنين خاضعين لأمر السائق الجالس على عرشه قابضاً على مدارها ؛ فإذا خلصت وآن لها أن تعود سيرتها قفزنا إليها في مرح دونه أى مرح . وانطلقت تسير في أرض خصبة خالية من الزرع إلا ما ندر . ويذكر صاحبي أن وادى لية يمتد مستطيلاً مدى خمسة وعشرين ميلاً تقريباً وأنه يبتدئ من ديار بنى سفيان الثقفيين من الجهة الجنوبية وينتهي بخدّ الحاج من الجهة الشمالية ، وأن أعلاه يسكنه الأشراف ، ويسكن الزوران وعوف أسفله . والزوران قبيلة من هوازن ، وعوف فخذ من ثقيف .

وسألت : كم بقي لنا لندرك السد السلمجي ؟ فعلمت أننا نتخطى وادى صُخيرة إلى وادى ثُمالة حيث يقوم هذا السد . قال صاحبي : « ويقم بنو صخر بوادى صخيرة الذى نجتازه الآن ، وهم بطن من ثقيف ، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفى عامل عبد الملك بن مروان ، ومن بقي اسمه علماً على القسوة والفتك والتلذذ بمنظر الدماء . فقد كان يرى في كل جماعة يتولى أمرهم رؤوساً أينعت وحن قظافها ، لا فرق عنده بين صحابى وتابعى وأعجمى أسلم ولما يدخل الإيمان في قلبه . وذكرت وأنا أسمع لصاحبي ما للبيئة في الناس من أثر ؛ فأدرت طرفى يَمَنَةً ويسرة لعلى أستشف من خلال وادى صخيرة سر ما ركب في الحجاج من هذه الخلال . وخيل إلىّ أنى أرى في طبيعة الوادى قسوة لم يكن شيء من مثلها في وادى لية ؛ فقد انقطعت المياه وغاض مسيلها ، ونبأت أحجاراً صم جلاميد ، وخيم على الكون صمت ثقلت وطأته ، لم أدر أهو الذى صاغ روح الحجاج من بطش وقسوة ، أم أن مبعثه روح الحجاج وحديثنا عنه ، وأنا لو لم نتحدث عن الحجاج لما نبأت صم الجلاميد في هذا المكان أكثر منها في أى مكان غيره ، ولما ثقلت وطأة الصمت الخيم

على الكون في أنحاء البادية جميعاً ، ولما كان انقطاع المياه وغيض مسيلها آية غيض الرحمة من قلب الحجاج وانقطاع مسيلها إلى نفسه .

ونسينا صُخيرة ، والحجاج وبنيه وآبائه حين وقفت السيارة بنا في منقطع من الوادى ، وأعلن سائقها، أن وقودها وشيك النفاذ ، وأنا إن لم ننداركة بالرأى لم يعد يدرى كيف السبيل إلى بلوغ السد ثم العود إلى الطائف . ولم يكن بيننا الجريء الذى يلقى عليه تبعة الإهمال فى الخروج من المدينة إلى رحلة كرحلتنا هذه دون التزود من الوقود بأكثر من حاجته ؛ فنحن الآن أحوج ما نكون إلى رضاه واتقاء غضبه ، وهو رجل حاد المزاج قد تدفعه حدته فيذرنا حيث نحن ساعات وساعات . وما عسى أن يجدى تحميله التبعة فى بلوغ غايتنا والعود لنم رحلتنا ! قال السيد صالح القزاز : « لا عليك فها هنا على مقربة منا كوخ لا يأبى أصحابه أن يبيعونا ما لديهم من بترول . وأحسبه يصلح مع ما بقى من بنزين السيارة لنطمئن به حتى عودتنا إلى الطائف . وأشرفت أسابير الرجل ، فانطلق بالسيارة غير بعيد ثم وقف عند كوخ قائم فوق ربوة بعيدة عن مسيل الوادى ، ونادى بأعلى صوته لعل أحداً يسمعه ويجيئنا بالبترول الذى نبتغيه . وأجاب النداء صبي ، فسألنا : ما نبغى ؟ ثم أطلق ساقيه للريح يلتمس أهله حين علم أن فى الأمر تجارة وربحاً . وجلست وأصحابى فوق الصخور الناتئة حول السيارة حتى جاء أهل الصبي بصفيحة البترول وبكوز صغير معها هو الكيل الذى يبيعون به . وانطلقت السيارة الضخمة فى طريقها فوق الصخور مطمئنة إلى وقودها وكفايته ، تمتعُ معنا بجر الصبح الجميل ، حتى بلغت السد السملجى ولما تكتمل الساعة التاسعة . وكنا إذا بلغناه قد تجاوزنا وادى صخيرة إلى وادى ثُمالة ، وتجاوزنا قسوة الطبيعة إلى ابتسامها بالزرع النَّصْر والحضرة الباسمة ، وأن لنا أن نطمئن إلى مكان نتناول فيه إفطارنا وقد زادت بكرة اليقظة وجمال الهواء وجهد الرحلة فى شوقنا إليه وحرصنا على تناوله .

ولم نردد فى اختيار المكان ، فهذا السد أمامنا ضخم عريض السطح مرتفع يشرف على ما حوله . وهو فيما يبدو من أمره أثر تاريخى كان له فى حياة

هذه البلاد أثر بالغ ، فلنصعد إليه ولنتخذ من سطحه مائدتنا . وتسلقنا أحجاره الضخمة كما يتسلق الناس الأهرام في مصر حتى استوينا فوقه ، ثم سرنا حتى توسطنا سطحه . ونظرت عن يميني فإذا مجرى أشبه بمجرى النهر قد حُصِر بين شاطئين ولا ماء فيه ، وعن يساري فإذا أرض مستوية استوت فيها الخنطة على سوقها ولما تُحصَدُ بعدُ<sup>(١)</sup> ؛ ومن أمامي ومن خلفي قام جبلان يحصران هذا الوادي الممرع الفسيح تتحدث أرضه بمعاني الخصب وقوة الإثمار ، وإن لم يكن به من زرع إلا هذه الخنطة التي أرى . وجلسنا على الحجر ونشرنا عليه ما معنا من الزاد ، ما كان أحلاه وأشهاه على بساطته وبدأوته ! أستغفر الله ! لم يكن بدويًّا وقد كان بعضه « بسكوت » ومُربِّي مجلوبيين من إنجلترا . واشتركنا جميعًا في تناوله ، فكان في ذلك من مظهر الديمقراطية البدوية ما تستريح له النفس ويشعر المرء في أثنائه بالإخاء الإنساني الذي لا يعرف الطبقات ولا يعرف الحاكم ولا المحكوم ، والذي يكمل به إيمان المرء إذ يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، ويدرك إدراكًا عميقًا صادقًا أنا جميعًا سواسية أمام الله وأنا جميعًا عباده ، لا فضل لأحد منا على صاحبه إلا بالتقوى .

اطمأنت معداتنا فقمنا نستأنف حديث السد والقبائل التي حوله ، قال صاحبي : تقع ديار بني سعد حيث استرضع النبي على عشرة أميال من هذا المكان . وأغلب الظن أن قد جاء النبي في طفولته إلى هنا مع الرعاة من بني ساعد ابن بكر ؛ فالرعاة لا يذرون مكانًا به كلاً أو مرعى أيًّا كان نوعه دون أن يطرقوه . قال آخر : هذا احتمال قد يكون وقد لا يكون . وربما اعترض عليه بحق من يذكر أن رعاة بني ثُمالة ما كانوا ليدعوا رعاة بني سعد يطئون أرضهم موفورين عن رضا منهم وطواعية ؛ فقبائل البادية شديدة الحرص على حرمان أرضها ، وهي أشد حرصًا إذا كانت الأرض خصبة وكان فيها لذلك مطمع . قال السيد صالح : دعوا عنكم هذا الحديث وتعالوا بنا نهبط إلى حيث الخنطة لنواجه السد : فيرى ضيفنا منه ما هو أجدى في بحوثه من كلام لا يتيسر لنا

(١) أحصد البر والزرع : حان له أن يحصد .

هاهنا تحقيقه . وأوماً صاحبي إجماعة الرضا عما قال السيد وتقدمنا كي نهبط السد ، وسار الشريف حمزة الغالبي إلى جانبي كيما يعاونني إن احتجت إلى معونة .

وهبطنا إلى مزرعة الحنطة واستقبلنا السد ، فأخذت بنظرنا الأحجار الضخمة التي شيد منها ، كما أخذ بنظرنا إحكام بنائه على عظمته وضخامته . فهو يبلغ نحو الثمانين متراً في طوله ، والخمسة والعشرين متراً في ارتفاعه . أما عرض سطحه فيزيد على عشرة أمتار . وسألت عن تاريخ بنائه فقيل إنه يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان في صدر الإسلام ، وإن الحجة في ذلك هذه الكتابة المنقوشة على أحد أحجاره والتي لا تكاد تتضح ؛ فقد نقلها عبد الله باشا باناجي بالفتوغرافيا في أوائل هذا القرن وبعث بها إلى مصر حيث حلت رموزها فإذا فيها : « أمرينائه عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان » . هو يرجع إذاً إلى ثلثمائة وألف سنة خلت . لم يكن بناء الأهرام وحدهم إذاً هم الذين عرفوا العظيم والضخم في العمارة ؛ بل عرف أبناء بلاد العرب من ذلك ما عرف قدماء المصريين ، فأقام أهل الطائف هذا السد كما أقيم سد مأرب في بلاد اليمن ؛ وأقيم هذا السد في مسيل الوادي بين الجبلين كما أقيم سد مأرب لينتفع الناس بالمياه ولا يدعوها تذهب هدرأ . كانت الغايات الاقتصادية والعمرائية هي التي أدت إلى إقامة هذا السد إذاً كما أدت إلى إقامة سد مأرب . وهذه الغايات هي التي دعت بنائه ليقيموه بالقوة والمتانة التي أقاموه بها من أحجار ضخمة يمسخها المِلاط<sup>(١)</sup> القوي على مجابهة الزمان . لا بد إذاً أن قد كان في هذه البادية من أسباب العمران ما لا نرى له اليوم أثراً ؛ ولا بد أن قد كان العرب في صدر الإسلام ينعمون بحضارة نذكرها اليوم عليهم ؛ لأن أبناءهم أنكروها عليهم بإهمالهم إياها . بل أراني أميل إلى الظن بأن هذه الحضارة كانت قائمة ينعم بها أهل هذه البلاد قبل الإسلام ، وأن الدين القيم قد نزل على قوم لهم من الحضارة هذا الحظ الأوفى .

(١) المِلاط : الطين يجمل بين ساق البناء ويملط به الحائط .



وأدليت بما جال بخاطري من ذلك ، فذكر السيد صالح القزاز : أن هذا السد أضخم سدود الطائف المعروفة ؛ لكن بالطائف سبعين سداً غيره ، ومنها ما يكاد يدانيه ضخامة وعظمة . من ذلك سد واقع في حى سيّسّد المعروف بشرق الطائف ، يقال أن يزيد بن معاوية هو الذى أمر ببنائه ، وآخر واقع بوادى ثنية بين الطائف ووادى محّريم . وهذه السدود جميعها مخربة منذ أزمان بعيدة لا يعرف أحد من أبناء هذا الجبل عنها شيئاً . ولم يخامرني ريب في أن تخريب هذه السدود هو الذى هوى بالطائف إلى حيث هى اليوم بعد أن كانت مصرب المثل في الخصب والمنعة ؛ فقد كانت هذه السدود جميعاً خزانات تحجز مياه المطر لفائدة الزراعة ؛ فكانت المساحات الواسعة تستغل مزارع للحنطة والغلّال والفاكهة وما إليها مما ترويه الكتب عن ثروة الطائف وعن مكانتها الاقتصادية ، وكان ذلك سبباً في العمران وانتشار السكان في هذه الأودية الكثيرة التى مررنا والتى لم نمر بها . أما اليوم فأنت لا ترى في هذه الأودية أثراً ظاهراً للعمران . وما يذكرونه عن ثمالة وصخر وثقيف وهذيل وأفخاذها وبطونها لا يزيد على أسماء تحي في النفس ذكريات تاريخية ترجع إلى أيام الإسلام الأولى ، وترجع إلى ما قبل الإسلام . فإذا أردنا أن نلتمسها اليوم لم نجد إلا نجوعاً منثوراً هاهنا وهناك يقيم فيها من الأعراب من لا يزيدون عن البدو الرحل رقيقاً ولا تحضراً ، ومن جنّواً بتأخرهم على ما كان لهذه الحضارة الزاهرة في صدر الإسلام من مكانة لا ينكرها أحد .

وأردف السيد صالح : ولم تكن مياه هذه السدود مقصورة فأندتها على إمداد الزراعة المتصلة بها ، بل كان لها فائدة أخرى لا تقل عن حجز الماء وقد تربو عليه ؛ ذلك أنها ترفع مياه العيون والآبار في المناطق التى لاتصلها مياه السدود ، فتجعل الرى من هذه الآبار والعيون هيناً ميسوراً . والعمران يزدهر حيناً وجد الماء فجعل كل ما حوله حياً . لذلك كانت بادية الطائف عامرة كلها ، وكانت الدور والقصور في هذه الأماكن التى نسمع اليوم أسماءها ولا نجد لها أثراً . وسترى مصداق ذلك اليوم حين نذهب إلى الهدّة ، وغداً

حين نذهب إلى الشِّقْمَا ؛ إذ نسمع أسماء وردت في الشعر القديم على أنها موضع حضارة وأماكن عمران ، وهي اليوم بادية ممتدة أمام النظر ليس فيها أثر لحضارة أو عمران ، إلا ما يكون من رسم دارس يثير بقاؤه في النفس الأسي وفي القلب الحسرة .

علونا مزرعة الحنظة إلى الطريق لنستقل السيارة عائدين إلى الطائف في طريقنا إلى الهدية ، ووقفنا إلى جانب السدرينما يجتمع رفاقنا . وسألني صاحبي عن هذا السد ورأى فيه . وسألته بدورى عن صحة اسمه : أهو السد السَّمَلَجِيّ أم السد السَّمَلَسِيّ ؟ فهم ينطقونه جيما كجيم أهل القاهرة ، وقافاً كقاف أهل الريف في مصر ؛ وكنت أميل إلى الظن بأنه السملقي ، لا أدري لم . واختلف القوم وأصر أكثرهم على أنه السملجى واحتجوا بمقال نشره الأستاذ إبراهيم مصطفى أحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وكان قد جاء إلى هذه المنطقة وزار هذا السد . وقال صاحبي حسماً للخلاف : ليكن هذا أو ذلك فله اسمان آخران لا خلاف عليهما : سد ثَمَالَة ، وسد بنى هلال . ولقد أعجبني هذا الرأي وصرفني عن الإمعان في تحقيق اللفظ ما عسى أن يكون الوجه الصحيح فيه .

وانطلقت بنا السيارة نحو الطائف سالكة طرقاً أكثر يسراً من الطريق الذى جاءت فيه . ورأى أصحابنا طمأنينة السائق في مجلسه ؛ فسأله أحدهم : أكان قد ضل فلم يسلك هذا الدرب المعبد ، أم أنه شبع بعد تناول إفطاره فقويت ذاكرته فسلك السبيل السوى ؟ ولم يغضب الرجل ولم تغلبه حدته . وفيم الغضب وكل شيء ميسر أمامه . وبلغ الطائف ووقف عند مخزن البنزين فأخذ صفيحة وأفرغ في السيارة أخرى وعاود انطلاقه لنبلغ الهدية قبل الظهر .

واتجهنا غرب الطائف في أودية جرداء حيناً ومزدانة بالشجر النامى الذى يبعث فيه روح الحياة حيناً آخر . وكان وادى مسرة أدنى الأودية إلى الطائف من هذه الناحية . وهو يقع على مقربة من بستان الشريف الشهيد ابن عون الذى يعرف اليوم باسم « مِعَشِيّ » على قول صاحبي . ولقد جاوزهته السيارة

إلى ما بعده من أودية وهي ترتفع على هضابها حيناً ، وتهوى إلى بطونها آخر ، مطمئناً سائقها إلى الطريق سلكه قبل اليوم غير مرة . وبعد ساعة ونصف ساعة من الطائف انفسح أمامنا سهل يجاور جبلا رفيع الذرأ ، أما السهل فوادي محرم الذى كان يعرف أيام السلف باسم قرن المنازل . وأما الجبل فهو الهدية المتصل بجبل كراء .

ووادى محرم ، أو قرن المنازل إن شئت ، مفرق طرق تصل بين بادية الطائف ومكة . ولأثنين من هذه الطرق شهرة ؛ يتجه أحدهما من وادى محرم إلى حمى النمرور فالثنية المقابلة للشرائع فكة . ويتجه الآخر صاعداً من وادى محرم خلال الثقب الأحمر إلى الهدية . والهدية : سطح جبل كراء . ومن هذا السطح ينحدر الإنسان إلى جبل كراء المتصل بشداد فخرق نَعْمَانِ فعرفات فكة . وهذا الطريق هو الذى سلكه الرسول عليه السلام حين جاء من مكة إلى الطائف قبيل الهجرة . والطريق الأول هو الذى سلكه فى العودة من الطائف إلى مكة بعد أن رده أهلها وآذوه . وهذان الطريقان ما يزالان مسلوكين إلى اليوم لاسائرين على أقدامهم وللمتطين الزوامل التى مرنت على تسلق الجبال ؛ فهما أقصر من طريق الشرائع فالزيمة فالسيل الكبير بمراحل . وأهل البادية أشد ميلا لاتباع الطريق الموجز وإن شق السير فيه . وليس يدفعهم إلى ذلك حرصهم على الوقت وكسبه ، أو تقديرهم أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، بل يدفعهم إليه ميل طبيعى إلى المجهود الأقل . ومشقة الطريق لا قيمة لها عندهم ما يسر قصره للإنسان أن ينال بعده راحة كاملة تعوضه عن كل جهد وكل مشقة .

وتقع الدار البيضاء بأسفل وادى محرم . وحَدَّارِ أن يثير اسم الدار البيضاء فى نفسك ما أثاره فى نفسى من صورة البيت الذى أنشأه الأمريكيون لمقام رئيس الولايات المتحدة بواشنطن . فلقد خُدِّعت حين سمعت هذا الاسم وجعلت ، إذ وصلنا وادى محرم ، أدير بصرى يمنا ويسرة أريد أن أرى هذه الدار البيضاء أين هى ، فيرتد إلى البصر ولم تأخذ به دار بيضاء

ولادار حمراء . وإنما كان أكثر ترددي في السؤال عنها مخافة أن أُثير الإشفاق في نفس أصحابي كيف لا أرى هذا القصر المنيف يختر دونه قصر الرئيس الأمريكي ساجداً ! فلما جازفت بكل جرأتى وسألت القوم ، إذا الدار البيضاء قرية من قرى البادية قامت بها بعض منازل صغيرة حقيرة ، وإذا أنا الذى يشور عجبى بل إشفاقى ذهبت ألتمس للقوم عذراً عن هذه التسمية الفخمة للعزبة الحقيرة ، أنها ربما كانت داراً بيضاء ذات بهاء وجلال في الماضي ؛ فلما هوت إلى حيث هى اليوم بقى لها هذا الاسم الذى لا يتناسب معها ، كما تبقى لأشخاص ضعاف ضئيلة في الحياة قيمتهم هين بين الناس قدرهم ، أسماء أجداد اهتزت بأسمائهم عصورهم ؛ فلما ثوى الأجداد فى الثرى وأورثوا أسماءهم من بعدهم عيشت يد الزمن بالأسماء لعبتها بوارثيها .

ووقفنا هنيهة ننتظر المطى التى تصعد بنا خلال النقب الأحمر إلى الهداة . وأقبل فتيان من البدو تسبقهم حمر تلهث مسرعة كأنها مستنفرة فرت من قسورة . ووقف الفتیان الحُمُرَ على مقربة منا ، واختار أصحابي أحدها لركوبى . ولم أعرف لاختيارهم سرّاً ، فبين الحمر وبرادعها من الشبه ما يثبت اليقين بديمقراطية الحمر في البادية كديمقراطية كل شىء فيها . على أنى شكرت للقوم بحسن الاختيار وعلوت مطيبي كما علبوا مطيهم ، وانطلقنا نخذل السير في طريق لا عوج فيه ولا أمّت . ونحيل إلى أننا سنصعد كذلك في هون حتى نبلغ غايتنا . وما راعنى إلا الجبل انبعث صعداً في السماء أمامنا ، ولم يدع لنا طريقاً نسلكه إلا نقباً أحمر يتلوى صاعداً مع الجبل بين صخور كأنما صُهرت في أتون خلع عليها لون النار . ووقفت المطى أمام هذا النقب وألقت برءوسها وآذانها إلى الأرض وفحصت بأرجلها الصخر تباو متانته ، ثم تقدمت في حذر تصعد الجبل ، تضع رجلا فوق صخرة وتنقل الثانية إلى ما يليها ، وتقف هنيهة حتى تثبت من موقفها ، ثم تنقل رجلها كرة أخرى ممعنة في الصعود . وأمسكت أنفاسى وأمسك القوم أنفاسهم ورفعت طرفى في لمح البصر إلى أعلى الجبل ورددته إلى موضع الخططو لهذا الحمار المختار الذى أركبه .

وفي هذه اللحظات الأولى القليلة القصيرة مرت بنفسى مئات الخواطر . وإني كذلك إذ زلقت رجل حمارى على صخرة فاستردها مسرعاً . عندئذ دعوت الفنى البدوى صاحب هذا الحمار فاستوقف دابته واعتمدت على كتفه ونزلت فوق صخرة وتركت الحمار يتابع تصعيده .

قال أصحابى : « مالك ! ومّ تخاف ؟ » . قلت : « أوثر أن أصعد هذا الجبل على قدى كما صعدت حراء وثوراً ، وما أحسبه أكثر ارتفاعاً من أيهما » . قالوا : « لا تخف ، فهذه الحمر قد مررت على صعود الجبل مرارة البدو ، ونحن معك ، يسبقك بعضنا ويلحقك بعض » . قلت : « لئن كانت الحمر قد مرنت على الصعود لقد مرنت أقداى كذلك عليه ، لكن فاتتنى هذه المرارة فى الصعود على ظهور الدواب » . وذكرت لهم كيف صعدت أرز لُسينان فى سنة ١٩٢٤ ولما تكن طريق السيارات قد مهدت له ، ثم أردفت : « ولقد امتطيت يومئذ حماراً كهذا الذى تفضلتم باختياره لركوبى فإذا هو لا يطيب له السير إلا على حافة الجبل وحافة الهاوية ، حتى لقد كان يخيل لى فى كل لحظة أنى على شفا جرف هار ؛ وذلك شأن الحمر جميعاً ، وهو شأنها اليوم ، وسيظل شأنها أبد الأبدىن ودهر الدهرين ؛ وقد مضت اثنتا عشرة سنة من ذلك اليوم وأنا مع ذلك لا أنساه . وما أحسبى بعد هذا الزمن كله فى مثل ما كنت فيه من نشاط الشباب وإقدامه ؛ مع ذلك كنت يومئذ ممسكاً قلبى بيدي حذر الموت . وأين لى اليوم هذا القلب وتلك اليد التى كانت تمسكه ! فبالله عليكم إلا ما تركتمونى أصعد راجلاً ، فشقة الأقدام والسير أهون من مشقة الأعصاب وخفق الفؤاد » .

وابتسم السيد صالح القزاز لروايتى وترجّل عن خماره ولحق بى وقال : « إذأ نصعد راجلين معاً ، وإن كنت لا أشاركك فى مخاوفك » . وقال البدوى صاحب الحمار الذى أركبه : « جعلت فداك لا تخف . فهذا الحمار أبرّ بى وبركبه من أن يُحدث أمراً . والأمر بعد الله ، والله معنا » . وترجّل صاحبى وجاء هو كذلك إلينا يسير معنا . فقافلة الحمر لا تقف أثناء الصعود

إلا كارهة . ولقد رأيتها تتخطى أمامي من صخرة إلى صخرة في حذر ليس كمثلته حذر ، ورأيتني تنزلق قدماً فوق الصخور حيث لا تنزلق حوافرها . وسمعت كأن هاتفاً يهتف في أطواء قلبي : « لِمَ تخاف ولكل أجل كتاب ؟! وإن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ! » والأمر بعد أهون من أن أجعله موضع رجاء أصحابي ، والتماس البدوي صاحب الحمار ، ودقة الملاحظة لخطو الحمر ، وهذه الفلسفة الجبرية التي بدأت تهتف بي ؛ على أني مع ذلك آثرت أن أجعل عودي إلى امتطاء الدابة نزولاً مني على إرادة صاحبها . ووقف الرجل الحمار في بطن النقب وعلوت صخرة استويت منها إلى مركبي ، وعادت القافلة تسير في نظام مطمئن .

وازددنا طمأنينة بعد ربع ساعة من مسيرنا ؛ فقد استوى الجبل في صعوده واستوى النقب طريقتاً تجرى الدواب فيه جريها في السهل ، لا تخاف شيئاً ولا تخشى . وظلنا كذلك فترة نسينا أثناءها ما استولى علينا من الصمت في الفترة الأولى : فهذا يقص أبناء كراء ، وذلك يقص أبناء كُور ، وثالث يتحدث عن الصخرة الضخمة على سطح الهدة وما عليها من كتابة ونقوش ، وآخر عن البركة الواقعة على منحدر كراء إلى الكُور . ويشترك البدو أصحاب الدواب في هذا الحديث بما يعرفونه من أبناء هذه الأماكن . وإتانا لى مرحنا وفي قصصنا إذ آن للجبل أن يعتدل عمودياً في ارتفاعه ، وللنقب أن يعود شاقاً نحوفاً ، وأن لنا أن نستأنف الصمت الأول ، وأن نشد أبصارنا إلى مواقع الخطو من هذه الدواب الحذرة المحاذة . ويقوس الحمار ظهره إذ يعلو بقدميه الأماميتين صخرة نابية في نتوئها ، ويبلغ من تقوسه أن يكاد الإنسان ينزلق هاوياً وراء ذنبه لولا أن يشد اللجام بيد ويمسك البرذعة بالأخرى . ويخفق القلب هذه الحركات « البهلوانية » المتثدة خفقاً شديداً ، وتتمم الشفاه بعبارات الاستعانة بستر الله في همس لا تسمعه إلا أذن قائله ، بل تتخيله هذه الأذن تخيلاً . ماذا عساي أصنع ! أترجل عن دابتي كرة أخرى أم أبقى متسنماً ظهرها ويفعل الله ما يشاء ! ترى كم بقى إلى غايتنا ! ليكن ذلك بضعة أمتار ، فالسقوط عن

الدابة ودقّ الرقبة يمان فيما دون الثانية الواحدة . وإذا ترجلت وعاد القوم يخاطبونني ويشجعونني وعاد البدوي صاحب الحمار يرحمني فيا خَجَلًا ! فإن لم يكن بعد ذلك بد من أن أستجيب لرجائهم فخير ألا أترجل أو أحدث في القافلة ما لا مفر أن يحدث من هرج ونحن في هذا المضيق الدقيق . ويستدير الحمار فوق صخرة يقف عليها بأربعه ، وأكاد أراي هاويًا متدحرجًا على الصخور إلى رحمة الله ، فيشب قلبي في صدري ويتعطل كل تفكيرى وأشير إلى البدوي السائق ليدنو مني فأعتد عليه وأهبط عن الدابة في صمت وأسير بضعة أمتار على قدمي لا أحدث أثناء ذلك ضجة ولا جلبة ، ولا يكاد يفطن أحد من معي لما فعلت . ويسبقنا الحمار ويسير البدوي إلى جانبي ، ثم يشير إلىّ بعد قليل أنا صرنا على مقربة من القمة ، وأن الطريق استقام أو كاد ، وأنى أستطيع في غير خوف أن أعود فأمتطى دابته . ويمسكها وأعلوها ، وتسير في طريق ما يزال وعراً كما كان . لكنني كدت آلفه . ووعورته للسائر على القدم ليست دون خطره على ممتطى الدابة ؛ فأنت منه بين أمرين أحلاهما مرّ ؛ وأنا أداول بين الأمرين دراكًا وما دمنا قاربنا الغاية فلأن أبلغها فارسًا مع السادة خير من أبلغها ماشيًا مع قادة الدواب .

وكنّا على رأس النقب حين بدت لنا دار حمراء لم أدر أبُنيت من الآجر أم من أحجار هذا النقب . دار قائمة في عزلة الصومعة شيدت على قمة عالية ، وعلى صورة البرج . كيف الطريق إليها ! انقطع النقب واستدارت الحُمر على سطح للجبل مخضّر تجرى خلاله طرق ملتوية في تصعيدها ، حيل بينها وبين خضرة الزرع بأحجار رصفتها أيد حريصة على هذا الزرع حذر أن تدوسه أقدام المشاة أو حوافر الدواب وأخفافها . وتلوّت قافلتنا في هذه الطرق تسير صعداً نحو الدار في طمأنينة من أدرك غايته . قال صاحبي وهو يتبعني على أتانه حتى يكاد رأس الأتان يمس ساقى : « هذه الهدّة هي السطح من جبل كراء ، وهي ترتفع عن الطائف بستائة متر ، وعن سطح البحر بمائتين وألفين من الأمتار . أو ترى هذا الجبل المصعدة قمته في الجو هناك في الناحية

الجنوبية ؟ إنه جبل سيفتار ، وهو أعلى قمة في هذه الناحية من جبال الطائف ؛ ويبلغ ارتفاعه عن سطح الهدة خمسين ومائتي متر . والبدو يرون البحر منه عند منحني الليث الواقع على مقربة من جُدّة ، وهم يرونه ساعة مغيب الشمس إذا كان الجو صفوفاً فلم يحل دون امتداد البصر إلى غاية الأفق حائل .

وكان الجو في هذه الساعة رقيقاً صفوفاً من كل شائبة . وكان هواء الجبل صحيحاً منعشاً يبعث إلى النفس الغبطة وإلى القلب المسرة . وكانت الشمس ترسل أشعتها المحسنة تحيي بها الكون وتفيض منها الدفء والنور ، فتزيد النفوس غبطة والقلوب مسرة . وكان زملاؤنا جميعاً فرحين أن بلغنا الغاية بعد ساعات تنقلنا أثناءها من الطائف إلى سد ثمالة ، فألى الطائف كرة أخرى ، فألى هذا المكان الذي بلغناه بعد جهد ومشقة . لعلى كنت أكثرهم اغتباطاً ومرحاً . فهذا كله جديد في حياتي وهو متداول في حياتهم ، فإن لم يكن بعض ما يزاوونه كل يوم فهو بعض ما يتعرضون له الفينة بعد الفينة ومنهم من تكاد تكون هذه المشقة بعض حياته ، كالشريف حمزة الغالبي . وربما كان فرح هذا الرجل أن بلغ بنا ما نبغى ، وأن حدثنا عن كثير مما أريد أن أسمع عنه ، أعظم من فرحه لمراى دار مضيفنا في الهدة . ولقد رأيت السرور يلعب في عينيه ونحن نترجل عند دار هذا المضيف وهو يسألني في شوق من يريد أن يطمئن :

« لعلك لم يبلغ منك التعب » !

ودلفنا إلى بيت مضيفنا محمود المغربي ، فدخلنا باباً وارتقيناً درجاً وأوينا إلى غرفة أذكرتني بداوتها وسداجتها منازل العزب في مصر . ولقيتينا أهل الدار مؤهلين فرحين ، ودخل بعضهم معنا الغرفة الخالية ، وجاء أحدهم بحصير من هنا وآخر بسجادة من نسج أيديهم من هاهنا ، وفرشوا ما استطاعوا فرشاه من جوانب الغرفة ، ثم جاءوا بوسادتين أتكى عليهما مبالغة في إكراي . وأعد لنا التوم الغال - وهو طعام « التصيرة » كما أسلفت - بيضاً وخبزاً وتمراً . وقام رب الدار على قدميه عند الباب لا يتناول معنا طعاماً ولا يلقى إلينا نظرة ، وكل همه أن يجيء بالماء للظامئين . وسمعته يتحدث إلى أهله .



جزيت يا مستر فلي ! أهذه اللغة العربية الفصحى الصميمة التي هديتني إلى موطنها ؟ ! إنها لهجة لا أكاد أفهمها إلا كما أفهم أهل لبنان أو أهل المغرب إذ يتحدث بعضهم إلى بعض . يرحم الله شعراء ثقيف وخطباءها ! ويرحم الله الحجاج بن يوسف الثقفي يوم قال :

أنا ابنُ جلا وطلأع الثنأيا متى أضع العمامة تعرفوني  
 ورحم الله أمية بن أبي الصلت الثقفي في الجاهلية ! ورحم الله المغيرة بن شعبة ، وغسيلان بن سلسمة ، وعروة بن مسعود ، والفارعة بنت أبي الصلت وغيرهم وغيرها من رجال ثقيف ونسائها الشعراء والحكماء . أين شعر هؤلاء وأين حكمتهم ! وأين هم من أولئك الذين أرى اليوم فلا أكاد أستبين لهم حديثاً أو أفهم لهم قولاً ! ! وأسأل السيد صالح القزاز في ذلك فيذكر لي أنه الجهل المطبق الذي خيم على البلاد أجيالاً بل قرونًا ، والذي ألقى الناس حتى ما يفهمون غيره . فإذا أنشأت لهم الحكومة الفاتحة اليوم مكاتب للتعليم تلكأوا في الإقبال عليها واعتبروها عدوًّا لهم أي عدو ، هذا على شعورهم بالحاجة إلى المعرفة بعد إذ رأوا السيارة والبرق ، وأيقنوا أن الحياة في عصرنا الحديث بغير علم مستحيلة ، وأن الجهل والبهيمية فيها سواء .

خرجنا بعد « الغال » من دار مضيفنا ندور في الهدية من سطح كراء . وأطلقنا للدواب أزمتهما تجرى مرسله العنان لا تخاف وعراً ولا وعشاً ، ويدفعها أصحابها البدو الفرحون بجريها إلى مزيد منه ، فهي تستبق ما انفسح الطريق أمامها ، فإذا قام النبات عن جانبيها وصاح الطريق سارت بعضها في أثر بعض . ونبات الحنطة المزروع في هذا السطح من الجبل لا تتجاوز مساحته المنتشرة هاهنا وهناك بضعة الأفدنة لكل قطعة منها . وهي تقع أغلبها في حوض سفح أو على رأس هاوية . فأما ما وراء ذلك من سطح الجبل فخلاء منتشرة فيه الأحجار المتباينة الأشكال والأحجام . وقد مررنا بحجر ضخم قائم في الفلاة يكاد ارتفاعه يبلغ ثلاثة الأمتار أو يزيد عليها ، فذكرت لمرآه أحجار الهرم الأكبر بالجيزة ، وإن لم يهذب وكم يسو ما هُدِّبَتْ وَسُوِّبَتْ . ووقف

أصحابي أمام هذا الحجر فإذا عليه كتابة ونقوش ، حاولوا قراءة ما يمكن قراءته منها ، وحاولوا أن يردوه إلى عصور قديمة ترجع إلى صدر الإسلام وإلى ما قبل الإسلام . قال صاحبى وهو يحاورهم : « أو تحسبون صخرة كهذه الصخرة معرضة للريح والمطر تحتفظ ألوف السنين أو مئاتها بكتابة لم يعنى صاحبها نقرها ! لشد ما تغلون ! وإني لأظنكم تحرصون في غير موضع للحرص أن تخلقوا تاريخاً منقوشاً على صخور هذه الأماكن الغنية بما وعت من عهد الرسول فأغناها عن كل نقش . وحسب هذا المكان فخاراً أنه عليه السلام مرّ به في مجيئه من مكة إلى الطائف يستنصر أهلها . فأما ما ترونه منقوشاً على هذه الصخرة أو غيرها من الصخور فلا أحسبه يشقى غسلة أو يروى ظمأ ، وإن ألقى الدين يجلون طلائمه تاريخ البشر مطويّاً في ألقاظه . »

كانت غايتنا من سيرنا أن نبلغ البركة القائمة عند منحدر جبل كراء إلى الكُـرّ . فمن هذه البركة يرى الإنسان الطريق إلى شداد فوادى نَعْمَان فكة ، وهو الطريق الذى يسلكه المشاة وتسلكه الدواب بين مكة والطائف ، وهو الطريق الأثرى الذى سلكه الرسول من ستين وثلاثمائة وألف سنة مضت . وهو هذا الطريق الذى نصح إلى الحاج عبد الله فلبى أن أسلكه لأسمع عربية البادية . أما ولم يتسن لى أن أتعدى ما بعد وادى نعمان يوم جئت إليه من مكة ، فلا ذهب إلى الكُـرّ من ناحية الطائف فأكون قد قطعت من هذا الطريق أكثره . وانطلقت الدواب بعد أن قرأ أصحابى ما استطاعوا وما لم يستطيعوا قراءته مما على الحجر الضخم حتى بلغت منحدر الطريق على سفوح كراء إلى البركة ، هنالك عادت إلى مجازفتها وحدها . ولم يطل بنا الطريق فירתاع القلب من خشية الخطر والانزلاق ، بل كنا عند البركة بعد دقائق من بدء المنحدر ، وكان من البدو الذين معنا من سبقونا إليها ونادونا من عندها لتطمئن بندائهم إلى قيصر الطريق ويسره .

والبركة مربعة ، بنيت بناء محكمًا ، ومهد إليها انحدار الماء من الجبل في قُنْبِي أَحْسِنَ نظامها ، كما نظم انحدار الماء منها ليظل ماؤها جارياً ما نزلت السيول أو ذابت الثلوج . وشرب منها بعض رفقتنا تيمناً وتبركاً .

وأدرت المنظار المقرب فيما حولى ، فألفيت انحدار السفح فيما دوننا وعرأ عمودياً أو يكاد فسألت أصحابى فى صعوده ؛ فابتسم أحدهم وقال : « إن من أهل شداد الواقعة فى السهل عند نهاية كُرّ من يطيب لهم الحجىء إلى هنا ليشربوا القهوة وليتحدثوا ولينعموا بهواء الجبل ما طاب لهم وليعودوا بعد ذلك معتبتين بنزتهم لم يصبهم نصب ولم يمسههم تعب ؛ وإنما تحسب أنت للأمر حسابه وترى فيه عسراً لأنك لم تتعوده ، والحياة عادة . ولو كنت تصعد الجبل اليوم للمرة الأولى ولم تكن قد سبقت إلى صعود حراء وثور لوجدت من المشقة أضعاف ما تجد . »

وحقّ ما قال . وإنى لأذكر يوماً من سنة ١٩١٠ كنت فيه بلوسيرن من أعمال سويسرا وقد قضيت الليل بفندق فى قمة جبل الپيلات . فلما تنفس الفجر خرجت أشهد مشرق الشمس على قمم الجبال ، فألفيت جماعة من أهل الجبل فى هذه المنطقة سبقونى وقد تساقوا من أدنى السفح إلى أعلاه فى بكرة الصبح خفافاً يتخون أغانى الجبل ويتصايحون صيحاته ، وهم فى جدل ومرح دونهما مرح الطير الطليق من عشه مع تباشير النور . وقديماً ثقل هواء السهل على أهل الجبل ، فكان تحنانهم إلى السفوح والقمم ينساب فى شعرهم نغمات كتغريد الطير حين أوبته إلى عشه وأفراخه .

وعدنا إلى منزل مضيفنا نتناول العقسال ، فألفيناه ثرد الثريد وجعل عليه لحم الجزور كله ، وهياً بذلك لنا طعاماً بدوياً لذيذاً . ولم يشاركنا فى العقال كما وقف ساعة الغال بعيداً عنا يجيب مطالبنا ولا يلقى علينا نظرة . ودارت القهوة بعد الطعام ، ثم خرجنا فركبنا دوابنا ودرنا بها فى أنحاء الجبل نستبق . وبدأت الشمس تميل نحو الغرب كل الميل ، فعدنا إلى النقب الأحمر نهبط خلاله إلى وادى محرم . ولقد آثرت أن أقطع جانباً من النقب على قدمى مخافة السقوط من فوق الدابة وهى تنحدر فى حذرنا ملقبة إلى الأمام برأسها وبكل جسمها . فلما استويينا بعد ذلك فى « البكس » وأسرع يقطع بنا الطريق إلى الطائف تنفسنا الصعداء . وقدرت صدق الدعوة التى يدعوها بنو وطننا للمسافر : فى منزل الرحى

« يكتب الله لك في كل خطوة ألف سلامة » .

قال صاحبي ونحن نتناول طعام العشاء : سنذهب صباح غد إلى الشِّفا أرفع جبال الطائف وهناك ترى البادية كما خلقت لم يعددُ عليها نظام ولم تعبت بها يدعايت . قلت : أو عبثت يد النظام بالهدية ؟ وهل يرتفع الشفا عن كراء ؟ وتبسم الشيخ صالح القزاز وقال : إنك ستري يوم غد ما يسرك وستكون لك فرصة نادرة المثال في الموازنة بين بلادنا اليوم وما كانت عليه أيام الرسول وفي صدر الإسلام ، وسترى في أعلى الجبال هناك من طبائع البداوة ما لم تره اليوم ، وما هو خليق ببحثك ودرسك .

قلت : أو نجد مكان اللات طاغية ثقيف في طريقنا إلى الشِّفا ؟ وأجاب السيد صالح : لا يعرف أحد اليوم أين كانت تقوم اللات وكل ما يذكرونه أن الصنم مسخ ونقل حجره أمام مسجد ابن عباس تدوسه أقدام الناس .

وذكرت لسماح هذا القول ما يذكره أهل مكة عن هبلّ وأن حجره وضع أمام باب الصفا من أبواب المسجد الحرام ليدوسه الناس .

قال صاحبي : تلك كلها روايات لم يحفل التاريخ شيئاً منها ولم يذكرها مؤرخ جاد في كتاب من كتبه .

وقمنا صبح الغد نقصد الشِّفا ، وأقلنا البكس ، وانطلقنا في طريق مستوية حتى حاذينا قرية المثناة . قال صاحبي : سألتني غير مرة عن المكان الذي لقي فيه الرسول عداساً النصرانيّ وحرصت على أن تقف عنده . ففي المثناة مسجد سيدنا عداس . قلت : أولاً ننزل فنزوره ! لكن الشيخ صالح آثر أن نرجىء هذه الزيارة إلى حين العودة من رحلتنا . وانطلقت السيارة متخطية وادي المثناة في أرض مطمئنة يدل ظاهرها على خصبها، وهي مع ذلك غامرة لا زرع فيها ولا نبات . وبلغنا زراعة مخضرة ونباتاً حسناً ، فقليل : هذه الوهط . ورأينا بساتين تسمى من عين تجاورها، وتقوم منازل على مقربة منها أدنى إلى أن تكون ضيعة صغيرة، يتعهد أهلها هذا الزرع القليل . قال الشيخ صالح : هذه الوهط

التي لا تكاد تُغفل اليوم شيئاً مذكوراً كانت في صدر الإسلام مضرب المثل في الخصب والنماء. ذكروا أن عمرو بن العاص اشترى فيها أملاكاً أيام إمارته في عهد معاوية ، وأن هذه الأملاك كانت تغل من الكروم والنبيد ما يتحدث الناس عنه . جاء معاوية من الشام يوماً ومرّ بهذه النواحي ؛ فلما كان على مقربة من الوهط رأى على البعد ما ظنه أحجاراً سوداء فائتة في كثرة نتوء الحرار في مدينة الرسول ، فسأل : ما هذه الحرار ؟ وعلم أنها ليست حراراً وأنها نحواي النبيد التي تُعصر فيها كروم ابن العاص . فلما توسط بساتين الوهط قال لعمرو مرة أخرى : لى عندك يا عمرو طلبية لعلك لا تردّها قال عمرو : لك ذلك يا أمير المؤمنين ، ولى عند أمير المؤمنين بعد ذلك طلبية أرجو ألا يردّها . ووعدّه معاوية ما أراد . فأما الذي طلبه معاوية إلى عمرو فإن يهبه الوهط . قال عمرو : هي خالصة لأمير المؤمنين . وابتسم معاوية ثم قال : فسل يا عمرو ما بدالك فأنت مجاب إليه . قال عمرو : أن ترد الوهط يا أمير المؤمنين .

وأردف الشيخ صالح : وسواء أصحت هذه القصة أم لم تصح فهي تدل على ما كان لهذه الأماكن القفرة اليوم من شهرة بخصبها وثمراتها . وتؤيد صحة رأيك في هذه البلاد وأنها لم تعد إلى مكائنها في الحضارة والثروة منذ انتقل الملك إلى دمشق وبغداد والقاهرة .

ولعل الشيخ صالح القزاز لم يجزم بصحة الرواية التي حدثت عنها لما تختلف عليه الكتب أكانت أملاك الطائف لعمرو بن العاص أم لابنه عبد الله . فقد ذكر صاحب لسان العرب ما نصه : « الوهط : مال كان لعمرو بن العاص . وقيل : كان لعبد الله بن عمرو بن العاص بالطائف . وقيل الوهط موضع ، وقيل : قرية بالطائف » .

وجاوزنا الوهط إلى الوهيط القريبة منها والتي تشاركها في أن أهلها من ثقيف . وبالوهيط بستان كبير للشريف عون الرقيق يكاد يكون خلاء من الزرع لولا شجرة كبيرة من شجر « اليوكالبتس » كان عون الرقيق قد جاء

بها إليه . وهو يُسقى من عين جارية تنحدر إليها المياه من سفوح الجبال القائمة على مقربة من البستان ، والتي تميز طبيعة الوهيط عن طبيعة الوهط السهلة الفسيحة الرحاب في جوانب الوادى .

وانطلقت السيارة في طريق يقع أسفل جبل بَرَدٍ ويدور معه حتى يبلغا الموضع الذى يصعد منه الصاعد إلى الشفا . ووقفنا في منتصف هذا الطريق عند صخرة تفصل بين قريش وهذيل وسُفَيان ؛ سفَيان في الشرق وهذيل في الجنوب وقريش في الغرب . ونزل إخواني وحاولوا قراءة ما على هذه الصخرة من آثار لم أعنُ بمشاركتهم في قراءتها لأننى لا أثق بقدمها ، ولأنها إن تكن قديمة في حاجة إلى دراسة ليست في نطاق ما أقصد إليه من بحوثى . فلما رأى أصحابي انصرافى عن هذا الأثر عُدنا إلى السير حتى بلغنا مكاناً انفسح فيه الوادى ؛ هنالك نزلنا ، فإذا الدواب في انتظارنا . على أننا رأينا على مقربة منا خلايا للنحل زرناها ، فإذا هى تذكّرني تربية النحل عندنا في أوائل هذا القرن المسيحى ؛ ولعلها هى الطريقة التى كانت تتبع في تربيته منذ قرون ترجع إلى أوائل الدهر .

ركبنا الدواب وسرنا في دروب بدأت سهلة مريحة ، ثم بلغ من وعثها ووعورتها أن صار النَّقَبُ الأحمر جنة بالقياس إليها . وطال الطريق ، وبعُدت الشقة ، ونالنى الجهد ، وكدت أوقن أنا لن ندرك لهذا الجبل غاية . وكم مرة جال بخاطرى أن ألوى عِنان دابتي لأعود من حيث أتيت لولا أن غلبنى الحياء . ويترجل الشريف حمزة الغالبي عن دابته ويسير إلى جانبي يشجعنى إذا استقام الطريق ، ويعاوننى في المنحدرات وفي المرتقيات المخوفة ، ويحاول أن يرفّه عنى ويهدئ نائرة أعصابى . والطريق يطول ويزداد وعورة ، ولا أجد في كلمة من حمزة أملا في قرب الغاية ، فتعود إلى أعصابى ثورتها وأكاد أغالب حياثى وأتغلب عليه وأعود أدراجى . وهممت أن أفعل لولا أن أكمل حمزة أن ما بقى من الطريق دون ما قطعناه منه بمراحل . وانتهى بى الأمر أن استسلمت للأقدار وآثرت أن أنعم حتى بالمشقة ، وأن أجنى منها خير ما فيها ، وأن أنعم بهواء هذه الساعة فوق الجبل بلغ من الصفو والعذوبة

ما لعلهم سرى عنى وجعلنى أستمع بما حولى . وتكبدت الشمس السماء وأرسلت إلى الخليفة من باهر ضيائها ما زادنى بما حولى متاعاً . ثم آن لحمزة أن يزف إلى البشرى بأنا لم نضل الطريق وأنا أشرفنا على الغاية منه . وبعد نصف ساعة من ذلك تبدت لنا دار مضيئنا عامر الربيعى قائمة وحدها فى هذا المنقطع من ظهر الجبل ، ويقال مع ذلك لأنها بقرية خُصَّاس من قرى الطلحات إحدى قبائل هذيل .

وتلقانا عامر وبنوه مرحبين ، ودار بينهم وبين الشيخ صالح حديث سمعته ولم أفهم منه كلمة . وجلسنا فى فناء الدار عند باب غرفة لعلها الوحيدة فيها ؛ ثم انتقلنا إلى مخزن بعيد عنها بضعة أمتار وهناك جرى لنا بالثريد صب عليه السمن بمقدار لم أستطع معه أن أتناول منه لقمة . ولم ينحر عامر جـزوراً لأننا بلغنا داره بعد الظهر ، وسنعود إلى الطائف قبل أن يتاح للحم الجزور أن يسنضح . واكتفيت لطعامى ببعض ما جئنا به من الفاكهة والحلوى . وجسمع من شاء بين صلاة الظهر والعصر ، ثم أقمنا هنيئة نستريح . وفيما نشرب القهوة أغمضت عيني ورحت أفكر فيما رأيت . فهذه البادية ، التى جسست خلالها أمس واليوم ، بادية الخصب غزيرة الماء بديعة الهواء فى الصيف غير قارسة القُرِّ فى الشتاء . ونحن الآن فى شهر مارس والهواء فيها رقيق ينعش النفس ويبعث النشاط إلى الحواس كلها . وما رأيت بها من سدود ضخمة لحجز المياه كى ينتفع بها الزراع وترثع بها مياه الآبار يشهد بأن الذين عمروها وأنشئوا هذه السدود كانوا ذوى حضارة وفن يعرفان كيف يفيدان من خصب الطبيعة وقوتها على الإثمار . وتاريخ هذه البلاد وتراجم أبنائها الذين عاشوا فى عصور مختلفة منذ صدر الإسلام إلى آخر عهد بنى أمية يشهد بما كان لها من أدب رائع ومن فلسفة وشعر وحكمة ، كما يدل على أنها أخرجت أولى مقدره ودهاء فى الحكم وسياسة الشعوب . فاذا دهاها اليوم فصارت إلى ما أرى من اضمحلال الثروة وتهدم المنشآت وجهل الناس وفساد الأمر فيها !! كيف هوت من مرتبة الحضارة الرفيعة إلى هذه المراتب الأولى من البداوة ، وكيف تعطل علمها وفنها فتحطمت

فيها كل آثار العلم والفن ! وكيف ذهبت لغتها العربية الصميمة الصحيحة وحلت محلها هذه الرطانة البدوية التي لا يصل بينها وبين العربية الأولى نسب !

ذهبت هذه الحضارة وذهب العلم والفن معها منذ تقلص السلطان من هذه البلاد ومنذ هجرها أبناءها ذوو السلطان إلى بلاد أخرى . فمن يوم انتقل الأمويون إلى دمشق ومنذ استقر العباسيون ببغداد والفاطميون بالقاهرة حكم على هذه البلاد العربية بالاضمحلال والانحلال . أغرقت أول عهد الأمويين بأموال الفتح ، وفاتها من أول عهد الأمويين شرف الفتح وفخاره . ملك ثروتها أبناءها العرب الذين ارتحلوا عنها وأقاموا بعواصم الإسلام دون تفكير في العودة إليها . وما يُغنى المال إذا ذهب السلطان ! وما يغنى الماضي إذا تقلص ظل الحاضر ! وكيف ينمو المال إذا غاب عنه رب المال ! لذلك لم تلبث تلك البلاد التي كانت حاكمة فانقلبت محكومة وكانت سيدة فصارت مسودة إلا قليلا حتى تقلص عنها ظل النعمة إلى غيرها وحتى انتقلت منها العروبة إلى الشام وإلى العراق وإلى مصر ، وبقيت لها البداوة الساذجة والأعرابية التي فقدت كل مقومات الحضرة العربي ، ثم كان الانحلال الذي بدأ منذ الأيام الأخيرة من العهد العباسي والذي نقل السلطان من يد العرب إلى يد الفرس والترك والمماليك . هنالك انحلت اللغة وحلت محلها عجمية نكراء كانت بلاد العرب أول من اصطلى بناورها . فلما آل الأمر إلى الأتراك العثمانيين لم يبق لبلاد العرب من المكائنة إلا أنها موطن البلاد المقدسة ومكان بيت الله وقبر رسول الله . من ثم أصبحت أدنى في نظر الحاكمين إلى أن تكون بلادا أثرية ، فصار الرأي فيها أن تتجرد من زخرف الحياة كما يتجرد الحاج بيت الله من زينة هذه الحياة . بذلك غاضت قوة الحياة في البلاد العربية جميعا وأصبحت كسلا على غيرها في كل مرافق الحياة . وما حاجة من أصبح كسلا على غيره إلى السعي ! وما حاجة من لا يسعى إلى العلم أو الفن أو الحضارة ! وتعاقت القرون ونفسية أهل هذه البلاد هذه النفسية ، وروحهم هذا الروح ، ونظرة المسلمين إليهم هذه النظرة . لا عجب وذلك شأنهم أن تهدم السدود ، وأن يغيض الماء ، وأن يرحل



عنهم العلم ، وأن يعودوا إلى بداوة الجاهلية الأولى . لقد أسفّت واشتد أسنى لحال هذه البلاد . وما عسى أن يُغنى الأسف ! هل تراه ينهض يوماً بأمة من ضعفها وانحلالها إلى مواطن البأس والقوة ! إنما ينهض بالأمة صائح من أبنائها يحرك فيها معاني الإنسانية ويدفعها إلى الأمام تبتغى الكمال العقلي والكمال الروحي . أما وقد تحرك أبناء هذه البلاد يريدون الحياة مؤمنين بالله وبالروح وبالحق ، فما أجددهم أن يعودوا إلى الحياة وأن يُعيدوا مجد الأجداد !

آن لنا أن نعود أدرأجسنا ، فامتطينا دوابنا وسرنا في الجبل نصعد حيناً ونحدر آخر ، وترجل عن ظهور المطى إذا اشتدت وعورة الطريق . وأدركنا سيارتنا وأهبنا بالسائق أن يسرع لنزور المثناة . وأسرع بنا السائق ، وأدركنا المثناة والليل وشيك أن يمد على الوجود رواقه . وانحدرنا نتسلل خلال الأزقة نريد مسجد عداس لتقف حيث وقف الرسول عليه السلام في ساعة من أدق ساعات حياته ورسالته . ولو أنى لم أقف هذا الموقف ولم أدرك هذه الزيارة نخرجت من الطائف وكان لم أحضر إليها ولم أقف بها . وما الطائف من غير زورة لمسجد عداس ! في المكان الذي يقوم هذا المسجد اليوم عليه وقف رسول الله بعد أن أخرجه أهل الطائف من ديارهم وقد أبوا نصرته وأغروا به سفهاءهم يسبونهم ويلقون عليه الأحجار ، لاجئاً إلى حائط عتبة وشيبة ابني ربيعة يحتسى به من أذى هؤلاء السفهاء . وهناك جلس إلى ظل شجرة من عنب يقلب كفيه ثم يرفع رأسه إلى السماء ضارِعاً في شكَاية وألم ويقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلّمتني ! إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمرى ! إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي . لكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحلّ علي سخطك . لك العتي حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بالله » . ونظر إليه ابنا ربيعة وهو في هذه الحال وطال تحديقهما به ، فتحرّكت نفساهما شفقة عليه فبعثا غلامهما النصراني عداسا إليه بقطف

من عنب الحائط ، وتناولوه الرسول وَوَضَعَ يده فيه وقال : « باسم الله » ، ثم أكل .  
 وَدَهَشَ عَدَّاسٌ لما سمع وقال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد . وعلم محمد  
 أنه نصراني نِينَوِيٌّ فقال له : « أَمِنْ قَرِيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ؟ » .  
 قال عداس : وما يُدْرِيكَ ما يونس بن مَتَّى ؟ قال محمد : « ذاك أخي كان  
 نَبِيًّا وأنا نبي » . فأقبل عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه .

وقام الرسول عليه السلام بعد أن طَعِمَ العنب واستراح فانصرف عنه  
 عداس ، فتوجه إلى مكة سالِكًا طريق حِمَى النُّمُورِ فَوَادَى محرم فالثنية ،  
 لا أنيس له في طريقه غير إيمانه بالله وعباده بنور وجهه الذي أشرقت له الظلمات  
 ووصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هذا موقف من مواقف الرسول الكبرى . هو الموقف الذي سبق الهجرة  
 وكان مقدمة بيعة العقبة ثم الاختفاء بغار ثور ، والذي هبأ الله به للرسول وجهة  
 الدعوة إلى دين الحق . فلئن أجارت الحبشة المسلمين حين لجثوا إليها ، ولئن  
 أسلم بمكة عدد عظيم له قوته وله منعه ، لقد جعل الله يَثْرِبَ مدينة الرسول  
 ولم يكتب لغيرها من بلاد العرب أن يسبقها إلى نصرته ؛ فلن يكون الأنصار  
 إلا أبناءها الذين يؤوون رسول الله ويمهدون للفتح والكمال دين الله وتمام نعمته .  
 أما الطائف فستظل آية الله في الأرض أن الإيمان سبيلنا إلى الله لينصرنا .  
 وإن ينصرنا الله فلا غالب لنا .

ما الطائف إذآ من غير زورة لمسجد عداس ! لقد كانت المثناة التي  
 يقوم المسجد بها قطعة من الطائف في عهد النبي ، وأكبر الظن أنها كانت  
 بعض أطرافها . فقبلها انصرف صبيان الطائف عن محمد وانقطعوا عن إيدائه ؛  
 وبها كانت بساتين الطائف وكرومها . أما اليوم فتقع المثناة من الطائف على  
 نحو ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربي . ولا تزال المياه جارية في أنحائها ،  
 ولا تزال بساتينها ذات بهاء ونضرة ، والكثير من دورها تحيط به البساتين ،  
 ويسقى معظمها من عين ينحدر ماؤها من جبل يبرد من مساكن قريش .

أى قریش هذه ؟ وما مبلغ صلتهما بقریش مكة فى عهد الرسول ؟ هذا ما لم أقف على تحقيقه .

وقفت السيارة بنا فى ميدان فسيح أمام دور المثناة ، وانحدرنا نتسلل خلال الأزقة نريد مسجد عداس . وهى أزقة ضيقة بدت فى هذه الساعة من مواعيد النهار ومقدم الليل موحشة على ضيقها ؛ فلم يكن بها لإنسان يؤنس وحشتها . ولولا البساتين المحيطة بها على الجانبين لبدت أشد وحشة . واستدرنا فى هذه الأزقة غير مرة حتى بلغنا داراً خيلاً إلينا أن بها إنساً . وسأل صاحبه من بها عن طريق المسجد ، فتقدمنا صبي تخطى جداراً فتبعناه ، ثم استدار فإذا بنا أمام بناء ضيق صورته صورة المساجد بمكة ، ولكنه بالغ فى الضيق حداً ضاق به الصدر حين علمنا أنه مسجد عداس .

يا عجباً ! بل يا أسفاً ! أياكون هذا الأثر الضئيل ما أقامه المسلمون ذكراً لهذا الموقف العظيم الجليل ! مسجد لم يقمه مقيم له ليذكر المؤمنون الله فيه ، وإنما أقامه ذكراً لتوجه الرسول إلى ربه بهذا الابتهاج المضىء بنور الإيمان ، والذي يملأ القلب جلالاً وروعة . أين هذا الأثر الصغير من هذا الدعاء المنير ! ألا لو أن منارة ارتفعت ما ارتفعت إلى كبد السماء ، وكانت كل جوانبها محاريب تمثل الركوع لله والسجود أمام وجهه لقصرت عن تمثيل هذا الموقف الفذ من مواقف الرسول ، موقف السمو بالإيمان إلى حيث يتضاءل كل سمو ، والإسلام لله إلى غاية حدود الإسلام . لكن ! من ذا يقيم هذه المنارة ، ومن ذا يصور فيها هذه المحاريب ، ومن ذا يفكر فى أثر غير المنارة ومحاربيها يبعث فى النفس صورة هذا الموقف وما له من عظمة وجلال ، وقد خيم الجهل على المسلمين فانقلب الإسلام فى نفوسهم لإذعاننا لعباد الله ، واتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وآمنوا لمن لم يتبع دينهم ، وجعلوا عبادتهم مظهراً لأوضاع يتعصبون لها ، وحققت عليهم كلمة الله تعالى فى الأعراب : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » ! وأين الحائط الذى كان لعتبة وشيبة ابني ربيعة ؟ ! أين هذا البستان

الذى بعث الفستيان منه بقطف العنب مع عداس إلى النبي ؟ سألت في هذا حين رأيت أمام المسجد مكاناً ضيقاً مسوراً به زرع لم أتبين في هذه الساعة من إقبال الليل ما هو . وقيل لى إن البستان مملوك لرجل من أهل المثناة وإن كان فقيراً ، وكأنه بستان المسجد . وعجبت لهذا واشتد بى العجب . فإذا لم يكن هذا المكان وقفاً على تعبير الفقهاء ، ومنفعة عامة على تعبير رجال القانون من أهل عصرنا ، فأين يكون الوقف وأين تكون المنافع العامة !

وعدنا إلى الأزقة وسرنا خلالها حتى كنا بظاهر المثناة فى ناحيتها المقابلة للميدان حيث وقفت السيارة . وتخطينا سدوداً وقنيتاً تجرى فيها المياه تسقى هذه البساتين والزررع ، ودُرنا حول القرية حتى وقفنا عند مسجد الكوع ، وهو أفسح من مسجد عداس رقعة ويبدو خيراً منه حظاً عند الذين يتعهدونه . ولست أدري أقيم أهلُ القرية فيه صلاتهم وهو على ما شهدت من ضيق ! لكن الذى عرفته أنهم يعتبرونه مسجداً مأثوراً لأن النبي استراح عنده بعد مطاردة ثقيف إياه . ولعلمهم يريدون أن ينحلوه هذه الصفة ليكون له ما لمسجد عداس من مكانة . فكتب السيرة كلها تقرر أن ثقيفاً أبوا نصرته وأغروا به صبيانهم ، وأنه فر منهم حتى بلغ حائط ابنى ربيعة فلجأ إليه واحتوى به ، وهناك وافاه عداس بالعنب . اللهم إلا أن يكون النبي وقف كرة أخرى فى هذا المكان ، مكان مسجد الكوع قبالة جبل المدهسون ، قبل أن يسلك طريقه إلى حمى النمرور ووادى محرم عائداً إلى مكة . وهذا قول لم أقف عليه ولا أعتقد صحته . وأغلب الظن عندى أن ما يذكر عن مسجد الكوع لا يزيد من ناحية الثبوت العلمى على ما يذكر عن أكثر مساجد مكة .

وعدنا إلى الطائف وصاحبى يحاورنى فى مسجد الكوع ، ويكاد يقرئى على أن لا سند من التاريخ لما يذكر عنه . أما مسجد عداس فقد بقيت لدى منه صورة تبعث فى النفس الألم . ولو أن لى من الأمر فى هذه البلاد شيئاً لحققت بكل وسائل العلم هذا المكان الذى لقي عداس النبي فيه ، ولأقمتُ به أثراً يفاخر أعظم الآثار على التاريخ . لكننا يكون ذلك بعد أن تصلح الطائف وباديتها

ويعود لها من العمران والحضارة ما كان لها في صدر الإسلام وفي عهده الأول .  
 هنالك تقوم السدود ويجرى الماء ويرتفع في الآبار ويعود الخصب ويكثر الثمر  
 وترجع هذه البلاد كما كانت جنة شبه جزيرة العرب . عند ذلك يُدرك القوم  
 هذه المعاني الخالدة من مواقف الرسول الكريم وما لها من جلال وعظمة .  
 وهنالك يقيمون لها من الآثار ما يتناسب يومئذ مع علمهم وحضارتهم من غير  
 حاجة إلى من ينبههم إلى هذا الواجب .

عدنا إلى الطائف وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، فتناولنا عشاءنا وأوينا  
 إلى مضاجعنا على أن نبرح الطائف عائدين إلى مكة بكرة الغد . لكننا لن  
 نعود إليها من الطريق الذي جئنا منه ؛ فقد سمعت روايات كثيرة عن سوق  
 عكاظ والمكان الذي كان العرب يقيمونها فيه . وتذهب بعض هذه الروايات  
 إلى أنها كانت تقام عند العُشَيْرَة . فلنجعل طريقنا إلى العشيرة ، ولنعد منها  
 إلى ذات عِرْقٍ فإلى السيل الكبير . فأكثر الرواة على أن عكاظًا كانت بنخلة  
 بين مكة والطائف . ونخلة هي السيل الكبير اليوم . ويزعم بعضهم أن آثاراً  
 قديمة باقية على مقربة من هذا السيل تؤكد هذه الرواية . فلعلنا إن مررنا  
 بالأماكن التي اختلفت الروايات أيها كان موضع عكاظ ، أن نرجح رواية  
 في أمر هذه السوق وموضعها . ولئن لم يكن لدينا من أسباب التحقيق ومن  
 فسحة الوقت ما يجعل ترجيحنا ذا قيمة من ناحية علمية ، لقد يكون مع ذلك  
 ذا فائدة عند من تُواتيهم فسحة الوقت وأسباب التحقيق بما لم تُواتينا به .

## أسواق العرب

لست أريد أن أتحدث في هذا الفصل عن أسواق العرب في هذا العصر الحاضر . ولو أنني أردت لما وجدت غير ما قلته في الفصل الذى تقدم عن مكة الحديثة ، وما ذكرته عن سوق مِنيّ حين الحج ، وعن سوق الطائف ، وما سأجعله موضع حديثي عند الكلام عن مدينة الرسول . ولست أريد أن أتحدث هنا عن أسواق العرب أيام الجاهلية وفي صدر الإسلام بوجه عام ، وإنما أريد أن أتحدث عما له اتصال منها بحياة النبي العربي ، وما يدخل لذلك في منزل الوحي . وهذه الأسواق ثلاثة : عكاظ ومَجَنَّة ، وذو مجاز أو ذو المجاز .

وسوق عكاظ هي التي تلفت نظر كل مسلم وكل عربي إذا ذكرت هذه الأسواق الثلاث . فمَجَنَّة وذو مجاز لم تذكر في كتب التاريخ والأدب ما ذكرت سوق عكاظ ؛ وهما إنما تذكران عند الكلام عن الحج وشعائره وتكادان تتصلان بهذه الشعائر . أما عكاظ فلا يخلو كتاب من كتب الأدب العربي من الكلام عنها ، وقد صار اسمها علمًا على كل مجتمع يضم الآلاف وعشرات الآلاف من الناس ، ويكون حديث الشعر والأدب مما يجرى فيه . وكثيرون يذكرون هذا الاسم كما يذكر غيرهم اسم بُرْج بسّابِل على أنه مجتمع الأمم وملقى الناس من مختلف أنحاء الأرض . من ثم كان لهذا الاسم من ذبوع الشهرة ما يجعل كل زائر بلاد العرب وكل متجول بأم القرى وما حولها حريصًا على أن يعرف أين كان مكانه ، وما صار هذا المكان اليوم إليه ، ومتى بدأت سوق عكاظ تقام به ، ومتى عفت الحوادث عليه ؟

ومن عجب أن ليس لعكاظ على استفاضة شهرتها تاريخ مدوّن في بطون الكتب على نحو يستطيع الإنسان أن يطمئن إليه . فلم يحقق أحد الزمن الذى بدأ العرب يقيمونها فيه . وأدق ما يروى عن ذلك أنها اتخذت سوقًا

في الجاهلية بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . والخلاف على عام الفيل وتحديدته مستفيض كشهرة عكاظ ؛ ولا أدل على ذلك من نسبة عام الفيل إلى مولد الرسول . فقد قيل إنه عليه السلام ولد عام الفيل ؛ ويقول ابن عباس إنه ولد يوم الفيل ؛ والمشهور أنه ولد في سنة ٥٧٠ ميلادية . وإذن يكون عام الفيل كذلك سنة ٥٧٠ ميلادية . لكن آخرين يقولون : إنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة . ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام ، وبأشهر ، وبسنتين يقدرها قوم بثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين . فما هو التاريخ الصحيح لعام الفيل ؟ إن الذين يروون أن عكاظاً أقيمت بعد الفيل بخمس عشرة سنة يذهبون إلى أنها أقيمت سنة ٥٤٠ للميلاد . إذًا لقد كان عام الفيل في رأيهم سنة ٥٢٥ م وقد ولد محمد سنة ٥٧٠ م ، فهو إذًا قد ولد على قولهم بعد عام الفيل بخمس وأربعين سنة . وهذا كلام يقع عليه خلاف شديد ، ولا يسلم به إلا الأقلون .

وليس تحديد المكان الذي كانت عكاظ تقام به بأيسر من تحديد التاريخ الذي اتُّخذ هذا المكان فيه سوقًا . وأكثر الأقوال في هذا الشأن وتواتراً أن هذه السوق كانت بين نخلة والطائف . لكن ما بين نخلة والطائف يبلغ الخمسين ميلاً أو يزيد عليها . فأين كانت السوق تقام من قُطر هذه الدائرة ؟ وهل كانت ثابتة في مكان بذاته أو متنقلة في أماكن مختلفة ؟ أكثر الكتب على أنها كانت ثابتة في مكان بذاته . لكن تحديد هذا المكان أمر غير محقق . وعدم تحقيقه يبدو واضحاً ويبدو محيراً لمن سار بين مكة والطائف وحاول أن يعرف موضعه بشيء من الدقة . فهو يجد نفسه أمام روايات تزيد على الخمس : منها أن عكاظاً تقع بآخر وادي رُكبة المتصل بوادي عُسَيْرَة . ومنها أنها بوادي عَمْرَب في شرق الطائف بعد قليل من أم الحَسَمَد أو أم الحمض . ومنها أنها عند السيل الصغير بالموضع المعروف باسم القَهَاوى . ومنها أنها بالسيل الكبير إلى ناحية الشمال في موضع يقال له الخَرَّ ، في وادي غَسَلَة . وهذه الأماكن كلها يصدق عليها أنها بين نخلة والطائف . ومع ما كتبه

المتقدمون عن عكاظ وموضعها لا تستطيع أنت إذ تمر بهذا الأماكن جميعاً أن تثبت رأياً دون رأى ؛ فإذا رجحت رأياً هداك إليه بحثك لم يزد ذلك على أنه ترجيح لا يمكن القطع بصحته . وهذا ما فعلته بعد الذي قمت به من بحوث أعرضها في هذا الفصل .

على أن الخلاف في تحديد هذا المكان الذي تقوم به عكاظ والزمان الذي أنشئت فيه لا يتصل بتصوير ما كان يقع بها أثناء إقامتها ولا بالموعد الذي كانت تقام فيه . فاتفق المؤرخين على أن العرب كانوا إذا أزمعوا الحج إلى مكة من أصقاع شبه الجزيرة جعلوا عكاظاً موعدهم في هلال ذى القعدة فأقاموا بها عشرين يوماً ثم انصرفوا إلى مسجنتة فأقاموا بها عشرًا ؛ فإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى الحجاز فأقاموا أسواقهم به ثمانى ليل ، ثم ترووا من مائتها في اليوم الثامن وخرجوا إلى عرفة . وبسدهى أن الذين كانوا يحضرون هذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة ؛ فأما من لم يكن له تجارة ولا بيع فإنه يخرج من أهله متى أراد . وكان من لا يريد التجارة من أهل مكة يخرج من مكة يوم التروية . وظلت الحال على ذلك حتى جاء الإسلام وخلع على الحج من الجلال ما تضاعف إزاعه جلال هذا الفرض في الجاهلية . هنالك ظن قوم أن الحج والتجارة لا يجتمعان ، وفكروا في إبطال الأسواق ؛ فنزل قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ » . فأباح هذه الآية التجارة قبل الحج وأثناءه وبعده ؛ وبذلك بقيت الأسواق ، وبقيت عكاظ حتى نهىها الثوار الذين خرجوا من مكة في الثلث الأول للقرن الثاني من الهجرة .

وقال من أهل مكة من لم يكن يخرج إلى عكاظ ، فأهل مكة ذوو تجارة ، بل كانت التجارة حياتهم . ذلك بأن أم القرى وما حولها كانت ولا زالت بواد غير ذى زرع . وقد كانت في تلك العصور طريق التجارة بين

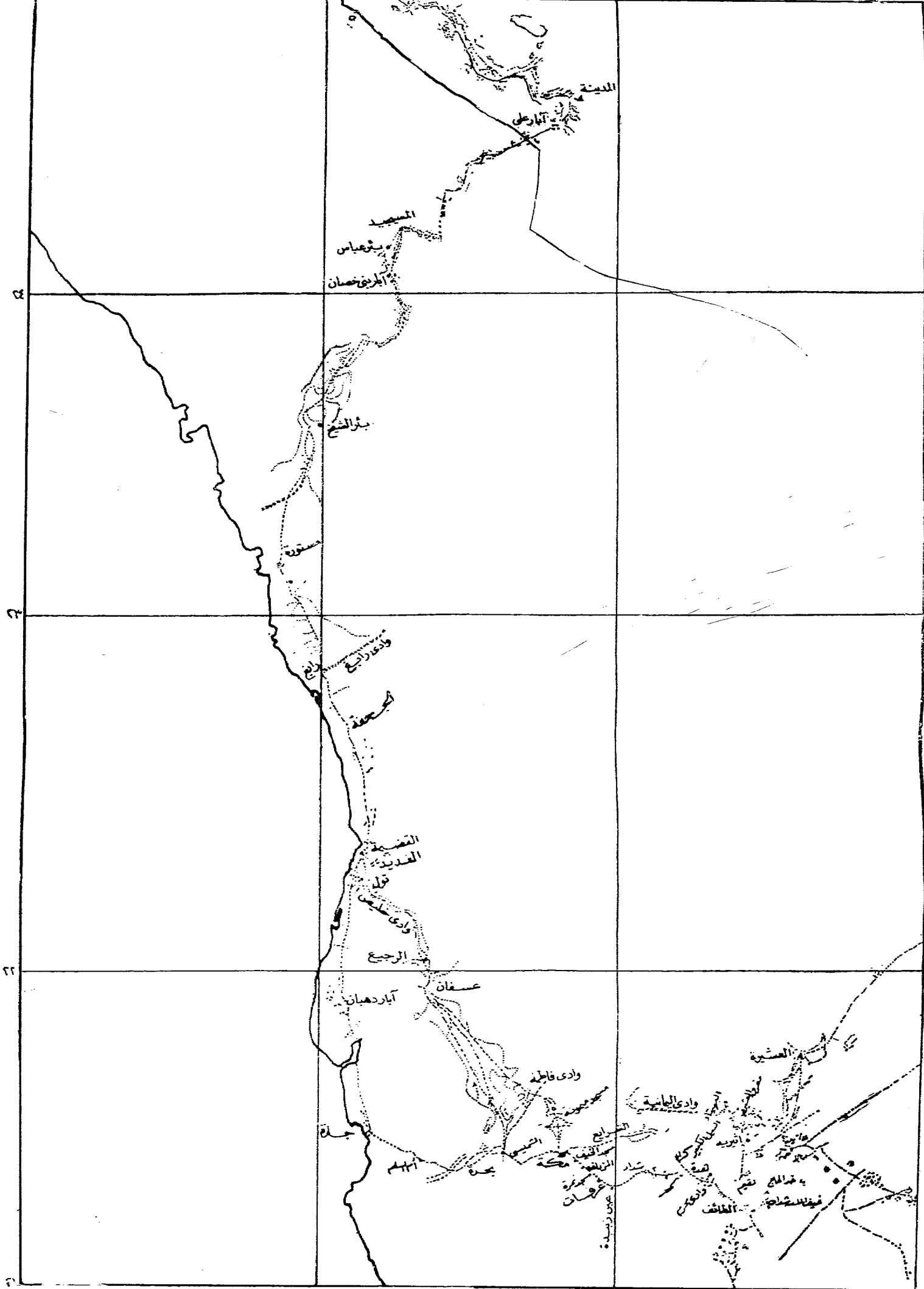


الشام واليمن كما كانت قوافلها تخرج في رحلتى الشتاء والصيف إلى الجنوب والشمال ، تنقل تجارة الشرق إلى الغرب وتجارة الغرب إلى الشرق . ولعل أهلها كانوا أشد حرصاً على شهود الأسواق والخروج إلى عرفة للتجارة منهم للحج . فالبيت الحرام في بلدهم ، والطواف به ميسور لهم كلما أرادوا ، وأصنام الجاهلية التي كان الناس يحجون إليها كانت داخل البيت وفيما حوله ، ولم تكن بعرفة ولا بعكاظ ومجنته وذى الحجاز . فالتجارة إذاً هي التي كانت تستنفر أهل مكة للخروج إلى حيث يجدونها ليبادلوا قبائل العرب المختلفة ما شاءوا من العروض مقابل ما جاءوا به من الشام ومن اليمن . ولعل خروج أهل مكة زرافات إلى عرفة حين الحج حتى يومنا هذا إنما يرجع إلى ما اعتاده أسلافهم في تلك الأيام الخوالي ، وإن يكن الدافع الذي يحفز أهل مكة لهذا الخروج اليوم لا يتصل بالتجارة كما كان يتصل في ذلك العهد .

وقد تعود المؤرخون إذ يذكرون عكاظاً أن يقولوا إن الشعراء كانوا ينتهزون فرصة انعقادها فيعرضون حوليات من نخسب قصائدهم على الناقلين في احتفال عظيم تشهده الجماهير ؛ وبذلك يذيع ما يقره الناقدون وأولو الحكم من هذا الشعر في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ويتغنى به العرب في كل ناد ، وأن الخطباء كانوا يجعلون منها مثابة لعرض آرائهم وتعاليمهم . وصحيح أن الشعراء كانوا ينشدون في عكاظ ، وأن الخطباء كانوا يتحدثون إلى الناس فيها ؛ لكن ذلك لم يكن سببه أن هؤلاء وأولئك كانوا يتخذون من عكاظ حفلاً أدبياً ومجتمعاً خاصاً بألوان البلاغة في الشعر والخطابة ، بل كان يرجع إلى طبيعة الحياة في بلاد العرب ، وإلى أن عكاظاً كانت تضم من قبائلها من لا يجتمعون طيلة العام إلا أيام الحج . وقد كانت عكاظ تجمعهم لتبادل التجارة ابتغاء المنافع . وهذا التبادل في التجارة وهذا التنافس في ابتغاء المنافع وما كان يقع أثناء ذلك وبسببه من خصومات تتصل بعض الأحيان أعواماً متتالية هو الذي كان يدعو الشعراء لينشدوا والخطباء ليقولوا . أما أن هؤلاء الشعراء كانوا يجيئون ليعرضوا شعرهم للنقد ، وأن هؤلاء الخطباء كانوا يتبارون بلاغة ليستعلي بعضهم على بعض

في البيان ، وأن ذلك كان يقع في الجاهلية أيام كانت لهجات العرب لا يزال بينها من التباين ما لم يُزَلِّه استعلاء لغة قريش إلا بعد أن أنزل الله القرآن بها ، فتجاوز في التصور يدعوا إليه ما جسبل الناس عليه من توهم الحياة في كل العصور والأمكنة على صورة حياتهم في البيئة المحيطة بهم . وقد ألف العالم العربي إبان ازدهار الإمبراطورية الإسلامية أن يرى الشعراء يتنافسون يبتغون الزلفى إلى ملك أو أمير ، وأن يرى النقاد يتناولون الشعر في عهد قائله أو بعد وفاتهم بالنقد والإبانة عن محاسنه ومساويه في الفصاحة والبلاغة ، فذهبوا يصورون عكاظًا وما كان يجري فيها هذه الصورة الذهنية التي ألفوا ، والتي تختلف وما تثبتت أنباء الحياة العربية في العهد الجاهلي اختلافًا عظيمًا .

ولست أزعج أنني عثرت في أثر قديم أو مخطوط غير معروف على صورة تصف ما كان يجري بعكاظ على النحو الذي أريد أن أسطره هنا ؛ لكنني انتزعت نفسي جهد الطاقة من بيئتنا الحاضرة وحملتها على تصور البيئة العربية قبيل الإسلام وفي فجره كما تصفها لنا أنباء التاريخ ؛ وحاولت بذلك وفي حدود الطبيعة الإنسانية أن أرى ما كانت عليه عكاظ بالفعل وما كان يقع فيها . وأول ما وقفت عنده أن عكاظًا تختلف بموقعها عن مجنة وذى الحجاز ؛ فهي تقع في الآفاق من مكة في حين تقع مجنة وذو الحجاز منها في حدود مواقيت الإحرام . من ثم كان يباح بعكاظ ما لم يكن يباح بمجنة وذى الحجاز من ألوان اللهو والمجون ومن ضروب التجارة والتبادل . هذا إلى أن ذا القعدة الذي كانت عكاظ تعقد فيه لم يكن له من الحرمة ما كان لذي الحجة شهر المناسك . وكانت قبائل العرب تجتمع في عكاظ عشرين يومًا من كل سنة لتبادل التجارة ، وليس لها من الاجتماع غرض آخر . ولذلك يقول الأزرقى في تاريخ مكة : « وإنما كان يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذى الحجاز التجار ومن كان يريد التجارة . ومن لم يكن له تجارة ولا يبيع فإنه يخرج من أهله متى أراد . ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية » . وهذا صريح في أن هذه الأسواق التجارية التي كانت تجمع قبائل العرب جميعًا في مجيئهم لمناسكهم



الطريق بين مكة والطائف وبين مكة والمدينة

قد كانت أشبه بالمعارض العامة لتجارة شبه الجزيرة . والتطلع في طبيعة الناس من أهل الأمم كلها والعصور جميعاً . وهم لذلك يقصدون هذه المعارض العامة ليروا فيها الحديد الذى لم يروه من قبل ، وليقتنوا منها خير ما يريدون اقتناؤه بأثمان تنزل بها المنافسة الشديدة في المعارض العامة إلى ما يفوق مثله في غيرها . وحيثما اجتمع الناس وتنافسوا اختلفوا وتخاصموا . أما وبلاد العرب كانت إلى أن أُلِّفَ الإسلام بينها وجمعها في سلطان واحد قبائل وحواضر تستقل كل واحدة منها عن الأخرى ، وتعتر كل واحدة منها باستقلالها وتدافع عن كرامتها وكرامة أبنائها ، فقد كان هذا مثار الجدل والفخر ومثار النزاع والحرب في كثير من الأحيان . فإذا آن للحرب أن تضع أوزارها ، وللخصومات أن تهدأ ثائرتها ، قام الحكماء يعظون المتخاصمين ويصلحون بين المختلفين ، لا متباهين ببلاغتهم ولا مقيمين سوقاً لها ، بل عاملين لتهدئة الخواطر وإعادة السكينة والسلم حتى تتصل التجارة ويعم الرخاء شبه الجزيرة .

هذه صورة بسيطة لعكاظ وما كان يجرى فيها . وهى عندى الصورة الطبيعية لهذه السوق التجارية العربية الجامعة . فأما ما يضاف إليها من صور محافل الشعر ومباريات الشعراء وتنافس الخطباء فخيال لا يصف الواقع أبدعه الأدباء والكتاب بعد أن غنى الزمن على عكاظ . وهو خيال لا يتفق مع ما يروى عن عكاظ وما كان يجرى فيها من التجارة وما يتصل بالتجارة من لهو وعبث ، وما يعجر ذلك إليه من خصومات وحروب متصلة . ذكروا أن شباباً من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى عُرَام ، فرأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة جالسة بسوق عكاظ ، وقد ضمت عليها أطراف ثوبها وتبرقت ، وقد اكتنفها شباب من العرب وهى تحدثهم ، فجاء الشباب من بنى كنانة وقريش فأطافوا بها وسألوها أن تسفر فأبت ؛ فقام أحدهم فجلس خلفها وحلَّ طرف رداثها وشده بشوكة إلى ما فوق خصرها وهى لا تعلم . فلما قامت انكشفت ، فضحكوا وقالوا : منعنا النظر إلى وجهك وجددت لنا بالنظر إلى ما وراءك . فنادت : يا عامر ! فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة ، واقتتلوا قتالا شديداً

ووقعت بينهم دماء . فتوسط حرب بن أمية واحتمل دماء القوم وأرضى  
بنى عامر من مثلة صاحبتهم .

وكان لرجل من بنى جشم بن بكر دين على آخر من بنى كنانة طال  
اقتضاؤه على غير جدوى . فلما أعياه وافاه الجشمى فى سوق عكاظ بقرد  
ثم جعل ينادى : « من يعطينى مثل هذا بمالى على فلان الكنانى » رافعاً بذلك  
صوته . فلما طال نداءه وتعميره بنى كنانة مر به رجل منهم فضرب القرد بسيفه  
فقتله . فهتف الجشمى : يا هوازن ! وهتف الكنانى : يا لكنانة ! فتنجم الحيان  
للقتال ، ثم كفوا أن حمل ابن جدعان ما له بين الفريقين .

وكان بدر بن معشر الغفارى رجلاً منيعاً مستطيلاً بمنعته على من ورد  
عكاظاً ؛ فاتخذ مجلساً بها وقعد فيه باسطاً رجله وجعل يقول : « أنا أعز  
العرب ، فن زعم أنه أعز منى فليضرب هذه بالسيف فهو أعز منى » . فوثب  
رجل من بنى نصر بن معاوية يقال له الأحمر بن مازن فضربه بالسيف على  
ركبته ؛ وقام رجل من هوازن فضربه كذلك ؛ وفى هذه الضربة أشعار كثيرة  
روتها كتب الأدب .

هذه وأمثالها حوادث تقع فى كل سوق عامة تعقد للتجارة أياً كانت  
المناسبة التى تدعوا إلى عقدها . والأسواق التى تعقد على مقربة من المناسك  
التي يقصد الناس إليها للعبادة أو التبرك بعض ما يجده الإنسان فى بلاد العالم  
كله ؛ يجده فى الموالد فى مصر وفى فرنسا وفى إنجلترا وفى غيرها . وهذا طبيعى ؛  
فخير مكان تعقد فيه سوق التجارة إنما هو حيث يجتمع الناس فى عدد عظيم .  
وحيثما اجتمع الناس فى عدد عظيم وتبادلوا المنافع تجاذبتهم دوافع الهوى ،  
وفاخر بعضهم بعضاً واختصموا وتحاربوا . أما وهذه الأسواق تنعقد فى  
موعد معين من السنة فالخصومات تتصل فى كثير من الأحيان على السنين .  
والدعاية سلاح من أمضى أسلحة الخصومة . وأسباب الدعاية اليوم كثيرة ؛  
منها الصحف والإذاعة الجوية وألوان الأدب المختلفة ؛ أما عند العرب فكان  
الشعر أقوى سلاح للدعاية ، وكان يقوم مقام أسباب الإذاعة جميعاً . وكانت

الذاكرة العربية بالغة من القوة حدًّا فاخر به العرب ؛ حتى لقد أعرض الكثيرون منهم عن الكتابة مخافة أن تجنى على هذه الملكة فيهم . وكانت هذه الذاكرة تعي الشعر الجيد وترنم به وتُذيعه في كل مكان . فإذا اختلف قوم في عكاظ ، وكان مُشارٌ هذا الخلاف حسناء اندفع الخيال العربي المثوب الفسيح فسحة البادية يصور من ذلك مايشاء ، وقال الشعراء فيه وتغنوا بما قالوا ؛ فإذا كانت عكاظ ذاع فيها هذا الشعر وتناقله الناس كما يتناقلون اليوم في الأسواق أبناء الصحف وما تطيره الإذاعة . فلم يكن شعراء العرب إذًا يعرضون شعرهم في عكاظ ولا في غيرها للتقد ولا للحكم . وهي إذ لم تكن سوقًا للشعر والخطابة والتنافس فيهما كما يصور بعضهم ؛ وإنما كان يجري فيها من ذلك ما يجري في الأسواق كلها من تناقل الحوادث ، خاصة إذا اتصلت هذه الحوادث بالسوق وما وقع أو يقع فيها .

وإذا كان العرب الذين يفدون في الجاهلية إلى عكاظ لحج البيت لا يدينون لصنم واحد ، بل تدين هذه القبيلة للآت ، وتلك للعزى ، وثالثة لمناة ، وأخرى لصنم آخر ، فقد كان خلافهم يجرُّ في كثير من الأحيان إلى التناز بالآلقاب والتفاخر بالأصنام . فإذا هدأت الخصومة وآن للحكماء أن يحسموها حاول بعضهم أن يقنع المتخاصمين بأنهم جميعًا على حق في عبادة أصنامهم وأنها تنفعهم ليتخذوها إلى الله زلفى ، وحاول آخرون أن يهدّثوا من أمر هذا الخلاف على الأصنام ولو أدى ذلك إلى التهوين من أمر الأصنام ، دون طعن عليها ، ودون إثارة لحفائظ النفوس بهذا الطعن . وهذا عندى هو ما دعا إلى خطبة قُسط بن ساعدة الإيادى راهب نجران النصرانى حين خطب من حضر عكاظًا فقال : « أيها الناس اسمعوا وعدّوا ! من عاش مات ، وما مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وضوء وظلام ، وبرّ وآثام ، ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب . مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ! أرضوا بالمقام فأقاموا ، أو تركوا فناموا ! . وإله قس بن ساعدة ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ،

وأدر كركم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه . فليس يحمل قسًا على أن يلقي هذا الخطاب في سوق يتجر فيها الناس إلا خلاف شجر بينهم وبلغ التفاخر بأصنامهم . فلما هدموا وآن لذوى الرأى أن يحسموه بالحكمة تحدث قس هذا الحديث متأثرًا فيه لا ريب بعقيدته المسيحية ، ولكن من غير حرص على الدعوة إليها دعوة قلَّ أن تُؤقَى في مثل هذا الجمع ثمرتها .

كان أهل مكة يشهدون عكاظًا كما قدمت ؛ وكان أبناؤهم يخرجون معهم إليها كما يخرجون معهم اليوم إلى عرفات ومنى ؛ وكان محمد يشهدا مع أهله ويشهد ما يجرى فيها ، وكان يشهدا بعد ذلك في سنين كثيرة : شهدا العام الذى خطب فيه قس هذه الخطبة ، وسمعه يلقبها وأعجب به غاية الإعجاب . فلما بعثه الله نبيًا وأكمل للمسلمين دينهم وآن لوفود العرب أن تجىء إلى النبي تعلن إليه إسلامها ، قدم عليه وفد إيساد يومًا ؛ فقال لهم : « ما فعل قس بن ساعدة ؟ » قالوا : « مات يا رسول الله » قال : « كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلالة ما أجدنى أحفظه » . قال رجل من القوم : « أنا أحفظه يا رسول الله » وتلا عليه الخطبة . فقال رسول الله : « يرحم الله قسًا إنى لأرجو أن يُبعث يوم القيامة أمةً وحده » .

ومن قبل ذلك حضر محمد عكاظًا وشهد فيه حرب الفِجَار . وذلك حين عرض البرّاض بن قيس الكنانى نفسه على النعمان بن المنذر ليقود قافلة النعمان من الحيرة إلى الشام في حماية قبيلته كنانة ، فأثر النعمان عليه عروة الرجال الهوازنى ليتخطى إلى الحجاز عن طريق نجد ؛ فأحفظ ذلك البراض فتبع عروة وغاله وأخذ قافلته ؛ ثم لقي بشر بن أبى خازم وقال له : « هذا القلاص لك على أن تأتى حرب بن أمية وعبد الله بن جدعان وهشامًا والوليد بن المغيرة فتخبرهم أن البرّاض قتل عروة ، فإنى أخاف أن يسبق الخبر إلى قيس فيكتموه حتى يقتلوا به رجلا من قومك عظيمًا » . وأجابه بشر : « وما يؤمنك أن تكون أنت ذلك القتل ! » قال البرّاض : « إن هوازن لا ترضى أن تقتل بسيدا رجلا خليعًا طريداً من بنى ضمرة » . وكانت العرب إذا قدمت عكاظًا دفعت

أسلحتها إلى ابن جُددعان اتقاء للحرب حتى يفرغوا من أسواقهم ومن حجهم ثم يردّها عليهم إذا ظعنوا . فلما أبلغ بشر رسالته قال حرب بن أمية لابن جدعان « احتبس قبلك سلاح هوازن » وأجاب عبد الله : « أبالغدر تأمرني يا حرب ! والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضُربت به ، ولا رمح إلا طُعت به ، ما أبقيت منها شيئاً . ولكن لكم مائة درع ومائة رمح ومائة سيف في مالي تستعينون بها » . ثم نادى في الناس : « من كان له قبلي سلاح فليأت وليأخذه » وأخذ الناس أسلحتهم وسار حربٌ وهشام وأمّية وابن جدعان راجعين إلى مكة اتقاء القتال مع هوازن . فلما بلغ أبا براء قتل البراض عروة قال : خدعني حربٌ وابن جدعان ؛ وركب فيمن حضر عكاظاً من هوازن في أثر القوم فأدركوهم بنخلة فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجنّ عليهم الليل فكفّوا ؛ ونادى منادى هوازن : يا معشر قريش ! ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل بعكاظ .

وقدم البراض بالقافلة مكة . فلما استدار العام ذهبت قريش وأشياعها وهوازن وأشياعها إلى عكاظ فالتقوا بـشَمْطَةَ . وكان محمد مع قريش ، وقد استحر القتل فيهم . فلما رأى ذلك بنو الحارث بن كنانة قاموا إلى قريش وتركوا مكانهم فانتصرت قريش . واستدار العام كرة أخرى فكان اليوم الثالث من أيام الفجار بعكاظ وفيه التقى القوم على قرن الحول بالعبلاء واقتتلوا . أما اليوم الرابع فكان بعكاظ ، وفيه اقتتل القوم قتالا شديداً انهزمت قيس كلها على أثره . وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفجار بعد رسالته فقال : « لقد حضرته مع عُمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت » .

ولقد قيل في حروب الفجار هذه شعر كثير على أثر كل يوم من أيامها ، وكان يذاع في الناس ويُشَدُّ في عكاظ ؛ ولا يبتغي قائلوه الاحتكام به إلى نُقاد الشعر ، بل يقولونه تفاخراً ودعاية وتقوية للروح المعنوية في قومهم . ولا تزال كتب الأدب القديمة وكتب السيرة تحفظ لنا من هذا الشعر الشيء الكثير . ولم ينقطع النبي عن الذهاب إلى عكاظ بعد بعثته . ولعله لم يكن يذهب



إليها في كل عام . لكن الثابت في كتب السيرة جميعاً أنه ذهب إليها بعد أن ضاقت قريش به فحصرته وأصحابه في الشَّعب من جبال مكة . فلما نُقِضت صحيفة المقاطعة والحصار وعاد المسلمون يتصلون بالناس ، فُجِع محمد بعد أشهر من ذلك ، في عمه أبي طالب وفي زوجه خديجة ، فازدادت قريش له إيذاءً ، حتى كان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه منها فرمى على رأسه تراباً . هنالك خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف . فلما رده بشرَّ جواب ازدادت قريش له أذى . ولم يصرفه ذلك عن الدعوة إلى دين الله ، بل جعل يعرض نفسه في المواسم ، وعكاظ أهمها ، على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق وينبئهم أنه نبي مُرسل ويسألهم أن يصدقوه . وكان عمه أبو لهب عبد العزى ابن عبد المطلب يتبعه أينما ذهب ويحرِّض الناس ألا يسمعوا له . فهو لم يكن يقف في هذه السوق خطيباً يدعو الجموع ببلاغته ليتبعوه ، بل كان يتصل بهذه القبيلة وبتلك ، يحدثهم ويحاول إقناعهم بالحجة والمنطق ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، رجاء أن يهديهم إلى الحق وأن يجنبهم الضلال .

موضع كان للرسول الكريم به هذه المواقف : حضر فيه حرب الفجار صبيهاً واشترك فيها ، وسمع فيه إلى قُس بن ساعدة قُبَيْل بعثه ، وعرض نفسه فيه على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق ، جدير بأن يكون مأثوراً وأن يظل سوقاً للحج على مر العصور . لكن ما قام بمكة وما حوطا بعد وفاة النبي وصاحبيه أبي بكر وعمر من الثورات التي انتهت بأن أصبحت الخلافة مُلكاً عَصُوداً ، وبأن انتقلت العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق فبغداد فالقاهرة ، قد عَفِيَ كثيراً من هذه الآثار وذهب بكثير من العادات التي أقرها الإسلام بعد الجاهلية .

وعكاظ من المواضع التي عَفَتْها الثورات فصار من المتعذر تحقيق موضعها . وكل ما ترويه الكتب عنها أنها كانت تعقد في مكان بين نخلة والطائف . فأما موضع هذا المكان على التحقيق فيقع عليه اليوم خلاف عظيم وترد فيه روايات تزيد على الخمس ، كما قدمنا . أفلا يستطيع الإنسان ترجيح

واحدة من هذه الروايات على الأخرى ؟ أو لا يستطيع أن يصل من ترجيحه إلى القطع بصحة رواية ونفى ماسواها ، وبذلك يتسنى أن يقوم في هذا المكان أثر لعل إقامته تعيد إلى عكاظ مكانتها الأولى ؟ !

دار ذلك يخاطرى حين مقامى بالطائف ، وفكرت في القيام ببعض البحث أثناء عودى منها إلى مكة لعلى أهتدى إلى شيء تطمئن له النفس . لقد ذكروا أن عكاظاً تقع بين نخلة والطائف على يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة . يجب إذاً تقسيم الطريق أربعة أقسام ، وأن يكون ما بين مكة وعكاظ منه ثلاثة أمثال ما بين الطائف وعكاظ . إذا صح هذا فقد وجب أن نستبعد القول بأنها بوادى عقرب شرق الطائف بعد قليل من أم الحمض . فأم الحمض لا يزيد ما بينها وبين الطائف على خمسة عشر ميلاً . والطريق من الطائف إلى مكة طوله مائة وثلاثون ؛ فما بين الطائف وأم الحمض دون الثمن من الطريق . ومهما يبعد وادى عقرب عن أم الحمض ، ووادى عقرب هو الذى يقولون إن عكاظاً كانت تقام به ، فهو لا يبعد عنها خمسة أميال فنحن إذاً لا نزال دون السدس من الطريق . وهذا المكان ليس بعد ملتقى لطرق القوافل من أنحاء شبه الجزيرة بما يدعو الإنسان إلى التجاوز عن الدقة في تقدير الأبعاد . فلتتمسك عكاظ إذاً في مكان آخر بين نخلة والطائف .

ويجب أن نستبعد كذلك ما يقال من أن عكاظاً كانت تعقد على حدود وادى رُكبة عند اتصاله بوادى عَشِيرَة . فالعشيرة لا تقع بين الطائف ومكة على الطريق الذى سلكناه أو على طريق غيره ، بل تقع شمال الطائف على مسافة تزيد على ستين ميلاً ، وتقع شمال السيل الكبير الواقع على طريق ما بين مكة والطائف بنصف هذه المسافة ؛ إذ يتوسط مفرق عشيرة الواقع في جوار السيل الكبير ما بين الطائف وعشيرة .

لاحظت ذلك كله على إحدى الخرائط التى أهداها إلى المستر فلبى يوم رحيلى من مكة إلى البادية ؛ لكننى لاحظت كذلك أن عشيرة تقع على طريق نجد ، وتقع على أحد طرق القوافل إلى المدينة حين اتجاه هذه القوافل إلى

وادی العقیق بدل أن تتجه إلى ذی الحلیفة أو إلى قُباء. إذ ذاك أزمعت الذهاب إليها لعلی أرى عندها ما يرجح قیام عكاظ بها . وزاد فی إغرائی بهذا الذهاب ما دوّنته كتب السیرة من أن الرسول صلی الله علیه وسلم ذهب إلى العشیرة فی إحدى غزواته . أما وقد عزمتم علی السیر فی أثر الرسول فلتنكن العشیرة بعض ما اتجه إليه تنفیذاً لهذا العزم .

وذكرت هذا السبب الآخر لصاحبی ، فأبدی من الشك فی ذهاب النبی إلى العشیرة ما أثار عجبی . فأنا جدُّ واثق من ذهابه إليها فی إحدى غزواته . ورجعت إلى كتب السیرة أحقق ، فألفیتنی غیر مخطئ ، وألفیت صاحبی غیر مخطئ ؛ لكنه مع ذلك أدنی إلى الحق منی . فقد ذهب النبی إلى العشیرة من بطن یَسْبُع فی السنة الثانية من الهجرة فی أكثر من مائتین من المسلمین ، فأقام بها جمادى الأولى ولبالی من جمادى الثانية (أكتوبر سنة ٦٣٣) ینتظر مرور قافلة من قریش علی رأسها أبو سفیان فقاتته ، وإن لم یفته أن وادع بنی مُدَلج وحلفاءهم من بنی ضمرة المقیمین علی طریق التجارة بین مكة والشام . لیست هذه العشیرة إذأً هی القریبة من الطائف والمتصلة بوادی رُكبة والی یقال إن عكاظاً كانت تعقد عندها ، وإنما هی من بطن یَسْبُع علی مقربة من البحر الأحمر ؛ فشتان ما بینها و بین عشیرة وادی رُكبة .

وشكرت لصاحبی ما أبدی من ریب كان له فضل رجوعی إلى كتب السیرة والأخبار . ولقد وقفت فیها علی عشیرة أخرى ذكرها الأزرق فی آخر تاریخ مكة حین كلامه عن (شق مسفلة مكة الشامی وما فیها مما یعرف اسمه من المواضع والجبال والشعاب مما أحاط به الحرم) ، فقد ذكر أن «العشیرة» حذاء أرض ابن أبی ملیكة إذا جاوزت طرف الحُدیبیة علی یسار الطريق . فهذه العشیرة الثالثة مما یدخل إذأً فی حرم مكة . ولعل هذا الحوار بینی و بین صاحبی ما كان یقع لو أن العامیة لم تجعل أهل الحجاز ینطقون العُشیرة والعشیرة جمعاً علی أنها العِشیرة . وهذا التشابه فی الأسماء كثير فی شبه الجزيرة . وأنت واجد وادی العقیق بیادية الطائف ، وبهذه العُشیرة الواقعة علی مقربة

منها ، وبالمدينة ، كما أنك واجد الاسم الواحد تشترك فيه أمكنة كثيرة غير العشيرة ووادي العقيق على نحو ما يشترك في الاسم الواحد أشخاص كثيرون .

لم يصدني ما عرفت أن العُشيرة القريبة من الطائف ليست العشيرة التي نزلها النبي من ينبُع عن عزم الذهاب إليها لتحقيق ما يقال عن قيام عكاظ عندها . فلما كنا عشية العود من الطائف إلى مكة اجتمعت كلمتنا على أن نسير بكرة الصباح من الطائف إلى العشيرة ثم نرتد منها إلى السيل الكبير فالْبُهَيْتَاء فالإنيّة فالزيمّة فالشرايع فمكة . والطريق إلى العشيرة هو بعينه الطريق إلى السيل الصغير ؛ لكنه ينفصل عنه قبل الوصول إلى هذا السيل وبعد المرور بالْمَلَيْسَاء ووادي لُتَيْمٍ وأم الحمض . لذلك أتيج لي حين اجتازت السيارة هذا الجزء من البادية صباح يوم الجمعة المتمم للعشرين من شهر مارس أن أرى هذا القدر من طريق الطائف ، وكان الليل قد حجبه غنى حين مجيئنا إليه . وأشهد أني لم أجد برؤيته شيئاً جديداً .

ودعت الطائف ومن فيها ، وانطلقت السيارة أثناءها يتبعها « البكس » فلم نر حولنا غير الوادي تقوم الجبال عن جانبيه عند مررى النظر أكثر الأمر . والوادي خلاء أجرد قلّ أن تجد فيه للأشجار التي غرستها يد الإنسان أثراً . وطريق السيارة منخفض بعض الشيء متعرج لا يستقيم . فلما استوينا على طريق العشيرة استوى الوادي وانفسح واختفت الجبال كأنما ابتلعها الأفق . واخترقت أشعة الشمس الرقيقة هواء الصبح المنعش وانبسطلت على البادية فكستها جميعاً ضوءاً ودفئاً . والسيارة منبعثة في انطلاقتها تطوى هذه المسافات المترامية من الأرض وليس يهدى سائقها الطريق أثناءها إلا حسه المرهف وعلمه بأنه يجب أن يسير دائماً صوب الشمال في دروب من أثر دروب السيارات التي سبقته في هذا المهمة المترامي إلى ما وراء الخيال من آفاق النظر . واختلط الأمر على صاحبي لما رأى الدرب يتشعب أمامه طريقين ، يتيامن أحدهما ويظل الآخر في استقامة انطلاقه ، وأشار على السائق أن يتيامن . لكن الشيخ صالح القزاز أمره أن يتابع الدرب المستقيم ، واتبع السائق مشورة

الشيخ صالح لأنه أدرى بدروب هذه المنطقة ، ولأن السائق يذكر يوماً منذ سنوات سار فيه في هذا الطريق إلى عُسَيْرَة ولم يتيامن .

وانقضت ساعة وتنصفت الأخرى ولم يلقنا في الطريق إنس ولا جان . وأغرانا صمت البادية بالحديث ، فسألت أصحابي : أنتهم السيول في فصول منتظمة حيث نسير ؟ وكان جوابهم أن السيول تنهمر أحياناً حتى لا ضابط لها ، لكنها غير منتظمة الفصول ؛ وقد تنقضى السنة ولا يبلغ ما ينهمر منها ربع الشبر ، وقد يبلغ هَتْنُهَا في بعض السنين ما تضيق به البادية ذرعاً . قلت : فما بالكم إذا لا تحاولون حكم الطبيعة بالعلم فتقيمون من السدود ما تدخرون به الماء إلى حين حاجتكم إليه ؟ وتبسم القوم ابتسامة مريرة وقالوا : « يجب قبل أن نحكم الطبيعة أن نبلغ من العلم حظاً يطوِّع لنا حكمها ، وأن يكون لنا مع العلم حظ من المال لإنفاقه فيما يقضى العلم أن تُنفقه فيه ، وأن يكون في البلاد مع العلم والمال استقرار ويد عاملة . وليس لدينا اليوم إلى شيء من ذلك كله سبيل . وقد ألفت أهل هذه البلاد من حياة البادية ما لا يهون عليهم أن يستبدلوا به ما هو خير منه . ونجدُّ التي حكمت الحجاز ليست أحسن منه حالاً في العلم ولا في المال ولا في الرجال ولا في الاستقرار . أما وهذا قضاء الله وقدره في بلاد بها بيته الحرام وقبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فليس لنا إلا أن نُذعن لأمر قضاءه ولا مرد له من دونه . وحسبنا أن تهوى أفئدة من الناس إلى البلد الأمين حتى يقضى الله بأمره وهو أحكم الحاكمين » .

وبدت عن بعد صخور سوداء في لون الجرانيت البركاني الفاحم ؛ تلك حيرار عشيرة فيما قال صاحبي . وإذا فقد بلغنا غايتنا أو كدنا . ولوى السائق عنان السيارة إلى اليمين ثم انطلق بها ميمماً نُصَبّاً قائماً . وبدأ فيما وراء النَّصْبُ فوهتان لبيّرين هما بئرا عشيرة . أما الفوهتان فبنتهما حكومة ابن السعود بناء صالحاً . وأما النَّصْبُ فتذكار لهذا البناء نقش عليه ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمارة هذه الآبار صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن فيصل آل سعود ملك المملكة السعودية العربية سنة ١٣٥٣ » .

وعلى مقربة من هذا النصب ومن البئرین وقفت السيارة وهبطنا منها  
نجدوس خلال هذا المكان .

وقلت لصاحبي : « أما أن المكان صالح لقيام عكاظ به فأمر لا ريب  
فيه ؛ فهذه البادية الفسيحة تتسع لسوق عالمية تقام بها في عصرنا الحاضر . ووجود  
هذه الآبار يدل على أن الماء هنا يكفي حاجة الذين يقيمون السوق عشرين يوماً  
أو يزيد . وهاهنا طريق لنجد وآخر للمدينة . لكن بُعد المكان عن الطائف  
وعن طريقها إلى مكة يجعلني في ريب من أن عكاظاً كانت تقام به . ونحن  
هاهنا على مسيرة يومين من الطائف ؛ فقد كانت السيارة أثناء سيرنا تقطع ستين  
ميلاً في الساعة وتزيد على ذلك أحياناً ، وقد قضينا نحو الساعتين . فإذا قدرنا  
أن المسافة من الطائف إلى العشيرة مائة ميل ، بل ثمانين ، بل ستين ، لم  
تستطع الإبل أن تقطعها في يوم واحد . ثم إن ما بين هذا المكان وميقات  
الإحرام لا يجعل الفرار منه إلى الحرم في سويغات ميسوراً ؛ وقد فرت قريش  
أول عام للفجار واحتمت بالحرم من هوازن . ولو أن عكاظاً كانت في هذا  
المكان للحقت بها هوازن قبل أن تلوذ بالحرم . أما الروايات متفقة على أن  
الفجار وقعت بعكاظ وأن بين الطائف وعكاظ مسيرة يوم بالإبل ، فالقول بأن  
عكاظ كانت تقام به مرجوح عندي ؛ وهو مرجوح أكثر من القول بأن  
عكاظاً كانت تقام بوادي عقرب على مقربة من أم الحمض .

ولم يبند صاحبي اعتراضاً على هذا الرأي وإن لم يسمي إلى ترجيح  
أم الحمض على عشيرة . فإذا كانت أم الحمض في طريق الطائف إلى مكة ،  
وكان ما بينها وبين الطائف أدنى بمسيرة الإبل يوماً مما بين الطائف وعشيرة ،  
فإن وقوع عشيرة على طريق القوافل من المدينة ونجد إلى مكة والطائف يجعلها  
أدنى إلى الترجيح . هذا إلى أن تقدير الأبعاد بمسيرة الإبل ليس مما يعتمد عليه  
أو يصلح حجة قاطعة في رأيه .

وإنا لنُجبل الطرف في هذه الحرار المحيطة بعشيرة حيناً ونعود إلى حوارنا  
آخر ، إذ مرت بنا قافلة من الأعراب يركبون الحُمُر يقصدون نجداً

فيا ذكروا ؛ ولقد ترجلت امرأة منهم حتى رأتنا وأقبلت تسألني عن آلة التصوير واستوقفت قافلتها كما أصورهم . ولما رأتهى أدخن طلبت إلى سيجارة ؛ فأنكرت عليها أن تكون امرأة وتدخن ، وأن يدخن من يكون في حكم النجديين ؛ فابتسمت في خبث وقالت : إنها تريد أن تمضغ التبغ لتخفف بمضغه الماء بأسنانها . وسألتهى : كم بينها وبين نجد ؟ فأجابت إن الأمر في ذلك للمسير والمرعى . وعادت شعشاء غبراء فركبت حمارها وتقدمت القافلة ، وسأيرها كلب ظل ينبحن حتى بُعد القوم عنا .

وبينا نأخذ أهبتنا لتعود بنا السيارة إلى مفرق عشيرة فالسيل الكبير لنسأل أهلها : أحقاً أن لعكاظ مكاناً معروفاً عنده ، إذا سائق السيارة يذكر أنه سمع في إحدى جولاته قوماً من أهل اليمن يقولون إن عكاظ تقع في جنوب الطائف ، وسألنا : أليس في برناجنا أن ننحدر اليوم فنسأل عن موضعها هناك ؟ وهل يعرفها أحد ؟ وسخّرت وسخر أصحابي من قوله وحسنه يهنى ، وأمره الشيخ صالح في لهجة حازمة أن يجعل السيل الكبير وجهته . وكيف يكون قد سمع شيئاً من هذا الذي يقول والروايات مجمعة أن عكاظ تقع بنخلة بين مكة والطائف . والطائف تقع إلى الجنوب الشرقي من مكة ، فحتم أن يكون ما بين مكة والطائف كله إلى ناحية الشمال من الطائف . على أن السائق أصر على أنه سمع ما روى لنا ، وإن اتجه في طريق السيل . وما كان أشد عجبى حين رجعت بعد ذلك إلى الكتب القديمة فألفيت روايته واردة في بعضها ، وأيقنت لذلك أن أهل اليمن لم يكذبوه حين قصوا عليه هذه الرواية . فقد ذكر ابن رسته صاحب كتاب « الأعلام النفيسة » ، وهو من كتاب القرن الرابع ، وصفاً للطرق التي تصل بين مكة والطائف فقال في تصوير أحدها : « تأخذ على بئر ابن المرتفع ثم إلى قرن المنازل وهو ميقات أهل اليمن للإحرام - وقرن المنازل في عصرنا الحاضر ميقات أهل نجد - ومنها تعدل إلى الطائف . والطائف بخلاف من مخاليف مكة وعمل مكة مما يلي نجد نجران ، وقرن والفتيق وعكاظ والطائف . . . إلخ » . وروى الأزرقى قال : « قال

أبو الوليد : وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء في عمل الطائف على بريد منها ، وهى سوق لقيس بن عبيّلان وثقيف وأرضها لنصر .  
 ولالإدريسي خريطة وضعها لبلاد العرب قد يتعذر اليوم علينا أن نحل رموزها وأن نعرف على التحقيق مواضع الأماكن المبينة فيها ؛ على أن العالم المستشرق الألماني مولير قد عنى بدراستها ورسمها على النحو الذى ترسم به اليوم خرائطنا وحرر عليها أسماء البلاد التى حررها الإدريسي على خريطته . وعكاظ تقع على هذه الخريطة إلى الجنوب من الطائف مع ميل قليل إلى ناحية الشرق .  
 ووضعها هذا يصور ما أورده ابن رسته في أعلاقه النفيسة . وهذا تصوير لا يتفق مع ما قيل من وقوع عكاظ بين مكة والطائف ، ويبعد كل البعد عن الروايات التى صورت مكانها بينهما سواء كانت بوادى عقرب أو بعشيرة أو بالسيل الصغير أو بالسيل الكبير .

أما المستر فلي فيرجح السيل الصغير موضعاً لعكاظ . وهو قد وضعها على خريطته في مكان هذا السيل إلى جانب موضع أسماء أثييرية . ولقد سألت أصحابي عن هذا الاسم فلم يذكره ، وإنما ذكروا المتواتر على ألسن الناس من أن عكاظاً كانت تقوم بالسيل الصغير في مكان يعرف الآن باسم القهاوى ، وهو في هذا الموضع الذى حدده المستر فلي . والمستر فلي إنما حدد هذا المكان لتواتر الرواية عنه ، لا لأنه حقق مواضع عكاظ وحاول الترجيح بينها . وهو يعنى في وضع الخرائط بالواقع اليوم ولا يعنى بروايات التاريخ ولا بما فيها من خلاف . وهذا السيل الصغير صالح لقيام عكاظ به لكثرة مياهه ولانفساح البادية عنده . وهو يقع على مسيرة يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة بسير الإبل ، فلا جرم أن رجحت الرواية المتواترة عنه غيرها من الروايات عن وادى عقرب وعشيرة وطريق اليمن . لكن رواية أخيرة تكاد ترجح عندي هذا التواتر ، أو هى على الأقل تدعو الإخصائين إلى مزيد من العناية والبحث لعلهم يهتدون إلى الحق في أمر هذه السوق التى كانت تعقد في الجاهلية والتى ظلت تعقد أجيالاً بعد الإسلام ، والتي لا تزال علمًا على حياة ونشاط في



التجارة والأدب يجعلان أهل العربية يتناقلون جميعاً أنباءها .

وهذه الرواية الأخيرة هي التي تذهب إلى أن عكاظاً كانت بالسيل الكبير أو على مقربة منه . ولم أقم لهذه الرواية كبير وزن حين سمعتها بعد الذي رأيته من تعدد الروايات السابقة وتهافت بعضها ؛ غير أن الشيخ صالح القرزاز كان يبدى من الميل لتصديقها ما جعلنى أتطلع لتحقيق أمرها . وزاد فى تطلى ما قصه علينا والسيارة تنطلق متجهة إلى ناحية السيل من أنباء ترامت إليه عن وجود آثار باقية يذكر الذين رووها بأنها أبلغ دلالة على عكاظ من كل رواية أو نبأ . وبلغنا مَسْقَرَقُ عُشيرة عند ديار القُشْمِثَةِ على مقربة من السيل الصغير ، وانحدرنا من ربيع ذات عَرِيق ، فاحتوتنا الجبال فى ذلك المضيق الذى أعاد إلى ذاكرتى جبال أبواب الحديد على نهر الدانوب . وفى المضيق لقينا قطع من الإبل قيل إنه للأمر سعود ولى عهد المملكة العربية السعودية ، وإنه يقصد نجد . وما كان أشد عجبنا أن تروع سيارتنا قطع ولى العهد حتى ليُلْتَقِي بعير منها براكبه أرضاً ؛ وطالما مررنا بقوافل يملكها رجال البدو فلم ترعها السيارة ولم تزعجها عن اثناد مسيرها . قال صاحبي : « لعل هذه الإبل الناعمة بمراعى نجد والحجاز لم تعود من يمرّ بها مقتحمًا طريقها ، فهى تفرع المرأى من تحسبه يغير عليها ، مثلها فى ذلك مثل المترفين الذين لم يروا فى الحياة عنتًا فهم يضطربون لأيسر ما يفاجئهم منه » ؛ وانفجرت الجبال عن السيل الكبير فتخطت السيارة إليه ووقفت فى موقفها يوم مجيئنا من مكة إلى الطائف .

وتناولنا الشاي و « البسكوت » ثم تناولنا شربة من ماء وجلسنا نتحدث فى حين أخذ السيد صالح القرزاز يسأل عن موقع عكاظ القريب من هذا السيل . وبعد لأى دله القوم على عربى من بنى سعد اسمه بادى ويقم بالسيل . ووعدناه رزقًا حسنًا ؛ فانطلق معنا يدل السائق على الطريق الذى يسير فيه . واستدرنا بالسيارة فيما وراء الجبل ثم اعتدلنا نقطع بطنًا من الأرض كله حسك العُشْرُوما إليه من شجر البادية حتى خاف حسن أن يصيب السيارة من الحسك أذى . ووقفنا بإشارة بادى فى موضع يقال له « الخُرَّ » من واد يقال له

« غَسَّكَلَة » وراء جبل يسمى « دَمَا ». وهبطنا من السيارة وسرنا خطوات وراء بادي، ثم وقفنا عند آثار بناء في تخوم الأرض مستوية مع سطحها يدل وجودها على وجود عمارة قديمة في المكان تتألف من ثماني غرف حسنة البناء ليست في شيء من منازل البدو . قال صاحبي بعد أن زرنا هذه الآثار : أشهد أني أميل إلى ترجيح قيام عكاظ بهذا المكان ، وأجسب هذه الغرف الفسيحة كانت مقام سادة السوق . قلت : لعلك تبالغ إذ رجحت ، وإن كنت أوتر أن تقوم هيئة علمية بحفريات تحقق بها تاريخ هذه الآثار والغرض الذي أنشئت له .

عدنا نقصد إلى مكة وأنا أفكر في هذه الآثار ؛ فهي أول ما شهدت من نوعها في هذه البلاد . بنيت من الآجر ومن حجر أحمر جيء به من هذه الجبال المجاورة بناء يشهد ما بقي منه بإتقانه وحسن نظامه . ترى في أي عصر كان تشييده ؟ وأي بطن من بطون العرب أقامه هاهنا حيث لا يمر اليوم أحد ؟ إنه يرجح عندي قيام عكاظ بهذا المكان وإن لم يبق سنداً علمياً على هذا الترجيح ، أم لعله رسم درس لمدينة قديمة عفت الأنباء على ذكرها وظلمها التاريخ بنسيانها !

بلغنا حرم مكة وهذه الأنباء عن عكاظ وتاريخها وموقعها تداعب خيالي . فلما تخطينا الشرائع وبلغنا مفرق الطريق إلى الجعفرانة ذكرنا مسجدةً وذو الحجاز . ولم أنس حين ذكرتهما قول الكلبي : « كانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذو الحجاز قائمة في الإسلام حينئذ من الدهر . فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوها وخافوا الفتنة فتركها حتى الآن ثم تركت مجنة وذو الحجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمعى وبعرفة » أين كانت تقع إذاً مجنة ؟ وأين كان يقع ذو الحجاز ؟ نقل الأزدي قول الكلبي : « مجنة سوق بأسفل مكة على بريد منها ، وهي سوق لكناثة وأرضها من أرض كنانة ، وهي التي يقول فيها بلال :

ألا ليت شعري هل أبين ليلةً  
بفسحٍ وحولٍ إذ خيرٌ وجليلٌ

وهل أردن يوماً مياه مسجنة وهل يبسدون لي شامة وطفيلٌ

وشامة وطفيلٌ جبلان مشرفان على مجنّة . وذو الحجاز سوق لهُدَيل عن  
يمين الموقف من عرفة قريبة من كسبِكَسب على فرسخ من عرفة .  
سألت أصحابي عن مواقع هذين السوقين فيما نعرفه مما حول مكة ، فلم  
يجدوا في تحديد موقع ذى الحجاز مشقة ؛ فهو على يمين الموقف من عرفة ، وهو  
إذاً في موضع سوق عرفة اليوم أو يكاد : أما مجنّة فاختلف القوم في تحديدها :  
قال أحدهم إنها تقع عند الجعترانة ؛ وقال الآخر إنها تقع فيما وراء التنعيم  
حيث الشهداء والزاهر اليوم .

ولم يسرُ بي التطلع إلى تحقيق موضع مجنّة ما ثار بي إلى تحقيق موضع  
عكاظ . فقد خشيت أن أعود من بحى بمثل ما عدت به عن عكاظ من  
ترجيح رأى على رأى دون القطع بأى منها . ثم إن مجنّة لم تكن يوماً ذات أثر  
في الأدب العربي ولا في التاريخ العربي كما كانت عكاظ ؛ فهي لم تزد على  
أنها سوق في جوار مكة يجيء إليها الحجاج بعد انصرافهم من عكاظ في  
العشرين من ذى القعدة ويجيئون إليها مُحرمين قد نسوا خصوماتهم ومفاخراتهم  
وتوجهوا بقلوبهم إلى ربهم . وهذا موقف تُنكر النفس فيه التنافس والحسد ،  
وترغب فيه عن الأذى والخصومة . وقد ألفت الناس ألا يعرف تاريخهم إلا آثار  
الحسد والتنافس وما يجران إليه من حروب ومنازعات وما ينشأ عنهما من تطور  
إلى الكمال . فكأنما كُتِب على هذه الإنسانية ألا تبلغ الكمال المنشود  
وألا تبلغ الخير الحبيب إلى النفس الفاضلة إلا من طريق الشر والأذى . ولو  
عرف الناس التضامن وأقاموه مقام التنافس وبنوا صلاتهم على الإخاء الحق ،  
لكان خيراً لهم وأدنى إلى ما توجبه كرامة نبي جنسهم .

أقمت بمكة بعد العود من الطائف أعد العدة للرحيل إلى المدينة أزور بها  
قبر الرسول الكريم وأقف فيها على آثاره الخالدة . لم يبق لي إذاً غير يومين  
اثنين أقضيتهما في البلد الحرام ؛ واللّه وحده يعلم أقدر لي أن أعود إليه ! فلأنهل

إذا من ورد ذلك الجوى الروحى المصطفى ما استطعت النهل . ولأنزود منه ؛  
وخير الناد التقوى .

فى مساء اليوم الأول لقيت الملك ابن السعود ، فاستأذنته فى مغادرة مكة  
وشكرت له معونته ومعونة حكومته إياى فى بحوثى . وصعدت إلى غار ثور فى  
اليوم الثانى . فلما كان اليوم الثالث وكنت على أهبة السفر ذهبت إلى المسجد  
الحرام أطوف بالكعبة طواف الوداع ، وألقى على البيت العتيق نظرة رجاء أن  
أعود إليه يوماً ، لعله يكون قريباً ، لأنهل من نبعه الروحى كرة أخرى ،  
ولأجد فى القربى منه تجرداً من الدنيا وتقرباً إلى الله .  
حقق الله هذا الرجاء ، إنه على كل شىء قدير .

# الكتاب الرابع بين الحرمين

## طواف الوداع

أمّا واليوم موعد الرحيل عن مكة فهلّمّ إلى طواف الوداع . وخرجنا مع المطوف فطفنا ودعونا الله أن يغفر لنا وأن يجعل لنا من العود إلى البلد الأمين والطوّف ببيته المحرم قسماً ونصيبةً . وملت إلى حجر إسماعيل بعد تمام الطواف فصليت فيه ، ثم صلّيت في مقام إبراهيم . وبعد أن أقمت زمناً أدعو وأستغفر انتحيت ناحية النوى ، وأقمت أفكر في هذا الرحيل من مكة وأستذكر أيام السعيدة بها . وأية سعادة كهذا النعيم الروحي المائل في كل رحابها ، يتضوع بأريجه هواؤها ، وتتحدث عنه أنباء الماضي في تاريخها ، وينشر البيت العتيق شذاه في كل أرجائها !

وصرف التفكير في هذه السعادة الروحية عنى إحساساً طالما دبّ إلى نفسى كلما ودعت بلداً احتواني وأنا في شك من العودة إليه ؛ فقد كنت أشعر في مثل هذه المواقف بأن ما أفارقه ينهار بالنسبة لى في لجة ما لانرى ولا نحس إلا خيالاً وحدهساً ، كما أشعر بأن ما مضى من حياتى إلى ساعة هذا الوداع ينهار في بلجة الزمن الذى لا يذر العالم لحظة من غير متورّ ولا تجدد . أما اليوم فكان إحساسى وتفكيرى ، وأنا بمجلسى من المسجد الحرام ، بعيدين كل البعد عن معانى الانهيار وعن تصور الزمن لجة تبتلع الحياة والأحياء . لقد انبسط الزمن أمام بصيرتى وحده جمعت الماضى والمستقبل ، وانكشفت أمام الروح فى بساطة دونها بساطة المكان ووحده ، تدركها بل تراها إذا جلست فى غرفة ضيقة للإذاعة اللاسلكية ، تسمع فيها وتشهد منها عن طريق « التلفزيون » كل ما شئت أن تسمعه أو تشهده فى أنحاء العالم المختلفة . ليس للزمن ولا للمكان إذا بلجة ؛ بل روحنا هى هذه اللجة التى تسع الزمان كله والمكان كله ، ما عرفنا أن نسمو بها فوق مادة الحياة الدنيا المحدودة بالزمان والمكان . وأين يتيسر للإنسان هذا السمو ما يتيسر له أمام البيت العتيق وفى

هذا المسجد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً ! .

فى الحق أن ليس فى العالم كله موقف يطوع للروح أن تسمو فوق حجب الزمان والمكان ما يطوعه لها هذا الموقف الذى أنا فيه . وليس ذلك لسر فى الحجارة التى بنى البيت العتيق منها ؛ فالحجارة مادة ، والمادة تنهار وتتجدد . ولقد جدد بناء هذا البيت غير مرة . إنما يطوع للروح هذا السمو فكرة التوحيد التى قام البيت رمزاً لها منذ رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل . وفكرة التوحيد هى الحقيقة السامية ، الحقيقة الأولى ، الحقيقة التى تنفرد عنها كل الحقائق ، والتى يهتدى بها العلم والفن ، وتهتدى بها الحياة كلها إلى وجه الله الأكرم ، يسبح له جل شأنه من فى السموات والأرض ، لا إله إلا هو الكبير المتعال . نعم ! فكرة التوحيد هى المركز الذى تنجذب إليه العوالم وسننها والكون وأطواره ، والذى تتجه إليه ذرات هذا الوجود كلها مسبحة مقدسة . والفكرة روح وليست مادة ، ومعنى وليست جسداً ؛ وهى لذلك سامية فى خلودها فوق المادة المصورة والصورة المحسنة ؛ ولذلك يبقى رمزها بيت الله العتيق لا تعدو عليه عادية ، ولا يصرف الإنسان عنه صارف ، وكيف تنصرف الإنسانية عنه وهو يمثل خير ما فيها وأسمى معانيها !

ولقد حاول غير واحد من أولى البأس والسلطان فى عصور مختلفة أن يصرفوا الناس عن هذا البيت فذهبت كل محاولاتهم هباء ، ذلك بأن فكرة التوحيد تستقر فى أعماق الروح الإنسانية وإن اختلفت مظاهر العقائد التى تدين بها جماعاتها . وهذه المحاولات إنما دفع إليها التنافس التماساً للغلب الذى فى الحياة الدنيا . والتوحيد لا يعرف التنافس ولا يرقى إليه الغلب ، لأنه يسمو بطبعه فوق كل غلب . والتنافس على المادة من مظاهر هذه الحياة الدنيا وأعراضها الزائلة التى لا تتعلق الروح ولا الفكرة بها . بذلك بقى البيت العتيق رمز التوحيد ، لم تعد على الحقيقة العليا التى يصورها أوهام الحياة ، ولم تخفها الأكاداس التى رانت عليها زمنياً حين كانت الوثنية الجاهلية صاحبة الغلب ؛ لأنها تسمو على الزمن ولا تأبه لما يجيء وينقضى مما لا بقاء له ، ولأنها أزلية

خالدة ، فرمزا باق لذلك بقاء الخلود .

كان تُبَّع بن حسان ملك ملوك حمير عائداً من حرب شن غارتها على الأوس والخزرج بيثرب . فلما كان على مقربة من مكة حدثته نفسه بهدم الكعبة ؛ وكان يهودياً ، فمنعه من كان معه من أحبار اليهود أن يهدم نبت التوحيد ؛ فكساه وعاد إلى بلاده .

وبنت غطفان في القرن الأول قبل الهجرة حرماً كحرم مكة وحاولت أن تصرف العرب إليه ؛ وبلغ ذلك ملكاً على العرب اسمه زُهَيْبُ بن حباب فقال : « لا والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حيُّ » . واتبعه قومه حين قال لهم : « إن أعظم مأثرة ندخرها عند العرب أن نمنع غطفان من غرضها » ؛ وقاتل غطفان وظفر بهم وأبطل حرمهم .

فلما استقل أبرهة الأشرم قائد نجاشي الحبشة بأمر اليمن ، سولت له نفسه أن يقيم بصنعاء بيتاً للنصرانية يصرف به العرب عن بيت مكة ؛ وبنى القليس بها وزخرفه وجلب إليه فاخر الأثاث ، وظن أنه صارف أهل مكة أنفسهم عن بيتها . فلما رأى العرب جميعاً لا يتجهون إلا إلى البيت العتيق ورأى أهل اليمن يذرون القليس ولا يعتبرون حجهم مقبولاً إلا بمكة ، تهيأ للحرب في جيش من الحبشة تقدمه على فيل عظيم وسار يريد هدم الكعبة . وبلغ مكة وأنذر أهلها أن يُخلوا بينه وبين البيت ليهدمه . وأخطى أهل مكة مدينتهم ، وأصبح أبرهة يريد أن ينفذ عزمه ، فإذا جيشه قد تفشاه مرض الجدريّ وبدأ يفتك به فتكاً ذريعاً ؛ وأصيب أبرهة بما أصيب به قومه ، فعاد أدراجه إلى اليمن فرعاً ؛ وبلغ صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ولم يبق إلا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه ؛ وصدقت كلمة عبد المطلب جد النبي : « إن للبيت رباً يحميه » .

ولقد فشت الدعوة القرمطية بالعراق على عهد العباسيين ، وجعل أصحابها يرمون بالكفر من لم يكن على مذهبهم في موالاته محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب . وكان أبو طاهر القرمطي أول من ظهر من هؤلاء الدعاة في أيام المقتدر



العباسي . ولقد بنى أبو طاهر داراً في هجر ، من مدائن البحرين ، سماها دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحج إليها . وكان يقصد الطرق المؤدية إلى مكة ويفتك ، بججاج البيت الحرام . بل سارت عساكر القرامطة في جيش لجب إلى مكة أيام الحج ودخل أبو طاهر الحرم ووضع السيف على بغتة من الناس في الطائفين والعاكفين والركع السجود ؛ وقتل نحو ثلاثين ألفاً بمكة وشعابها ، واقتلع باب الكعبة وجردّه مما كان عليه من صفائح الذهب . بذلك دبّ الرعب في القلوب ، وصار الناس لا يجدون إلى الحج سبيلاً آمناً فانقطعوا عنه ؛ لكنهم لم ينصرفوا إلى دار هجر . فلما مات أبو طاهر ورأى قومه العيب في محاولته تحويل الحج عن الكعبة أعادوا الحجر الأسود إلى مكة ، وكان أبو طاهر قد نزع من الكعبة وأخذ معه ؛ وعاد الحج إلى بيت الله كما كان .

ولما أتم عبد الملك بن مروان بعمارة قبة الصخرة في جوار المسجد الأقصى وبالغ في زخرفتها ظن بعضهم أنه يفعل ذلك ليصرف أهل مصر والشام إلى حج القبة والمسجد الأقصى ، وذلك إذا تمت الغلبة لابن الزبير فرد الملك إلى الحجاز وإلى أهل بيت النبي . أما وقد تمت الغلبة لبني أمية وبقى الناس يحجون البيت العتيق ويولون وجوههم شطره فالمسلمون في ريب مما نسب إلى عبد الملك ابن مروان من هذه المقاصد . وهم كذلك في ريب مما ظنه بعضهم من أن المنصور العباسي بنى القبة الخضراء إلى جوار قصر الذهب الذي شاده ببغداد وأنه بالغ في زخرفتها ليولى الناس وجوههم شطرها ؛ إذ لم يرد في التاريخ من أعماله ما يؤيد هذا الظن .

وإنما باء أبرهة ومن سبقه ومن لحقه بالإخفاق في مآربهم من صرف الناس عن بيت الله لأنهم كانوا يرمون من ورائه إلى غاية سياسية ، والغايات السياسية موقوتة مصيرها إلى الزوال ، وهي لذلك لا تستند إلى أساس ثابت في قرارة النفس الإنسانية ، ولا تمثل المعنى الروحي ولا الحقيقة العليا التي تتعلق بها الفؤاد ويتوق إليها القلب ، يستوى في ذلك قلب الساذج وقلب العليم ونفس الغوى ونفس الطهور . أما فكرة التوحيد التي يقوم هذا البيت العتيق رمزاً لها فهي

الفكرة الخالدة المبرأة من الهوى والتي تمثل الحقيقة في أسى صورها ؛ ولذلك تنحطم على جوانبها كل محاولة ترمى إلى إفسادها ثم يبقو رمزها خالداً تتعلق به القلوب وتتوجه إليه الأبصار من أقطار الأرض جميعاً .

دار ذلك بخاطري وأنا بمجلسي من فيء المسجد أرنو بعينين سعيدتين إلى هذه البسيسة التي رنا إليها خاتم الأنبياء والمرسلين ، والتي رفع أبو الأنبياء خليل الله قواعدها . وانقطعت عن التفكير هنيهة كأنما كنت أهضمه أثناءها وأسيفه وأستمع بجماله وسحره . وإني لكذلك إذ أشرق أمام بصيرتي نور خلته منبعثاً من هذه الكعبة المشرفة القائمة أمامي وختنتني أقرأ خلال هذا النور وأحدث نفسي بما يلي :

« الآن أدركت لماذا حرم الله مكة وجعلها مدينة السلام لا يحل فيها القتل والغزو والأسر ، ولا يحل فيها سفك الدم ولا التعرض لصيدها أو نباتها أو حيوانها ، وأدركت لماذا قال عليه الصلاة والسلام وهو يخاطب الناس يوم الفتح : ” إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة ؛ لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا أو يعضد فيها شجراً “ ؛ ذلك بأنها رمز التوحيد وبيتها هيكله . والتوحيد سلام لذاته ؛ ولا سلام إلا أن يُجمع الناس على الإيمان به . فأما التعدد فتنافس ولو في الخير . والتنافس نضال ، والنضال حرب . فإذا جاز لبلد في العالم إذاً أن يكون مدينة السلام فذلك مدينة التوحيد . بالتوحيد تتوجه الإنسانية كلها إلى وجه واحد هو وجه الله جل شأنه . فإذا صدقت في توجيهها إليه تحاب بنوها وسموا بالحب فوق المنافسات وما تجر إليه المنافسات من حقد وبغضاء وتحاسد ، وبرءوا مما تدفع هذه العواطف الدنيا إليه من تنازير بالألقاب وتكاثر بالأموال وتسابق إلى الجاه والسلطان . وكيف يهوى إلى هذا الدرك من يبغى وجه الله وحده ، ومن يجعل تقوى الواحد الأحد رداءه في أعماله وأقواله ودخائل نفسه ! وكيف يهوى إلى هذا الدرك من يكمل إيمانه فيحب لأخيه ما يحب لنفسه ! وكيف لا تسمو الإنسانية إلى مقام الحب والسلام إذا آمنت

بالتوحيد وجعلته سنتها وجعلت بيت الله رمز التوحيد قبلتها ! ألا ما أبلغ هذه العبارة التي يرددها الإنسان من أعماق قلبه أول ما يدخل الحرم ويستقبل الكعبة لطواف القدوم : ” ربنا منك السلام وإليك السلام فحسبنا ربنا السلام “ ما أبلغ هذه العبارة وما أعمق معناها وما أعظمها سمواً لقوم يعقلون ! . اللهم هُداك خلُقك وزدني تثبيتاً إيماناً « .

وانطلقت أفكر بعد أن أتممت هذا الحديث النفسى : لقد أفضيت أول ما نزلت بالبلد الحرام إلى وزير المالية وإلى الملك ابن السعود برأى أن تكون مكة مقرراً لعصبة الأمم الإسلامية . وهذا واجب تقضى به حياة المسلمين في عالم اليوم . ولكن ! ترى لو أن الإنسانية كلها التمست يوماً مقرراً لعصبة السلام ، أفترجد خيراً من مكة بلداً ليكون هذا المقر ؟ لقد اختارت عصبة الأمم الأوروبية جنيف من أعمال سويسرا مقرراً لها ، لأن سويسرا محايدة . ولقد طمعت عصبة الأمم الأوروبية في أن تقر السلام فيما بينها عن طريق التفاهم في جنيف وإن لم تفز بإقرار السلام في ربوع العالم مما وراء أوروبا ، إلا أن يهدد اضطراب السلام مصالح هذه الأمم الأوروبية . ولقد بذلت الدول المشتركة في العصبة جهوداً كبيرة في سبيل السلام ، فقررت وسائله في عهد العصبة وفي ميثاق التحكيم وفي محكمة العدل الدولية ، وحاولت أن تجعل من التفاهم المشترك بينها جميعاً حيناً ، ومن التفاهم الثنائى حيناً آخر ، سبباً للاحتفاظ بالسلام . مع ذلك ذهبت جهودها هدرًا ، وباءت من مقاصدها السلمية ، بالخيبة ، وارتدت إلى سياسة التسليح والسلام المسلح ، وإلى النظرية القائلة بأن الاستعداد للحرب يمنع الحرب . ارتدت إلى هذه السياسة طوعاً أو كرهاً وهي تعلم أنها سياسة كاذبة خاطئة . فلماذا ؟ لأن فكرة السلام ليست قائمة في أنفس بنيتها وساستها على أساس من الإيمان بالسلام ، وليست تصل السلام بمبدأ أسمى يكون من أمر الله وستته في الكون ، ويجعل السلام غرض الإنسانية في توجهها إلى الكمال . إنما تحركت النفوس في أوروبا إلى السلام رهيباً من أهوال الحرب ، وفرعاً مما تجنى الحرب على المصالح المادية ، اقتصادية ومالية . وأهوال

الحرب تنسيها مُتَع السلم . وكما تجنى الحرب على المنافع المادية فالحرب تحقق هذه المنافع وتشحذ النفوس إلى طلب المزيد منها . طبيعى إذاً أن تخفق سياسة السلام إذا قامت على هذا الأساس . وإنما تنجح هذه السياسة وتستقر يوم تجمع الإنسانية على التوحيد ويكمل إيمانها به ، ثم يكون الأساس لكمال هذا الإيمان أن يجب المرء لأخيه ما يجب لنفسه ، وأن يذكر الناس جميعاً أن سعادتهم فى إيمانهم الحق بالله ، وأن يكون ذكرهم هذه الحقيقة عن علم و يقين ، لا عن ترويج ودعاية غايتها تحكُم طائفة فى طائفة أو استعلاء قوم على آخريين .

يوم تُجمع الإنسانية على هذا مؤمنة بأنه من أمر الله ، ويوم تؤوب به إلى الله من خطاياها ، يومئذ تم كلمة الله ويكون الدين كله لله ؛ ويومئذ تكون مكة ، رمز التوحيد ومقام هيكله ، مثابة الناس قاطبة من أم الأرض جميعاً ، فتكون بذلك مقر السلام المطمئن طمأنينة الإيمان ، ومقر عصابة الأمم الإنسانية كلها .

ناقت نفسى حين بلغت من تفكيرى هذا المبلغ أن أقوم فأطوف بالبيت كرامةً أخرى شكراً لله وحمداً ، واستعانة إياه على مزيد من الهدى وعلى معرفة الحقيقة من كل جوانبها لعلها أن تنكشف لى كاملة فأستطيع بعونه أن أحقق فى نورها وأن أبلغ الرضا بالنهل من باهر ضيائها . وطوقت ثغرى ابتسامه سعيدة حين هممت أن أفعل . فقد كنت أسأل نفسى عن الطواف ما حكمته ، فأقف عند قول بعضهم : إنما الحج ومناسكه أمور تعبدية تغيب عنا حكمتها ولا سبيل للعقل إلى فهمها . لشد ما يخطئ أصحاب هذا القول ! فنحن إنما نطوف بهيكل التوحيد لئرى حقيقة التوحيد من كل جوانبها . صحيح أن هذا الهيكل رمز وأن جوانبه كلها تشابه . لكننا لا نستطيع أن نواجه الحقيقة لذاتها قبل أن نرى رمزها ، ولا نستطيع أن نحيط بها كاملة دون أن نطوف بها من كل جوانبها . فإذا فعلنا أتبع لنا أن نبليغ لُبابها وصميمها . كما أن الحاج لا يدخل الكعبة قبل أن يطوف بها ؛ فالطواف إذاً طريق الإحاطة

بالحقيقة العليا التي يقوم البيت العتيق رمزاً لها وعلماً عليها .

على هذا النحو فكرت في أمر الطواف وحكمته ، وإن لم أر شيئاً من مثله فيما قرأت من الكتب . ولعل لا أجد فيها شيئاً يشبهه إلا أن يكون ذلك في كتب الفلاسفة والمتصوفة ومن إليهم ممن يرون الفكرة حقيقة ملموسة ؛ بل يرونها وحدها الحقيقة الملموسة دون سواها . فأما المادة وأطوارها ومظاهرها فإلى مسور دائم واستحالات متصلة لا يقر لها معها قرار . ونحن نعيش في بيئة من المادة ، فنحن متأثرون بها وبأطوارها ، وتفكيرنا متصل بما حولنا منها اتصالاً يحول بين الأكثرين والتجرد للسمو إلى ما فوق هذه البيئة التي تجعلنا نرى الأشياء في ضوءها وبالنسبة لها ، ولا نرى الحقائق الخالدة مما وراءها . ولئن كشف العلم اليوم عن حقيقة قررها القرآن وكررها ؛ وهي أن سنن الكون ثابتة وأنتك لن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة تحويلاً ، لقد بقي التفكير الإنساني متأثراً بنسبية البيئة المادية متأثراً لا يسهل التخلص منه والسمو عليه . والأقلون الذين يستطيعون هذا سمو ممن عاجلوه في الماضي لم يعالجوه على طريقتنا العلمية الحديثة التي تقرب الحقيقة إلى العقل وإن دقت واستعصت ، بل على طريقة ذاتية فيها التجرد وفيها بلوغ مراتب الإشراق الروحي مما لا يتيسر للمجموع دركُهُ . ولو أن طرائقنا العلمية استطاعت أن تقرب الحقائق التجريدية إلى الأذهان على نحو من الثبوت يصور الأمور المجردة للحس ، كما قرب الأثير إلى الذهن وحدة المكان عن طريق الإذاعة ، إذأ لكان أن يبلغ مجموع الإنسانية من إدراك الحقيقة العليا والحقائق المتصلة بها ما لم يصل إلى إدراكه في الماضي ، وما كان وقفماً على طوائف قليلة من المثقفين ، بل على أفراد معدودين من هذه الطوائف . أما والطواف رمزٌ للإحاطة بالتوحيد ابتغاء الوصول إلى لُبِّه ، أما وللتوحيد بوصفه عقيدة ما رأيت من أثر في حياة الإنسانية وسعادتها وسلامها ، فلطواف وهو ركن من أركان الحج حكمةٌ بالغة .

والطواف الواجب طواف العمرة ، وهو طواف القدوم ، وطواف الحج وطواف الإفاضة . ويجمع بعضهم بين طواف الإفاضة هذا وطواف الوداع ؛

ذلك بأن طواف الإفاضة لا موعد له بعد عرفة ومنى . فمن الناس من يقوم به يوم النحر كما فعلت ، ومنهم من يُرجئه إلى ما بعد أيام النحر . ولقد طاف النبي طواف العمرة وطواف الإفاضة وطواف الوداع في حِجَّة الوداع ، فكانت هذه أسوة ثابتة يجرى عليها المسلمون يؤدون بها الركن والواجب والسنة . بل إنهم ليطوفون بالبيت طول مقامهم بمكة ما استطاعوا الطواف ؛ فهم يطوفون قبل كل صلاة من الصلوات الخمس ، وهم يطوفون كلما دخلوا المسجد ، ويطوفون وهم في المسجد مرات عدة قبل الصلاة وبعدها . ولا عجب أن يفعلوا وقد رأى ابن بطوطة حين وجوده بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الأزدى يطوف كل يوم سبعين مرة .

خرجت من المسجد بعد طواف الوداع وبعد أن دعوت الله أثناءه أن يكتب لي العودة إلى بلده الحرام والطواف ببيته العتيق ، أعد العدة للخروج من مكة إلى المدينة ، وأودع بعد البيت أصدقاء كانوا أثناء مقامي عندهم خير ما أرجو كرم ضيافة وحسن لقيا ودوام تأهيل وترحيب ، كما كان الكثيرون منهم نعم العون لي في بحوثي ، بما أسدى بعضهم من معلومات ، وما أهدى بعضهم من كتب ، وما أرشد إليه بعضهم من مصادر .

وقد ودعتهم وودعت مكة راجياً أن يكتب الله لي العودة إليها راضى النفس مطمئن القلب سعيداً أن فتح الله لي أثناء المقام بها آفاقاً من الشعور والتفكير ما كان أحوجني إلى أن تنفتح أمامي لأرى من خلالها هذا العالم العظيم الجليل : عالم الحقيقة والرضا .

## طريق المدينة

خرجنا إذاً من مكة عصر يوم الاثنين الثالث والعشرين من شهر مارس بعد أن ودعني بدار مضيبي من أنست إليهم وأنسوا إلى من شباب مكة . وصحبنا مضيبي في السيارة إلى دار وزير المالية بجسّروول . واستقبلنا الشيخ عبد الله سليمان بترحاب وزودني بعد القهوة بخطابات من جلالة الملك إلى أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم وإلى أمير خَيْبَرَ ليعاوناني فيما أريد أن أقوم به من مباحث ، وأهدى إلى ساعة ذهبية عليها اسم جلالة الملك ابن السعود ، وستاراً من كسوة الكعبة ؛ وخرج يصحبني ويصحب الشيخ عباس قطان إلى باب الدار . فلما أردت أن أستأذنه مودعاً وأشكره على جميل ضيافته ألفيته يشير إلى كى أركب معه سيارته . ولقد تأثرت نفسي لهذا التلطف غاية التأثر ، وذكرت إذ ذاك هذا البيت الذي تمثل به الشيخ محمد صالح القزاز ساعة وصلنا الطائف :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وأبدت ما خالج فؤادي من عرفان الجميل لوزير المالية ، فرد تحياتي بأحسن منها في لسان عربي بدوي وقع من نفسي أبلغ موقع . وأقلتنا سيارته حتى جاوزنا أبواب مكة . هنالك نزلت منها وكررت آى الشكر له ولمضيبي الشيخ عباس قطان ، وركبت سيارتي مع والدتي والشيخ عبد الحميد حديدي ومطوفنا الشيخ إبراهيم النورى . فلما بلغنا الشَّمِيسِي وقفت السيارة أمام فُنْدُقها ، وألفينا عنده جماعة من أصدقائى شبان مكة ، ليودعوني على حدود موطنهم بالمدينة المقدسة . وبعد أن تبادلنا التحية والشكر كروا بسياراتهم راجعين إلى مكة ، وعادت السيارة تجرى بنا في الطريق صوب جُدّة . لكننا ما نزال في وضوح النهار . وهذه الشميسى هي الحديبية حيث كانت بيعة الرضوان

وحيث عقد الرسول أول عهد له مع قريش ، فنزل فيه الوحي بسورة الفتح .  
ولقد حال الجهد وتقدم الليل والشوق إلى دخول مكة دون وقوف عندها يوم  
نزلت الحجاز . أما وفي مقدورى الآن أن أنزل بها وأقف عندها فهذه فرصة  
لن أضيعها .

ولم يثنى عن ذلك ما قرأته أثناء وجودى بمكة فى ( شفاء الغرام ) للفاسى  
من أن مسجد الشجرة والحديبية لا يعرفان الآن . فلو أن مثل هذا القول  
صدنى عن الوقوف عند أثر مآثور لوليت وجهى عن الآثار المآثورة جميعاً  
فيا خلا الحرم وحراء وثورا . لذلك نزلت بعد قليل من مغادرة السيارة فندق  
الشمسى قبالة مسجد الرضوان فإذا هو مشيد من حجر أزرق متين على طراز  
مساجد مكة ؛ لكن متانته وحسن عمارته يجعلانه يبدو للنظر أكثر اتصلا  
بالحياة منها . وهو أفسح رقعة من أكثرها ؛ لذلك قامت به ثلاثة عقود وضعت  
فوقها البواكى لتمسك سقفه . ومحرا به أدق فناً من محاريب تلك المساجد .  
ولا عجب فى ذلك وبنائه لا يرجع إلى أكثر من مائة سنة بشهادة ما نقش  
بأعلى هذا المحراب مما نقلته فى فصل ( ظاهر مكة ) .

والمشهور — على رغم ما يقوله الفاسى — أن هذا المسجد يقوم فى الموضع  
الذى كانت تقوم فيه شجرة الرضوان ؛ وهى الشجرة التى نزل فيها قوله تعالى :  
« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي  
قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » . ولم تبق هذه  
الشجرة فى موضعها بعد وفاة الرسول إلى أكثر من عهد عمر بن الخطاب حين  
خشى أن يتخذها المسلمون إلى الله زلفى كما كان يفعل الجاهليون بأصنامهم ،  
فأمر بقطعها .

ولنزول هذه الآية فى المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة سميت البيعة  
بيعة الرضوان والشجرة شجرة الرضوان . ولا عجب أن يخشى عمر تقديس  
المسلمين هذه الشجرة . فقد كانت بيعة الرضوان من أروع ما عرفه التاريخ فى



سيرة الرسول عليه السلام . ولقد تمثل لى هذا المشهد فى كل روعته وأنا بموقفى فوق الهضبة التى قام المسجد عليها ، فازددت له إكباراً وبه إعجاباً . فها هو ذا محمد على رأس المسلمين قد خرجوا جميعاً من المدينة محرمين لا يحمل أحد منهم سلاحاً إلا ما يحمل المسافر من سيف مغمد . وها هم أولاء قد انطلقوا فى طريق مكة يلبون وقد ساقوا الهدى أمامهم سبعين بئدنة بعد أن مازوا جوانبها اليمنى . انظر إليهم ؛ لقد قطعوا البيداء حتى بلغوا عُسْفان ؛ وهذا رجل يجيب الرسول إذا سأله عن أبناء قريش : « قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمرور ونزلوا بنى طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغمِّيم » ؛ ويعجب الرسول لأمر قريش ويقول : « يا ويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلدوا بينى وبين سائر العرب . فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ! فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » (١) .

إنه الآن يرى فرسان مكة على مرمى النظر فينادى فى الناس : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها » ؛ وهو يفعل إيماناً منه بحرمة مكة مدينة السلام وحرصاً منه لذلك على أن يدخلها معتمراً لا مقاتلاً . ويخرج رجل من المسلمين فيسلك بهم طريقاً وعرأ بين شعاب مضية حتى يبلغ بهم سهلاً عند منقطع الوادى ، ثم يخرج بهم على ثنية المُرار مهبط الحديبية من أسفل مكة .

والآن ماذا أرى ؟ لقد كان ما شهدت حتى الساعة أذى إلى صورة ترتسم أمام الخيال ثم تتجسم وتلدب فيها حياة كحياة صور السينما . أما الآن ، فإننى أرى ! نعم . أرى بعينى ، وأسمع بأذنى ، ويهتز كل وجودى لما أرى وأسمع . فهؤلاء ألفان من المسلمين مقبلين علىّ وأنا بموقفى من هضبة الحديبية ، محرمين

(١) السالفة : صفحة العنق ؛ وانفرادها كناية عن الموت .

كلهم ، يلبون كلهم ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتطياً ناقته  
القَصْوَاء يتقدمهم ومن فوقه غمامة تظله . . رحماك ربى ! ماذا عسى أن  
أصنع ؟ أتقدم من هذه الناقة وأمسك بخطامها وألتمس من الرسول الكريم  
دعوة صالحة تشفع لى عند ربى ، أأجثو أمامه ضارعاً إليه أن يبارك على ؟  
أسرع إلى قدمه فأمسك بها وأوسعها تقبيلاً ؟ جالت هذه الخواطر برأسى  
وأنا مضطرب النفس شارد اللب لا أكاد أعى أين أنا ، ولا من أنا ،  
ثم استجمعت كل قوتي ورفعت بصرى فحدقت فى معالم هذا الوجه ، فإذا نور  
ينبعث من عينيه الوضاعتين ، وابتسامة عذبة راضية تطوق ثغره الجميل ،  
وإذا أذناى تسمع فى وضوح وجلاء : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَىٰ  
أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ » وإذا هو يلتفت إلىّ ويقول ما كان يقوله لأصحابه  
إذ يقومون حين يقدم عليهم : « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم  
بعضاً ، ولا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ إنما أنا عبد الله ورسوله ،  
فقولوا : عبد الله ورسوله » ؛ وإذا أصحابه من حوله ينظرون إليه نظرة حب  
وإجلال وتقديس وإكبار ، لكنها نظرة أخوة خالية من كل عبودية ، ونظرة  
إسلام لله وما يوحيه إلى عبده ورسوله . لا ترى على سيما أحدهم مذلة ولا تلمح  
فى نظر الذين ينظرون إلى النبى وجلاً أو خوفاً ، بل ترى محبة دونها كل محبة ،  
لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، لا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وهم  
يتسابقون إلى ذلك أمامه كما يتسابق الأبناء البررة إلى محبة أبيهم البر الرحيم .  
هم إذاً لا يقبلون قدمه ، ولا يفعلون شيئاً مما يفعل الأعاجم الذين اعتادوا النظر  
إلى كسرى وإلى عماله كأنهم آلهة الشر يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية ،  
بل يحبونه كما يجب أحدهم نفسه وأهله ، وأكثر مما يجب نفسه وأهله . هنالك  
تراجعت ووقفت أهدق فى هذا الجمع حول الرسول وأنتظر ما عساهم يصنعون .  
وبدت آيات الغضب على سيما بعضهم والتفكير فى منازلة قريش حتى  
يحكم الله بينها وبينهم . أما الرسول فاستمسك بخطة السلم والجنوح عن القتال  
إلا أن تهاجمه قريش وتستبيح حرمة مدينة السلام . وترسل قريش رسلها

فيحاولون صرف المسلمين بالحسنى عن دخول مكة ، ثم يعودون وقد رأوا بأعينهم أن المسلمين إنما جاءوا زائرين للبيت معظمين لحرمة ، ثم يحاولون إقناع قريش بأن يُخَلِّتُوا بين هؤلاء المسلمين والبيت العتيق . ولم ترض قريش رأى رسلها . فبعث محمد إليها برسول من عنده ، فأساءت إليه وعقرت بعيره . ولم يبأس محمد مما صنعوا ، فبعث إليهم عثمان بن عفان يفاوضهم . وطال احتباس عثمان عن المسلمين ، فظنوا أن قريشاً غدرت به في الشهر الحرام عند المسلمين وعند العرب جميعاً ودخل في روع النبي ما دار بأخلاق القوم جميعاً فقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . ونادى فيهم ليبايعوه على ذلك . انظر إنهم يتزاحفون إليه يريد كل أن يسبق صاحبه إلى البيعة . لقد امتلأت نفوسهم حماسة ونظراتهم حدة وعزماً ، وهو واقف تحت الشجرة يتلقى بيعتهم معتبط النفس مطمئن القلب مما يرى . ما هم أولاء فرغوا من البيعة ، وما هو ذا يضرب بإحدى يديه على اليد الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم . والآن انصرف القوم ينظمون صفوفهم ويعدون للقتال عدتهم . يا لهم من جنود بواسل في سبيل الله ! ما أعذب ابتسامة أبي بكر ! وما أهدأ نظرة عمر ! ما هذا ؟ إنهم يحدقون إلى ناحية مكة كأنما يريدون أن يجرقوا أهلها بلهب نظراتهم . أم تراهم يلمحون عند الأفق شيئاً أو شيئاً ؟ نعم ! إنه رجل . . . إنه عثمان بن عفان مقبلاً . لم تقتله قريش إذآ ؛ بل هو يبلغ للنبي رسالتهم أنهم أيقنوا أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت ، وأنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم . ولكن ما حدث من مناوشات بينهم وبينه يجعل العرب تتحدث إذا خلَّت قريش بينه وبين مكة بأن قريشاً انهزموا أمامه ؛ وفي هذا من تهوين أمرهم في نظر العرب ما لا طاقة لهم باحتماله . فليرجع المسلمون هذا العام وليعودوا عامهم المقبل ، فلن تحول قريش بينهم وبين البيت .

ويرضى النبي عن سفارة عثمان ، وتوفد قريش سهيلاً بن عمرو للمفاوضة وتلويح شروط الصلح . وتقع محادثات طويلة يغيظ بعض المسلمين أمرها ، ويبلغ من ذلك أن يقول عمر بن الخطاب لأبي بكر : « علام نعطى الدنيا في

ديننا « ويجيبه أبو بكر : « يا عمر الزم غرزك . فإني أشهد أنه رسول الله » .  
ويجيب عمر : « وأنا أشهد أنه رسول الله » وهو لا يرضى عما يرى . ويتم عهد  
الخليبية ويوقعه الرسول ويعود المسلمون منصورين إلى المدينة وأكثرهم لهذا الصلح  
كارهون . وإنهم لنى طريقهم إذ نزل الوحي على الرسول بقول الله تعالى :  
« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ  
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا  
عَزِيمًا » إلى آخر سورة الفتح ؛ وفيها يقول الله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ  
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ  
عَزِيمًا حَكِيمًا » . ويقول تعالى : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ  
الْحَمِيَةَ حَمِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ  
وَأَلَزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمًا . لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ  
تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى  
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ  
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ  
فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَاؤُهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ  
فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . »

وسمع المسلمون إلى كلام الله في سورة الفتح فاطمأنوا ورضوا وذهب عن الغاضبين منهم الغضب ، وعادوا إلى المدينة ينظرون اليوم الذى يعودون فيه إلى مكة العام المقبل .

لا عجب ، وذلك ما حدث ، أن يخشى عمر تقديس المسلمين شجرة الرضوان تقديسًا يبلغ عبادتها وأن يأمر لذلك بقطعها . وماله لا يفعل وهو الذى قال وهو يقبل الحجر الأسود بالكعبة : « أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » ! وهو الذى لم يرض أن تجمع أحاديث الرسول وستته اكتفاء بكتاب الله ، وهو الذى أراد أن يظل الإسلام لله مطهراً ، مظهره الإيمان العقلى المبرأ من كل مظهر من مظاهر الوثنية !

وآن لنا أن نعود إلى السيارة في طريقنا إلى جدة . ولقد بلغناها والليل ساج والأماكن القليلة التى تضيئها الكهرباء هى وحدها المنيرة وسط الدُّجْنَةُ المنتشرة لا يهون منها ضوء مصابيح الطرقات إلا قليلا . ولقينا أصحابنا المصريين بجدة ، ودعانى فنصل مصر لتناول طعام العشاء عنده مع جماعة أزمعوا ركوب البحر في غدهم إلى أرض الوطن . وأقمت لحظة عند صاحب الدعوة ، وغادرته إلى منزل الشيخ عبد الله سليمان بجدة حيث تركت متاعى وعرفت مكان نومي ثم عدت إلى بنى وطنى وأنا مشوق أى شوق للقياهم . وتحدثنا وتناولنا طعام العشاء ، ثم جلسنا نسمع الإذاعة من مصر وثلتمس فى موسيقيها وفى أغاني المغنين من بنيتها وبناتها النشوة والطرب . فالإذاعة محرم سماعها بمكة ؛ لأن مذهب ابن عبد الوهاب يحرم الطرب ، فلا أقل من أن يحرمه الوهابيون فى الحرمين . أما جدة فرافأ يباح للناس من كل الأديان أن ينزلوا به ، فلا تريب عليهم أن يسمعوا الإذاعة من مصر ومن باريس ومن لندن ومن حيث شاءوا . هذا تصور قد يبدو عجيبيًا لأولى المنطق . فالحرام حرام حيث كان ، والحلال حلال حيث كان . لكن المنطق يجب أن يتسع لمناطق الشك وأن يعتبرها حرمًا آمنًا تتجاوز فيه الحرمات . وجدة ومرافق

الحجاز كلها من مناطق الشك حيث تتجاور حرمات الشرق وحرمات الغرب ،  
 وحرمات الله وحرمات حضارة هذا الجليل ، فليتجاور فيها طرب المديع الذى  
 يسمعه الناس جميعاً مع الطرب المستور بين الجدران والطرب الحلال عند أهل  
 نجد ؛ وليتسامح أهل هذا الطرب وأهل ذاك . فالتسامح وحده سبيل اليسر  
 فى عيش الجماعة .

وفى بكرة الصباح أقلتنا السيارة وتبعها « البكس » فخرجنا من جدة فى طريق  
 المدينة ، وسألت صاحبي : أين نلتقى بطريق القوافل الذاهبة من مكة ؟ فقال :  
 إنما نلتقى بها عند القَصِيمة بعد أن تتخطى القوافل وادى فاطمة فعُسْفان  
 إليها . وسألت ألامدينة طريق غير هذه التى نسلكها اليوم وتسلكها القوافل ؟  
 فعلمت أن لها طرقاً أربعاً : هذه التى نسلكها وتسمى الطريق السلطاني ،  
 والطريق الفرعى ، وطريق الغاير ، والطريق الشرقى . وإنما غايتى من هذا  
 السؤال أن أعرف الطريق التى سلكها الرسول فى هجرته ، وفى عمرته ، وفى فتح  
 مكة . قال صاحبي : ليس التحديد الدقيق يسيراً ؛ فهذه الطرق تختلط  
 بعضها ببعض كما تختلط طريق السيارة وطريق القوافل ؛ ومن اليسير على من  
 شاء أن يعدل عن أى الطريقين إلى الأخرى أثناء سيره . وسترى من أسماء الأماكن  
 التى تمر بها ما تستطيع معه أن تعين ما مر به الرسول عليه السلام منها .

كانت السيارة تنطلق مسرعة فوق أرض رملية خطتها دروب من عجل  
 السيارات التى تجرى طول أشهر الحج فيها . وإلى يميننا امتدت الرمال إلى  
 الأفق فما تقف دون النظر هضبة ولا قمة . وامتد البحر الأحمر عن يسارنا  
 مطمئناً هادئاً الموج يحول البعد عنه بينما وبين صريف أمواجه . وحاذينا  
 مَحَلَّة قال صاحبي إنها الكراع فيما يسمونه اليوم ، وكُراع الغَسَم على عهد  
 الرسول . هاهنا إذًا وقف فرسان مكة وعلى رأسهم خالد بن الوليد عام الحديبية ،  
 ومن هنا اتجه النبي على رأس أصحابه إلى طريق الحديبية اتقاء الالتقاء بخالد  
 وجيشه حتى لا يقاتل المسلمون وهم محرمون بعمرة . لكننا لم نبلغ القَصِيمة  
 بعد . أفكانت الطريق على عهد الرسول غير الطريق اليوم ؟ أم أن خالدًا

وفرسانه أرادوا أن يحصروا محمداً وأصحابه بينهم وبين مكة ؟ أغلب الظن أن تكون الطريق قد تغيرت إن صح أن هذا الكراع كُراع النعيم . فقد نادى الرسول في أصحابه حين رأوا فرسان قريش : « مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها » . وقد سلك المسلمون إلى الحديبية طريق ثنية المُرار فوجدوا في سلوكها جهداً ومشقة . هم إذًا خرجوا من الطريق المألوفة لهم والتي لم تصبح طريق القوافل في يومنا الحاضر .

وتخطينا بعد الكراع دَهَبان ثم تَوَلَّ وبلغنا القضيمة ، وكنا أثناء ذلك على مقربة من الشاطىء لا يكاد يغيب عنا . وأغراني ذلك بالسؤال عن القُديد أين هي ؟ فالقُديد في نَبأ هجرة الرسول ذكر وأثر . عندها أدرك سُرَاقَة ابن جُعْشُم محمداً وأبا بكر ليعود بهما إلى مكة أسيرين أو يقتلها فيفوز في الخالين بالإبل المائة التي جعلتها قريش لمن يرد محمداً إلى مكة حياً أو ميتاً بعد فراره منها وإخفاق فتيانها في العثور عليه . وعندها كبا جواد سراقَة بفارسه كبة عنيفة طرحت الفارس أرضاً وجعلته يتطير ويؤمن بأن الآلهة مانعة منه ضالته . هنا لك وقف ونادى المهاجر العظيم وصاحبه : « أنا سراقَة بن جعشم . أنظروني أكلمكم ، فوالله لا أريكم ولا يأتكم مني شيء تكروهونه » . وطلب إلى محمد فأمر أبا بكر فكتب له كتاباً يكون آية بينه وبين النبي . وأخذ سراقَة الكتاب وعاد أدراجه ، وجعل يضلل الذين يطاردون محمداً وصاحبه كيلا يلحق بهما منهم أحد .

وزاد في إغرائي ما ذكره الأزرق عن القُديد عند كلامه عن مَسَاة صنم الأزدوغسَّان . فقد ذكر أن عمرو بن لُحَيٍّ نصب مَسَاة على ساحل البحر ممايلي قُديداً . وقد أثبتت الخرائط قد يدأ على مقربة من عُسْفان . على أن صاحبي لم يجد ما يجيبني به ، مما دلني على أن قديداً ليست معروفة عند أهل الحجاز من معاصرينا . هذا على أنهم أكثر الناس تعليقاً على سيرة الرسول ، حتى لترام يضيفون إليها ما لم يرد في رواية ولا كتاب . وتفسير إغضائهم عن قديد وغيرها من الأماكن المتصلة بالسيرة أن هذه الأماكن ليست مواضع لزيارة الحجاج

وتركهم ، فهي لا تدرُ أخلافها من الرزق ما يدعو أهل الحجاز إلى تحقيق أمرها وإضافة الروايات والأحاديث إليها .

انطلقت السيارة من القضيمة ميممة رابغاً بعد وقفة يسيرة في (مُقهى) تناولنا فيه الشاي والقهوة ، وانطلقت في سرعة دونها سرعة البرق ، لأن مياه البحر تغمر رمال الشاطئ في هذه المنطقة فتجعله صلباً صلابة الأسفلت ، وتجعله تحت عجل السيارة أكثر ليناً ونعومة . ولولا أماكن في الطريق بسعد ما بينها وبين الشاطئ فلم يكسبها تسرب الماء إليها ما أكسب الرمال القريبة منه من تماسك وصلابة ، ولولا أماكن أخرى تعاون السيل والسيارات الثقيلة فيها فقلبا رمالها ظهراً لبطن ، إذًا بلغنا رابغاً من القضيمة فيما دون الساعتين . لكن هذه الأماكن المتقطعة في الطريق كانت تضطر السائق ليسير الهويني بين حين وآخر ، فإذا استوى إلى أرض صلبة أطلق لعجلات السيارة العنان فانطلقت تسبق الريح وتذرهما وراءها تصفر من شدة الغيظ . ولولا هذه الأماكن المتقطعة لما أملتنا جذب الطريق ، جذب لا تقع العين فيه على شيء يلفت النظر . لكن هذه الأماكن المضطربة بالرمال المتقلبة ، وهذا الجذب الممحل الذي يمل النظر ، جعلانا نشعر إذ نبلغ رابغاً بحاجة إلى الراحة لا تقل عن حاجتنا إلى الطعام .

وزاد في سأمنا الطريق منظر كان يتكرر كلما هون السائق السير ووقف ليرى ما يصنع بالرمال المحيطة بعجلات السيارة . ذلك منظر المتسولين من أهل البلاد . فهم يعدون بالملثات وبالألوف ، بل هم يخطئهم العد . وأنت ترى الطريق خالياً منهم ، حتى إذا هدأ سير السيارة رأيتهم نبتوا على جانبيها ، وما تدرى أنبتتهم الأرض أم قذفت بهم الهضاب من أعاليها كما تحط السيول الأحجار من القمم العالية . ومنظر هؤلاء المتسولين قل أن يثير في النفس عاطفة الرحمة ، وإن كانوا يجيئون إليك عراة أغلب أمرهم ليس عليهم لباس إلا ما يستر العورة . فأما النساء والبنات فيتقدمن كاسيات ولكنهن لسن دون الرجال والشبان إلحافاً ومسألة . وهم يقبلون على السيارة تسابقها سيقانهم



الدقيقة وقد مدوا أيديهم يصيحون : « يا حاج . يا بويا . هالله . وحياة النبي .  
 بالسلامة » إلى آخر الأنشودة التي حفظوها على كثر السنين عن ظهر قلب ،  
 يتوارثها الأبناء عن الآباء ، والمحفدة عن الأجداد . ولولا أن الحجاج ،  
 والحاجات بنوع خاص ، يشعرون بأن الإحسان إلى هؤلاء المتسولين من تمام  
 الحج ، وأن فيه استجابة لقوله تعالى : « فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ »  
 لرغب أكثرهم عن بذل الصدقة هؤلاء المتسولين ، وأكثرهم أصحاب مفتولو  
 العضل أقوياء البنية ، وأكثرهم يرى هذا التسول صناعة مباحة للارتزاق ،  
 ويرى فرضاً على هؤلاء الحجاج أن يحسنوا ويعطوهم . وإذا كان شيء في هذه  
 الظاهرة النفسية يثير الإشفاق فليس ذلك ما عليه هؤلاء المتسولون من فقرا  
 يعلم أحد مداه ، بل ما هم عليه من جهل وتكدل في مراتب الإنسانية إلى  
 حضيض ما أجدر القائمين بالأمر في الحجاز أن ينزهوا أهل الحجاز عنه ،  
 سموّاً بالإنسانية عن المذلة ، وبالإسلام عن الهوان .

فهؤلاء المتسولون إنما هم بعد من بنى الإنسان ، وهم بعد مسلمون . والإسلام  
 يأبى على بنى الإنسان أن يبلغ التفاوت بينهم حتى يكون أحدهم حيواناً أو دون  
 الحيوان مكانة ، في حين ينعم الآخر بسكّنهنية العيش ومُتَمِّع الحياة وبأسباب  
 الترف جميعاً . وهؤلاء المتسولون دون الحيوان في تصورهم الحياة وفي إدراكهم  
 ما حوطم . أقبل أحدهم يلهث نحو حاج ويقول مستجدياً : « وحياة النبي » .  
 فسأله الحاج : ما اسم النبي ؟ فبُهِت السائل في بلكه ولم يُحِرْ جواباً . هو إنما  
 يكرر كلمتين - وحياة النبي - تكررًا آلياً كما يكررها البيغاء أو « الفونوغراف »  
 دون أن يعرف لهما معنى أو مدلولاً ؛ وهو يجرى سائلاً يلتمس القوت كما  
 يلتمسه الكلب ، وقد كان صاحبه قاطع الطريق يجرى قبل عهد الروهابيين  
 يلتمس القوت نهباً كما يلتمسه الذئب . بل لعل هذا السائل أخط في قدر  
 الإنسانية من المحرم إن جاز أن تعقد مثل هذه الموازنة . فالمحرم حيوان مفترس  
 والمتسول حيوان مهين . فإذا هما تساويا في الحيوانية فالمفترس لا ريب خير مكاناً  
 من الدليل المهين .

وأحسب هذه المراتب الإنسانية الدنيا منتشرة هاهنا حيث الجهل ضارب أطنابه . لقد سمعنا جميعاً اسم رَضْوَى يتكرر في الشعر العربي القديم . ولا يزال الكثيرون منا يتغنون بشبِيرِ ورضوى كما يتغنون بجبلى نعمان . ولعل من شعرائنا المصريين في العصور المتأخرة من ورد اسم رضوى في شعره ، ذكره حين أراد أن يتخيّل جبلاً أو يتمثل ما يدل الجبل عليه فكان اسم رضوى أقرب إلى ذاكرته من اسم سيناء . ذكر لى مَنْ عرفت بالحجاز حديثاً عن رضوى آثار منى كوامن الدهشة جميعاً . فهذا الجبل يمتد في طريق المدينة إلى يَسْبُع . ومنطقة المدينة وما حاذها أكثر اتصالاً بالحضارة من كثير من مناطق بلاد العرب ؛ لأنها أذناها إلى الشمال وأيسرها اتصالاً بالشام ومصر . كذلك كانت في عهد النبي وفي صدر الإسلام ، وكذلك هي اليوم . ولقد زار وزير المالية الشيخ عبد الله سليمان رضوى منذ سنوات قليلة ، واستصحب معه أمين مكة الشيخ عباس قطان كما استصحب قوة من الجند وعدة للمقام من خيام وأدوات للطهي وطهارة ومن إليهم . وتسلق القوم إلى قمة رضوى فرأوا عجباً : رأوا قومًا لم ينزلوا السهل حياتهم ، ويرون في نزوله المسعرة الكبرى ؛ فإذا احتاجوا إلى شيء مما فيه فأتباعهم وضعافهم هم الذين ينزلون . ورأوا هؤلاء القوم يعيشون في الكهوف والمغارات عيش الحيوان المفترس ، ورأوا أحدهم إذا ظفر بغنيمة مما كانوا يذبحون فرّبها إلى كهفه وأوى إليه وأنبعث ينهشها كما ينهش الحيوان المفترس فريسته ، وجعل يذب عنها من يحاول اقتحام الكهف عليه بأن يدفعه برجله كما يفعل الذئب أو النمر . أفيتصور أحد هذه الحياة في بلاد العرب وعلى مقربة من المدينة ؟ أما أنا فدهشت لما أول ما سمعت نبأها، ثم خفت دهشتي حين ادكرت من رأيت من الأعراب بالشفا من جبال الطائف . وما أحسب الفرق بين هؤلاء وأعراب رضوى ببالح أن يثير الدهشة .

يأبى الإسلام أن يبلغ التفاوت بين بنى الإنسان حتى ينكر بعضهم بعضاً . ذلك أساسه في أمور الرزق ، وهو أساسه في الحياة الروحية . فهو دين إخاء

يرتفع بالإخاء إلى أسمى مراتبه ، ويرى لذلك أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه . وأين الإيمان في أمة يتناكر بنوها فينكر أحدهم أمر صاحبه ، فإذا عرف أمره دهش له وأخذ منه العجب ! وأين الإخاء في أمة يعيش نصف أبنائها حفاة عراة ، رزقهم من التسول ، وسعادتهم في الجهل ، وطمأنينتهم إلى العيش في قُنَن الجبال ، ويعيش النصف الآخر في حضر أو ما يشبه الحضر . ليس هذا من دين محمد في شيء ، بل الإسلام عدو لهذا التفاوت الظالم وهذا التناكر الذي يمقت الإخاء ويمقتة الإخاء . وإن ديننا يدعو عمر بن الخطاب ليقول لعلي بن أبي طالب وقد اقتضاه غريم أمراً : « ساوِ خصمك يا أبا الحسن » ، فيساوي على خصمه في مجلس القضاء ، وينكر على عمر أن يدعو « أبا الحسن » لما في الكنية من تعظيم لا يتفق مع المساواة ، لأنَّ بُتَّ أساساً من أن يُقرَّ تفاوتاً مبلغه من الجور ما ذكرت . وبأبي هذا الدين أن يقر التفاوت الروحي ؛ فهو لا يجعل لطائفة من الناس فضلاً على طائفة إلا بالتقوى ، ويجعل العلم وما يدعو إليه من تحاب في الله وقضاء على غرور النفس ببلوغ المعرفة الحققة أساس الهدى ومثارة الإيمان . لذلك كان العلماء فيه ورثة الأنبياء . والعلماء الصادقون كالأنبياء الصادقين يؤثرون هدى الناس على طمأنينة أنفسهم بل على حياتهم ، ويبدلون من ثم للناس كل أسباب العلم حتى يبلغوا به غاية ما يستطيع المرء بلوغه من الهدى .

بلغنا رايغاً بعد زوال الشمس بساعة أو نحوها ، فبلغنا بذلك حضراً لم نر شيئاً منه منذ تركنا جدة ، وهو على تواضعه حَصْرٌ يقف النظر عنده . فقد وقفت بنا السيارة أمام بناء فسيح يشبه السوق ، في جانب منه مقاعد لمقهي يجلس الناس فيه يتناولون الطعام والشاي والقهوة . وإلى الجانب الآخر من الطريق قامت مبان أحدها مخفر البوليس ، وبعضها حوانيت تعرض للبيع ألواناً شتى من الطعام وغير الطعام . وسألت أصحابي : أين نلتمس الراحة ونتناول الطعام ؟ فأشاروا إلى بناء متصل بالسوق زعموه فندقاً . . ودرنا نلتمس في هذا الفندق غرفة نأوى إليها ، فإذا أنا أمام غرف حقيرة لا أدري ممّ بنيت ،

وليس يغطي أرضها حصير ولا ما دون الحصير . على أن أصحاب المقهى توسموا فينا الخير فجاءوا بحصير قديم نشره في إحدى الغرف ، وجئنا من متاعنا بسجاجيد الصلاة ففرشناها فوقه . وذكر أصحابي من أهل مكة أن بربغ سمكاً صالحاً للطعام يُطهى لساعته ، فطلبت إليهم أن يجيئونا منه بما يكفيننا . وأنا لنعدّ لراحتنا ولطعامنا إذ أقبل علينا رجل الهندية فتقدم بالتحية وعرض على ضيافته . وشكرته وأبدت له أني مطمئن حيث نزلت ، وأن حاجتي إلى الراحة تمسكني دون القيام ودون اتباعه إلى شاطئ البحر أو إلى المخفر أو إلى أي مكان غير هذا المكان الذي أنا به . وابتسم الرجل وبادلني من التحيات ما ضاعف شكري ، ثم تركنا وانصرف مكرراً ساعة انصرافه أنه يود لو يكون في خدمتنا فيكون بذلك سعيداً .

وبعد صلاة الظهر تناولنا السمك الذي جاءوا به . ما أشهى الطعام على جوع وما أطيبه وأصحه ! ومدتُ بعد أن نلت شعي فتمطيت على سجادة الصلاة أبتغي الراحة ، فإذا بي أسرع إلى عالم النوم . واستيقظت وقد عاد لي نشاطي ، والتلمست الخريطة أقيس عليها ما قطعنا من جدة وما بقي لنا لنبلغ المدينة . قال صاحبي : « وما تجدى الخريطة في طريق شديد التفاوت بين الاستواء والوعث ، وتستطيع السيارة أن تقطع عشرات الفراسخ كل ساعة في بعضه ، وهي تعي في البعض عن قطع فرسخ واحد في ساعة أو ساعات ؛ وإنا لن نبلغ المدينة الليلة ، والمُسَيِّجِيد غاية ما نستطيع أن نبلغه إذا بلغ لطف الأقدار غايته ، وقد نبئت بأبار بني حصان وقد لا ندرکها . والأمر في ذلك كله لله ، بيده تصريف الأمور » .

لم يثنني هذا الحديث عن الاطلاع على الخريطة . يا عجيباً ! كيف نسيت أن الجُحُفَّة على عهد النبي هي رابع اليوم ، أو أنهما تتجاوران ! ومد رأيت اسم رابع نسيت حديث صاحبي وعدت بذكري إلى عهد الرسول ، وذكرت حديثاً لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان إذ يتشاور قومه من قريش قبيل خروجهم إلى غزوة أحد ويختلفون أتسير النسوة معهم ، فتصبح هند

بمن يعترض خروج النساء : « إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نساءك . نعم ! نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة فقتلت الأحية يومئذ » . نحن ها هنا إذاً في الطريق الذي سلكته قريش إلى بدر وإلى أحد . ونحن هاهنا في الطريق الذي سلكه الرسول عام الفتح . فقد ترك العباس بن عبد المطلب قريشاً وهي في جدل ماذا تصنع لاتقاء عدوة محمد على مكة ، وسار يريد المدينة ، فلقى جيش الفتح بالجحفة . هذا إذا كان الطريق المسلوك بين مكة ويثرب إلى الشام ؛ وهذه الجحفة التي نقف الآن بها كانت موقعاً ذا شهرة فيه . أما ولربخ الشهرة اليوم فقد أنست الناس الجحفة وما وقع على عهد الرسول بها .

وقمنا بعد العصر ، فانطلقت بنا السيارة إلى مسستورة في طريق مستو يجاور البحر فهي تجرى فيه تخطفه خطفماً . وفي حذاء مسستورة تيامنت السيارة مشرقية نحو بئر الشيخ . ومد تيامنت بدأ الطريق يتعذر السير فيه . ذلك أننا كنا نبعد عن البحر إلى داخل تهامة ، وكانت الرمال التي تسير السيارة عليها خلال هذه الصحراء غير مستقرة لكثرة ما تقلبها السيارات الثقيلة إذ يكثر مرورها بها في موسم الحج . وحيثما تعذر السير نبت المتسولون من جوف الأرض أو انحطوا من المرتفعات .

وبلغنا بئر الشيخ بعد غروب الشمس فجلسنا إلى مقهى بها تناولنا فيه الشاي وأقمنا حتى سجا الليل . فليس يضيق سائقو السيارات بشيء ضيقهم بالسويعة التي تلي غروب الشمس حين تختلط موائيات النهار بإقبال الليل فيستبهم النور وتبهم الظلمة ويضطرب ضوء السيارة بينهما . وسأل السائق عن الطريق بين بئر الشيخ وأبار بنى حصان ومبلغ صلاحها للسير بها ، فاختلف أهل المقهى رأياً ، وأشار أحدهم إلى أن طريقاً منها لا يزال صالحاً للسير فيه ، وأن الطريق الآخر أفسدته السيول فلم يبق السير فيه مستطاعاً .

ولم يكن إلى المبيت ببئر الشيخ سبيل إلا أن نظل ليلتنا في هذا المقهى . وإن أظقت أنا هذا المبيت وغامرت به فما عسى أن يكون أثره في صحة

والدقى ؟ ولقد ذكر القوم أن بالحملة التى تلىنا ، حملة آبار بنى حصان ، فُندَقماً للمبيت فيه . فى ذلك استخرنا الله وقمنا إلى سيارتنا . لكنها لم تَسِرْ بنا إلا قليلاً حتى ساخت فى الرمل ولم تستطع حراكاً . وأضاء السائق فانراها فإذا أمامنا ثلاث سيارات أصابها ما أصاب سيارتنا . ولقد جعل سائقوها يتعاونون ويعاونهم ركابها على دفعها للمسير . واللوريات فى مثل هذه المواقف أسعد حظاً ، لارتفاع جسمها فوق الأرض على عجلاتها الكبيرة ، وسموها لذلك عن أن يغوص بطنها فى الرمال . وأقمنا حيث نحن ، وذهب أصحابى يعاونون الذين تعطلت سياراتهم أمامنا ليقابلونا بالمثل فيعاونوا سيارتنا على الخروج من ورطتها . وقد أقمنا ساعة أو نحوها ، ثم أذن الله بالفرج وخرجت السيارات من هذه العسرة التى أصابتها . وسرنا منطلقين فى طريقنا وكل رجائنا أن نبلغ آبار بنى حصان قبل منتصف الليل لعل النوم بئندقها يعوضنا عن جهد هذا النهار .

واقضت ساعة أخرى والسيارة تجرى ونحن ننعن بنسيم ما أرقه وأعذبه ! نسيم اليبداء الطلق الجفاف الصحيح الذى يبعث إلى النفس النشاط والغبطة ، والذى ينسى المسافر كل نصب وكل مشقة . وفيما نتحدث عن المدينة ومتى نبلغها غدا إذ السيارة تغوص مرة أخرى فى الرمال . وحاول السائق مذ شعر بالثُجَّة الخطرة تحت مزلق العجلات أن ينجو منها بتحريك عجلة القيادة يمنة ويسرة لعل فى تحريك العجلات ما يَسْجُنُبُهَا الغوص العميق . لكن هذه المداورة لم تُفْلِح ، وساخت السيارة وجعلت عجلاتها تدور حول نفسها فى حركة رحوية غير مجدية . وزل أصحابى يحاولون دفع السيارة إلى الأمام لعلها تجاوز منطقة الخطر . ومع ما بذلوا فى ذلك من جهد شاق لقد ذهب جهدهم عبثاً . وخيّل إلىّ أنى أستطيع معاونتهم ، ودفعت معهم ولكن على غير جدوى . وبعد ساعتين ذوى فيهما الرجاء وذهب ما أنفقنا خلالهما من جهد سئدى رأيت أن أستريح إلى اليأس من السير هذه الليلة وأن أسلم الأمر لله وأن أنام فوق الرمل على مقربة من السيارة . وسحبت سجادة الصلاة فجعلتها فراشى ، وجئت بغطاء من الصوف التحفته وتمطيت وتغطيت راجياً أن تعيننا يقظة النهار

على اجتياز هذه العقبة . وطاب لى هذا المقام وذكرت به عشية عرفة لولا غياب القمر وانتشار الظلمة ، وإن آتستنا نجوم السماء بيريقها الجذاب . وإن لى أحلام ما قبل النوم ، أحلام حلوة مسعدة زادها صفو السماء فى هذه الساعة حلوة وإسعاداً ، إذ جاء إلى من أصحابى من يخبرنى أن السيارة خرجت من لجة الرمل وأنها وشيكة أن تسير . ولما رأى منى الريبة فى قوله ذكر أن عربة كبرى بها مفتش للطرق أدركتهم ، وأن بها أداة خاصة لإنقاذ العربات المنكوبة فى لجة الرمل ، وأنها ردت عربتنا إلى الحياة والسير . وقمت بين مصدق ومكذب . فلما رأيت السيارة انتقلت من مكانها أيقنت أنها خلصت من براثن هذه الرمال ، وأنها وشيكة أن تسير حقاً فأسرعت إليها . وسارت بنا تقصد آبار بنى حصان ونحن فى أشد الخوف أن ينشب الرمل برائنه فى عجلاتها كرة أخرى . ولم تهدأ نائرة الخوف فى نفوسنا حتى رأينا أنوار آبار بنى حصان . فلما بلغناها نادى مناد أن نميل لنام عنده . ولكن عنده مقهى لا يفضل مقهى بر الشيخ ، ونحن نريد الفندق ، فندق آبار بنى حصان . وأهنا بالسائق أن يقصد توأ إليه وأنا أصور لفسى غرقى به وما سأناله بها من نوم مريح .

ووقفت السيارة أمام بناء اشتملته الظلمة قيل إنه « الأوتيل » . ودق أحد الرفاق بابه ونادى أهله وطال به الدق والنداء . ولئن كنا فى الثلث الأخير من الليل لقد عجت كيف ينام الموكلون بفندق بأوى إليه الناس ساعات الليل وقلما يقفون عنده بالنهار . قال صاحبى : لا تعجب ؛ فالفندق للحكومة والموكلون به عُمالها وهم يقتضون منها لذلك مرتباً لا يزيد بزيادة من ينزلونه ولا ينقص بنقصهم . وفتح الباب رجل عليه أمارات النوم ؛ فلما عرف أمرنا جاء بمصباح ضئيل النور وتقدم يهدينا إلى غرف المنزل . وخطوت فى أثره من الفضاء الذى كنا به بين جدران البناء وغرفة . ووسوست لى نفسى أن أرجع أدراجى وأن ألتمس تحت العراء مبيتاً . أين هذا الهواء الطلق اللذيذ السافى ، هواء البادية الجفاف الجميل ، من هواء حبيس راكد بين الجدران ! ولكنى رأيت أحد أصحابى ينادى الخادم ليحجىء بالطعام من « البكس » .

وأحسست الجوع الشديد ، فأهبت بالقوم أن يفتحوا نوافذ الغرف جميعاً . ومددت بصرى خلال نور المصباح إلى داخل الغرف فارتد يدعوني أن أمهم بالعودة إلى العراء وهوائه الحر الطليق . فهذه الغرف الخالية من كل أثاث وفراش إلا من رمل لاشك أن رمل العراء أتقى منه ، لا تشجع على المكث ولا على المبيت . لكن الجوع والجهد وما خافه أصحابي من أثر العراء في الصحة ، كل ذلك ثنائي عن تنفيذ ما أردت . قال أحدهم : لو أن معنا خيمة نضربها لكان الخير فيما تشير به ؛ وشقادات الجمال تُغنى عن الخيام . أما وليس معنا هذا ولا ذلك « فالأوتيل » خير مكان لمبيتنا .

وتناولنا طعامنا ، وفرشت سجادتي على حصير أكرمنا القوم بإحضاره وأغفيت السويعة التي تفصل بيننا وبين الفجر . فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود قمنا جميعاً إلى فرض الله ثم تناولنا الشاي وبعض الطعام وخرجنا إلى الفضاء الطلق ننعيم فيه بالهواء الحر والنور الوليد . وألفينا أمامنا وادياً فسيحاً تكتنفه الجبال وقد انحط بطنه عن الفندق بضعة أمتار ، فالفندق يقع منه على أكمة تتحكم فيه . ورأى رجل من أهل الفندق أميل منظاري المقرب أهبط به إلى بطن الوادي تارة وأرتفع به إلى أعلى الجبل أخرى ، وسمع أثناء ذلك حديث صاحبي عما لقمنا من عسّت أصابنا به غوص السيارة في الرمل ، فقال : إنها سيول هذا العام أفسدت الطريق وكان من قبل صالحاً ؛ فقد انهمرت وبلغ انهمارها حداً لا عهد لنا به منذ عرفنا الحياة . وكان من ذلك أن ارتفعت المياه في هذا الوادي حتى غمرت سيارة من سيارات اللوري فمات بها اثنا عشر من راكبيها ، وأن بلغت هذا الفندق وكادت توهن جدرانها لولا متانة بنائه .

عجبت لما سمعت وقلت : « وماذا كان يفعل آباؤكم الأولون وقد كان هذا طريقهم من مكة إلى يثرب وإلى الشام ؟ »  
سكت رجل الفندق ولم يجب . إذ ذلك تولى صاحبي الجواب فقال :  
قل أن تنهمر مثل هذه السيول الجارفة المخربة . فسيول هذه البلاد هتانة حقاً ،



لكنها سريعة أن تُمسك سرعتها إلى أن تنهمر ؛ فإذا أمسكت ابتلع الرمل الماء في دقائق . أما آباؤنا الأولون فلم يكونوا يعرفون السيارات . فلو أن سيلا جارفًا كسيل هذا العام نزل بهم لصعدوا بالإبل في دروب الجبال حتى يبلغوا قُنسِنها إن أعوزهم الأمر .

وأمسك صاحبي هنيهة ثم قال : « هذا طريق ما بين مكة ويثرب ؛ وإنك لحريص مذهبط الحجاز على أن تمر ما استطعت حينما مرَّ الرسول عليه السلام . أتذكر كم مرة مرَّ بهذا الطريق ؟ »

قلت نعم ! ووجمت هنيهة أفكر : لقد مرَّ بهذا الطريق ولا يزال طفلًا في السادسة من عمره حين ذهب مع أمه آمنة يزور قبر أبيه بيثرب . فلما آن لهما أن يعودا منه ماتت أمّه ودفنت بالأبواء . ومربه حين ذهب في الثانية عشرة مع عمه أبي طالب إلى الشام ، كما مر به في الخامسة والعشرين حين ذهب في تجارة خديجة ؛ وأقام بعد ذلك خمسًا وعشرين سنة تبعاعًا لا يقطعه . ولما هاجر من مكة والصدِّيق معه جاوزه إلى طريق يساحل البحر خيفة أن تدركه قریش . لكنه عاد بعد ذلك منه عام الحديبية ، ثم عام عمرة القضاء ، ثم عام الفتح ، ثم في حجة الوداع . ما أحفل هذا الطريق بالذكريات !! لقد رأى النبي العربي طفلًا ، ورآه صبيًّا ، ورآه شابًّا ، ورآه نبيًّا ، ورآه مجاهدًا ، ورآه حاجًّا بيتَ ربه مستغفرًا إياه ضارعًا إليه ؛ ولقد رآه يوحى إليه ربه من كتابه هدى ونورًا . وأنا أسير اليوم فيه ويسير عشرات الألوف من المسلمين فيه كل عام ، وقَلَّ من يذكر منا ما يحفل به أو يذكر هذه الحوادث من أيام النبي ، وكل واحدة منها عبرة ، وفي كل واحدة منها مُدْكِرٌ : أو ليس هذا نسيانًا يجب أن ننزه عنه إكباراً لذكرى الرسول الخالدة والتماسًا لموضع العبرة والأسوة من سيرته وحياته ؟ !

ولو أن علم هذا العصر الذى سخر لنا قوى الطبيعة ، استطاع أن يحلل ما ينطوى عليه الماضى وأن ينقل إلينا ما نشاء من ذكرياته على موج الزمن كما ينقل إلينا الأصوات التى نشاء من أقصى الأرض على موج الأثير ، إذأً لرأينا

في هذا الطريق ما تهتز له القلوب وما تطير له الأفئدة تقديساً وإعجاباً .  
 إذاً لرأينا الصغير محمداً يجلس مع أمه آمنة والبعير يسير بهما وبخاضعة الغلام  
 أم أيمن قاصداً يثرب بخطاه المداثة البطيئة ، وآمنة تقصص على ابنتها نبأ أخوال  
 أبيه من بني النجَّار بالبلد الذي إليه يقصدون ، وتقصص عليه كيف ارتحل  
 أبوه إلى الشام في تجارته ، وكيف عاد منها ، وكيف مرض ومات ودفن عند  
 أخواله . والصغير يُنصت مأخوذاً يدرى ولا يدرى . لقد رأى القوافل التي تذهب  
 في رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام ؛ فهذا الرجل الذي تحدثه عنه  
 أمه ، عبد الله بن عبد المطلب ، قد ذهب مع قافلة الصيف لا ريب . ترى  
 كيف كان ؟ وتُجيبه الأم الرعوم أنه كان جواداً شجاعاً وشهماً كريماً ؛  
 بل كأن الشهامة والجلود صوراً رجلا . وتقصص عليه الأم من أخبار عبد الله ما ترجو  
 أن يكون أسوة للابن ومثلاً . فما أكبر أملها أن ترى هذا الصغير يكبر ليكون  
 كأبيه : محبوباً من قومه ، مقدرأ منهم ، عزيزاً عليهم ، حتى ليقفون دون  
 إرادة جده حين أراد أن يذبحه وفاء لندره وبره بقسمه . وما له لا يكون كأبيه  
 وفي نظرتة من قوة البريق ما كان في نظرة عبد الله ، وفي نبرة صوته من الرقة  
 والقوة ما كان في نبرة صوت أبيه ! وينقضى اليوم ويتلوه غده فينقضى كإنقضائه  
 وهم يقيمون ثم يسيزون لا يُعجلون بعيرهم ولا يسأمون طول الطريق . وكيف  
 يسأمون حياة هي حياتهم وبيئته هي بيئتهم ! وكيف تسأم آمنة وهي تسير  
 إلى قبر حبيب وهبت له نفسها ، وكان لها في الحياة منه أمل عريض ، فلم يمهلها  
 القدر أن اختطفه منها ؛ وهي تتعلق ، على رغم القدر ، بأملها وتريد أن تصل  
 بين الثاوى في القبر وقلبيها . ويبلغون يثرب ، وتزور آمنة القبر وتُزيه صغيرها  
 وتحدث وإياه عنه ، وتأوى معه إلى دور بني النجار . وهي ترى في الطفل محمد  
 أحب صورة إليها من عبد الله ، وترى فيه الحياة وبهجتها ، والعزاء عن ألم الحياة  
 وقسوتها ، ولا يجول بخاطرها أنها عما قريب ستلحق بعبد الله . لكنها لا تلبث  
 حين تتحمل مع ابنتها وحاضنته عائدة إلى مكة أن يصيبها المرض وأن يخترم  
 حياتها ؛ فيتعاون دليلها وأم أيمن على دفنها بالأبواء . ويلتمسها الصغير لتحدثه  
 في منزل الوحي

عن عبد الله فلا يجدها ، ويلتمس من يحدّثه عنها فتسرى عنه أم أيمن لوعة اليتيم من أبيه وأمه ، حتى إذا بلغ مكة وجد في جده عبد المطلب وفي حنوه وعطفه أباً وأماً .

ثم لرأينا محمداً في الثانية عشرة من عمره يسير مع عمّه أبي طالب في هذه الطريق التي كنا نسير فيها . لكنه يسير هذه المرة في قافلة ذاهبة في رحلة الصيف كالقافلة التي سار فيها أبوه ، ولا يسير وحيداً بل معه عمه كما كان مع أمّه . وتتخطى القافلة سَرفَ ، وتتخطى وادى فاطمة ، وتُساحل البحر فتبلغ يثرب ثم تتخطاها متخذة دروب البادية إلى الشام ؛ وتحط القافلة رحالها هاهنا وهناك ؛ ويسأل محمد حينما سار وأينا نزل عما يحيط به ، فيجيبه عمه حينئذ ، ويجيبه رفاقه في القافلة حينئذ آخر . وأية وسيلة يقطع بها راكب الحمل طول الطريق كالتحدث وقصص الماضي والتندر بالأنباء ! ولكل محلة تنزل بها القافلة حديث ونياً ؛ ولكثير من الأماكن قصص تذهب في بطون التاريخ إلى حيث يكاد التاريخ يضل فيها . ومحمد الصبي ينصت وقلما يتكلم ، ويقلب ما يسمع على أوتار فؤاده ليرى مبلغ اتساقه مع ما يرى . وتبلغ القافلة حدود فلسطين ويرى فيها قوماً غير الذين ألفهم في البادية ؛ قوماً عرفوا الحضر وصناعته والاستقرار ونظّمه ، يتحدثون عن رُوميّة وعن بزنتية وعن أديانها ورسلهما ، ويذكرون اليونان والرومان وحكمتهما وتشريعهما ، ويذكرون موسى وعيسى والنبيين من قبل ، وليس يشغله من أمر التجارة التي جاء قومه بها ما يصرفه عن التفكير فيما يرى ويسمع وعن استنكاره . ثم ينصرف مع القوم قافلين إلى مكة مارين بيثرب وبوادي فاطمة ، وهو لا يفتأ يسأل عما يرى وإن كان أدنى في عودته إلى الصمت إمعاناً في التفكير فيما رأى وسمع .

ويعود في الخامسة والعشرين إلى مثل هذه الرحلة في تجارة خديجة مع قافلة الشام . وتربح تجارته ويتزوج خديجة . لكن رحلة الصيف إلى الشام لا تستهويه ليعود إليها كرة أخرى . لقد عرف أبناء الشام واتصل بأهلها ، وفكر فيما وقف عليه من ذلك كله . وهو رجل تأمل في المثل الأعلى ، وليس

تاجراً يغيره المال والاستزادة منه . فلترسل خديجة في تجارتها من تشاء وليقسم هو بمكة على مقربة من البيت العتيق مفكراً متأملاً منقطعاً إلى تفكيره وتأمله ، ثم ليتحنّث في غار حراء حتى يوحى إليه ربه الأكرم أنه علّم الإنسان ما لم يعلم .

وينصرف محمد عن هذا الطريق سنوات متوالية حتى يأذن له ربه بالهجرة . فإذا ارتد من غار ثور سلك طريقاً غير الذى نسلكه نحن اليوم نجاةً بنفسه وبصاحبه من مطاردة قريش إياهما واقتنائها أثرهما .

ويعود إلى هذا الطريق بعد ذلك عام الحديبية . يعود إليه شيخاً توجت الرسالة وتوجت السنون رأسه . ويعود مع أصحابه حتى يبلغ منه ذا طوى ، ثم يضطر إلى الخروج إلى طريق الحديبية حتى لا يصطدم بجيوش قريش .

ويسلك هذا الطريق بعد عام فى عمرة القضاء . يسلكه ملبياً نداء ربه منادياً مع أصحابه : « لبيك اللهم لبيك » . وتتجاوب أودية البادية وهضابها بهذا النداء تنفج عنه شفاه ألفين من المسلمين يسرون وراء نبيهم وكلّهم شغف بهذا اليوم الذى انتظروه منذ سنين ، فهو اليوم الذى يطوفون فيه بيت الله ويؤدون مناسك العمرة . والرسول فى مقدمتهم على القصواء تسير به ؛ وهو فى طمأنينته إلى نصر ربه أكثر من كل من معه شكراً لله وإذعاناً . وتُسبخ القافلة ثم تستأنف سيرها حتى تبلغ مكة ، فإذا هى خالية غادرها أهلها . ويجوس المسلمون خلالها طائفين مصليين مهللين مكبرين . أين هم اليوم منهم يوم أخرجتهم مكة منها وأقصتهم عنها وضنت عليهم بدخولها وأنكرت حقهم من الوجود أو أداء شعائر دينهم ! لكنهم صبروا وصابروا فنصرهم الله من فضله ؛ والعاقبة للصابرين .

وينقضى عامان من يومئذ ، فيسلك محمد هذا الطريق على رأس عشرة آلاف من المسلمين ليفتحوا مكة . أين مسيرته اليوم من مسيرته صغيراً ، ومن مسيرته صبيهاً ، ومن مسيرته تاجراً ، ومن مجيئه حاجاً . . لقد دانت له العرب وبقيت مكة على عنادها . لكنها اليوم على أهبة أن تدين وأن تُسلم

مفاتهاها وأن تؤمن بالله ورسوله وأن يطهر بيئها من الأوثان وأن تعود إليه قداسة التوحيد والإيمان .

فأما المرة الأخيرة التي سلك محمد هذا الطريق فيها فهي حِجَّة الوداع حين سار من المدينة على رأس مائة ألف من المسلمين الذين جاءوا من أنحاء شبه الجزيرة رجالاً وعلى كل ضامر ينسِلون من كل حدب . وأقاموا ليلتهم بذي الحُلَيْفَة ؛ فلما أصبحوا أحرموا وانطلقوا جميعاً ينادون : « لَسْبَيْكَ اللَّهُ لَبِيكَ » ؛ وتتصل روح الرسول بأرواحهم جميعاً وهو يلبي على رأسهم فيزدادون إمعاناً في توجهِهم إلى ربهم وسُمُّوا إليه . أين من هذا الرجل الذي أكمل الله له وللمسلمين جميعاً دينهم وأتم عليهم نعمته ، ذلك الطفل مع أمه ، وذلك الصبي مع عمه ، يسير في هذا الطريق لا يعرف في المرة الأولى أنه ذاهب إلى قبر أبيه يزوره ، ويسائل رفاقه في المرة الثانية عن كل ما يرى ! أين من هذا الرسول الذي نقل العالم من الضلال إلى الهدى ومن الوثنية إلى التوحيد ، ذلك الصغير الذي كانت تنظر إليه أمه نظرة الحب والإعزاز لوحيدها اليتيم الذي فقد أباه ، وغاية ما ترجو أن يكون كهذا الأب أبداً وكرماً ورجولة ! ! ويصل هذا الجمع الزاخر مكة فيشاركه أهلها في الإحرام بالحج وأداء مناسكه متأسيين في ذلك بمثل الرسول ، سائراً في خطاه ، داعياً دعاءه ، مستغفراً استغفاره ! ألا إنها الحياة الإنسانية بلغت غاية السمو من إنسانيتها ، ثم سمت فوق الإنسانية إلى حيث رفعتها مراتب النبوة والرسالة ، وبقيت مثلاً تحاول الأجيال أن تجعل منه أسوتها ؛ وهيئات هيئات أن تبلغ من ذلك إلا يسيراً .

قال صاحبي : « ما أعظم العبرة وأبلغ الموعظة فيما تذكر ! ولو أن المسلمين الذين يسرون كل عام في هذا الطريق ذكروا من ذلك بعض ما ذكرت لازدادت نفوسهم بالحج طهراً . وإنه في الحق لطريق لو حدثت رماله وحدثت هضابه بما شهدت لأنصت العالم كله بأرضه وبحاره لأروع ما شهد على التاريخ من جلال الحق وانتصاره » .

كان رجالنا قد أعادوا رجالنا إلى « البكس » وإلى السيارة حين أتم صاحبي

عبارته . وشكرنا لأهل ( أوتيل آبار بنى حصان ) ظرفهم ، وانطلقنا فى طريقنا نبغى المسيجيد ، آخر محلة نقف بها قبل أن نبلغ المدينة . وبلغناها ووزلنا فندقاً بها يشبه فندق الآبار ، فأخبرنا رجاله أن السيد عبد العزيز الحريجي مضيفنا بالمدينة بعث مساء أمس وصبح اليوم من ينتظرننا . وأقمنا بالفندق ريثما تناولنا الشاي والقهوة ، وشكرنا أصحابه ثم انطلقنا كرة أخرى فى طريقنا إلى غايتنا . يا عجباً ! لقد اختلفت طبيعة البيداء كرة أخرى . لقد كنا نسير من جدة إلى رابغ وإلى مسستورة على رمال شدت مياه البحر بعضها إلى بعض فهى صلبة متينة . فلما استدرنا من مستورة مشرفين إلى بئر الشيخ وآبار بنى حصان تفككت الرمال ولم تبق لها صلابتها ، لذلك غاصت عجلات السيارة ، وغاص بطن السيارة فيها غير مرة . واطرد الطريق على هذا النحو من الآبار إلى المسيجيد . فأما بعد المسيجيد فقد انقلبت البيداء صخرية على رغم ما يكسوها من الرمال . واطمأن السائق إلى أنا لن نعوص فى الرمل فأطلق العنان لسيارته . فلما قضينا بعض الساعة إذا الطبيعة تختلف من جديد وإذا جبال سود تقف منا عند مرى النظر . وأدركت السيارة سفوح الجبال وتخطت خلالها مرتقية حيناً منحدره آخر ، ثم انطلقت من جديد فى بيدةا تكتنفها الجبال .

ووقفنا عند محلة أناخت بها قوافل للحجاج الذين يقصدون المدينة ، وجاء حسن بماء للسيارة احتياطاً للجبال القريبة منا . وأثار منظر القوافل فى نفسى حيناً وذكرى : حيناً لأيام الطفولة حين كنت أمتطى الحمل مع جدتى وأسير فى القافلة الداھية فى صحبة جدى إلى السيد البدوى بطنطا أو إلى مولد ابن العاص القريب من قريننا ، وذكرى أوائلك الذين سبقونا من آباءنا وأهلنا إلى هذه الديار قبل أن تُغَيَّر السيارة على الحمل فيها ، وحين كان الحمل سفينة الصحراء . وفكرت حين ألح بى الحنين وألحت الذكرى فيما يكتبه الغرييون عن القاهرة وعن الآستانة وعن غيرها من بلاد الشرق ، وما يبدون من أسف أشد الأسف أن أضاعت هذه البلاد طابعها الشرقى القديم الجميل .

وتحدثت إلى نفسي أسائلها : كم أضع الحجاز وأضاعت بلاد العرب بغزو السيارة إياها من طابعها ، وكم يضيع منه غداً حين تغزوها الطائرة ، فنجىء على متنها من مكة إلى المدينة في ساعتين كما فعلت الأميرة خديجة حلیم هذا العام ؟ ! ترى ماذا كانت تترك في نفسي رحلة القافلة من مكة إلى المدينة في الدرب الطويل أفضى فيها أسبوعين كاملين ؟ . . لقد قرأت ما كتبه كثيرون عن مثل هذه الرحلة في مختلف الدروب التي تنساب في البادية . قرأت ما كتبه برتن الإنجليزى ، وبورخارت السويسرى ، وإبراهيم باشا رفعت ، وقرأت رحلة البتانوفى . إنهم جميعاً قد أتبع لهم أن يدرسوا من طبيعة البادية ونفسية أهلها ما لا يتسنى لراكب السيارة أن يعرف إلا القليل منه . وهم قد استمتعوا من حياة الصحراء وواحاتها ومن صحبة أهلها بما لم أستمتع أنا بشيء منه ، اللهم إلا حين نزلت رابعاً ، وحين قضيت الليل بآبار بنى حصان . أما راكب الطائرة فلن يرى من ذلك كله إلا ما يراه الطائر من علية سمواته ؛ ولن يستمتع منه بغير المنظر السريع التغير السريع إلى الزوال . ومن الحق إذًا أن غزو السيارة للجمل وتعريضها إياه للزوال وحلونها محله سفينة للصحراء خسارة يأسف لها رب الفن الحريص أن ينعم على هون بكل ما فى البادية من حياة ومعنى وجمال . أو ليس من الحق كذلك أن غزو الطائرة للسيارة يعرض الإنسانية من ناحية الفن لمثل هذه الخسارة ! أم أنا يجب علينا فى سبيل ما نسميه التقدم ألا نقيم لهذه الخسارة وزناً ، وأن نغضب أن عوضنا الله خيراً منها وأعظم جدوى ؛ وإذا انقرض الحمل وبقيت السيارة دابّة الحمل واختصت الطائرة بالسفر ، فلا خسارة فى ذلك على الإنسانية ولا على الفن ؟ ولم أجد جواباً على ذلك كله إلا أن محاولة الجواب هو وعي ما أشبههما بالأسف لأن الطفل صار رجلاً ، أو لأن الهرم الفانى مات ليخلفه غيره ؛ مع أن هذا وذاك سنة الطبيعة . فما حدث اليوم لا مفر منه وهو لا بد كائن . ورجل الفن الصادق العاطفة والموهبة لا يأسف على ما فات ، ويجد من آثار الفن فيما حوله خير منزل لوجيه وإلهامه . وميراثنا مما خلفه الأولون من آثار الفن بعض ما هو كائن ، شأنه فى

ذلك شأن ما حولنا من آثار العلم . فإذا نحن أسفنا على ما فات فلن يعدى أسفنا شيئاً . ولئن دل على شيء لعملي أنا كسالى فى الفن ، نريد أن نهج نهج من سبقونا ونتأثر بخطاهم ، بدل أن نُبدع جديداً من إلهام الحاضر وحياته . فأما الذين يريدن أن يبقى الشرق الحى متحفماً لصور الماضى فأولئك يجهلون ما فى النفس الشرقية من توثب و نزوع إلى الطفرة ، وما تحرص عليه مع ذلك من توثيق عرى الحاضر بالماضى ، لأن الحاضر والماضى والمستقبل مرتسم فيها منذ الأزل ، مصور فى أطوائها على أنه وحدة تتطور حياتها كما تتطور حياة الكائن الحى ، لا على أنه أجزاء منفصل بعضها عن بعض ، لا تتسق فى كل ولا تربطها وحدة الزمان والمكان .

وانطلقنا ، ولم يطل بنا السير حتى كنا ندور فى الجبال مُصعدين نسلك طريقاً لا بأس بفسحتها . وإنا لنى إحدى استدارات السيارة إذ انطلق إلى السماء أمامنا جبلان عن اليمين وعن الشمال لفتت انطلاقيهما النظر . قال صاحبي : « هذه جبال المُفْرِحَات ، وهى طلائع المدينة المنورة » . هنالك اتجهت بكل ذهنى وجنانى إلى ناحية مدينة الرسول على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وجعلت أهدق بنظرى وحده تارة ، وأستعين بالمنظار المقرب أخرى ، أريد أن أجتلى بشائرها . وكأنما شعر السائق بأننا نستعجل بلوغها والدخول إليها ، فدفع بالسيارة فى طريق استقام حتى كأنه قد نُحِت فى الجبل نُحتاً ، وصرّف فيه رصفاً . فلما أوفى على غاية هذا الطريق استدار إلى طريق آخر ، ثم وقف فجأة بعد استدارته فيه ومد إصبعه إلى ناحية الشرق مشيراً وقال : هذه القبة الخضراء .

الله أكبر والله الحمد ! بلغنا إذاً مقصدنا . فالقبة الخضراء قبة الحرم النبوى . وهى الآن أمامى وعلى مرى نظرى . فليُسرع حسنٌ إذاً حتى نقوم بزيارة الحجرة التى صارت قبر الرسول الكريم بعد أن كانت سكنه فى الحياة والمكان العزيز عليه فى دار عائشة . وليُسرع حتى نمتع النفس والقلب بالوقوف خُشَعاً أمام هذه الحجرة ونسلم على صاحبها ، ونشهد أنه بلغ رسالة



ربه ، ونحاول أن يتصل روحنا الضعيف الرازح تحت أعباء الحياة ومادتها في عالم الدنيا بروحه القوي الأمين الذي سما بفضل من الله ومغفرة إلى مقام الرسالة الأسنى ، فكان صاحبها الأسوة والمثل في حياته ، وكان بعد مماته نور الجمال والكمال والسر والجلال والوحدة والضيء الوضاء الذي غمر العالم فأثار له السبل وهناه مَحَجَّة الحق . وليُسرعُ فالنفس مشوقة والقلب يود أن يطير إلى هذا الموقف يشهد عن كذب منبع هذا النور وأن يمتلي من إشراق سنائه . هذه لذة كبرى بدأت أشعر بها وأريد أن أنهل منها وأبلغ الرى الروحى ريباً لا أظمأ بعده أبداً .

والسيارة تجرى ، والقبعة الخضراء تزداد وضوحاً ويزداد النظر بها تعلقاً .  
وها هى ذى بشائر المدينة المنورة كلها تبدو . لقد صرنا إذاً منها قاب قوسين أو أدنى .

## وحي المدينة

وقف حسن بالسيارة فجأة بعد أن استدار صُعداً من الطريق المستقيم إلى طريق يليه ، ثم مد إصبعه إلى ناحية الشرق مشيراً وقال « هذه القبة الخضراء » . وقال صاحبي : « نعم . قبة الحرم النبوي » . ومددت بصرى فإذا هذه القبة أمامي تقوم حولها مآذن ترتفع في الجو ، وتحيط بها قباب أصغر منها حجماً . ولم يعلق النظر بالمآذن ولا بالقباب الصغرى إلا ريثما ارتسمت في خاطري صورة منها . أما القبة الكبرى فقد شد إليها نظري ما يكاد يتركها ؛ وقد استرعى انتباهي كل ما جل ودق من أمرها . ووجهت المنظار المقرب نحوها أريد أن أقف على تفاصيلها . ولم يكن ذلك حرصاً مني على اجتلاء ما بها من دقائق الزخرف في عمارتها ولا أملاً في أن أستشف شيئاً مما وراء النوافذ التي أحاطت بقاعدتها ، وإنما دفعت إليه حركة نفسية مبعثها الشغف بكل ما يتصل بالرسول وقبره ، وشدة التوق إلى معرفة كل آثاره .

وذكرت أن من ولاية مصر من كان لهم حظ في هذا الأثر . فقائتيابي هو الذي أمر بإنشاء هذه القبة . ومن بنى وطى رجال العمارة من شاركوا في تشييدها . وشعرت لذلك بغبطة أفعمت قلبي سروراً ورضاً . على أني سألت نفسي : « فيم الغبطة أن يأمر وال مصريُّ بتشيدها ! وإنما شأنه في ذلك شأن كثيرين من أمراء المسلمين وملوكهم ممن لهم في عمارة هذا المسجد حظ وأثر » . لكن هاتفاً وجدانياً هتف بي : « الأقربون أولى بالمعروف ، وبنو الوطن هم الأقربون الأولون ، وبينك وبينهم مع إخاء العقيدة الزوحي إخاء القربى وإخاء التاريخ والشركة الوثيقة في أرض الوطن ونهره وسمائه » .

وتنطلق القبة بشاهدها المدبب في السماء ، ويلمع على سطحها الأخضر وهج الشمس الوضاء ، فيزيدني منظرها تعلقاً بها حتى ما أكاد أجد لي منصرفاً عنها . وتتقدم السيارة في الطريق وتتلوى مع بعض أجزائه فتغيب القبة عن

ناظرى وتقوم أمامها أبنية متواضعة حيناً وهضاب قليلة الارتفاع حيناً آخر .  
ويذكر صاحبي بعض ما يعرف من أمر هذه الأبنية وهذه الهضاب وأسمع له .  
لكن القبة تبقى مع ذلك مرتسمة أمام ذهني وكأن لم تغب عن ناظرى . أليست  
القبة منارة القبر الذى يثوى فيه رسول الله ! أو ليست المدينة هى التى أوى  
إليها فنصرته من يوم هجرته إلى أن اختاره الرفيق الأعلى ! فما الجبال  
وما الهضاب وما الأبنية التى يحدث عنها صاحبي إلى جانب ما تحدث القبة  
عنه مما يملأ القلب روعة وهيبة وجلالا !

وذكرت ما دار بخاطرى من يومين وأنا بمجلسى من المسجد الحرام بعد  
طواف الوداع ، وقلت فى نفسى : إذا كانت مكة مدينة السلام فهذه المدينة  
لا ريب مدينة الجهاد . كذلك كانت يوم هاجر النبي إليها ، وكذلك بقيت  
من بعده طيلة عهد خلفائه الراشدين . هذان وصفان أفاء الله أحدهما على مكة ،  
والآخر على المدينة ، فبقى لهما على عهد النبي ، لم يتغير ولم يتبدل ؛ وكان حقاً  
أن يبقى لهما ما بقى للمسلمين على الأرض سلطان . ولقد فتح الله مكة على محمد  
وعلى المسلمين ، فخشى الأنصار العاقبة وقال بعضهم لبعض : أترون رسول الله  
إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ وكان جواب النبي حين علم ما قالوا :  
« معاذَ الله ! المسحياً مسحياًكم والمماتُ مماتكم » . ولما قسم محمد فى حنين  
ورأى الأنصار كيف تألف النبي أبناء مكة وكيف أجزل لهم العطاء ، ظنوا أنه  
سيقيم بينهم وقال بعضهم لبعض : لى والله رسول الله قومه . فكان مما تحدث به  
إليهم حين بلغته قائلهم : « ألا ترَضُونََ يا معشر الأنصار أن يذهب الناس  
بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ! » . ومن قبل جنح الرسول  
إلى السلم عام الحديبية لم يشته عنه تحرش أو شاب مكة بالمسلمين ولا غضب  
أصحابه من تجهز أهل مكة لقتالهم .

أما المدينة فبقيت بعد الفتح كما كانت قبله ، مدينة الجهاد . منها وجهه  
النبي قواده بعد الفتح إلى ناحية الروم فى غزوة تبوك ، ومنها جهز جيش أسامة  
ابن زيد كى يأخذ بثأر أبيه من قتل الروم إياه فى غزوة مؤتة ، ومنها كان

قد جهز قواده قبل الفتح في بَدْرَ وأحُدَ وقُرَيْظَةَ وخَيْبَرَ حتى ضم العرب جميعاً في دين واحد وتحت لواء واحد ، أما مكة فبقيت حراماً كما كانت منذ أقيمت قواعدها لم يُسْفَكْ فيها دم ولم يُعْصَدَ فيها شجر وبقى شعار الذين يدخلونها ويؤدون التحية لبيت الله فيها : « ربنا منك السلام وإليك السلام حينئذ ربنا بالسلام » .

أدت بي هذه الموازنة بين البلدين وما أفاء الله على كل منهما من حظ إلى التفكير في الإسلام ، أدين سلام هو أم دين جهاد ؟ وأعانني على التفكير ونحن على أبواب المدينة أنا وقفنا ننتظر « البكس » حتى لا يقفه الموكلون بأسوار المدينة عند بابها . فللمدينة ، فيما ذكر لي أصحابي ، سور وأبواب ، ولا يتخطى أحد إليها إلا أن يُبرز جواز مروره لحراس أبوابها . وأدى بي تفكيري في هذه السويعة إلى أن الإسلام دين سلام في بدئه وغايته ، وأنه مع ذلك دين جهاد متصل في سبيل السلام . فقد نزل الوحي الأول في بلد السلام على غار حراء ، وقد أكمل الله للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته في بلد السلام بعد حجة الوداع . وكانت الدعوة إلى هذا الدين عن طريق الجهاد السلمى في بلد السلام حتى الهجرة . فلما لم يجب أهل مكة داعى السلام ، وأعرض عنه رجال القبائل الذين يجيئون حاجين بيتها ، هاجر النبي إلى يثرب جهاداً في سبيل السلام . وكانت خطته أن يدعو إلى السلام وأن يذود عن حياضه من يريدون أن يصرفوا الناس عنه، وإن اقتضى زيادة نضالهم وقتالهم . ومن ثم كان ما حدث من متغآز وسرايا أثناء مقام الرسول بيثرب جهاداً في سبيل السلام لا يبلغ غايته حتى يظل الناس كافة بلوائه . فإذا آمنوا أصبحوا إخوة وتحابوا بنور الله بينهم وبلغوا بالإنسانية الكمال الذى تنشده . وهذا الكمال هو الإيمان عن علم بالله جل شأنه ، والبلوغ عن طريق العلم إلى معرفة سنته في الكون . فهذه المعرفة هى التى تزيد الإيمان تثبيتاً وتجعل طريق الإيمان ضياء ونوراً .

الإسلام إذأ هو الجهاد في سبيل السلام : سلام الروح للفرد من طريق

الرضا عن علم ، وللجماعة من طريق التحاب في الله وبنور الله ، وللإنسانية كلها من طريق الأخوة التي تدعو المرء ليحب لأخيه ما يحب لنفسه . ذلك هو الكمال الذي يدعو الإسلام إليه ، وإلى الجهاد في سبيله . وطريق الجهاد شاق طويل لمن يظنون الحياة تبدأ بميلادهم وتنتهي بموتهم ، وجيز هيّن لمن يبتغون الدار الآخرة دار السلام والرضا ، ويرون للإنسانية كلها من الوحدة في حياتها ما للفرد من الوحدة في حياته . أولاء يرون في الجهاد ما يرون في السعى والعمل من عبادة لله وتقوى إياه يُثاب العامل عليها ويجزى الجزاء الأوفى .

الإسلام جهاد في سبيل السلام . وجهادُ المرء نفسه لينعم روحه بالسلام ليس دون جهاد الجماعة من يحاول العدوان عليها والحد من حريتها في سعيها وعملها . فحياة الفرد موجز كامل من حياة الجماعة ومن حياة الإنسانية . والسعيد من لم تخدعه المسرة العاجلة ولم تحل بينه وبين إشراق الروح بالمسرة الدائمة وضيء القلب بالمعرفة في أكمل صورها . والجماعة السعيدة من عرفت طريق الحق والعدل المجرد من الهوى ، ولم تخدعها المذاهب الزائفة ، ولم تدفعها إلى طريق البطش الغرور الذي يجعل الحياة نضالا على مُتَع العيش ولذاذاته ، والذي يسخرُ الجيوش ويجند الجنود ليسلب القوى طعام صاحب الحق في هذا الطعام .

تجلى لى وأنا عند هذا الموضوع من تفكيرى ما كان من جهاد الرسول بمكة ومن جهاده بالمدينة . إذ ذاك ادّكرت ما يعقده قوم من الموازنة بين هذا الجهاد وذلك ، ومن تفضيل أحدهما على الآخر ، وادّكرت ما ترويه كتب السيرة عن عهد مكة ومبلغه من الإيجاز بالقياس إلى ما ترويه عن عهد المدينة . وإن جماعة من المستشرقين ليعقدون الموازنة بين الجهادين ، فيُشيدون بجهاد مكة ويرونه دعوة خالصة إلى عقيدة أيقن محمد أنها الحق ، وآمن فيها بينه وبين نفسه أن الله أمره أن يبلغها الناس ، وهي لذلك دعوة جديرة بالاحترام ، والجهاد في سبيلها جهاد مبرأ من كل غاية ذاتية ، وفيه لذلك من مظهر السمو الروحى ما هو جدير بالإكبار ؛ ولذلك سما بمحمد في نظرهم إلى مرتبة العظماء

الذين خلد التاريخ ذكرهم . أما جهاد المدينة فيراه هؤلاء المستشرقون جهاداً في سبيل السلطان ، دفع إليه الحرص على الانتقام من قريش لأنها أخرجته ومن تبعه من ديارهم ، وأغرى الظفر فيه على الاستئثار بالقيادة والملك ، وقد كان محمد يَعْفَ عنه ويتسامى عليه أيام مقامه بمكة . وهذه غاية ينزل الجهاد في سبيلها منزلة مثله من جهاد ذوى الأطماع من القادة والغزاة . وفوز محمد في هذا الجهاد بالانتقام من قريش وبلوغ الملك والسلطان في جزيرة العرب كلها هو الذى أضفى على تاريخه البريق وجعل الإنسانية تشخص إليه إجلالا وإعجاباً . لكن فوزه في هذا الجهاد المدنى قد ألقى على غايته من دعوته المكية ألواناً من الشبهة ذهبت بالكثير من جلالها وجمالها وهون من مبلغ الإكبار لجهاده الشاق الطويل في سبيلها .

ربما خدعت هذه الموازنة من تسحرهم الحجة المنمقة عن تنطس الحقيقة وتصرفهم عن الإحاطة بها من كل نواحيها . وهى في الحق موازنة خادعة ساحرة . ألم يكن محمد بمكة فقيراً ضعيفاً عاجزاً عن دفع الأذى عن نفسه معرضاً أن يغتاله خصوم دعوته لولا حماية أهله من بنى هاشم إياه . وهو لم يهاجر إلى المدينة إلا بعد أن عقد حلفاً بينه وبين الأوس والخزرج أن يمنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . فهم بهذا الحلف قد عاهدوه على أن يقاتلوا دونه وأن يكونوا في قيادته . وبعد أن هاجر وجه السرايا والغزوات الأولى ليقطع الطريق على قريش إلى الشام ، وليغتم وأصحابه ماتحَمِلِ قريش في رحلة الصيف من أموال وتجارة . وغزوة بدر التى أشاد القرآن بها وبيلاء المؤمنين فيها ، والتي يعتبرها المسلمون علماً على الجهاد في سبيل الله ، فهم لذلك يذكرونها ويملاؤن مواضعهم فخراً بآثارها ، إنما تحرك محمد وأصحابه إليها ليأخذوا على أبى سفيان طريقه من الشام إلى مكة ولينهبوا تجارته . ولم يُخَفِ محمد ذلك إذ نذب المسلمين حين بلغه عود أبى سفيان من الشام وقال لهم : « هذه عيرُ قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينقلكموها » . وما حدث بعد ذلك في أحد وفي الخندق وما كان من إجلاء اليهود عن المدينة تمهيداً لإجلائهم عن بلاد العرب

ذلك كله إنما حدث دفاعاً عن العاصمة التي اتخذها محمد مقرأً للملكه . وفتح مكة وغزاة حُتَيْين وحصار الطائف ، إنما حدثت بعد أن استقرَّ لمحمد الأمر واستتب له السلطان . أما ما حدث بعد ذلك وأثناءه من تحطيم الأصنام ومن مداومة الدعوة للدين الجديد فشأن محمد فيه شأن نابليون حين زعم وهو يدوخ البلاد ويفتح الأمصار أنه ينشر مبادئ الثورة الفرنسية ، وشأن الدول المستعمرة اليوم حين تقرر النظم القائمة عندها في البلاد التي تغزوها وتفتحها مستعمرة حاكمة ، زاعمة أنها تقيم الحضارة بين أهل هذه البلاد . فجهاد محمد بعد هجرته إلى المدينة إنما كان جهاد انتقام وغلب ، دفعت إليه العواطف الإنسانية القوية في هذا الرجل الموهوب ، ولم يكن في شيء من جهاده بمكة للدعوة إلى حقيقة آمن بها .

كذلك يقول جماعة من المستشرقين حين يوازنون بين الجهادين . وموازنتهم كما ترى خادعة ساحرة ، لكنها خاطئة كاذبة . والحقيقة التي يلمسها من أخلص للتاريخ ولله وجهه أن غاية النبي العربي من جهاده كانت واحدة . كان بمكة يجاهد للدعوة ، وكان بالمدينة يجاهد لحمايتها والدفاع عنها . ولم يكن له وراء هذا الجهاد بكلتا المدينتين غاية إلا أن يبلغ رسالة ربه للناس كاملة . ولم يُرد الله أن تشوب هذا الجهاد شائبة . فهو إذ هاجر إلى يثرب بعد بيعتي العقبة إنما هاجر بعد سائر المسلمين إلا من آثر البقاء بمكة . وهو قد نصح للمسلمين أن يهاجروا إلى يثرب كما نصح إلى إخوانهم من قبل أن يهاجروا إلى الحبشة ، فراراً إلى الله بدينهم حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه . وهو قد اختار الحبشة للهجرة الأولى ، لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وقد اختار يثرب للهجرة الثانية لأن الإسلام انتشر بين أهلها فأمن به منهم كثيرون كفلوا أن يمنعوا من كان على دينهم أن يناله الأذى أو أن يُفْسَدَ عن دينه . وقد انتشر الإسلام بيثرب بعد العقبة الأولى حين بايع اليبريون النبي على : « ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزني ولا يقتل أولاده ولا يأتي بهتاناً يفتره بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف ؛ فإن وفي ذلك فله الجنة وإن غشي من

ذلك شيئاً فأمره إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر . « ولما تمت بيعة العقبة الكبرى ، واختار الذين بايعوا النبي من الأوس والخزرج نقباءهم ، قال النبي لهم : « أنتم على قومكم كفضلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي » . وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : « بايعنا على السمع والطاعة ، في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكربنا وأن نقول الحق أينما كنا لانخاف في الله لومة لأثم » . لم تكن أياً البيعتين إذًا بيعة حلف على حرب ، بل عهد صدق على نشر الحق والدعوة إليه ، وإن لامهم اللائمون ، أو أذاهم المشركون ، شأنهم في ذلك شأن من سبقوهم إلى الإسلام من أهل مكة الذين أصلتهم قريش من ألوان العذاب ما تنهد له العزائم ، فلم يكن لهم عود ، ولم تمهن منهم عزيمة .

وأراد الله ألا تشوب جهاد المسلمين بيثرب شائبة ؛ فهم لم يخرجوا إلى بدر مقاتلين ؛ وإنما خرجوا ليأخذوا غير قريش من أبي سفيان جزاء ما فعلت قريش بهم حين أخرجتهم من ديارهم واستصفت أموالهم . وأراد الله أن يفوتهم أبو سفيان وغيره ، وأن تخرج قريش لدفعهم بكل ما لديها من قوة . ولقد كان لهم مندوحة عن قتالها حين لم يبق لهم من وراء هذا القتال مطمع . وفي هذا فكر بعضهم حين رأى المسلمين أقل من قريش عدداً وعدة . ولو أنهم عادوا إلى المدينة لما كان عليهم جنح وهم لم يخرجوا إلى قتال كما خرجت قريش ولم يأخذوا للحرب عدتها . أما وقد فاتت الغنيمة فقد وقف الجيشان في بدر أحدهما إزاء الآخر في مثل موقف محمد وأصحابه من قريش حينما كانوا بمكة قبل الهجرة . ووقفت الدعوة إلى الدين الجديد تواجه الوثنية وأصنامها وحماة هذه الأصنام . وقف الإيمان بالله وحده لا شريك له في وجه الشرك والأصنام يتخذها عبادة إلى الله زُلْفَى وعباد الأصنام يومئذ أكثر عدداً وأعز نفراً أفيغلب الإيمان الشرك ، أم يغلب الشرك الإيمان ؟ هذه كانت المسألة يوم بدر . لم تبق غير ولم يبق مطمع في غنيمة ، وإنما يلتقى الإيمان والكفر يقتتلان ، يريد الكفر العتيق أن يسحق الإيمان الناشئ بقوة عدده ، ويرجو الإيمان الناشئ أن يدفع



بغى الكفر بقوة بأسه وسموه بالنفس فوق دنيا الحياة . والعشرون الصابرون من المؤمنين يغلبون مائتين من خصومهم ، والمائة المؤمنون يغلبون ألفاً . وكذلك تم الغلبُ للمؤمنين .

ويحاول الشرك من بعد ذلك أن يحطّم الإيمان في أحد ، وأن يقضى على المسلمين بالحصار في غزوة الخندق ؛ والإيمان أثناء ذلك ينتشر وكلمة الله تعلق . ويحاول الشرك أن يصد الإيمان في الحديبية ، وأن يحول دون دخول المسلمين مكة ، فلا يرضى الرسول أن يقتحم الحرم ويؤثر أن ينتظر عامًا فيدخلها المسلمون آمنين . وتبقى مكة حرمًا للسلام . ويزداد الإيمان قوة ويسير جيشه لفتح مكة ، فلا يرضى الرسول أن تهدر حرمتها ، ويفتحها الله عليه ولا يراق دم ولا تزهق في حرب نفس ويعفو الرسول عن خصومه جميعًا . فلما استتب للدين الجديد الأمر وآمن الناس جميعًا برسالة محمد ، لم يغيّر محمد من حياته ولم يعرف الملك وسلطانه ، بل ترك الأمر كما كان في شبه الجزيرة : ترك كل أمير على إمارته ، وكل رئيس على رياسته ما آمن بالله وبرسالته على لسان نبيه ورسوله .

أين هذا كله مما يقوله أولئك المستشرقون ! وهم قوم أوتوا نصيبًا من العلم وفي مقدورهم أن يميزوا الخبيث من الطيب والحق من الباطل ؛ فما لهم يدعون إلى موازنة كاذبة خاطئة ، كندبها بيّن وخطؤها صُراح ! إنا لا نحسبهم نقموا من محمد أن يؤمن بالله العزيز الحميد ؛ لكنهم إذ يلتمسون أسرار الكون والحياة يلتمسونها في الأحياء الدنيا وفي ألف الناس من طبقات الإنسانية ، وهم يريدون أن تخضع القوى العليا لسنن هذه الكائنات ، فهم لذلك يخطئون إن حسنت نيتهم ، ويكذبون إن ساءت هذه النية .

أما وهذا مبلغ الخطأ في تلك الموازنة فمن عجب أن تكون بعض كتب السيرة ماثرا . فقد ألف قوم أن يجعلوا من مغازي الرسول بعد الهجرة موضع عنايتهم كلها ، وأن يظهره صلى الله عليه وسلم مظهر القائد الذي يستنفره الظفر في القتال إلى ابتغاء ظفر مثله ، يريد بذلك أن يخضع الناس لجبروته رهبة له .

ولا شيء من ذلك البتة في مغازي الرسول وسراياه . فن قبل بدر كانت المناوشات مقصوداً بها إلى إقناع قريش ليرعوا عن غيهم ويكفوا عن الأذى ؛ وكانت بدر ما رأيت . ومن بعد بدر وقف المسلمون موقف المدافع عن بيضتهم ، وعن عقيدتهم وعن حرية الدعوة إليها . وكلما كانت لهم القوة وتم لهم الغلب جنح الرسول إلى السلم والعفو ، وترك للناس أمور الحكم والسلطان في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، جاعلاً كل همهم إلى بث تعاليمه السامية ، وإلى أن يكون للناس الأسوة والمثّل .

وإنما دعا بعض كتّاب السيرة إلى الإفاضة في المغازي والحديث عنها أن انتشرت جيوش المسلمين وامتد فتحهم بعد الرسول إلى حيث تضاءلت الإمبراطوريتان الفارسية والرومية صاحبتا الحضارة إذ ذاك ؛ وكان سلطانهما قائماً على الغزو والفتح للاستعمار لا للحضارة ، على نحو ما يحدث في عالمنا الحاضر . وقد أراد هؤلاء الكتّاب أن يقرنوا الفتح الإسلامية إلى عمل الرسول في نشر الدعوة . هذا إلى أن المؤرخين قد ألفوا إلى عهود ليست بالبعيدة ألا يذكروا من جهاد الإنسانية إلا ما أريقت فيه الدماء أثناء الحروب والثورات ابتغاء الحكم والغلب . أما الجهاد السلمى العظيم المتصل ، والذي قطعت به الإنسانية ما قطعت من الخطى نحو الكمال ، فذلك ما لم يألفه التاريخ ولا المؤرخون . من ثم رأيناهم يقولون : « إن الأمة السعيدة لا تاريخ لها » . فكأنما تاريخ الإنسانية قصة بأسائها وشقوتها ، وكأن ما قام به الأنبياء والمرسلون والعلماء وأرباب الفن والمكتشفون والمخترعون ، وما مكنا به من صلة الإنسان بالكون واجتلائه سننه وأسراهِ ، غير جدير بأن يكون فصلاً من تاريخ الإنسانية . وهذا هو الخطأ البالغ والضللال الممين . فالحروب ليست إلا نزوات طيش ، أو جهاداً لمغالبة نزوات الطيش ، أو مصرفاً لما فضل عن جهاد الإنسانية لاستطيع هضمه . أما الحق الذى يجب أن نعرفه وأن نعلّمه أبناءنا وإخواننا ، فذلك أن الجهاد الحق في سبيل الكمال هو الدأب في ظلال السلم لمعرفة الحق والإيمان به . والحق هو ما دعا محمد إليه مخاطباً العقل والقلب ،

دافعاً كل وهم يحول دون إدراك العقل والقلب لهذا الحق الذى دعا إليه بأمر ربه بالحجة البالغة والمجادلة بالتي هي أحسن .

مرت هذه الخواطر بنفسى فى مثل ملح البصر ونحن بموقفنا ننتظر البكس ، وكان حسن واقفاً إذ ذاك إلى جانب السيارة ؛ فلما سمع ضجة البكس فى سيره استوى إلى مقعده ودفع السيارة على هون إلى ناحية باب العنبرية من أبواب المدينة . ما العنبرية هذه ؟ لا أدرى ! ولكن كذلك قالوا . وتبدت أمامنا القبة الخضراء حين استدرنا كرة أخرى وبدت مباني المدينة تنكشف كلها . هذا بناء منها بالغ من الجمال حتى لتحسبه من مباني القاهرة أو بعض المدن الجديدة . وسألت صاحبي عنه فقال : « هذه ( الأستاسيون ) القديمة » . فهمت إذآ السبب فى جمال بنائها . فهى المحطة الكبرى لسكة الحجاز الحديدية فى بلاد العرب . وقد تعطلت سكة الحجاز الحديدية أثناء الحرب الكبرى وبقيت محطة المدينة أمامها السكة الحديدية تنتظر يوماً تعود فيه إليها الحركة والحياة .

والسيارة تتقدم ومنازل المدينة وطرقها تبدو أمام النظر . فأما هذا الخلاء الفسيح أمامنا فتلك المسأخة . وأما ما بينها وبين محطة السكة الحديدية فبجبال ومساجد وهضاب حاولت أن أعرف شيئاً من أمرها فاعتذر صاحبي عن ذلك بأنها جميعاً أثرية يجب أن تُزار ، ويجب أن نقف عندها ، وأن يتحدث لى هو أو يتحدث لى العارفون عنها . قلت أين أحدٌ إذآ وأين سَلْعٌ ؟ قال : هما فى الناحية الأخرى من المدينة ، وستراهما غداً أو بعد غد ؛ وسترى أثر الخندق وما شئت من آثار خالدة يذكرها المسلمون ويزورونها للتبرك بها . وهذه الهضاب والمساجد القائمة عليها والعيون المجاورة لها ثابتة فى بطون الكتب القديمة ثبوتاً يجعلها أصدق نبأ عما تحدثت عنه مساجد مكة ، وأحسبها لذلك ستثير من عنايتك بها أكثر مما أثارَت مساجد مكة .

وبلغنا باب العنبرية فاستوقفنا حراسه . وباب العنبرية بالمدينة كباب النصر بالقاهرة وباب الساهرة بالقدس وأمثالها من الأبواب التى كانت تحيط

بالمدين في عصور خلت ، والتي كانت تجعل منها حصوناً منيعة تصد المغير عليها دون اقتحامها ، وهي لذلك قد بنيت من حجر متين بناءً محكمًا ، وقامت فوق جدرها السميكة عقود من الحجر تبعث إلى النفس المهابة وإلى القلب الرهبة . ولما عرف الحراس أمرنا بادلونا أحسن التحيات وأخبرونا أن مضيفنا قد أقام بنفسه ينتظرنا ، وأنه طلب إليهم أن يرشدوا السائق إلى داره . وابتسم السائق حسن وذكر أنه يعرف الدار خير معرفة . ومن ذا الذي لا يعرف دار الخريجي بالمدينة أكبر تاجر وأعظم سرى فيها وصهر وزير المالية ! وانبعث حسن بعد أن تخطى العنبرية في طريق فسيح حتى بلغ بيتًا حديث البناء ووقف قبائلته وقال ؛ هذه دار الخريجي الجديدة ، لكن بناءها لم يتم بعد . واستأنف سيره فر بميدان أو ما يشبه الميدان ، ثم استدار في طريق ضيق أدى به إلى زقاق أشد ضيقًا ، تنفس عن رحبة ليست بالفسيحة ، ولكنها تبدو كذلك بالقياس إلى ما يتفرع عنها من الأزقة ؛ هنالك وقفت العربية ووقف البكس ونزلنا . وكأما شعر أصحاب الدار بوقوفنا فخرجوا إلينا واستقبلونا بأجمل التحية .

عَجَبَ أمر السفر في هذه البلاد الإسلامية المقدسة . إن لنا الآن لستًا وأربعين ساعة مذ غادرنا مكة لم نذق أثناءها للراحة طعامًا . بلغنا جدة أمسية الاثنين ولم أتم بها خمس ساعات . وقضينا طيلة يوم الثلاثاء بين جدة وآبار بنى حصان . ولم نقض ؛ (أوتيل آبار بنى حصان) سوى ثلاث ساعات كان المبيت بالعراء خيرًا منها . وها نحن أولاء نبلغ المدينة والعصر وشيك أن يؤذن أو لعله قد أذن المؤذن به . مع ذلك أراني جم النشاط أود لو أخرج ليتوسى لزيارة المسجد النبوي والحجرة النبوية فأؤدى بذلك تحية المسلم إلى مقام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

وأفضيت إلى مضيفي برغبتي . قال : بل استرح قليلا وأزل عنك غبار السفر ، فإذا تناولنا الطعام خرجنا للزيارة . قلت : ما بي الآن إلى الطعام حاجة وأؤثر أن أتأوله بعد صلاة العشاء . وصعدت مع ابن المضيف الكريم إلى الطابق

الأول حيث عُرفنا ومتاعنا ؛ هنالك أقمت ربيها اطمانت إلى دار المقام وتوضأت وأخذت أهيتي للزيارة . ونزلت ونحن من صلاة المغرب على نحو نصف الساعة ، وقمت مع مضيقي فسرنا في زقاق ضيق استدرنا منه إلى آخر وإلى طريق أكثر سعة ينتهي بعقد من البناء فوقه . وهبطنا درجة واستدرنا إلى اليمين فإذا بنا نستقبل باب السلام من أبواب المسجد .

وسرنا نحو الباب نقطع بضعة الأمتار التي بيننا وبينه . وسرنا في زحمة جمع جاء يؤم المسجد لصلاة المغرب يريد أن يقضى فيه الفرض والسنة ويجلس في الروضة النبوية ليثاب عن صلاته أضعاف ما يثاب عنها في سائر أنحاء المسجد . كذلك عرفت مذ كنت بمكة ، وكذلك ذكر أصحابي وأنا بمصر قبل أن أسافر إلى الحجاز ، وبذلك تجرى روايات كثيرة . أنا إذاً على خطوات من الروضة النبوية ، ومن الحجرة النبوية . وفي هنيهة سأتخطى باب السلام فأكون في حماها وحرمها .

يا لجلال الموقف ! أخذت به قبل أن أبلغه وأن أقف فيه . . . وبلغ من شغلي به أن لم أعنّ بما حولى ؛ بل أطرقت إلى الأرض وغاب عني كل شيء إلا ما أنا مقبل عليه . لقد حاولت وأنا بمكة أن أعرف أين ولد الرسول وأين مقامه فلم أجد شيئاً من ذلك أثراً ثابتاً . فلما وقفت أمام الغار في قمة حراء حيث نزل عليه الوحي ، ولما أويت إلى غار ثور حيث اختفى من قريش عند هجرته ، اهتز كل وجودي ورأيت من أمرى عجباً . ترى ما عسى أن يكون من أمرى ساعة أقف أمام الحجرة ، وحين أقف في الروضة أصلى حيث خطب الرسول وحيث صلى بالمسلمين الأولين ؟ ! هاأنذا سأرى ولم يبق بيني وبين أن أراه غير لحظة .

الكتاب الخامس  
مدينة الرسول

## في المسجد النبوي

تَخَطَّيْتُ باب السلام أتبع مضيبي وفي ذهني من هذا المسجد النبوي صورة خيَّلها فيه ما اطلعت عليه من كتب الرحلات إلى الحجاز وما في هذه الكتب من أوصاف وصور شمسية . وتخطيت باب السلام وكلِّي التَّوَقُّ للوقوف أمام الحجر النبوية والسلام على صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام . وكنت أحسب بعد الذي رأيته بمكة والطائف وطريق المدينة من آثار أنبي ألفت هذه الآثار ، فلم يبق منها ما أخشى النظر إليه بعين الباحث ، لا أستثنى من ذلك إلا قبره الكريم حين أقف أمامه . لذلك أقمّت داخل الباب أنتظر « المزور » الذي أوماً مضيبي إلى بانتظاره ، وأكاد أحسب أني لن أرى في طريقى إلى الحجر النبوية إلا ما أعرف . لكنني ما لبثت حين تقدمت في المسجد خطوات فاشتغلتني شفقته الرهيب أن نسيت ما كان ماثلاً في ذهني من صور المسجد والحجرة مما اطلعت عليه في الكتب أو سمعته من حديث من سبقوني إلى هذا المكان ؛ فما كان من ذلك في نفسي إنما كان صورة وعاءها خيالي ؛ وهأنذا الآن أواجه الحقيقة ذاتها . أشهدا بعيني وألسها بجوارحي . وما عسى أن تغني الصورة عن الحقيقة أو يغني الخيال عن الحس ! انجابت الصورة وانجاب الخيال وسرت أتبع مزوري نحو الحجر ، مأخوذاً بما حولي ، منصرفاً مع ذلك عن كل ما حولي . امتدت عن يساري غابة من العمود الضخمة البديعة الصقل ، وهبط من نوافذ المسجد الرفيعة في جداره القائم عن يميني ضوء مبهم لم يحجب الأشعة المنبعثة من مصابيح الكهرباء منبسطة على السجاجيد الثمينة التي نسير عليها . مع ذلك لم يشخص بصري إلى العمود ولا ارتفع إلى النوافذ ولا استقر على السجاجيد ، بل سرت مندفعاً أمامي كاسر الطرف خشوعاً ورهبة ، ممتلي القلب من سيرة الرسول الكريم ؛ تتواتر في نفسي دراكماً مواقف العظمة والجلال مد بعته الله نبياً حتى اختار الرفيق الأعلى . ثم تقف

النفس عند هذا المكان الذى أخطو فيه والذى خطا صلى الله عليه وسلم فيه سنين  
مقامه بالمدينة ، والذى شهد من أمر الله ووحيه إلى نبيه ورسوله ، ومن وقوف  
المسلمين الأولين حاقين من حوله ، ما جعلنى أنسى كل شيء إلا هذه  
المواقف التى غيرت وجه العالم بعظمتها وجلالها ، وبفضل الله ومشيئته ، و بإيمان  
المسلمين الأولين بالله وبرسول الله .

وبلغنا الحجرة النبوية ، ووقف مزورى واستوقفنى قبالة قبر الرسول  
الشريف . فلما اطأنت مكافى إزاء المقصورة الجميلة أشار إلى فتحة فيها هى  
شباكها ، ثم تلا وتلوت من بعده : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله  
وبركاته . نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم  
الله النصر لدينه ، وأنه وفى بوعده ، وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » .  
ثم تحركنا خطوة صغيرة وقفنا بها من المقصورة إزاء قبر الصديق أبى بكر  
وسلمنا عليه ، وتحركنا خطوة صغيرة أخرى وقفنا بها إزاء قبر الفاروق عمر  
ابن الخطاب وسلمنا عليه ، ثم تلونا الفاتحة .

أقمت مكافى هنية شائخصاً إلى هذه الحجرة ، مأخوذ الذهن عن التفكير ،  
متجهماً بقلبى إلى هذا الدليل الذى يتلو أمامى ما يقتضى الموقف تلاوته ، حذراً  
أن يفوتنى منه شيء ، وكأنى فى حضرة ملك أودى مراسم الإجلال والإكبار .  
كلا . بل كان الموقف أكبر من حضرة ملك ؛ فقد لقيت ملوكاً وتحذت  
إليهم ، ولقيت بعضهم وما أزال فى صدر الشباب ، فلم أجد للقياهم مثل هذه  
المهابة ولا امتلأت نفسى أمامهم بشيء من هذا الإكبار . ووقفت أمام قبور  
الملوك وفراعين وأباطرة وعظماء فلم أشعر بشيء من الجلال الروحى الذى أخذ  
على تفكيرى المسالك وأنا فى هذا الموقف . وأشهد لقد كنت فى حيرة ما أصنع .  
وإنما أتقننى من هذه الحيرة أن دعانى المزور لأذهب إلى الروضة النبوية فأؤدى  
بالصلاة فيها تحية الحرم وأصلى فيها وراء الإمام فريضة المغرب وتقدمنى مضيقى  
عائد أنجو باب السلام ؛ فكان جدار المسجد الذى به محراب القبلة إلى يسارى ،  
وكان إلى يمينى حاجز يرتفع إلى ما فوق قامة الرجل صُنع من أعواد صفر لعلها



من النحاس أو من حديد طُلى بلون النحاس ، واتصل بينها شبك من لونها . وهذا الحاجز يقوم على حدود الرواق الجنوبي الذي نسير فيه فيفصله عن الروضة النبوية ، ويمتد على طول الطريق من الحجرة إلى مقربة من باب السلام . على أنا لم نكد نتوسط هذا الطريق حتى دخلنا الروضة من باب في الحاجز لم تُعنى الفرصة على الوقوف عنده وإنعام النظر في صنعه ، فقد ألفتيتي وسط جمع زاخر جلس في صفوف متراصة ليس بينها مكان لواقف . أتخطى هذه الصفوف لعلني أجد لي فيما وراءها مكاناً ! وهمت أن أفعل لولا أن أوماً إلى مَضِينِي فوقفت ، وأسرّ حديثاً إلى رجل من خدام المسجد فأرشدني الرجل إلى مكان أقف به في الصف الأول من الروضة إلى جوار منبر لم أشك أنه منبر الرسول . وهمّ يتاولني كتاباً في يده ، فألفاني أسرعت إلى إقامة الصلاة تحية للحرم وللروضة وسلاماً على صاحبها عليه السلام . فلما فرغت من الصلاة مد إلى يده بالكتاب ، وفتحه فإذا هو مصحف مخطوط مذهب جميل . والتفتُ فرأيت في يد جاري اليمين كتاباً صغير الحجم أدركت أنه دلائل الخيرات ، لأنني عرفت من قبل أن بعضهم يتلوها حيناً ويتلو في المصحف حيناً آخر كلما جاء إلى الروضة . ومددت البصر إلى اليمين فوقع على مقعد فوقه عدد عظيم من المصاحف والدلائل ، وإلى جانبه كراسي من الخشب يستعين بها بعضهم فيجعل عليها المصاحف أو الدلائل أثناء التلاوة فيها . وتستند المصاحف والدلائل الموضوعة فوق المقعد إلى المنبر النبوي الذي تنتهي الروضة بعده . ولم أحاول التحديق في المنبر تحديق الفاحص ، لأن حالي النفسية في هذه اللحظة لم تكن حال فحص أو تحقيق ، بل كانت حال عبادة وتهجد وتوجه خالص إلى الله .

ونادى المؤذن لصلاة المغرب ، فانتظم الناس صفوفاً في الروضة وفيما أمام الروضة من الرواق الذي به المحراب العثماني وفيما وراء الروضة لا ريب . وصلينا مع الإمام ركعات المغرب ثم صلى السنة من شاء ، وأقامت بعد ذلك وبني إلى أن

أطيل المقام بالروضة هوّى ألح بي أن أبقى إلى صلاة العشاء لعل أجد في هذه الفترة فرصة التأمل فيما حولى وتدبّره . لكن مضيفي أقبل نحوى ودعاني فتبعته خلال الروضة نحو باب السلام ؛ على أنه انقتل قُبَيْلَتَه متجهًا إلى داخل المسجد مجاوراً الجدار الغربى ، فلم تخامرني الريبة في حرصه على المرور بي في أنحاء المسجد كله لأحيط به في نظرة إحاطة عامة . ووقف عند مكان من الجدار كأنه الباب عليه إطار وكتابة وقال : « هذه خوخة أبى بكر » ، وذكر معى ونحن نتلو الكتابة ونعجب بخطها الجميل ما كان لدور الصحابة على عهد النبي من أبواب تفتح على المسجد حتى أمر رسول الله بسدها وقال : « لا يبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر » ؛ فسُدت وبقيت هذه الخوخة التى وقف مضيفي أمامها وقرأ معى هذا الحديث الذى كتب على بابها . على أنه لم يلبث أن قال : « إن هذه الخوخة لا تقع حيث كانت خوخة أبى بكر على عهد الرسول عليه السلام ؛ فقد وسّع المسجد مرات بعد ذلك ورد هذا الجدار الغربى إلى حيث هو الآن بعد أن كان هناك عند ذلك العمود الذى يحدد مسجد النبي » . وبعد أن أشار إلى عمود عليه إطار مذكور فيه أنه حد المسجد النبوى أضاف : « والخوخة الآن تقابل موضعها الأول تماماً » .

وعدنا نسير بعد الخوخة حتى بلغنا باب الرحمة الواقع فى الجدار الغربى كباب السلام . فلما رأيت مضيفي اتجه إليه لنغادر المسجد رميت ببصرى لعل أحيط بالمسجد فى نظرة ، فإذا الناس حولى فى زحمة الخروج يدفعونى نحو الباب ولا يجعلون لى إلى الإحاطة بالمسجد سبيلا ولا من الخروج بدًّا .

أكثرت من التردد من بعد ذلك على المسجد وأحطت بكثير مما فيه خُبْرًا . ولقد أعاننى على ذلك أننى اتصلت منذ نزلت المدينة بالأستاذ عبد القدوس الأنصارى صاحب كتاب « آثار المدينة المنورة » وأستاذ الأدب العربى بمدرسة العلوم الشرعية ، كما اتصلت بكثيرين كان لهم فى إرشادى ومعاونتى فضل أذكره لهم وأشكره أجمل الشكر .

أول ما يلفت النظر في المسجد موقع الحجره النبويه ؛ فهى لا تتوسطه كما تتوسط الكعبة الحرم المكى ، بل تقع فى ركنه الجنوبي الشرقى على مقربة من باب جبريل . ولم تكن الكعبة تتوسط الحرم المكى إلى عهد الوليد ابن عبد الملك الذى أصر على أن تكون فى وسطه ولو أنفق فى ذلك ما فى خزائن بيت مال المسلمين . ولعله قد حرص على ذلك فى شأن الكعبة ولم يحرص هو ولا حرص غيره عليه فى أمر الحجره النبويه ؛ لأن الكعبة قبله المسلمين من نواحيها جميعاً ، إليها يولون وجوههم حينما كانوا ؛ فن الحق أن تتساوى جوانب المسجد الذى بنى حولها . أما الحجره النبويه فلم تدخل المسجد إلا سنة ثمان وثمانين من الهجرة ، وكان للاعتبارات السياسيه دخل فى ضمها إليه . وتقوم دور أثرية على مقربة من الحجره النبويه كدار عثمان ودار أبى أيوب وديار آل عمر ، رقى لاعتبارات سياسيه كذلك ألا تضم إلى المسجد . ويقع باب جبريل فى الجدار الشرقى للمسجد فى موضع ينحدر إلى الشمال بعض الشيء عن مكان الحجره ، ومكانه متوسط بين باب السلام وباب الرحمة فى الجدار الغربى . ويقع بعد باب جبريل باب النساء فى الجدار نفسه ، وتقع فيما بينهما دكة الأغوات . وباب النساء فى هذا الجدار يقابل باب الرحمة فى الجدار الغربى . وعلى الخط الموصل إلى هذين البابين أو وراه قليلا يقع حد المسجد كما أقام النبي بناءه الثانى . وفيما وراء ذلك يمتد المسجد فى مستطيل غير متوازى الأضلاع تزيد مساحته على ضعف مساحة مسجد النبي ويتناول زيادة عمر وزيادة عثمان وزيادة الوليد وزيادة المهدي . وهذا المستطيل مكشوف لا سقف له ، ويسمى الحصوة ، وكان به فيما مضى بعض أشجار من نخيل يطلقون عليها اسم بستان السيدة فاطمة ؛ وبه الآن ساعة زوالية دقيقة الصنع . وتقوم حول هذا المستطيل المكشوف عمد ضخمة فوقها قباب من طراز عمد المسجد وقبابه تحيط بهاساثر جدران المسجد . وهذا الإطار الذى يحيط بالحصوة تشمل ناحيته الشرقية زيادة الوليد وزيادة المهدي ، وتتناول الناحية الغربية فضلا عن ذلك زيادة عمر وزيادة عثمان . وعمر وعثمان هما اللذان زادا الرواق الممتد من الحجره إلى باب السلام فيما أمام الروضة .

والزخرف في عمارة المسجد لا يقاس إليه شيء مما في الحرم المكي ، وقلما يضاويه زخرف في غيره من مساجد العالم الإسلامي ، سواء في ذلك زخرف العمارة وزخرف المحاريب ، وزخرف السجاجيد وزخرف الثريات . وما اجتمع بالروضة النبوية من هذا الزخرف يُنسى ما سواه في سائر أنحاء المسجد . ولا عجب ، فقد تبارى الملوك والسلاطين والأمراء ، فجلبوا إليها من ذلك ما يستهوي اللب وما يزيد الناظر إليها إكباراً وإجلالاً . يقول برخارت في وصفها حين رآها في سنة ١٨١٥ ما ترجمته (١) : « يجرى حاجز من خشب يبلغ ارتفاعه ثمانى أقدام نقش نقشاً عربياً بديعاً مبتدئاً من أعواد الحجر الغريبة موازياً الجدار الجنوبي على نحو خمس وعشرين قدماً منه ، حتى يبلغ أدنى باب السلام ، ويمتد بذلك من الحجر إلى عرض المسجد كله تقريباً . وفي هذا الحاجز أبواب عدة ؛ وهو قد أقيم ليفصل بين الروضة والرواق الذي يمر منه الزائرون حين دخولهم من باب السلام متخطين إلى الحجر خلال العمدة القائمة بين هذا الحاجز والجدار الجنوبي . وهذا الجانب الذي تقوم فيه العمدة الجنوبية مما يقع شمال الحاجز يعتبر أقدس مكان في المسجد بعد الحجر ويسمى الروضة ؛ وهو اسم خلعه عليه محمد لقوله : ( بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ) . ويقع منبر المسجد على مقربة من هذا الحاجز في الوسط ما بين الحجر والجدار الغربي . واسم الروضة مقصور على المكان الذي بين المنبر والحجر ، وإن غلب اعتبار المكان الذي تقوم به العمدة الجنوبية جزءاً منها . ولقد نقشت عمدة الروضة بالأزهار إلى ارتفاع خمس أقدام أو ست ليعاون هذا النقش الخيال فلا يعجز عن إدراك الشبه بين هذا المكان ورياض جنة عدن . ويقوم على جانبي المنبر محرابان هما كالمنبر آية في دقة صناعة التطعيم وبراعة جمالها . وقد أهدى قايتباي أحد المحاربين من مصر إلى المسجد ، وبعث السلطان سليمان بن سليم بالآخر من الآستانة . وأرض الروضة مفروشة بعدد من

(١) (Travels in Arabia : Burkhardt) الجزء الثاني صفحة ١٧٤ وما بعدها طبعة هنري

كليرن بلندن سنة ١٨٢٩ .

السجاجيد الثمينة من صنع الآستانة ، وهي كشيلائها بمكة أثنى ما رأيت بالمسجد ، وقد تبلغ قيمتها جميعاً نحو ألف من الجنيهات . ومدخل الروضة من ناحية باب السلام رائع المظهر . فالألوان المختلفة المنبثقة من كل ناحية ، والعمد البراقة الصقل كأنها البلور ، والسجاجيد البديعة ، والرصف الثمين ، والكتابة الذهبية المنقوشة على الحائط الجنوبي ، وتلماع أعواد الحجره فيما وراء ذلك ، هذا كله يبهر النظر لأول وهلة ، لكنه ما يلبث بعد هنيهة أن يبدو على حقيقته ظاهراً من الزخرف البراق ليس فيه شىء من الفنائس الصحيحة » .

ويضيف الحاج عبد الله برخارت : « فإذا ذكرنا أن هذا المكان من أقدس أماكن العالم الإسلامى كله ، وأنه اشتهر بروعته وفخامته ونفاسه حلوته ، وأنه زخرف بكل ما اجتمع من هدايا الغلاة فى هذا الدين ، ازددنا دهشة وعجباً أن يكون ذلك كل مظهره . فهو لا يقاس إلى مثوى بقية من رُفات قديس ، وإن هان شأنه ، فى أية كنيسة من كنائس أوربا الكاثوليكية . وهو بهذا ينهض دليلاً مقنعاً على أن المسلمين لم يساوا المسيحيين الغلاة فى هباتهم الدينية فى أى عهد من العهود . ودع عنك أحوالا كثيرة أخرى تؤيد الاعتقاد أنه مهما يكن من تعصب المسلمين وأوهامهم فإنهم لم يبداوا قط ميلاً للبدل والتضحية المالية من أجل منشآتهم الدينية ، كما يضحى الكاثوليك ، بل كما يضحى المسيحيون البروتستنتيون من أجل منشآتهم » .

سقنا هذه الملاحظة الأخيرة للسويسرى المسلم المدفون بالقاهرة لموازنتها بما كتب غيره ممن ولدوا مسلمين . من هؤلاء صاحب الرحلة الحجازية محمد بك لبيب البتانوفى الذى رأى الحجاز عام ١٩٠٧ فى صحبة خديو مصر عباس حلمى الثانى . وهو قد تحدث عن الروضة حين حديثه عن المسجد النبوى ، فأشار إلى موضعها من المسجد وإلى أن دار بزيتاً من النحاس الأصفر يبلغ ارتفاعه نحو متر يفصل بينها وبين زيادى عمر وعثمان اللتين فى جنوبها ، ثم قال : « والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها ، وفيما يلى هذا الدرابزين ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف

الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، وإلى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئ من الزوار . وفي غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهي آية من آيات الله في كمال بهجتها ، وجمال صنعها ، وهي على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة . وإلى غرب القبلة المنبر الشريف ، وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية في الجمال ودقة الصناعة ، أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثماني إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع في مكان المنبر الذي كان به منبر قايتباي ، وهو في نفس المكان الذي كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويذكر إبراهيم رفعت باشا في كتابه « مرآة الحرمين » ما في الروضة من الأعمدة الجميلة المصنوعة ويذكر « نجفة » كبيرة ، ويخص بالذكر نجفتين على أطرافهما تناير يوقد منها الشمع أهداها إلى المسجد النبوي عباس باشا الأول ، والكبيرة منها معلقة في السقف القبلي مما يلي الروضة ، كما يذكر أن عباساً هذا أهدى إلى المسجد أربع شجرات على أعمدة من البلور مفرعات بأغصان مائلة عليها تناير صافية وضعت بالروضة المطهرة وما يليها من الغرب في صف واحد من الأساطين .

ويصف عبد القدوس الأنصاري اثنتين من هذه الشجيرات الأربع فيقول : وبجانبي المحراب نخلتان صفر ، مثبتتان في الأرض ، ولكل جذر وجذع وساق وغصون ، وهما مثمرتان وذواتا أكمام . ولكن ثمرهما قطع البلور الصافي ، وأكمامهما المصاييح الزجاجية الملونة . أما وصف الروضة وما فيها فلم يتناوله صاحب « آثار المدينة المنورة » في اتساق كما فعل السويسري برخارت . بل تحدث عن بعض ما فيها فذكر المحراب النبوي وأنه في شرق المنبر : « تزيينه الآيات المرقومة بماء الذهب . وقطع ملونة من الرخام . وناهيك بجمال العمودين بجوانبه ، فهما من الرخام الأحمر ذي اللون الإثمدى . وفي الجانب الغربي من

المحراب مكتوب : « هذا مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وشكل بناية هذا المحراب ينبئ على أنه قرين المحراب السلجوقي في تاريخ العمارة . والمحراب السلجوقي يقع في غربى المنبر ، وبظهوره كتابة تنبئ أنه بنى سنة ٩٣٨ هـ وأن بانيه السلطان سليمان . أمّا المنبر فيقع بين المحرابين ، « وبه اثنتا عشرة درجة ، ثلاث بخارجه وتسع بالداخل ، مصنوع من المرمر ، وظاهره مغمور بالذهب وبالنقوش الفاتكة ، وفوقه قبة لطيفة قائمة على أربعة أعمدة من المرمر ، وفوق بابه شرفات آية في الإبداع . وإن لماء الذهب لبريقا حتى لكأن الصانع فرغ من صنعه بالأمس . وتاريخ عمارته وإرساله من قبيل السلطان مراد هو سنة ٩٩٨ هـ . كما تنطق به الأبيات المنقوشة على بابه . وأمام المنبر مقصورة المبلّغين وتسمى المكبرية ، وبينها وبينه إلى الشمال نحو خمسة أمتار ومنها يقيم المبلّغون الصلوات ، وهى عبارة عن مربع رخامى قائم على ثمانية أعمدة رشيقة ، ستة منها محلاة بصيغ أحمر عقيقى اللون ، واثان أبيضان » .

سُقّت هذه الأوصاف لما فى الروضة اكتفاء بها عن الوقوف أمام كل أثاث فيها أو زخرف . فهذا الوقوف يقتضى من أراد الإحاطة بجمال الفن فى دقة تفاصيله ساعات طويلة وعلمًا مستفيضًا بفنون شتى ، ما لم يكن ممن يكفيهم إبداء الإعجاب بهذا الجمال والبهرلمراه . ثم إنى على كثرة ترددى على المسجد والروضة لم أكن حريصًا على دراسة التفاصيل فى عمارته وزخرفته حرصى على دراسة ما تبعته الروضة وما يبعثه المسجد كله إلى النفس الإسلامية فى عهدنا الحاضر من أثر فى خشوعها وتعبدها . فهذا الرجل الجالس إلى جوار المحراب النبوى ملصقًا نفسه به حتى يكاد يصبح جزءًا منه مخافة أن يزحزح عن مكانه ، مؤمنًا أنه يدنو بذلك من رياض جنة الخلد ، وهذا الآخر الذى ينفج خادم الحجر بما ينفحه ليختصه بمكان إلى جوار منبر الرسول يجلس فيه كلما جاء إلى الروضة ، وهذه الصفوف الأولى من الجالسين الذين يبدو عليهم أثر النعمة والوجاهة بالقياس إلى الجالسين فى الصفوف التى وراءهم ، هذه المظاهر وأمثالها هى التى عنيت بملاحظتها ودرسها فى هذا الجانب الأقدس من مسجد النبى

العربي الذي نادى في الناس بكلمات من ربه: «إِنْ أكرمَكُم عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ». «فَأَيُّنَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ». وما إلى وتفاصيل المنبر والحارِب والنَجف والسجاجيد وما طَعَمَتْ به وِمِم صُنِعَتْ وَأَيِّن نُسِجَتْ وهى كُلُّهَا فى نفاسة صنعها ترجُمان حالات نفسية فى الروح الإسلامى خلال تطوره على العصور ! وما تحاط به اليوم من تقديس ، وما تبعته إلى النفس من أثر فى خشوعها وتهجدها ، إنما هو صورة النفس الإسلامية فى طورها الدينى الحاضر . وهذا عندى أجدر بالدرس والعناية من الآثار الفنية لذاتها .

وما لا ريب فيه أن الأكثرين ممن يجيئون إلى الروضة ويختارون أما كنهم منها يحسبون أنها كانت على الصورة التى يشهدونها منذ برأ الله الأرض ومن عليها ، أو أنها كانت كذلك على الأقل منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، وقلَّ منهم من يفكر فى الأدوار التى مرت بها من حيث العمارة والزخرف . ولا ريب كذلك فى أن لعمارة الروضة ولزخرفها فى نفوس هؤلاء الأكثرين أثراً تعديلياً يتغير إذا تغيرت هذه العمارة وهذا الزخرف ، كتغيره حين انتقالهم من الروضة إلى المكان المحيط بصحن المسجد مع شدة الشبه بين ما فى هذا المكان وما فى الروضة من عُمْد وما فوق هذه العمدة من قباب . ولو أن النفس الإسلامية كانت اليوم كما كانت فى عهد الرسول وخلفائه الأولين صفاءً وطهارة وقوة لَمَا تأثرت فى خشوعها وتهجدها وتوجهها إلى الله بـمَكَان ، وإن بلغت الذكريات التى يُشيرها هذا المكان فيها غاية الطهر والسمو ، ولكن الاجتماع بمسجد الرسول أدنى أن يبعث فيها من معانى المحبة والقوة والجهاد أسوة بصاحب هذا المكان وأصحابه الأولين ما يزيدا على الحياة قوة ، وما يَجْنُبُهَا أن تعبد إلا الله وحده لا شريك له .

يحسب الأكثرون أن الروضة كانت دائماً كما يشهدونها اليوم ، أو أنها كانت كذلك منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام . والحق أنها لم تكن إلا فى عصور متأخرة ، وأن هذا المسجد النبوى قد مرَّ به من الأدوار التى تمثل التفكير الإسلامى فى تطوره أكثر مما مرَّ بالحرم المكى . بل لقد كان



هذا المسجد خاضعاً للتطور السياسي والديني أكثر من الحرم منذ صدر الإسلام وفي عهد الخلفاء الأولين .

فقد كان المكان الذي يقوم المسجد فيه مَرَبْدًا لِعَلامين يَتِيمين في المَدِينَة هما سَهيل وسَهيل ابنا عمرو يوم جاء النبي مهاجرًا إليها . والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم انتهى من هجرته إلى قُبَاء على فرسخين من المَدِينَة فأقام بها ومعه أبو بكر أربعة أيام . وفي هذه الأيام الأربعة أُسِّسَ مسجدُها . وكان آخر الأيام الأربعة يوم الجمعة ، وفيه سار ومعه أبو بكر وعلى بن أبي طالب حتى دخل المَدِينَة وأهلها في انتظاره يتحرقون شوقًا لمشاهدته . وهناك في المسجد الذي يبطن وادي رانُوَاء أقبل عليه مسلمو يثرب وكلهم الإيمان والمحبة الصادقة . وصلى الجمعة معهم ، واعتذر لمن عرض عليه منهم أن يقيم عندهم في العَدَد والعُدَّة والمنسَعَة ، وامتنى ناقته القِصواء وأتى لها حِطامها وتركها تسير وأهل المَدِينَة من حولها في حفل حافل . فلما كانت عند مَرَبْد سهل وسَهيل ابني عمرو بركت ، فقال رسول الله : « هذا إن شاء الله المنزل » . وتلا : « اللَّهُمَّ أَنْزِلْنَا مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » ؛ وسأل عن المرید فأجابهُ مُعَاذ بن عَفْرَاء أنه ليتيمين في رعايته ، وأنه سيرضيهما ، ورجاه أن يتخذهُ مسجدًا ، وقبل محمد على أن يدفع ثمنه . وأقام أثناء بناء المسجد في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، وشارك أصحابه في بناء المسجد وعمل فيه بيديه . وبني المسجد يومئذ فناء فسيحًا ؛ جدرانهُ الأربعة من الآجُرِّ والتراب ؛ وسقف جزء منه بالجريد ، وترك الجزء الآخر مكشوفًا ، وخصَّصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لا يملكون مسكنًا .

وقد أورد السمهودي في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » روايات لا تختلف عن هذه ولكنها تزيدها وضوحًا وتفصيلًا . فقد أحاط المسلمون بالناقة في مسيرها حتى وقفت أمام المرید ، وكان يومئذ يصلي فيه جماعة من المسلمين . وكان أبو أمامة سعد بن زرارة ذا أصرة قُرْبى بالتيمين وكانا في حجره ، وكان قد اتخذ بعض هذا المرید واتخذ أرضًا له متصلة به مسجدًا في منزل الوحي

واتخذ عليه عريشاً . وقد أقام النبي اثني عشر يوماً بعد وصوله إلى المدينة وإقامته بدار أبي أيوب يصلي فيه . ثم إنه سأل سعداً أن يبيعه أرضاً تجاور ذلك المسجد مملوكة لليتيمين سهل وسهيل ليزيد فيه حتى يتسع للمسلمين حين صلاتهم . وكان هذا المرید للتمر يجفف فيه وكان به نخل وغُرْفَد وقبور للجاهلية . فأمر الرسول بالنخل والغرقد فقطعت ، وبالقبور فنُسِبت ، وبعضامها فغيّبت . وكان به ماء فسيّره فذهب . فلما تم ذلك بدأ بناء كأبسط ما يكون البناء باللّبن وسقّفه بالجرید ، وجعل عمّده من خشب النخل .

وذكروا أن محمداً لما قدم المدينة قال : « ابنوا لي عريشاً كعريش موسى ثمامات وخشبات ، وظلّة كظلّة موسى والأمر أعجل من ذلك » . قيل : وما ظلّة موسى ؟ قال : « كان إذا قام أصاب رأسه السقف » .

وبدعوا بينون المسجد والرسول بيني معهم ينقل اللّبن والبنّاءون بينون . لقيه رجل وهو يحمل لبنةً فأراد أن يخفف عنه بأن يحملها وقال أعطينيها ؛ فأجابته : « اذهب فخذ غيرها فلست بأفقر إلى الله مني » . وجاء رجل من حضرموتَ يحسن عجن الطين فنحى رسول الله غيره عن هذا العمل وقال للرجل : « الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه ، ورحم الله امرأً أحسن صنعته » . ولما رأى كبار الصحابة إقبال رسول الله على العمل أقبلوا عليه جميعاً ولم يكن لأغنيائهم قبل ذلك بهذا عهد . وكان عليّ بن أبي طالب يعمل ويرتجز :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدّأبُ فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن العُبارِ حائدا

وكان عثمان بن عفان على واسع ثروته وعظيم جاهه ، وعلى أنه كان رجلاً نظيفاً منظفماً ، يحمل اللبنة فيجافي بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفص كُمّه وما يكون قد أصاب ثوبه من التراب . وكان سائر المسلمين يعملون ويرتجزون :

لئن قعدنا والنبي يعملُ ذاك إذا للعملِ المُضللِ

وسرعان ما تم بناء المسجد ؛ فقد كان بسيطاً ، جُدره من اللبن ، وسقفه من الجريد ، وعمده من خشب النخل . وقيل إنهم صنعوا من النخل قبلة له إلى ناحية المسجد الأقصى ، وبقيت كذلك حتى عُدل بها إلى ناحية الكعبة . وكان هذا المسجد الأول كافياً على بساطته للغاية التي قصد إليها من بنائه . فقد كان الإسلام كما دعا إليه الرسول دين قوة على الحياة وزهد فيها مع السعي للرزق وحبى ثمراته لكيلا ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا . وكان المسلمون يومئذ يدركون هذه المعاني إدراكاً دقيقاً أن كان لهم في رسول الله أسوة حسنة . وأين يكون الزهد في الحياة الدنيا وزخرفها إذا لم يكن في مساجد الله ودور عبادته ! وكيف يقتل المرء غرور النفس إذا لم يشعر ساعة وقوفه مصلياً بين يدي ربه أنه يتصل بخلق الله لا حائل بينه وبينه ؛ تشرق الشمس ويصفو الهواء ، فينعم من هذا ومن ذاك بفضل الله ، ويقصف الرعد ويهتن المطر ، فيحتمل هذا وذاك ساعة عبادته صابراً شاكراً . لهذا لم يكن في مسجد النبي شيء من الزخرف ، ولم يكن فيه وقاية من قسوة الجو وانهباء السيل . وكثيراً ما هتنت السماء والنبي يصلي في المسجد والمسلمون من ورائه ، فلم يصددهم هتنتها ولا صددهم ما بالمسجد من طين عن صلاتهم ؛ بل لقد روى صلى الله عليه وسلم وبه من طين المسجد أثر كان يسرع بعد الصلاة إلى إزالته وتنظيفه .

وبقي المسجد على هذه الحال وجدراناه من اللبن وسقفه من الجريد وأكثره غير مسقف وعمده من جذوع النخل ست سنوات تباعاً ، لم يغير منه ما كان من انتشار الإسلام ولا غير منه ازدياد الرخاء بالمدينة وما أفاء الله على أهلها من بسطة الرزق . فلما غزا المسلمون خيبر في السنة السابعة للهجرة وفتحها الله عليهم كانت المدينة قد أصبحت خالصة للمسلمين وكان أهلها قد ازداد عددهم بمن سكنها ممن هداهم الله للإسلام ، فلم يكن من توسيع رقعة المسجد بد . عند ذلك زاد النبي في مساحته مائة متر مربع . فقد كان إلى يومئذ خمسين وثلاثين متراً في ثلاثين . فجعله النبي مربعاً . وفي رواية أنه جعله خمسين متراً في

خمسين . لكنه لم يفعل أكثر من ذلك ولم يغيّر من عمارته باللبن والحديد وجذوع النخل شيئاً . وهذا المنبر الذي صار من بعد آية في الفن وإتقانه على ما رأيت ، والذي يسمى منبر رسول الله لم يفكر النبي حين وسّع المسجد في تغييره ولا في زخرفته . وما حاجته صلى الله عليه وسلم إلى هذا الزخرف المادى وكل دعوته إلى كمال الروح وسموها ودأبها للقرى من بارئها ! وهو لم يتخذ لنفسه منبراً أول الأمر ؛ وما كان ليتخذها لولا أنه شعر بالحاجة إليه . فقد كان يخطب الناس إلى جذع في المسجد حتى شعر بأن القيام قد شق عليه . فلما عرف أصحابه ذلك منه ، قال تميم الدارى : أنا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام . وقال العباس بن عبد المطلب : إن لى غلاماً يقال له كلاب أعمل الناس . قال النبي : مره يعمل . فأرسله العباس إلى أثلة بالغابة فقطعها ثم عملها درجتين ومجلساً .

وقد جعل النبي للمسجد حين بناه ثلاثة أبواب : باب بالجهة الغربية دعى باب عاتكة وهو باب الرحمة الآن ، وباب بالجهة الشرقية دعى باب آل عثمان وهو باب جبريل الآن ، وباب بالجهة الجنوبية بقى سبعة عشر شهراً حين كانت قبلة المسجد في جداره الشمالى لتواجه المسجد الأقصى ؛ فلما تحولت القبلة إلى الكعبة سدّ الباب الجنوبى ووضعت القبلة مكانه ، وفتح في الجدار الشمالى باب مكان القبلة الأولى .

وبنى بناء المسجد على ذلك حتى اختار النبي الرفيق الأعلى . ولم يحدث في خلافة أبى بكر إلا ما روى من أن سوارى المسجد نخرت فبناها . فلما كان عهد عمر بن الخطاب واطّردت الزيادة في عدد المسلمين لم يكن من توسيع المسجد كرة أخرى بدت . ولقد كان الشعور بضرورة الزيادة واضحاً منذ دانت للإسلام بلاد العرب كلها في عهد الرسول ، حتى لكان يقول : « ينبغي أن نزيد في المسجد » . ولقد اعتمد عمر إلى هذا الحديث حين استقر عزمه على الزيادة فكان يقول : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ينبغي أن نزيد في مسجدنا » ما زدت .

ودعا عمر كل من كان له إلى جوار المسجد دار فقال لهم : اختاروا منى بين ثلاث خصال : إما البيع فأتمن ، وإما الهدية فأشكر ، وإما الصدقة على مسجد رسول الله ؛ فأجاب الناس . وكان للعباس بن عبد المطلب دار عن يمين المسجد ، فلما خيّر عمر بين هذه الخصال الثلاث رفض أن يجيبه إلى شيء منها . قال عمر : إذا أهدمها . قال العباس : مالك ذلك . فاحتكما إلى أبيّ بن كعب وانطلقا إليه فقصا عليه القصة ؛ فقال لهما : إن شئما حدثتكما بحديث عن رسول الله ، وذكر أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله أوحى إلى داود أن ابن لى بيتاً أذكر فيه فخطّ داود خُطّة بيت المقدس ، فإذا تربيعها بيت رجل من بنى إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياها فأبى ، فحدثت داود نفسه أن يأخذها ؛ فأوحى الله إليه أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتاً أذكر فيه فأردت أن تدخل فى بيتى الغضب وليس من شأنى الغضب . إن عقوبتك ألا تنبيه . قال : يا رب فىن ولدى ؟ قال : فىن ولدك ، وبناه سليمان بن داود . فلما سمع عمر حديث أبيّ أخذ بمجامعه وسار به حتى دخل المسجد فوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله فناشد أبيّ الحاضرين أن يذكر منهم من سمع هذا الحديث فشهد بعضهم أنه سمعه ، فأرسل عمر أبيّاً ؛ فالتفت إليه وقال : يا عمر ! أتتهمنى على حديث رسول الله ! قال عمر : والله يا أبا المنذر ما اتهمتك ولكنى أردت أن يكون الحديث عن رسول الله ظاهراً . وقال للعباس : اذهب فلا أعرض لك فى دارك . قال العباس : أما إذ قلت فىنى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم فى مسجدهم ، فأما وأنت تخاضمنى فلا . وبنى له عمر داراً بدلها من بيت مال المسلمين .

بدأ عمر توسيع المسجد فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، فزاد فيه خمسة أمتار من الناحية الجنوبية ونقل القبلة إليها ، وزاد نحو ذلك من الناحية الغربية ، وزاد خمسة عشر متراً من الناحية الشمالية . ولم يزد شيئاً من الناحية الشرقية إذ كانت بها بيوت أمهات المؤمنين ، وكن ما يزلن يقمن فيها ، وفى بيت

عائشة منها كان قبرا النبي وأبي بكر . وقد دخلت دار أبي بكر في هذه الزيادة لوقوعها في ناحية المسجد الغربية . ويقال : إن هذه الدار خرجت من ملك أبي بكر في حياته حين احتاج إلى شيء يعطيه بعض من وفد عليه فباعها حفصة بنت عمر أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، وإن جزءاً منها أدخل في زيادة المسجد أيام عمر وأدخل جزء منها في زيادة عثمان .

لم يُحدث عمر حين أنشأ هذه الزيادة في عمارة المسجد أكثر من أنه زاد في رقعته وزاد في عدد أبوابه . فقد بنى الجدر كما بناها رسول الله من قبله . جعل الأساس من الحجارة ، وما فوقه من اللبن ، والعمد من الخشب ، والسقف من الجريد ، وجعل للمسجد ستة أبواب : اثنين منها في الجهة الغربية يحاذيان باب الرحمة وباب السلام الحاليين ، واثنين في الجهة الشرقية يحاذيان باب جبريل وباب النساء ، وبابين في الجهة الشمالية غُيِّرا من بعد في الزيادات التي حدثت .

لم يكن بناء عمر المسجد على هذا النحو حرصاً منه على احتذاء سنة الرسول في العمارة وكفى ، بل كان كذلك لأن الفكرة في فن العمارة عند هؤلاء العرب الصميمين كانت مستمدة من الحاجة أكثر مما كانت مستمدة من المتانة أو الزخرف . وحاجة هؤلاء المسلمين الأولين كانت إلى سعة المسجد كفى يجمعهم للصلاة ؛ فلم يكن يدور بخلد عمر أمر وراء ذلك . هذا ، ثم إن الصلاة عندهم كانت توجَّهًا خالصًا إلى الله يطهر الإنسان له بالوضوء ويأخذ زينته عند كل مسجد ، من غير أن يجعل منه وسيلة تأنق أو سبيلا إلى فخر أو كبرياء . لذلك لم يكن الزخرف معروفاً في العمارة العربية قبل الإسلام ولا في الصدر الأول منه . كان بناء الكعبة قبل عهد النبي وقبل بعثه أبسط صورة للبناء ؛ وكان مسجد النبي بالمدينة كما كانت مساكنه ومساكن المسلمين جامعة إلى النظافة التقشّف ، وإلى الطهر الرغبة عن الحياة الدنيا وباطل غرورها . فإذا كان الفتح الإسلامي قد امتد في عهد عمر وكانت غنائم المسلمين قد ملأت

بيت المال بما سهل معه بناء بيت للعبادة له من الفخامة ما لكنائس الشام في ذلك العهد ، فما كان الذهن العربي ليتّجه يوم ذلك إلى هذه الناحية ، ولا كان عمر يبني المسجد إلا في هذه الصورة البسيطة البالغة في تقشّفها والتي جعلها الرسول رمز المودة الجامع للمسلمين في تحابهم بنور الله بينهم حين قيامهم وركوعهم وسجودهم في حضرة ذى الجلال والإكرام .

على أن تطوراً حدث يومئذ لا ينبغي أن نُغفله . ذلك أن عمر اتخذ مكاناً إلى جانب المسجد يدعى البُطَيْحَاء وقال : « من أراد أن يلغظ أو يرفع صوتاً أو يُنشد شعراً فليخرج إليه » . وسبب ذلك أن عمر سمع ناساً من التجار يذكرّون تجارتهم والدنيا في المسجد فقال لهم : « إنا بنينا هذه المساجد لذكر الله . فإذا ذكرتم تجارتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع » . وسمع عمر رجلاً يرفع الصوت في المسجد فقال له مغضباً : أتدري أين أنت ؟ ! كأنه كره الصوت . وتلاحى رجلان في المسجد فقال عمر : أتى مسجد رسول الله تقولان الهُجر وما لا يصح من القول . . وبينما هو في المسجد عشاء إذ سمع رجلاً يضحك ، فأرسل إليه فقال : من أنت ؟ قال : رجل من ثقيف من أهل الطائف . فتوعّده قائلاً : لو كنت من أهل البلد لنكّلت بك ! إن مسجدنا هذا لا ترفع فيه الأصوات . ومرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد في المسجد فلحظ إليه ؛ فقال حسان : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك . فانصرف عمر وقد عرف أنه يريد النبي . وكان ما قال حسان حقاً . روت عائشة أن رسول الله كان ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه فيهجو الكفار . وذلك أن رسول الله حين نهى عن تناشد الأشعار في المساجد لم ينه عمّا لا يشغل من فيها مما يتصل بالإسلام ويزيد الشعور به قوة . وفي المسجد أنشد كعب بن زهير رسول الله قصيدته :  
« بانت سعاد » .

هذا التطور الذي أدى بعمر ليأمر من أراد أن يلغظ أو يرفع صوتاً أو ينشد شعراً أن يخرج من المسجد إلى البطحاء يتفق مع روح الإسلام ونص الكتاب وتعاليم الرسول . فإن يكن قد حدث في عهد الرسول تجاوزاً بإنشاد الشعر ،

فلم يكن ذلك للإباحة وإطلاقها ، وإنما كان استثناء في أحوال بذاتها . فكعب  
 إنما أنشد « بانت سعاد » يوم جاء مستجيراً بالنبي يعلن إليه إسلامه . وهجاء  
 حسان الكفار بقصائده نوع من الجهاد في سبيل الله جازئ في المساجد . والمسلمون  
 في عهد النبي كانوا يتحدثون في غزواتهم وفي شئون خصوصهم حين وجودهم  
 بالمسجد فلا يعترض عليهم أحد ، لأنهم يتحدثون في شئونهم العامة . فلما  
 كثر عددهم تجاوزوا الشئون العامة ، وأراد بعضهم أن يتخذ المسجد مجلساً  
 لأحاديثهم الخاصة في تجارتهم وشؤون دنياهم : وخشية عمر أن يغلب الحديث  
 في هذه الشئون الخاصة هي السبب في أنه أمر من شاء أن يلغظ أو يتحدث  
 في شؤنه الخاصة بالخروج إلى البطحاء .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين من الهجرة  
 كلمه الناس أن يزيد في مسجدهم وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة ، فشاؤروا  
 أهل الرأي من الصحابة في ذلك ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه . ولم  
 يكن لإحساس الناس بضرورة الزيادة في المسجد عجبياً بعد أن امتد الفتح  
 الإسلامي وازداد سكان المدينة بامتداده زيادة عظيمة . وصعد عثمان المنبر  
 يوماً بعد أن صلى الظهر بالناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيها الناس  
 إنى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه . وأشهد  
 لقد سمعت رسول الله يقول : ( من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة ) . وقد  
 كان لي فيه سلف وإمام سبقني وتقدمني عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه  
 وبناه . وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله فأجمعوا على هدمه  
 وبنائه وتوسيعه » .

وحسن الناس يومئذ ذلك ودعوا له ؛ فراد عثمان بقدر زيادة عمر في  
 الناحية الجنوبية من المسجد ، وكذلك فعل في الناحية الغربية . أما في الناحية  
 الشمالية فكانت زيادته دون زيادة عمر ، وكانت تزيد على ما أحدثه في  
 الناحيتين الجنوبية والغربية بما يعدل قرابة الضعف من كل من هاتين الزياتين .  
 لكنه أحدث من التطور في عمارته ما لم يحدثه عمر . فهو لم يجدده باللبن ولم يجعل



عُمُدُه الخشب وسقفه الجريد أسوة برسول الله . بل بنى جدره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة (١) ، وجعل عمدته من حجارة منقورة أدخل فيها عمد الحديد وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها ؛ أما سقفه فقد جعله من الساج . وهذا تطور عظيم في العمارة العربية ، إن لم يخرج بها عن فكرة المسجد على ما صوره رسول الله فقد أحدث فيها فكرة المتانة والبقاء . وقد أنكر جماعة من المسلمين يومئذ على عثمان ما فعل من ذلك ؛ وأرادوا أن يبنوا المسجد على نحو ما بناه رسول الله ؛ فلم يحفل بقولهم .

ولم يزد عثمان في المسجد من ناحية الشرق ؛ لأن بيوت النبي كانت ما تزال قائمة ، وكان من أزواجه من لا يزلن يقمن بها وكان أقرب هذه البيوت من المسجد بيت عائشة الذي دفن به رسول الله وخليفته أبو بكر وعمر . لذلك لم تكن الحجرة النبوية في المسجد ؛ ولم يكن به موضع معين للروضة النبوية ، بل كان كله مسجد الرسول تتساوى جوانبه جميعاً في ثواب الصلاة فيه .

وبقي المسجد على ما بناه عثمان إلى سنة ثمان وثمانين من الهجرة لم يزد في نظامه وبناء عمر ، إلا المقصورة التي اتخذها عثمان ، والتي ما تزال تعرف بمحراب عثمان ؛ وكانت صغيرة من لسيين وفيها كوة ينظر الناس منها إلى الإمام . وكذلك تعاقبت عهود علي ومعاوية ويزيد بن معاوية مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والمسجد على بناء عثمان لا يفكر أحد في الزيادة فيه ولا في تغيير عمارته . وكان مرجح ذلك إلى قيام الثورات عند مقتل عثمان ، وإلى انتقاض أهل الحجاز على معاوية وخلفائه بالشام ، واستمرار الحرب لذلك بين الأمويين والعلويين ومن شايعهم من الصحابة وأهل بيت النبي ومن انضم إلى مثلهم عبد الله بن الزبير من المسلمين حين لحق بمكة وتحصن بها بعد مقتل الحسين بن علي بالعراق . فلما قتل ابن الزبير في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وتم الأمر لئبي أمية في عهد عبد الملك بن مروان انصرف تفكيرهم إلى تقوية الوحدة الامبراطورية للدولة الإسلامية بعد أن كانوا منصرفين إلى نضال

(١) القصة (بالفتح ويكسر) : الحصنة .

خصومهم ؛ حتى لقد فكر عبد الملك زمنًا في اتخاذ قبة الصخرة مثابة لحج المسلمين من أهل مصر والشام والعراق إذا بقى الأمر لابن الزبير بمكة . ومنذ انصرفوا إلى تقوية الإمبراطورية الإسلامية امتد الفتح حتى بلغ الأندلس في عهد الوليد بن عبد الملك .

لم يقض انتصار بني أمية الحاسم على اعتقاد العلويين أنهم ، وهم أهل بيت النبي ، أصحاب الحق في الخلافة . ومتى قضى ظفر ملك بخصومه على إيمان المغلوبين بحقهم ! ومتى قضى ظفر نظام بنظام على رجاء المغلوبين في أن يكون الظفر لهم من بعد ! إن انتصار الجمهورية في فرنسا لم يقض إلى اليوم على أنصار الملوكية فيها ، ولم ينزع الرجاء من نفوسهم أن ينتصر اعتقادهم بحقهم على باطل غيرهم . والظافرون يعرفون هذا ويجعلون عيونهم لذلك على خصومهم لكي لا تقوم لهم قائمة . فإذا أبطروهم الظفر وغفلوا ، ثار هؤلاء الخصوم بهم وولوا الأمر مكانهم .

كان ذلك شأن بني أمية مع بني هاشم من العلويين والعباسيين . وظفروا بهم ، فلم تنسهم نشوة الظفر أنهم خصومهم لأنهم يترىصون بهم الدوائر . كان أبناء فاطمة ابنة رسول الله وحفدتها يقيمون في بيت جدتهم إلى جوار المسجد النبوي ، وذلك بعد مقتل الحسين ، وبعد أن استقر الأمر لبني أمية . وكان الوليد بن عبد الملك قد استعمل عمر بن عبد العزيز على المدينة . وقدم الوليد حاججًا بعد ولايته أمر المؤمنين ، فزار المدينة . وفيها هو يخطب الناس يومًا على قبر رسول الله حانت منه التفاتة إلى ناحية بيت فاطمة ، فإذا بحسن بن حسن بن علي ابن أبي طالب في يده مرآة ينظر فيها . فلما نزل الوليد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز وقص عليه الأمر وقال : « لا أرى هذا قد بقي بعد . اشتر هذه المواضع وأدخِل بيت النبي في المسجد واسدُدْه » . روى أن حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين وولدهما أبوا أن يخرجوا من البيت حين علموا بأمر الوليد ؛ فأرسل إليهم إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم . فلما أصروا على إباتهم أمر بهدمه عليهم وفيه حسن وفاطمة وولدهما ، ونزع العمال البيت وهم فيه وهددوهم

قائلين : « إن لم تخرجوا قوضناه عليكم » ، فخرجوا ونفذ عمر بن عبد العزيز أمر الوليد بضم بيوت النبي إلى المسجد .

وفي رواية أن الوليد كان يبعث كل عام رجلاً إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها . فقال له الرجل يوماً : « لقد رأيت أمراً لا والله مالك معه سلطان ولا رأيت مثله قط » . قال الوليد : ما هو ؟ قال : « كنت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا منزل عليه كِلَّةٌ ؛ فلما أقيمت الصلاة رفعت الكِلَّةُ وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ؛ ثم أرخيت الكِلَّةُ وأتى بالغداء فتغدى هو وأصحابه . فلما أقيمت الصلاة فعل مثل ذلك ، وإذا هو يأخذ المرأة والكحل وأنا أنظر . فسألت فقيل . إن هذا حسن بن حسن » . وقال الوليد : « ويحك ! فما أصنع ؟ هو بيته وبيت أمه فما الحيلة في ذلك ؟ » . قال : « تزيد في المسجد وتدخل هذا البيت فيه » . فكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة في المسجد وشراء هذا البيت وإدخاله فيه . وأبى حسن ابن حسن أن يأخذ الثمن ؛ فكتب عمر إلى الوليد في ذلك ؛ فأمر بهدم البيت ، وهدم و طرح الثمن في بيت المال ؛ فانتقل حسن وانتقلت فاطمة بنت الحسين إلى دار بالحيرة فابتنتها .

قرر الوليد بن عبد الملك أن يزيد في المسجد وأن يدخل هذا البيت فيه . لكنه بعد أن فكر في الأمر ملياً رأى أن يدخل فيه بيوت النبي جميعاً . وكانت هذه البيوت ممتدة من شرق المسجد حيث الحجرة النبوية ، متجهة نحو الشمال إلى موضع ليس تعيينه اليوم بالأمر اليسير ؛ وكانت موضع رعاية كبرى من المسلمين في ذلك العهد . ومنذ خلت كلها من ساكنيها بعد أن اختار الله عائشة أم المؤمنين كان الناس يهرعون لصلاة الجمعة فيها مؤتمنين بإمام المسجد ، ثم يحيطونها فيما وراء ذلك برعايتهم على اعتبار أنها الآثار التاريخية الباقية للنبي الكريم وحياته في المدينة . لذلك حزنوا أشد الحزن حين علموا بأمر هدمها . روى عن نصار الخراساني قوله : « أدركت حجرات النبي صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن

عبد الملك يُقرأ ويأمر بإدخال حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ،  
فما رأيت يوماً كان أكثر باكيةً من ذلك اليوم . وسمعنا سعيد بن المسيب  
يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها . « . ولعل منهم من فطن إلى أن  
الوليد أمر بهدم حجرة فاطمة غضباً على أبنائها ، ثم أمر بهدم سائر الحجرات  
حتى لا يُتَّهم بأنه هدم حجرة فاطمة انتقاماً من أبناء عليّ بغياً بغير حق  
متخذاً من توسيع المسجد حُجة له . فقد سبقه عثمان وعمر إلى توسيعه فتركا  
حجرات أمهات المؤمنين لم يمساها وزادا في المسجد من سائر نواحيه .

كيف يقيم الوليد المسجد : هل يكتفى بالزيادة في نواحيه الشرقية والشمالية  
والغربية ، فقد بقيت الناحية الجنوبية لم تمسها زيادة من بعد عثمان ؛ أم يهدمه  
ويعيد بناءه ؟ لقد شاده عثمان بناءً متيناً قوياً على الزمن ، ولم يكن قد مضى  
على ذلك ستون سنة . لكن الوليد كان بالشام ، وكان له في العمارة وزخرفها  
رأي غير رأي العرب . لم يكن رأيه في العمارة منتزِعاً من فكرة الحاجة كما كان  
عند العرب يوم بنى النبي المسجد ، بل كانت العمارة عنده فناً جميلاً مداره  
رضا النفس من طريق الحس والسمو بها في درجات هذا الرضا إلى حسن المتاع  
بالحياة . وقد تأثر الوليد كما تأثر أسلافه الذين أقاموا بالشام بما رأوا من الآثار  
المسيحية التي أقيمت على طراز ما سبقها من الآثار الوثنية إذ تأتق مقيموها في  
تجميلها لإرضاء لآلهتهم وتقرباً بها إليهم . وكان من أثر ذلك أن أقام عبد الملك  
ابن مروان قُبَّة الصخرة ببيت المقدس على نحو من البراعة في الفن المعماري  
عنت له كثير من الكنائس البارعة ، وذلك بعد أن رصد لعمارتها خراج مصر  
سبع سنين . أما والأمر كذلك فلا بد للوليد من هدم المسجد النبوي وإعادة  
بنائه متأثراً بالفكرة الفنية التي ملكت نفسه وكانت ذات سلطان عظيم عليها .

ولم يكن في بلاد العرب ، ولا كان بين رجال المعماريين المسلمين ، من يكتفى  
لإرضاء هوى الوليد وذوقه الفني في عمارة المسجد . لذلك كتب إلى ملك الروم  
يقول له : « إنا نريد أن نعلم مسجد نبينا الأعظم ، فأعينا فيه بعمال وفسيفساء » .  
وبعث ملك الروم بأحمال من فسيفساء وعمال اختلِف في عددهم ، فقيل

عشرة وقيل أربعون من الروم وأربعون من القبط ، وبأحمال من سلاسل  
القناديل ، ويقدر كبير من الذهب ، ذهب قوم إلى أنه ثمانون ألف دينار ،  
وذهب آخرون إلى أنه ألف مثقال .

وهدم عمر بن عبد العزيز المسجد في سنة ثمان وثمانين أو في سنة إحدى  
وتسعين على اختلاف في الرواية ، ثم أدخل فيه حجرات أزواج النبي وبني له  
أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء ، وكسا سقفه  
بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر ، فلما صار إلى جدار القبلة دعا مشيخة  
من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالي وقال لهم : « تعالوا احضروا  
بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غير عمر قبلتنا » . وجعل لا ينزع حجراً إلا وضع  
مكانه حجراً . وقد بالغ عمر في تجميل المسجد وعنى بذلك حتى كان العامل  
إذا عمل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء فأحسن عملها نقله عمر ثلاثين درهما ، ولما  
تم بناء المسجد جاء الوليد وجعل يدور في المسجد مغتبطاً معجباً ويبدى لعمر  
ما يعن له من الملاحظات . وكان عمر قد عنى بسقف المقصورة النبوية عناية  
جعلته بدعاً في الفن . فلما رآه الوليد قال لعمر : ألا عملت السقف كله مثل  
هذا ! قال عمر : إذاً يا أمير المؤمنين تعظم النفقة جداً — وكانت نفقة هذا  
السقف أربعين ألف دينار — قال الوليد : وإن . ولم يكن ما قاله الوليد من  
ذلك عجباً بعد الذي زخرف عمر به المسجد في هذه العمارة من المحراب  
والشرفات والمنابر مما لم يكن للعرب به عهد ، وإنما كان اقتباساً مما في الكنائس  
أتمه العمال العرب بوحى ما رأوا في الشام ، وعاونهم العمال الروم والقبط  
على إتقانه .

وكان أبان بن عثمان يطوف بالمسجد مع الوليد . فلما استنفد الوليد النظر  
إلى المسجد واطمأنت نفسه إلى عمارته نظر إلى أبان وقال : « أين بناؤنا من  
بنائكم ! » فكان جواب أبان : « إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء  
الكنائس » .

هذه الكلمة التي قالها أبان عميقة المغزى لمن ينعم الروية فيها ؛ فهي تصور

تطوراً في العمارة العربية يقابله تطور من نوعه في التفكير الإسلامي . انتقلت العمارة في بناء الوليد المسجد من طرازها البسيط الذي أوحته الحياة العربية في بساطتها وقوة اتصالها بالطبيعة ، وأوحته الفكرة الإسلامية في دعوتها إلى الصلة المباشرة بين المرء وخالقه على أساس من الإيمان الذاتي وتحابُّ المؤمنين بنور الله بينهم ، إلى هذا الطراز المركب المليء بالزخرف ركز الإنسان فيه صورة من جمال الطبيعة انتزعها خياله من كل ما يحس ويرى من مظاهر هذا الجمال ، ثم تقرب بها إلى الآلهة في العهود الوثنية لإرضاء لهم بجلالها واتقاء غضبهم بجمالها . وقد أراد رجال الكنيسة المسيحية أن تقرب هيبة هذا الفن من النفوس صورة المعجزة التي تقوم المسيحية على أساسها . أما الإسلام فكان في صفاته بريئاً من هذه المظاهر ؛ فكان المسجد في بساطته صورة لبساطة الإسلام وقوته . وإنما كان هذا التطور مظهرًا لتأثر المسلمين بالتفكير الكنسي الذي أحاط بهم في الشام والذي تسرع النفس الإنسانية إلى مثله حين لا تجد سنداً من الإيمان بالله يعصمها من الضعف لسلطان الطبيعة . فالنفس الإنسانية محتاجة في سداحتها إلى مظاهر قريبة منها يدركها الحس وترى فيها صور الكون والحياة مجتمعين . وهي لا تستطيع السمو إلى الحقيقة المجردة التي تمثل هذا المعنى ، ولا تستطيع امتثالها في كل صفاتها ، ما لم تكن لها في ذلك أسوة كما كان للمسلمين الأولين في رسول الله أسوة ، أو تبلغ من المعرفة التي تؤهلها للاتصال بالكون حظاً عظيماً ، أما وقد انتهى عهد الأسوة واتصل المسلمون بجيرانهم من أهل الحضارات الأخرى ، فكان من الطبيعي أن يتأثروا بما اتصلوا به ، وأن يشغلوا عن تمحيصه بالمنازعات السياسية والثورات التي فرقت كلمتهم من عهد عثمان بعد أن مهدت لها أسباب سبقتها طوعت للإسرائيليات وغير الإسرائيليات أن تندس إلى الإسلام وأن تشوب صفاءه .

بقى المسجد بعد زيادة الوليد على حاله إلى أن غلب العباسيون الأمويين على الملك وقاموا مقامهم في الخلافة . إذ ذاك فكر ثاني خلفائهم أبو جعفر المنصور في أن يكون له من فضل الزيادة في المسجد ما كان للأمويين . ودار

يومئذ بأخلاق قوم أن يأخذ العباسيون بالثأر من بنى أمية فيهدموا دار عثمان ويدخلوها في المسجد ، كما هدم الوليد حجرات أمهات المؤمنين وأدخلها في المسجد . من أجل ذلك كتب الحسن بن زيد إلى المنصور ينصح له أن يزيد في رقعة المسجد وأن يجعل القبر النبوي في وسطه ، وبذلك تدخل دار عثمان في المسجد لجوارقتها للحجرة . لكن المنصور لم يقبل هذا الرأي وكتب إلى الحسن بن زيد يقول : « إني قد عرفت الذي أردت ؛ فاكفُفْ عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان » . وتوفى أبو جعفر ولم يزد في المسجد شيئاً . ولا خلفه ابنه المهدي على الملك حجّ سنة ستين ومائة للهجرة ، وقدم المدينة منصرفه عن الحج ، فاستعمل عليها جعفر بن سليمان ، وأمره بالزيادة في المسجد . ولم يزد جعفر في نواحي المسجد من الجنوب والغرب والشرق شيئاً ، وحصر الزيادة في ناحيته الشمالية حيث صحنه المعروف بالحصوة . وكانت الزيادة في هذه الناحية فسيحة بلغت نحو الثلث من مساحة المسجد كله ، وأحيطت بأروقة من العمد والقباب من طراز ما صنع الوليد . فأما ما خلا هذه الزيادة فقد اقتصر عامل المهدي على التعمير والتجميل ، متخذاً طراز الوليد إمامه ، متأثراً في الفن بفكرة كفكرته .

واستقرت رقعة المسجد على زيادة المهدي من بعد ؛ لكن بناءه أعيد غير مرة بعد ذلك ، واستمر التعمير فيه إلى يومنا هذا . فقد احترق كله أول شهر رمضان من سنة ٦٥٤ للهجرة ، إذ ترك موقد المصابيح مشتعلاً في مخازن المسجد فامتدت النار منه إلى ما حوله وتعلقت بحصر وبسط وأقفاص وقصب كان في المخزن . ثم امتد اللهب إلى سقف المسجد وسرى منه إلى المسجد كله ، فلم يبق منه على خشبة واحدة كاملة . ونزل أمير المدينة واجتمع معه معظم أهلها فلم يقدروا على مقاومة الحريق ، وأكلت النار جميع ما احتوى عليه المسجد من المنبر النبوي والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير وما اشتملت عليه من كتب ، وامتدت إلى كسوة الحجرة . وقد عزا القطب القسطلاني هذا الحريق إلى أن الزخارف التي بالمسجد لم ترضه صلى الله عليه وسلم ، وإلى أن القلوب

أحلت المساجد الثلاثة : الحرام والأقصى والنبوي ، منها فوق قدرها ، ونسيت أن عظمته تعالى فوق الجميع ، وأنه الواحد القهار ، فوقع الحريق في الكعبة وبيت المقدس قديماً ، ووقع هذا الحريق في المسجد النبوي . وقيل في هذا المعنى شعر وجد منه بعد الحريق بيتان على جدران المسجد هما :

لم يحترق حرّم النبيّ لربيّة      تُخشى عليه وما دهاه العار  
لكنّها أيدي الروافض لامست      تلك الرسومَ فطهرتها النار

ولم يسلم من هذا الحريق سوى قبة كانت أقيمت بصحن المسجد في القرن السادس الهجري لحفظ ذخائر الحرم من مثل المصحف العثماني وبعض صناديق أودعتها هذه الذخائر . أما عمدة المسجد فبقيت قائمة كأنها جذوع النخل تمايل إذا هبت الرياح . وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ، ووقع السقف الذي كان بأعلى الحجرة على سقف بيت النبي فوقها جميعاً في الحجرة وعلى القبور التي بها . وكتب بذلك إلى الخليفة المستعصم وهو ببغداد فأرسل الآلات مع الصناع من العراق ولم يبد رأياً فيما يصنعون . فقد كان منصرفاً إلى صد التتار عن بغداد بعد أن استولوا على أعمالها ؛ لذلك اضطرب الصناع وأهل المدينة واختلّفوا ما يصنعون بالحجرة ، وهل يدرون بها ما سقط فيها أم يرفعونه جميعاً حتى يبلغوا سطح الأرض إلى التراب الذي فوق القبر . وقد انتهوا إلى ترك ما سقط ولم يزيلوه مهابة لساكن الحجرة عليه الصلاة والسلام . يقول السمهودي : إنه كان يرى « أن الواجب في سلوك الأدب مع هذا النبي العظيم والقيام بما وجب على الأمة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقسمه من حجراته الشريفة » . فلما حضر العمارة الثانية للمسجد شاهد بين الجدارين في الفضاء الذي خلف الحجرة أمراً مهولاً من الهدم نحو القامة ، فعلم أن القوم لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تنأى إلا بانتهاك الحرمه فتوقفوا عنه ومدوا سقفاً فوقه على رموس السوارى التي حول الحجرة .

لم تكن بغداد ولا كان المستعصم شراً مكاناً من سائر أنحاء الدولة الإسلامية والقائمين عليها في ذلك العصر ؛ فقد انتشر فيها الاضطراب واستولى



عليها القلق ، فلم تبد أي منها في عمارة المسجد رأياً ، وإن بعث أكرها من مواد العمارة ما أرضى به هوى عقيدته . وصلت الآلات من مصر بأمر المتولى عليها الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز عز الدين أيك الصالحى ، ووصلت الآلات والأخشاب كذلك من صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن منصور ، وجعل أهل المدينة والعمال فيها يقومون من العمارة بما يستطيعون القيام به ولا يلبثون إذ يتقدمون فيها حتى تبلغهم الأنباء بقتل هذا أو هزيمة ذلك من ملوك المسلمين وأمرائهم . استولى التتار على بغداد وقتلوا المستعصم ، ثم عزل صاحب مصر وقام فيها مملوك ابن الملك المظفر سيف الدين قُطُزُ المُعْزِي ، وقتل هذا فيما دون السنة من ولايته . وكان لهذه الأحداث أثر واضح في عمارة المسجد ، فكانت تتقدم حيناً ، وتسير دائماً على غير خطة مرسومة . فلما تولى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى أمر مصر بعد ست سنوات من الحريق جهّز الأخشاب والحديد والرصاص وجهاز الصناعات وما يمونهاهم وأرسلهم بذلك كله إلى المدينة وصار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات حتى أتموا المسجد كما كان قبل الحريق .

لم يزل المسجد على ذلك حتى جدد سقفه في سنتي خمس وسبعمائة وست وسبعمائة بأمر ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون الصالحى ، ثم زيد في السقف بأمره في سنة تسع وعشرين وسبعمائة . وقد أصلح الملك الأشرف برسبى هذه الزيادة في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة حين طرأ الخلل عليها ، كما جدد الظاهر جفتمق بعض سقّف أخرى في سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . وفي سنة تسع وسبعين وثمانمائة قام الملك الأشرف قايتباى بعمارة في المسجد تناولت بعض سقفه وعمده وجدرانه ومآذنه .

لم يبق من أثر هذه العمارات في وقتنا الحاضر ؛ فقد انقضت صاعقة على المثناة المسجد الرئيسية في سنة ست وثمانين وثمانمائة فلم تبق منها شيئاً ، وانتقلت النار من المثناة إلى سقف المسجد فالتهمته ، وتخطت من السقف إلى المسجد فتهدمت جدرانه وتداعت أكثر أساطينه ، واحترقت المقصورة والمنبر والكتب في منزل الوحي

والمصاحف . ولم يسلم من الحريق إلا الحجرة والقبة التي بالصحن . لكن ما بقي من أنباء هذه العمارات يشهد بأن التطور الذي بدأ من عهد الوليد بن عبد الملك استمر مطرداً في العمارة ، وأكثر اطراداً في التفكير . لم تكن للحجرة النبوية قبة قبل القرن السابع ، فأقامها المنصور قلاوون سنة ثمان وسبعين وسمائه . ولم يكن ما بين الحجرة والمنبر النبوي يمتاز في عمارته عن سائر المسجد ؛ فلما حدث الحريق في هذا القرن السابع ، وأعيدت عمارة المسجد بعده ، بدأ هذا الجزء من المسجد ، وهو الروضة ، يلقى من العناية حظاً تزايد على الزمان . وبعد أن كانت الحصومات السياسية بين الأمويين والعباسيين ذات أثر ظاهر في تعديل رقعة المسجد والزيادة فيها ، انصرف التفكير في عمارة المسجد عن السياسة إلى ناحية أخرى يقصد منها إلى المثوبة والزلي وإلى تصفيد التفكير الإسلامي على الإيمان بهذه المثوبة وهذه الزلي من غير تمحيص أو اجتهاد .

وقد وقع الخلاف على ما حدث من هذا : أهو يتفق مع روح الإسلام ؟ وبلغ الخلاف من الشدة في بعض الأحيان ما اقتضى تدخل ولي الأمر لقمعه . لما بنى المنصور قلاوون القبة على القبر النبوي اختلف الناس رأياً ؛ فقال بعضهم : « قصد خيراً وحصل ثواباً » . وقال آخرون : « أساء الأدب بعلو النجارين القبر ودق الحطب » ، وتفاقم هذا الخلاف حتى جعل الوالى عقوبة على من يقول أساء الأدب . وذهب بعض أولى الرأي يومئذ إلى تحريم إقامة القبة لما رواه أبو داود في سننه عن أنس بن مالك أن رسول الله خرج فرأى قبة مشرفة أجابه أصحابه بأنها لرجل من الأنصار ، فأعرض عن الرجل مراراً حتى عرف الرجل الغضب فيه والانصراف عنه . ولما شكا إلى أصحابه إعراض رسول الله عنه وسأل عن السبب في ذلك قالوا : « خرج فرأى قبتك » ، فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض . وخرج رسول الله يوماً فلم ير القبة فسأل عنها فقال من حوله : شكا صاحبها إلينا إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها . فقال صلى الله عليه وسلم : « كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا بد منه » . وهذا الخلاف هو الذي لا يزال قائماً إلى يومنا هذا بين الوهابيين وغيرهم من سائر

المسلمين . وقد كان النصر في القرون الخمسة الهجرية الأخيرة حليف الذين يقولون بإنشاء القباب تبركاً والتماساً للمثوبة ؛ لأن هذا الرأي أدنى إلى إدراك الجمهور . ولعل النصر يظل حليف هذا الرأي لاعتبار آخر ؛ ذلك أن العمارة العربية بلغت من دقة الفن وبراعته في إقامة هذه القباب مبلغاً يدعو حماة الفن الجميل إلى نصرها من غير نظر إلى اعتبار المثوبة أو التبرك .

كان التطور الذي أشرنا إليه أكثر وضوحاً في عمارة المسجد بعد حريق الصاعقة . لما بلغ خبر هذا الحريق الملك الأشرف قايتباي بمصر وجهه الأمير سنقر الجمالي إلى المدينة ومعه أكثر من مائة صانع وما يلزم للعمارة ، فبدعوا بالثنية ووسعوا المحراب العثماني وجعلوا فوقه قبة أقاموها على رعوس الأساطين التي حوله ، وجعلوا على جدر الحجرة النبوية وفوق السقف الذي كان عليها قبة شادوا فوقها قبة أخرى أقيمت على الأساطين والدعائم التي زخرفوها ، وبنوا باب السلام بالرخام الأسود والأبيض وزخرفوه ، كما زخرفوا محراباً مجوفاً للرسول في دعامة أقاموها بين المنبر والقبر على حد مسجد الأصيلي ، وزخرفوا هذا المحراب بالرخام الملون ، وأعادوا ما سوى ذلك من بناء المسجد على صورة تأنقوا فيها غاية التأنيق ، حتى بلغ ما أنفق قايتباي على هذه العمارة نحو ستين ألفاً من الجنيهات . والله أعلم كم يعادل هذا المبلغ من نقدنا في الزمن الحاضر .

كانت مصر في الفترة التي انقضت بين حريق المسجد في القرن السابع إلى حريقه بالصاعقة في القرن التاسع هي القائمة بأمر عمارته . فلما انتقلت الخلافة إلى آل عثمان بالآستانة ودخلت بلاد العرب كما دخلت مصر في سلطانهم خلفوا مصر في القيام على المسجد وعمارته . ففي سنة ثمانين وتسعمائة من الهجرة عممه السلطان سليم الثاني وشيّد به محراباً جميلاً هو القبلة القائمة اليوم غرب المنبر النبوي . وقد وشى هذا المحراب بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب ، وكتب اسم السلطان سليم على ظاهره بخط الثلث الجميل . وفي سنة ١٢٣٢ بنى السلطان محمود القبة ثم أمر بترميمها في سنة ١٢٥٥ فرمت ودهنت باللون الأخضر . على

أن العمارة الكبرى التي قام بها سلاطين آل عثمان هي عمارة السلطان عبد الحميد . فقد كتب إليه شيخ المسجد داود باشا بأن المسجد قد انقضى على عمارته أربعة قرون لم تحدث به أثناءها عمارة هامة حتى آل كثير منه إلى التخریب . فأرسل السلطان من قبله من فحص المسجد وعرف حقيقة حاله ، ثم أمر بهدمه وعمارته . وتم ذلك بأن جعل المهندسون يهدمون جزءاً من المسجد ويقيمون مكانه ما يحل محله ، ثم يهدمون بعده جزءاً غيره ويعيدون تشييده ، حتى أتوا عمارة المسجد كله فيما بين سنة ١٢٦٥ وسنة ١٢٧٧ هـ . وقد تناولت هذه العمارة المسجد كله خلا المقصورة وما فيها وبعض الجدر المتينة البناء القوية الأساس . ولم ينفق محراب عثمان لإتقانه وحسن صنعه . أما العمدة القديمة فأبدل منها غيرها ، وأكثرها من قطعة واحدة ، وأقيمت عليها عقود من الحجر الأحمر المنحوت شيدت فوقها قباب جعلت فيها نوافذ يهبط النور خلال زجاجها الملون الحاط بشبابيك النحاس . وأعيد بناء باب السلام بناء غاية في الفخامة ، وجعلت أمامه من الداخل قبة عظيمة . أما الجدار الشمالي للمسجد فزيد فيه ما كفي لبناء مخازن ومكاتب ، وبنيت خارجه أحواض للوضوء بها صنابير . وشيدت المئذنة الحميدية على طراز بالغ غاية الروعة والإبداع . وعلى الجملة بدأت هذه العمارة كل ما سبقها حتى بلغت نفقاتها ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات الحميدية .

ومن خير الآثار التي سجلتها هذه العمارة وحافظت عليها ما كتب على جدران المسجد من سورة الفتح وقصيدة البردة وأسماء الله الحسنى وأسماء النبي عليه السلام . فلقد نفى الإسلام عنه التماثيل والصور منذ حط محمد تامليل الكعبة وما صورها فلم يكن إلى بعثها بين الفنون الجميلة سبيل ، على رغم ما رآه المسلمون منها بكنائس الشام وبزنطية . فحرب الوثنية أساس العقيدة الإسلامية ، والتماثيل والصور أقدم آثار الوثنية وأبقاها . لذلك أنشأت الحضارة الإسلامية فناً جميلاً يحل محل التماثيل والصور في التعبير عن الجمال كما بيده للنظر ، واستمدت هذا الفن من التفكير الإسلامي . لذلك كان الخط العربي

والثفنن فيه والبلوغ به غاية البراعة في الجمال مما تفرّدت به هذه الحضارة .  
ولذلك تقدم السلطان عبد المجيد إلى الخطاط العظيم عبد الله بك زهدى فقضى  
عشر سنوات في كتابة سورة الفتح وسائر ما كتب على جدران المسجد مما لا يزال  
زينة جدرانه البديعة الأخاذة بالنظر .

بقى المسجد النبوي على هذه العمارة إلى اليوم . على أن محرابيه النبوي  
والسليمانى ربما عام ١٣٣٦ كما رُمّت أرض المسجد بأمر الحكومة العربية السعودية  
الحاضرة عام ١٣٤٨ هـ . وتقوم الحكومة المصرية بتعمير المسجد في هذا العهد  
الأخير منذ عدة سنوات .

حصرنا على استقصاء الأدوار التي مرت بها عمارة المسجد لأنها تصوّر  
التطور الذى حدث في العمارة الإسلامية وفي التفكير الإسلامى . وهى أدق  
تصويراً لهذا التطور لأن المسلمين لم يبذلوا لمسجد من العناية ما بذلوا لمسجد  
المدينة ، ولم يجعلوا للمسجد الحرام بمكة إلا بعض هذه العناية . كان ذلك  
شأنهم من عهد الوليد بن عبد الملك ، وظل شأنهم في ذلك يزداد على العصور ،  
حتى صار مسجد مكة لا يُنظر في عمارته إلا لما تقضى به الضرورة ، ثم يخلع  
على مسجد المدينة من الترف الفسّى ما رأيت . فإذا ذكرت ما أشرت إليه حين  
الحديث عن مسجد مكة ومغزى التطور في عمارته في فصل « الجمعة في الحرم » ،  
تبدى لك هذا التطور الآن في مبلغ من الجسامة يلفت النظر ويستوقف الفكر  
لتدبره والنظر في أمره .

ربما وقف القارئ موقف الحيرة للذكرى « العمارة الإسلامية » بديلا من  
« العمارة العربية » حين الحديث عن المسجد النبوي . والواقع أن عمارة هذا  
المسجد لم تبق عمارة عربية بعد الوليد بن عبد الملك . فقد احتفظت العمارة  
العربية بطابع من البساطة ما يزال الإنسان يراه في الحرم المكي . أما مسجد  
المدينة فقد تعاقب عليه من ألوان العمارة ما اقتبسه المسلمون من مختلف الأنماط  
التي وجدوها في الآثار القائمة بالبلاد التي فتحوها . ولقد رأوا من هذه الأنماط  
شيئا كثيرا في الشام ومصر والروم والعراق وفارس منذ القرن الأول للهجرة ،

ثم رأوا كذلك شيئاً كثيراً في الهند وصقليةً والأندلس وحيث امتد الفتح الإسلامي على توالي العصور. من هذه الأنماط اقتبس المسلمون طرازاً ليس بالعربي المستمد من فكرة الحاجة ؛ فشيّدوا العمد وقواعدها وتيجانها على طراز لا عهد للعرب به ، وأنشأوا المحاريب المحجوفة وكانت محرمة في الإسلام ، حتى كره عبد الله بن مسعود الصلاة فيها نزولاً على قوله صلى الله عليه وسلم ؛ « اتقوا هذه المذابح » يعنى المحاريب ، وقوله : « ما تزال هذه الأمة بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح ك مذابح النصارى » ، وجعلوا زخرف المساجد وسيلة إلى المثوبة بعد أن كان كعب يقول لأسلافهم في الصدر الأول : « يكون في آخر الزمان قوم يزينون مساجدهم ويتخذون بها مذابح ك مذابح النصارى ؛ فإذا فعلوا ذلك صُب عليهم البلاء » . أما وذلك شأن هذه العمارة فلا حق في أن تسمى العمارة العربية .

ولمّا تأثر المسلمون في نمط بنائهم بما رأوا من هياكل ومعابد ؛ لأن الفكرة الإسلامية تطورت بحكم الحوادث وتقلُّبها فسارت من البساطة التجريدية الأولى إلى تركيب وتعقيد ماديين أدى إليهما الاختلاط بالروم والفرس والنظر في عقائدهما . وما أكبر الفرق بين هذا التركيب وهذا التعقيد الماديين وبين بساطة الإيمان بالله وحده إيماناً مصدره القلب والعقل . الأعمال في هذا الإيمان بالنيات ؛ ونية المؤمن فيه خير من عمله ؛ لأن النية متعلقة بالذات الإنسانية ، والعمل خاضع لأحداث الحياة وأهوائها . أما التركيب والتعقيد الماديين فيجعلان من المظاهر المادية كل شيء في حياة . قيام المرء وعوده ، ركوعه وسجوده ، لباسه ومظهره ، هذه وأمثالها من الأمور المحسوسة هي التي يقيم لها هذا التفكير من الوزن أكثر مما يقيم للنية التي صدرت عنها . ومن ثم كان البناء المزخرف أدعى إلى التقرب إلى الله في رأى ذوى التفكير المادى ، وإن أدت إليه نية الظفر بخصوم سياسيين ، كما كان شأن الوليد يوم ضم بيوت النبي إلى المسجد ، أو دفعت إليه سياسة مرماها شغل المسلمين عن التفكير والاجتهاد لخيرهم وغايتها حبسهم في حدود التفكير المادى حتى يسهل حكمهم حكم بغي واستبداد ، كما كان شأن الملوك

والسلاطين منذ بدأت في العالم الإسلامي عصور الانحلال .

أين هذا من التفكير الصريح يدعو إليه الإيمان الصادق في مسجد بسيط العمارة مثل مسجد النبي كما بناه هو ، وكما بناه عمر وعثمان ! أين هذا من تفكير خالص لله يتصل فيه الإنسان ببارئته من غير وساطة إلا إيمانه الصادق به ، وحرصه الخالص على التقرب منه بالعمل الصالح وبالتقوى ! وحدثني نفسي : أفكنت أفكر فيما تلا القارئ من هذا الفصل لو أن المسجد بقي بناؤه على نمط بناء النبي يجاور قبره ويستضيء الناس فيه بنور الوحي الذي نزل عليه ؟ وهل كنت ألتمس المغفرة لذنوبي بالكوف على مكان في المسجد أعتقده أدنى إلى مغفرة الله ذنوب عباده ؟ أم كنت أشعر بروحه الكريم يملأ المكان مهابة وجلالا وقوة ، ويمد المؤمنين من قوته بما يجعلهم يلتمسون المغفرة في العمل الصالح أكثر مما يلتمسونها في دعاء لا يعقبه عمل ؟

اللهم إني أعوذ بك من الزلل ، وأتوب إليك من الخطأ ، أنت العليم بأني إلى وجهك الكريم أقصد ، ومن حب إخواني المؤمنين حقاً أستمد رضاك وأرجو عفوك ، فاغفر لي وارحمني ولا تجعلني من القوم الخاطئين .

## المدينة الحديثة

ماذا بالمدينة غير المسجد النبوي ؟ أما الآثار المتصلة بالرسول وأهله وبالصحابة والتابعين فكثيرة نتناولها بالحديث من بعد . لكنني لم أقصد إلى هذه الآثار حين ألقيت سؤالى إلى أهل المدينة الذين أقبلوا إلى دار مُصنِّفى فى المساء ، وإنما قصدت إلى المدينة الحديثة . فماذا بها من مظاهر نشاط أهلها ؟ وماذا بها من أثر الحياة الحديثة التى يصبو شباب مكة إليها بوجودانهم ؟ قال أحدهم : « وماذا كنت ترجو أن يكون لنا من ذلك وسكان المدينة لا يزيدون على ثلاثة عشر ألفاً ! » دهشت إذ سمعت هذا الجواب . فهذا العدد من السكان متداول فى كثير من قرى مصر ، وهو لا يبلغ السدس من سكان مكة . فكيف يكون عدداً لسكان هذا البلد الذى يجذب إليه عشرات الألوف من المسلمين فى كل عام ! أو لا يجد أهل المدينة كل رزقهم إلا فى موسم الزيارة ، ولولا هذا الموسم لخلت من ساكنيها ! لقد قرأت فى « الرحلة الحجازية » للبتانوفى أن عدد سكان المدينة يزيد على ستين ألفاً ؛ فكيف هوى هذا العدد إلى خمسة ! أفأصاب المدينة وباء أهلكتها ، أم أن حرب الوهابيين أتت على خمسين ألفاً من سكانها رجالاً ونساء وأطفالاً ؟

وأجاب الذى حدثنى : « بل هوى سكان المدينة إلى هذا العدد الذى تراه ضئيلاً منذ عطلت سكة الحجاز الحديدية أثناء الحرب الكبرى . ولو أن هذه السكة عادت سيرتها لصارت المدينة فى عداد مدائن الشرق الكبرى . لقد كان سكانها عشرين ألفاً قبل إنشاء سكة الحجاز الحديدية . فلما افتتحت هذه السكة عام ١٩٠٧ ووصلت بين المدينة والشام ، وقربت ما بين المدينة ومصر ، أسرع عدد السكان إلى الزيادة فى سرعة تثير العجب ، إذ ارتفع من عشرين ألفاً عام ١٩٠٧ إلى ثمانين ألفاً أول الحرب ، أى عام ١٩١٤ ، وبذلك زاد إلى أربعة أضعافه فى سبع سنوات . فلما حدثت ثورة النهضة فى هذه البلاد بزعامة الحسين بن على على تركيا خربت السكة الحديدية وبقيت مخربة إلى الآن . من



ثم عاد سكان المدينة يهوى عددهم إلى ثلاثة عشر ألفاً . ولو أن هذه السكة بقيت لم تخرب لأرنبى سكان المدينة على مائة ألف . ولا عجب ، فهذه السكة شريان حيوى لهذا البلد لا تقل قيمتها بالنسبة لنا عن قناة السويس عندكم لإنجلترا . وحسبك أن تعلم أنا كنا نصرّف حاصلاتنا فى الشام ونبادلها حاصلاتنا ، ونتجر مع مصر ونصل من شَم بالعالم ، لتقدر الأمر قدره الصحيح . لقد كانت خُضر المدينة ترسل إلى الشام . وكانت فاكهة الشام تجيء إلينا ، وكانت صلاتنا التجارية قد نمت نمواً جلب من الرخاء ما لا يسهل اليوم تصوره ؛ وكثر التعامل وارتفعت الأسعار ؛ فبلغ ثمن قطعة الأرض التى كانت تباع بثلاثة جنيهات قبل السكة الحديدية عشرة جنيهات بعد سيرها ؛ واليوم هبط هذا الثمن إلى جنيهين ولا تجد من يشتري .

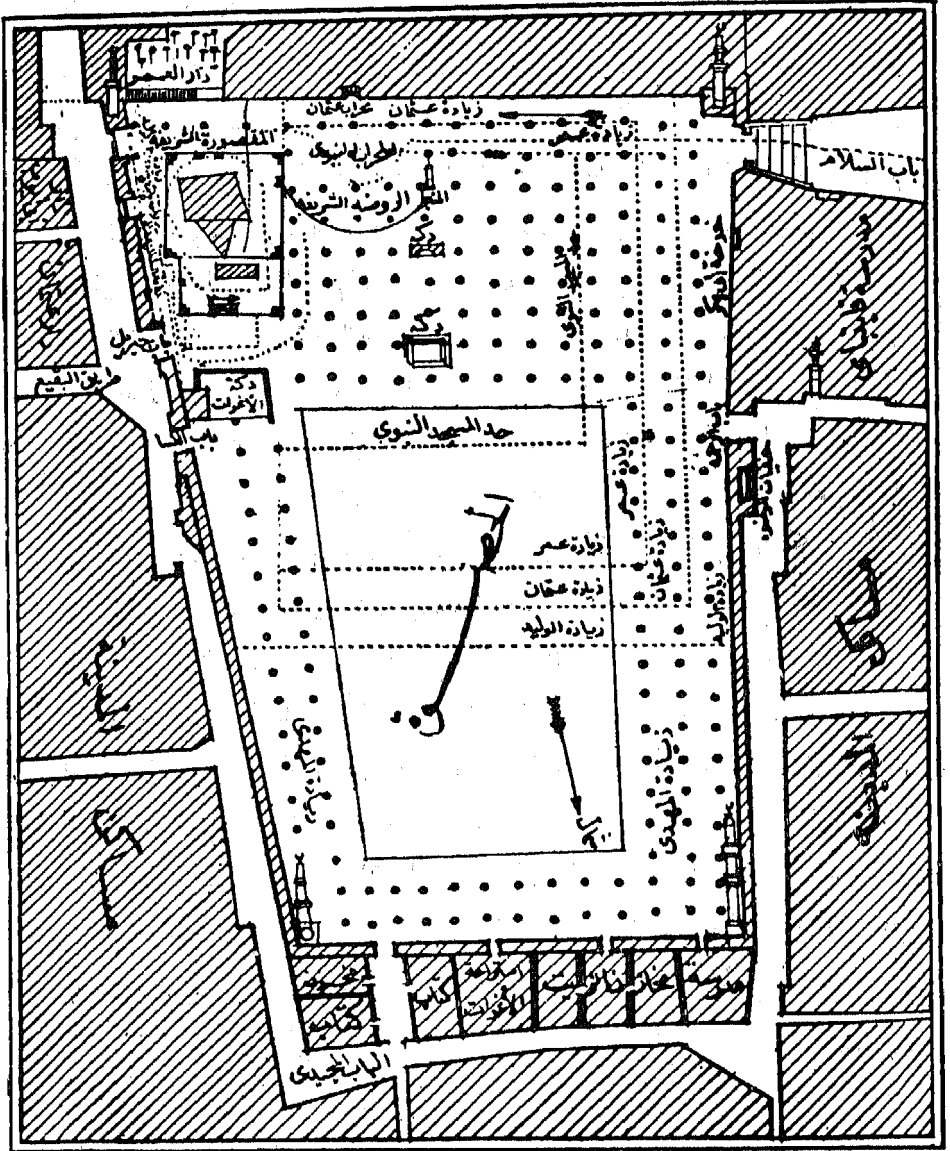
« هذا والسكة الحديد لا تزال أكثر أجزائها صالحة ، ولا يحتاج تعمیرها إلى مجهود كبير أو نفقة طائلة . وقد فاوضت حكومة البلاد كلا من إنجلترا فى فلسطين وفرنسا فى سوريا للاشتراك مع البلاد العربية فى تعمیرها كى تعيدها سيرتها الأولى ، فقامت فى سبيل المفاوضات عقبات سياسية يتصل بعضها بملكية السكة لمن تكون ، وبنفقات التعمير من يتحملها ، ومن يتحمل نفقات التعهد الصيانة ؛ ويجيء وراء ذلك اعتبارات حربية لا نسمو إلى إدراكها . ولو أن هذه الصعاب ذلت أعاد إلى مدينة الرسول من البهجة ما يعيد إلى الذهن صورة العاصمة الإسلامية الأولى . أما ما بقيت فى هذه العزلة المفروضة اليوم عليها فستظل كما هى ، وكما سترها حين تجوس خلالها ، فقيرة إلى العون الذى يأتيها من الخارج ، مهددة بمثل المجاعة التى هددتها منذ سنين والتى جعلت الحياة فيها بؤساً وضيكاً لولا تبرع المحسنين من المسلمين » .

ألقيت بكل سمعى إلى هذا الحديث الذى حزّ فى نفسى وأثار شجنى . مدينة رسول الله يكون ذلك شأنها والمسلمون ساهون لاهون ! يا للعار وباهوان كل نفس مؤمنة ! أو لا يرى المسلمون فى هذا نذيراً من الله لهم كما يغيروا ما بأنفسهم ليغير ما بهم ! وليس هذا النذير ابن أمس ؛ فقد سميت المدينة شأننا

في كثير من الأحيان ، ثم أصابها مثل هذا الذي أصابها ولما تكن السكة الحديدية هذه قد أنشئت ، ولما يكن التفكير فيها قد بدأ . يقول برخارت في كتابه الذي وضعه عام ١٨١٥ عن جولاته في بلاد العرب : « المدينة حسنة البناء ، فكل مبانيها من الحجر . وتتألف منازلها في أكثر الأمر من طابقين عالين ، وسقفها مسطح . وهي ليست مبيضة . والحجر الذي شيدت به قاتم اللون ؛ ولذلك كانت طرقاتها أدنى إلى العبوسة ، وأكثر هذه الطرقات بالغة في الضيق حتى لا تزيد على ذراعين أو ثلاث أذرع . وقليل من طرقاتها الرئيسية مرصوف بأحجار مستديرة كبيرة . وهذا ترف قلما يتوقعه السائح في بلاد العرب . وهي على العموم من خير البلاد التي شهدت في الشرق بناء ، وتجيء لذلك في هذا المضمار ثانية لِحلب . على أن مظهرها اليوم يبعث إلى النفس الأسى لما يهدد منازلها من الدمار . ذلك بأن ملاك هذه المنازل كانوا يحصلون على أرباح طائلة من أحشاد الزوار الذين يجيئون إليها على اختلاف فصول السنة . أما الآن وقد نقصت مواردهم لا يقدمون على ما يكلفه البناء من عظم النفقة وهم يعلمون أنهم لن يستردوا نفقاتهم بتأجير منازلهم . لذلك ترى المنازل الخربة والجدران التي توشك أن تنقض في كل مكان ؛ ومن ثم كان منظر المدينة كأكثر مدن الشرق مما يبعث إلى القلب الحسرة ولا يعيد إلى الذهن من بهائها القديم إلا صورة ذابلة» (١) .

ليست السكة الحديدية وسيرها وانقطاعها كل السبب إذأ فيا أصاب المدينة من تفاوت الحظ . أفأصاب هذا التفاوت غيرها من مدن الشرق جميعاً ، أم أنها خصت منه بنصيب تفردت به ؟ وإن يكن ذلك حقاً فما سببه ؟ أمسيت أفكر في هذا أحاول رده إلى موقع المدينة حيناً وإلى تأثير هذا الموقع في طباع أهلها حيناً آخر . ولقد بدا لي أثناء تفكيري ما زادني حرصاً عليه وإمعاناً فيه . فقد كانت يثرب حتى هجرة النبي إليها مقام الأوس والخزرج من أهلها ، واليهود الذين سبقوهم إليها وأقاموا بها . وكان الأوس والخزرج إلى يومئذ

# الحرم النبوي



ما يقتلون يقتلون فيزيد قتالهم وتناحرهم ما لليهود بالمدينة من سلطان بقدر ما يصيبهم هم من ضعف وانحلال . فلما جمع الدين الحديد الأوس والخزرج بعد أن هاجر إليهم الرسول وأصحابه من مكة وصاروا معهم بفضل الله إخواناً متحابين متضافرين انحل سلطان اليهود وضعفت شوكتهم ثم انتهوا إلى الجلاء عن المدينة بقضهم وقضيضهم . لكن الأمر في المدينة لم يعد إلى الأوس والخزرج من أبناء الأنصار منذ الهجرة . وما كان هذا الأمر ليعود إليهم ورسول الله بينهم وقد آمنوا به واتبعوه ونصروه . ثم إنه لم يعد إليهم بعد أن اختار الرسول الرفيق الأعلى ، على ما كان لهم فيه من مطمع . فقد انحاز حتى من الأنصار عقب وفاة الرسول إلى سقيفة بني ساعدة يتاثون على الأمر يريدونه لأنفسهم ؛ فلما ذهب أبو بكر وعمر على رأس المهاجرين قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ؛ فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، قد دفت دافة من قومكم ، وإذا هم يريدون أن يحتازوا من أصلنا وبغصبونا الأمر » . لكن أبا بكر لم يرض هذا القول فتحدث ونختم حديثه بهذه العبارة القوية : « فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فنا الأمرء ومنكم الوزراء » . ولم يغن عن الأنصار ما طلبوا من أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير بل انتهى اجتماع السقيفة ببيعة أبي بكر بالخلافة . وقبيل وفاته عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب ، فبايعه الناس بها ولم ينازعه أحد من الأنصار فيها . وتولى عثمان الخلافة بعد عمر وقد اطمأن الأنصار إلى أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فلما قتل عثمان وبدأ النزاع على الخلافة بين القرشيين من بنى أمية وبنى هاشم لم يكن لأحد من أهل المدينة فيه مطمع .

وقُتِل على بن أبي طالب بالكوفة ، فجعلها أبناؤه موضع نشاطهم على بنى أمية ، وجعل بنو أمية عاصمتهم دمشق ، ثم جعل عبد الله بن الزبير مكة عاصمة ثورته ؛ وانحلت بذلك عن المدينة صفة العاصمة . مع ذلك لم يغم من يطالب بأن تظل المدينة عاصمة المملكة الإسلامية كما كانت في عهد

النبي ؛ وكان لمن يطالب بذلك الحججة البالغة . فقد تخوف آباؤهم بعد فتح مكة أن يعود النبي إلى أهله وبلده ، فكان جوابه إذ بَلَّغْتُهُم قَالَتْهُمْ : « معاذ الله ! الحيا محياكم والممات مماتكم » . وقد نزل بالمدينة من وحى الله إلى رسوله أكثر مما نزل بمكة وبأى بلد آخر . ولئن يكن بمكة بيت الله لقد مات رسول الله بالمدينة ودفن بها . لكن الأنصار آثروا العافية من يوم سقيفة بني ساعدة ، وتركوا الأمر لتصرف غيرهم ؛ لذلك جعلت مدينتهم تزدهر حيناً وتبتس حيناً . فأن ترى موضع السر في ذلك ؟

لعل هذا السرد الوجيز السريع قد كشف عن شيء من هذا السر . فليس موقع المدينة وما له من أثر في أخلاق بنيتها هو الذى أدى إلى ما أصابها من تفاوت الحظ . ولو أن الموقع كان أعظم أثراً من أحداث التاريخ لكانت المدينة — طيبة الحجاز — أسعد على الزمان حظاً . فهى ترتفع على سطح البحر أكثر من سائة متر ؛ وجوؤها لذلك أدنى إلى الاعتدال على رغم وقوعها على خط العرض الذى تقع عليه الأقصر طيبة مصر الفراعنة . ثم لا ترتفع الحرارة فيها صيفاً إلى ما ترتفع إليه في القاهرة أو في الإسكندرية ، وتصل برودة الشتاء إلى القدر الذى يتجمد فيه الماء في الآنية ساعة الصباح . وسلسلة الجبال التى تنحدر من الشام إلى اليمن تمر شرقيها ويخرج منها جبل أحد فيكاد يجاور ضواحيها . لكن الشمال والغرب والجنوب منبسطة كلها تنبع فيها مياه الآبار وتجرى إليها مياه العيون فتخصبها وتحيطها بمحاثق ونخيل وخضرة يانعة منورة في ابتسامها للحياة . وفي هذه الجبال الواقعة حول المدينة وفي الحرار المحيطة بها يتوسم الكثيرون وجود أحجار نفيسة ومعادن مختلفة . ومهد الذهب الذى استغل إلى عهد العباسيين والذى يستغل اليوم يقع على مقربة منها . أمّا وذلك خصب الأرض وثراؤها ، فالطبيعى أن تكون المدينة مستطلع الناس لسكانها . فإذا تفاوت حظها في هذا الأمر على ما قدمنا فيجب أن نبحت عن السر في غير الموقع الطبيعى من الأسباب .

وتاريخ يثرب قبل الإسلام وبعد العصور الأولى يؤيد هذا الرأى . فهى

قد كانت في الجاهلية الأولى وحين هجرة النبي إليها مقصودة لحسن موقعها ، وكانت ذات أسواق وأيام . والسابقون إلى الإقامة بها هم اليهود ، ولعلمهم هبطوا إليها كما هبطوا إلى مدن الحجاز الواقعة في شمالها فراراً من حكم رومية ويزنطية في فلسطين . فلما حطم سيل العرم سد مأرب باليمن وهاجر أزد اليمن إلى الشمال ، مالت قبيلتنا الأوس والخزرج منها إلى يثرب وأقامتا بها . ورضيت القبيلتان حكم اليهود أول الأمر ، ثم خرجتا عليهم وأوقعتا بهم بمعونة ملوك غسان . وظل الأوس والخزرج يتنازعان السلطان على يثرب بعد ذلك وتقع بينهما حروب ما يزال التاريخ يحدث عنها ، حتى كانت هجرة النبي إليها بعد بيعتي العقبة . من يومئذ بقيت يثرب عاصمةً إلى خلافة علي بن أبي طالب . هنالك اعتصم معاوية بالشام ، واتخذ علي الكوفة عاصمته حتى قتل بها . عند ذلك أتيحت للمدينة فرصة تسترد بها مكانتها . فكما أدى مقتل عثمان إلى انتفاض كثيرين على علي لعدم إسرعه إلى القصاص من قتلة عثمان فقد أدى مقتل علي ثم مقتل الحسين ابنه إلى انتفاض كثيرين على بني أمية . ولقد كان عبد الله ابن الزبير من أشد أعوان الحسين إلى يوم قتله بكر بلاء . فلما وقعت هذه المأساة الفاجعة ترك ابن الزبير الكوفة ولحق بمكة ودعا الناس لينضموا إليه ؛ فخرجت مكة وخرجت المدينة على الأمويين وانضمتا إلى داعية بني هاشم . وقد جرد يزيد جيشاً إلى المدينة وأخر إلى مكة . أما جيش المدينة فغزاها في وقعة الحرة وانتهك حرمتها وأخضع أهلها وحطم أملها في أن تعود عاصمة الإسلام كما كانت في عهد النبي . وأما جيش مكة فظل يحصر أهلها حتى مات يزيد ، ثم فتحها الأمويون وقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين للهجرة . من يومئذ أذعنّت المدينة لحكم بني أمية ومن قام بعدهم مقامهم ، وكفى أهلها أن يكونوا موضع عناية الخلفاء وأمراء المؤمنين . وزادهم قناعة بهذه العناية أن أفنت الحروب والثورات أكثر أبنائها العرب وأحلت غيرهم من شتى الأقطار الإسلامية محلهم فيها ، فلم يكن من هؤلاء من يهتز لمجدها القديم أو يثور لإعادته . وبلغت هذه العناية بالمدينة في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة مبلغاً سما بها أثناءها إلى

مقام محسود من الرقى المادى والرقى الأدبى . ومن يومئذ بقيت تعتمد فى حياتها على حسن توجه الملوك والأمراء والمسلمين جميعاً إليها بسبب مكانتها الدينية ، وفقد أهلها الاعتماد على أنفسهم .

رأيت فى الفصل الأخير صورة واضحة من ذلك الاعتماد على الغير فى عمارة المسجد النبوى من بعد بناء عثمان . فلما بدأت عصور الاضطراب وتداعت أركان الدولة الإسلامية ، كان أهل المدينة قد فقدوا ملكة الاعتداد بالذات وأصبحوا يعيشون كسلا على غيرهم من المسلمين . ولهذا السبب بدأ حظ بلدهم يتفاوت من اليسار أيام الاستقرار فى البلاد الإسلامية ، وكثرة زوار المدينة تبعاً لذلك ، إلى الشدة والإعسار أيام الاضطراب وانصراف المسلمين عن أداء فرض الحج وسنة الزيارة . وما حدث من انكماش سكان المدينة بعد تعطيل السكة الحديدية منذ الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ للميلاد يرجع إلى انقطاع سبيل الزوار أكثر مما يرجع إلى قلة التجارة ؛ فقد انقطع الحج أو كاد أيام الحرب من خوف مفاجآت البحر ، إذ كان يصيب « الطوربيد » السفن ؛ ولما كان من شغل العالم بالحجزة المروعة المنتشرة فيه عن كل شىء سواها . فلما انقطعت السكة الحديدية لم يكن عود الناس من أهل مصر والشام إلى الزيارة الرجبية ميسوراً . ولما كانت الثروات التى حصلها أهل المدينة فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب وحين سارت إليها السكة الحديدية لم تستقر ، فقد أصابتها الحرب والأزمة التى أعقبت الحرب بصدمة عنيفة أحدثت هذا الانكماش الذى رد سكان المدينة من ثمانين ألفاً إلى ثلاثة عشر ألفاً . ولو أن أهلها ألفوا الاعتماد على أنفسهم ولم يجعلوا من موسم الزيارة ومن صدقات المسلمين مورد حياتهم ، لما أصابهم من الجهد ما أصابهم ، بل لاحتملوا الشدة بالصبر والتمسوا الخروج منها بالحيلة . لكن الذين جاءوا إليها بعد سير السكة الحديدية إنما جاءوا يبتغون تجارة هينة ورزقاً ميسوراً . فلما تعذرت أسباب الرزق فرّوا منصرفين إلى بلادهم آملين فيها رزقاً أكثر بسطة وتجارة أوفر ربحاً .

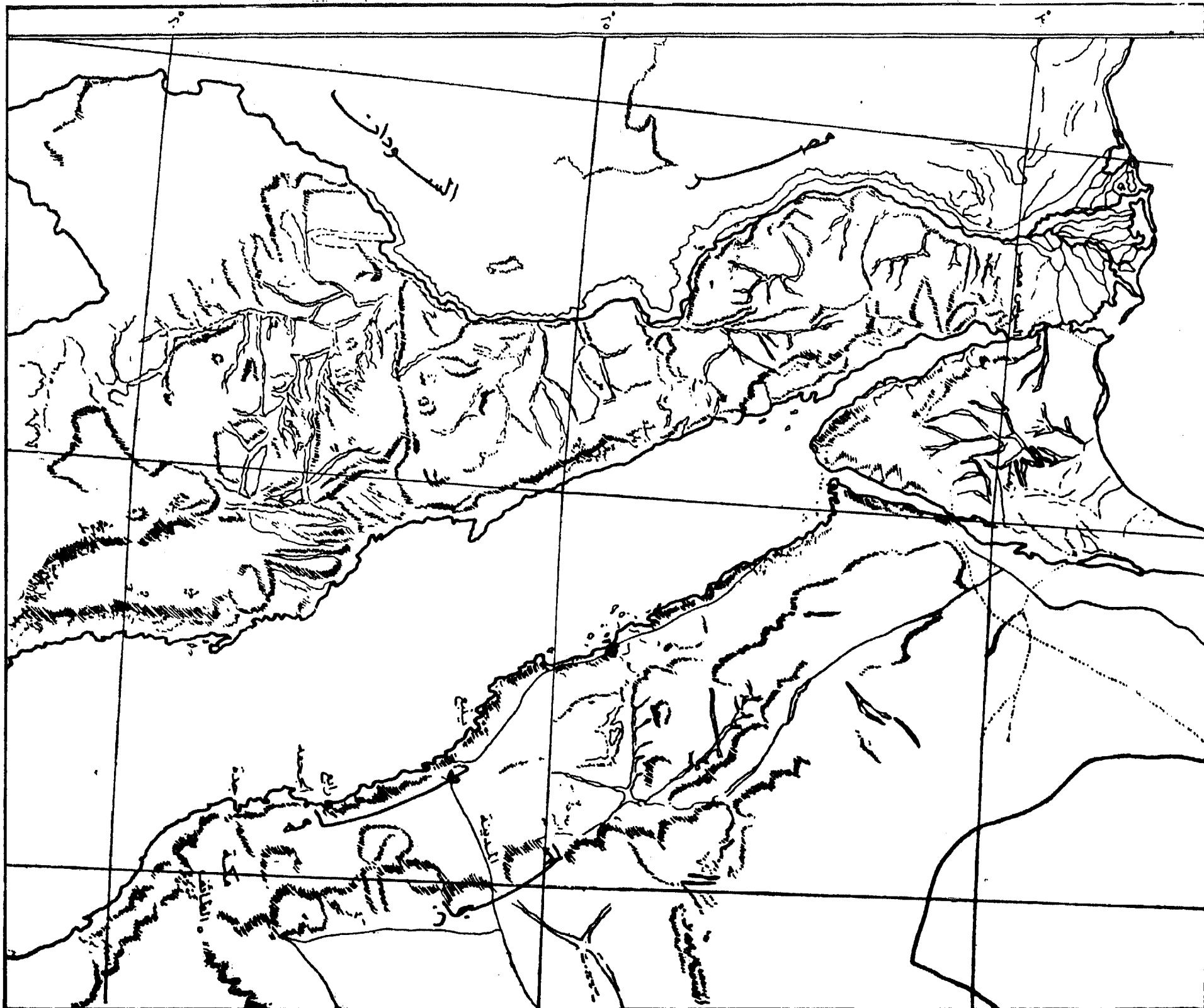
ومن عجب أن الذين ظلوا مقيمين بالمدينة من أهلها لم يفيدوا من هذه

الشدة عبرة ولم يذروا ما ألفوا من الاعتماد على الصدقات وما ينفقه الزائرون لقبر النبي ، ولم يفكر أحد منهم في أن ينزع بها منزع الاعتماد على مواردها الذاتية . ولقد رأيت ذلك بنفسى حين نزلت إليها وجست خلال أزقتها الضيقة وسرت في أسواقها أشهد حوانيتها الصغيرة فلم أر فيها تجارة غير ما يحتاج إليه زوارها . وأعجب من ذلك أن هذه التجارة مجلوبة كلها من الخارج . فأما ما تُسبته المدينة فليس يتجر منه في غير البلح الكثير الأصناف ، الذى يتناعه الناس تبركاً أكثر مما يتناعونه لجودته ؛ هذا على أن أصنافه الجيدة كثيرة وصالحة للتجارة كل الصلاح . لكن أهل المدينة لم يعن منهم أحد بأمر هذه الأصناف وحسن تهيئتها للتصدير ، لا من حيث اختيارها ، ولا من حيث عرضها في عُلْب أو صناديق تسترعى النظر ، ولا من حيث الإعلان عنها ، ولا من حيث نقلها للتجارة في بلد آخر .

وليس يسترعى النظر في أسواق المدينة شيء يقف الإنسان عنده . ولولا التبرك وما له على النفوس من سلطان لما عاد إليها من مرة بالأزقة الضيقة التى تحويها . فهذه الأزقة أكثر ضيقاً من مثلها في أصغر القرى بأرياف مصر . وهى مكتظة أثناء موسم الزيارة على نحو يدعو إلى الفرار منها حذر الاختناق بها . ولقد شُقت بعض شوارع فسيحة في المدينة أثناء الحرب ، لكنها ليست مقصودة كتلك الأزقة . ولعل الناس لا يرون فيها ما بالأزقة من بركة ، أم لعل الحوانيت بها أعلى أجراً وأهل المدينة أحرص على ألا يبسطوا أيديهم كل البسط في هذه السنين التى أصابت المجاعة فيها بلدهم المقدّس غير مرة . وقد يفسر ذلك بعضهم هذه الظاهرة من التمسك بالأزقة والإقامة بها بقربها من المسجد النبوى قريباً يحرص كلٌّ على أن يبلغ منه غاية ما يستطيع .

وضيق الأزقة بالمدينة مضرب للمثل ، فما يكاد يضاهيه مما بمكة شيء على ما أسلفنا من ضيق طرقها . فن أزقة المدينة ما لا يتسع لأكثر من اثنين يسيران جنباً إلى جنب ، فإذا لقيهما غيرهما لم يكن بد من أن ينتحى أحدهما وأن يسير وراء صاحبه ليفسح للعاير بها سبيلاً . وهذا على سعة رقعة الأرض فيما حول





شبه الجزيرة العربية

المدينة سعة تطوع لعشرات الألوف حين الرخاء أن يشيدوا المباني بها . لكننا ألف الناس من أهل المدينة هذا النوع من العيش في الأزقة الضيقة . فإذا عضت سنو الشدة بلدهم وغادرها من ليس أصيلاً بها ظل أبناءها في الدائرة المحيطة بالمسجد ، لا يفكر أحد منهم فيما يفكر أهل هذا العصر فيه من توسيع الطرق لتهوية البلد كفاءة لصحة أبنائه .

يذكر لبيب بك البتانوفى في رحلته الحجازية من أسماء أزقة المدينة : زقاق البقر ، وزقاق الخياطين ، وزقاق الحبس ، وزقاق عنقبي ، وزقاق الساهيدى ، وزقاق البدر ، وزقاق الأغوات ، وزقاق يا هو ، وزقاق الكبريت ، وزقاق القماشين ، وزقاق الحجامين ، وزقاق مالك بن أنس ، ثم يقول : « وعلى كل حال فحارات المدينة نظيفة وضيقها يساعد كثيراً على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف كما هو الشأن في أغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يبتدىء من الباب المصرى إلى الحرم الشريف في شارع ضيق طوله خمسمائة متر تقريباً يقطعه على المارة تقابل جملين فيه مع بعضهما . والحركة فيه تكاد تنحصر في مدة الحج والموسم الرجبي . وهو موسم الزيارة الرسمية في بلاد العرب » . هذا ما كتبه لبيب بك من أكثر من ربع قرن تغير فيه وجه العالم بالحرب وحلول السيارة محل الجمل وبتنظيم الطيران وبتغيير نظام المدن . مع ذلك بقيت المدينة لم يتغير فمما شئ ، وبقى سوق المدينة على ضيقه من أكثر أزقة المدينة سعة ونشاطاً ، وبقى ساطه ونشاط المدينة كلها محصوراً في مدة الحج . أما الموسم الرجبي فلم يبق في مثل نشاطه الأول .

ولقد أعانت عوامل كثيرة على بقاء الحال في المدينة لم يصعبها تطور خلا حلول السيارة محل الجمل بمقدار ما حدث في بلاد العرب كلها ، على حين أصابها أذى وشر كثير . من هذه العوامل ما حدث أثناء الحرب وبعدها من قلق واضطراب في هذا البلد المقدس زاد على مثله في سائر بلاد العرب . بدأ ذلك حين انتفض الشريف حسين على الأتراك وانشق مع إنجلترا على استقلال العرب . إذ ذاك تحصن الأتراك بالمدينة واتخذوا قلاعها ملاذهم . فلما

رأوا الأمر وشيئاً أن يخرج من أيديهم أخذ فخري باشا خير ما فيها من نفائس فبعث بها إلى الآستانة : أخذ الجواهر التي بالحجارة النبوية ، وأخذ أنفس ما في مكنتيات المدينة من المخطوطات والكتب النادرة ، وتركها للأشراف يحتلونها مجردة من هذه المفاخر التي كانت لها والتي كانت ذات أثر عظيم في توجه العالم الإسلامي إليها . ولئن لم يكن هذا الأثر شيئاً مذكوراً إلى جانب المسجد النبوي وقبر الرسول فيه ، لقد كان للكوكب الدرر وهذه النفائس المتصلة بالحجارة ، وكان لكتب السلف المحفوظة بمكنتيات المدينة سلطان على النفوس لا سبيل إلى إنكاره . فلما استقر الأمر للأشراف في الحجاز بدءوا يفكرون في الإصلاح . لكنهم لم يلبثوا أن دهمتهم الحرب السعودية التي أصابت المدينة بمثل ما أصابتها ثورة النهضة بل بشر مما أصابتها به . كانت المدينة من ناحية العمارة الأثرية متحفاً نفيساً بالغاً غاية الجمال . كانت القباب المقامة على قبور أمهات المؤمنين وعلى قبور الصحابة بالبقيع بعض ما يشهد لفن العمارة الإسلامية بسبق يغبطه عليه أكثر الناس تقدماً في العمارة ، حتى لقد كان الأتراك يطلقون على هذه المجموعة البديعة في فن المعمار اسم « جنة البقيع » . وكان على قبر سيد الشهداء حمزة عم الرسول مسجد وقبة تهوى إليهما النفوس ويفاخر بهما الفن . وكان ثمة من هذه العمارة الفنية كثير كان يشغل الناس عن ضيق الأزقة بالمدينة وعن كثير مما لا يجارى العصر فيها . فجاء الوهابيون من أشياع ابن السعود على هذه الآثار الفنية هدماً وتحطيماً ؛ لأنها لا تتفق مع عقيدتهم الإسلامية من وجوب تسوية القبور بالأرض ومن تحريم التبرك بالقبور وقبابها أو اتخاذ أصحابها إلى الله شفعاء وزلفى ، ففي ذلك إشراك بالله لا يقره التوحيد ولا يرضاه الإسلام في رأيهم .

وقف أهل المدينة إزاء هاتين الحركتين : حركة الأتراك ، وحركة الوهابيين ، مشدوهين حيارى لا يعرفون ما يصنعون . أنسى لهم أن يعرفوا مدينتهم تضمحل مذ عطلت الحرب مواصلاتها مع الشام ، والرخاء يزائلهم بانقطاع الزيارة أثناء الحرب وبعدها ، وأحوالهم تنحدر سراعاً إلى أسوأ ما يتصور

الإنسان ! . لا عجب إذاً أن تقف المدينة دون التطور الذى أعقب الحرب فى العالم كله ، وأن يكون بقاؤها حتى اليوم عامرة بمن ظلوا مقيمين بها رغم القحط والنجاعة وسوء الحال معجزة من المعجزات لا يفسرها إلا ما يملأ قلوب هؤلاء الناس من إيمان بالرسول ورسالته وإعزاز لقبره وحرص شديد على المقام فى جواره .

لأهل المدينة العذر وهذا ما نزل ببلدهم إذا هم لم يجاروا تطور العالم بعد الحرب . لكن من الواجب ألا ننسى عوامل أخرى كانت فى هذه الأحوال وفيما سبقتها سبباً فى وقوف المدينة دون مجارة العالم فى تطوره . وفى مقدمة هذه العوامل روح الاعتماد على الغير باسم التوكل على الله ، وروح الإذعان باسم الإسلام لقضاء الله . فقد بقيت المدينة تعتمد ، وقد زالت عنها صفة العاصمة للمملكة الإسلامية ، على حسن توجه الملوك والأمراء إليها بسبب مكانتها الدينية لوجود القبر النبوى بها أكثر من اعتمادها على جهود أبنائها وحسن سعيهم لخيرها ، وترى فيما يبذله المسلمون فى مختلف بقاع الأرض لها من هبات وأوقاف مصدر حياتها ورزقها . وليتها استعانت بذلك على تنمية مواردها أو المزيد من جمالها أو حسن تنظيمها ، بل أمسك الجهل أهلها دون القيام بشيء من ذلك كله وحبسهم فى حدود هذه المعونة الواردة إليهم من غير أن يكون لهم أى فضل فى الإبقاء عليها ، بلكه المزيد فيها .

من الظلم أن نلقى التبعة عن هذه الحال على أهل المدينة وحدهم . ولعل الحظ الأوفى منها يقع على أولى الأمر فى عواصم الإسلام ممن كان لهم على المدينة الحكم والسلطان . هؤلاء حرصوا على أن يظل أهل المدينة فى غيابات الجهل حتى لا يكون لهم من العلم قوة تضاعف بأسهم بمجاورتهم قبر الرسول . فلو أنهم تعلموا وعلموا الحق الذى جاء محمداً من ربه مُبشراً من كل شائبة لكان لهم شأن غير شأنهم منذ انحل سلطان العاصمة عن مدينتهم ، إذاً لعلموا أن الإسلام لله والتوكل عليه أول شرائطهما السعى وبذل غاية الجهد لذلك الغاية التى يجعلها الإنسان هدف حياته ، ولأيقنوا أن الله فى عون العبد ما دام العبد

فى عون نفسه وفى عون أخيه ، ولأدركوا أن هذه الحياة الدنيا فترة هياها القدر ليقوم المرء فيها بواجبه لنفسه ولإخوانه ، فإن هو قصر فى أداء هذا الواجب فقد قصر فى أداء حق الله ولم يبلغ الحظ الذى يتيح له الرضا فى الحياة . لكنهم إن أدركوا هذا وآمنوا به أصبح حكم الاستبداد إياهم محالا ، لذلك حجب الحكام المستبدون عنهم نور العلم وغشّوا دونهم ضياءه .

يدلك على ذلك أن أرقى مدرسة بالمدينة اليوم هى مدرسة العلوم الشرعية . واسم هذه المدرسة ضخم يكبر حقيقتها . ولقد حسبها أول ما سمعت هذا الاسم من نوع مدرسة القضاء الشرعى بمصر ، فلما زرتها ألفتها مدرسة ابتدائية تدرس أحكام الشريعة فى الفصول العليا منها . وزرت مدارس أخرى فإذا هى دون هذا الطراز مكانة ، وإذا هى تعنى بالصناعات اليدوية الأولية كصناعة الجلود والنسيج البسيط أكثر من عنايتها بأمر العلم . وهذه المدارس كلها تجرى عليها النفقة من هبات وأموال تجيء من الهند ، وغاية مطعمها من ناحية الحكومة القائمة أن تنال عطفها ، فكثيراً ما لقيت أمثال هذه المدارس العنت فى العهد العثمانى ، وكثيراً ما اتهمت بأنها أقيمت لأغراض سياسية تناوى مرأى الدولة ولم تقم لوجه الله ورسوله .

وتم مدرسة أنشئت فى عهد هذه الحكومة الحاضرة ، ولها من رعايتها الحظ الأوفى ، تلك مدرسة الأيتام . ولقد دُعيت إلى حفلة أقيمت لخيرها حضرها أمير المدينة وأعيانها ، عرضت فيها مصنوعات لمن يشترىها ، وألقى فيها تلاميذها مقطوعات وخطباً دُرِّبوا عليها . ولقد لحت فى هؤلاء التلاميذ ، ومنهم بدو لم يألفوا الخضر قبل التحاقهم بهذه المدرسة ، نجابة واستعداداً للعلم يدلان على أن المستبدين لم يخططوا حين خافوا مغبة العلم على سلطانهم فى هذه البلاد . لكن ما يتعلمه تلاميذ هذه المدرسة لا يزيد على المعلومات الأولية التى تلقى فى غيرها ، ولا يقصد منه إلى أكثر من المعلومات العملية ذات النفع البدائى فى الحياة .

ماذا عسى أن ينشأ عن هذه الحال من ألوان التفكير وألوان العيش ؟ يذكر

الذين زاروا المدينة وعاشروا أهلها أنهم قوم على جانب عظيم من دماثة الطبع ورقة الخلق . وهذا طبيعي في البلاد التي تعيش على السياحة والسائحين أيًا كان سبب السياحة . ويزيد بعضهم أن في مجاورة أهل المدينة قبر الرسول ومسجده ما يبث في نفوسهم هذه الدماثة وهذه الرقة . ولست أدري مبلغ الصحة في هذه الحجة بعد ما ذكر لي غير واحد ممن اتصلت بهم أن كثيرين من أهل المدينة ينظرون إلى الحياة بعين مستهترة بالحياة مشغوفة بمتعتها المادية ولذاذاتها الدنيا ، وأن منهم من ينفق ما يكسبه في موسم الحج والزيارة في هذه المتع والذاذات غير حاسب للغد حسابًا ، مطمئنًا إلى الموسم المقبل وما تدره عليه أخلافه من رزق . ولست أتهم الذين حدثوني بهذا الحديث وقد دعيت إلى غداء في بستان المصروع على مقربة من قبر حمزة ، فكان مما أرادته إخواننا أن يدعو مضيئنا مُغْنِيًّا أو قينة وضارب عود . ولم يتردد مضيئنا في الأمر بادئ الرأي ، لكنه خشي من بعد غضب أمير المدينة النجدي الوهابي المتزمت عبد العزيز بن إبراهيم ، وذلك حين علم أن الأمير أتاه نبأ من هذه الدعوة وأسماء المدعوين فيها ، وأنه سيقف أغلب الأمر على حديثها وعلى كل ما يجري أثناءها .

ولقد أذكرتني الولىمة ببستان المصروع قول البتانوفى فى رحلته : « ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزه فى البساتين خارج المدينة ، فيخرجون إليها فى يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات ويعودون فى المساء ؛ وقد يخرجون إلى الرياضة من أول اليوم ومعهم غداؤهم فيمضون نهارهم بأحد البساتين التى بضواحي المدينة فى سرور وحبور . ويسمون هذه التسهة مقبلا » . والطبيعة الحيطة بالمدينة تعاون على هذا اللون من الحياة ؛ فالبساتين حولها كثيرة ، والخضرة بسامة ، والحياة ضحوك . ولولا أحداث الزمن وما أصاب هذا البلد الطيب من بأساء وما تركه ذلك فى نفوس أهله من أثر لسمما تعرضوا لما يصيبهم من تفاوت الحظ . ومقام أهل المدينة إلى جوار الرسول والحجرة النبوية ، وتأثرهم بالتطور الذى حدث فى التفكير الإسلامى أكثر من سواهم ،

وهذا التوكل المطلق الذى أصبح بعض خلقهم ، يجعلهم أذنى إلى الصبر والرضا وأقل جزعاً لكوارث الدهر . من ذلك ما لا حظه غير واحد من أنهم لا ينوحون على موتاهم ولا يبكونهم ، وأنهم يسرفون فى التجلد والصبر إسراف المصريين فى الجزع لدى الفاجعة والحزن لها . وهم فى توكلهم لا يحسبون لغد حساباً . وماذا ينفعهم أن يحسبوا وقد ألفوا من فُجاءات الدهر بالسراء والضراء ما يفضل معه كل حساب ، وقد علمهم تعاقب الأجيال أن الأمر فى مدينتهم ليس لهم بل للحاكم الأجنبي عنهم ، الذى يعنى بسياسته وتطبيقها عندهم أكثر من عنايته برقيهم وريثائهم ؟

ولقد كان من أثر ذبوع الأمية والجهل بالمدينة أن لم يعن أحد من أهلها بتنظيم المكتبات العامة الموجودة بها . فبالمدينة مكتبات عامة تحتوى من المخطوطات والكتب المطبوعة على ألوف المجلدات . ومكتبة السلطان محمود ومكتبة السلطان عبد الحميد ومكتبة بشير أغا من المكتبات التى يتحدث الناس فى المدينة عنها . فأما أكبر مكتبة بها فمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت . وفى وصف هذه المكتبة يقول البتانوفى : « هى قريبة من باب جبريل إلى جهة القبلة . وهذه الكتبخانة آية فى نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها ، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمى الفاخر ، وفى وسط حوشها نافورة من الرخام فيها صنابير للوضوء وفيها كتب ثمينة جداً لا يقل عددها عن أربعة وأربعمائة وخمسة آلاف كتاب . ولقد رأيت بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة فى بابها ، وهو كتاب أسفار فارسية مكتوب بالخط الأبيض الجميل ملاً شامى . وبيننا نحن نعجب من جودة الخط وإتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة إلى أن حروف الكتابة إنما هى ملصوقة على الورق ، فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته خصوصاً عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يوصلونها عن ورقتها بظفرهم ثم يلصقونها على ورقة أخرى » .

ولقد حرصت على زيارة هذه المكتبة لكثرة ما سمعت عنها بمكة . فلما

زرتُها أعجبت بالسجاد العجمي ونافورة المياه التي ذكرها البتانوني . لكنني حرصت مع ذلك على أن أقف على نظامها ، فسألت أمينها عن فهارسها وعن طريقة القراءة والمراجعة فيها . ولم يثر دهشتي نقص الفهارس ولا أثارها عدم العناية بتنظيم الانتفاع بالمكتبة بعد الذي عرفته من انتشار الأمية بالمدينة . والواقع أن أمين الدار ، وهو شيخ حسن الحديث واسع الاطلاع على محتوياتها ، يكاد يكون هو الفهارس وهو المرشد إلى كل ما دق وجل فيها . وقد دلتني حينئذ على قلة رواد المكتبة من أهل المدينة ومن الحجاج ، وأن الذين يجيئون إليها يجيئون يدفعهم التطلع للإحاطة بها في نظرة عامة أكثر مما يدفعهم الحرص على مراجعة كتبها أو الانتفاع بها . ومعظم ما يطمع الأمين فيه أن يجد من يُعنى بمخطوط من المخطوطات فينقله مأجوراً . وهو لذلك جد حريص على أن يؤكد صحة المخطوطات التي بالمكتبة ودقة اتفاقها مع الأصل الذي نُقلت عنه إن لم تكن هي هذا الأصل بالفعل . وقد أطلعني على « مُعجِزِ أحمد » ، وهو شرح أبي العلاء المعري لديوان المتنبي ، وأكد لي صحة نسبته إلى الأصل ودقة نقله . وأوشكت أن أطلب إليه استنساخه لولا أنني علمت من أحد أبناء المدينة حين طالعته بما دار من ذلك بخلدني أن هذه النسبة إلى المعري موضع ريبة وأن القول بدقة النقل مبالغ فيه .

وتمنيت مذ عرفت تعدد المكتبات بالمدينة أن يبني لها جميعاً دار واحدة تجمع كل ما فيها وتنظم تنظيمًا حديثًا يكفل الاستفادة منها . لكنني إذ عدت إلى نفسي ألفت أن ما أطلبه من ذلك أدنى إلى المني التي لا تحقق . فأهل المدينة يحسبون هذه المكتبات زُخرفاً ، وقلَّ منهم من يقدر ما تعود به المكتبات من فائدة إذا وجدت المنتفعين بها الحريصين على نشر كتوزها وتبويب ما فيها تبويباً علمياً صحيحاً .

وكيف يتسنى لبلد لا يزيد سكانه على ثلاثة عشر ألفاً ، وهو ليس مركزاً علمياً ، أن يفكر في مثل هذا الأمر ! وكيف يتسنى له أن يفكر فيه ومبلغه من العلم ما رأيت ! . حسبته أن يكون متحفماً لآثار تظل محفوظة رجاء يوم



يسعد الحظ فيه المدينة فيكون أهلها من العلم أوفر نصيباً ويكون زائروها أكثر على البحث والدرس وتوفراً ليكون هذا التفكير بعض ما يدخل في حيز الممكنات . ولعل هذا اليوم يكون قريباً ! . فقد تعود سكة الحجاز سيرتها ، فيعود إلى المدينة الرخاء ويكثر فيها السكان ويزداد النشاط ويطرد ذلك زمناً تستقر فيه الأمور وتصبح غير ما هي اليوم . ألا ما أكثر ما أتمنى ذلك ! وما أكثر ما يتمناه كل محب لهذا البلد ! بل ما أكثر ما يتمناه كل محب للإنسانية ! . لقد تنقلت خارج أسوار المدينة حيث كانت تقوم الدور والأحياء حين بلغ سكان المدينة ثمانين ألفاً ، فأسفت لحالها الحاضرة ، وعجبت كيف تطاوع سياسة الغرب أنفسهم على التآمر لقتل بلد مثله من اليسير إحياءه بما لا يضر أحداً وما يعود بالخير على الجميع . ولولا أنى أكبر هؤلاء السياسة وأحسبهم أسمى نفساً من أن يدفعهم التعصب الديني إلى محاربة المدينة لوجود قبر نبي الإسلام بها لخلت هذا الدافع أقوى ما تتأثر به نفوسهم . ومهما يكن من الأمر فما أرانى أسبغ هذه الصعاب التي يقيمونها دون تعمير السكة الحديدية وقد استطاعت السياسة بأوضاعها المرنة أن تحل ما هو أعمس منها وأشد تعقيداً .

والسور الذي كانت هذه المباني قائمة فيما ورائه والذي يحيط بالمدينة القديمة ما يزال قائماً إلى اليوم ؛ ولقد كان عَضُد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله أول من أنشأه في سنة ٣٦٠ هـ اتقاء لغزو الأعراب المدينة ، ثم كان الأمراء يقيمونه كلما تداعت أركانه ، حتى عمّره محمد علي باشا بعد انتصار جيوشه على الوهابيين . وجدده السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٥ هـ وبنى فيه أربعين برجاً تشرف على ضواحي المدينة للدفاع عنها ؛ وما تزال القلاع قائمة في بعض نواحيه اليوم على قلة ما ينتظر من فائدتها في الدفاع ضد الأسلحة الحديثة .

أو يصبو شباب المدينة كما يصبو شباب مكة إلى الحياة الحديثة في التفكير والعيش ؟ هذا الأمر لا ريب فيه . لكن الناس من أهل المدينة لا تنفسح مطامعهم لما تنفسح إليه مطامع المكيين وبلدهم عاصمة الحجاز ومقر الحكم والسلطان . على أن طبيعة المدينة أدنى إلى الحضر ، وموقعها أدنى إلى مواطن

الحضارة من مكة ، وشبان المدينة شديدو التوق لذلك إلى المعرفة والتزيد منها ، لولا أنهم لا يجدون إليها الوسيلة . ولو أنهم وجدوها ، ولو أن المدينة اتصلت بالعالم اتصالها قبيل الحرب ، لكان لها في الاندفاع إلى الحياة الحديثة ما يزيد على ما ملكة فيما أظن .

أما وحالها الحاضرة ما رأيت والحكم فيها للنجديين القرييين من البدوة ، فالحديث عن هذا التفوق وعن اندفاع المدنيين إلى الحضارة أدنى إلى أمنية لا يدري أحد ما كتب القدر لها في لوحه . وإذا ذكرت حكم النجديين بالمدينة فلا تقس إليه حكمهم بمكة . هم بمكة في عاصمة أكثر الأمر فيها إلى أبناء الحجاز وليس للنجديين فيها إلا الرياسة العليا . وهؤلاء النجديون لا يقيمون بمكة إلا أيام الحج وبعض أيام أخرى من السنة ، وفيما خلا ذلك تصفون مكة لأهلها . أما أمير المدينة النجدى فيقيم بها طول العام ، وهو فيها الحاكم المباشر النافذ الكلمة المطاع . من ثم يرتقب أهل المدينة إرادته وتدعوهم دماثة أخلاقهم إلى مصانعتة . إنه يود من ناحيته لو استطاع أن يدرك الحياة الحديثة وأن يجمع بينها وبين عقائده وميوله النجدية ، وهو بذلك يدنو منهم بعض الشيء . لكن مكانته ، بوصفه ولي الأمر في البلد ، وطبيعته البدوية الصميمة ، تمسكانه دون بلوغ الكثير من ذلك ، وتدعوان أهل المدينة إلى متابعتة أكثر مما يتابعهم .

زرت الأمير عبد العزيز بن إبراهيم غير مرة . زرت في ديوان الحكم ، وزرت في داره ، وتناولت طعام الغداء على مائدته ، وشاركته في طعام خفيف آخر الأمسية دعاني إليه ابنه إبراهيم . ولم يدهشنى ما رأيت من مظهر حياته النجدية بدار الحكم ولا في غرفة استقباله بالمدينة . فقد ألفت أن أرى من ذلك في مصر وفي غير مصر ما لا يدع للدهشة موضعاً . وأنت لا ترى على باب الوزير من مظاهر البأس العسكرى المتبحر ما تراه على باب مأمور المركز . وأنت كذلك لا ترى من مظاهر هذا البأس على باب قصر الملك أو دار وزير المالية أو أمين العاصمة بمكة ما تراه في مجلس أمير المدينة . ففي هذا المجلس جند من النجديين علمتهم الأمير الحرس على أن يظهروا للناس بأسه وبطشه .

فإذا دعا أحدهم دعاه في شدة كما يدعو المأمور أحد جنود المركز ، ولبي  
الجندي في اندفاع وتطلع واستعداد لتنفيذ أى أمر . ولقد تناولت على مائدته  
طعام الغداء فكانت مائدة بدوية يجلس الناس حولها ويتناولون طعامهم بأيديهم ،  
فيجدون منه طعاماً لذيذاً ، فوق شعبهم . أما يوم دعانى ابنه في الأمسية فقد  
صعدنا إلى دار الأمير وتناولنا « بسكويتاً » ومرببات وحلوى ، وقد حرص الأمير  
على أن يتناول الطعام بالشوكة ليدل بذلك على حسن استعداده لحياة العصر .  
وأهل المدينة يجارونه في بداوته وفي محاولته الحضارة ، وإن كان أكثرهم قد  
عرف أيام حكم العثمانيين من مظاهر الحضارة ما لم تعرف نجد البعيدة عن  
الحضارة العمانية .

ولإبراهيم ابن الأمير قى لم يجاوز الخامسة عشرة فيما أرى ، وهو وسم الطلعة  
في زيه العربي ، حادّ النظرة من عينين سوداوين فيهما حورٌ ، ممشوق القوام ،  
رفيق المظهر ، ليس فيه شيء من هذه الخشونة وهذا البأس اللذين يبدوان في  
نظرة أبيه وفي حديثه ، واللذين جعلاً منه مثل القسوة الباطشة في الحجاز كله .  
ولم أسمع حديث القبي لأقف على مبلغه من العلم ، وإن رأيت منه صرامة في  
توجيه الأوامر إلى تابعيه هي لا ريب بعض ما ورث عن أبيه وبعض ما يقضى  
به مركزه وهو ابن الأمير الباطش الشديد .

وتناولت طعام الغداء يوم سفرى من المدينة على مائدة أحد أعيانها ،  
فرأيت فيها من نظامنا الحديث ما لا يتفق مع هذا الذى رأيت عند الأمير  
وما أذكرنى أن القوم لم ينسوا بعد أيام الأتراك . وهذا الرجل من أعيان المدينة  
ليس في سعة من الثروة تعاونه على المبالغة في بسط العيش . هذا ما قصه على  
بعض من وثقت بهم ممن عرفت بالمدينة . وإني لأقرأ يوماً في كتاب « برخارت »  
إذ وقفت فيه على ما يقال من أن أهل المدينة أحرص على التظاهر من أهل مكة ،  
وأنهم يميلون إلى شظف المأكل في حياتهم الخاصة ، لكنهم ينفقون على أثاث  
منازلهم وعلى ملابسهم التى يقابلون الناس بها نفقات طائلة .

ترى هل تطوع الأقدار للمدينة أن تبلغ غايتها فيما تتوق إليه من الحياة

الحديثة ومظاهرها ؟ وما عسى أن يكون أمرها إذا بلغت هذه الغاية ؟ إنهم ليتحدثون عن إعادة سكة الحجاز الحديدية سيرتها الأولى . وأهل المدينة يشربون بأعناقهم إلى هذا اليوم ويدعون الله من كل قلوبهم أن يكون قريباً . وإني لأشكرهم في هذا الدعاء ، وأرجو أن تسمو تقديرات الساسة حين النظر في هذا الأمر إلى الاعتبار الإنسانية ، وألا تقف في حدود التفكير الاستعماري والتنظيم الحربي . ولئن تأثرت في هذه الدعوة بأن المدينة من الأماكن الإسلامية المقدسة لأنها مهجرتُ النبي العربي ولأن بها قبره ، إني لشديد الرجاء ألا يبلغ تأثير ساسة الغرب بميوهم المسيحية حداً يحول دون بلوغ المدينة ما يمكن أن تبلغه من أسباب الرخاء والتقدم مما يطوع لأبنائها أن يشاركوا بمجهودهم في العمل المثمر لرخاء الإنسانية وتقدمها .

ما أشد شوقى أن يتحقق هذا الرجاء وأن يتاح لى إذ أعيد طبع هذا الكتاب أن أشير إلى نجاح المسعى لإعادة السكة الحديدية التى تعاون المسلمون من أقطار الأرض جميعاً على إنشائها ! . يومئذ يتاح للمدينة أن تخطو نحو حضارة العصر خطوة واسعة ، وأن تتصل بسائر أنحاء العالم كما اتصلت من قبل بها ، وأن تجد فى موقعها الطبيعي عوناً على تقدمها السريع فى الاضطلاع بأعباء الحضارة . فهذا الموقع الطبيعي على ما رأيت حَضْرٌ كل الحضرة ، لا يدانيه موقع مكة من هذه الناحية ولا يقاس إليه ، وهو لذلك صالح لمقام عدد عظيم جداً من السكان يستطيع التعاون والعمل المثمر والاعتماد على خيرات هذه الطبيعة الحصبة الجواد ، ومبادلة العالم مبادلة لا تقف عند المنتجات التى تجود بها هذه الطبيعة بل تتعداها إلى نتاج العقل الإنسانى وآثار الفن والفكر ، وتكون بذلك عظيمة الأثر جليلة الفائدة .

لم أشر إلى شيء من ذلك وأنا أتحدث فى هذا الفصل عن المدينة الحديثة لأن حال المدينة وحظها ما رأيت . لكن رقعتها قد اتسعت حين ابتم الدهر لها ثمانين ألفاً يقيمون بها ويعيشون فيها عيش رخاء وسعة . لم يتقصها الغذاء يومئذ وقد كان حولها من البساتين والمزارع ما طوع لأهلها أن يعيشوا عيش

الترف ، وأن يقيموا القصور الشاهقة وأن يحيطوها بالحدائق الغناء ، ولا يزال الأثر الباقي من قصر سعيد بن العاص شهيداً بذلك . والتاريخ يذكر قصوراً بوادى العقيق خلد الشعر على حقب العصور أسماءها . ولم ينقص الماء المدينة والعيون والآبار فيها بالغة من الكثرة حدًّا يثير تطلع « الجيولوجيين » إلى معرفة طبقات الأرض وما تحتوي عليه فيها . ولئن بقيت العين الزرقاء مصدر الماء لسقيا أهل المدينة إلى هذا الوقت الحاضر لقد يقف الإنسان أمام العيون والآبار المثورة داخل المدينة وفيما حولها دهشاً متسائلاً عن منابع هذا الماء أين تكون وكيف تختلف كل هذا الاختلاف الذى يعيد إلى الذاكرة صورة من بلاد المياه المعدنية بأوروبا . وأنت تقف من هذه الآبار اليوم عند بئر أريس بجوار مسجد قباء ، وبئر رومة الواقعة بالعقيق قريبة من مجمع الأسياح ، وبئر غرس ، وبئر حاء ، وبئر بضاعة ، وبئر السقيا ، وبئر أبى أيوب ، وبئر ذروان ، وبئر عروة بن الزبير . ويذكر البتانونى فى رحلته بئر الأعواف ؛ وبئر أنس بن مالك ، وبئر القويم ، وبئر العباسية ، وبئر صفية ، وبئر البويرة ، وبئر فاطمة . ولعل من هذه الأسماء التى ذكرها البتانونى ما يتفق فى مدلوله مع أسماء الآبار التى وقفت عندها ، وإنما اختلفت التسمية باختلاف العصور .

وكانت المدينة تُسقى من هذه العيون إلى أن جرت فيها العين الزرقاء بأمر معاوية بن أبى سفيان فى مستهل النصف الثانى من القرن الأول للهجرة . فى ذلك الوقت أمر معاوية عامله على المدينة مروان بن الحكم فأجرى هذه العين التى سميت الزرقاء لأن مروان كان أزرق العينين فيما يقول المؤرخون . يقول الأستاذ عبد القدوس الأنصارى فى كتابه « آثار المدينة المنورة : وأصل العين من بئر الأزرق فى بستان الجعفرية غربى مسجد قباء . وقد أضيفت إليها آبار فى أوقات متفاوتة كبئر أريس وبئر الرياض وبئر بويرة ، كما أنها مدّت بينابيع حفرت فى جنوبى بئر الأزرق أيضاً . وتسير من مصادرها المذكورة إلى بئر الشلالين فتفيض فيها ثم إلى بئر الغربال فبئر جديدة ، وهنا تمدها بئر

السرارة وبئر القلعجية وبئر السيد عبد الرحيم السقاف ، ومن هناك تأتي إلى المدينة ولها بها عدة مناهل ، وتخرج من المدينة إلى الشمال ؛ وحذاء بستان داود باشا تنقطع ويسير فائضها مع الماء الملح الآتي معها من بئر جديلة إلى البركة شمال الحرف وهناك مغيضها .

لم ينقص الماء ولا نقص الغذاء المدينة في أبهى عصورها وأكثرها سكاناً . بل كان الأمر على الضد من ذلك ؛ فكانت أيام الوفرة في السكان أيام رخاء ونعيم . ولسنا في حاجة إلى الإيغال في التاريخ التماساً للدليل على هذا وإن كان التاريخ خير دليل عليه . وحسبنا ما يذكره أهل المدينة اليوم عن رخائها بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٤ حين سارت سكة الحجاز الحديدية . فهم يتحدثون عن هذه الأيام القرية منا وملك قلوبهم الحسرة على ذهابها والرجاء الحار في عود مثلها لتعود لمدينة الرسول بهجتها وللذين يجاورون الرسول ابتسامة الحياة .

وهم يتحدثون كذلك عما كان لمصر في عصور كثيرة من شرف المعاونة لبلوغ مدينة الرسول غاية ما ترجو . فقد كانت التكية المصرية بها مصدراً من مصادر خيرها وتقدمها . وهي تقوم اليوم بهذا الواجب كما تقوم تكية مكة بمثله . والمصريون القائمون بأمرها يشاركون أهل المدينة في رجائهم الحار أن يعود إليها الرخاء وأن يعود اتصالها بالعالم .

وإنا كرة أخرى لنشاركهم جميعاً في هذا الرجاء . ولو أن العالم الإسلامي كان مسموع الكلمة اليوم كما كان شأنه أيام معاوية وفي العصور الإسلامية الزاهرة الأولى ، وكما كان شأنه أيام بني عثمان حين كانت للمسلمين عاصمة تتجه إليها أنظارهم ، إذآ لما أصاب مدينة الرسول ما أصابها بعد أن تشتت أهواء المسلمين وتفرقت كلمتهم بما أطمع فيهم الاستعمار إذ جعل قلوبهم شتى . أفيسجيب السميع العلم رجاءنا ويعيد إلى مدينة الرسول مكانتها ، أم أنه - جلت حكمته - يريد أن يرى المسلمين من آياته حتى يدركوا أنه لا تبديل لسنته وأنه لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم !؟

إن لنا في رحمة الله لأملا أعظم الأمل . ومن رحمته أن يبعث المسلمين بعد طول رقتهم إلى الحياة . لقد وعد رسوله ، ووعدُه الحق ، أنه سينصر دينه على الدين كله . والمسلمون يتوجهون اليوم إلى ربهم من أقطار العالم جميعاً تائبين منيبين يدعونه تضرعاً أن يهديهم سبيل رضاه ، وأن يُلهمهم الهدى ، وأن يُفِيض عليهم من فضله ، وأن يُسبِغ على مدينة الرسول نعماءه ، إنه سميع مجيب .

## آثار المدينة

لما اختار رسول الله الرفيق الأعلى اختلف أصحابه أين يدفن ؟ قال جماعة من المهاجرين : يدفن في مكة مسقط رأسه وبين أهله ، وقال غيرهم : بل يدفن في بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله . ثم رأوا أن يدفن بالمدينة التي آوته ونصرته والتي استظلت قبل غيرها بلواء الإسلام . ترى لو رجح الرأي الأول ودفن بمكة إلى جوار البيت العتيق ، أو رجح الرأي الثاني ودفن ببيت المقدس ، أفكان الناس يزورون المدينة اليوم ؟ وهل كان المسلمون يفكرون في سكة حديدية تصل بين المدينة والشام ويكتبون لها بمئات الألوف من الجنيهات وينشئونها ، فإذا عطلتها الحرب في سنة ١٩١٤ عادوا إلى التفكير في أمرها ؟ أم كانت المدينة تصير إلى ما صارت إليه الطائف وغير الطائف من مدائن بلاد العرب فلا يقيم بها إلا من تكفي مواردها لقوتهم في حدود قدرتهم البدوية على استغلال هذه الموارد ، وقل أن يزورها أحد من غير أهلها ، وبذلك يبقى أهلها عرباً خالصاً بدل أن يمتوا بأصولهم إلى بلاد العالم الإسلامي المختلفة في الهند والجاوة وفي مصر والشام وفي تركيا وأوربا وفي غير هذه من البلاد التي يقيم بها المسلمون شأن أهل المدينة اليوم ؟

لست في حاجة إلى الإجابة عن هذا السؤال وليس يختلف فيها اثنان . على أن السؤال لذاته فرض جدلي . فدقن النبي بالمدينة كان أمراً مقدوراً كما كانت هجرته إليها أمراً مقدوراً . وأحدث الآراء في العلم تثبت هذا المقدور كما تثبت الآراء المقررة في الدين . فما يحدث في الكون أثر من سنة الكون التي لا تبديل لها والتي تنتظم كل عوامل الحياة فيه . ولو أننا ذهبنا نتقصى النتائج التي ترتب على هذا الفرض لطال بنا الجدل . أفكانت الخلافة الإسلامية تقوم بالمدينة إذا دفن النبي بمكة أم كانت العاصمة تنقل إلى أم القرى ؟ أفكان ما حدث من الفتح الإسلامي يسير في الاتجاه الذي سار فيه أم في اتجاه



غيره ، وإنما أردنا من هذا السؤال في أول حديثنا عن آثار المدينة أن يذكر القارئ أن ما بهذه البقعة المباركة من الآثار يتصل كله بهجرة الرسول إليها ومقامه بها ودفنه فيها واتخاذ خلفائه الأولين إياها عاصمة للإسلام كما اتخذها هو له منذ الهجرة مقرأً .

والحق أن ما بالمدينة اليوم من آثار يتصل كله بالرسول ، فهو له ولأهله وأصحابه ، والقليل القليل منه لخصومه من اليهود الذين كانوا أولى ثروة وسلطان بالمدينة يوم هاجر إليها ، ثم لم يلبث أن أجلاهم عنها إلا من آمن به منهم واتبعه . وأنت إذ تسير في المدينة أو بظاهرها تشعر بأن الحياة الباقية لهذه الآثار هي التي تقف نظرك وتسترعى انتباهك ويهتز لها قلبك ، وهي التي جذبتك إليها لتزورها ، وهي التي أمسكتك لتقيم حولها . أما حياة الحاضر بالمدينة فتتعلق بآثارها وتكاد تكون حميلة عليها . من ثم كان تفكير الناس وحديثهم بالمدينة منصرفاً إلى هذه الآثار الخالدة على الزمن لا يغير منها تفاوت حظ المدينة بين الرخاء والشدة والبؤس والنعمى .

أو تحسب أن لهذه الآثار شواهد عليها عُنِي الناس بإقامتها وأسبغوا عليها من صور الفن قوة وفخامة تتفق مع ما تثيره في النفس من ألوان الذكرى ١٢ . لقد تحدثت عن المسجد النبوي وعمارته وما أضيف من الزيادات إليه . والمسجد كل ما في المدينة من أثر الفن في العمارة والنقش ، فأما ما سواه من شواهد الآثار القديمة فلا يعدو أكثره هذا النمط للمساجد القائمة بمكة ، والتي لا تزيد على مربع من الأرض تحيط به جدران غاية في البساطة ، يعلوه من ناحية المحراب سقف ساذج يستند إلى عمد ليست دونه سداجة في بنائها . أما بعضها فخير من مساجد مكة بناء ، ولبعض هذه المساجد الحسنة البناء قباب ومآذن ، وفي بعضها تقام الصلاة أحياناً ، على حين تقام في المسجد النبوي دائماً ، لما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى في تلك المساجد . وبالمدينة كما بمكة آثار غير المساجد ، بها آبار وعيون ودور وأمكنة وجبال وأودية مأثورة . لكن هذه الآثار تختلف دلالتها جميعاً عن دلائل آثار مكة اختلافًا ظاهرًا .

آثار مكة تتصل كلها بأيام الدعوة الأولى وما أصاب الرسول وأصحابه من الأذى والمساءة في سبيلها . وليس يشد عن ذلك من آثار مكة إلا ما اتصل بحياته صلى الله عليه وسلم في المدينة ، كمسجد الرضوان الذي أقيم ذكرى لعام الحديبية حين ذهب المسلمون من المدينة إلى مكة حاجين البيت معظمين حرمة ، ومسجد الراية الذي أقيم حيث ركز الرسول رايته حين فتح مكة . فأما آثار المدينة فتكاد تتصل كلها بجهاد المسلمين في سبيل الله . ولا غرابة في ذلك والآثار إنما تصور الجلائل من أحداث العصر الذي وقعت فيه ، واتصالها بالعظيم الذي وجه العالم في ذلك العصر وجهته ، ثم كان له بعد ذلك الأثر الباقي على الدهر . وقد كان محمد بمكة داعياً إلى الحق الذي بعثه الله به بأذلاً حياته في سبيل دعوته ، وكان بالمدينة مدافعاً عن هذا الحق وحرية الدعوة إليه ، مجاهداً في سبيل انتشار هذه الدعوة ليُظَلَّ الخافقين علمها .

ولست أجد في العالم بلدًا يحوى من جلائل الآثار ما تحوى المدينة . فبيت المقدس مثوى الأنبياء وبلد المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ومبكى اليهود ، وطيبة عاصمة مصر الفراعنة الأقدمين ، والقاهرة عاصمة مصر الإسلامية ، ورومية التي شهدت قيام الإمبراطورية الرومانية العظيمة وسقوطها ، وباريس ولندن وسائر عواصم العالم تتفحص آثارها دون التعبير عما تعبّر عنه آثار المدينة من المعاني . هذا ، على أن آثار المدينة لا شيء فيها من عظم العمارة إلا ما في المسجد النبوي ، أما سائرها فهو البساطة كل البساطة : ولست أدري لعل أبسط الآثار عمارة أعمقها في النفس أثراً . فجبل الزيتون وطريق الآلام في بيت المقدس يهزان القلب بما يحدثان عنه من تاريخ المسيح أكثر مما يهزه كنيسة المهدي وكنيسة القيامة وما يحدث عنه هذان الأثران الفخمان في العمارة من معجزات . والآثار القائمة في المدينة والتي انمحي بعضها فإيكاد يبقى إلا اسمه ، تبعث أمام الذهن من صور الجهاد في سبيل العقيدة والحق ما يهتزله وجود الإنسان كله إشفاقاً تارة وإعجاباً طوراً ، وإيماناً بالله وثقة بنصره الحق في كل حال .

من هذه الآثار طائفة تحيط بالمسجد النبوي لم تدخل في عمارته حين في منزل الوحي

زيادات عمر وعثمان والوليد والمهدى . وأكثر هذه الآثار كانت دوراً لأصحاب النبي أو لجماعة من حكام المدينة تولّوا أمورها في عصر بني أمية . وما بقي من هذه الآثار اليوم لا يشهد بما كانت عليه أيام أصحابها الذين تنسب إليهم ، بل أصابها من التحول على الزمن ما أصاب كل شيء في المدينة ، فبعضها اليوم أربطة محبوسة وقفاً على طوائف من الفقراء ، وبعضها أحييت مدارس في عصر ما ، ثم أصبحت مخازن أو ما إليها ، وبعضها تهدم فما يجد الإنسان من أثره شيئاً يقف عنده .

وأول ما يلفت الذهن من أسماء هذه الآثار دار أبي أيوب الأنصاري . لقد كانت منزل رسول الله أول ما بلغ المدينة في أثر هجرته من مكة ؛ على مقربة منها بركت ناقته لإزاء مريد سهل وسهيل ابني عمرو حيث كان المسلمون يصلون في المسجد الذي أقامه ابن عفراء ، وفيها نزل إذ كان صاحبها أبا أيوب أحد بني النجّار من الخزرج ، وبنو النجّار هم أخوال جده عبد المطلب . وقد أقام الرسول من هذه الدار بالسُّفّل ثم انتقل منه إلى العُلُو وظل زمناً يتراوح بين سبعة أشهر واثني عشر أوى بعده إلى مساكنه . فلا جرم وذلك تاريخها أن تكون أول ما يلفت الذهن من كل باحث في آثار المدينة ومبلغ صلتها بالرسول الكريم .

وتقع دار أبي أيوب شرقي المسجد من ناحيته الجنوبية ؛ فهي بذلك قبالة الحجرة النبوية لا يفصل بينها إلا الطريق . وهي تلاصق دار جعفر الصادق الواقعة في جنوبها ، ويفصل بينها وبين دار عثمان بن عفان الواقعة في شمالها زقاق يعرف بزقاق الحبشة . ويقوم اليوم في موضعها مسجد ذو قيساب ومحراب ، وقد كتب على جداره الخارجي بحروف بارزة مذهبة : « هذا بيت أبي أيوب الأنصاري مؤفد النبي - عليه الصلاة والسلام - سنة ١٢٩١ » مما يدل على أنها بُنيت مسجداً في هذا التاريخ . أما قبل ذلك فليس يعرف عنها إلا أن مدرسة أقيمت في موضعها سميت المدرسة الشهبائية ، نسبة إلى بانيها الملك شهاب الدين غازي ، وذلك بعد أن بقيت خربة زمناً طويلاً .

أما تاريخها القديم فكل ما جاء عنه في « الرّوض الأنف » للسهيلي أنها آلت بعد أبي أيوب إلى مولاه أفلح ، وهذا تركها حتى تخربت ثم باعها للمغيرة بن عبد الرحمن الذي قام بترميمها ثم تصدق بها على أهل بيت من فقراء المدينة أقاموا بها هم ومن بعدهم إلى أن تهدمت ، ثم تركوها عرضة ليس فيها أثر لبناء .

أين الشبه بين هذا المسجد القائم اليوم وتلك الدار التي أرى لإليها رسول الله ؟ لا شيء من الشبه ألبتة بينهما ، ومع ذلك يثير هذا المكان في النفس صورة ما حدث في اليوم الأول لنزول الرسول دار أبي أيوب ، وما حدث في الأشهر التي عقت ذلك اليوم . قف بنا أمام هذا المسجد الذي كان داراً لأبي أيوب وانظر . لقد كان ما حول هذه الدار خالياً من الجهات الأربع ، وكان يجاورها إلى الغرب مريد سهل وسهيل ابني عمرو يجفف فيه التمر ، وليس به إلا القليل من النخيل والغرفقد وقبور جاهلية تركد أثناءها مياه لا يعنى أحد بتصريفها . وكان هذا المكان مقصوداً من مسلمي المدينة الذين اتخذوه مصلى منذ جعل ابن عفرأ فيه عريشاً للصلاة . وكان هؤلاء المسلمون ما يزالون في عدد قليل ، لا يتجاوزون بضعة المئات عدداً ، وهم على ذلك موضع إجلال أهل المدينة واحترامهم ، إلا من أقفل التعصب قلبه من اليهود أو المشركين .

وها نحن أولاً اليوم يوم الجمعة الذي أقبل الرسول فيه من قباء ومعه أبو بكر وحولهما جماعة من مسلمي المدينة رجالاً وفرساناً في جنوبهم السيوف . وها هم أولاء أهل المدينة جميعاً قد خضوا إلى طرقاتها يريدون أن يروا هذا الرجل الذي يتحدث أهلهم المسلمون عنه في إكبار وإعظام ليس مثلهما إكبار أو إعظام . انظر إلى هذه اليهودية الواقعة هناك فوق ربوة بين صاحبات لها تسأل : « أيُّ الرجلين محمد ؟ » واسمع إلى جارتها الخزرجية تجيبها : « كيف لا تحزُرينه ! أو تحسبينه هذا الأبيض النحيف الخفيف العارضين الناقئ الجبهة ؟ كلا ! فهذا أبو بكر » . وتردف اليهودية في إعجاب : « هو الآخر ؟ إذا ما أبهى طلعتة وما أعظم وقاره ! . إن له لعينين نافذتي النظرة من حدقهما الأسود

اللامع بين أهدابهما السود الطوال» . ورجال المدينة وقتيانها يسرون حول النبي في مظاهرة ابتهاج كلها الجلال ، وهي لا تخلو مع ذلك من حوار أيهم يكون له شرف ضيافته . وكلما مرَّ بقوم من أنصاره استوقفوا ناقته وعرضوا عليه أن ينزل عندهم في العدد والعُدَّة والمسنَّعة ، فيقول لهم : « دعوها بارك الله فيكم لأنها مأمورة » .

لقد أدركوا الجمعة إذ هو يبطن وادي رانوزاء من أودية المدينة ، فنزل فصلاها بالناس بعد أن خطبهم قائلاً : « أيها الناس ، أفسسوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام » . وما هي ذى ناقته تنطلق كرتة أخرى فيندفع أتباعه حوله ، وأهل المدينة أشد لأمره عجباً ، وبه إعجاباً ، وأصحابه الأنصار ما يزلون يتحاورون أيهم يكون منزله منزلاً لرسول الله . والآن بركت الناقة عند مربرد سهل وسهيل ، واجتمع كبار الأنصار حول الرسول يحتكمون إليه أيهم ينزل عليه ، قال رسول الله حسماً لنزاعهم : « إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك فأى بيوتهم أقرب ؟ » . هذا أبو أيوب يُقبل فرحاً مستبشراً يقول وهو يشير إلى داره : « أنا يا رسول الله ، هذه دارى وهذا بابى ! » . ويأخذ رجل النبي إلى داره وينطلق به ليهيئ للضيف الكريم مقيلاً .

ما لهؤلاء المتظاهرين لا ينصرفون ! إن عيونهم لا تدع النبي لحظة ، كأنما يزداد شوقهم إليه وشغفهم به . والآن ها هم أولاء يتطلعون إلى ناحية الدور المجاورة . لقد طرق سمعهم صوت لفت نظرهم ، ذلك صوت فتيات من ربَّات الخدور صعدن الشرفات يتغنين :

طلع البدرُ علينا	من ثننَّيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

ترى من ذا صاغ لمن هذا القول الحلو ولحنَّ لمن هذا النشيد العذب ؟ لعله فنى من شعراء المدينة ، أولع بالنبي حباً من قبل أن يراه ، ولعله أحد

هؤلاء الفتيان المتظاهرين يتدافعون بالماكب حوله وهم يتنادون نشوة وفرحاً :  
« جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، والحبشة يلعبون أثناء ذلك بحرابهم فرحاً  
بقدمه ، فيطلق اسم الحبشة لذلك على الزقاق المجاور لدار أبي أيوب .  
وأولئك جوارٍ من بنى النجار يُقبلن يضربن بالدفوف ويقلن :  
نحن جوارٍ من بنى النجار يا حبذا محمدٌ من جارٍ  
ويبتسم لمن محمد ويقول : « أَتُحِبُّنَنِي ؟ » فيجبن : نعم يا رسول الله .  
فیردِف : « يعلم الله أنى أحبكن ! » .

آية غبطة هذه الغبطة ! وأى فيض من السرور أضاء المدينة في هذا اليوم  
الخالد في صحف التاريخ ! لقد نسى الناس طعامهم فما يزيدون الانصراف  
إليه . وهم لم ينصرفوا حتى قام النبي إلى بيت أبي أيوب يقبل فيه من حرّ ذلك  
اليوم القاطن من الصيف . هنالك بدءوا ينصرفون ولا حديث لهم إلا مقدّم  
رسول الله وما اختار الله للمدينة من فضل بمهاجرته إليها .

لم يكن هذا اليوم على جلاله هو الذى خلّد لدار أبي أيوب كل ما لها من  
جلال الذكرى ، إنما خلّد لها ذلك مقام النبي بها شهوره الأولى بالمدينة ، وما أتم  
أثناء هذه الشهور من عمل كان له في الإسلام وسياسته الأثر الباقي على التاريخ .  
أثناء مقام محمد بهذه الدار آخى بين المسلمين مهاجريهم والأنصار ، ووضع  
سياسة المعاهدة بينه وبين اليهود ، وأقام في المدينة بذلك نظاماً لم يكن مألوفاً  
من قبل . ولم يدُرْ بخليد أحد يوم وُضع أنه يصور سياسة بعيدة المدى تنتهى  
بالمدينة إلى وحدة أساسها الإخاء والتضامن ، وتنتهى باليهود إلى الجلاء عنها ،  
ثم تنتهى بالإسلام إلى الانتشار في بلاد العرب كلها لينتشر منها بعد ذلك في  
أنحاء العالم وربوعه جميعاً .

وهذا نوع من التفكير السياسى كان جديداً يومئذ في حياة محمد . فهو  
لم يَرم حين مقامه بمكة إلى تنظيم سياسى ، أو أن يجعل من التنظيم السياسى  
وسيلة إلى الدعوة للدين الذى ألقى عليه تبليغه للناس . لكنه ما لبث حين أقام  
بدار أبي أيوب واتصل بالمسلمين من أهل المدينة أن قدر ما بين العقيدة ونظام

الحياة من صلة ، وأن العبادات التي تدعو العقيدة إليها تتصل بنظام الحياة ويتصل بها هذا النظام أوثق اتصال . فالعقيدة أمرٌ فردي من حيث اتصالها بالرأى وتكييفه . فإذا انتقل الأمر إلى مظهرها العام وإلى العبادات المتصلة بها وإلى الفضائل التي يتحلّى بها صاحبها ، أصبحت مسألة اجتماعية لا مفر من أن يتناولها التنظيم . وليس يقف تنظيمها عند فرائض العبادة من وضوء وصلاة وصوم وزكاة وحج ، بل يتعدى الأمر هذه الفرائض إلى صلوات الناس بعضهم ببعض . والأمر في تفاصيل هذه الصلوات أمر دنيا ، والناس في كل عصر أعلم بحاجاتهم فيها . لكن المبادئ العامة التي يجب أن يقوم التنظيم عليها ، كالمبادئ العامة التي تقوم عليها صلوات المسلمين بغيرهم من الناس ، يجب أن تتسق مع تنظيم هذه الفروض التعبّدية ، ويجب أن تظلّ أبداً على هذا الاتساق وإن اختلف تصويرها واختلف تفصيلها باختلاف الزمان والمكان . هذا ما اتجه إليه تفكير الرسول أثناء مقامه بدار أبي أيوب ، وكان من أثره هذه المؤاخاة بين المسلمين وهذه المواعدة مع اليهود .

تقع دار عثمان بن عفان إلى الشمال من دار أبي أيوب لا يفصل بينهما إلا زقاق الحبيشة . والمعروف أن عثمان كان له في هذا المكان داران متصلتان بناهما في عهد الرسول عليه السلام ، دار صغرى ودار كبرى . أما الدار الصغرى فيقوم موضعها اليوم رباط للمغاربة يدعى رباط سيدنا عثمان . وبهذا الرباط اليوم مكتبة تحوى كتب الفقه المالكي وغيره موضوعة في خزانات تدل نقوشها على أنها من مصنوعات الدولة العباسية . ويقال إن هذه الخزانات كانت بالحرم وكانت مهداة إلى الحجرة النبوية ثم أخرجت منه ووضعت في هذا الرباط . أما الدار الكبرى فموضعها اليوم رباط العجم ، وهي مخصصة لشيخ الحرم النبوي ، وبها قبر أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي وقبر والد صلاح الدين الذي دُفن مع أخيه .

وقد روى ابن جبّير في رحلته أن عثمان استشهد في هذه الدار الكبرى . وذكر السهودي : أن قتلة عثمان تسوّروا عليه من الدار الصغرى إلى الدار

الكبرى التي كان يقطنها يومئذ . ومن العسير أن يحقّق اليوم المكان الذي تسوّروا منه أو الطريق الذي سلّكوه في انتقالهم بين الدارين بعد أن استحالت هذه الدور غير صورتها الأولى ، وبعد أن أصبح تعيين الموضع الذي قُتل عثمان فيه تعييناً دقيقاً غير ميسور .

لشدّ ما تختلف الذكريات التي تبعثها هذه الدار إلى الذهن عما تبعثه دار أبي أيوب . كانت دار عثمان من أفخم دور المدينة في ذلك العصر ، على حين لم تكن دار أبي أيوب تختلف عن دور أوساط الناس من الخزرج . مع ذلك توحى هذه الدار إلى النفس ما رأيت من ذكريات . فأما ما بقي من ذكر لدار عثمان فقتلته بها واختلاف المسلمين بعده ثم انقسامهم واتخاذ دمه ذريعة لهذا الانقسام . ومع ما رأيت دار عثمان في عهد خلافته من فتح المسلمين بلاد الروم والفرس ومن امتداد ملكهم إلى تونس وإلى قلب إيران ومن استيلائهم على جزر البحر الأبيض المتوسط لقد غشّيت على ذلك كله ما حدث في آخر هذا العهد حين اتخذ عثمان مروان بن الحكم كاتب سرّه ، وحين آثر بنى أمية على قريش وعلى الأنصار وعلى سائر المسلمين مما أدى إلى الفتنة وانتهى إلى قتله . غشّيت على هذا الفتح الذي انفسحت به رقعة المملكة الإسلامية ، وبقيت صحف التاريخ تقلّب مقتل عثمان أمام الذهن في صورة تثير النفس وتلدع بالألم كل مسلم لما ترتب على هذا الحادث من آثار ما زال خصلّف المسلمين يتناقلونها عن سلفهم . وحقّ ما قيل : « إنما الأعمال بخواتيمها » . ولو أن أجل عثمان حمّ قبل أن تثور الفتنة لإيثاره بنى أمية ففات ولم يقتل ، لتغير وجه التاريخ أغلب الأمر ، ولما نجمت في المسلمين هذه الشيع التي أنشأها قتله والخلاف على دمه ، وما أثاره هذا الخلاف من حفاظ قديمة بين بنى هاشم وبنى أمية .

إلا أن في هاتين الدارين المتجاورتين — دار أبي أيوب ودار عثمان — العبرة أبلغ العبرة : عبرة الأخوة بين المسلمين وما في الأخوة من قوة يضاعفها الإيمان الصادق ، والخلاف بينهم وقيام الحكم فيهم على التنازع والغلب يناجز



به بعضهم بعضاً . ولقد كان هذا التنازع في صدر الإسلام وحين كانت أسوة الرسول حاضرة في الأذهان . أفكُتِبَ على المسلمين أن يظل الانقسام دَيْدِنَتَهُمْ ، وألا يذكرُوا مؤاخاة النبي بين المؤمنين أول ما جاء المدينة وقبل أن ينتقل من دار أبي أيوب إلى منازلِهِ ، وأن ينسوا قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ » ؟ أم أن لدورة الزمن أن تدور وأن تُصَبِّحَ للأمم الإسلامية عصبية تدعو إلى الإسلام والسلام متأخية إخاء المسلمين في الصدر الأول ، يوم خرجوا من شبه الجزيرة فأضاءوا العالم بنور التوحيد ونشروا فيه أسْمَى المبادئ ؟

تقع دار عثمان إلى جوار المسجد من جهة الجنوب الشرقي ، وتقع دار مروان ابن الحكم مقابلها من الجهة الجنوبية الغربية في جوار باب السلام . ولقد ولي مروان بن الحكم إمارة المدينة في عهد معاوية بن أبي سفيان بعد أن كان كاتب السر لعثمان بن عفان ، فأتم من أعمال الإصلاح فيها ما جعل أهلها يلهجون بحمده والثناء عليه وينسبون باب السلام إليه فيسمونه باب مروان ويظلون على ذلك إلى عهد العباسيين . أجرى مروان العين الزرقاء ، ورصف أطراف المسجد النبوي بالحجارة ، وجعل للمدينة من أموال الفتح الأموي ما لعله أنساها مقتل علي بن أبي طالب بالكوفة لولا مقتل الحسين ابنه بعد ذلك بكر بلاء . وسخاء مروان هو الذي جعل المدينة أقل مقاومة من مكة في عهد معاوية وأول أيام يزيد . ومن يومئذ بدأ أهل المدينة من الأوس والخزرج يغادرون مدينتهم إلى بلاد المملكة الإسلامية الفسيحة الأطراف ويقيمون بها ليحل المسلمون من بلاد هذه المملكة محلهم فيها . ولم تنقض إلا أجيالٌ حتى لم يبق فيها إلا الأفلون من أبنائها الأولين .

دار أبي أيوب هي التي نزل رسول الله بها أول مُهاجِرِهِ إلى المدينة . ويقابلها داخل المسجد موضع حجرات أزواج النبي التي ضُمَّتْ إليه في عهد الوليد بن عبد الملك ، ويفصل زقاق الحيشة بين دار أبي أيوب ودار عثمان ، وتقع دار مروان بن الحكم في جوار باب السلام . أليس لأبي بكر ولعمر وعلى آثار

باقية اليوم حول المسجد تكمل بها سلسلة التاريخ في هذه الفترة : فترة نصف القرن الأول من الهجرة ؟ . أما أبو بكر فله بجوار المسجد الغربي الخوخة التي أوردت عند الحديث عن المسجد بعض خبرها ؛ وله فيما تذهب إليه الرواية ، دار تجاور دار عثمان بن عفان من الشمال ، ولا يفصل بينهما إلا طريق البقيع ، وهذه الدار هي التي مات بها . وليس حول المسجد مكان ثابت النسب إلى عمر بن الخطاب باعتباره موضع داره ، وإن حاول بعضهم أن ينسب إليه داراً في شمال المسجد . لكننا تقع في جنوب المسجد دار تطل على الحجرة النبوية تعرف بدا آل عمر ، ويقول السهمودي : إنها دار عبد الله بن عمر بن الخطاب ، آلت إليه عن أخته حفصة أم المؤمنين . وكان لهذه الدار نفق يصلها بالمسجد حتى سنة ٨٨٨ من الهجرة إذ سد هذا النفق ورُدِم بالتراب . ولا تعرف باسم علي بن أبي طالب دار ولا موضع لدار فيما حول المسجد ، وإنما يعرف باسم زوجه فاطمة ابنة رسول الله مكان من الحجرة النبوية يزعم بعضهم أنها مدفونة فيه ، والرواية الراجحة أنه موضع دارها التي كانت تقيم بها والتي أقام بها أبناء الحسن والحسين من بعدهما حتى ضمها الوليد بن عبد الملك إلى المسجد . أما قبرها فبالبقيع .

أما دار نائب الحرم اليوم ، وهي التي تلاصق دار أبي أيوب من الجنوب ، فتنسب إلى جعفر الصادق الحسيني . والمقيم اليوم بهذه الدار بعد إلغاء وظيفة « نائب الحرم » هو القائم بإدارة أوقاف الحرم النبوي .

ألا ما أكثر ما تثير ذكريات هذه الدور من أثر في النفس ! إنها تثير عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين كله . ويقع على مقربة منها أثر يثير في النفس من ذكريات البطولة والإقدام ويرسم أمام الذهن صورة من الفتح الإسلامي تهز القلب إعجاباً وإكباراً . فقبالة باب النساء من أبواب المسجد وإلى جانب الأثر الباقي من دار أبي بكر ، قبة صغيرة مبنية باللبن والطين واقعة بمقصد رباط يدعونه رباط خالد بن الوليد . هذه القبة تقوم في الموضع الذي كانت تقوم فيه دار بطل الإسلام خالد ، ويعيد صغرها إلى الذاكرة ضيق هذه الدار

ضيقاً شكاً خالد منه إلى النبي ، فقال له : « ارفع البناء في السماء ، وسل  
الله السعة » .

أو يظن أحد أن تكون هذه البقعة الضيقة دار خالد بن الوليد ، بطل  
قريش وفارسها المُعَلِّم وصاحب لوائها قبل أن يُسَلِّم ، وبطل الإسلام  
وسيف الله المسلول بعد إسلامه ! خالد الذي ضاقت الأرض بفتوحه شرقاً وغرباً  
في فارس وفي بلاد الروم ، والذي كان في عهد الرسول بطل مُؤْتة وقلئدها بعد  
موت أصحابه ، تكون داره بهذا الضيق ! يا للنزاهة ويا للإباء ! حق إن هذا  
العرض من متاع الدنيا لا وزن ولا قيمة له ، ولا يساوي عند الله جناح بعوضة .  
كم من ملوك في زماننا هذا وفيما سبقه من القرون يودون لو حفظ التاريخ لهم  
قطرة من بحر مما حفظ لخالد من ذكرى فلا يُغنى عنهم ما لهم من ذلك شيئاً  
ولا يجدون إليه الوسيلة . ألا إنها عظمة النفس هي الباقية ، وسلطان النفس على  
الحياة هو الخالد في صحف الحياة .

تقع دار خالد إلى جانب زاوية السَّمَّان التي كانت دار رَيْطَة ابنة  
أبي العباس السفاح . وزاوية السمان واسعة فخمة ، وكانت دار رَيْطَة واسعة فخمة  
كذلك ، فليست دار خالد شيئاً بالقياس إليها . وإذا كانت دار رَيْطَة تقع  
قُبالة باب النساء ، وكان لريطة ما يجب لابنة أبي العباس السفاح من مكانة ،  
فقد أطلق اسمها على هذا الباب من أبواب المسجد النبوي ، فسمى باب رَيْطَة  
زمناً غير قليل . فلما ماتت رَيْطَة وتوالت القرون ردَّ إلى باب النساء اسمه ،  
وبنى « يازكوح » أحد أمراء الشام دارها من جديد وجعلها مدرسة للحنفية  
وجعل فيها قبره .

إلى جوار المسجد مواضع يقال إن دور عمرو بن العاص وسُكَيْنَة بنت  
الحسين كانت بها . وموضع دار سُكَيْنَة ينسب إلى تميم الداري الصباحي  
المعروف . كذلك يروى أن الدار التي كان يُجْرَى عمر بن الخطاب فيها قضاءه  
كانت في الموضع الذي تقوم به الحمودية الآن . وهذه مجموعة من الدور كانت  
قائمة في عهد النبي وفي العصر الذي تلاه تفاخر بها المدينة كل مدينة سواها .

ولعل أهلها إذ يذكرون من الدور ما كان بعد عهد النبي إنما يذكرون بها أيام كانت مدينتهم عاصمة عزيزة الجانب ، تمثل القوة الإنسانية ذات الأثر الخالد في العالم . فالمدائن كالأشخاص تنغى بأيام مجدها وعزها ، وإن بعد في التاريخ عهد هذا المجد ، وإن أصبح هذا العز الذي تربّع الأجداد على عرشه أقصوبة يتحلب لها ريق من فاته العز بعد أن طال التماسه إياه في غير جدوى .

تقع هذه الدور كلها حول المسجد النبوي كما رأيت ، وقلما يحدثك أحد عن دور أثرية غيرها بالمدينة ، إنما يحدثوك عن أمكنة تاريخية وعن مساجد وحصون وآبار . ويقع بعض هذه بالمدينة وبعضها بظاهرها ، وإن تعذر عليك أن ترسم خطأً واضحاً يفصل بينهما . ويرجع تعذر ذلك إلى أن المدينة انبسطت وانقبضت على التاريخ مما اقتضى أن يبني لها سوران ، أحدهما باق إلى اليوم ولم يبق من الآخر إلا آثار تراها ها هنا وهناك . ولقد تخطت المدينة السورين في بعض العصور الزاهرة من أيام رخائها . ومن هذه الأيام ما قبل الحرب العالمية الأولى ( ١٩٠٧ م - ١٩١٤ م ) ، حين سيّرت السكة الحديدية الحجازية . من ثَم لا يقف أكثر المؤرخين لآثارها عند تخطيط دقيق . ولم تُتَح لى الفرصة الضيقة التي قضيتها بها أن أرسم لآثارها حدوداً دقيقة ، وخاصة أن ليست لها خريطة يمكن الاعتماد على دقتها .

ولقد فكرت أن أجعل الخندق الذي حفره المسلمون في غزوة الأحزاب أيام النبي حداً فاصلاً ما بين المدينة وظاهرها . لكنى لم ألبث حين البحث أن رأيت تحديده الصحيح عسيراً . فقد سألت الأستاذ عبد القدوس الأنصاري يوماً أن يريني إياه ، فلم يخف عليّ أنه يتوهمه ولا يعلمه علم اليقين . وله من العذر عن ذلك ما نقله في كتابه ( آثار المدينة المنورة ) عن المطري الذي أرّخها في القرن الثامن الهجري ، إذ قال : « وقد عفا أثر الخندق اليوم ولم يبق منه شيء يعرف إلا ناصيته ، لأن الوادي وادي بطنحان استولى على موضع الخندق وصار مسيله في الخندق » على أنه حاول أن يقف بي عندما يعتقد أنه أثره كما بيّنه على خريطة تقريبية ضمّنها كتابه . أما والتحديد الصحيح

للخندق غير ميسور فلأجعل هذا التحديد التقريبي بديلاً منه للغرض الذي أتوخاه ، غرض الفصل ما بين المدينة وظاهرها .

والخندق كما صوره الأستاذ عبد القدوس يقع في شمال المدينة بينها وبين أحد ، وينحدر إلى الشرق بينها وبين حرّة واقم ، ويتصل من الجنوب بوادي بَطْحَان ، ومن الغرب بحرّة الوبر . وفيما وراء الخندق من الشرق تقع منازل اليهود في عهد الرسول : بني قُرَيْظَةَ وبني النَّصِير ، وفيما وراءه من الغرب يقع وادي العقيق ، وتقع قُبَاء في جنوبيه . وسنتناول ما هنالك في هذه الجهات جميعاً حين حديثنا عن ظاهر المدينة .

أخالي غالباً حين أذكر ما ساورني من أسف لإهمال أثر الخندق حفرة المسلمون الأولون برأى سكران الفارسي ، ولم تكن الخنادق معروفة في حربهم فكان له من الأثر أن حمى المسلمين وحمى الإسلام وكان عرضة لفتك المشركين بعد أن ألهم اليهود بامرة حُيَيِّ بن أخطب عليهم . وهل حافظ المسلمون على غير الخندق من الآثار فيلامون على إهمالهم إياه ! . وإذا كانت غزوة حُنين المجيدة لا يُعرف موضعها على وجه التحقيق في جوار مكة ، فلا عجب أن يصيب الخندق ما أصابه . لقد نزل في حنين قرآن كما نزل في الخندق قرآن . ففي غزوة الخندق وموقف الأحزاب من المسلمين فيها يقول الله تعالى : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » . أو لم يكن حقاً على المسلمين أن يقيموا لهذا الخندق أثراً باقياً يُذكر به ! أو ليس حقاً اليوم أن تقوم

بما لم يقوموا به ليكون لنا في صبر المسلمين حين الخندق على البأساء وعلى مواجهة الموت عبرة ! أم أننا لا يعنيننا من تاريخ السلف إلا بركته ، وإن غابت عنا عبرته ! .

والآن ، فماذا وراء الخندق في داخل المدينة من آثار تذكر اليوم ؟ لا أحسب أثراً لما بعد عهد النبي أبي ذكراً عند المسلمين من سقيفة بني ساعدة . وهم لا يذكرونها لجلوس النبي فيها ما يذكرونها لوقوع بيعة أبي بكر بها ، بعد ما وقع من خلاف بين الأنصار والمهاجرين أيهم تكون له الإمارة . وقد ألفت الناس أن يذكروا تاريخ الخلاف بينهم أكثر مما يذكرون أسباب اتفاقهم وإخائهم . أترى مكان هذه السقيفة ثابتاً مع ذلك لا يقع عليه خلاف ؟ كلا ! فن المؤرخين من يقول إنها خارج الأسوار على مقربة من بئر بضاعة . وهذا الرأي الأخير رأى المطري ، وقد انتهى السهمودي إلى ترجيحه . وبذلك تكون السقيفة واقعة عند الباب الشامى من أبواب المدينة قبيل ملتقى الطريق إلى الشام والطريق إلى أحد .

ولا يزال أهل المدينة يحتفظون للسقيفة بأثر لم يُشِرْ عنايتي ؛ فهو فضلاً عن عدم قدمه لا يصور في الذهن معنى من حياة الأنصار الأقدمين . وما قيمة الأثر أو النصب إذا خلا من المعنى المقصود منه وفقد مزية القدم ! .

هذا ولقد كنت حريصاً على الوقوف بالآثار التي تذكر عهد النبي بالمدينة أكثر من حرصى على سواها . وما تذكره سقيفة بني ساعدة من ذلك قليل إذ كانت لا تذكره بأكثر من أن النبي جلس فيها . وما ذلك إلى جانب ما تذكره المناخة الفسيحة التي ما تزال باقية فضاء كما كانت في العهد الأول ، والتي تأوى قوافل الحجاج إليها إذ تتخذ منها مناًخة إلبها ومضارب خيامها ، كما فعل العرب على عهد الرسول إذ جاءوا زرافات ووحداناً ملبين الداعي لحجة الوداع ! وليس يذكر الحجاج اليوم شيئاً من حجة الوداع ومقدم المسلمين إلى المدينة لأداء فرضها مع رسول الله . هذا وحجة الوداع من أعلام الإسلام التي لا تُنسى ؛ إذ نزل في أثرها قوله تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

وكانت المناخة قبل حجة الوداع وأول ما جاء الرسول إلى المدينة سوقاً لبني قَيْنُقَاع من اليهود الذين اتخذوا منازلهم على مقربة منها ، وكانت سوقاً للمدينة كلها حتى استحرَّ الخلاف بين المسلمين واليهود ، فتحولت السوق عنها . وبنو قَيْنُقَاع من اليهود هم أول من تحرَّش بالمسلمين في المدينة ، فنشبت العداوة والبغضاء بينهم وبين اليهود . فقد كان بنو النضير وبنو قُرَيْظَةَ يقيمون خارج المدينة فيما وراء موقع الخندق من قبل أن يحضر الخندق . أما بنو قَيْنُقَاع فكانوا يقيمون بين أهل المدينة ، وكان لهم فيها من سلطان المال ما لليهود حيث نزلوا من أقطار العالم . وكان أول ما بدأت الخصومة بين اليهود والمسلمين بعد انتصار المسلمين في عزوة بدر . أما قبل بدر فكان اليهود يدسون بين المسلمين يحاولون الوقعة بينهم لتبقي لهم هم الكلمة العليا . فلما رأوا كلمة المسلمين تلو ومكانتهم في شبه الجزيرة تستقر وتُهبأ تخافوا المغيبة فأتمرروا وجعلوا يُغرون بمحمد وأصحابه ويرسلون الأشعار في التحريض عليهم . ولم يطق المسلمون ذلك منهم ، فاندفع شباب الأنصار فقتلوا أبا عَنَسَك وعَصَمَاء من المنافقين وكتب ابن الأشرف من اليهود . عند ذلك اشتدت مخاوف اليهود ولم يبق منهم من يأمن على نفسه . لكنهم شعب طويل الأناة كثير المكر ذو مِرَّة في العناد . أمّا وقد رأوا أن المسلمين لا ينجح معهم الدس والوقعة فليرهبوهم بالسحر منهم لعلهم يرجعون . أرادوا امرأة مسلمة جاءت سوقهم تُصلح حلية لها عند صائغ منهم على كشف وجهها فأبى . وجاء يهودى من خلفها على غِرَّة منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فصاحت . إذ ذاك وثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . وأراد رسول الله حسم الشر فطلب إلى اليهود أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المودعة الذى عقده معهم أو ينزل بهم ما نزل بقريش . وكان جواب بنى قَيْنُقَاع : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت

قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس . فلما سمع النبي ذلك منهم حاصرهم خمسة عشر يوماً لم يخرج منهم أحد ولم يدخل عليهم بطعام أحد ، فلم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه . وقام عبد الله بن أبيّ ، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً ، فطلب إلى محمد أن يعفو عنهم وأن يُعفيهم من القتل . وانتهى الأمر بعد خلاف أن غادروا المدينة إلى وادي القُرى ثم إلى أذرعات على حدود الشام وعلى مقربة من أرض المَعَاد .

تذكرنا المُسَاخَعة بهذا الحادث في حياة المدينة على عهد الرسول وبما ترتب عليه من جلاء اليهود عن المدينة ، وما كان بعد ذلك من جلاء اليهود عن بلاد العرب كلها . ويدعوننا هذا الحادث إلى التفكير ؛ أيهما خير لحياة أمة من الأمم : أن تكون على عقيدة واحدة ودين واحد ، أم يترك فيها أمر العقيدة جانباً فلا بأس بأن تتعدد فيها الأديان والمذاهب ؟ والجواب أن الناس في العصور كلها قد حرصوا على أن تكون الأمة رأياً واحداً في دينها وعقيدتها كقالة لأمنها وسلامها . وحيثما تعددت الأديان وتشعبت المذاهب كان ذلك مبعث الثورة والاضطراب . ولا يزال الناس من أهل عصرنا على هذا الرأي ، وإن عبروا عنه بما سموه حرية العقيدة . وهم إنما أرادوا بهذا التعبير أن يهونوا من حدة التعصّب وما كان يؤدي إليه من سفك الدماء لاختلاف مذهبي قد يكون أهون أمراً من أن يختصم فيه رجلان ، بله أن تزهق بسببه أرواح وأن تضطرب له حياة الجماعة . والواقع أن تعدد الأديان في الأمة الواحدة قد كان أبداً مثار منازعات دموية أو غير دموية لها في حياة الأمم أسوأ الأثر . وليس ينسى أحد مذبحجة « سان بارثلمى » في فرنسا ولا حروب البروتستنتية والكتلكة قبلها . ولن ينسى أحد ما وقع في عهود كثيرة بين إنجلترا واسكتلندا بسبب الخلاف الديني . وعلمنا اليوم ومنذ عشرات من السنين يضطرب بنزعة العداوة لبني إسرائيل مصورة في صور عداوة السامية ويصلى من ذلك ويلات وأهوالا . ولقد عانت فرنسا من حادث « دريفوس » وقضيته أشد العناء . وهذه

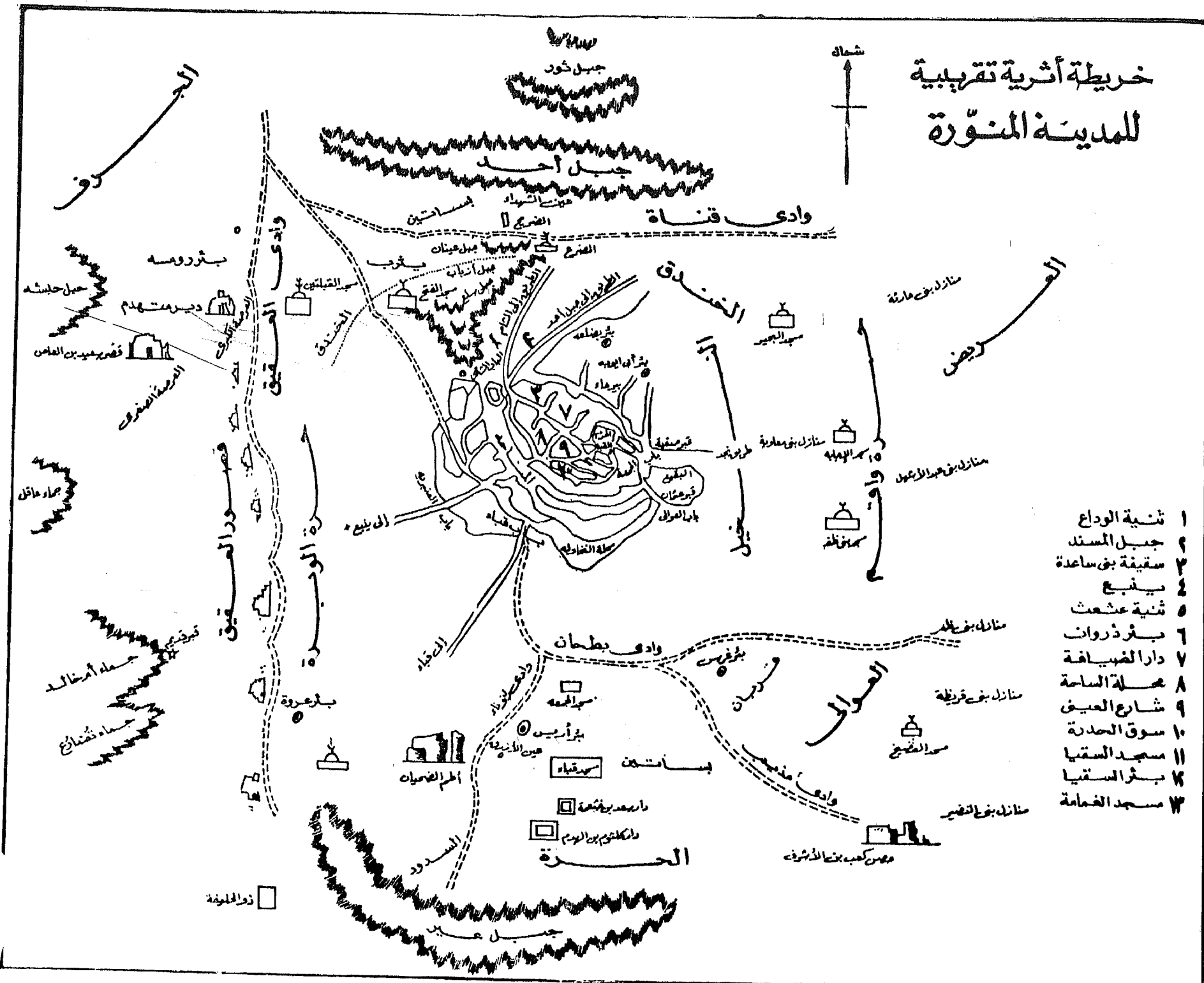


ألمانيا في هذا القرن المتمم للعشرين قد أجلت اليهود عنها وضربت بينهم وبينها حجاباً ، وكانت في شأنهم أشد تطرفاً مما كان محمد والمسلمون الأولون في بلاد العرب . وما تحاوله إنجلترا اليوم من إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين على كره من أهلها ليس إلا مقدمة لإجلاء اليهود عن إنجلترا ، وهى مقدمة يدركها تمام الإدراك من عرف السياسة الإنجليزية ومراميتها البعيدة وأساليبها الخفية . وهذا كله ينهض دليلاً على أن العقيدة أساساً للحياة الاجتماعية أكبر شأننا من الأساس الاقتصادي ، وأن تفكيرنا الحاضر في هذا الشأن لم يخالف تفكير من سبقنا ، وأن ما نسميه حرية العقيدة قد يصدّق بالنسبة للفرد فيما بينه وبين نفسه ، لكنه لا يزيد في أمر الجماعة على أنه ثوب رياء قد يوارى ما تحته وإن لم يخف الحقيقة التي لم تختلف على الأجيال .

والذين يلبسون تفكيرهم ثوب الرياء يتهمون غيرهم بالتعصب ، وهم علم الله أشد الناس تعصباً لآرائهم وعقائدهم . وما نعيبهم بذلك وإنما نعيبهم بنفاقهم . ولو أنهم آثروا الصراحة وأنصفوا لقالوا الحق من أن وحدة العقيدة هى المظهر الأول للحياة الاجتماعية ، وأن هذه الوحدة تكون أساساً صالحاً حقاً ما قامت على إدراك وفهم ، لا على تقليد جامد يمسك صاحبه في ظلم الضلالة ويأبى أن يخرج به إلى نور اليقين ليسلك سبيله التي تؤدي إلى صراط الله المستقيم .

وإنما تقوم الحياة على هذا الأساس الصالح المتين يوم يسمو الإنسان في صلته بالإنسان إلى التفاهم عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن ، والقصد إلى الحق بالدليل والحجة البالغة ، مع الحرص على بلوغ هذا الحق والمصارحة بالاعتناع به متى حدث هذا الاعتناع . وما تزال الإنسانية ، مع الشيء الكثير من الأسف ، بعيدة عن أن تقيم صلاتها على هذا الأساس ، وهى ما تزال تلجأ إلى القوة تعتبرها وسيلة مجادلة وسبيل إقناع . وما دام ذلك شأنها فلن يتهيأ لها من وحدة العقيدة بين أهل الأمة الواحدة ما يقيم علاقات الأفراد فيها على أساس من الإخاء الصحيح وحب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه . وهذا ما فطن الإسلام له . ولهذا وضع القواعد لمعاملة أهل الذمة وأهل الكتاب وأجارهم وجعل لهم

# خريطة أثرية تقريبية للمدينة المنورة



- ١ ثنية الوداع
- ٢ جبل المسند
- ٣ سقيفة بنو ساعدة
- ٤ ينبع
- ٥ ثنية عثعث
- ٦ بئر ذروان
- ٧ دار الضيافة
- ٨ محلة الساحة
- ٩ شارع العييف
- ١٠ سوق الحدرة
- ١١ مسجد السقيا
- ١٢ بئر السقيا
- ١٣ مسجد القمامة

زوا الملوحة

ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فيما لا يتصل بالعقيدة وما ترتبه على المؤمنين بها من جهاد في سبيلها وما تنشئه لذلك من تكاليف وحقوق عامة .

تذكرنا المناخة سياسة المسلمين واليهود بعضهم لزاء بعض ، وتنشر المدينة القديمة أمامنا بما فيها من دور ومساجد وآبار وأمكنة أثرية حياة المسلمين في عهد النبي وخلفائه الراشدين وحياتهم أيام كان الإسلام يصور للإنسانية حضارتها وينشرها في الحافقين . وما تنشره من ذلك في عهد النبي عظيم حقاً ، بالغ غاية الجلال . فقد رأيت من حديث دورها حول المسجد ما قصصت عليك . وما تروى الكتب من مستفيض أنبائه يزيد الصورة التي تنشرها المدينة أمام الذهن وضوحاً ، ويزيدها لذلك جلالاً ومهابة .

وأقرب هذه الآثار إلى المناخة مسجد الغمامة . فأنت ما تكاد تتخطى باب العنبرية داخلاً إلى المدينة حتى تراه أمامك ، بل إنك لتراه وأنت ما تزال خارج المدينة . فهو اليوم مبنىً بناءً متقناً ، وله قباب ست تلفت النظر ، ومثذنة قصيرة يسترعى قصرها الانتباه إذ يقرنها إلى مآذن المسجد النبوي السامقة في السماء . ولهذا المسجد فضلاً عن اسم الغمامة اسم المصلّى . ذلك بأن رسول الله كان يصلى العيدين في المكان الذي يقوم به وظل على ذلك إلى أن لاقى ربه . لكن هذا المكان لم يكن في ذلك العهد مسجداً ، بل كان فضاءً من الأرض شأنه شأن سائر المناخة . ويذكر السهودي رواية عن ابن شبة عن أبي عثمان الكنانى أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس أن المصلّى بُنى مسجداً في القرن الثانى للهجرة .

وبداخل المدينة خلا مسجد المصلّى : مسجد السَّقِيَا ، ومسجد الفتح ، ومسجد ذُبَاب ، ومسجد الإجابة ، هذا إلى مساجد أخرى ليس يذكرها أكثر المؤرخين . فأما المساجد القائمة بظاهر المدينة فستحدث عنها من بعد .  
ومسجد السَّقِيَا أقرب المساجد التي ذكرنا إلى المناخة وإلى مسجد الغمامة . وهو لا يزيد اليوم عن قبة يسمونها قبة الروس قائمة عند باب العنبرية في جوار بئر السقيا ، وإنما يفصل بينهما طريق مكة . ويذكرون أن النبي

صلى بهذا المسجد ودعا فيه بالبركة لأهل المدينة وذكر أن بلدهم حرام ككعبة . وهذا الذى يروونه من حرمة المدينة موضع جدل طويل أسهب السهمودى فى بيانه فى أول كتابه « وفاء الوفا » . والسهمودى هو الذى اكتشف هذا المسجد فى القرن التاسع وكان دارساً ، ولما اكتشف أعيد بناؤه ثم تهدم كرة أخرى وأقيمت قبة الروس موضعه .

أما مسجد الفتح فيقع فى شمال المدينة على قطعة من جبل سنلج ، فهو بذلك أدنى إلى ظاهرها ، وهو يقع حيث كان الخندق . وهو من المساجد التى بنيت فى عهد الرسول . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا الله فيه ثلاث مرات استجاب له ربه فى الثالثة منها ، فعُرفَ البِشْر فى وجهه ، وكان دعاؤه أن يصرف الله الأحزاب . فلما استجاب الله له وصرف الأحزاب عاد النبي بالمسلمين إلى المدينة وكلهم حمد لله وثناء عليه . وقد جدد الحسين بن أبى الهيجاء بناء هذا المسجد سنة ٥٧٥ للهجرة ثم جددته الدولة العثمانية بعد ذلك . ولقد كان فى عهد رسول الله مبنياً بالحجارة واللبن والجريد . أما اليوم فهو مبنى كله بالحجارة . وقاصده يرتقى إليه على سفح سنلج .

وعلى مقربة من مسجد الفتح يقع مسجد ذُباب على سفح جبل ذباب فيما بين سنلج وأحد . وكل ما يؤثر عن هذا المسجد أن رسول الله صلى فى موضعه . وأنه ضرب قبّة له على جبل ذباب فى غزوة الخندق .

ويقع مسجد الإجابة شمال البقيع بضاحية المدينة الشرقية . وسُمى هذا المسجد مسجد الإجابة فيما يذكر السهمودى لأن رسول الله دعا ربه فيه وطلب إليه ألا يهلك أمته بالغرق ، ولا بالجدب ، وألا يجعل بأسهم بينهم ، فأجاب الدعوتين الأولى والثانية ومنعه الثالثة .

هذه هى المساجد المأثورة بداخل المدينة . أو يستطيع المؤرخ أن يقطع بأنها تؤرخ الحوادث التى أقيمت شاهداً عليها ؟ لعله يستطيع ذلك فيما له اتصال بحوادث معينة كغزوة الخندق . وإنى لأؤثر أن أرحب الحديث فى هذا الأمر إلى أن أستكمل هذه الآثار حين الحديث عما يوجد منها بظاهر

المدينة . فما بالمدينة وما بظاهاها يتصلان من حيث دلالتهما على حياة الرسول وأصحابه بالمدينة وما يرسمانه لهذه الحياة من صور .

تناولت من آثار المدينة دورها المحيطة بالمسجد النبوي ومساجدها التي تذكر حادثاً بذاته ، وتناولت من الأمكنة سقيفة بنى ساعدة والمُناخَة والخندق وسور المدينة . وثَمَّ من الأمكنة كذلك ثنِيَّة الوَدَاع التي دخل النبي منها المدينة . وهي ثنِيَّة في الجبل كالثنِيَّة التي تقابل الشرائع في طريق الذهاب من مكة إلى الطائف . والسُّقْمَا وحاجر كانا من متنزهاة المدينة فيما مضى وهما اليوم عامران بالدور الأنيقة . والمُسْحَنِي الذي يجرى اليوم طرِيقاً أمام التكية المصرية وتقوم على جانبيه دور الحكومة .

ولست أستطيع أن أختم هذا الفصل دون الإشارة إلى أمر لعل له من الخطر عند علماء الحفريات والتنقيب عن آثار المدينة أكثر مما يدور بخلد من لا عهد لهم بهذه الشئون . ذلك أن المدينة الحالية تقوم فوق أطلال قديمة لمدينة سبقتها . صحيح أنه لم تجر حفريات علمية لإثبات هذا الأمر ، لكن حفريات قصد بها إلى تهئية أسس المنازل أو الأنصاب شهدت به ودلَّت عليه ، أو شهدت على الأقل بأن الشبهة عليه بالغة غاية القوة . وقد روى الأستاذ عبد القدوس الأنصارى في كتابه « آثار المدينة المنورة » حوادث من ذلك جديرة بأن تسترعى نظر العلماء . فبينما كان العمال يحفرون الأساس بالقسم الشمالى من مدرسة العلوم الشرعية الواقعة قرب باب النساء عثروا بمصباح زيت قديم على عمق أربعة أمتار من سطح الأرض ، كما عثروا ببركة صغيرة ومجارى مياه وقطع من فخّار . وفي عام ١٣٣٥ كان العمال يحفرون موضع الأساس لنصب تذكارى أمر حاكم المدينة التركى فخرى باشا بإقامته تذكاراً لتولية الشريف على حيدر على إمارة مكة ، إذا هوّة انفتحت وكشفت عن بيوت سقفتها تحت طبقة هذه الأرض . وقد نزل العمال إليها ووجدوا بها ثياباً معلقة على حبال محتفظة بهندامها . فلما مسّوها بعد دخول الهواء إليها تناثرت . وكان العمال يحفرون في بستان لآل السيد محبى الدين بالطرناوية إذ انفتحت

أمامهم هوة واسعة عميقة متصلة بنفق واسع . وقد هبط إليه بعضهم وسار فيه ثم ارتد فزعاً لظلمته . وعثروا في هذا البستان كذلك بآثار لبناء قديم من الآجرّ المربع الكبير . فإذا صح أن كانت لهذه الحفريات دلالة على أن المدينة قائمة فوق أطلال مدينة سبقتها كان ذلك جديراً بمباحث الأثريين والجيولوجيين لمعرفة التاريخ الذي ترجع إليه هذه الآثار والسبب الذي أدى إلى طمرها .

وأكبر الظن عندي ، وإن لم أكن من رجال الآثار أو طبقات الأرض ، أن السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة هذه الأرض التي تقوم المدينة عليها . فكل ما حولها يشهد أنها طبيعة بركانية سكنت منذ أزمان بعيدة . وهذه الحِرار السوداء التي حولها إنما هي حَسَم اختلط بتراب الأرض ورمالها وارتفع إلى بعض الهضاب فيما يُسَخِّيلُ إلى . فإن لم يكن ذلك حقاً ، والحكم به يحتاج إلى مباحث علمية دقيقة ، فلا بد أن تكون البراكين قد ثارت بهذه البقعة فطمّرت الرمال والأتربة والحَم مساحتها في عصر سبق ، وذلك عندي تفسير ما يقصه صاحب « آثار المدينة المنورة » من الأنباء .

ولكن متى حدث هذا ؟ أفحدث بعد عهد الرسول أم حدث قبله ؟ وهل كان وحده السبب في أن طمّرت بالمدينة دور وآثار شتى ؟ يتعذر القول برأى حاسم في هذا الأمر . فقد رأيت على مقربة من ذى الحَلِيفَةِ آثار مسجد ذكر لي الأستاذ عبد القدوس أنه كان مطموراً ، وأنه كُشِفَ عنه من عهد غير بعيد . أما والمساجد لم تُعرف إلا بعد الإسلام فقد طُمِرَ هذا المسجد إذآ في عصور متأخرة . لكن مؤرخي المدينة لم يذكرُوا لنا شيئاً عن البراكين والثورات البركانية ، وإن ذكروا هذه الصاعقة التي أحرقَت المسجد النبوي وامتد لهبها إلى بعض نواحي المدينة . فما اكتشف إذآ فيما حول المسجد وعلى مقربة منه لا بد أن يكون قد طمر قبل عهد الرسول . وهذا احتمال ليس بمستحيل حدوثه ، وليس بمستحيل أن تكون الثورات البركانية سببه . وقد يؤيد هذا القول بقاء الآبار المأثورة منذ عهد الرسول كِبَرُ السَّقِيَا وبئر بُضَاعَةِ اللّتين أشرنا إليهما ، وكِبَرُ حاء وبئر أبي أيوب وبئر ذَرْوَانَ وغيرها من الآبار

التي سردت أسماءها في فصل المدينة الحديثة . لكن هذا التأييد لا يعدو أن يكون ظنيًا أقرب إلى الحدس المنطقي . فأما السبيل إلى الإجابة عما سألنا عنه وإثباته العلمي ؛ فالحفريات الأثرية والجيولوجية دون سواها .

وأكرر أنني أرجئ الحديث فيما تدل عليه هذه الآثار من حياة المسلمين بالمدينة في عهد النبي إلى فصل « ظاهر المدينة » . فظاهر المدينة قد كان ميدانًا لنشاط الرسول وأصحابه كالمدينة سواء ، ولا سبيل لذلك إلى حديث مستقل عن حياتهم في ناحية دون الأخرى من هاتين الناحيتين المتصلتين . ونحن إنما جعلنا الخندق فاصلاً بينهما لنيسر تقسيم البحث ونهيي للقارئ تكوين صورة من المدينة أبعدها ما تكون عن الاختلاط والاضطراب . أمّا الواقع من الأمر اليوم ، كالواقع من الأمر في أعقاب الهجرة وإلى وفاة الرسول ، فالمدينة وظهرها كل متصل ليس من الميسور تجزئته .

## جنة البقيع

إن تَعَجَّبَ فقد عَجِبْتُ قبلك من عنوان هذا الفصل . عجبت حين قرأت الكلمتين اللتين تَوَلَّفَناه على صورة شمسية للقياب التي كانت قائمة بالبقيع ثم هدمها الوهابيون . وإنما هوَّون من عجبى أن الذى أطلق على المكان جنة البقيع ووضعه على الصورة رجل من الأتراك فى عهد بنى عثمان . فلما انقضى العجب وعدت أتدبر الكلمتين رأيتهما تعبران عن معنى دقيق ، فاخترتهما عنواناً لهذا الفصل من الكتاب .

فالبقيع ، أو بقيع الغمر قد كما تسميه كتب السيرة ، هو مقبرة المدينة . كان مقبرتها فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وما يزال مقبرتها إلى اليوم . ولم يَسنِ التركي صاحب الصورة الشمسية هذا البقيع كله فى جاهليته وإسلامه ، وإنما عَسَى جزءاً منه هو الذى بقى موضع عناية الناس به وزيارتهم إياه ، وهو موضع حديثى الآن . فى هذا الجزء من البقيع مقابر أزواج النبى وقبر ابنه إبراهيم وقبور بناته ، وقبر عثمان بن عفان ، وقبر جعفر الصادق ، وقبر مالك بن أنس وقبور شهداء واقعة الحرَّة التى هاجمت فيها جيوش يزيد بن معاوية المدينة سنة ثلاث وستين من الهجرة . هذا إلى كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت المؤلفات القديمة عدداً كبيراً من أسمائهم ، وأغفلت مع ذلك ذكر أسماء أكثرهم .

المسلمون جميعاً على اتفاق أن أصحاب هذه الأسماء التى أسلفناها من أهل الجنة ، وأن كثيرين غيرهم ، لم أذكر أسماءهم ، من أهل الجنة كذلك ، فمنهم جماعة من أهل بدر الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر يوم فقال اصنعوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » . ومنهم جماعة وهبوا حياتهم لله ولإخوانهم المسلمين فاستشهدوا فى سبيل الحق وشهد الناس لهم فى حياتهم بالتقوى ، فلهم عند ربهم مغفرة وأجر كريم .



ومن بينهم جماعة من العلماء الذين توفروا حياتهم على العلم مخلصين له وجوههم لا يبغون به غير الحق مرضاةً لله . من هؤلاء مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي وعالم المدينة العظيم . والعلماء ورثة الأنبياء ما أرادوا بعلمهم الحق وهداية الناس له . أما ذلك شأن الثاوين في هذا المكان فلم يتغلّ من سماه جنة البقيع ، ولم يغل من رفع القباب على قبور أصحابه لو أنه قصد منها إلى الإشادة بذكرهم لتكون للناس على كثر العصور مدّكراً وعبرة .

يقول « برخارت » في كتابه وصفاً لهذا المكان<sup>(١)</sup> : « في اليوم الذي يلي أداء الحاج واجباته للمسجد والحجرة تجرى العادة بذهابه إلى مقبرة المدينة تكريماً لذكرى القديسين الكثيرين المدفونين بها . وهي تجاور أسوار البلد على مقربة من باب الجمعة وتسمى البقيع . صورتها مربع مكون من بضعة مئات من الأذرع يحيط به جدار يتصل من الجنوب بضاحية المدينة وتحيط به من سائر نواحيه مزارع النخيل . وهذا المكان حقير جداً بالنظر إلى قداسة الأشخاص الذين يحتوى رُفاتهم . ولعله أشد المقابر قدارة وحقارة بالقياس إلى مثله في أية مدينة شرقية في حجم المدينة . فليس به قبر واحد حسن البناء ، كلا بل ليست به أحجار كبيرة عليها كتابة اتُخذت غطاءً للقبور ، إنما هي أكوام من تراب أحيطت بأحجار غير ثابتة . وقد اتهم الوهابيون بأنهم الذين دمروا القبور ، واتخذ الدليل على ذلك من بقايا قباب ومبان كانت على قبر عثمان والعباس وفاطمة وعمّات محمد قيل إن هؤلاء المتعصبين دمروها . لكنهم من غير شك ما كانوا ليزيلوا أى قبر بسيط مبنى من الحجر هاهنا وهم لم يصنعوا من ذلك شيئاً بمكة ولا غيرها من الأماكن . فما عليه هذه المقبرة من سوء الحال لا بد أن قد سبق عهد الغزوة الوهابية ، ويرجع سببه إلى ضيق التفكير الذى جعل أهل المدينة يَضُنون بأى نوع من البذل لإكراماً لِرُفات العظماء من نبي موطنهم . فالمكان كله مُضطرب يجمع أكوام التراب إلى جانب الحفر الواسعة والحثالة من غير أن يكون به حجر قبري واحد . ويُطاف

(١) راجع الأصل الإنجليزي لحوالاته في بلاد العرب جزء ٢ صفحة ٢٢٢ وما بعدها .

بالحاج لزيارة عدد من القبور ولتلاوة الأدعية المألوفة حين وقوفه بكل قبر منها . وإن كثيرين ليقصرون أنفسهم على حرفة هي الوقوف طيلة النهار على مقربة من أحد القبور الهامة وفي يدهم منديل منشور في انتظار الحجاج الذين يجيئون للزيارة . وهذه الحرفة امتياز خاص ببعض الفراشين من خدام المسجد وأسرهـم ، إذ قسموا المقابر فيما بينهم ليقف الواحد منهم عند أحدها أو يبعث خادمه بديلاً منه » .

هذا ما يصف به الحاج عبد الله برخارت جنة البقيع . ولقد زرتها بعد خمس وعشرين ومائة سنة من زيارته إياها فلم أجدها بقية لبناء أو قبة على الأجداد ، مما حمل التركي على أن يسمى هذا المكان جنة البقيع ، ولم أجدها أكواماً من التراب ولا حفراً ولا حثالة ، إنما وجدت قبوراً مسوّاة بالأرض يحيط بكل قبر منها أحجار صغيرة تُعلمه . فقد أزيل في هذا العهد الحاضر كل ما بقي من أثر لقبة أو بناء وسوّيت القبور بالأرض . فلولا أنك تعرف أن هذا المكان هو البقيع وأن به رُفاتاً خلف أصحابها على التاريخ أعظم الذكر ، ولولا هذه الأحجار المحيطة بكل قبر ، لخلتها فضاء مسوراً لا شيء ألبتة فيه . لكن ما تعلمه عن الثاوين بها يجعلك تقول مع برخارت : « لقد بلغت المدينة من الغنى برُفات القديسين العظماء حتى لقد كاد كل من هؤلاء يفقد جلال العناية بذاته ، على حين تكفى بقية من رفات أى من المدفونين بالبقيع لتجعل لأية مدينة إسلامية أعظم الشهرة » .

زرت البقيع وتخطيت أثناء القبور ووقفت على كل قبر وصليت على صاحبه واستغفرت الله له ، ثم وقفت متأملاً أتدبر ما أمامي وتناجيني نفسى : « أو يموت الذين يسبقوننا إلى القبور ! أم أنهم يُنقلون من عالمنا هذا إلى العالم الآخر فتتحل أجسامهم إلى عناصرها الأولى وتبقى أرواحهم بين يدي بارئها يحاسبها على ما قدمت . وما قدّم الذين قبلنا لا يزول بزوالهم بل ينتقل إلينا ويصبح ميراثنا عنهم ، تتأثر به حياتنا حتى لكأنهم بيننا . وحسبى أن أذكر ما فى نفسى أنا المصرى من ميراث هؤلاء المؤمنين المدفونين بهذا البقيع ليثبت يقينى

باتصال الوحدة بيننا وبين الذين سبقونا . ليكن مذهبي الإسلامى شافعيًا أو حنفيًا أو حنبليًا فأنا قد تأثرت وتأثر أمثالي لا ريب بمذهب هذا الفقيه العظيم مالك بن أنس الراقد في هذا البقيع . وليكن هوى السياسى فى الحياة الإسلامية عسويًا أو أمويًا فأنا تأثرت بلا ريب بهذا الخليفة الكبير عثمان ابن عفان، وبزوج هذه الراقدة هاهنا فاطمة ابنة النبي وبابنيها الحسن والحسين . وهذه الأسرة الكريمة أسرة رسول الله، وهاهنا منها رفات زوجاته وبناته وعماته، قد تركت من الأثر فى حياتى أبلغه وأعمقه . تغير اتجاه تفكيرى على السنين غير مرة ولم يتغير ما ترك هؤلاء جميعًا فى النفس من أثر آيته أنى كنت وبقيت أحنى الرأس إكباراً وإجلالاً لدى ذكرهم وحين الحديث عنهم .

كم مرة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا المكان ؟ عشرات المرات . فقد كان يجىء إليه كلما مات صاحبٌ من أصحابه يصلى عليه ويقف حتى يوارى جثمانه التراب . وكان يجىء وحده أحيانًا ومع أصحاب له أحيانًا أخرى، لغير شىء إلا للصلاة على من فى البقيع والاستغفار لهم ومناجاتهم . فقد كان يرى الحق من أن الموت انتقال من حياة الدنيا إلى حياة الآخرة ، وأن الذين ينتقلون من بيننا يبقى اتصالهم بنا حتى ليسمعوننا وإن كانوا لا يتحدثون فلا يستطيعون أن يجيبونا ، لذا سمعه أصحابه جوف الليل بعد أن نصر الله المسلمين بيدر يناجى المشركين الذين قتلوا فى المعركة ودُفِنوا فى القليب الذى حفره المسلمون لهم وهو يقول : « يا أهل القليب ! يا عتبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام ، يا . . . » واستمر يذكرهم بأسمائهم ، يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ! فإنى وجدت ما وعدنى ربي حقًا » . قال المسلمون : « يا رسول الله أتنادى قومًا جيئوا ! » . فكان جوابه : « ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم ، لكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » . وكثيراً ما ناجى أهل البقيع من أنصاره الذين استشهدوا فى سبيل الله . وكان آخر ذلك حين مرض مرضه الذى اختار الرفيق الأعلى على أثره . فقد أرق ليلة أول ما بدأ يشكو فخرج ومعه موله أبو مؤيّهبة وذهب إلى البقيع

فوقف بين المقابر وقال يخاطب أهلها : « السلام عليكم يا أهل المقابر .  
 ليهنى لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أقبلت الفتن كقطع الليل  
 المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . . » ثم استغفر الله لهم .  
 وهذه آية من رسول الله في السمو بالتفكير على الزمان والمكان ، وفي مقدرة  
 من وهبه الله ما وهب رسوله أن يتصل بمن يشاء الله أن يتصل بهم ممن يحبهم  
 الزمان والمكان . ولقد يسر لنا العلم أن ندرك اليوم شيئاً من هذا حين يسر لنا  
 أن نصل على المكان بمن شئنا عن طريق الأثير والإذاعة ، وما يزال علماء  
 يحاولون حل مشكلة الزمان بالاتصال بأرواح الذين سبقونا . ومن يدرى ! فلعل  
 العلم يطوع لنا أن نتصل بهم يوماً في يسر كما نتصل اليوم بمن في أقصى  
 الأرض ، وأن نراهم طى القرون كما نرى عن طريق « التلفزيون » من تحجب  
 البحار والجبال والقارات بيننا وبينهم .

ومع تسوية قبور البقيع بالأرض اليوم وعدم إعلامها إلا بهذه الأحجار  
 الموضوعية حولها ، لقد شعرت إذ وقفت أمام بعضها بهزة نفسية كأنما بيني وبين  
 ساكنيها أقرب الأواصر ، وكأنهم دُفِنوا لأمنسهم ولما تجف العبرة عليهم . من  
 هذه القبور قبر إبراهيم ابن الرسول عليه الصلاة والسلام . فلقد وقفت لديه  
 وأطلت الوقوف وذكرت عنده هذه الفترة الوجيزة من حياة محمد مذ وُلد هذا  
 الطفل إلى أن مات ولمّا تنتصف السنة الثانية من عمره . كان الله قد فتح  
 أم القرى مثابة بيته العتيق على المسلمين ، وقد أمنهم جانب الروم ، وكان النبي  
 قد جاوز الستين بعد أن اطمأن إلى نصر الله إياه ، تفيد عليه القبائل من أنحاء  
 الجزيرة كلها تعلن إليه إسلامها وتستظل بلوائه الروحي وبأخوة المؤمنين .  
 كان إلى ذلك قد فقد أبناءه وبناته فلم يبق له منهم إلا فاطمة ، وقد أقام عشر  
 سنوات بعد وفاة خديجة وبعد زواجه من عائشة سائر أمهات المؤمنين  
 لا يعقب . فلما ولدت له مارية القبطية المصرية لإبراهيم فاضت بالمسرة نفسه  
 ووجد في هذا الطفل أنس قلبه وزينة حياته ، فجعل يمر كل يوم بدار أمه يمتع  
 بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ويغذى بضمه إلى صدره شعوره الإنساني الذي

بلغ من السمو أن شمل الناس جميعاً ، وهو يجد مع ذلك في توفره على هذا الطفل نعيماً وغبطة . وتأخذ الغيرة أمهات المؤمنين لهذا الحب الذي رفع أم إبراهيم عن مقام السراى إلى مقام الزوجات ، فيأتمرن بالنبي ويخرج بهن الغضب إلى ما لم يعودنه ، فلا يصرفه ذلك عن الطفل ، بل يزداد به تعلقاً كلما ازداد نمواً ، وكلما رأى في ابتسامته وفي ضحكته ما تسعد به أبوته وتسريح له نفسه من عملها العظيم المُضنى . وبترعرع الطفل وينمو ويزداد شبهه بمحمد وضوحاً فيزداد له حباً وبه تعلقاً ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده . وإنه لكذلك إذ مرض الطفل وأسرع فيه المرض ، فذبلت نضارته وذهب لونه ، ولم ينفعه تمريض أمه ، ولم يبعث عطف أبيه إلى جسمه النحيل الشفاء . ويشند الأُم بمحمد لما يرى من حاله ويبلغ منه الأُم أن يأخذ بيد عبد الرحمن ابن عوف يعتمد عليه في مسيرته من المدينة إلى النَّخل بجوار العالية من ضواحي المدينة حيث تقيم مارية تمرّض ابنها ، وتُعِينها أختها سيرين في تمريضه وتواسيها في بأسائها . ويرى النبي الطفل في حجر أمه بنفسه ، فيملا الأُم قلبه وتسدَى بالدمع عينه ، ويجلس إلى جوار مارية الملهوفة وهو أشد ما يكون وجلاً وخوفاً وجزعاً ، ويأخذ الطفل إلى حجره وينظر إليه بعينين مُلتئناً لما يقول : « إنا يا إبراهيم لا نُغْنِي عنك من الله شيئاً » فتصيح الأُم وتصيح أختها والطفل في غيبوبة الموت لا يوقظه صريخ أمه ولا تنبهه الدموع الحارة المنهلة من مآقي أبيه ! . ويقبض هذا الروح البريء وينطفئ بموته أملٌ تفتحت له نفس النبي زمناً ، فتزداد عيناه تهتاناً ويأخذ منه الحزن كل مأخذ ، ويقول والحنة الصغيرة الهامدة ما تزال في حجره : « يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزناً عليك بأشد من هذا » . ثم تخنقه العسيرة فلا يستطيع أن يتابع القول فيعلوه الرجوم وقد ارتسم الحزن على قسّمات محيّاة في أبلغ صورة للهفة اللاذعة العميقة . ويشعر بأنه مفارق هذه الفلذة من كبده فيهبز رأسه ويقول : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنّا يا إبراهيم عليك محزونون » .

ويحس محمد ما به من جوى الحزن وما يلفحه من حرقتة ويقدر ما بمارية وأختها منه فتأخذه الرأفة بهما فيكفكف من دمه ويتوجه إليهما يريد تعزيتهما فيذكر لهما أن له لمرضعا في الجنة . ويقوم ومعه عمه العباس وطائفة من المسلمين يشيعون إبراهيم بعد ما غسلوه وحملوه على سرير صغير . ها هم أولاء قد جاءوا به إلى هنا وقفوا به حيث أقف . ولعله صلى الله عليه وسلم كان واقفاً مكاني حين صلى عليه وحين سوى على قبره بيده بعد دفنه وحين رش الماء على القبر وأعلم عليه بعلامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تُقِر عين الحى . وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يُثِقَنه » .

وحدثنى نفسى وأنا بموقفى : كيف يبلغ الحزن من محمد هذا المبلغ وقد حمل فى الحياة ما ينوء به من لم يؤته الله من فضله ما آتى نبيه ورسوله ، وقد حملة قوياً صابراً مستهيناً بالأذى والموت ! وذكرت إذ ذاك أنه صلى الله عليه وسلم بشرٌ مثلنا ، وأن لنا فيه الأسوة والمثل ، وأنه فى حزنه على إبراهيم قد كان الأبوة البرة والعاطفة السامية التى ركبها الله فى الناس إبقاءً على الحياة وصورة لوحدها المنقلة على الأجيال . وهل فى الحياة كعاطفة الأبوة البرة نعمة وسعادة وزينة ! . وهذه العاطفة التى نسعد بها هى التى تبعث إلى قلوبنا حبَّ الغير وتخفف من أثرتنا وتعلمنا الإيثار وتدعوننا إليه ، وهى التى تدفعنا بذلك إلى السعى فى الحياة ابتغاء الرزق لبنينا ومن يلوذ بنا وابتغاء الخير بعد ذلك للناس جميعاً . ولولا هذه العاطفة لقصَّت الأثرة على الحياة ولأسرع الفساد إلى الكون .

ويخرج الناس من البقيع بعد موت إبراهيم فإذا الشمس تُكسِف ، وإذا آية النهار تُمَحَى ، فيحسبون ذلك معجزة شارك الكون بها رسول الله فى حزنه . لكنه صلى الله عليه وسلم ما يلبث حين يسمعون يتهايمسون بذلك أن يقول لهم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » . ويهرع المسلمون إلى المسجد يصلون وقد زادتهم كلمة رسول الله إيماناً بأن الله جل شأنه لا يغير سنته ، وأن كل ما يقع فى الحياة إنما هو من أمره .

وقفت على كل قبر بالبقيع وصلبت على صاحبه واستغفرت الله له .

وكذلك كان يفعل الذين رأيتهم يزورونه ساعة زيارتي إياه . على أنى عجبت لقوم رأيتهم يطيلون الوقوف عند قبور أهل البيت ويبيكون أحر البكاء ، فإذا مروا بقبر عثمان استحثوا الخُطَا فلم يقفوا عنده . قال أصحابي حين سألتهم في ذلك : أولئك جماعة الشيعة ، فهم ما يزالون يذكرون أن دم عثمان هو الذى أذسكى الفتنة بين على ومعاوية ، وبين بنى أمية وآل البيت ، وأنه الذى أدى إلى مقتل على والحسين ، وهم لذلك يعمرون بهذا القبر سِرَاعًا لا يصلون على صاحبه ولا يستغفرون الله له . وزاد فى عجبى أن أهل بيت النبي أنفسهم لم يبلغوا من الموحدة على عثمان بعد موته هذا المبلغ . لقد رأيت كيف أراد الحسن ابن زيد أن ينتقم من بنى أمية لإدخالهم حُجرات أزواج النبي فى رُقعة المسجد ، فكتب إلى المنصور أن يزيد فى رُقعة المسجد وأن يجعل الحجرة النبوية فى وسطه لتدخل دار عثمان فى رقعته ، وكيف أجابه المنصور : لانى قد عرفت الذى أردت فاكفُف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان . ولم يخالف أحد من العباسيين المنصور فى تفكيره هذا على طول ملكهم . أفتبقي الموحدة فى نفوس الشيعة أكثر مما بقيت فى نفوس بنى العباس وهم أقرب الناس إلى على وإلى الحسين نسبيًا ، أم أنها ليست المَوْجِدَة ولكنها العقيدة التى يتوارثها الأجيال من غير تفكير فى سببها ومنشئها ، التى تنشأ أول أمرها متأثرة بأهواء شعوبية أو سياسية أغلب الأحيان ؟

ترى أفتبقي البقيع كما هو اليوم مسواة قبوره بالأرض لا يقوم على قبر منها قبة ولا يقام للعظماء والصحابية المدفونين به أثر يذكرون به ؟ لعلك تحسب الأمر يبق كذلك ما بقى الوهابيون بالحجاز . وقد يكون فى التاريخ ما يرجح ظنك ؛ فقد غزا الوهابيون الحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى فحطموا قِباب البقيع كما حطموا غيرها من القباب بمكة والمدينة وغيرها من بلاد الحجاز . فى هذا الوقت زار السويسرى « برنخارت » الحجاز ووصف البقيع بما رأيت . فلما أجملت جنود مصر الوهابيين عن الحجاز وعاد الأمر فيه إلى بنى عثمان أعادوا بناء كثير من القباب وشادوها على صورة من الفن التى تتفق مع ذوق

العصر . ولقد ذكر صاحب مرآة الحرمين من هذه القباب ما لأهل بيت النبي ، والقبّة التي بناها السلطان محمود سنة ١٢٣٣ للهجرة على قبر عثمان ، ونشر صورها الشمسية . فلما عاد الوهابيون إلى الحجاز بعد ذلك بأكثر من مائة سنة هدموا هذه القباب كرهة أخرى . أفيُعيد التاريخ نفسه ، فإذا جلا الوهابيون من الحجاز ودخل في حكم أهله أو في حكم غيرهم ممن لا يرون بإقامة القباب في الدين بأساً أعادوا تشييدها ، وإذا عاد الوهابيون بعد ذلك إلى الحجاز هدموها ، أم يظل البقيع كما هو اليوم ببقية الوهابيون في الحجاز أو جلكوا عنه ؟ أم ترى يبلغ الأمر بين الوهابيين وغيرهم من طوائف المسلمين إلى التفاهم على إقامة أثر يذكر به هؤلاء الأبطال الذين دُفِنوا بالبقيع ، على ألا يكون هذا الأثر موضع تبرُّك وألا يتخذ إلى الله زُلْفى ؟

لا أريد أن أجازف بحكم ، فأمر ذلك للمستقبل ، والمستقبل غيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله . لكنني مع ذلك أرجو ألا يظل هذا البقيع وليس به أثر يذكر به أصحابه ، ويذكر به أعلام من دُفِنوا طي صحائفه . فلقد دفن به أكثر من عشرة آلاف من كرام الصحابة كان لهم في الإسلام وتاريخه وتعاليمه أثر أثير . وإن قلت الإسلام وتاريخه وتعاليمه قلت : الحضارة الإنسانية في الشرق والغرب ، ونحن لانقيم الآثار لمن سبقونا متاعاً لهم بها ، فنتاعهم في عالمهم بما قدّموا من عمل صالح . وإنما نقيمها ذكراً ومعتبراً للأجيال في تعاقبها حشا لأبنائها على أن يجدوا في السابقين الأولين الأسوة والمثل . وأنّا إذ ندخل « البانتيون » في باريس أو كنيسة « وستمنستر » في لندن ، أو أيّاً غير هذين من مدافن العظماء لا تجول بخاطرنا عبادتهم ، ولا يدور بخيلنا تقديسهم ، إنما يدفَعنا ذكرهم إلى الوقوف على أخبارهم وما خلّفتوا من أثر جليل وعمل صالح . وفي هذا خير مشجّع على متابعة هذا العمل ، وهو خير مظهر للصلة بين الحاضر والماضي صلة لا قيام لأمة ولا قيام للإنسانية إلا بتوثقها .

وما لنا نذكر باريس ولندن وبالمدينة من آثار الإسلام ما رأيت ! . ما أعظم الأثر الذي تثيره دار أبي أيوب الأنصاري في النفس ! وما أعظم الموعظة



في قبة خالد بن الوليد وشهادتها على ضيق رقعة داره ! وما أشد ما تهتز مشاعرنا حين نقف على قبر حمزة عند سفح أحد . دَعَّ عنك موقفًا كله الإجلال والعضة أمام قبر الرسول ومثوى صاحبيه أبي بكر وعمر في الحجرة النبوية . آية نفس لا تحس في هذه اللحظات الباقية الأثر على الحياة أصدق الرغبة في السمو إلى غاية ما توهلها ملكاتها أن تسمو إليه ، تشبهًا بهؤلاء الذين تركوا على الحياة أثرًا أخلد الأثر وأبقاه ! وإذا صدقت الرغبة واستقر العزم وامتلأت به الإرادة لم يكن لقوة أن تصدقنا عن بلوغ ما نبغى . فالإرادة الصادقة أعظم قوة في الحياة . ومن عرف كيف يريد قدر على بلوغ ما يريد .

وإنما قعد بالمسلمين عن إدراك هذه المعاني ودعاهم أن يتخذوا من القباب مواضع للزلفى إلى الله توسلا إليه بأصحابها ما هَوَّوا إليه من جهل حَسَّب عنهم جلال ما صنع الذين تُخَلَّد القباب أو تُخَلَّد الآثار ذكركم . وماذا يذكر سوادهم عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ! وماذا يذكر هذا السواد عن خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم من أبطال المسلمين ! ثم ماذا يذكر من عمل علمائهم وذوى الفضل والكرامة منهم ! ليس يذكر من ذلك شيئًا لأنه يجهل ذلك كله . وغاية ما يتصوره أن هؤلاء رجال اصطفاهم الله بكرامته ، أو نساء أكرمهن الله بمن أعقبن من ذرية صالحة ، فهم بذلك أولياء الله ، ومن ثم يتخذهم هذا السواد إلى الله زلفى ويُسبغ عليهم من صفات ما فوق الإنسانية ما يسوِّغ عنده هذه الزلفى .

فإذا أراد المسلمون ألا يكون للقباب ولا غيرها ما يدعو الوهابيين إلى هدمها وما يجعلهم يتهمون غيرهم من المسلمين بعبادتها فليست الوسيلة إلى ذلك هدم هذه القباب ، وإنما الوسيلة إليه هدم ما في النفوس من حجب الجهل وقبابه ، وتفتيح مغالقتها بإظهارها على ما صنع السلف وما خلفوا من علم وفن وحضارة . فالعلم هو النور الكشاف الذى يهتك حجب الزمن ويُرِينا ما خلفه آباؤنا وأسلافنا للإنسانية من أسباب المعرفة ، وما تؤدي إليه المعرفة من فضل وخير ، وما تنير به سبيل الإنسانية لمستقبلها على هدى الماضى وما تم فيه . يومئذ لا يعبد

الإنسانُ الإنسانَ ولا يتخذهُ إلى الله زلفى ، وإنما يعبد الإنسان الله وحده لا شريك له ، ويتخذ من علمه ومن عمله ومن تقواه الزلفى إلى الله .

فكرت في هذا إذ عدت من البقيع ماراً بدار عثمان ، فأويت إلى غرفتي وجعلت أقلب في بعض كتب التمس فيها للبقيع وأهله ذكراً . ولم أجد من ذلك سوى أن الذين دفنوا به يزيدون على عشرة آلاف من كبار الصحابة ، لا تعرف قبور أكثرهم وإنما يعرف من هذه القبور ما لإبراهيم ورقية وفاطمة أولاد النبي ، وفاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن زرارة ، وخُنَيْس بن حُذَافَةَ السَّهْمِي ، والحسن بن علي ، وابن أخيه زين العابدين بن علي بن الحسين ، وأبي جعفر الباقر محمد بن زين العابدين ، وجعفر الصادق بن الباقر ، والعباس بن عبد المطلب ، وأخته صفية ، وابن أخيها أبي سفيان ابن الحارث ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن معاذ الأشْهَلِي ، وأبي سعيد الخُدْرِي ، وزوجات رسول الله خلا خديجة التي دفنت بمكة وميمونة التي دفنت بسَرْف . وهؤلاء جميعاً وألوف الصحابة الذين دفنوا معهم ؛ يثون في بقعة ضيقة من الأرض لا يزيد مسطحها على مائة وخمسين متراً في الطول ، ومائة متر في العرض ، ترتفع عما حولها ، ويحيط بها سور لا شيء من الجمال في بنائه .

قلت في نفسي : أولاً يهدى الله رجلاً من المسلمين إلى كتابة تاريخ هذه البقعة والذين دفنوا بها ينشر فيه ما عملوا ويحمله تحليلًا علمياً ويرده إلى أصوله ويبين ما كان له في الوجود من أثر ! . إن في قصص ما صنعوا وما كانوا عليه لأبلغ العبرة ، وهو بعد يكشف من تاريخ هذا العالم عن شيء كثير ما أحوج العالم إلى أن يقف عليه . فهؤلاء جميعاً من أصحاب رسول الله ، وهم عرب من أبناء شبه الجزيرة ، فما اتخذوه في حياتهم من عمل أدنى إلى تصوير الروح الحق لهذا الدين الخفيف وإلى هداية الناس لهذا الروح . وما أشد حاجة الناس إلى هذه الهداية .

ألا لو أن عملاً ضخماً كهذا العمل أتمه رجل أو رجال لأسدوا إلى الإسلام وإلى التاريخ وإلى الإنسانية خدمة جلّتي ، ولهدوا لأولى الفن أن يقيموا في هذا المكان أثراً خالداً يصور هذا الروح روح الإقدام في سبيل الحق والإرادة الصادقة في سبيل الله .

ما أقصر سبب الحياة ! فلو أن لي من القدرة على القيام بشيء من هذا العمل الجليل أمهد به الطريق لإتمامه لأقدمت غير مبتغ إلا رضا الله وحسن ثوابه . وكفى بالله ولياً ونصيراً .

ولكن ! مَنْ لي بأن أقوم أنا الضعيف العاجز فأجمع من شتيت الأسفار ما يؤرخ البقيع ورجاله من أصحاب رسول الله ! . فلاذّر هذا الأمر يهني الله له من شاء من عبادته . والله الأمر من قبل ومن بعد .

## على قبر حمزة

صَهَّ ! فأنت هنا أمام عرين الأسد . وهذه الجبال والأودية مما حولك كلها مجاله . فيها كان يجول ويصوم ، أثناءها كان يصيح بفرائسه من شجعان قريش ، فإذا هي تنهد إلى الأرض رعباً وفزعاً . هذا جبل أحد أمامك ، وهذا جبل سلَّع من خلفك ، وهذا وادي قنَّاة يجري بينهما ، وهذه البساتين تمتد ها هنا وهناك عن يمين وعن شمال وراء هذا المَهْمَه الذي ظل خلاءً من هيبة صاحب العرين . مالى أراك الآن حاسر الرأس خاشعاً ، وما يبكيك ؟ أتراك كأهل هذه المدينة لا يكون فقيداً لهم إلا بكوا قبله حمزة أسد الله وأسد رسوله ! أم تراك ادَّكرت مصرعه على مقربة منك وهذا دمك الذكي تراءى لعينيك في كل قطرة منه معانى النبيل والكرامة والاستبسال والشجاعة ، فأنت تبكى لهذه الخصال غالها وحشئى فى غير مصاولة أو مبارزة ! إبتك ما طاب لك البكاء ، وامثل من صفات حمزة ومن شممه وإقدامه ومن إيمانه وسمو نفسه ما شئت ، فما أنت ببائع من بكائك ومن امتالك إلا ما يزيدك شوقاً إلى هذا القبر ، تعود إليه لتقف عنده فتبكي صاحبه وتمثل فيه الأسد الذى صرع فى غزوة أحد لا كما تصرع الأبطال فى ميدان القتال ، بل كما يغتال الكرام فى حلك الظلام . وهل كان أحد من شجعان العرب جميعاً بحسب نفسه كفوفاً لحمزة ووزاله ! وهل كان يظن أحد أن يطالع الموت حمزة فى معركة على طول ما مشى بين صفوف الموت محتالاً ! ولكن ما عسى تُغنى الشجاعة والنبيل حين يختبيء الاغتتيال فى حنْدِس الليل فيورد صاحبهما حتفه .

كان حمزة بن عبد المطلب عم النبي وأخوه فى الرضاع الإباء والشمم ، وكان البطل المُعلِّم والمغوار الذى تهابه الشجعان منذ نشأته . لما افتدى عبد المطلب ابنه عبد الله من الآلهة بمائة من الإبل فكر فى تزويجه . وكان عبد المطلب يومئذ فى السبعين من عمره ، فخرج بعبد الله حتى أتى به منازل

بني زهرة وخطب آمنة بنت وهب إلى أبيها زوجها لابنه ، وخطب ابنة عمها هالة زوجاً لنفسه . وولدت آمنة محمداً ، وولدت هالة حمزة . والروايات تختلف أى الطفلين سبق صاحبه إلى الحياة وإن أَرْضَعْتَهُمَا جَمِيعاً تُؤَيِّبُهُ جَارِيَةٌ أَبِي لُحَب . وشب محمد يهيئه الله لما أراد من رسالته ، وشب حمزة فتي أبياً قوياً رضى الخلق وسيم الطلعة مفتول العضل محباً للقنص يخرج له في القلاة ويرى بقوسه ، فإذا عاد منه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، ثم لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحديث مع من فيه . وكانوا جميعاً يحبونه ويهابونه أن كان أعز قريش وأشدها شكيمة .

ولما بعث الله ابن أخيه نبياً ورسولاً وبدأت قريش تناوته وتؤذيه ، لم يطب حمزة بما يصنعون نفساً ؛ لكنه ظل يكظم غضبه حتى لا يخرج على الجماعة في عقيدتها . ولقد كان كلما رأى من ذلك شيئاً جعل يفكر في أمر ابن أخيه وما يدعو إليه فيرى فيه الحق لا سبيل إلى إنكاره . لكن قومه من بني هاشم لم يتابعوا محمداً ، ولم يتابعه أخوه أبو طالب الذى كان من محمد في مقام الأبوة ، والذى كان يحميه من قريش وأذاها . ولكن حمزة أخ محمد وليس عمّاً له وكفى ، وهو بعد أصغر إخوته سنّاً وأشدهم بأساً وأكثرهم لذلك صراحة ، وهو من لا يطيق أن يرى الحق فيما يقول محمد ولا يصارح الناس جميعاً بتصديقه إياه وإيمانه به . وإنه يوماً لنى قنصه غائب عن مكة إذ لقي أبو جهل محمداً جالساً عند الصفا . وكان أبو جهل رجل حديد الوجه واللسان لا يفتأ ينكر على محمد دعوته ويتهمه فيها . فلما لقيه في مجلسه ذلك آذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له . ولم يكلمه محمد بل إنصرف عنه إلى بيته ، وعمد أبو جهل إلى جماعة من قريش عند الكعبة فجلس معهم . وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها فوق الصفا تسمع ما كان بين الرجلين ، فلم تلبث حين رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلاً من قنصه متوشحاً سيفه أن وجهت إليه الحديث فسلمت وقالت : يا أبا عمارة ! لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً قبل أن تأتى من أبى الحكم بن هشام ! وجدها هنا

جالسًا فسيبه وآذاه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه محمد ولم يكلمه .  
 هنالك احتمال حمزة الغضب فخرج سريعًا لا يقف على أحد ، كما كان  
 يصنع ، يريد الطواف بالكعبة ، معدًّا لأبي جهل بن هشام إذا لقيه أن يقع  
 به . فلما بلغ الكعبة نظر إليه جالسًا في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام  
 على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة فشججه شجة منكرة ، وقال له : أتسبه  
 وأنا على دينه أقول ما يقول ! فرد ذلك على إن استطعت . وأراد رجال من  
 بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل ، فنعمهم حسا للشر ومخافة استفحاله بين  
 عشيرته وقومه ، واعترف أنه سب محمدًا سبًّا قبيحًا .

من يومئذ أصبح حمزة أسد الله وأسد رسوله ، وحسبت قريش لمحمد  
 وأصحابه حسابًا لم يكن يدور لها بخلد من قبل .

لما اتخذ محمد دار الأرقم مجلسًا له مع المسلمين وحمزة من بينهم ضرب  
 الباب عليهم يومًا رجل يبتغي الدخول . وقام أحد المسلمين ونظر من خلل  
 الباب ثم عاد فرعًا يقول : هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف . ولم يكن يود  
 أن يأذن النبي له ، أما حمزة بن عبد المطلب فقال : بل ائذن له ! فإن كان  
 جاء يريد خيرًا بذلناه له ، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه . وأذن النبي لعمر  
 فدخل وأسلم .

هذان حادثان يصفان لك حمزة بن عبد المطلب وخلقه ، ويصوران لك  
 مبلغ جرأته وإقدامه واعتداده بنفسه .

ولما هاجر رسول الله إلى المدينة وآخى فيها بين المهاجرين والأنصار آخى  
 بين حمزة وزيد بن حارثة مولى النبي . وكان لهذا الإخاء حكم إخاء النسب أول  
 أمره . ومع ما حدث من عود الأمور إلى طبيعتها بعد أن استقر مقام المهاجرين  
 بالمدينة لقد حفظ حمزة هذا العهد فأوصى إلى زيد يوم أحد . وفي هذا من  
 الوفاء والكرم ما يصور لك ناحية أخرى من حياة حمزة .

ولقد كان حمزة أول من بعثه رسول الله على رأس أول سرية قامت من  
 المدينة لمناوأة قريش : بعث به في ثلاثين راكبًا من المهاجرين دون الأنصار ،

فلقي أبا جهل بن هشام عند شاطئ البحر في ثلثمائة راكب من أهل مكة . وكان حمزة على أهبة مقاتلة قريش ، على ما بين الفريقين من تفاوت عظيم في العدد ، لولا أن حجز بينهم مسجدي بن عمرو الجهني وكان مَوادِعًا للفريقين جميعًا . فلما كان شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة وقعت غزوة بدر كان حمزة فارسها المُعَلَّم وبطلها المغوار ، وكان مُعَلَّمًا يومئذ بريشة نعامة . ولقد كان المسلمون وكانت قريش تترددان أول المعركة في خوض غمارها حتى وقف عامر بن الحضرمي يصيح : واعسمرأه ! يذكر قتل المسلمين أخاه عمراً قبل ذلك بأسابيع في سرية عبد الله بن جحش ويطلب الثأر له . هنا لك اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين ، فعاجله حمزة بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى الأرض تشخب رجله دمًا ، وأتبع حمزة الضربة بأخرى قضت عليه . بذلك بدأت المعركة . وأعجل الالتحام فيها أن خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد وخرج إليهم من المسلمين حمزة وعلى بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث . ولم يمهل حمزة شيبه ولا أمهل على الوليد أن قتلاهما ، ثم أعانا عبيدة وقد ثبت له عتبة . عند ذلك تزاحف الفريقان ، لم يمنع المسلمين منه أن قريشًا ثلاثة أمثالهم عددًا وعدة . ونحاض حمزة الغمار بضرب بسيفه عن يمينه وشماله يقطُّ الرقاب ويُطيح برعوس الشجعان ، ولا يعجزو سيف أن يمتد ناحيته ، ولا يدُّ أن ترتفع إليه . ومتى استطاع الفرسان أن يحدقوا في وجه هذا الأسد الكاسر ، أسد الله ورسوله ! .

فلما أتم الله النصر للمسلمين ببدر وعادوا إلى المدينة فتحرش بهم اليهود وأزمع محمد محاصرة بني قينقاع ، كان حمزة حامل لوائه . ولما استدار العام وخرجت قريش تريد الثأر من بدر ، كان حمزة الموت الذي تخشى ، والنقمة التي تريد أن تتخلص منها . وكانت هند بنت عتبة أشد قريش كراهية له ورغبة في موته . لقد قتل في بدر أباه وأخاه ونكل بكثيرين من الأعداء عليها . لكنها كانت تعلم أن قتله مواجهة ليس بالأمر الهين ، ومن ذا في قريش

بل في بلاد العرب كلها يستطيع أن يواجهه ! لذلك وعدت وحشياً الحبشي خيراً كثيراً إن هو اغتال حمزة . وكان وحشى مولى بلخير بن مُطعم . وكان حمزة قد قتل عم جبير بدر . فلما عرف ما وعدت هند مولاه قال له : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق ، والتقى الجيشان بأحد فإذا حمزة يخوض الغمار كيوم بدر ، يَهْدُ كل من لقي بسيفه فتفيض من جسده روحه . قتل سباع ابن عبد العزى الغبشاني ، وقتل أرطأة بن شرحبيل ، وقتل كل قرشي لقيه . ولم يكفه سيف يمينه ، بل أمسك بيساره سيفاً آخر وجعل يقبل ويدبر ويصيب بسيفه في إقباله وإدباره . وإنه لكذلك وأبطال قريش يولون منه فراراً إذ عثر عثرة فوقع على ظهره فانكشفت درعه عن بطنه . وانتهز وحشى هذه الفرصة فهز حربته حتى رضى عنها ثم دفعها عليه ف وقعت في ثنثته وخرجت من بين رجله ، وتركه وإياها حتى مات . روى وحشى قال : ثم أتيت فأخذت حربتي ورجعت بها إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق . فلما قدمت مكة أعتقت .

وأقبلت هند بنت عتبة في أعقاب المعركة ، فلما رآته مبهوراً بطنه لم يكفها أنه مات بل مثلت به ما لم يمثّل بأحد في غزاة : جدعت أنفه ، وقطعت أذنيه وشقت بطنه ، وأخرجت كبده تمضغها وتلوكها تشفياً وسخيمة . وبلغ من فظاعة ما صنعت أن خجل أبو سفيان زوجها ورئيس قريش فقال : إنه كانت في القوم مُثْلة ، وإن كانت على غير ملأ منى . ما أمرت ولا نهيت ، ولا رضيت ولا كرهت ، ولا ساءني ولا سرني .

ولقد أحزن قتل حمزة النبي وحزّ في فؤاده . فقد عاد المسلمون إلى الميدان بعد المعركة وخرج محمد يلتمس عمه ، فلما رآه قد بقر بطنه ومثل به غلبه الحزن وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، وما وقفت موقفاً قطُّ أعيظ إلى من هذا ! وأمسك هنيهة مُوجِّع القلب ثم أردف : « يرحمك الله يا عم ! لقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات » . وغلبه الحزن فأمسك مرة أخرى ، وهو أثناء ذلك ينظر لما أصاب حمزة من مثلة شعاء . فلما سكن عنه الحزن قال وما زال مغضباً :



« والله لئن أظفرتني الله بالقوم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب : وفي رواية : « لأمثلن بسبعين منهم » . . وفي هذا نزل قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » . وفي حمزة وفي قتلى أحد نزل قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ » . فلما نزلت هذه الآيات قال رسول الله : « بل الصبر » وكفّر عن يمينه .

ولم يكن المسلمون أقل جزعاً لمقتل حمزة من رسول الله . أقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب بعد الموقعة تطلبه لا تدري ما صنع . ورآها على والزبير مقبلة فخشيا لقيها . قال عليّ للزبير : اذكر لأملك . . وقال الزبير : بل اذكر لعمتك . ولما بلغتهما سألت : ما صنع حمزة ؟ فأريها أنها لا يدريان ، إشفاقاً عليها وعلى نفسيهما من حزنهما . ورآها النبي مقبلة عليه فقال : إني أخاف على عقلها . ثم وضع يده على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت وقد رأت المصاب في صوته . فلما انصرفت قال : « لولا جزع النساء لتركته يحشر من حواصل الطير ويطون السباع » .

ولما أراد المسلمون دفن القتلى وقف النبي على جثمان حمزة ، وجعلوا يجيئون بالقتلى واحداً بعد الآخر فيضعونهم إلى جانب حمزة فيصلي النبي عليهم ، وكذلك صلى على حمزة سبعين مرة .

وبكت نساء المدينة القتلى وسمع رسول الله نساء بني عبد الأشهل يبكين قتلاهن ، فقال متوجعاً : « لكن حمزة لا يواكئ له » ، فسمع ذلك معاذ بن عبد الأشهل فساقهن إلى باب رسول الله فبكين على حمزة ، فدعا لهن وردهن . فلم تبك امرأة من الأنصار بعد ذلك إلى اليوم على ميت إلا بدأت بالبكاء على حمزة ثم بكت ميتها .

هذا حمزة الذي نفف الآن على قبره تجاه أحد . والذي يؤمه كل من

قصد المدينة للزيارة . وقبر حمزة ليس كغيره من القبور في هذا العهد الوهابي . فهو ليس مسوّى بالأرض ، بل يقوم فوقه بناء أسطواني من حجر ضارب إلى السواد يرتفع عن الأرض نحو الذراع . ولم أعجب إذ عرفت أن الحكومة الحاضرة أقامت هذا البناء بعد أن هدمت القبة التي كانت قائمة على القبر . فهذه الصفات في حمزة : صفات البطولة والإباء والاستشهاد في سبيل الله ، تثير في كل نفس أسمى المعاني ، وتقنها أمام صاحب هذه الصفات موقف الإجلال والإكبار . ذلك ما يتفق فيه الناس جميعاً ، لا تفاوت بين البدوي الذي يقضى حياته مرتحلاً في البيداء ، ومن بلغ من الحضارة والعلم وتهذيب النفس كل غاية . ولم يختلف اثنان على ما كان لحمزة من هذه الصفات ، ولم يكن حمزة يوماً موضعاً للدعاية سياسية طمعاً في حكم أو سلطان . لذلك كانت المعاني المتصلة بصفاته ظاهرة مبرأة من كل غاية ، ولذلك أثارت الإعجاب من كل نفس والإكبار في كل قلب ، وكانت شقيقاً لقبه حتى عند الوهابيين .

وذهبت أمثل حمزة وهذه الصفات فيه وأنا واقف على القبر أجيل بصري في الميدان الفسيح حولي . هذا رجل آتاه الله من فضله بسطة في القوة ، ومهابة في القلوب ، ونعيماً بالحياة ومحبة من الناس ، وكان له أن يستمتع وهذه صفاته برفه العيش وطمأنينة البأس ، وأن يستريح إلى مكانته من قومه واحترامه فيهم . لكنه لم يطب نفساً بعبادة قومه الأصنام ، ولم يطق أن يسبّ أبو جهل الوثني ابن أخيه الداعي إلى الله . فضرب أبا جهل فشجّه وأعلن على ملأ الناس إيمانه . ولا يقولن أحد إن النعرة العصبية أو العزة العربية هي التي دفعته إلى ما صنع . فلقد كان أعمام النبي جميعاً عرباً لهم عزة وفيهم نعرة ، وطالما آذت قريش ابن أخيه فغضبوا ومنعوه ولم يؤمن مع ذلك منهم أحد . لكنه الإيمان الذي امتثلته نفس حمزة هو الذي دفعه إلى ما صنع . وهل مثل حمزة في بسالته واستهانته بالموت من يقول لأبي جهل وهو منّ هو مكانة في قومه بعد أن شجّه لسبه محمداً : « أتسبه وأنا على دينه أقول ما يقول ! » إلا أن يكون صادق الإيمان ، بلغ من امتثال قلبه رسالة الله إلى نبيه ألا يطبق تعريض أحد به ! ومن يومئذ

وهب حمزة حياته لله وللدفاع عن دينه ، لأنه أيقن أن هذا الدين هو المثل الأعلى الذى توهب الحياة فى سبيله .

وكل يفتدى بحياته مثله الأعلى فى الحياة . فالبخيل الذى يعبد المال يضحى بحياته دفاعاً عن ماله . والمدله بالعشق يضحى بحياته دفاعاً عن محبوبته . والفلاح أو الصانع يضحى بحياته دفاعاً عن رزقه . والأب البار يضحى بحياته لأبنائه ، والحيوان يضحى بحياته دفاعاً عنها وعن كل ما يُقيمها . وإنما يتفاوت الناس فى درجات السمو بتفاوت مثلهم الأعلى فى درجاته . فما اتصل بالطعام والشراب وكل ما يقيم الحياة مثل "أعلى للحيوان ولن لم يسم على مرتبته إلا قليلاً من نبي الإنسان . وكلما ازداد المرء سموً ازداد مثله الأعلى تنزهاً عن الأثرة واتصالاً بالغايات الاجتماعية والوطنية والروحية . والإيمان الصادق أسمى صورة للمثل الأعلى . فله الممثل الأعلى ، بنوره يتحاب الناس بينهم ، لا تفرقهم الألوان ولا الأوطان ولا اللغات ولا الأجناس ولا الأديان . والاستشهاد فى سبيل الله استشهاد فى سبيل هذا المثل الأعلى ، يريد صاحبه أن تبلغ الإنسانية غاية ما استطاع من السمو الروحي ، وأن يبلغ بها تبادل الحب غاية الرضا ، وأن تصبح بذلك وحدة تعمل لغاية مشتركة وإن اختلفت أممها وأجناسها ، كما تعمل أعضاء الجسم كلها لغاية واحدة وإن اختلف شكلها واختلفت وظائفها . أين من يدرك هذا المعنى ثم لا يستشهد فى سبيله ! وقد أدركه حمزة بن عبد المطلب فاستشهد فى سبيله .

والموت فى سبيل هذا المثل الأعلى هو وحده الاستشهاد ، والذين يهبون أنفسهم له هم دون غيرهم الشهداء . ذلك بأن الملائمة جميعاً يشهدهم ويشهد أنهم يؤثرونه على أنفسهم وعلى هذه الحياة الدنيا . والله يرضى عنهم ويقول لهم : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » . وحياة هؤلاء عند ربهم ليست كحياة هذه الدنيا : طعام وشراب وأثرة وشحناء ، بل حياة روحية راضية مرضية ، مضيئة بالحب متصلة بالله ، مشرقة بنور وجهه الكريم . أليست حياةً سبيلها وغايتها للمثل الأعلى ؟

أو ليس المثل الأعلى لله ؟ وأولئك الشهداء ضى الله عنهم ورضوا عنه . ذلك لمن خشى ربه .

قلّ من الناس من يذكر هذا أو يدركه حين يزور قبر حمزة ويقف عليه ، بل إن منهم لمن يشرك حمزة في قدرة الله ، أو يتخذة وسيلة إليه . كان لحمزة قبر ومسجد هدمهما الوهابيون . ولقد كان على القبر الذى بالمسجد لوحة فيها هذان البيتان :

قِفِ على أبوابنا في كل ضيق      واطلُبِ الحاجات وابشِرِ بالمنى  
فحمّانا ملجأً للطالين      وبنا تُجلى الكروب والعنا

وضعف هذين البيتين يصف قائلهما ومبلغ ثقافته . لكن هذه العقلية تصور عقيدة كثيرين من زوار قبر حمزة ، وعقيدة كثيرين من المسلمين في أنحاء الأرض المختلفة . وهؤلاء جميعاً من العذر أن الذين خيم على عقولهم الجهل قد طبعوا على عبادة القوة ، وعلى عبادة البطولة ، فهم يخلعون على أبطال الماضى من صفات العبادات ما يجعلهم فى حكم الأرباب ، وما يدعو هؤلاء الضعفاء أن يتخذوهم إلى الله زليقاً ، وهذا أمر ينكره الإسلام حين ينكر على الناس أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، الأموات والأحياء فى ذلك سواء . والإسلام ينكره لأنه ينكر أن يتجه إنسان بالعبادة لغير الله . !ليكن غيره من الناس بطلاً وليبلغ من البطولة كل ما يتصوره الخيال ، فهو إنسان مثلنا ، عبدٌ لله كعبوديتنا له ، ونحن وهو أمام الله سواء ، أكرمنا عند الله أتقانا . بل ليكن الإنسان أعظم من بطل ، ليكن نبياً ورسولاً وداعياً إلى الخير بإذن الله وسراجاً منيراً ، فهو بعد إنسان ، له إكبارنا وإكرامنا واحترامنا ، وعليه صلواتنا ، لكنه بشر مثلنا ، عبد لله كعبوديتنا له ، وهو أقرب إلى الله الذى اصطفاه ، لكنه فى حاجة إلى مغفرة الله له كحاجة الإنسان إلى مغفرة الله له .

ينكر الإسلام إذأ عبادة القوة وعبادة البطولة ، وكل عبادة لغير الله . وإنما يدعو الإسلام إلى الأسوة . والله تعالى إذ يتحدث عن رسوله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . والإسلام

إذ يدعو إلى الأسوة إنما يدعو إلى مجاهدة المرء ضعف نفسه وإلى دأبه للسمو بها كي تبلغ مكانة القديسين والأولياء المقربين ، وتطهيرها لذلك من كل أسباب الحوبة والإثم . والإسلام يفتح الباب واسعاً لكل من أخلص لله وجهه أن يصل بالتقوى إلى هذه المكانة ، حرّاً قرشياً كان أو عبداً حبشياً . ومعرفة الله معرفة حقة هي باب التقوى . والمعرفة لا تجعل التقوى في الضعف ولا في الخوف ، بل في العلم بسنة الكون والوقوف على أسراره والاتصال بما جل ودق منه وإدراك حكمة الله لذلك فيه . ولنا في الذين بلغوا من هذه المعرفة أسمى درجاتها الأسوة . فإن أضلهم علمهم فلن يُضل العلم مسلماً عرف أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن معرفتها عبادة له هي خير أنواع العبادة . وذلك ما كان يفهمه المسلمون الأولون من الأسوة الحسنة . لذلك لم يلبثوا حين طوّع لهم إيمانهم فتح الأمصار وحكم الأمم أن اتخذوا من علمائهم أساتذة عهدوا إليهم بنقل علوم الطب والفلك وتقويم البلدان ونقل كتب الفلسفة اليونانية والوقوف من ذلك كله على كل ما وصلت إليه المعرفة الإنسانية في عصرهم . بذلك أقاموا منارة الحضارة في العالم ، وعملوا لهدى الإنسانية إلى نور العلم وما يهدى هذا النور إليه من توحيد الله الحق .

أما والإسلام ينكر عبادة القوة وعبادة البطولة وكل عبادة لغير الله ويدعو إلى الأسوة الحسنة ، فمن الواجب على الذين يزورون قبر حمزة أن يلتمسوا فيه هذه الأسوة ، وأن يعلموا أن الله يجزيهم بجهادهم لبلوغ الغاية منها ، ولا يجزيهم لمجرد الزيارة والتبرك والدعاء . فإنما يجزي الله العامل بعمله ، فمن يعمل صالحاً يُجزّ به . وأسوة حمزة هي الجهاد في سبيل الله ، له المثل الأعلى ، وبذل الحياة لدفع من يصد عن سبيل الله ابتغاء العاجلة من حكم أو سلطان .

نسى المسلمون هذا المعنى في كثير من العصور ، ولا يزال أكثرهم ينسأه . واتخذت بعض الأمم الإسلامية ملوكها أرباباً ، وجعلت من بعض الصالحين فيها أولياء اتخذتهم إلى الله زليقاً . وهؤلاء وأولئك بنت القباب وأقامت عليها المساجد ، لا تقصد تخليد ذكراهم ليكون في الذكرى للأجيال أسوة ومثل ،

بل تقصد أن تكون القباب والمساجد محارِب لعبادتهم والتوسل بهم إلى الله .  
إلى ذلك قصد الذين أقاموا على قبر حمزة قبةً ومسجداً ، وكتبوا عليه من  
الشعر ما أثبتنا هنا بعضه وتركنا سائره . ولو أنهم أقاموا القبة والمسجد للأسوة  
والذكرى لكان ذلك خيراً ، ولحق لهم الثناء على نيتهم وعملهم . وإنما الأعمال  
بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

لم يبق لقبه حمزة ولا لمسجده اليوم أثر . فقد عفا الوهابيون عليهما ثم أقاموا  
مكانهما القبر الذى وصفت . وكان المسجد قبل هدمه مُحكم البناء خالياً  
من الزخارف ، به قبة فوق مقصورة أسدل عليها ستر من أستار الكعبة .  
كذلك يقول صاحب مرآة الحرمين فى وصفه . وأم الخليفة الناصر العباسى  
هى التى شيّدت مسجد حمزة عام ٥٩٠ للهجرة . وقد أمر الأشرف قايتباى فزاد  
شاهين الجمالى فى جهته الغربية وحفر له بئراً يرتفق بها المارة وجعل لها  
درجاً ، وأتم ذلك فى سنة ٨٩٣ . وكان المسجد قائماً فوق القبر حيث يقوم البناء  
الأسطوانى الوهابى اليوم .

وقد اختلف فى موضع القبر : أهو اليوم فى المكان الذى دفن به حمزة  
بعد مصرعه فى أحد أم هو فى مكان غيره ؟ وتذهب رواية إلى أن حمزة  
دُفن فى المكان الذى صُرع به ، حتى إذا كان القرن الرابع انحط من جبال  
الطائف سيل جارف اجتاز المدينة ومرّ بقبر حمزة وكشف عن ساقيه ، فنقل  
إلى الربوة التى بها القبر اليوم وكان عليها المسجد حتى هُدِم . وتذهب رواية  
أخرى إلى أنه صُرع تحت جبل الرماة ، وهو جبل عينين ، وأن النبى أمر  
بجثمانه فنقل من بطن الوادى إلى الربوة التى عليها القبر الآن ، فالمدفن غير  
المصرع . ويريد بعضهم التوفيق بين الرويتين فيذكر أن الربوة التى نقل الجثمان  
إليها فى أعقاب الغزوة قد تكون غير الربوة التى نقلت إليها الرُفات فى أوائل  
القرن الرابع . وهذا التوفيق ليس له عندى ما يقتضيه . فلئن كان جثمان حمزة  
قد نقل فى أعقاب الغزوة هو اليوم فى المكان الذى نقل إليه يومئذ ، فهو قريب  
من المقبرة التى دفن بها سائر شهداء أحد . وهم قد دُفِنوا فى ميدان المعركة .

وليس بين مقبرتهم والمكان الذي يقال إنه مصرع حمزة ما يدعو إلى نقل جثمانه غير مرة .

كنت أحاور الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في هذا كله ونحن وقوف على الهضبة التي اشتهرت باسم جبل الرماة ، نسبة إلى رماة المسلمين في أحد ، والتي تسمى جبل عينين . فقد أشار لي إلى مكان بأسفل هذا الجبل قال : إنه موضع المصرع ، وأشار إلى موضع من أحد وقال : إنه المِهْرَاس الذي احتتمى به رسول الله بعد فرار المسلمين حين خالف الرماة أمره وبرحوا مكانهم ، فحل خالد بن الوليد على رأس فرسان قريش محلهم فيه . وعجبت أن يكون المصرع بأسفل هذا الجبل ، إلا أن يكون وحشي<sup>٢</sup> اغتال حمزة بعد أن أخلاه المسلمون وأسرت إليه خيل قريش فسار وحشي<sup>٢</sup> على أثرهم .

ووقفت أصور ميدان المعركة كيف كان . فقد جاءت قريش من مكة إلى المدينة في الطريق الموازي لشاطئ البحر الأحمر ، ثم انعطفت مشرقة إلى ناحية قباء وذى الحليفة من جنوب المدينة ، واتخذت طريق وادي العقيق إلى شمالها ، حتى كانت عند البساتين والزرع القائمة أسفل أحد فمسكرت . وخرج المسلمون من المدينة بعد الذي كان بينهم من جدل : أيتحصنون بها أم يلقون المشركين في الميدان الذي اختاروه . ونزلوا قبالة قريش عند أحد وجعلوه إلى ظهورهم . وأمر النبي خمسين من الرماة أن يلزموا هذا التواء من سلع ويصدوا فرسان قريش ، وقال لهم : «احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا . إنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل » . فلما دارت المعركة وحالف النصر المسلمين في أولها بعد أن قتل أصحاب اللواء من المشركين ، تبع المسلمون عدوهم في فراره يضعون فيه السلاح وينتهبون ما خلف من غنيمة . وهناك برح الرماة مكانهم ليكون لهم من الغنيمة نصيبهم ، فاهتبل خالد بن الوليد الفرصة فشدَّ برجاله على مكان الرماة فأجلى من بقي منهم وصاح صيحة

أدركت قريش معها ما فعل . إذ ذاك عاد منهم كل منهزم فأثخنوا في المسلمين ضرباً وقتلاً ، وتمزقت صفوف المسلمين وصاح صائح بالناس : « إن محمداً قد قتل ! » . وتشجع المشركون حين سمعوا نبأ قتله . وكان رسول الله قد أصابه حجر رماء عتبة بن أبي وقاص فوقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج في وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه في وجنته ، وسار كبار المسلمين من حوله يدفعون عنه ، فصعد أحداً واحتفى بشعب من شعابه في جوار المهراس الذى كانت تقوم عليه قبة اشتهرت باسم قبة الثنية ثم هدمها الوهابيون . وقد سميت تلك القبة بقبة الثنية لما قيل من أن ثنية رسول الله وقعت عندها .

وألقيت نظرة إلى ناحية أحد فذكرت قول رسول الله عنه : « هذا جبل يحبنا ونحبه » ، واستقر نظرى على صحوره الحمراء وعلى الرؤوس الكثيرة الناتئة على سطحه . قال الأستاذ عبد القدوس : يخيل إليك أن أحداً أحمر اللون كله . أما أنا فقد وجدت فيه حين تنقلت بين شعابه وقننه وهضابه صحوراً وعروقاً مختلفة الألوان يضرب بعضها إلى الزرقة . وبعضها إلى الخضرة ، ومنها الأسود الأثمدى والرمادى لون التراب . وقد ذكر لى صديق أنه عثر فيه بحجر من الأثمد زنته مثقالان ، وآخر زنته سبعة مثاقيل ، وأن صديقاً له عثر بحجر كبير كسره فانفلق عن زبرجدة عظيمة الحجم . ولطالما تساءلت : أكشف عن شىء من هذه النفائس بأحد في عصر خلا ؟ ولم أجد جواباً فيما قرأت من كتب تاريخ المدينة . ولست أدري أتيسر الأقدار لأهل هذا الجبل أن يقوهوا من ذلك بما لم يقم به أسلافهم .

لم أقف طويلاً عند هذا الحديث عن طبيعة الصخور في جبل أحد ، فلقد كنت أحرص على معرفة الطريق الذى سار فيه النبي نجاة بنفسه من أعدائه بعد أن خالف الرماة أمره . وازلنا على جبل الرماة ومررنا على مقربة من قبر حمزة وقبور الشهداء وتخطينا إلى أحد وسرنا أثناءه بين صحور ضخمة تلويحنا خلالها هنيهة ، فإذا نحن قد ابتلعنا الجبل فحجبنا عن كل ما وراءه . لم يبق



أمامنا وادى قناة ولا جبل سلَّع ولا هضبة الرماة ، بل كنا خلال جبل تلتوى الطرق على سفوحه إلى حيث لا أدري . قال عبد القدوس بعد أن سرنا زمنًا : هذا المهراس الشرقى الذى جىء للنبي صلى الله عليه وسلم بالماء منه يوم أحد . قلت : وما المهراس ؟ فكان جوابه : تلك نُقْمَرٌ كبار وصغار يجتمع فيها ماء المطر . وكان النبي فى الشعب القريب من هذا المهراس حين جاءه على بن أبى طالب بماء يُرْوَى به ظمأه ؛ ووجد بالماء ريحاً فكرهه ولم يشرب منه ، وإن غسل به الدم الذى أصابه أثناء المعركة . وصمت هنيهة ثم أردف : وهذا ، هنا ، المهراس الشرقى . وثم مهراس غربى طريقه وعمُرٌ لا سبيل إلى ارتقائه إلا بتسلق بعض الصخور . ولم يرد فى أنباء التاريخ أى المهراسين جىء منه بالماء لرسول الله . لكن بيتاً من الشعر لعبد الله بن الزبَعْرَى يدل على أنه هذا المهراس الشرقى ، ذلك قوله :

فَسَلِّ المِهْرَاسَ مَنْ ساكِنُهُ      بين أقحاف وهام كالحجل

والمهراس الغربى لا سبيل إلى أن ترتقيه الأفراس لوعورته وملاسه صخوره . أما وابن الزبعرى يشير إلى المهراس الذى جىء بالماء للنبي منه فهو إذاً هذا المهراس الشرقى لا ريب .

عدنا بعد ذلك أدرأجنا نقصد الوادى لنستقل سيارتنا إلى المدينة . واستوقفنا جند من النجديين يقيمون ببنية موضعها بين القبور والمصرع ، فدعينا إلى قهوة وشأى عندهم . وتناول الحديث أثناء ذلك فى كلمات مقتضبة هؤلاء الذين مررنا بهم من زوار حمزة وشهداء أُحُد . فهم اليوم يقفون يصلون ويستغفرون ، وكانوا قبل العهد النجدى يجدون فى القبة وفى المسجد وسيلة للزنى وللعبادة ويقومون لذلك مع من يخرجون إلى هذا المكان من أهل المدينة ثلاثة أيام تنصب فيها سوق وتجرى فيها تجارة ، ولا بأس بأن يقع أثناءها هو ومجون . وانطلقنا بعد الشأى والقهوة نلتمس سيارتنا ؛ فلم يتحلَّ انطلاقنا بينى وبين الالتفات إلى وراء لألقى نظرة أخيرة على قبر حمزة ولأحيط كرة أخرى بهذا الوادى المترامى الأطراف إلى جوار عرين الأسد ، ولأرى فيه المسجد الذى يسمونه المستراح ،

ويذكرون أن النبي كان يستريح موضعه إذ كان يزور مثنوى الأسد .  
 وعدت من بعد إلى التفكير في الاستشهاد والشهداء ، وفي حمزة الذي مات  
 فداء لدين الله وللمسلمين إخوانه فيه . وناجيتي نفسي : لماذا يذكر الناس  
 هؤلاء الشهداء في تقديس وإجلال وإن بعد بهم العهد وحجبهم الماضي في  
 غيابات الدهور ؟ فكلنا نذكرهم في تقديس وإجلال ؛ وإنما يتفاوت مظهر  
 إكبارنا إياهم بين العبادة وما هو منها بسبب من الجاهل ، والإعظام الحق من  
 المهذب النفس ذى العلم . ونحن إنما نكبرهم لأنهم وهبوا أنفسهم وحياتهم  
 للإنسانية كلها وتمنوا الموت صادقين ليلبغوا بالإنسانية أسمى الأغراض التي  
 تصبو إليها . لم يفكر حمزة في نفسه ولا في أبنائه يوم خاض الغمار في بدر ،  
 ويوم حاصر بني قيسنق ، ويوم استشهد في أحد ، ولم يرد من أحد من  
 الناس جزاء ولا شكوراً ، إنما كان تفكيره في الله وجزائه ، وفي نصر الله دينه  
 الحق لتتهدى الإنسانية إلى الصراط المستقيم وتشرق روحها بنور ربها . هو  
 إذاً قد أثر إخوانه على نفسه ، وحرص على الموت ليهب لهم الحياة ، فوهبه  
 إخوانه الحياة الخالدة على الأجيال جزاء وفاقاً . وأية حياة باقية على الدهر  
 كحياة المرء في قلب الإنسانية ما تعاقبت أجيالها وما نسخ الليل فيها النهار !  
 وأى جزاء للمرء عن عمله أكبر من اعتراف الناس له على تعاقب الأجيال  
 بالفضل عليهم ، وما يكون له بسبب ذلك من حسن الأحداث فيهم ! . هؤلاء  
 الذين وهبوا حياتهم في سبيل الحق لهدى إخوانهم إنما وهبوا لله ربهم فلا خوف  
 عليهم ولا هم يحزنون ؛ وهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون .

أجل ! هؤلاء حرصوا على الموت ليهبوا للناس الحياة ، فوهب الله لهم  
 الحياة . وقد يمتأ قيل : « احرص على الموت توهب لك الحياة » . وهي كلمة  
 حق لم تتغير على القرون ، ولن تتغير ، وهي من سنة الله التي لا تبدل لها . فمن  
 تمنى الموت صادقاً بما قدمت يدها فاختاره الله إلى جواره فهو حي عند ربه .  
 ومن تمنى الموت وبقي حياً ضاعف الله له أجره في هذه الحياة الدنيا . ذلك شأن  
 الأفراد ، وهو شأن الأمم ؛ حياتها في أن تهب الحياة لمن بعدها وإن ضحت

بحياة آخر فرد منها إذا هي أريدت على نقص في مقومات حياتها : في كرامتها ، في عزتها ، في سيادتها ، في استقلالها ، في حريتها التامة أن تنظم كما تشاء شئونها . والأمم التي يعرف أبنائها كيف يموتون أعزة كراماً هي الأمم التي تحيا أبداً عزيزة كريمة .

هذه الأمم التي تحيا عزيزة كريمة ، والتي يعرف أبنائها الحق والاستشهاد في سبيل الله ، هي الأمم التي رفعت في الإنسانية منار الهدى وبينت لها طريق الحضارة في أسنى صورها . وذلك ما فعله خلفاء حمزة من شهداء المسلمين . وإنما آفة الإنسان أن يطغى أن رآه استغنى . هي آفة الأفراد وآفة الأمم . وكم أمة عزت وكرمت ورفعت منار الحق والعدل وهدت الإنسانية سبيلها فأمنت بها الإنسانية ، وسارت في خطاها ، وجزتها بذلك خير ما يجزى المعترف الشكور ؛ ثم استغنت هذه الأمة فطغت فجزت الإنسانية بطشاً واستعماراً . يومئذ يمد الله لهذه الأمة بحكم سنته في طغيانها ، ثم ينالها بعد ذلك من جرائمها ما ينال كل طاغية كفور .

ربنا إننا آمننا بك ما آمن بك عبدك حمزة بن عبد المطلب . ربنا فهب لنا من فضلك بعض ما وهبت له ! هب لنا الإيثار على أنفسنا وأن نحب بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات لإخواننا ، وأن نتمنى الموت بما قدمت أيدينا ، وأدخلنا ربنا في عبادك الصالحين ! ربنا اهدنا صراطك المستقيم ، ربنا إنك من تهدي لا يضل ؛ وخير ما نرجو من هداك أن توجهنا وأن توجه الإنسانية بفضلك إلى الحق والخير والسلام .

## أمام الحجرة النبوية

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ، وأنه وفيّ بوعدده ، وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له .

وقفتُ أمام الحجرة النبوية وتلوت هذه التحية يوم دخلت المدينة وذهبت مع مضيقي إلى المسجد وتبعته مزورى من باب السلام إلى حيث وقفت مأخوذاً لا أدري ما الله صانع بي . وسلمت على الصديق أبي بكر وعلى الفاروق عمر المدفونين في هذه الحجرة إلى جوار رسول الله وتلوت الفاتحة ، ثم أقمت مكاني شاخصاً إلى الحجرة وإلى عمدها النحاسية الدقيقة الصنع ، وإلى النسيج الأصفر الذى يصل بين هذه العمدة ، وإلى الطاقات الثلاث المفتوحة فيها إزاء القبور الثلاثة ، كأنما كل طاقة منها عين تحديق في كل زاوية وتنفذ إلى أعماق نفسه وطيأت قلبه . أقمت مكاني مأخوذاً بالذهن عن التفكير متوجهاً بكل انتباهي إلى كل ما يجب أن أقوم به من الشعائر حذر أن يفوتني شيء منها ، وكأنني في حضرة ملك أؤدى فروض الإكبار والإجلال . وشعرت بنفسى تحيط بها هالة من الجلال الروحي الذى أخذ على تفكيرى المسالك وجعلنى في حيرة ما أصنع ، وكذلك بقيت حتى تقدمنى مزورى إلى ناحية الروضة النبوية لأؤدى فيها تحية الحرم وأصلى وراء الإمام صلاة المغرب .

وعجبت حين غادرت موقفي من الحجرة وأتممت صلاتي بالروضة . لقد امتلأت روحى إكباراً وتقديساً وإجلالاً ، ولقد شعرت بما لم أشعر قط من قبل به . لكنى لم أبلك ولم تفيض عيبرانى . وكنت قد سألت قبيل سفرى من مصر إلى الحجاز بعض من سبقونى إلى الحج والزيارة عن موقفهم أمام قبر الرسول ، فحدثنى بعضهم عن اهتزاز أنفسهم وانهمار الدمع من أعينهم ، ولم يأتوا أن يذكروا أنهم كانوا أشد تأثراً حين وقوفهم أمام الحجرة منهم حين

وقوفهم أمام الكعبة وحين طوافهم بها . وهؤلاء الذين حدثوني هم من خير من أعرف ثقافة وأكثرهم بعداً عن الغلو في الدين أو التزمّت فيه . مالى إذأ لم تنهمل عبراتي كما انهملت عبراتهم ، ولم يزد تأثرى أمام قبر الرسول عن تأثرى أمام بيت الله ، وما أحسبني دون أحد منهم إيماناً بالله وتصديقاً لرسوله صلى الله عليه وسلم وحبّاً إياه! أتراهم أرهف منى حسناً وأدق شعوراً، أم أنّنا نختلف رأياً وتفكيراً؟ ولم أطل تقليب النظر في هذه الأمور بادئ الرأي، وكفاني أن ذكرت أنى توجهت إلى الله بالحج مخلصاً ، فلى في مغفرته ذنوبى أعظم الرجاء ، وأننى جئت ألتمس بزيارة نبيه الكريم الذكر والأسوة مزيداً في الرجاء أن يهدينى الله سبيله الذى دعا إليه محمد عبده ورسوله . هذا إلى أنى خلقت عصىّ الدمع لا تسعفنى العبرات ما تسعف غيرى ، فإن أوشكت ضننت بها ضنناً بكرامتى وإبائى . وما أدرى لعلى كذلك خشيت أن يكون فى البكاء مظهر عبادة وقد قال عليه السلام : ( اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبَد ) ؛ وإنما تفيض دموع المؤمن من خشية الله .

عدت بعد ذلك مرات إلى المسجد ووقفت أمام الحجرة . لشد ما يبعث هذا الموقف إلى النفس من آى الحكمة ومعانى الجلال ! إنه ينشر أمامها حياة الرسول وصاحبيه ، وجهادهما معه فى سبيل الدعوة إلى دين الله ، وجهادهما من بعده لتثبيت دعائم هذه الدعوة ونشرها فى الخافقين . إنه يصور أمام الذهن من حياته وحياتها بساطة فى العيش ، بل خشونة فيه اتخذوها لهم سنة وشعاراً مذ تولوا أمر الناس ، فآثروا الناس على أنفسهم وأهليهم ، وعافوا مُتْع الحياة وما لها حذر أن يدخل عليهم منه ما ليس لهم بحق ، وضرّبوا بذلك للناس مثلاً فيما يجب أن يكون عليه من يلى أمر غيره . وهم قد اتخذوها شعاراً وكان لهم فى أموالهم سعة ، وفيما رزقهم الله متاع . كان محمد غنياً بتجارة خديجة وما لها الكثير . وكان أبو بكر غنياً بتجارته وإلف الناس إياه . وكان عمر غنياً بسعيه واتصال كده . فلما بعث الله رسوله هدى للناس ونوراً أنفق مال خديجة ولم يُبق منه على شيء . ولما آلت خلافة رسول الله إلى أبى بكر كان الزهد فى الدنيا والرغبة عنها ، وكان التقوى وخوف الله أن يُصيب ظلمٌ رجلاً ممن ولى

أمرهم . أما عمر فكان مثال العدل الصارم لا يعرف الهوادة مع غيره ، وهو أشد قسوة على نفسه وأهله . أليس عجباً أن يكون ذلك شأنهم وأن تكون هذه سيرتهم وعبرتهم ، ثم تكون هذه الحجرة النبوية وهي ما هي اليوم جمالا وتألّقا في النقش والزخرف والعمارة حتى لتُزرى بأكثر الحُجر في أبهى القصور فخامة وروعة ، وحتى لكانت تُزرى إلى عصر قريب بكل قصر ثراء ونِعْمة ، لما اجتمع فيها من نفائس قدرها بعضهم بسبعة ملايين من الجنيهات !

بذلك حدثتني نفسى يوماً وأنا بمجلسى من المسجد بعد وقفة طويلة أمام الحجرة . وذكرت لهذا الحديث ما كانت الحجرة عليه قبل أن تضاف إلى المسجد يوم دُفن بها الرسول ، ويوم دفن بها أبو بكر ، ثم يوم دفن بها عمر . كانت هذه الحجرة في بيت عائشة أم المؤمنين . فلما مرض النبي انتقل إليها ومرّضه أزواجه فيها حتى اختار الرفيق الأعلى . وكانت هذه الحجرة كالبيت كله من جريد ، مستور بمسوح الشعر ، أو كان البيت في قول من اللين له حُجرٌ من جريد . فلما توفى رسول الله وانتهى المسلمون بعد خلاف إلى دفنه حيث قُبِض حُفروا له في هذه الغرفة مكان السرير الذى كان يمرض عليه ، ودفنوه بعد أن ودّع المسلمون جثته رجالا ونساء وأطفالا . ودفن أبو بكر بعد سنتين وثلاثة أشهر من موت الرسول ، والحجرة على حالها لم يغير فيها شيء ، ولم يقم على القبر قبة ولا مقام . وبعد عشر سنين من موت أبي بكر دفن عمر بالحجرة وهي على حالها لم يزد عليها إلا جدار أقامه عمر بينها وبين سائر الدار التي كانت عائشة تقيم بها . ذكروا أن ابن الخطاب أرسل إلى عائشة لما طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة يسألها أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ، لأوثرنه اليوم به . وأوصت أن تدفن مع صواحبها بالبقيع . ولعلها إنما فعلت بعد دفن عمر حتى لا تدفن إلى جواره وهو منها غير ذى رحم محرم . فهي قد كانت تزور حجرة القبر سافرة حين لم يكن بها غير زوجها وأبيها ؛ فلما دفن عمر إلى جانبها لم تكن تدخلها إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها .

وبقيت حجرة القبر على بساطتها إلى أن أمر الوليد بن عبد الملك عمر

ابن عبد العزيز واليه على المدينة أن يزيد في المسجد وأن يضم حجرات أزواج النبي إليه . وكل ما قيل إنه حدث قبل ذلك أن وضعت على القبور الثلاثة حجارة مسنمة وكانت في العهد الأول مسواة بالأرض . وانقض جدار من الحجرة حين أمر عمر بن عبد العزيز ببنائها ، فانكشف أحد القبور عن ساق وركبة ، فتولى عمر الفرع أن تكون ساق رسول الله وركبته . فلما تبين أنها ساق عمر وركبته زايله الفرع وهدأ روعه ، وأمر مولاه مزاحم فقام فسترها وسوى التراب عليها . وبعد ذلك أقيمت الحجرة فخيمة البناء فخامة أعجبت الوليد بن عبد الملك ودعته أن يقول لأبان بن عثمان : « أين بناؤنا من بنائكم ! » . وكان جواب أبان : « بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس » .

بنى عمر بن عبد العزيز الحجرة سنة ثمان وثمانين ، وقيل سنة إحدى وتسعين للهجرة . هي إذًا قد ظلت ثمانيا وسبعين أو ثمانين سنة بعد وفاة الرسول في مثل بساطتها حين وفاته لم يزد عليها إلا ما قيل عن هذه الأحجار المسنمة . ولم يكن الناس إذ ذاك أقل إكباراً لها وذكرها لصاحبها عليه السلام مما كانوا بعد أن بنيت وأقيم عليها سقف أنفق عمر أربعين ألف دينار ذهباً في إقامته وتزيينه . ولئن تفاوت تقدير الناس إياها ، لقد كان المسلمون الأولون في عهد الخلفاء الراشدين والأيام الأولى لعهد بنى أمية أدنى إلى التقدير الصحيح . أولئك كانوا الصحابة والتابعين ، وكانوا لذلك يُدركون روح الرسالة وأغراضها إدراكاً سليماً . لم يكن الخيال ولا كان الهوى السياسي قد عبث بأفئدتهم ولا بمنطق عقولهم ، ولم يكونوا لذلك قد اضطربوا بين الإفراط والتفريط ، والغلو في ناحية أو العكوف على نقيضها . كانت حياة الرسول وصاحبيه ماثلة أمامهم على حقيقتها التي رأوها ، وكانوا لذلك يكبرونها ويلتمسون فيها الأسوة ، ولم تكن نفس أحد لتطاوله على عبادة غير الله مما ينكر الإسلام . لذلك لم يتحمس أحد من أهل المدينة لما صنع الوليد من بناء الحجرة ، بل أنكره كثيرون من أتقيائهم ، وبرئوا منه ، ورأوا فيه خروجاً على الأسوة الحسنة . وحق لهم يومئذ أن يفعلوا وقد أنكر بعض إخوانهم وآبائهم على عثمان بن عفان

أن يبنى المسجد بالحجارة وأن يخرج به لذلك عن بناء النبي إياه باللبن والجريد  
وخشب النخل يجعلها له عمداً .

أرأني أشد ميلاً لرأى هؤلاء المسلمين الأولين فيما صنع الوليد بن عبد الملك .  
فلو أن الحجرة بقيت كما كانت يوم دفن بها رسول الله لكان منظرها أقوى  
إلهاماً من منظر الحجرة المزخرفة البديعة النقش الجميلة العمدة الثمينة الأثاث ،  
والتي تبعث إلى النفس من الروعة أكثر مما تدعو إليه من الأسوة والعبرة .  
كانت تلك الحجرة الأولى صورة حية من حياة رسول الله ، ومن جهاده ،  
ومن آلامه ، ومن مرضه ومن دفنه . أين يرى الإنسان اليوم حجرة الرسول التي  
كانت مثل التقشف ومظهر الخشونة في العيش والبراءة من كل زينة وبهرج ؟  
أين موضع فراشه فيها ، وكان أدمماً حشوه ليف ؟ أين هذه الصورة التي تملأ  
النفس روعة ، صورة الرسول في بيته وفي مهنته أهله ، ينظف ثوبه ويرقعها  
ويجلب شاته ويخفف نعله ويخدم نفسه ويأكل مع الخادم ؟ أين هذا المكان  
السادج يجلس محمد فيه إلى أهله وهو اللطيف بهم والدعابة معهم ، والبر  
والرأفة والرحمة ؟ أين هذا الباب الذي لم يكن عليه قفل ، والذي كان محمد  
يفتحه لديك مريض فيترقب به ويمرضه ! ترى أين كانت الغرفة التي أقام بها  
رسول الله حين هجر نساءه شهراً لما لجت الغيرة بهن بعد أن ولدت مارية ابنة  
إبراهيم ؟ وأين من حجرات أزواجه كان مجلسه المفضل للتفكير والتأمل ، ولتنظيم  
سياسة المسلمين وتوجيههم في مختلف شؤونهم ؟ وأين من هذه الحجرات نزل  
عليه الوحي ؟ وأين فيها سرير مرضه وحيث كان به من لهب الحمى ما يعانى  
منه أشد الكرب ؟ وأين منها المكان الذي مر به المسلمون بعد موته وغسله ،  
رجالا ونساء وأطفالا ، يودعون جثمان نبي الله ورسوله ، ويشهدون أنه بلغ رسالة  
ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ؟ لم يبق من ذلك كله أثر بعد أن  
ضمت الحجرات إلى المسجد ، فلم يبق لزائر المدينة أن يقف على تفصيله  
أو أن يستمد إلهامه ، وقد كان له في الإسلام وفي حياة المسلمين أبلغ الأثر .  
ألا لو أن ذلك كله بقي إلى اليوم لأهم المؤرخين والكتاب والشعراء ورجال الفن



ما لم تلهمهم الحجرة البديعة الزخرف مذ شادها عمر بن عبد العزيز . لم يفكر الوليد في شيء من هذا يوم أمر بهدم الحجرات وإدخالها في المسجد ، وإنما فكر في حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الحسين وفي الدعوة العلوية وفي هذه الحصومة التي استحرت بين بني هاشم وبني أمية بعد مقتل عثمان . ولو أنه فكر في شيء مما ذكرت أو وجد من يذكره به لما عدل أغلب الأمر عن رأيه ؛ فالهوى السياسي أعنف من أن يذرنا نفكر في أمر سواه ؛ وهو كذلك خاصة إذا اتصل بالملك وما يحيط به من شهوات أهواء .

بذلك حدثني نفسي يوماً وأنا بمجلسي من المسجد بعد وقفة طويلة أمام الحجرة . وذكرت لذلك ما حدث من عمارة الحجرة بعد الوليد ، وكيف نهج غيره نهجه في البناء والزخرفة . وكيف نسي المسلمون العهد الأول ووقر في نفوسهم أن كل زخرف يضيفونه إلى الحجرة يقربهم إلى الله . ولقد بلغ أمرهم من ذلك أن اختلفوا على موضع المدفونين بالحجرة بعضهم من بعض . هذا وأبو بكر وعمر ووزير رسول الله في حياته وخليفته بعد موته ، وهما اللذان ثبتا قواعد الإسلام ونشرا في الخافقين لواءه . ولقد بلغ من اختلافهم على هذه المواضع أن روى السهمودي عنها سبع روايات اعتمد في كل منها على راوية لروايته مبلغها من القوة أو الضعف . ونقل السهمودي ما صورت به هذه المواضع في مختلف الروايات على النحو الآتي :

النبي « صلعم »      عمر « رضه »

أبو بكر « رضه »      أبو بكر « رضه »

الوضع الثاني

عمر « رضه »

النبي « صلعم »      أبو بكر « رضه »      الوضع الأول

الوضع الرابع

عمر « رضه »

النبي « صلعم »

النبي « صلعم »

أبو بكر « رضه »

عمر أو أبو بكر « رضه »

أبو بكر أو عمر « رضه »

عمر « رضه »

الوضع الثالث

الوضع الخامس

النبي « صلعم »

أبو بكر « رضه »

عمر « رضه »

الوضع السادس

هذه هي الأوضاع التي ذكرها السهمودي ، وهي سبعة يمكن أن ترد إلى ستة . وأنت تستطيع كما ترى أن تعتبرها ثمانية . على أن الوضع الأول منها هو المآثور . والرواية فيه أن رأس النبي وضع إلى ناحية الغرب ، وأن رأس أبي بكر وضع إزاء منكب النبي ، وأن رأس عمر وضع إزاء منكب أبي بكر وهذا الخلاف على وضع أبي بكر وعمر من النبي يقع مثله على بناء الحجرة حين شادها عمر بن عبد العزيز . فقد ذكروا أنه بناها خمسة ولم بينها أربعة خيفة أن يتخذها المسلمون قبلة يتوجهون إليها في صلواتهم . أما السهمودي فيقول : إنه رآها حين عمارة المسجد في عصره ، أي في القرن التاسع الهجري ، وأنه ألقاها مربعة ، وأن تخميسها كان بعد ذلك . وقبر النبي معلم اليوم بمسار من القضة موضوع في الجدار القبلي من الخارج . والمآثور أنه قبالة الرأس . وقد وضع هذا المسار في عهد متأخر . ولكنه يشير إلى موضع الرأس لا ريب ؛ فالمسلمون قد حرصوا على الدقة في تحديد قبر النبي وإن لم يحرصوا على مثلها في تحديد قبري صاحبيه .

وهذا الخلاف على تحديد مواضع القبور من الحجرة إنما حدث في عهد متأخر . فقد رأيت أنه لما انقض جدار وانكشفت بذلك ساق وركبة في ولاية عمر بن عبد العزيز المدينة عرفوا أنها ساق عمر وركبته ، مما يدل على أن مواضع القبور كانت محددة يومئذ أدق التحديد . فلما أقيمت الحجرة حولها ولم يكن يدخل إليها إلا الموكلون بها ، وقلَّ منهم العلماء ، بدأ هذا الخلاف ، ولا نعرف من الذي بدأ بإثارته . ولو أن الحجرة بقيت على صورتها الأولى لما حدث خلاف ؛ ولما ترتب على هذا الخلاف ما ترتب عليه من جدل طويل .

فأنتى أن أشير إلى ما يذكرونه عن قبر رابع موجود بالحجرة إلى جانب القبور الثلاثة ، وما يروى من أن هذا القبر لعيسى بن مريم ، وما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث تؤيد أن المسيح سيدفن به . ولست أريد أن أخوض مع الخائضين في هذا الأمر . وكل ما أذكره أن النبي لم يعين مكاناً يدفن به ، ولذلك اختلف أصحابه : أيدفن بمكة أم بيت المقدس ؟ ثم

اتفقوا على دفنه بالمدينة حين قال أبو بكر : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما قبِضَ نبيٌّ إلا دُفِنَ حيثُ يقبضُ » . ولم يكن بدار عائشة يومئذ قبر ، ولم يحفر بها قبر غير قبر النبي إلا بعد أن دفن بها أبو بكر وعمر ؛ ولم يذكر رسول الله أنهما سيدفنان بها ، ولم يكن أحد يعلم ذلك . بل لقد دفن عمر بها بعد أن سأل عائشة أن تأذن به ، وبعد أن آثرته عائشة على نفسها فأذنت أن يدفن في دارها .

تجدد بناء الحجرة بعد ذلك غير مرة . ولقد أشرت إلى شيء من ذلك حين الحديث عن المسجد النبوي وتجديد بنائه على أثر الحريق الذي أصابه في القرن السابع وامتد إلى الحجرة كما امتد إلى المسجد كله ، وعلى أثر الصاعقة التي نزلت به في أواخر القرن التاسع الهجري . ولقد عدل بناء الحجرة أثناء ذلك فخمست بعد أن كانت مربعة وزيد عليها ما لم يكن منها حين بناها عمر ابن عبد العزيز . يقول السهودي في حديثه عن عمارة القرن التاسع : « إن متولى العمارة ومن كان معه خبروني أنهم وجدوا عند نقض جدار البيت الشامي - أى الشمالى - من داخله رأس جدار فى محاذة الأستوانة المذكورة يشهد الحال أنه كان آخذاً من الشامى إلى ما يحاذيه من القبلة ، فكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة الشرق ، وكأنه لما انهدم زيد فيها ذلك القدر . قالوا : ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامى مما يلي الشرق لم تبن مع الجانب الآخر منه ، بل هى ملصقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم تدخل أحجار أحدهما فى الآخر ولا هى مرتبطة كما هى عادة البناء الواحد . ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلى مما يلي الشرق ، فرأيت ما يشهد بإحداث بنائه بحيث إنه مبنى بالحجارة غير الوجوه كنسبة الجدار الشرقى بخلاف بقية جدارات الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة الموجودة المنحوتة . وأنا لم أشاهد ما قدمته مما حكى لى فى أمر الجدار الشامى لأنى اجتنبت حضور الهدم احتياطاً لنفسى » (١) .

(١) السهوى : وفاء الوفاء . جزء أول صفحة ٤٠١ .

ويقص السهمودي في فصل عقده وجعل عنوانه « فيما تجدد من عمارة الحجر الشريفة في زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول من ذلك المحل الشريف ومشاهدة وضعه المنيف وتصوير ما استقر عليه أمر الحجر في هذه العمارة » - يقص صورة ما حدث في عهده حين جاء شاهين الجمالي إلى المدينة مُنصَرَفَه من جُدَّة فأراه وجوهها ما تكسر من أخشاب المسجد ، وأروه ما في الحجر من تصدع قديم في جدارها الشمالي ، رأى معه إصلاح عمدتها وإعادة بنائها . وقد اختلف يومئذ في ضرورة ذلك ورأى كثيرون الخير في عدم التعرض له ما دامت الحاجة لا تدعو إليه . لكن شاهيناً وزير سلطان مصر الأشرف قايتباي ، كان له غرام بإصلاح الحرمين لا يعدله غرام . لذلك كان دائباً على تعمیر ما يرى الخير في تعميده منهما . فلما استقر الرأي على تعمیر المسجد والحجر بدءوا بإزالة ما كان من تراب الهدم الذي سقط بها حين الحريق الذي وقع في القرن السابع . يقول السهمودي : « بعث إلى متولى العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجر الشريفة بعد تنظيفها ، وصار قائل يقول : ظهر القبر الشريف ، وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثراً . فحسنى داعى الشوق وغلبة الوجد ، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله عائشة رضی الله عنها أن تریه القبور الشريفة . . فعزمت على الإقدام وتمثلت بقول بعضهم :

ولو قيل للمجنون أرضٌ أصابها غُبارٌ ثرى ليلي لجدَّ وأسرعاً  
لعل يرى شيئاً له نسبةٌ بها يعلل قلباً كاد أن يتصدعاً  
فنتظرت وتوجهت لذلك مستحضراً عظيماً ما توجهت إليه ، وموقع المثل  
ببيت أوسع الخلق كرمًا وعضواً ، وذلك هو المعول عليه ، واستحضرت قول بعضهم :

عصيت فقل لي كيف ألقى محمداً ووجهي بأثواب المعاصي مبرقُ  
ثم أنشدت الذي يليه :  
عسى الله من أجل الحبيب وقُربيه يُداركني بالعفو فالعفو أوسعُ

وسألت الله أن يمنحني حسن الأدب في ذلك المحل العظيم ، ويلهمني ما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، وأن يرزقني . منه القبول والرضا ، والتجاوز عما سلف ومضى . فاستأذنت ودخلت من مؤخر الحجرة ولم أتجاوز ذلك المحل فشمت رائحة ما شممت في عمري أطيب منها ، ثم سلّمت بوجل وحياء ، على أشرف الأنبياء ، ثم على ضجيعيه خلاصة الأصفياء . . . ودعوت بما تيسر من الدعوات ، وتشفعت بسيد أهل الأرض والسموات ، واستنزلت به في بيته من الأزمات ، واغتنمت هذه الفرصة في جميع الحالات . . . فلما قضيت من ذلك الوطر ، تمتعت عيني من تلك الساحة بالنظر ، لأتحف بوصفها المشتاقين ، وأنشر من طيب أخبارها في الحيين . فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هي أرض مستوية وتناولت من ترابها بيدي فإذا به نباوة وحصباء . . ولم أجد للقبور الشريفة أثراً غير أن بأوسط الحجرة موضعاً فيه ارتفاع يسير جداً توهموا أنه القبر الشريف النبوي ؛ فأخذوا من ترابه للتبرك فيما زعموا . ومنشأ ذلك الوهم جهل من كان هناك بأخبار الحجرة الشريفة . وذلك المحل ليس هو القبر النبوي قطعاً ، ولعله قبر عمر رضى الله عنه . . لأن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريباً من الجدار وكان اللحد تحت الجدار « (١) .

وكان مهرة الصنّاع قد نقضوا قبل تنظيف المكان ما رأوا حاجة إلى نقضه من العمد ، ثم أعادوها بعد صب الرصاص فيها وجعلوها قوية قوة دهش لها السهمودي . وبعد التنظيف أقاموا بناء الحجرة حول مربعها الذي كان عمر بن عبد العزيز أقامه ، وجعلوا عليها قبة مكان القبة التي سبقتها والتي لم تقاوم عمل الزمن لأنها كانت من خشب . أما في هذه العمارة فقد بنيت من الحجر الأسود وكمّلت من الحجر الأبيض .

وبعد زمن من تمام بناء الحجرة سقطت الصاعقة التي ذكرنا نبأها في فصل المسجد النبوي على مثذنته الرئيسية فامتد الحريق إلى المسجد كله . أما الحجرة فلم تحترق . على أن هذا الحريق قد ترك أثراً في القبة إذ تشققت أعاليها .

(١) السهمودي : الجزء الأول صفحة ٤٤٨ .

وقد أعيد بناؤها محكمًا بعد أن أخذ لها الجبس الأبيض من مصر، وتم ذلك في سنة ٨٩٢ هجرية . وكتب على طرازها من الناحية الغربية : « أنشأ هذه القبة الشريفة العالية المعترف بالتقصير ، الراجي عفو ربه القدير ، قايتباي » . وبقيت القبة من ذلك العهد إلى أن جدها السلطان محمود بعد أن هدم أعاليها في سنة ١٢٣٣ ، وهو الذي أمر بصبغها باللون الأخضر .

ليس يسعنا وقد تحدثنا عن عمارة الحجرة أن نغفل أمرًا حدث أثناء ذلك له بهذه العمارة اتصال . ذلك ما تذكره الروايات وتنسبه إلى نور الدين الشهيد محمود بن زنكي الذي كان يحارب الصليبيين في القرن السادس الهجري . فقد ذكروا من أنباء سنة ٥٥٧ هـ أنه رأى في نومه رؤيا أفزعته : رأى النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى رجلين أشقرين وهو يقول : أنجدني ، أتقذني من هذين ، ثم توضأ نور الدين وصلى ونام فرأى ما رأى من قبل وقام فرجعًا ، وتوضأ وصلى ونام فرأى ذلك مرة ثالثة . وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين الموصلى أرسل في طلبه وقص عليه ما رأى . قال الوزير : وما قعودك ! أخرج الآن إلى المدينة النبوية واكتم ما رأيت . وتجهز الملك بقية ليلته وخرج على راحل خفيفة ومعه وزيره وعشرون رجلاً فوصلوا المدينة في ستة عشر يوماً . وبعد أن اغتسل الملك وتوضأ وصلى ركعتين بالروضة جلس لا يدرى ما يصنع . واستدعى أهل المدينة وأخبرهم أنه جاء للزيارة ومعه مال كثير للصدقة ، وسألهم بعد أن وزع المال : أبقى أحدٌ لم يأخذ منه حظه ؟ قالوا : لم يبق إلا رجلان مغربيان صالحان غنيان لا يأخذان من أحد شيئًا ، ويكثران الصدقة على المحاييج . وجرى بالرجلين فرأهما يشبهان من أشار إليهما النبي صلى الله عليه وسلم في المنام .

وتظاهر الرجلان بالصلاح وبأنهما جاءا المدينة يجاوران القبر النبوي وشهد أهل المدينة بأنهما صائمان الدهر ، ملازمان الصلوات في الروضة ، وزيارة الحجرة كل صلاة ، وزيارة البقيع كل يوم بكرة ، وزيارة قباء كل سبت ، وأنهما لا يردان سائلًا . لكن نور الدين لم يطمئن إليهما وذهب إلى

بيتهما فرأى فيه مالا كثيراً . ثم إنه جعل يجوس خلاله إذ رفع حصيراً فيه فرأى سرداباً محفوراً متجهماً صوب الحجرة . وارتاع الناس حين علموا ذلك وأحاطوا بالرجلين لما جرىء بهما إلى نور الدين يسائلهما أن يصدقاها . وضربهما ضرباً مبرحاً فاعترفا بأنهما نصرانيان بعثهما الصليبيون في زى حجاج المغاربة وأمالوهما بأموال عظيمة وأمروهما بالتحصيل لسرقة جثة النبي . هنالك أمر نور الدين فضرب عنقاهما ، ثم أمر بحفر خندق عظيم حول الحجرة من كل جوانبها حتى بلغ الحفر الماء ، وأمر بإذابة رصاص ملاً به الخندق ، فصار منه حول الحجرة إلى الماء سور متين لا يستطيع أحد اجتيازه .

هذه رواية السمهودي عن هذا البناء . ويروى البتاتوني في الرحلة الحجازية أن نور الدين زنكي بلغه أن الصليبيين الذين كان مشغلاً بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر بإحاطة الجثة ببناء آخر نزل بأساسه إلى منابع الماء ، ثم صب الرصاص على دائرة حتى صار بحيث لا يمكن أن تنال منه يد الزمان . وذكر صاحب مرآة الحرمين مثل هذا . وقد وضع على هذا البناء ، على ما ذكر البتاتوني ، ستر من الحرير الأخضر مكتوب فيه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » يحيط بها أحجية مكتوب فيها قوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحيط بهذا الستر المنسدل على بناء الحجرة حزام من الحرير الأحمر مكتوب فيه اسم السلطان الذي أمر بعمل الستر .

وقد تُخَيِّلُ الطريقة التي سرد بها صاحب الرحلة الحجازية نبأ كسوة الحجرة أن لهذه الكسوة اتصالاً بما صنع نور الدين الشهيد . والواقع أن كسوة الحجرة أقدم عهداً من نور الدين ، والرحلة الحجازية نفسها تشير إلى هذا . فأول من كساها الخيزران أم هارون الرشيد حين حججت ، كستها الزنانيير وشبائك الحرير ، ثم كساها ابن أبي الهيجاء وزير ملك مصر الديباج الأبيض



عليه الطرز والجمامات المرقومة ، وجعل عليه زناراً من الحرير الأحمر كتبت عليه سورة يس . وأرسل المستضيء بعد سنتين من ذلك كسوة من الديدياج البنفسجى مطرزاً عليها اسمه ووضعت مكان كسوة أبي الهيجاء . وكساها الخليفة الناصر بالديدياج الأسود . ثم صارت كسوة الحجرة ترسل من مصر كل ست سنوات ، كما كانت ترسل منها كسوة الكعبة كل عام . وكانت هذه الكسوة من الديدياج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض وعليها طراز منسوج بالذهب والفضة . فلما استقرت الخلافة في بني عثمان بالأستانة صارت كسوة الحجرة ترسل منها كلما جلس سلطان على العرش ، وبقيت كسوة الكعبة ترسل من مصر كل عام . فلما انتقضت بلاد العرب على سلطان الأتراك ، ثم لما زالت الخلافة بعد ذلك ، تولت حكومة البلاد الإسلامية المقدسة أمر هذه الكسوة . وقد جرى التقليد من زمان بعيد كلما وردت كسوة جديدة أن تقسم القديمة ، شأنها في ذلك شأن كسوة الكعبة .

كنا نود أن نقف عندما حدث من التطور في بناء الحجرة قبل أن نتناول بالحديث أمر كسوتها . فهذا التطور أوضح دلالة على تطور التفكير الإسلامى مما حدث في بناء المسجد . أما وقد تتبعنا (الرحلة الحجازية) في استطرادها إلى حديث الكسوة فإننا نؤثر أن نم أبناء الحجرة بجديث الهبات التى قدمها الملوك والأثرياء إليها ، التى تتضاعل الهبات التى قدمت إلى المسجد بجانبها . فحديث هذه الهبات يزيد التطور الذى حدث في التفكير الإسلامى وضوحاً . ولعله كذلك أبلغ ما يقال في نقض ما رواه الحاج عبد الله برخرت السويسرى عن رغبة المسلمين عن التبرع لمنشأتهم الدينية ؛ إذ قال تعليقاً على وصفه الروضة : « إذا ذكرنا أن هذا المكان من أقدس الأماكن في العالم الإسلامى كله وأنه اشتهر بروعته وفخامته ونفاسه حلبيته ، وأنه زخرف بكل ما اجتمع من هبات الغلاة في هذا الدين ، ازددنا دهشة وعجباً أن يكون ذلك كل مظهره . فهو لا يقاس إلى مثوى بقية من رفات قديس ، وإن هان شأنه ، في أية كنيسة من كنائس أوروبا الكاثوليكية . وهو بهذا ينهض دليلاً مقنعاً على أن المسلمين

لم يساوا المسيحيين الغلاة في هباتهم الدينية في أى عهد من العهود . ودع عنك أحوالا كثيرة أخرى تؤيد الاعتقاد بأنه مهما يكن من تعصب المسلمين وأوهامهم فإنهم لم يبدوا قط ميلا إلى البذل والتضحية المالية من أجل منشآتهم الدينية ، كما يضحى الكاثوليك ، بل كما يضحى المسيحيون البروتستنتيون من أجل منشآتهم» (١) .

وإنه مع ذلك ليعجل بي قبل تناول هذه الهبات بالحديث أن أشير إلى خلاف وقع بين علماء المسلمين في عصور مختلفة على جواز تحلية الحجره بالذهب والجواهر النفيسة ، مع العلم بأنها مكروهة شرعاً حلية للأفراد ولناظرهم وللمساجد . أما الذين يقولون بالجواز فيستندون إلى ما كان يوهب للكعبة ، وأن رسول الله لم ينكره ، وأن أبا بكر لم يفكر في التصرف فيه ، وأن عمر فكر في ذلك ثم عدل عنه تأسيساً برسول الله . وأما الذين يقولون بعدم الجواز فيذكرون حديث النبي لعائشة : « لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض » . فهو عليه السلام لم يفعل وما منعه اعتبار من الشرع وإنما منعه اعتبارات السياسة . ويذهب قوم إلى أن المسجد النبوي لا يجوز تحليته بالذهب والفضة أسوة بالمساجد جميعاً . ويذهب آخرون إلى أن الحجره غير المسجد ويبلغون حد القول بأن المدفن الشريف بالحجره له شرف على جميع المساجد وعلى الكعبة ، فلا يلزم من المنع في المساجد والكعبة المنع هنا (٢) ! . وقد كان لهذا الخلاف أثره في الهبات ونوعها في القرون الأولى من الإسلام ، وله اليوم أثره والحجاز في حكم الوهابيين ، أما ما بين ذلك فقد بلغ التفاني في الهبات حداً سترى شيئاً منه فيما نقص الآن عليك ، وسترى منه مبلغ خطأ الحاج عبد الله برخرت .

فقد ظلت الحجره وليس بها من الزينة إلا دفن الرسول وصاحبيه بها إلى

(١) راجع ما نقلناه من كتاب برخرت «جولات في بلاد العرب» في فصل المسجد النبوي

(٢) السهوى : وفاة الوفاء . الجزء الأول صفحة ٤٤٥ .

أن ضمت للمسجد في سنة ثمان وثمانين للهجرة ، ثم بقيت وليس بها إلا هذه الزينة ومن حولها زخرف البناء البديع بعد أن ضمت للمسجد بناها عمر ابن عبد العزيز بالحجارة السوداء القوية زمنًا طويلًا . بعد ذلك ألف الناس أن يروا قناديل الذهب والفضة المعلقة حول الحجر ، وفي ذلك يقول السهودي ما نصه : « لم أر في كلام أحد ذكر ابتداء حدوث ذلك إلا أن ابن النجار قال ما لفظه : وفي سقف المسجد الذي بين القبلة والحجرة على رأس الزوار إذا وقفوا معلق نيف وأربعون قنديلا كباراً وصغاراً من الفضة المنقوشة والسادة وفيها اثنان بلور وواحد ذهب ، وفيها قمر من فضة مغموس في الذهب وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال » . وقد بقيت القناديل ومعاليقها ترسل إلى الحجر أجيالاً متعاقبة حتى بلغ من كثرتها أن رفع خدام المسجد بعضها ووضعوه بالقبلة التي في صحن المسجد حتى اجتمع فيها منه شيء كثير . وظل الأمر كذلك إلى أن كان القرن التاسع الهجري إذ كان جمّاز بن هبة أمير المدينة عام ٨١١ هجرية . في هذا الحين صدرت المراسيم بتولية ثابت بن نعيم إمرة المدينة وأن يكون أمر الحجاز لحسن بن عجلان . ومات ثابت قبل توليته وشعر جمّاز بأن الأمر يفر من يده فأعلن العصيان ، وأباح نهب بعض بيوت المدينة ، وأهان شيخ خدام الحرم ورفع عليه وعلى من معه السيف ، وكسر باب القبلة وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التي اجتمعت على تعاقب السنين من جميع الآفاق وفر بها ثم أخفاها وقتل . وقد وضع بعض علماء ذلك العصر قائمة بما نهبه جمّاز جاء فيها أن وزن ما كان بالحجرة من قناديل الذهب تسعة قناطير . وقد شجع جمّاز هذا غيره من المعتدين ، فأخذ الأمير غرير بن هيازع بن هبة الحسيني الجمازي جانباً مما وضع بالقبلة زنته سبعة عشر ومائة رطل من الفضة زاعماً أنه على سبيل القرض ثم فر به إلى القاهرة حيث مات مسجوناً . وفي آخر سنة ستين وثمانمائة عدا عليها برغوث بن بشير ابن جريس الحسيني ، إذ تسور جدار المسجد ودخل بين سقفيه ونهب منه ما استطاع في ليال متكررة .

على أن ما حدث من ذلك لم يصرف المؤمنين عن إرسال الهدايا من الذهب والفضة من جميع أقطار العالم الإسلامى .

ولما آل الأمر إلى بنى عثمان زادت هذه الهدايا نفاسة وقيمة . يقول البتانونى فى « الرحلة الحجازية » : « فى مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلتى فى حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به إطار من الذهب المرصع ويقدرون ثمنه فى ذاته بأئمانئة ألف جنيه ، أما فى شرف نسبتة إلى الحجرة النبوية فقيمتة أكبر من أن تقدر بثمن ، ويسمونه بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه . وهو مثبت فى لوحة من الذهب ، ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة من الجواهر الثمينة . وهذا الكوكب أهدها للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان فى مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجواهر ، فى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهدها إليه السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول فى سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب المنقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلتى : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أهدها إليها صاحبة السمو والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين هجرية . وفى هذه الحجرة الشريفة غير هذا كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدر بثمن . منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء » . وبعد أن ذكر البتانونى ما هنالك من نفائس أخرى كمصاحف مجوهرة وشمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ومكانس من اللؤلؤ ، قال : « وبالجملة فقد قدر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات » .

لم تبق هذه النفائس اليوم بالحجرة . وليس يرجع ذلك إلى ما أخذه الوهابيون منها فى غزوتهم الأولى للحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى . فقد رد محمد على باشا وإلى مصر الشىء الكثير مما أخذوا ، وبقيت هذه النفائس

التي ذكرها البتانوني ، والتي رآها في أول العقد الثاني لهذا القرن العشرين .  
فلما كانت الحرب الكبرى وثار العرب بسultan آل عثمان نقل الأتراك الكوكب  
الدرى وقطعة الماس التي كانت معلقة تحته وأنفس نفائس الحجر إلى الآستانة  
ولم تُرد إلى الآن .

كنت واقفاً أمام الحجر يوماً وأحد أصحابي يقص عليّ نبأ هذه النفائس  
وما سلب منها ويبدى لذلك أسفاً ولوعة . وأطرت ملياً أسمع له ؛ فلما أتم  
حديثه قلت : وهل أغنت هذه النفائس قبر النبي الكريم شيئاً ؟ ونظر إلى  
الرجل بعينين واسعتين فتحهما وكأنما ملتنا مما أقول عجباً . ولم يصدني  
عجبه ولا صدتني نظرته عن الاستطراد في بيان فكرتي فأردفت : « ما كان قبر  
محمد النبي العربي بحاجة إلى جواهر تضيء جوانبه وهو مضيء بالحقيقة العليا التي  
جاء بها صاحبه من عند الله هدى للناس ونوراً . وليس البهرج الذي يخدع  
الناس به هو العبرة التي تلمس في هذه الحجر ، وما سلب من جواهرها  
ولآلتها إنما سلب يوم أراد الله لدينه أن يعود فيملاً النفوس سموّاً على كل زينة  
وبهرج ؛ وإنما العبرة الكبرى التي تملأ النفوس رهبة وجلالاً ، ويخشع أمامها  
القلب مهابة وإكباراً ، فتلك ما تتحدث هذه الحجر عنه من سيرة خاتم الأنبياء  
 والمرسلين عليه الصلاة والسلام ، ومن سيرة صاحبيه ووزيره وخليفته : أبي بكر  
وعمر . ومن وقف أمام الحجر وشغل عن سيرة صاحب الرسالة وبلاغه إياها  
الناس ، وعن سيرة صاحبيه وجهادهما في سبيل الله ليُظِلَّ لواء الإسلام العالم كله  
وكان شغله عن ذلك بزخرف البناء وما كان فيها من تحف وجواهر ، فقد  
فاته العبرة ولم يبلغ من زيارة قبر الرسول ما يجب أن يجعله كل مسلم غايته  
من هذه الزيارة » .

ونخلت يوماً إلى نفسي ، وعدت أفكر في هذه الجواهر وفي إهداء أصحابها  
إياها إلى الحجر وفي قوله عليه السلام لعائشة : « لولا أن قومك حديثو عهد  
بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله » . أترى المسلمين اليوم ما يزالون  
حديثي عهد بكفر فلا ينفق أحد كنز الحجر في سبيل الله ؟ أو ليس إنفاقه

في هذه السبيل الكريمة خيراً من تركه تعدو عليه الأيدي ولا يفيد منه أحد شيئاً؟ إن الذين وهبوه للحجوة التماساً للقربى قد بلغوا من هبتهم غايتهم ، فحسب المرء أن ينفذ صادقاً ما نواه مخلصاً لتمام له نيته . فإذا خرج عمله أو ماله من يده وأصبح ملكاً عاماً فقد أصبح حقاً لبيت مال المسلمين ، يتصرف فيه صاحب الأمر ما يتصرف في بيت مال المسلمين : يجعل منه للحجوة وزيتها ما يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله وإجماع المسلمين ، وينفق سائرته في سبيل الله .

ولو عرض الكوكب الدرى بعد أن بقي في الحجوة النبوية زمناً ليحوزه من يقدر على ثمنه لأقبل أصحاب الملايين من أمراء الهند وغيرهم يتنافسون في اقتنائه ويبدلون فيه أضعاف قيمته . ويومئذ ينفق هذا المال في سبيل الله تيسيراً للحج أو إعلاء لكلمة الله ورفعاً لمنازل الإسلام . وما كان لأحد أن يغضب لذلك بعد إذ تكرر الاعتداء على نفائس الحجوة فسلبت غير مرة . هذا ، وما دار بخلد النبي عليه السلام أن يكون قبره يوماً من الأيام متحفصاً للجواهر ، وهو الذى أراد أن ينفق كنز الكعبة في سبيل الله . لكن قوماً رأوا هذه الهبات وقتصاً على الحجوة لا يجوز التصرف فيها بحال . فشرط الواقف عندهم كنعن الشارع . وليس يجوز في رأيهم صرف شىء من قناديل الحجوة في عمارتها وعمارة المسجد . وعند كثيرين أن هذا غلو في تقديس إرادة الفرد بعد موته ، والشرع الإسلامى الحنيف لا يجيز إرادة الإنسان إلا في حدود حياته .

ومهما يكن الرأى في ذلك كله فهذه الهبات أوضح شاهد على تطور التفكير الإسلامى إلى ناحية الأثرة ، مع أن كتاب الله وأسوة رسوله كلهما الدعوة الخالصة للإيثار . وماذا يبتغى من يهب القناديل أو الجواهر للحجوة؟ إنه لا يريد بذلك سد حاجة للمسلمين . وآية ذلك أن القناديل كانت تبلغ من الكثرة أن تخزن قناطير الذهب منها في القبة التى تتوسط المسجد ، وأن إضاءة الحجوة لا تقتضى هذا الذهب ولا هذه النفائس . إنما يهب الواهبون يبتغون القربى إلى رسول الله وشفاعته لهم عند ربه . هم لا يفكرون في المسلمين ولا في

أخوتهم ومحبتهم حين يفتنون في زخرف هذه الهبات وإنما يفكرون في أنفسهم .  
 وكمن من ملك أو أمير وهب النفائس ثم لم يصرفه ما وهب عن الاستبداد بغيره  
 وابتزاز حقه والطمع في ماله ، والطمع مع ذلك في شفاعة رسول الله من أجل  
 ما قدم من قناديل الذهب أو نفيس الجواهر ! هذه عقيدة تدهور إليها المسلمون  
 منذ نسا أن المرء مجزى بعمله ، وأن قيمة العمل بالنية التي تبحث عليه ، وأن هذا  
 العمل أقرب إلى الله ما كان البر والتقوى والجهاد في سبيل الله .

عدت إلى التفكير في هذا التطور يوماً إذ كنت بموقفي من الحجرة  
 استعيد أمام ذهني هذه الصورة الأخاذة بالنفس لأيام مرض الرسول ووفاته  
 ودفنه . فقد أقبل رجل مندفعاً نحو الحجرة كأنما أراد أن يلقي بنفسه على  
 أبوابها وأن يقبل أعتابها . ودهشت لمرآه في اندفاعه بعد إذ حالت حكومة  
 الوهابيين بين زوار الحجرة وما وراء السلام على ساكنها عليه السلام ، ومنعت أن  
 يقبل الناس الأعتاب أو أن يتمسحوا بالمقصورة كما كانوا يفعلون من قبل ،  
 لما تراه في هذه الأعمال من مخالفة قواعد الإسلام الصحيح . دهشت حين رأيت  
 هذا الرجل في تحمسه وفي اندفاعه وأيقنت أن خدام الحجرة لا ريب مانعوه من  
 غرضه . لكن الرجل لم يلقي بنفسه إلى الأرض ولم يقبل الأعتاب ، بل اندفع  
 يدعو ويبتهل ويستغفر ، ويطلب إلى رسول الله الشفاعة يوم الحساب . وكان  
 يطلب ذلك في صوت مسموع وفي ضراعة وإثابة انهمل لهما دمهعه وفاضت معهما  
 عبراته . فلما فرغ من دعائه وتضرعه وابتهاله أقرب منه رجل يقول له :  
 ألم تقرأ قوله تعالى : « وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ؟ أولست تعرف  
 أن الحسنات يذهبن السيئات ؟ فعليك بالحسنات يغفر لك الله من ذنوبك  
 وتكن أعمالك خير شفع لك . ووقف المستشفع مأخوذاً لأنه لم يكن يتوقع أن  
 يسمع ما سمع ، لكنه مع ذلك صاح حين أتم صاحبه كلامه : الشفاعة  
 يا رسول الله ! وانطلق إلى الروضة النبوية يلتمس أقرب مكان من منبر الرسول .  
 عدت إلى التفكير في تطور النفسية الإسلامية على أثر هذا المشهد . قلت  
 في نفسي : ألا يغفل الدين يحولون بين زائر الحجرة وما سوى السلام على نبي الله

ورسوله غُلُوًّا الذين يتمرغون على أعتاب المقصورة يلتمسون العفو والمغفرة ؟ إن هذا الموقف ليعث في النفس من العبرة والذكرى ويثير فيها من معاني الحكمة العليا ومن أسباب الأسوة الحسنة ما لا يثيره موقف سواه . إننا نقف أمام قبور العظماء من فلاسفة وقواد وملوك وكتاب وحكماء فتحدثنا صفاتها بأبلغ ما تحدثنا عنه أكثر الكتب بلاغة وأدقها منطقاً . ما بالك بهذا الموقف أمام قبر النبي العربي وما يبعثه إلى النفس من دواعي الحكمة والإيمان وحسن الرأي وجميل الأسوة ! حسبك أنه منارة الهدى إلى التوحيد في قوة بساطته وصفاء جوهره ، وإلى الإيمان بهذا التوحيد عن معرفة وبصيرة ، وإلى سلوك

سبيل العلم لبلوغ أسنى مراتب الإيمان بملاحظة خلق الله واستنباط سنته جل شأنه في الكون ، ليكون لهذه الوقفة أمام الحجره أبلغ الأثر في الحياة ؛ أثر يجعلنا نسمو بأنفسنا فوق الزائل من المنافع العاجلة لهذه الحياة الدنيا لنحقيق في الوجود وجهاً لوجه نبغى فيه آية الله ونرى خلاله أسرار عظمته جل شأنه . ليس غلواً أن نمنع الناس من هذه الوقفة مخافة أن يغلوا في تقديس هذا القبر إلى حد العبادة ! والذين يعبدون القبر أو صاحب القبر غلاة كذلك ينكرون تعاليم صاحبه وما جاء به من عند الله فيشوبون صفاء التوحيد بما يصنعون ، ويشوهون جلاله بما لا يرضى الله ورسوله ، تعالى الله عما يصفون .

ومثلت أمام ذهني صورة هذا الرسول الكريم دفن بهذه الحجره ، فرأيت في أكفانه ، ورأيت أبواب هذه الحجره تفتح للمسلمين من ناحية المسجد فيدخلون فيلقون على نبيهم نظرة الوداع ويصلون عليه . هذا أبو بكر وهذا عمر يدخلان وقد امتلأت الحجره بالمسلمين وهم يصلون صلاة الجنائزة كما كان يصليها رسول الله على موتاهم ، لا يؤمهم في صلاتهم أحد . ويتم القوم جميعاً صلاتهم ويقفون صموتاً كأن على رؤوسهم الطير حتى يسمعا أبا بكر يقول : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ، وأنه وفي بوعدده وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » . وأبو بكر يتلو هذا السلام جملة جملة ،



والمسلمون يجيبون عند كل جملة آمين ! آمين ! في هيبة وخشوع . ويفرغ الرجال من صلاتهم ويدخل النساء ثم الصبيان من بعدهم . وهؤلاء وأولئك جميعاً كل واحد واجف قلبه محزون فؤاده يفري الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين ويساوره على دين الله أشد الحشية من بعده .

تري كيف كان دفن أبي بكر إلى جانب النبي ، وكيف كان دفن عمر إلى جانب أبي بكر ؟ لقد مات أبو بكر في الثاني والعشرين من جمادى الأولى لسنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فتولت غسله ابنته أسماء يعاونها ابنه عبد الرحمن لإجابة لرغبته قبيل وفاته ، ثم إنه كفن في الأثواب التي مات فيها ، لأنه أبي أن يكفن في جديد من الثياب ، فالثياب الجديدة تنفع الحي . وتقبله الصحابة من بيته إلى بيت ابنته عائشة ، وصلى عليه عمر والمسلمون من حوله ، ودفن إلى جوار رسول الله ، رأسه عند منكبي صاحب الرسالة . ولقد مات عمر في السادس والعشرين من ذى الحجة في السنة السادسة والعشرين من الهجرة ؛ فتولى صهيب والصحابة نقله من داره إلى دار عائشة حيث دفن في جوار صاحبيه ، ورأسه إلى منكبي أبي بكر ، فصلى صهيب عليه وأنزل عبد الله بن عمر جثمانه إلى مقره الأخير .

ما أبلغ العبرة في دفن خليفتي رسول الله الأولين في حجرته ! وأول ما يدل ذلك عليه لإجماع المسلمين على أنهما تأسيا بالرسول وسارا على نهجه وسنته ، فعق لهما أن يكونا في جواره . وهما قد سارا على نهج الرسول وسنته في سياسة المسلمين ، فنسى كل منهما نفسه وجعل وحدة المسلمين وعظمة الإسلام والجهاد في سبيل الله غرضه . لم يفكر أحد منهما حين خلافته في مال أو جاه أو سلطان يكون له أو لذويه وأهله ، بل رأى فيما ولي من أمر المسلمين عبثاً واجباً ألقاه الله على عاتقه ؛ فكان كل همهم ألا تعلق به فيما ولي من ذلك ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدي في ولايته لكل مسلم حقه . كان الفخر فخر كل منهما ، كما كان فخر صاحب الرسالة . وكانت التقوى لباسهما ويجب أن تكون لباس كل مؤمن . وكان الحرص على رضا الله بطاعته

غاية رجائهما . بذلك استقر الإسلام بعد أن قمع أبو بكر من حدثته نفسه بالخروج عليه ، ثم مد عمر راية الإيمان على بلاد الروم والفرس بعد أن حسب الروم والفرس أن الله أورثهم إياها إلى يوم الدين ، ونسوا أن الله إنما يورث الأرض من يشاء من عباده الصالحين .

بهذا سما أبو بكر وسما عمر ، فحق لهما أن يجاورا رسول الله في جوار الله ، فكانت للمؤمنين في ذلك عبرة أن من أطاع الله ورسوله وجاهد في سبيله التماساً للمثل الأعلى كان جديراً أن يسمو إلى مكانة المقرين وأن يرقد رقدته الأخيرة في جوارهم . لقد سأل الوليد بن عبد الملك عن قبر عثمان يوم زار المدينة بعد أن ضمت الحجرة إلى المسجد فقيل له : « إنه مات في فتنه » ولولا ذلك لدفن في الحجرة كما دفن أبو بكر وعمر . وقد يكون عجيباً ألا ترى عائشة دفنه بها وقد كانت مع معاوية بين المطالبين بدمه . ولكن لا عجب ؛ فلم يُجمع المسلمون على تأسي عثمان بالرسول ما أجمعوا على تأسي الخليفين الأولين به ، ولو أنه فعل لسما سموهما ولحق له أن يرقد معهما في جوار رسول الله .

وما كان المسلمون ليأبوا عليه ذلك يومئذ لو أنهم أقاموا على سنة الرسول يؤثرن على أنفسهم ، ويحرصون على العدل ولا يميل بهم الهوى . لكن سيرة الرسول تقتضى من يتبغى الأسوة فيها مجهوداً إنسانياً كبيراً . تقتضيه أن يسمو على المادة ، وأن يمحو من آثارها كل ما يغشى ضياء الروح ، وأن يعالج ذلك بالمعرفة والعلم ، وأن يثابر في هذه السبيل غير وإنٍ ولا قانع . فالقناعة فضيلة في طلب المادة ، والوفى دون الطمع في هذا الطلب خير . لكن أجواء السمو الروحي لا حدود لها ؛ ودوام السمو فيها يقتضينا ألا نقنع بما بلغنا ، وألا ننسى عن مواصلة الجهد لبلوغ غاية ما نستطيع منه . وهذا ما شغل المسلمون عنه من عهد عثمان بما شجر بينهم من خلاف .

اللهم إني أضرع إليك أن تهني لي وللمؤمنين في هذا السبيل ، سبيل السمو الروحي ، ما هيأت لمن ارتضيت من عبادك ، وأن تيسر لنا اتباع رسولك الكريم ، تأسي به ونتبع سنته ، ونسير في خطاه ! اللهم إن هذه الحجرة التي

أقف أمامها ألتمس فيها المثل والعبرة لتلهمني من ذلك ما أرجو أن تهديني صراطه،  
 فهو صراطك المستقيم! اللهم بك العون فأعني، ومنك الرضا فأرض عني! ربنا  
 لا تُحْمِلْنِي وَلَا تُحْمِلْ إِخْوَانِي الْمُؤْمِنِينَ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ! ربنا اعف عنا واغفر  
 لنا وارحمنا، أنت مولانا وأنت نعم المولى ونعم النصير!

## ظاهر المدينة

عُدُّ بذاكرتك إلى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونية سنة ٦٢٢ م .  
ففي ذلك اليوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ من هجرته أن أصبح  
على أبواب يثرب لم يبق بينه وبينها غير ثلاثة فراسخ . أفيدخلها وليس يعلم  
ما أعده أهلها لمقدمه ، وهو بعد متعب كصاحبه ودليله بعد أن قضوا ثمانية أيام  
يحف بهم الخطر أثناء مسيرهم في الصحراء خلا ثلاثة الأيام الأولى التي قضاها  
مع أبي بكر في غار ثور ؟ أيستريح إلى ظل جبل عيسر الذي يفصل بين البادية  
وبينها ؟ هذا برريدة شيخ قبيلة بني سهم قد جاء يحميه ويذكر له أن أهل يثرب  
على أحر من الجمر في انتظاره ، وأنهم يخرجون إلى أعالي الجبال والحرار كل  
يوم يتلمسونه بظاهر مدينتهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال في هذه الأيام التي  
بلغ فيها القيظ حِمَارته . خير له مع ذلك أن يعدل إلى قباء على فرسخين  
من يثرب حتى يرى ما الله صانع به ؛ وحتى يستطلع بنفسه جليلة الأمر فيما هو  
مقبل عليه .

وتخطى الرجال الثلاثة جبل عير على رواحلهم في موضع تستطيع الإبل  
أن تنخطاه . فلما بلغوا ذروته وتنسموا نسيم أعاليه انكشف أمامهم سفحه  
المواجه يثرب ، وامتدت أمام أبصارهم جنات النخيل والبساتين ذات الرواء  
والبهجة . ما أكرمك ربى ! أية طمأنينة يعنها هذا المنظر الساحر لنفوس أجهدتها  
المشقة ، وقلوب لولا يقينها أن الله معها لانقبضت من الفزع طول هذه  
الرحلة ! . هذا وادى العميق عن يسار عير تبدو فيه أمام النظر منازل هي  
للنظر أنس وسكينة ، وتفصل بينه وبين يثرب حرّة الوبرة . وهذه حرّة واقم عن  
اليمين تفصل بين يثرب والعريضة ، وتقوم منازل بنى قريظة وبنى النضير  
أسفلها . وهذه قباء على مقربة من سفح عير تحيط بها البساتين تجرى خلالها  
المياه متفجرة من الآبار فتزيدها رواء وبهجة . وأنس الرسول إلى هذا المنظر

وود لو يطيل المكث فوق الجبل لولا حرصه على أن يتحرى أبناء بُرَيْدَةَ وأن يعرف مبلغ الحق فيها . وانحرف القوم عن غير متجهين إلى قُبَاء ؛ فلما بلغوها أَلْفَوْا عدداً غير قليل من المسلمين أسرعوا إليها يستقبلون نبي الله ورسوله وكلهم النشوة والجدل . لقد انتظروه يومهم هذا كما انتظروه في الأيام التي سبقت ، فلما غلبهم القيظ عادوا إلى منازلهم . وإنهم لكذلك إذ سمعوا يهودياً على أظْم له يصيح بهم : يا بني قبيلة هذا صاحبكم قد جاء . إذ ذاك أسرعوا إليه يسألونه ! أين رآه ؟ فأشار إلى ناحية قباء . وحث القوم إليها المسير حتى بلغوها قبل أن يبلغها محمد وأبو بكر . فلما رأوها أحاطوا بهما إلى دار كُلثوم بن الهدم إذ نزل رسول الله كما نزل بها قبله كثيرون من المسلمين الذين سبقوه إلى الهجرة من مكة . ولما استقر به المقام ذهب أبو بكر إلى السنج على مقربة من قباء فنزل بدار خارجة أحد زعماء الأوس . وفي قباء قضى رسول الله أربعة أيام يقيم الليل بدار كلثوم ويجلس معظم النهار بدار سعد بن خَيْشِمة الأوسى ، فيستقبل أنصار الله بيثرب يسألهم عن حالها ويفكر وإياهم في الانتقال إليها . وبينما هو في قباء بلغها على بن أبي طالب قادمًا من مكة بعد أن أدى إلى أهلها ما كان لهم عند ابن عمه من ودائع . وفي أربعة الأيام التي أقامها النبي بقباء بنى مسجدها ، وكان يعمل فيه بيده ويشاركه المسلمون . فلما اطمأن إلى أبناء يثرب دخلها وأهلها في لطفة وشوق لرؤيته بينهم ، ودخلها على النحو الذي تعرفه والذي قصصته عليك في فصل (آثار المدينة) .

هذا المسجد الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء هو أول بناء أقيم في الإسلام ليكون مسجداً . ولذلك اتفق جمهور المفسرين على أنه المسجد المقصود بقوله تعالى في سورة التوبة : «لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رَجُلٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» ، وإن ذكر بعضهم أن هذه الآية تتناول كذلك مسجد المدينة ، واستند إلى أحاديث رواها توحيد رأيه . وأولية هذا المسجد في الإسلام وقيامه بقباء ، أول منزل للنبي بعد هجرته من مكة ، يجعل لضاحية قباء ولسجدها

من المكائنة في نفوس المسلمين ما يجعل زيارتها مستحبة يوم السبت من كل أسبوع . وكان الناس من أهل المدينة وزوارها يقومون بهذه الزيارة منذ قرون ، وما زالوا كذلك يفعلون . وهم كانوا لا ريب ولن يزالوا يفعلونه تبركاً بالمسجد والآثار النبوية التي به ، أو التماساً للعبرة في آثاره .

والآثار النبوية الذي يذكرونه في مسجد قباء ولا يختلفون عليه هو مسبرك الناقة . فالتواتر أن هذا المسجد أقيم حيث بركت ناقة النبي أول ما بلغ قباء ؛ والراجح أن يكون هذا صحيحاً . ومؤرخو المدينة متفقون على أن دار كلثوم ابن الهدم كانت منزل الرسول ودار سعد بن خيثمة التي كانت مجلسه كانتا تجاوران المسجد ، وكانت الداران موجودتين ومعروفتين في عهد المطري في القرن الثامن والسهمودي في القرن التاسع . ويذهب الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في تعليق زوالهما وعفاء آثارهما الآن إلى أنهما بنيتا قبطين إشادة بهما وإبقاء لذكرهما ، وأنهما كانتا تقومان حيث تقوم القبتان البيصنيتان الواقعتان اليوم على اثني عشر متراً من جنوب المسجد . ورقة المسجد كانت فضاء مجاوراً لدار كلثوم بن الهدم مملوكاً له ، وكان قد جعله مبريداً يجفف فيه التمر ، فأخذ رسول الله ونبي به هذا المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، والذي ظل رسول الله يذهب إليه طول مقامه بالمدينة يذكر فيه هجرته وبلوغه منها مأمته ، ويذكر فيه دخول يثرب ونصر الله إياه فيها وإعلاء كلمة الله بانتشار الإسلام بين أهلها .

زرت قباء صباح السبت الثامن والعشرين من شهر مارس في صحبة بينهم الأستاذ عبد القدوس الأنصاري . وإن السيارة لتجري بنا في طريق واسع مستو إذ قال عبد القدوس : هذا طريق استحدثه فخرى باشا عام ١٣٣٦ هـ ( ١٩١٥ م ) ، لكنه سد بعد الغزوة الوهابية وظل مسدوداً حتى اشتراه أمير المدينة اليوم عبد العزيز بن إبراهيم فوقفه طريقاً لقباء . أما قبل ذلك فكان طريقها معوجاً يتعرج من الشرق إلى الغرب وتحيط به نخيل صغار ، كثيراً

ما اختبأ فيها الأشرار فأذوا سالكيه . وأغلب الظن أن يكون رسول الله قد سلك هذا الطريق المتعرج بين قباء والمدينة وأن يكون قد استمتع بجمال نصرته ومرأى المياه الجارية خلاله وبهوائه العذب الرقيق .

وبلغنا قباء ونزلنا أمام المسجد . ما أفسح رقعته ! فهو مربع ضلعه أربعون متراً . وما أعلى جدرانها وأمتنها ! . فهى تعلو الأرض قرابة ستة أمتار ، وتدعمها دعائم مبنية وراءها تزيدها قوة . وتخطينا باب المسجد فإذا صحن مكشوف فرش بالحصباء تتوسطه قبة يقابلها محراب قيل إنها أقيمت حيث بركت ناقة النبي ، ويسمونها لذلك مَسْبَرَكِ الناقة . وزوار المسجد يقفون عندها يعيدون من الأدعية ما يتلوه (المزورون) عليهم . وفي جانب من الصحن بر تنسب لأبي أيوب الأنصاري لم أعرف لنسبتها له سبباً مذكوراً في التاريخ وإن روى عنها المزورون الروايات المختلفة . وعلى يمين الداخل من الباب جانب مسقوف ممتد طول ضلع المسجد ويزيد عرضه على عشرة أمتار . في هذا الجانب يقيم الناس الصلاة ، وفيه تقوم عمد وقباب ويفرشه حصير نظيف ويتوسطه محراب هو قبلة المصلين . وفي نهاية الجدار الذى يقوم فيه هذا المحراب محراب آخر يقال له طاقة الكشف . والمزورون يذكرون أن النبي رأى الكعبة من موضعه . وهذا قول ينكره الحس وبين قباء والكعبة أكثر من ثلاثمائة ميل . ولذلك يقول صاحب (مرآة الحرمين ) : « وفي المسجد موضع يقال إنه طاقة الكشف يزوره الناس ولا أدري كشف أى شيء » .

ليس يشبه هذا البناء الذى نراه اليوم ذلك المسجد الذى بناه الرسول بقباء . فقد كان ذلك المسجد الأول من اللبن والجريد . فلما كانت خلافة عثمان بن عفان جدد فيه على نحو ما جدد المسجد النبوى وزاد فيه . وكما هدم عمر بن عبد العزيز المسجد النبوى وشيده بناءً بالغاً غاية الروعة ، هدم كذلك مسجد قباء ووسعه وبالغ في تنميقه وأقام له مثناة وجعل له رحبة وأروقة . وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة عمّره أبو يعلى الحسينى وكتب على حجر يوجد اليوم فوق محراب طاقة الكشف « بسم الله الرحمن الرحيم . إنما

يَعْمُرُ مساجد الله . . الآية . أمر بعمارة مسجد قباء الشريف أبو يعلى أحمد ابن الحسن بن أحمد بن الحسن رضى الله عنه ابتغاء ثواب الله وجزيل عطائه في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة . وأحدث عمارة في هذا المسجد أجراها السلطان محمود الثاني سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين ونقش تاريخها في حجر لا يزال على بابه .

على مقربة من المسجد مقبرة يزعمون أن مسجد الضرار الذى ورد ذكره فى القرآن كان يقوم موضعها ، ويذكرون أنها اليوم مقبرة الشيعة والرافضة والنخالة . ونسبة مسجد الضرار إلى هذا المكان وهم . وحسبك أن تعلم أن مسجد الضرار الذى أحرقه رسول الله كان بذي أوان شمال المدينة ، وأن قباء فى أقصى جنوبها ، لتدفع هذا الوهم .

قل من يعنى بهذه المقبرة وما يروى عنها ؛ وإنما يعنى الزائر ببناء مظلم يجاور مسجد قباء ويسميه بعضهم مسجد على ، ويروى الأكثر أن داره زوجة فاطمة ابنة الرسول ، ويصيرون الناس حجراً فى داخله يقولون إنه الرحمة التى كانت فاطمة تطحن بها الحنطة . وليس لهذا الكلام سند من الثبوت العلمى وإن كان فى روايته من الخير أنه يعلم الناس شرف العمل اليدوى وخدمة المرء نفسه والمرأة بيتها .

فأما الأثر الثابت بقباء ثبوت المسجد ، والذى يسرعى لذلك الانتباه والعناية ، فبئر أريس ومنبع العين الزرقاء . وهما يقعان قبالة باب المسجد وعلى مقربة منه ، ويلفتان مثله نظر الباحث المحقق كما يلفتان نظر الزائر المتبرك . فأنت ترى أمامك قبة تحسبها مزار ولى أو صحابى ، وتعجب كيف لم يهدمها الوهابيون ؛ ثم تسمع حين تسأل عنها أنها قائمة على بئر أريس ، وترى إلى جانبها قبة أخرى ذات محراب بها طاقة تطل على البئر ويستقى منها . فماء البئر عذب سائح والزائر يشربونه تبركاً لما يقال لهم من أنه كان أجاجاً فتقل النبي فيه فعذب . وهذه رواية لم يشبها ثقات المحدثين ، ونفاها نقاد الحديث ولم يتجاوز عنها إلا أقلهم .



ولهذا القول الضعيف تسمى بئر أريس بئر التفلة . وهي تسمى كذلك بئر الخاتم لما يقال من أن خاتم رسول الله سقط فيها . ورواية سقوط الخاتم ليست منسوبة إلى النبي . فقد بقي هذا الخاتم في حياته وطول خلافة أبي بكر وعمر . وفي السنة السادسة من خلافة عثمان سقط الخاتم من يده في هذه البئر ، بئر أريس وبعثاً بحث الباحثون عنه لاستخراجه منها .

وقد أضيفت بئر أريس بعد ذلك إلى العين الزرقاء الواقعة في جوارها كما أضيفت إليها بئر الرباط وبئر بويرة . ومياه الآبار تُحدث حين انحدارها في العين الزرقاء دويًا كدويّ الشلالات ، ولذلك يسميها أهل المدينة شلالات العين الزرقاء .

هذه هي البقعة التي نزل بها رسول الله أول ما بلغ يثرب حين مهاجره من مكة . وتحيط بها إلى مرمى النظر من كل جانب طبيعة متفاوتة الألوان تصف ظاهر المدينة وتعيد إلى الذاكرة صورة من تفاوت حظها . ذكرنا ما يراه القائم بأعلى عيبر من هذا المحيط إذ يرى يثرب أمامه وادى العقيق إلى يساره ، ممتدًا غرب المدينة فيما وراء حرة الوبرة إلى ما بعد بئر رومة في شاطها ، والعريضة وعوالى المدينة إلى يمينه من شرق حرة واقم ، وهناك في الشمال من أقصى المدينة أحد . وتبدو هذه الأودية منحدره من الجنوب إلى الشمال تسيل في انحدارها مياه الأمطار فتجعل منها جنات ذات زرع زاهى الخضرة وبساتين تنبت من الفاكهة ما لذ وطاب ، إلا التفاح والكمثرى مما لا وجود في البلاد الحارة . لقد كان وادى العقيق حتى هاجر رسول الله إلى المدينة ممرعًا بالمزارع ذات البهجة ، فلما انتشر الإسلام وامتد لواء عاصمته إلى مصر والروم والفرس وانهاالت الأموال إلى المدينة أصبح العقيق قصورًا كله ، يفاخر في ترف الحضارة قصور بزنتية ورومية . ولقد كانت عوالى المدينة زاهرة عامرة بعد أن أجلي اليهود عنها وأصبحت خالصة للمسلمين ، بها منازل نبي عبد الأشهل وبنى معاوية ، حولها البهاء والنضارة والرواء . فلما تنكر الحظ للمدينة بعد أن تركها أبناؤها الأولون ليقيموا بدمشق وبغداد والقاهرة ولينعموا في رياض

الأندلس بما حسب آباؤهم في العهد الأول حلمًا من الأحلام ، بدأت قصور العقيق تندك وبدأت نذر التدهور تمد يدها القاسية المدمرة إلى كل ناحية من المدينة . وأنت اليوم لا ترى في طريقك إلى قباء من غراس أو بساتين تلفت النظر بعض ما ترى من يباب بلقع لا زرع به ولا ثمار . ومتى كانت الأرض تأخذ زخرفها وتزدان لقوم هجرها فلم يعكفوا على استغلالها والإفادة من خصبها مكتفين بأن يعيشوا كلاً على غيرهم لا يأتون بخير من سعيهم ودأبهم .

وهذه المنطقة بين قباء والمدينة من أخصب مناطقها ، بل لعلها أخصبها ، وهي لذلك تثمر جل فاكهتها وخضرها . ومن ثم كانت متنزه المدينة ومصحبها في مختلف العصور ، يخرج إليها الناس للتروض وقيم بها الناقهون استعادة للنشاط والقوة . ولقد كان رسول الله كثيراً ما يخرج في أصحابه إليها ؛ فهي قد تركت في نفسه أجمل الأثر منذ نزل أول مهاجره بها ؛ فلما أزمع إذ ذاك الانصراف إلى المدينة سار في مظاهرة من المسلمين متخطياً بر أريس بوادي رانواء متجهاً إلى وادي بَطُحان فنخيل يثرب . وإنه لبوادي رانواء إذ أذنت صلاة الجمعة ، فنزل فصلاها بمن معه . وذكر لهذا الحادث أقيم على طريق قباء مسجد الجمعة يقوم اليوم على يمين الذهاب من قباء إلى المدينة . وكان موضع هذا المسجد يوم صلى به النبي واقعاً في منازل بنى سالم من الأنصار . ولا تذكر كتب التاريخ المدونة أول من بنى هذا المسجد . أما بناؤه الحالى فأقامه بايزيد السلطان العثماني الذي تولى السلطنة من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩١٨ هجرية . يدل على ذلك نقش لا يزال موجوداً على حجرين من الرخام الأبيض مشبتين في جداره . وقد عفت الأيام على منازل بنى سالم وتركت المسجد يقوم اليوم في أرض مهملة إلا من بستانين قلت العناية بهما ، يقع أحدهما في شماله ، والآخر في جنوبه .

ذكرت في فصل « آثار المدينة » ما حدث حين دخول النبي إليها بعد صلاة هذه الجمعة ونخطبته فيها فلا حاجة إلى العود لذكره . وإنما أقف هنا فيما بين قباء ومسجد الجمعة ليحدثني الأستاذ عبد القدوس عن أطم الضحيان وحسن

كعب بن الأشرف . يقع أولهما على مقربة من قباء إلى ناحية الغرب ، ويقع الآخر إلى ناحية الشرق وبينه وبين قباء أربعة أمثال ما بين الضحيان وبينها . وذكرت الحديث الأستاذ عبد القدوس ما كان بيثرب حين هجرة الرسول إليها من أطام وحصون تحميها غائلة المعتدين عليها ، وتجعل عبد الله بن أبي بن سلول يقول إذ يتحدث القوم في أمر قريش قبيل غزوة أحد : لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فإذا أقبل العدو رمته النساء والأطفال بالحجارة وقتلناه بأسياقنا في السكك . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فضت علينا قط وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه .

وشاقني أن أرى هذه الحصون والآطام كيف كانت . وانطلقت بنا السيارة حتى كنا عند أطم الضحيان ، فإذا أحجار سود من حجارة الحرار مكروم بعضها فوق بعض ، ولم يبق من الأطم إلا جدار هو القائم يحدث سمكه وارتفاعه عما كان عليه من عظمة وقوة ومنعة . وهو بالغ الدلالة على ذلك كله ، يبعث ما بقي منه إلى النفس رهبة ومهابة . تسلقنا بعض هذا الجدار السميك ورميت بنظري إلى الفضاء حولى ، فخلتني أرى ما كان عليه من قبل بما تبينت من نوع عمارته ، تدل عليها الآثار القليلة الباقية منه . وهبطت أسأل عن حصن كعب بن الأشرف ، فعلمت أنه ليس خيراً من هذا الأطم صيانة وأن ما بقي من آثاره لا يزيد عما بقي من الضحيان . على أن كعباً وحصنه آثاراً في ذاكرتي مقتل الرجل على عهد الرسول ، في حين لم يثر الضحيان شيئاً أعرفه .

فقد كان كعب عدواً للمسلمين شديد اللدد في عداوته ، يهجوهم يرسل فيهم الأشعار ويعيبهم بمقذع القول . هنالك ائتمر به جماعة من شبان المدينة فاحتالوا عليه واستدرجوه ليلاً من حصنه وقتلوه . وكعب هو الذى قال بعد غزوة بدر ومقتل سادات قريش بها : « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » ؛ وهو الذى ذهب إلى مكة يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ، قليب بدر ؛ وهو الذى

رجع بعد ذلك إلى المدينة وجعل يتشبه بنساء المسلمين . ومقتل كعب هو الذى أدى إلى حصار بنى قينقاع وإلى تجويعهم فتسلمهم وإجلالهم عن المدينة . وليس يسعنى وأنا الآن فى طريق قباء إلى المدينة أن أغفل الحديث عن مشربة أم إبراهيم . ولست أخفى ما كان بى من شوق إلى زيارة هذه المشربة والوقوف بها مذ نزلت المدينة . ولا عجب فأم إبراهيم هى مارية القبطية ، وهى المصرية التى بعث المقوقس بها وبأختها سيرين هدية لرسول الله حين بعث رسول الله إليه يدعو إلى الإسلام . أما وهى ابنة وطنى مصر ، وهى التى وصلت بين وطنى وبنينا عليه أفضل الصلاة والسلام بصلة خالدة على التاريخ إذ ولدت له ابنه إبراهيم ، وهى التى أبقت لذلك فى مدينة الرسول آثاراً يزور الناس جميعاً منها قبر إبراهيم بالبقيع ؛ فلا جرم أن أحرص أنا المصرى الصميم على زيارة المكان الذى اختاره الرسول مقاماً لمارية ، والذى كان مقامه كلما ذهب إليها ، والذى شهد عبراته تتساقط يوم مات إبراهيم حزناً وجزعاً ؛ ولا جرم أن يكون بى إلى هذا المكان هوى لا يشعر به غيرى ما أشعر أنا به .

ومشربة أم إبراهيم تقع بالعالية من ضواحي المدينة . وقد يكون تجوزاً نسبتها إلى قباء وطريقها ؛ فأنت تسير إليها من المدينة سالكاً طريق قباء حتى تبلغ ملتقى وادى بَطْحان بوادى رَأْنُوناء؛ إذ ذاك تتياسر مع وادى بَطْحان متجهماً إلى شرق المدينة ميمماً وادى مُدَيْنِبٍ ووادى مَهْزُور . والعوالى تقع بين هذين الواديين . هناك يأخذ بنظرِكَ مسجد قائم بين خضرة نضرة وزرع بهيج ، وبيئة طبيعية تثير فى النفس ذكرى البيئة المصرية . وهذا المسجد يقوم اليوم حيث كانت تقوم المشربة فى عهد رسول الله .

أفأقامت مارية بالمشربة مذ أهداها المقوقس إلى رسول الله ، أم أقامت بها بعد مولد إبراهيم أو قبيل ذلك بعد الحمل به ؟ لم يرد عن ذلك نبأ صريح . وكتّاب السيرة الذين يجيبون عن هذه المسائل يذهبون فى جوابهم مذهب الظنون . وأحسب مارية أقامت بالمشربة بعد قليل من مجيئها من مصر وأنها

ظلت بعد ذلك بها . وأحسبها أقامت بها قبل أن تسلم . فهي إنما أسلمت بعد حملها أو بعد مولد إبراهيم ، ولذلك لم تضم إلى أزواج النبي ولم تكن أول أمرها بين أمهات المؤمنين ، فلم تبين لها حجرة إلى جانب حجراتهن . ولعل النبي جباها بها إكراماً لها لأنه صلى الله عليه وسلم كان كريم الطبع ، ولأن مارية كانت يومئذ نصرانية ، وأقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ولعله اختار لها هذا المكان مقاماً لأنها أُلْفِت فيه شيئاً بطبيعة بلادها .

ونمط مسجد المشربة كنمط مساجد مكة والمدينة التي أقيمت للذكرى لا للصلاة . وهو خير في بنائه وفي صيانه من كثير من المساجد التي من نوعه . وفي صحنه إلى جوار الجدار المقابل للمحراب بئر ما يزال الماء بها ، لكنها لم تُبْنِ فوهتها ، ولم تعلق عليها دلو ، مما يدل على أن ماءها غير مأثور للشرب ولا للترتك .

أقيمت طويلاً عند مسجد المشربة ، ودرت حوله من فواحيه جميعاً ، وحاولت أن أصور لنفسى تلك المصرية التي سكنت هذا المكان كيف كانت ، وهل كانت تعيش ها هنا كما كانت تعيش في مصر ؟ أم أنها آثرت حياة أهل المدينة فسارت سيرتهم ونسجت على منوالهم ؟ وإن المؤرخين ليذكرون أنها كانت جميلة حلوة القسمات قمحية اللون يتوج رأسها شعر أسود متموج ، وأنها كانت تعيش في مشربتها بين الحدائق التي أهداها مخيريق إلى الرسول بعد جلاء بني النضير عن المدينة ، عيش طمأنينة ونعمة . أما بعضهم فيذكر أنها أقامت أول عهدها في دار بالمدينة تجاور حجرات النبي وأنها لم تنقل إلى المشربة إلا بعد مولد إبراهيم ، وحين ظهرت حفصة وعائشة على النبي بعد أن عادت حفصة يوماً من دار أبيها فوجدت مارية في بيتها مع النبي . وهذا قول مرجوح ؛ لأن مارية لم يعرف لها بالمدينة بيت قط ، ولأن مظاهرة حفصة وعائشة لا ترجع إلى سبب واحد <sup>(١)</sup> .

على مقربة من مسجد المشربة يقع مسجد الفسّيبخ شرق قرية العوالى .

(١) راجع « حياة محمد » فصل (إبراهيم ونساء النبي) صفحة ٤٧٩ وما بعدها من الطبعة الثانية.

وهو أوسع رقعة من مسجد مارية ومن كثير من المساجد الأثرية . له شرفات وخمس قباب ومحراب يجاوره منبر من حجارة يرتفع عن الأرض درجتين . وقد سمي هذا المسجد الفضيخ لما يروى من أن أبا أيوب أراق به الفضيخ ، وهو خمير التمر ، إذ بلغه وهو في نفر من أصحابه نزول تحريمها . ويسمى هذا المسجد كذلك مسجد الشمس لأن الشمس تطلع عليه أول شروقها . وهو مسجد مأثور لصلاة النبي بموضعه ست ليال حين حصاره بنى النضير .

ليس يقابلك إذ تسير شرق الخندق من ظاهر المدينة أثر غير ما قدمنا خلا مسجد بنى ظفر ومسجد الإجابة . وقد ذكرنا مسجد الإجابة حين تحدثنا عن آثار المدينة . أما مسجد بنى ظفر فيقع شرق البقيع ويؤثر عنه أن رسول الله أتى بنى ظفر فجلس على الصخرة التي في مسجدهم في جماعة من أصحابه وأنه أمر قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فبكى رسول الله وقال : « أى رب ! شهيد على من أنا بين ظهرائيه ! فكيف بمن لم أراه ! » . ويذكر صاحب مرآة الحرمين أن هذا المسجد يسمى كذلك مسجد البغلة لوجود أثر بجوار المسجد في حرة واقم يزعم المزورون أنه لحافر بغلة النبي ، كما يزعمون في تأويل انخفاض في حجر هناك أن رسول الله اتكأ في هذا المكان بمرفقه فترك في الحجر هذا الأثر ، كما تركت أصابعه أثراً في حجر آخر . ويُضيف إبراهيم باشا رفعت : « ولم يثبت شيء من ذلك وإنما هو محض افتراء زوره المرشدون للآثار ليستدروا بذلك أموال الدهماء » .

تقع هذه الآثار كلها بحرة واقم . والحرة كما أسلفنا منطقة سوداء من الحجارة المحترقة اختلط بها أكثر الأمر حمم بركاني . وحرة واقم تحده المدينة من الشرق كما تحدها حرة الوبرة من الغرب . ولقد كانت واقم أكثر عمراناً من الوبرة أول ما جاء رسول الله إلى المدينة . كانت منازل اليهود من بنى النضير تقع في جنوبها ويليها إلى الشمال منازل بنى قريظة منهم ؛ ثم كان بها ثلاثة منازل للأوس : منازل بنى ظفر واقعة إلى الشمال من وادي مهزور ، ومنازل

بنى عبد الأشهل فى أوسط الحرة ، ومنازل بنى حارثة فى شمالها . وفى منازل بنى عبد الأشهل كان يقوم حصنهم واقم الذى سميت الحرة باسمه . وقد ترك أصحاب هذه المنازل من اليهود والأوس آثاراً فى الحرة تدل على حضارة ونظام : تركوا بها آثار مصانع وصهاريج مياه لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس . ولا عجب وقد كانت هذه الحرة ميدان حرب منذ استقر الإسلام بالمدينة . حاصر رسول الله بنى النضير فى منازلهم بها وقد ائتمروا به ليقتلوه ، وذلك حين خرج إليهم بعد مقتل كعب بن الأشرف يريد أن يقر السلم باحترام عهد المودعة بينه وبينهم . وقد أدرك ائتمارهم فانسحب من ديارهم ، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة يبلغهم : « أن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من الغدر بى . لقد أجتأتم عشرأ . فمن رى بعد ذلك ضربت عنقه » . وتحيرت بنو النضير ما تصنع ، ثم انتهت بتحريض عبد الله بن أبى إلى عدم النزول على حكم هذا الإنذار النهائى الذى أبلغ إليهم . هنالك حاصرهم المسلمون وقتلواهم عشرين ليلة وقطعوا نخيلهم . فلما بدا لهم اليأس من المقاومة سألو محمداً أن يؤمنهم حتى يخرجوا من المدينة ، وخرجوا منها تاركين وراءهم مغنم كثيرة . وحاصر رسول الله بنى قريظة بعد أن نقضوا عهده وغدروا به وانضموا إلى الأحزاب فى غزوة الخندق . فلما تولى الأحزاب عن المدينة بعد أن خلع الإعصار خيامهم وقلوبهم ، قاتل المسلمون بنى قريظة فى منازلهم خمساً وعشرين ليلة حتى سلموا وحكموا سعد بن معاذ فى مصيرهم ، فحكم بأن تقتل المقاتلة ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرية والنساء ؛ وكذلك كان . من بعد ذلك ظلت المدينة آمنة إلى مقتل عثمان ؛ ثم بدأت الثورات والحروب الداخلية بين على ومعوية . فلما قُتل على بالكوفة وانقضى عهد معاوية وتولى يزيد ابنه إمارة المؤمنين انتقض عبد الله بن الزبير والحسين بن على . وأقام عبد الله بن الزبير بمكة وبايعه الهاشميون ؛ فجهز يزيد لمحاربتة جيشاً مؤلفاً من اثنى عشر ألفاً من الفرسان وخمسة آلاف من المشاة وجعل على رأسهم مسلم بن علقمة المرى . وبلغ مسلم المدينة سنة ثلاث

وستين فوجدها محصنة حولها الخندق ، لكنها لم تقاوم غير أربعة أيام ثم سلمت . وكانت هذه وقعة الحرة المشهورة في التاريخ الإسلامى . وإنما سميت هذه الوقعة الحرة لأن جيوش يزيد جاءت من حرة واقم .

تحد هذه الحرة المدينة من الشرق وتحدها حرة الوبرة من الغرب . وتبدأ حرة الوبرة قبالة قباء من الجنوب عند ذى الحليفة ، ميقات الإحرام لأهل المدينة ، وأول الطريق منها إلى مكة . وليس بنى الحليفة اليوم غير بئر ومسجد : بئر توضاً منها رسول الله وتوضاً منها المسلمون للإحرام للعمرة والحج عام الحديبية وعام حجة الوداع ، ومسجدها قائم بالمكان الذى كانوا يصلون فيه للإحرام . والمسجد القائم اليوم أترى لا يتسع لمائة أو مائتين من المصلين ، وبه محراب كتب أعلاه :

بمسجد سيّد الأبرار كرر سجودك بالغداة وبالعشي  
لعلك أن تَمَسَّسَ بَحْرٌ وَجْهٍ مكاناً مسه قدمُ النبي

وكتب كذلك : « بات رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأه وصلى بمسجدها » فى صحيح مسلم عن ابن عمر . وفى الصحيح أن مبدأه أى فى أول حجة له .

وأغلب الظن أن تكون هذه الكتابة قد نقشت بأعلى المحراب فى عصر متأخر من عصور الانحلال ؛ فهذان البيتان من الشعر يدلان على ذلك بلفظهما ومعناهما .

وعلى مقربة من مسجد ذى الحليفة آثار الجدران ذكر لى الأستاذ عبد القدوس الأنصارى أنها جدران مسجد المعرّس ، وأن هذه الجدران بقيت مطمورة إلى أن كشف عنها السيل عام ١٣٥٢ هـ ، وأن المآثور أن هذا المسجد كان يعرّس به النبي ؛ أى يبيت به عند عوده من مكة . ولم أعنّ نفسى بالبحث فى صحة هذه الرواية .



وطريق المدينة إلى ذى الحليفة مستواً يحاذى حرة الوبرة ، يبتعد عنها حيناً ويقرب منها حيناً آخر ، ويقف الكثيرون أثناءها عند بئر عروة يستقون من مائها العذب الرقيق ، بلغ من عذوبته ورقته أن كان حكام المدينة يهدون منه للملوك والأمراء وكبار المسلمين . ويقال : إن مياه هذه البئر تصلح الكلسى . ولعلمهم في ذلك غير مخطئين . وهى تنسب إلى عروة بن الزبير ، وإن ذكر الأستاذ عبد القدوس في كتابه « آثار المدينة المنورة » : أن رجلاً له مقهى إلى جانبها يذكر جهلاً منه أن عروة امرأة يهودية هى التى حفرت البئر .

بأعلى حرة الوبرة من ناحية الشمال مسجد وبئر مأثوران، ومأثوران بحق ؛ ذلك مسجد القبلتين ، وتلك بئر رومة . أما مسجد القبلتين فيقع على ربوة مرتفعة من الوبرة ، وهو من طراز مساجد مكة التى لا يصلى فيها . وبه محرابان محراب داخل الجانب المسقوف منه يتجه إلى الكعبة ، أى إلى الجنوب ، ومحراب فى الجانب المكشوف يتجه إلى بيت المقدس ، أى إلى الشمال . والمأثور أنه صلى الله عليه وسلم صلى فى هذا المسجد إلى بيت المقدس حتى أمره الله أن يجعل الكعبة قبلته ، وذلك على رأس سبعة عشر شهراً من هجرته إلى المدينة ، وحين نزل قوله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . » وقد كان تحول القبلة إلى الكعبة بعض ما زاد فى خصومة اليهود والمسلمين ؛ حتى لقد ذهبت يهود إلى محمد يسألونه أن يعود إلى قبلتهم فيتبعوه فأبى ؛ فهو لم يحول الكعبة عن هوى منه بل إجابة لأمر ربه .

أما بئر رومة فكانت ليهودى تسمت باسمه وكان يبيع ماءها للمسلمين ، فاشتراها منه عثمان بن عفان إجابة لرغبة رسول الله ، ودفع له فيها عشرين ألف درهم . وهى تقع بمجتمع أسياال المدينة ؛ إذ تلتقى بطنحان ورانؤزاء فى مسيل العقيق ثم يتصل بها مسيل قناة .

وهذه بئر مقصودة حتى اليوم . أقيم عليها بناء أمامه بركة يسير فيها ماؤها عذباً سائغاً للشاربين ، وتندفق إلى حيث تُروى المزرعة المحيطة بالبئر وبالبناء القائم في جواره . وقد يكون تجوُّزاً أن يسمى هذا البناء مسجداً وإن كان الناس يصلون فيه ؛ فهو ليس كهيئة المساجد في عمارته ؛ بل هو أدنى إلى أن يكون إيواناً مشرفاً على البركة والبئر والمزارع حولهما .

تفصل حرّة الوبرة بين المدينة ووادى العقيق . وإذا ذكر العقيق من أودية المدينة نسي الناس كل واد للعقيق سواه . فقد كان له في أنباء التاريخ من الذكر ما جعله وادى النعمة وتخفّض العيش والترّف ، يترتم الشعراء بحماسه ويقص الرواة أنباء ما انطوت عليه قصوره . كان هذا الوادى الخصب الدافق بجداول المياه وبالعيون والآبار خالياً من البناء لما قدم النبي المدينة . وقد أقطعه بلال بن الحارث المزني بحجة نصّها : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث ، أعطاه من العقيق ما أصلح فيه معتملاً . وكتب معاوية » . ولم يصلح بلال من العقيق شيئاً . فلما كانت خلافة عمر نزعه منه وأقطعه للناس ، وترك له قسماً صغيراً لعله يصلحه . ولم يكد عمر يفعل حتى تنافس الذين ملكوا العقيق في غرسه بساتين وجنات جعلته بهجة للناظرين . وتدفقت أموال الفتح في عصر الدولة الأموية ، فبدأت القصور تقوم في عرّصاته تُزرى بقصور الشام وما افتنّ الرومان في تشييده منها ، وأصبح العقيق بذلك ضاحية الكبراء المُتشرّفين . ولا تزال آثار قصر سعيد بن العاص القائم بالشمال الغربي منه تشهد بذلك وتدل عليه . وكان هذا القصر مبنياً بالحجارة المطلية بالحص من الداخل والخارج بناء أبقت متانتها من آثاره ما نرى منه اليوم . وكانت تحيط به بساتين غناء ورياض ممرعة ونعمة وارفة الظل ؛ حتى لقد قال أبو قَتَيْبَةَ الشاعر يصفه ويفضّله على قصور دمشق وبساتينها ورياضها :

القصرُ فالنخلُ فالجماءُ بينهما أشهى إلى النفس من أبواب جَسِيرُون

وجيرون : دمشق . وسعيد بن العاص صاحب القصر كان أميراً للمدينة في عهد معاوية . فهذا القصر يرجع إذاً إلى أكثر من ثلاثمائة وألف من السنين . وقد جعله سعيد موضع رياضته وزهته وكان يدعو إليه أصحابه وندماءه ينعمون فيه بالحياة كخير ما ينعم إنسان بين الرياض الفيحاء والبساتين الغناء ومفاتيح الفن المختلفة التي نافس بها أجمل قصور الشام .

ولإنما كان قصر سعيد واحداً من قصور العقيق الكثيرة التي جعلها أصحابها مراعٍ تَرْفٍ وجنات نعيم . كان به قصر عُرُوة بن الزبير على مقربة من بئر ، وقصر سُكَيْيْنَة بنت الحسن وكان يسمى الزينبي ، وقصر مروان ابن الحكم ، وقصر عبد الله بن عامر ، وقصر جعفر بن سليمان ، وقصر إبراهيم بن هشام ، وغيرها من القصور الكثيرة القائمة بين بساتينه وآباره ومزارعه وجمّآواته . وجمّآوات العقيق مرتفعات سود كبار قائمة على شفيره الغربي دون الجبال وفوق الهضاب . وأقرب هذه الجمّآوات إلى المدينة جمّآء تُصَارِع القرية من بئر عُرُوة . وتجاورها جمّآء أم خالد وتكاد تتصل بها من ناحية الشمال . أما جمّآء عاقل فتبعُدُ عنها إلى الشمال كذلك ، وهي أقرب الجمّآوات إلى قصر سعيد بن العاص .

بدأنا الحديث عن ظاهر المدينة من جنوبها حيث تقع قُبَاء في سفح عَيْسِر ، وتناولنا الشرق موقع حرة واقم ، والغرب موقع حرة الوبرة ووادي العقيق . ونحن في غنى عن أن نتناول بالقول شمال المدينة ، فشأها أحد يفصل بينها وبينه وادي قناة ، وقد تحدثنا عنهما حين حديثنا عن قبر حمزة . وهذا التحديد لظاهر المدينة يرسم أمامنا صورة منها وما يحيط بها من نواحيها الأربع ، ويفسر لنا الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في تحريمها كحرمه مكة . فقد روى أنه قال : « إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها ، وإن حرمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة » . أو قال : « إن إبراهيم حرّم مكة وإن حرمت المدينة ما بين لا بَسْتِيْهَا لا تَقْطَعُ عَضَاهَا ولا يُصَاد صيدها » . أو قال : « إنى حرّم ما بين جبلها مثل ما حرّم إبراهيم مكة » .

وجبال المدينة المقصودان هنا هما : عَيْرٌ وأُحُد ، أو غير وثور الواقع وراء أحد ليدخل أحد في الحرم . ولابنا المدينة هما الحرتان : واقم والوبرة . ولسنا نقف بطبيعة بحثنا عند مناقشة ما قيل في إثبات هذه الأحاديث أو نفيها ، وفي حرمة المدينة أو عدم حرمتها ، ولا نريد أن نضع هذه الأحاديث إلى جانب خطاب النبي على أثر فتح مكة إذ قال : « إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة » لنقول إن حرمة مكة مرجعها إلى البيت العتيق . إنما أردنا أن نظهر القارئ على ما يراد بجبل المدينة ولابتسيها لتكمل أمامه صورتها ، وليرى أن العتيق الواقع أمام لابة الوبرة يقع بعد ظاهر المدينة على التحديد الذي اخترناه حين جعلنا الخندق الحد الفاصل بينها وبين ظاهرها .

هَبْ هذه الأحاديث صحت وكان رسول الله قد حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، أفيجدر بنا أن نستنبط من ذلك أن الدين شيدوا قصورهم بالعتيق وإنما تخطوا حرم المدينة ليكون لهم من الحرية ما ليس للمقيم داخل هذا الحرم ؟ أم أن الأمر لا شيء من ذلك فيه ، وإنما بنى ذوو الثراء بالعتيق لجودة جوه وعلوبة مائه وجمال مناظره ولما يوحيه ذلك إلى النفس من معاني النعمة في الحياة ؟ أم أن الأمر لم يكن هذا ولا ذلك وإنما بنى بالعتيق من بنى لأن المدينة انفسحت رقعتها وكثر أهلها حين كانت عاصمة الإسلام وحاملة لوائه ، فلم يكن بد من تجاوز حدودها لمن أراد الابتعاد عن ضجة الحاضرة وجلبة الحياة فيها ؟

لا أخالنا قادرين على أن نقطع أي هذه الأسباب الصحيح . وربما كانت كلها قد تضافرت فأخرجت الناس من حرم المدينة إلى وادى العتيق . فلما انحلت الحضارة الإسلامية ولم تبقى المدينة عاصمة الإسلام وحاملة لوائه عاد العتيق فأفقرت عرصاته ، وكشرت جَمَواته ، واضطرب مسيل الماء فيه ، فارتد اليوم قفراً كما كان قبل أن يعطيه رسول الله بلال بن الحارث المزني ، ويوم كانت يثرب موضع نزاع دائم ودسائس متصلة بين الأوس والخزرج واليهود .

أرجأنا الحديث عن حياة رسول الله وأصحابه بالمدينة حين حديثنا عن آثارها حتى نُسَمَّ الحديث عن ظاهرها . أما وقد أتمنناه فحقّ علينا أن نصف طرفاً من هذه الحياة الإسلامية الأولى في عاصمة الإسلام . ولعلك صورت لنفسك طرفاً من هذه الحياة بما قصصنا عليك من أمر المدينة وطبيعتها وآثارها وظاهرها . فقد بلغ رسول الله المدينة أول هجرته إليها وأهلها من الأوس والخزرج مشوقون لحياة روحية جديدة تسمو بهم على الأصنام وعبادتها بما كان اليهود المقيمون بين أظهرهم يعيبنونهم عليه ، وتقيم لمدينتهم وحدةً طالما جنت عليها المنازعات والحرب الداخلية جناية دعوتهم إلى التفكير في إقامة رجل منهم أميراً عليهم جميعاً . فلما جاء النبي إليهم وأقام بين أظهرهم والتف حوله من الأوس والخزرج كثيرون بدأت الحياة في المدينة تتجه اتجاهاً جديداً ، وبدأ الأوس والخزرج الذين أقاموا على شركهم ينظرون إلى هذا التطور الجديد بعين الريبة والحذر ، وينسون لذلك ما كان بينهم وبين اليهود من عداوة وبغضاء . وبدأ رسول الله حياته السياسية في المدينة ، وجعل سياسته فيها سياسة قوة لا يتطرق إليها الضعف ، وإن لم تشبها شوائب العدوان على الغير . وسياسة القوة هذه كانت مقدّمة حياة الجهاد الذي اندفع إليه المسلمون من يومئذ إلى أن بدأت نُدرُ الانحلال أيام الدولة العباسية . وأنت إذ تعود بذاكرتك إلى ما قصصنا من أمر الآثار بالمدينة وبظواهرها ترى هذا المعنى واضحاً جلياً . ذلك حديث المساجد والآطام والقصور ، بل هو حديث الجبال والآبار والعيون . لم أذكر مسجد السبق بين المساجد التي تحدثت عنها لأنني لم أقف له على أثر . لكن الروايات تجرى بأن هذا المسجد أقيم شاهداً على المكان الذي اعتاد المسلمون الاستباق في ميدانه الفسيح رجالاً وعلى الجياد ، وفي هذا مظهر قوة وإقدام . ومسجد القبلتين يذكر حادثاً روحياً استقلَّ به المسلمون عن غيرهم من أهل الأديان التي تتجه إلى بيت المقدس ، ويحدث لذلك عن استهانة المسلمين باليهود ودسائسهم التي جعلت أهل المدينة قبل هجرة الرسول إليهم يخشونهم ويحسبون لهم ألف حساب . ومسجد الفتح ومسجد الإجابة والمساجد

الواقعة على مقربة من أحد والقائمة حول الخندق تحدت كلها عن غزوات  
اشتبك المسلمون فيها واستهانوا بالموت أثناءها ثم كانوا أبدأ الغالبيين . وكثير  
من الآبار يحدث عن إيثار المسلم لإخوانه على نفسه ؛ فبئر رومة اشتراها عثمان  
ابن عفان بعشرين ألف درهم لتكون خالصة للمسلمين ولم يكن له منها إلا حظ  
رجل منهم . والعيون التي ضُمت للعين الزرقاء كانت كلها مملوكة لأفراد من  
المسلمين ، فنزل كثيرون منهم عن ما لهم لله وفي سبيل الله . وما كان لنفس  
تعرف الجهاد في سبيل الله وتقبل عليه راضية مرضية أن تعرف الأثرة أو  
ترضاها ، أو أن تعرف الضعف فتدل له . والقوة والإيثار لا يجتمعان في نفس  
ما يجتمعان في نفس المجاهد . وليس يسمو أحد إلى ما يسمو إليه المجاهد  
المؤثر من أمثال الحياة العليا . فإذا بلغ المؤثر من إيثاره أن نسي نفسه في  
إخوانه وأن أحب إخوانه في الله لم تغلبه قوة في الأرض حياً ، فإن مات بقي  
من ذكر جهاده ما يكفل مثله الأعلى النصر لا محالة .

هذا اللون من حياة المسلمين في المدينة وما كان لهم في رسول الله من  
أسوة حسنة هو الذي طوع للمسلمين فتح الأمصار وحكم الأمم ونشر لواء  
إيمانهم في الخلفين . وفي ذلك الدليل على أن الحياة فكرة أولاً وآخرأ ،  
وأن قوة المرء وضعفه ، كقوة الأمة وضعفها ، رهن بقوة فكرته في الحياة  
أو ضعفها . فمن آثر الحياة خوفاً من الموت ، راضياً من الحياة بما تريد  
الحياة منه لا بما يريد هو منها يبلغه أو يموت دونه ، فهو ضعيف وإن بلغ  
من الجاه والسلطان أعظم مبلغ . ومن غرته الحياة بزيتها فخدعته عن المثل  
الأعلى من الجهاد في سبيل الله ، فقد ذل للحياة ابتغاء عرض زائل وأوهام  
خاطئة كاذبة . فأما من أراد الحياة لمثل أعلى يتغنى بتحقيقه لخير إخوانه  
فهو سيّد الحياة العزيز الجناح ، وإن كان بين الناس الفقير الضعيف الذي  
يُحاربه الناس .

هذه كانت حياة المسلمين الأولين في المدينة ، وبهذا تُحدث آثارها  
ويشهد ظاهرها . فلما نسي المسلمون ما لله من المثل الأعلى وعكفوا على أنعم

الحياة وتوهموها الغاية من الحياة ، بدأت نذر الانحلال يدب دبيبها فيهم وتسرى جراثيمها إليهم . وغرهم ما فعل أسلافهم وما أورثوهم من قوة ، كما يغير القوى العضل بقوة عضله فيُقبِل على اللهو مستهينًا بالنُدُر ، ناسيًا أن لليوم غدّه ، وأن للشباب كهولةً وشيبًا . ولو أن المسلمين فطنوا إلى النُدُر من أول عهد الانحلال لأغنتهم ولمّا أصابهم من الهوان ما أورثوه أبناءهم ، فما يزالون حتى اليوم يَصَلُّون من أثره ذلة ترهقهم وتجعلهم أسوأ عنوان لدين هو دين الكمال والمثل الأعلى .

إن يرد المسلمون خروجًا من هذا الهوان فليعيدوا سيرة السلف الأولين في القوة على الحياة والإيثار على النفس وفي البر والتقوى وليذكروا قوله تعالى : «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» ، وقوله جل شأنه : «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا النَّبِيَّ تَبَعِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

إنهم إن فعلوا فآثروا على أنفسهم ، وذكروا الجهاد في سبيل الله ، وتحابوا بنور الله بينهم ، واتخذوا من مثل السلف الأول أسوتهم ، غفر الله لهم وغير ما بهم ، وأنزلهم مكان العزة ، ورفع عنهم مقته . تلك سنته في الكون . فن تدبرها فاز في الآخرة والأولى ، ورفع الله مكانًا عليا .

## زيارة الوداع

في غد نبرح المدينة لأزور بدرأ وشهداءها ولأدرك الباخرة التي تُبحر من يَنْسُجُ إلى السويس . فغد الجمعة ، والباخرة تبحر ظهر الأحد . ولست آمن إن بقيت إلى صبح السبت بالمدينة أن يبغثنى الوقت فتضوتنى زيارة بدر وأنا عليها جدٌ حريص . كفى أن فاتتنى زيارة خيبر بعد إذ يسر لى الملك ابن السعود الوسيلة إليها . فقد دفع إلى كتاباً برسم أمير المدينة ليعاوننى فى سلوك طريقها وإلى الوقوف بها . وأظهر لى الأمير عبد العزيز بن إبراهيم رغبته فى المعاونة ، لكنه ذكر أن الطريق إلى خيبر ليس ممهداً كله للسيارة ، وأن الإنسان يبلغ بها منتصفه فى يوم ، ولا بد له بعد ذلك من امتطاء ركاب يومين كاملين ، والعود يقتضىنى مثل هذه المشقة وهذا الوقت . أما ولم يكن بين بلوغى المدينة وإبحار « زمزم » من ينبع غير اثنى عشر يوماً يقضى الإنسان اثنين منها فى الذهاب من المدينة إلى مرفأ السفر ، أما وآثار المدينة وما بظاهاها يقتضى الإنسان أسبوعاً كاملاً للطواف به والوقوف عنده ، فلا مفر من إرجاء زيارة خيبر إلى فرصة أخرى أرجو ألا تضنّ الأقدار على بها .

غد الجمعة ، فلأجعل زيارة الوداع للحجرة النبوية عقب صلاة الجمعة ، ولأبترح المدينة بعد صلاة العصر ، ولأؤد سائر اليوم بالمدينة واجب الشكر لأميرها عبد العزيز بن إبراهيم ، ولضيقى الشيخ عبد العزيز الخريجي وأخيه الشيخ محمد ، وللكثيرين من أهل المدينة وشبابها الذين كانوا اللطف بى طول مقامى بينهم ، والذين بذلوا من معاونتى فيما سألتهم المعاونة فيه غاية ما يستطيعون . وشكرهم حسبي ، فهو كل ما أستطيع أن أجزيهم به عن جميل طوقوا به عنى ولن أنساه .

وأصبحت فأعددت للرحيل متاعى . ولما دنا موعد الجمعة قصدت إلى المسجد فألفيته امتلاً للمصلين . ولقد كنت على ثقة من أنى لن أجد بالروضة



منه مكانًا ، فالكثيرون يقصدون إليها قبل موعد الصلاة بساعات ولا يبرحونها ، ومنهم من يقصد إليها من بكرة الصباح ليؤدي فيها فرض الفجر ويظل بها إلى صلاة الجمعة . وتخيرت مكانًا قريبًا من باب الرحمة ، فإذا جار يميني رجل ممن عرفت بالمدينة ، وجار يساري حاجٌ مغربي من أبناء مراکش . عرفت من جار اليمين أنه يتردد على المدينة إذ يجيء إليها مرة كل عام أو كل عامين في أشهر الحج . وقد حياني الرجل بتحية الإسلام بعد أن أتممت ركعتي السنة أول مقدمي ، ثم جلسنا جميعًا ننتظر الأذان لصلاة الجمعة كي نؤدي فرضها مع الإمام .

وذكرت ، وأنا بمجلسي أنتظر الأذان والصلاة ، أول جمعة صليتها في المسجد الحرام بمكة . ذكرت عشرات الألوف الذين أحاطوا بالكعبة من جهاتها الأربع ، وما أثارته في نفسي موازنتهم بالمسلمين الأولين الذين جاءوا مع رسول الله في حجة الوداع ، وما بدا لي من فرق عظيم بين هؤلاء وأولئك في تصور الحياة . كان المسلمون الأولون يقبلون على صلاة الجماعة يدعومهم إليها روحٌ مبعثة الإيمان ، ونظامٌ قيوامه الأخوة . وكانت الحياة لذلك عندهم فكرةً يستهينون في سبيلها بالموت ويروونه استشهاداً في سبيل الله . وكانوا يدركون إدراكًا عميقًا معنى كلمتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانية مذ وجدت : « الله أكبر » . وكانت صلاتهم لذلك ابتهالاً خالصًا لله جل شأنه وتوجهًا إليه ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ويسمو بالنفس على غرور الحياة . أما اليوم فقد غاض الروح من هذا المجتمع وصار الإيمان فيه تقليدًا ، يكفي صاحبه بأن يقول ألفاظ الإيمان وإن لم يؤمن منها بشيء ، ثم يحسب بعد ذلك أنه أرضى الله ورسوله . فإذا طمع في مزيد من الرضا خيّل إليه أنه بالغ من ذلك مطعمه بألوان من الزلفى لا تتصل بالعمل الصالح في شيء ، وليس فيها من حب المؤمن لإخوانه وإيثاره إياهم على نفسه كثير ولا قليل . بل إن المصلين اليوم لا يفكر أحدهم في أخيه ولا يجب إلا نفسه . وهو إنما يحضر صلاة الجماعة ابتغاء المغفرة لنفسه والثواب لنفسه دون تفكير في المؤمنين ممن حوله . وهذه

الأثرية التي فتكت بالجماعات الإسلامية هي التي جعلتها تتعلق بالحياة لذاتها ، ولا تعرف المثل الأعلى فيها وتُدعن لذلك خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة في الحياة . وهذه الأثرية هي التي أبقته في غيابات الجهل ؛ لأن كبراءها وسادتها أمسكتهم الأثرية في دنيا مراتب الحياة فحجبوا عن إخوانهم نور العلم وما يدعو إليه العلم من إيمان حق ، وبذلك أضلّوهم السبيل .

ذكرت ما ساورني من هذا التفكير بحرم مكة وأنا بمجلسي من المسجد النبوي أنتظر الأذان والصلاة ، وأجلت طرفي في هذه الجموع الجالسة حولي فحزّ مرآها في نفسي . فهذه الجموع تمثل العالم الإسلامي بمئات ملايين المنتشرة في أطراف العالم كله ، وهي على ضخامة عددها كمية مهملة أو في حكم المهملة . مصر . بلاد المغرب كلها . بلاد العرب . العراق . مسلمو الهند . مسلمو الملايا . مسلمو الصين . المسلمون في أوروبا . أي أثر لهُؤلاء جميعاً في عالمنا الحاضر ؟! أرقام ضخمة لاتعدو أن تكون أرقاماً . واليهود لايزيدون في العالم كله على خمسة عشر مليوناً . مع ذلك يلتفت العالم إذا ذكروا يريد أن يعرف ما يريدون . تهتمز لمطالبهم جوانب البرلمان البريطاني ، وأرجاء عالم المال في أمريكا ، وتقوم عصبية الأمم لمطالبهم وتقعده . وكان العالم أشد تلفتاً لما يريد المسلمون في عهدهم الأول حين لم يكونوا يبلغون ثلاثة الملايين عدداً . أما اليوم فمئات الملايين من المسلمين أرقام لايقام لها وزن ولا يحسب لها حساب . وإذا قيل العالم الإسلامي سخر الناس وقالوا : ما يزالون متعصبين ، يحسبون الأديان وحدة تقيم أمة أو أمماً . فإذا قيل : شعب صهيوني أو قبيل بنو إسرائيل ، سمعت الأصداء تتجاوب من أنحاء العالم : شعب مضطهد يجب على العالم أن يبحث له عن وطن يلجأ إليه احتفاء من مضطهديه . أي شيء يحز في كبد المسلم ما يحز هذا الجمع الذي أراه أمامي في المسجد النبوي يمثل المسلمين جميعاً وهم يعانون الذلة والهوان صابرين ! وقد كان المسلمون الذين يحضرون الصلاة في هذا المسجد أيام بساطته الأولى حين كان قائماً من اللبن وجذوع النخل يهزون العالم كله ، لفتة منهم تُزعزع

العروش ، فإذا تسادوا « الله أكبر » تفزعت الأفلاك والتفت الدهر .

أذن المؤذن للصلاة وخطب الخطيب هناك عند محراب عثمان ، فلم نسمع مما قال كلمة لبعدنا عنه ، ولأن الروضة تحجب ما بيننا وبينه . وصلينا الجمعة وصلى السنّة من شاء ، وبدأ الناس ينصرفون من المسجد . أقمت مكاني ، حتى إذ خلت أروقة المسجد أو كادت ذهبت أودى للحجرة النبوية ولقبر الرسول زيارة الوداع ووقفت أمام شباك التوبة ورفعت صوتي قائلاً : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . أشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم النصر لدينه ، وأنه وفي بوعده وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » . ومكثت هنيهة واقفياً أحدّق في هذه الحجرة ، وأذكر من تحوى قبورها رفاتهم : محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأبا بكر الصديق صني النبي وخليله ، وعمر الفاروق من أعز الله به الإسلام يوم أسلم ، ومن نشر لواء الإسلام في الخافقين أيام خلافته ، وأذكر ما حدث بعدهم بين المسلمين من حروب أهلية وما تطورت إليه العقلية الإسلامية بعد ذلك حتى هوت إلى درك الانحلال فأصبحت مقلّدة تنفر من الاجتهاد وتحاربه ، أثيرة لا تعرف أخوة المؤمنين وتنزوي لذلك أمام كل قوة . وإني لأقلب في صحف نفسي وأنا حسير الطرف كسير القلب حياء وخجلاً إذ انفجرت شفتاي عن هذه النجوى :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! أشهد أنك رسول الله الواحد الأحد حقاً وصدقاً ، وأنه بعثك للناس كافة بالهدى ودين الحق . هديتهم بأمره ألا يعبدوا إلا إياه مخلصين له الدين حنفاء ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . سمّاك ربك عبده قبل أن يسميك رسوله ، حتى لا يضل قوم فيحرفوا كلام الله عن مواضعه فيؤثروك أو يعبدوك كما ألّه رسل من قبلك وعبدوا ، وبلغتنا من وحى ربك أنك بشرٌ مثلنا يوحى إليك إنما إلهنا إله واحد ، ليعلم الناس أن الله يصطفى لرسالاته من يشاء من عباده ، فيظل من اصطفاه عبده وإن فضله على الناس إذ جعل بعضهم فوق بعض درجات . في منزل الوحي

والله وحده ، جل شأنه لا شريك له هو الذى تجب على الناس جميعاً عبادته .  
لذلك خلقهم ، وإليه مرجعهم ، وعليه حسابهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ،  
ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

«أشهد أنك رسول الله بعثك بالهدى ودين الحق . علمتنا بأمره ووحيه أن  
عبادة الله ليست خضوعاً ، إنما هى إسلام لله عن إيمان صادق ابتغاء رضاه عن  
صالح ما نعمل ، والتأساً لعضوه عما نضل فيه السبيل ، أو تحدثنا به النفس  
الأمارة بالسوء . فمن أسلم لدعوتك مدعناً غير مؤمن لم يدرك ما تدعوننا إليه ،  
ومن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك الذين رضى الله عنهم ، ورضوا عنه والذين  
يخشون ربهم بالغداة والعشى ، فإذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا رَأوا آياته  
زادتهم إيماناً ، ينظرون فى خلقه يريدون أن يعرفوا من طريق العلم سنته ،  
ويسعون فى مناكب الأرض ليزدادوا علماً ، وليزدادوا إيماناً .

«أشهد أنك رسول الله حقاً وصدقاً . علمتنا أن المرء لا يكمل إيمانه  
حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، وأن المؤمنين إخوة حق عليهم أن يتحابوا بنور  
الله بينهم ، وأن نور وجهه الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا  
والآخرة هاديننا إلى البر والرضا ، وأن الحياة محبة أساسها الإيثار على النفس ،  
وقوامها إنكار الذات ، وغرضها المثل الأعلى ، ووسيلتها الأسوة الحسنة ،  
خير رداء فيها الصبر ، وخير سلاح فيها العلم ، وخير شفيع فيها الصدق ،  
وخير كنز فيها الثقة بالنفس ، وخير أنيس فيها ذكر الله .

«أشهد أنك رسول الله القوى الأمين . علمتنا المثل الأعلى لله ، وأن  
الجهاد فى سبيل الله سبيلنا إليه ، وأن الاستهانة بالموت من خلق الجهاد ، وأن  
ما فى الحياة مما دون المثل الأعلى لن يبلغ أن يصد عنه أو يقف دونه ، وأن  
الخوانف والقواعد دون الجهاد هم الذين يبتغون بإيمانهم ثمناً قليلاً ، ويؤثرون  
العاجلة وإن هانت ، ويرضون من أجلها أن يبيعوا آخرتهم بديانهم . أولئك  
نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أما الذين جاهدوا فى سبيله فقتلوا فليسوا أمواتاً بل  
أحياء عند ربهم يرزقون .

« أشهد أنك رسول الله أوحى إليك الكتاب بالحق ، لا ريب فيه هدى للمتقين . فيه آيات بيّنات يذكّر بها الذين آمنوا وتزيدهم إيماناً ، هو يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، فيه شفاء ونور للذين آمنوا ، يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل الذين ارتابوا بالتي هي أحسن ، وينذر الظالمين والمعاندين عذاباً عظيماً . نزله عليك ربك بالحق ، فبلغت رسالته ، وكنت فيها الأسوة الحسنة للذين يريدون وجه ربهم مخلصين .

« وأشهد أن لا إله إلا الله لا نشرك به شيئاً ولا نعبد من دونه أحداً ، محمداً رسول الله بلغ رسالات ربه وجاهد في سبيله ، حتى أتم الله النصر لدينه ، صلى الله عليه وسلم .

« السلام عليك يا رسول الله ! السلام عليك يا أبا بكر ! السلام عليك يا عمر ! » .

أتممت نجواى وبقيت مكاني مأخوذاً يهتز قلبي وتضطرب مشاعري ويضئ بصيرتي نور أحسنه . في أعماق نفسي فأراني أسمع فوق ما ألفت ، وأذكر موقفي من حيراء ويتمثل أمامي كرة أخرى يوم الوحي الأول في سناه وبهائه ، ثم أذكر موقفي من غار ثور وتمثل لي هجرة النبي إلى هذه المدينة التي أقف الآن بها أمام قبره . وتمثلت أمامي غزواته ، وحياته ، وأصحابه ، كأنما تتسابع هذه المواقف جميعاً أمام باصرتي مليئة بالحياة ، مضيئة بالإيمان ، وبما يدفع الإيمان إليه من جهاد في سبيله . وانقضت فترة آن للنفس فيها أن تهدأ ، فانسحبت من موقفي أمام الحجر في إكبار وإجلال ، وسرت خافض الرأس حتى بلغت منبر رسول الله في الروضة ، فصليت ركعتين واستغفرت الله لي وللمؤمنين ، وانصرفت من المسجد راضياً عن نفسي ، طامعاً في مغفرة الغفور الرحيم ذنبي ، هو غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب .

وعدت إلى الدار وتناولت طعامي وأتممت عدة سفري ، ثم ذهبت إلى النكية المصرية أؤدى لأصحابي المصريين فيها وأؤدى لناظرها حق الشكر لظنهم

كلطف أهل المدينة بى . وسرفى ما ذكروا من قيام طائفة من نبى وطنى فى هذا الوقت الذى أزمعت القيام فيه لقضاء ليلهم بالمسيحيد مثلى . فلما تنصف الوقت بين العصر والمغرب كنت بالدار أودع أهلها وأودع الذين جاءوا لوداعى من أهل هذه المدينة المباركة ، مدينة النبى العربى ، وأرجو الله لى ولهم أن يجمعنا بها كرة أخرى عما قريب . وسبقنا البكس بعد أن حمل متاعنا ، وأقلتنى السيارة وأقلت أصحابى معى ، وانطلقت تبتغى المسسيحيد لتنطلق منها بكرة الصباح فى طريق بدر .

وداعماً مدينة رسول الله ! وداعماً قبر النبى الكريم ! وهب لى رب من لدن برك ورحمتك أن أعود إلى هذه المدينة فأزور هذه الحجرة المباركة أذكر فيها أشد الناس حباً لهدى الناس ، وأشهدك على حبى إياه أكثر من حبى نفسى . لقد اصطفتيه وفضلته وجعلته أسوتنا إلى رضاك وعطفك ، فهب لنا من فضلك ما يسمو بنفوسنا إلى هذه الأسوة ، وهب لى لنا ربنا من أمرنا رشداً ! لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الكتاب السادس  
أوبة الرضا

## بدر وشهداؤها

خرجنا إذاً من المدينة عصر الجمعة ، الحادى عشر من شهر المحرم ، الثالث من شهر إبريل ، نقصد المسيجيد لقضاء الليل « بأوتيلها » والقيام بكرة الصباح إلى بدر . لقد فانتى السير فى أثر الرسول إلى خير ، ولم يكن فى المقدور أن أذهب إلى حيث ذهبت جيوش المسلمين بأمره إلى مؤتة وإلى تبوك ما دامت سكة الحجاز الحديدية معطلة ، وسير القوافل إلى هذه الجهات غير منتظم ، وصحبة القوافل التى تطرد أحياناً مغامرة لا أطيعها . فلأختم جولاتى خلال الحجاز بزيارة بدر والوقوف على آثارها وعلى قبور شهدائها . فبدر هى الغزوة الأولى فى الإسلام ، التى فيها الإيمان والشرك ، فنصر الله الإيمان بجنده وعززه بأيده ، ووقف فيها رسول الله يستنجز ربه النصر الذى وعده ويقول فى دعاء وابتهاج : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتني ! اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . فلما أتم الله النصر للمسلمين فيها على خصومهم كان ذلك الفتح الأول الذى استقر به الأمر للمسلمين من بعد ، فكان مقدمة الوحدة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية ، ومقدمة الإمبراطورية الإسلامية فى العالم كله . !

ومررنا إذ خرجنا من المدينة ببئر عروة فلألت من مائها (ترامسى) ، وافتقدت فى هذه اللحظة الحرائط التى أهداها إلى المستر فلبى فإذا بى نسيتهما بدار مضيئى ففكرت فى العودة لأحضرها . لكن صاحبى آثر أن نبقى حيث نحن وأن يعود حسن بالسيارة فيردها على . وبقينا ننفياً ظل الجبل بظاهر المدينة وننعم من هواء الصحراء الخفاف الرقيق بما كنت فى حاجة إليه أشد الحاجة بعد أن قضينا بالمدينة عشرة أيام كاملة .

وعاد حسن بالحرائط وعدنا إلى انطلاقنا فبلغنا المسيجيد بعد العشاء ، فألفينا جماعة من مواطنينا قد سبقونا إليها . أولئك أعضاء البعثة الطبية المصرية الذين



غادروا المدينة يبتغون يُسبِع ليدركوا الباخرة المصرية الأخريرة العائدة إلى أرض الوطن . وقضينا شطراً من الليل أتحدث وإياهم عن الحج والحجاز . وسألت بعضهم : ألا يبدون أن يروا بدرًا معي ؟ وكان جوابهم أن ابتمسوا معتذرين . قال أحدهم : « لو أن الطريق إلى بدر كان معبداً لفكرنا في الاستجابة إلى صحبتك ! . أما وأنت أدنى أن تكون مكتشفاً في ذهابك إليها فمأ عذرنا . وسنقرأ يوماً ما تكتبه عنها ، فيكون لك ثواب المشقة ولنا متاع القراءة ، وسنجد في وصفك بدرًا غني عن الضرب في تيهاء الطريق إليها » .

إذ ذاك ناجيت نفسي ؛ أين نحن اليوم من المسلمين الأولين ! أولئك كانوا يذهبون إلى بدر وغير بدر لا تصدهم مشقة ولا يقعد بهم تكاسل . وكانوا يذهبون لا يعنيه الموت فواجههم الموت فواجهوه ، أم أقاموا حين موسم بدر — وكانت من مواسم العرب — فنحروا الجُرُز وسقوا الخمر وعزفت عليهم القيان . أما نحن فرغب عن بدر وزيارتها حذر مشقة الطريق ، وإن ذهبنا إليها في السيارة ، لأن بدر لم تبق موسماً ، ولأن الكتب لا تذكر لزيارة شهداء بدر والسلام عليهم ، إذكارةً لعبرتهم وتأسياً بمثلهم ، ثواباً نقتضيه كما يقتضى المرابي ربا ماله . والفرق في ذلك بيننا وبين السلف الأول أنهم كانوا ينفقون من جهدهم ويبدلون حياتهم ابتغاء رضا ربهم يرجون ثوابه ويعشون عقابه ، وعند الله حسن الثواب ، وأننا لا نبذل جهداً ، ونضن بحياتنا إلا على أهوائنا ، فإذا دعينا لخير أو بر اقتضينا المثوبة عنه معجلة ، أو اقتضينا بهذه المثوبة على الله صكاً يسجله عالم في كتاب من كتبه ، نزع أنه يكون حجتنا على الله يوم الحساب .

وقضينا بفندق المسيجيد ليلة كليلتنا بفندق آبار بنى حصان ، فلما تنفس الصبح قمنا وقام أصحابنا ، فأعاد كل متاعه إلى سيارته . وذو قرن الشمس ونحن على الطريق إلى الحمراء . والطريق يجري في واد فسيح تنبت فيه بين حين وحين أغراس من أشجار شتى . تلك خيوف منشورة بين المدينة وينبع على طريق بدر . ( وقد تواضع القوم في بلاد العرب اليوم على أن الخيف

مجموع بساتين تأخذ وجبتها من الماء كل أربع وعشرين ساعة ثم يقطع الماء عنها ليصرف إلى خيف غيرها . والخيف فيما تروى المعجمات : ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء) . ويمر الإنسان في ذهابه إلى الحمراء بخيف الحزاي وأم ديان .

ومن الحمراء يسير الذين يقصدون ينبع في طريق عبء للسيارات يؤدي إلى منطقة نقب الفار ، وقد سمي الطريق باسمها . أما ونحن نقصد بدرأ فلنا طريق آخر . أين هو ؟ وكيف يتجه ؟ سألت الجندى الدليل الذى أوفده أمير المدينة معنا فلم يكن أكثر علماً بالأمر منى . لا سبيل إذاً إلا أن نسأل أهل المنطقة . وفى أمثالنا المصرية : « من سأل لا يضل » . وسألنا صغيراً هناك هداًنا طريقاً لم نلبث حين سرنا فيه أن رأينا من موج رماله ما ذكرنا بليلتنا بين بر الشيخ وآبار بنى حصان . ولم يكذبنا حدسنا ، فسرعان ما غاصت السيارة واضطررنا إلى النزول منها وإلى التعاون على دفعها . وفيما تفعل مر بنا بدوى خاطبه الجندى النجدى فى لهجة الأمر فجاء يعاوننا ، ثم ذكر لنا أن هذه الطريق تؤدي إلى بدر حقاً ولكنها طريق أفسدها السيل ولم تمر بها طول العام سيارة واحدة .

نبتت فى هذه الرمال أشجار وحشائش دلتنا على أن الماء منها قريب . لكن ما عسى يجدى الماء واقترابه إذا لم يستعن به الإنسان على حاجاته ، ومنها تعبيد الطرق ! . على أن للحكومة العذر ألا تعبد طريقاً قلّ من يمر به . وإنما لتبادل هذه الملاحظات وتعاون على دفع السيارة إذ مر بدوى يتبع بعيراً له . فلما علم أنا نقصد بدرأ بدت على وجهه الأشعث شبهة ابتسامه ، ثم قال فى لهجة غريبة قولاً لم أفهم إلا قليلاً منه ، فسرّه أصحابى بأننا نغامر باختيار هذا الطريق للسيارة وللبكس . ووقعت عين بعيره على نبات فى الأرض فأقام يرعاه ، ووقف البدوى فى جانبه صامتاً لا يشترك فى معاونتنا ولا يدفع بعيره ليسير . وعجبت لأمره ، ورأى صاحبي عجبى ، فابتسم وقال : وما تعجبك ومرعى بعيره أثنى ما فى الحياة عنده ! فهو يحمل عليه الحاج ومتاعهم ويرتزق من حملة ، وهو يقف إلى جانبه كلما وجد البعير مرعى ينال منه رزقه . وأمسك صاحبي هنيهة

ثم أردف : تلك حياة البادية !

« تلك حياة البادية » ! أثارت هذه الكلمة في نفسى صورة العيش في هذه البلاد منذ القدم ، وصورة العيش في البادية حينما وجدت من أرض الله . ولطالما رأيت البدو في مصر يجيئون إليها من الشام أو من المغرب ويرتحلون عنها أو يقيمون بها ولا تتغير في الحالين عاداتهم ما بقي الارتحال في طبعهم . فالجلوس في خيامهم إذا أقاموا ، والارتحال وراء دوابهم إذا تحمّلوا ، والحديث المتصل ما اجتمعوا ، يقص كل أثناءه من مبالغات الخيال ما لا يجد في الطبيعة المترامية أمامه حدًّا . أليست الطبيعة المترامية مصدر الإلهام الوجداني للمهذب ، وهي مصدر المبالغة الحمقاء للجاهل الذى يرى بعين خياله من الجن في أطوائها ما لا تقع عليه عين بصير ! . وفيم عسى أن يفكر هذا البدوى الواقف الآن إلى جوارنا إذ يقضى الأيام وحيداً مع بعيره ثم لا يجد من يخاطبه إلا أن يلقى إنساناً مصادفة كما لقينا ؟ إنه لا ريب يدع لهواجس خياله العنان تسعده حيناً فتند أمامه جبال الأمل ، وتشقيه آخر فتضيق عليه نطاق اليأس ، ثم لا يجد متنفساً ليأسه ولا لأمله إلا في مناجاة نفسه والتحدث في خياله إلى من لا يراه من أحبته وأعدائه ، وذلك هو الشعر عند أهل البادية الأقدمين ، وهو هذه المقاطيع التي سمعت منها بالطائف الشيء الكثير ؛ والتي تصور النظم الشعرى عند أهل هذا الجليل في شبه الجزيرة .

وأنقذ تعاوننا السيارة من ورطتها في الرمال كى تقف بعد قليل من مسيرها أمام أشجار متشابكة في الطريق . وقطع أصحابي من فروع الأشجار ما أتاح لنا المرور ثم إذا بنا نقف بعد دقائق أمام غدير لا مفر للسيارة من عبوره علّما تسير بعده في طريق خلناه مستقيماً . وخاض دليلنا مياه الغدير وجعل يتحسس قاعه ليرسم للسيارة المكان الذى تمر به . وبعد لأى قذفنا في الأمكنة التى أشار إليها أحجاراً تتركز عجلات السيارة عليها حين انحدارها إلى الغدير . وبذلك نجحنا في التغلب على هذه العقبة الثالثة ، وانطلقنا نسير فوق أرض صلبة لقربها من الجبال . ويرى الدليل ما بي من سخط لهذه العقبات التي تصادفنا والتي كنت

أعزوها بلهله الطريق ، فلا يضيق ذرعاً ولا يبدو عليه التأثر ، بل يهون على الأمر فيذكر أننا اجتزنا أشق الطريق ولم يبق أمامنا إلا أيسره . ونمر بين آن وآن بخيف من الخيوف وبخضرتة الناضرة وشجره النامى ، فيهدأ لمراى الخضرة والماء سخطى ، وأكاد أصدق الدليل وأقتنع بأن المشقة انتهت . وزاد فى أملى أن طال بالسيارة المسير دون أن يقفها موج الرمال أو أن يعترضها شجر أو غدير . وإنا لكذلك فى واد بين جبلين إذا السيارة تغوص إلى بطنها ولا يبقى لها إلى حركة من سبيل . وما أدرى لماذا استشطت غيظاً هذه المرة . وبلغ الغيظ منى أن قلت : فلنعد إلى المسيجيد أو إلى الحمراء لنسلك طريق نقب الفار إلى ينبع حتى لا تفوتنا الباخرة بعد غد . فلما رأيت الدليل ورأيت أصحابى منهمكين فى إخراج السيارة من مغرزا أمسكت عن القول وإن استمسكت بعزى على العودة من حيث أتينا . فقد زالت الشمس ومالت إلى الغرب وما نزال نضرب فى طرق لا يعلم إلا الله أيان متهاها . وقضى القوم ما يزيد على نصف ساعة حتى أخرجوا السيارة ، ثم التفت إلى الدليل فى هدوئه وقال : لم يبق من الطريق إلا أقله ، وبلوغ بدر أيسر من العودة إلى الحمراء وكنت قد سكن روعى وقد حمدت للقوم ما بدلوا من جهد شاق فلم أجادل . وانطلقنا فإذا بنا بعد قليل أمام منحدر وعر لم أدرك كيف يهبط السائق بالسيارة منه ، وكيف يتبعه صاحبه بالبكس . على أن حسناً لم يتردد . وكل ما طلبه أن تغادر السيارة وأن نهبط هذا المنحدر على أقدامنا مخافة أن ترتطم رءوسنا بسقف السيارة فيصيبنا من ذلك أذى . وفعلنا وهبط بعدنا والسيارة تكاد تنقلب به ظهراً لبطن . وعدنا وإياه ، فإذا نحن على طريق صحرى معتدل ، وإذا أمامنا أشجار عالية ما لبثت حسن حين رآها أن دفع بالسيارة إلى غاية سرعتها وخلفنا البكس وراعنا . فلما طال بنا السير ولم نبلغ بدرأ بدأت المخاوف تعاودنا . ووقفنا مترددين عند أشجار عالية ، ثم تخطينا خلالها فإذا ضيعة مطمئنة بينها . وسألنا أهلها عن بدر فقالوا : إنها منا قريب ، فرجوناهم إذا ما رأوا البكس أن يهدوه السبيل ، وعدنا منطلقين حتى اجتزنا منطقة الأشجار إلى البادية

الجرعاء . آنذاك بدا لنا عن بعد سراب لم أحسبه شيئاً . ولكن الدليل أشار بإصبعه إلى ناحيته وقال : هذه بدر .

وهذا حسن لعل البكس يدركنا . ورميت ببصرى إلى الناحية التي أشار الدليل إليها ألتمس في أطواء جوها صورة غزاة بدر من المسلمين الأولين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسهم ، وألتمس كذلك جمع المشركين بجحفله وبعديده وعدته . وقلت لصاحبي : « هل ترى سلك النبي عليه السلام بجيش المؤمنين هذه الطريق التي سلكتنا من المدينة إلى هنا ؟ » . وسكت صاحبي هنيهة يفكر ثم قال : « لا أدري ! ولكنني لا أحسبهم سلكوها . وأكبر ظني أنهم جاءوا من ناحية آبار بني حصان وبئر الشيخ . على أنى لا أقطع بشيء من ذلك ، بل لا أرجحه ، فالطرق في هذه البادية بين المدينة وينبع كثيرة ، وقد اختلفت في الأزمان الأخيرة غير مرة . فتعيين الطريق الذى سلكه رجال بدر الكبرى ليس أمراً ميسوراً » . وأجبت بعد أن فكرت ملياً : « إنك لعلى حق . ورواية التاريخ تشهد بأن هذه المنطقة من الحجاز كانت كثيرة الثمر على عهد الرسول ، وكانت لذلك مقام قبائل كثيرة اتخذت منها حضراً وموتلاً . وما أحسبنا نصادف اليوم فيها هذه البطون والقبائل التي كان النبي يوادعها أو يحالفها كلما خرج إلى سرية من سراياه أول عهده بالمدينة . فقد جنت الأحوال السياسية والاجتماعية على هذه البلاد وحضارتها وطرقها ، فما يكاد شيء مما بها اليوم يشبه ما كان بها في صدر الإسلام . أما وذاك شأنها فحسبنا أننا بلغنا بدرأ ، ولعلنا نجد بها للاستشهاد الحق في سبيل الله ذكراً حسناً » .

وبدأت منازل بدر تتضح معالمها للنظر ، فلم أصدق من أمرها ما رأيت . لقد أحيينا بمصر ذكرى بدر منذ عام ، فبدت لنا يحيطها التاريخ بهالة من جلال وإكبار . هذا إلى أنها كانت قبل الغزوة الكبرى سوقاً من أسواق العرب وموسماً من مواسمهم . وفي غزوة بدر نزل قوله تعالى : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .  
 ألا يجدر بمكان ذلك شأنه في الإسلام ، وكان في الجاهلية سوقاً وموسماً أن  
 تهوى إليه الأفئدة وأن يجتمع الناس حوله وأن يكون مدينة ذات شأن ! فما هذه  
 المنازل التي نرى ، وهي أدنى إلى الأكواخ منها إلى المنازل ، بل إلى الآثار  
 الدارسة منها إلى الربوع المأهولة ! .

لم تضن الطبيعة على بدر بما يُصلحها للمقام والحضر . فالماء بها وعلى  
 مقربة منها وفير . وهذه المنطقة بين بدر وبين المدينة تكاد تعدل منطقة الطائف  
 خصباً . لقد مررنا بين الحمراء وبدر بخيف الحرمان ، وخيف الواسطي ،  
 وخيف دغْبِج ، وخيف الحسينية ، وخيف القارعة ، والخيف الحديد ، وكلها  
 ذات مياه ونبات وشجر ، وبها ضياع تحدث عن شيء من النعمة ونخض  
 العيش . فما بال بدر تبدو دونها جميعاً حياة ونضارة ! . أم بلغ من إكبار  
 الناس للغزوة الكبرى أن آثروا ترك المكان الذي حدثت به لا يقربونه ؟ ! إن  
 يكن ذلك فعل لم فيه بعض العذر ؛ فللاستشهاد مهابة وقداة . وفي طبيعة  
 المهابة أن تباعد بيننا وبين ما تمتلئ له نفوسنا إعظاماً وإكباراً .

وناجيت نفسي : « ترى أية صورة لذكرى بدر أقامها أهل هذه البلاد  
 حيث وقعت » . وأراد خيالي أن يتمثل هذه الصورة . لكنني ما لبثت أن  
 ابتسمت حين ذكرت ما مررت به من المواقف الجليلة في تاريخ الرسول مما لم  
 يخلد سوى التاريخ ذكرها . أم ترى أقام الخلفاء والملوك بيدرسجداً تحدثت  
 قبابه ومآذنه الذاهبة في السماء عن بعض ما حدث يوم التقى الجمعان : جمع  
 المؤمنين وجمع المشركين ! إنني لا أرى أماًى قباباً ولا مآذن . فلا أنتظر  
 ففي هنيهة سأرى .

استدارت السيارة حول المنازل المبعثرة هاهنا وهناك ، فهي بذلك أدنى  
 في نظامها إلى الآثار الدوارس منها إلى مقام الأحياء . ولم يطل بنا السير  
 إذ وقفنا أمام بناء متواضع قيل لنا إنه زاوية السنوسى . ولقينا هناك رجلاً عرفنا  
 أنه سادن الزاوية والموكل بأموورها جميعاً . فسأله صاحبي عن أمير بدر ،

وعلمنا منه أنه غائب عنها . وعجبت لاسم الأمير يطلق على رجل في قرية بل ضيعة شأنها ما رأيت . لكن عجبى زال حين علمت أنه كلمة الأمير تطلق في بلاد العرب على كل وال لمدينة أو قرية أو ضيعة . لو أن هذه التسمية طبقت في مصر لقليل لعمدة القرية إنه أميرها ، ولشيخ العزبة إنه أميرها ، ولكان في مصر ألوف وعشرات الألوف من الأمراء ، ولقد هذا اللقب ما له في نفوس المصريين اليوم من إجلال ! وهل للألقاب والأسماء قيمة إلا بقيمة مسمياتها وما تبعته في النفس من أثر ! .

وسألنا سادن الزاوية : « أنبغى وكيل الأمير ؟ » وأرسل في طلبه حين أجابه أصحابي بالإيجاب ، وألح على الرسول في استعجاله حين رأى دليلنا الجندي الوهابي ينهبه إلى واجب أمير بدر ووكيله . وفتح السادن زاوية السنوسى فتخطينا باباً في مثل تواضع البناء وقلة ارتفاعه إلى فناء ضيق امتد بهو الزاوية عن يمين الداخل إليه . وبهو الزاوية مستطيل يكاد يبلغ طوله خمسة عشر متراً ، وعرضه خمسة أمتار ، وقد فرش بحصير قديم هو أكثر ما في المكان تواضعاً .

وجلسنا أول ما رأينا الحصير وطلبت إلى أصحابي أن يجيئونا بالطعام . فقد أذّن العصر ولم نتناول مذ تركنا المسيجيد وجبة ، وقد أجهدنا ما لقينا في سيرنا من مشقة مرهقة . ولا شيء ألد من طعام السفر البسيط ولا أصح منه . ثم توضأنا بالزاوية . وقمت أدور حولها لعلى أجد في ناحية منها ما يصلح رمزاً لها أوجه إليه عدسة « الفوتوغرافيا » . فلما لم أجد ما يصلح لذلك وقفت عند ركن أسرح الطرف منه إلى ما حولى ، وأفكر وأنا بموقفي في هذه الزاوية ومن بناها ، وفي تصوره وأمثاله الرواقين المسلمين للحياة ، وفي بُعد هذا التصور عما أفهم من روح الإسلام . فهذا الدين يدعو إلى عدم الاكتراث بالدنيا ومادتها ، لكنه لا يدعو إلى الرغبة عنها ، بل هو يدعو إلى السعى للرزق وإلى الجهد في العمل . يقول الله جل شأنه في كتابه العزيز : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْخِرْ أَلْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ .  
 فالذين يبتغون الدار الآخرة وينقطعون لذلك عن الحياة وما فيها ينسون نصيبهم  
 من الدنيا ولا يسعون في مناكب الأرض ليأكلوا من رزق الله وليحسنوا كما أحسن  
 الله إليهم . أم ترى الذين ينقطعون إلى العبادة ويدعون إلى الفقر يبتغون بهما التطهر  
 إنما يفعلون ذلك على أنه خير نصيب يناله الإنسان من الدنيا . وأن إحسان  
 هؤلاء إلى الناس كإحسان الله إليهم إنما يكون بدعوة الناس إلى الفقر والعبادة ؟  
 هذا رأى له قدره واحترامه ، لكنى أراه بعيداً عن روح الإسلام كما أفهمه  
 من كتاب الله الكريم .

وانطلقنا نبتغي ميدان بدر وقبور شهدائها . وليس يحول بين الزاوية وهذا  
 المكان حائل من بناء ، بل يفصل بينهما فضاء فسبح منبسطة هبطت عليه  
 هذه الساعة من موليّات النهار ظلالٌ لم أعنّ نفسي أكان سببها غمام  
 حجب الشمس ، أم أن الشمس توارت وراء الآكام . وفيما نسير في هذا  
 الفضاء الفسيح نبتت أمام النظر أحجار قائمة في صفوف مترابطة . قال  
 صاحبي : « هذه قبور الذين قتلوا هاهنا في الموقعة التي حدثت بين الأشراف  
 والسعوديين من عشر سنوات » . فجأني هذا النبأ فوقفته هنيهة مشدوهاً أسائل :  
 « أغزوةٌ في هذا المكان بين طائفتين من المسلمين ! يا للعار ! إن بدرًا حرّية  
 أن تكون حراماً على المسلمين جميعاً كحرمه مكة وكحرمه البيت العتيق .  
 وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ولم يجدوا من يصلح بينهما ويقاتل التي تبغى  
 حتى تفيء إلى أمر الله ، فحق عليهما أن يجتنبوا القتال في مكان له على التاريخ  
 من الحرمه أنه أول مكان انتصر فيه الإيمان على الشرك وحققت فيه كلمة الله على  
 الكافرين » . قلت هذا والغضب لما فعل الوهابيون والأشراف أخذني منى مأخذه ،  
 فلم يجد صاحبي بُدّاً من أن يُقر رأئي ، وإن كنت أحسبه قد تولاه العجب  
 أن يثير الأمر من حماستي ومن غضبي ما أثار .

وزاد في عجبى وفي غضبي أنهم يطلقون على هذه الغزوة بين الأشراف  
 والنجديين اسم غزوة بدر ، وكأنها وقعت كما وقعت بدر الكبرى بين المؤمنين



والمشركين . قال صاحبي : «هَوْنٌ عليك ! فالوهابيون الغلاة الذين غزوا الحجاز وغزوه باسم العقيدة ، مدعين أن من خالف مذهبهم مشرك كافر . أما وذاك رأيهم فلا تريب عليهم أن يغزوا في بدر وأن يذهبوا إلى أن الله نصرهم فيها كما نصر الرسول على أعدائه » . وصمت هنيهة ثم أردف : « ولم يكن بدَّ أن يدافع أبناء الحجاز عن أنفسهم وقد هاجمهم خصومهم في هذا المكان وشنوا عليهم الغارة فيه » .

وتخطينا مصعدين هضاباً تقع عندها قبور الشهداء الأولين ، شهداء بدر الكبرى . وما لبثت حين اقتربت من هذا المكان أن نسيت الوهابيين والأشراف وغزوتهم وأن هان عندي أمرها ، فقد تعلق كل حسي بهذا المكان الذي طالما رسمته من قبل أمام ذهني ، واستيقظت في ذاكرتي أدق التفاصيل من هذه الغزوة الأولى بين محمد وخصومه ، وكدت أرى أبا بكر وعمر وحزمة وعلياً حافئين من حول الرسول . وتابعتنا تقدُّمنا وتصعيدنا حتى كنا عند هضبة حضرت أمامها في الأرض فجوة أحيطت بسياج من بناء . هنالك وقف القوم جميعاً حول السياج ، وقال سادن زاوية السنوسي : « هنا قبور شهداء بدر رضى الله عنهم » . وسأدنا لسماح هذه الكلمات صمت رهيب شعرت من هيئته بأن قلبي يزداد خفقاً ، وأن جوارحي كلها تزداد تنبهاً ، ثم رأيتني أهدق في قاع الفجوة ، كأنما أرى هؤلاء الشهداء رأى العين وأقول : « السلام عليكم شهداء بدر ، رضى الله عنكم ، وغفر لنا ولكم ! » . وانطلقت أتلو الفاتحة ويتلوها أصحابي جميعاً . ثم انطلقت أُلستنا بالدعاء والاستغفار صادقين من قلوب صادقة في دعائها ، مخلصه في استغفارها ، أشربت للراقدين في هذا المكان حباً وإعظاماً ، وللذين جاهدوا في سبيل الله إكباراً وتكريماً .

وبعد فترة لا أدري أطالت أم قصرت تحدث أحد أصحابي مشيراً إلى لوحة نُسبت في الصخر حيث كان يقف وقد كتبت عليها هذه الآية الكريمة :  
 « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا » .

يا للعجب ! لقد سمعنا هذه الكلمات قبل اليوم عشرات المرّات ، وكنا في

كل مرة نسمعها في إكبار وتقديس كإكبارنا وتقديسنا كلما سمعنا آى الذكر الحكيم . أما اليوم فكان لها في نفوسنا من عظيم الأثر ما اهتز له كل وجودى من شعر رأسى إلى أخمص قدمى . وتمنيت صادقاً لو كنت قد أبلت مع الدين أبلوا في بدر فاستشهدت مثلهم وثويت في قبر من هذه القبور معهم . ما أعظمه في الحق فوزاً وفخراً ! وما أجلها غاية يهنأ الإنسان بها أن يستشهد في سبيل إيمانه بالله . فما الحياة إذا غاض منها الإيمان وتضعضت فيها العقيدة ! إنها تفقد إنسانيتها ويصبح الشخص فيها حيواناً شأنه شأن سائر الحيوان ، همه أن يأكل ويشرب ويتناسل لإجابة لدواعى الغريزة ودوافع الاحتفاظ بالنوع . وإذا استوى الإنسان والحيوان فلا خير في الحياة . فإنما يتميز الإنسان على الحيوان بحياته المعنوية . والعقيدة والإيمان هما سر هذه الحياة المعنوية وقوامها ، فإذا غاض هذا السر وضمير ضميرت إنسانيتنا حتى تغيض ، وزدنا بذلك حيواناً كل الفرق بينها وبين غيرها من الحيوان أنها تنطق ، ولكن كنطق الببغاء ، نطق تقليدى لا اجتهاد فيه ، وأنها تسير على قدمين بدلا من أن تزحف أو تسير على أربع .

العقيدة والإيمان سر الحياة الإنسانية وروحها ومظهرها ، بل هما الحياة الإنسانية وسبب وجودها ، ولولاها لما كان لهذا الكون بالإنسان حاجة ، ولما كان لوجود الإنسان فيه سبب . وقيمة الحياة الإنسانية أن يتحققا فيها ، أو تصبح هذه الحياة عبثاً يجب أن يتنزه مبدع الكون عنه . والعقيدة والإيمان أعظم قوة في الحياة . أمامهما تندك الجبال وتضطرب الرواسى وتخر تيجان الملوك ساجدة وتتحطم تحطماً . وهما اللذان سارا بالكون والحياة إلى ما بلغنا من تقدم . وهما لذلك الجديران دون سواهما بأن يضحى بالحياة في سبيلهما . أما ما سواهما في الحياة فأهواء ومطامع لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ولا قيمة لها في التقدير الإنسانى السليم . فالمال والجاه والحكم والسلطان أوهام باطلة وضلال يُمليه الغرور ، لذلك لا بقاء لها على الحياة . وماذا خلف الإسكندر للإنسانية بملكه الطويل العريض ؟ وماذا خلف قارون بماله إلا المثل المأثور يطلقه الناس

على المال المتكاثر فيقولون إنه مال قارون ؟ وماذا خلف أولو الحكم والسلطان ؟  
فأما أرباب العقيدة والذين ملأ الإيمان قلوبهم فخلفوا تراثاً تتناقله أجيال الإنسانية ،  
ضخماً كان هذا التراث أو ضئيلاً . ولا يزال الناس يتذكرون حتى اليوم آراء  
سقراط وأفلاطون وأمثالهما من حكماء اليونان وفلاسفتها كما يذكر أولي  
الرأى المؤمنين برأيهم في غير اليونان من الأمم القديمة . وأصحاب المذاهب  
الأربعة الإسلامية أبقى في الحياة أثراً من ملوك المسلمين وأمرائهم جميعاً . وأولو  
الرأى هؤلاء لم يجاهدوا في سبيل آرائهم ولم يبذلوا لها روحهم وحياتهم .  
أما الذين آمنوا وافتدوا لإيمانهم بحياتهم من شهداء بدر ومن إليهم ، وأما الذين  
جاهدوا في سبيل الله بأرواحهم لنصر كلمة الحق ، فأولئك جميعاً أحياء عند  
ربهم يرزقون ، وأولئك تذكركم الإنسانية في إجلال وإكبار ويقول كل واحد  
من أبنائها البررة كلما ذكرهم : « يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

وشهداء بدر القدوة والمثل في افتداء الإيمان بالحياة ، وفي قوة المؤمن بإيمانه  
وفي سمو الإيمان بالحياة إلى المثل الأعلى . فهؤلاء ثلاثمائة من الرجال جاءوا بدرأً  
لا يريدون حرباً ، بل يريدون أن يأخذوا عير أبي سفيان لقاء ما أخرجت  
قريش صفوتهم من مكة بعد أن آذتهم وأبعدتهم عن أموالهم وأهلهم ، فإذا  
أبو سفيان فاتهم ونجا بنفسه وبعيره ، وإذا قريش خرجت إلى بدر بتسليحتها  
وقضيضها وألقت إلى قتال المسلمين بأفلاذ أكبادها ، حتى لم يبق بمكة بعد  
خروجها متخلف قادر على القتال ، أفيقاتل المسلمون هذا الجيش ورجاله  
ثلاثة أمثالهم عدداً وعدة ، وليس لهم من وراء هذا القتال بعد نجاة أبي سفيان  
مأرب ؟ لكن قريشاً جاءت تناجزهم . فلم يبق الأمر أمر أبي سفيان وبعيره ،  
بل صار أعظم من ذلك وأجل خطراً ، صار الإيمان والشرك يلتقيان . ولقد أدرك  
المسلمون هذا الموقف مذ عرفوا خروج قريش تحمى تجارتها ، وأدركوا أنهم  
إن تقاعسوا أو تضعضع ركنهم علت كلمة الشرك وعادوا من أذى قريش  
إلى شر مما كانوا فيه بمكة ، فهان على يهود يثرب أمرهم ، ولم يبق للدين الذي  
بعث الله به رسوله أيد ولا قوة . لذلك تمثلت كلمة المهاجرين حين شاورهم النبي

في قول المقداد بن عمرو : « يا رسول الله ! امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » . وتمثلت كلمة الأنصار في قول سعد بن معاذ محدثاً النبي : « لقد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثقتنا على السمع والطاعة . فامض لما أردت فتحن معك . فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد . وما نكركه أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله » .

لم يكن موقف المسلمين من قريش أمر مال وغنيمة إذآ ، بل كان الإيمان والشرك يلتقيان . لذلك لم يلبث القوم حين نظمو صفوفهم وأخذوا للقتال عهدتهم أن بدت بينهم قوة الإيمان وضعف الشرك : بدت قوة الإيمان المتصل بالله وحده سامية على كل قوة ، فلا يغلبها في الأرض غالب . ولقد استعرضت أمام ذهني وأنا بموقفي من قبور الشهداء هذا المنظر الفذ من مناظر التاريخ ، فبهرتني ما للإيمان من قوة لا تغلب . نزل القريشان منازل القتال ، والمسلمون فيما رأيت من بأس وعزم ، وقريش ما يزاؤون مترددين يقول لهم عتبة بن ربيعة : « يا معشر قريش ! إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته . فارجعوا وخسأوا بين محمد وسائر العرب . فإن أصابوه فذلك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون » . ولولا حدة أبي جهل ودفعه عامر بن الحضرمي ليأخذ بثأر أخيه الذي قتله المسلمون في سرية عبد الله ابن جحش ، ولولا أن اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من صفوف قريش إلى صفوف المسلمين فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دمماً فلم يبق بعد الدم من القتال معر ، إذآ لغلب التردد قريشاً ولا رتدوا على أعقابهم كاسرى الطرف في غير قتال

خاسئين . والآن تبدأ المعركة . انظر ! إننى أراها بعينى فى هذا الوادى المنبسط أمامى تحيط به الهضاب والكثبان من كل جانب . فهذا عتبة بن ربيعة الذى كان يهيب بقومه منذ لحظة أن يرجعوا قد خرج فى سلاحه بين أخيه شيبه وابنه الوليد يدعو المسلمين للمبارزة . ويخرج إليه فتیان من المدينة فيأبى قتالهم وينادى المنادى : « إنما نريد أكفاءنا من قومنا » ، فيخرج حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث . ألا تراهم ! ما أشد ما ترى عيونهم بالشر ! واعجباً ! هؤلاء قوم لا يريدون قتالاً بل يريدون استشهاداً . لقد انقض حمزة على شيبه وانقض علىّ على الوليد كما ينقض البازى على فريسته ، فإذا المشركان مُجندلان ضرجتهما دماؤهما . أما عتبة فيحاول أن يثبت لعبيدة ، فإذا حمزة وعلى قد فرغا من خصميهما يجهزان عليه كما أجهزا على أخيه وابنه . يا لعار هذا الجحفل اللجيب ! أفقدر هؤلاء الذين أجلتهم قريش عن مكة أن ينتصروا عليها وأن يهزموا جموعها . فلتزحف هذه الجموع إذاً حتى لا يبقى لمحمد ولأصحابه باقية .

رفقك اللهم ! هذه جموع قريش تزحف ، وهذه جموع المسلمين تزحف . رفقك بى ورحمتك ! ماذا يصنع ثلثمائة من المسلمين بألف من قريش ! وهذا رسول الله بين المسلمين يعدل صفوفهم . لكن زحف قريش يزيدنا بأساً ، وتفوق عديدها على المسلمين يجعلها تحيط بهم وتكاد تغرقهم فى لجتها . رب ماذا كتبت فى لوحك المحفوظ مصيراً لهذا اليوم العصيب !؟ هذا رسول الله يعود إلى المؤخرة ويقف فى العريش الذى بناه له أصحابه قبل الموقعة وهو أشد ما يكون إشفاقاً من هذا المصير ومن خاتمة المعركة . أين وعد الله النصر إذاً ؟ وهل أثم المسلمون فجزاهم الله بإثمهم هذا الموقف الرهيب ؟

انظر كرة أخرى ! فالآن يتخذ كل فريق فى زحفه مواقف الاشتباك بخصمه ويكادان يلتحمان . والآن يقف رسول الله وجلاً مشفقاً مستقبلاً القبلة متجهماً بكل نفسه إلى ربه يناجيه ويخاطبه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولاك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن

تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعْبَد ! » . ألا تراه ! إنه يمد كلتا يديه ويهتف بربه مستغفراً تائباً داعياً مبتهلاً : وهذا رداؤه يسقط عن منكبيه لشدة توجهه إلى ربه وهتافه به . ويرد أبو بكر الرءاء على منكبيه ويهيب به : « يانبي الله ! بعض مناشدتك ربك ! فإن الله منجز لك ما وعدك » . لكن نبي الله لا يزال يتضرع إلى الله ويستعينه . ها هو ذا جلس في العريش صامتاً وأغمض عينيه كأنه نام . انظر إلى وجهه ! إن أساريره لتنبسط وثرغره لتضيئه ابتسامة الظفر . إنه لا شك يرى في هذه الساعة ما لا يراه غيره ، لقد كشف الله عنه الحجاب فرأى نصر الله منه قريباً . والمعركة تدور هناك في الميدان رحاها لا يدري أحد عم تنكشف . إن قريشاً لعلى ثقة بعددها وعدتها ، فهي تحسب النصر وشيكاً أن يتم . والمسلمون يزيدهم الإيمان في كل لحظة قوة على قوتهم فهم يبطشون بكل مشرك تصل إليه أيديهم بطش عزيز مقتدر .

عد بنظرك الآن إلى العريش ، لقد انتبه رسول الله من نومه . إنه يخرج إلى الناس فينادى فيهم : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . ألا ترى إلى وجوه المسلمين ساعة طرق سمعهم صوت الرسول ونداؤه إياهم بهذه العبارة . ومن من المؤمنين من لا يريد الجنة ! من منهم من لا يريد نعيم الرضوان في رحاب الله بديلاً من هذه الحياة الدنيا وكاذب غرورها ! والجنة للصابرين على البأساء والضراء وحين البأس . والجنة لمن أحسن البلاء في سبيل الله ومن غمس يده في العدو حاسراً . والله ولي الصابرين والذين يستشهدون في سبيله ، يمدهم بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم ثبتيّاً وإيماناً .

لا أرى أمامي إلا خباراً ثار نفعه فحجب الميدان وما فيه ، وكأنما اقتطعه من نطاق الزمان والمكان ليجعله على الدهر آية لقوة الإيمان المتصل بالله له الملك وله الأمر كله . وهذا هو الجو الآن ينكشف فأرى . نعم ! أرى الواحد من المسلمين إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوه إنما تحرك قوة الله يده ، وإذ يحدق بنظره إلى شرذمة من المشركين في إقبالهم عليه يردهم على أعقابهم

فيتألمهم مؤمن من إخوانه يحز رقابهم حزراً ، ويرثيهم في حفرة الموت هلكى ، وأرى رسول الله يأخذ حفنة من الحصاء يستقبل بها قریشاً وينفجهم بها وهو يقول : « شأهت الوجوه » ، فيولون أمام الحصاء فراراً ويمتلئون من رميها رعباً . وكيف لا يولون وقد تجسمت أمامهم قوة الإيمان فهم لا يعرفون لها مدى ولا حدّاً ! ويرون إخوانهم فى الكفر صرعى فيأخذهم الهول ويلتمسون النجاة هرباً ! . وتم كلمة ربك وينجز رسوله وعده فنفر قریش ويطاردهم المسلمون ويعودون بالأسرى وقد امتلأت نفوسهم طمأنينة ورضا .

رأيت هذا كله وأنا بموقى أجيل الطرف فى ميدان بدر . فلما تم للمسلمين النصر تنفست الصعداء وملاً الرضا قلبى ، ثم رجعت بصرى إلى ناحية الهضبة التى تحتضن قبور الشهداء وانفجرت شفتاى عما سمعه أصحابى : « يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

وعاد لى بعد هنيهة هدوء نفسى ، فسرت الهوينى حتى استوقفنى رجل من بدر عند مكان ذكر لى أنه القليب الذى دُفن المشركون من صرعى بدر به ، وأضاف : « إن لون الرمال فوقه داكن لما يلفحه من نار جهنم ، وإنك تحسه دائماً أبداً فى الصيف وفى الشتاء » . ولم أرد أن أدسك هذه الرمال بىدى وإن سد محذتى إلى يده بحفنة منها لأننى خشيت ألا أشعر بدفتها فيتهم القوم حسى ، ولأننى كنت شغلاً عن ذلك بتعرف ميدان بدر وحدوده ومواقف المتقاتلين منه وموضع اشتباكهم فيه .

فن أى ناحية جاء المسلمون إليه ؟ ومن أى ناحية جاء المشركون ؟ وأين العُدوة القصوى ؟ وأين العُدوة الدنيا ؟ وأين مكان الماء الذى أشار ألباب ابن المنذر بن الجموح على رسول الله فنزله المسلمون ؟ وأين مكان العريش ؟ وأين التى الجمعان ؟ هذا هو الذى كان يعينى وعنه كنت أسأل . وقد أجبانى القوم بما لا أعرف مبلغه من الدقة . ذكروا أن القليب الذى دُفن المشركون به يقع بين العُدوة القصوى وبين قبور الشهداء . وقد رأيت أنا تخطينا من زاوية القصوى فى سهل منبسط حتى بلغنا هضبة الشهداء ثم سرنا لم نغير اتجاهنا

حتى كنا عند القليب . فالعدوة القصوى هي إذاً هذه الهضبة القائمة هناك في الطرف المقابل إلى حيث تقوم زاوية السنوسى . أما العدوة الدنيا فتقع في رأيهم بين زاوية السنوسى وقبور الشهداء . وتقوم على مقربة من هذه العدوة الدنيا هضبة أشار إليها دليلنا وقال : هذا قَبْوَزُ عَلَى . وسألت ما القَبْوَزُ (١) ؟ فقال : إنه الجبل القليل الارتفاع ، وأن هذا الجبل هو الذى رأى على منه المشركين وأخبر النبي بهم . وقد دلنى ذلك على أن القوم يذكرون السيرة ذكراً حسناً ، وإن لم يبلغ غاية الدقة . فقد بعث رسول الله على بن أبى طالب والزيد ابن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه حين نزلوا بدرًا إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه . وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان . عرف الرسول منهما أن قريشاً وراء الكتيب الذى بالعدوة القصوى . لكن ذكر القوم للسيرة لم يكنى للاقتناع بصحة ما يعينونه من مواقع الغزوة . فقد رأيت الأماكن التى يذكرونها لا يتفق تحديدها مع ما تصفه الروايات الواردة فى كثير من كتب السيرة .

فأما العريش الذى بناه المسلمون لرسول الله فى مكانه الآن مسجد يسمى مسجد العريش . وهو قد بنى على طراز مساجد مكة بساطة وضيق رُقعة ، مع أن موقف الرسول فيه من أجلّ مواقف حياته . والمسجد يقع اليوم بين دور بدر ، كما يقع مسجد عداس بالطائف بين دور المثناة .

وأن لنا أن نعود إلى زاوية السنوسى لنستقل السيارة إلى يَسْبُع . وفيها نرى فى الطريق سألت سادن الزاوية : أيجىء إلى بدر زوار يقفون عندها ؟ وأجابنى : إن الذين يجيئون إليها قليلون ، وإنهم لا يقفون عندها شبراً كما فعلنا ، وإن منهم من يكتفى بزيارة قبور الشهداء للتبرك بها وقراءة الفاتحة . وقليلون يسألون عما سألت عنه من أمر الغزوة وميدانها ومواقعه فيجيبونهم بما أجاب كثيرون به .

(١) رجعت فى قاموس المحيط فرأيت أنه يذكر أن القوز هو المستابر من الرول ، والكتيب كالتيف ، والجمع أقواز وقيزان . فعلمت أن دليلنا التجدى لم يخطئ فى اللغة حين ذكر قوز على .



وتبسمت من قوله وذكرت ميدان « واترلو » حيث كانت الموقعة بين نابليون وولنجنون ، وكيف صور القوم نموذجاً مصغراً للميدان ومواقف الجيوش المتحاربة منه وأطوار الموقعة فيه تصويراً بارزاً يسهل معه لمن شاء أن يحيط بدقائق الموقعة خبيراً . وليس لموقعة « واترلو » في حياة الإنسانية بعض ما لغزوة بدر من أثر . لكنه العلم وما يكبره من عبدة التاريخ قد أدى بأهل الغرب إلى تصوير هذا النموذج البارز لموقعة « واترلو » ، وهو الجهل الذي نخيم على العالم الإسلامي منذ عصور الانحلال هو الذي أدى بهم إلى ألا يفعلوا من مثل ذلك شيئاً يرسمون به لزوار البلاد الإسلامية المقدسة صورة صحيحة لما حدث في عهد الرسول النبي العربي .

ليس لموقعة « واترلو » ولا لأية موقعة غيرها بعض ما لغزوة بدر من أثر في حياة الإنسانية . فغزوة بدر رمز صادق للاستشهاد الصريح في سبيل العقيدة استشهاده مبراً من كل غاية أو غرض إلا الدفاع عن هذه العقيدة والإيمان بها والدعوة إليها . وهو استشهاد صريح لأنه يتم في ميدان الشرف بين جموع المؤمنين الذين يواجهون خصومهم . ليس يذهب طالبه في غسق الليل ولا في غفلة الناس ليغتال إنساناً أو طائفة من الناس لأنهم خصوم إيمانه وعقيدته ، بل يدعو ثم يدعو ويستعذب الأذى ويضحى بمنافع الحياة في سبيل دعوته . فإذا اجتمع حوله قوم أنسوا في نفوسهم القوة على الدفاع عن عقيدتهم في وجه خصومهم ، وهبوا حياتهم في سبيل هذا الدفاع ومشوا إلى الموت حريصين عليه . ومن حرص على الموت وهبت له الحياة ، حياة خالدة في نعيم الرضا لمن استشهد ، وحياة راضية سعيدة مطمئنة لمن لم تكن الشهادة نصيبه . بدر هي الرمز الخالد السرمدي لهذا المعنى السامي ، أبلغ المعاني الإنسانية سموً وأعظمها جلالاً . أما وذلك شأنها فليس « لواترلو » ولا لأية موقعة غيرها بعض مالها في حياة الإنسانية من أثر .

ترددت هذه العبارة الأخيرة في نفسى والسيارة تنهب بنا الأرض إلى ينبع . فقد خرجنا من ملتويات الطرق ومنعرجاتها إلى بيدااء منبسطة ذاهبة في انبساطها إلى حدود الأفق . ولم تكن رمال هذه البيداء منحلة يخشى أن تغور فيها العجلات ،

بل كانت رمالا شاطئية تتسرب إليها مياه البحر إلى أميال بعيدة فتكسبها تماسكاً وتجعلها صلبة صلابة الأسفلت ، وإن بقيت تحت عجل السيارة أكثر ليناً ومرونة . ولم تكن هذه البيداء مطروقة ، فلم يخط عجل السيارات فيها دروباً واضحة للسائرين ، ولم يقلب بعض الأماكن القليلة التماسك منها ظهراً لبطن . كيف لنا أن نعين اتجاهنا فيها حتى لا نضل الطريق إلى ينبع ؟ ما كان هذا الأمر ليعينني لولا أن « ززم » تبرح هذا المرفأ بعد غد . لكني ما لبثت أن اطمأنت حين رأيت دليلنا الجندى النجدى يذر مجلسه من البكس ويتخذ لنفسه مجلساً في سيارتنا ليهدي السائق طريقه . وأشهد لقد رأيت من مهارته ما أعاد إلى ذاكرتي صورة ما كنا نحفظه من الأدب العربي القديم عن دقة العرب في قص الأثر . بدأ فصور لنفسه موقع ينبع وجعل يصدر أوامره للسائق بالسير إلى اليمين أو إلى اليسار كما يفعل ربان السفينة إذ يصدر الأوامر من مجلسه فوقها إلى الذين يديرون المحركات في قاعها . والسائق يسير بأمره منطلقاً في هذه البيداء المترامية مطمئناً إلى أنه لم يضل طريقه . وبعد ساعة وبعض الساعة من خروجنا من بدر ، بدت على الرمال آثار مبهمه لم أحسبها شيئاً ، وأيقن دليلنا أنها الدروب إلى ينبع . وأقر حسن رأيه فزاد في سرعة السيارة إلى غاية ما تطيقه . ومم نخشى وليس في طريقنا إنس ولا أثر لحياة ، وليس فيها شبهة حجر تمر السيارة فوقه ! . واطمأن الدليل إلى أنه أدى واجبه فألقى إلى بنظرات راضية من عيون دعجاء شديدة البريق ، وكأما يسألني العفو عما سلف في طريقنا بين الحمراء وبدر . وشكرته وأبدت عظيم إعجابي بمهارته ونسيت له ما قال عن أهل بدر ممن يقيمون اليوم بها .

فقد ذكرت إذ عدنا من ميدان الغزوة الكبرى إلى زاوية السنوسى متخطين مقابر الأشراف والنجديين ممن دنسوا هذا المكان بالقتال فيه ، أن هذا البلد يجب أن يكون حراماً ، ويجب أن يعرف المسلمون لأهله من الحرمه مقامهم عند الشهداء . فنظر النجدى إلى سادن زاوية السنوسى وإلى أفراد من القرية جاءوا إلينا وانضموا إلى جمعنا نظرة كلها الازدراء لهم وعدم الاكتراث بهم

وقال : « أهل بدر قوم ضعفاء » . يريد بذلك أن الضعيف غير جدير بحرمة ، وإنما الجدير بها من يقدر على الدفاع عنها . ولم أعقب على عبارته هذه وانتظرت تعقيماً من وجهت إليهم فإذا هم سكوت لا ينبسون . ومع ما دلني ذلك عليه من أن الرجل على حق حزاً في نفسه أن تُصيب أهل بدر هذه المهانة وقد شهدت أرضهم فوز الإيمان على الشرك في غزوة بدر الكبرى .

أنستني مهارته قائلته ، وأنسانيتها هذا المساء المقبل البديع . فقد بدأت الشمس تتوارى بالسحب ناحية الغرب ، وبدأت هذه البيداء تكسوها ظلال رقيقة تزيد بسطتها بهاء وروعة ، وتزيدنا بها وبصحبتها متاعاً وسعادة . وقال صاحبي مشيراً إلى ناحية اليمين : « هذه جبال رَضْوَى » . لم أر أنا بالعين المحرودة إلى ما وراء الأفق جبالا ، ولم أفكر في الاستعانة بالمنظار المكبر . فقد كنت سعيداً بأننا على هدى في طريقنا ، وكنت أشد حرصاً على أن أرى طلائع ينبع منى على أن أرى أشباح رضوى وما يثيره في النفس من ذكريات .

« هذه الآن طلائع ينبع » . كذلك قال الدليل مشيراً بيده إلى ناحية اليسار فيما أمامنا . وأسرعت إلى المنظار المكبر فصدّق الدليل وكشف لي عن موج البحر . وانطلقت السيارة تنهب الأرض في سرعة كأنما جن جنونها . وفي دقائق تبدى البحر وتبدت طلائع الثغر للعين المحرودة . وبعد دقائق أخرى كانت السيارة تدور حول أسوار المدينة تبتغي مدخلها لتبلغ بنا دار مضيئنا .

وتلقاني القوم في هشاشة وترحيب ، وأشفقوا مما لقيت طيلة نهاري من وصب حين وصف أصحابي طريقنا من الحمراء إلى بدر . لكنني لم أكن أشعر بمشقة ولا بتعب . لقد كنت سعيداً بما رأيت ، وبما أثار في نفسي من المعاني البالغة غاية السمو . فلما آن لي أن أطمئن إلى مضجعي زدت بما انتشر أمام ذهني من ذلك سعادة ورضا . رضى الله عن أهل بدر وغفر لهم ، فهم جديرون حقاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً !

## أوبة الرضا

أصبحت بينبوع مطمئناً سعيداً . وهبطت إلى غرفة الاستقبال فألقيت بها قوفاً من أهل البلد تفضلوا بزيارتي . فلما تبادلنا الحديث عجبت أن تكون لمجة أحدهم أدنى إلى المصرية ، وحسبت السبب في ذلك محاذاة ينبوع مصر . لكن الرجل أسرع فذكر لي أنه مصرى المولد . وأن له بينبوع بضع سنوات احترف فيها مهنة التعليم ، وأن به إلى مصر هوى لولا ما يمسكه من لطف أهل البلاد به ومن شغفه بالأماكن المقدسة . وشعرت لحديثه كأنما هزني إلى مصر شوق زادني هوى إليها . يا عجيباً ! أذلك سر ؟ لقد رأيت من أمثاله كثيرين بمكة وبجدة وبالمدينة فلم تحرك لقيابهم هذا الشوق في نفسي . تسمى أفي نبرة هذا الرجل سلطان على هذه الناحية من النفس لم يكن للذين لقيتهم قبله ، أم السر في هذه المدينة التي نتحدث فيها ؟ إذ ذاك ذكرت ما يحرك اقتراب الأوبة إلى الوطن من حنين النفس إليه وما يشتد بنا من الشوق إلى الأعزة فيه عند وقوفنا على شاطئ البحر الذي يصل بيننا وبينهم ، وكأنما تحمل إلينا أمواجه من روحهم ما لا يحمل إلينا الأثير ونحن نضرب في الأرض . أم أن اقتراب اللقيا يحرك في النفس لواجع تظل حبيسة لا تثور ما كان الأمل في اللقاء بعيداً ، فإذا تنسمنا ريح الوطن يدنو تمثلنا صدور الأعزة تقرب من صدورنا ، وقلوبهم تمتزج بقلوبنا ، فرفت في جوانحنا عواطف الود والمحبة تريد أن تطير بنا إليهم وتخلف وراءها ما بقي بيننا وبينهم من أيام ! .

وخرجت من الدار مع أصحابي لزيارة أمير ينبوع ، فعلمت منه أن « زمزم » رست في المرفأ وأنها قيد النظر . وشربنا القهوة النجدية والشاي واجتمعنا بذلك العود الذكي الرائحة والدائع اليوم في البيئات الرسمية بالحجاز . وتناول حديثنا سفر « زمزم » ومرفأ ينبوع وما يجده المنتقل منه إلى البواخر الكبيرة من مشقة إذ تنقله الزوارق الصغيرة من الشاطئ إليها في بحر مضطرب الموج

أكثر الأحيان . وتابعتنا الحديث في اتصال البلاد التي تتكلم العربية جميعاً ، وفي سهولة المواصلات بينها ، وفيما أدى ذلك إليه من ارتباطها من قبل في الوحدة الإمبراطورية الإسلامية ، وأسفنا لحناية الدهر على هذه الروابط ولتفريط المسلمين في العمل على إعادتها ، وانتهينا من ذلك إلى حلو الأمانى . ولم يكن حديثنا في هذا كله ليتعمق في الأمور أو يقصد إلى شىء من الوقوف على أسرارها . فينبع بلد صغير ، وأهله وأميره وحاشية الأمير فيه أكثر عناية بشئونه المحلية الخاصة منهم بشئون التاريخ وأطوار الحياة . وهم كأعيان ريفنا المصرى كرمًا وترحيبًا وحسن لُقبًا . ولقد غادرتهم شاكراً لطفهم ، شاكراً للأمير ما أبدى من حرص على طمأنينتي حتى أبلغ الباخرة ، ذاكراً له أن مُضيفي وأهله قد بلغوا من هذا الحرص ما طوقوا به عنقى وما جعل لهم عندى يدأ لا تنسى .

وانطلقنا في ميادين فسيحة من أرض ينبع نبتغى الشاطئ حيث ضربت البعثة الطبية المصرية خيامها ، فشربنا قهوة مصرية وقضينا من الوقت ما بقى إلى الظهر . وعدنا إلى الدار فأقمنا بها فلما اقترب المساء أقبل علينا فيها إخوان من المصريين تحدثوا في سفرنا ظهر غد . وكان حديثي معهم حديث طمأنينة ورضا وشكر لله على توفيقه إيانا في سفرنا ومُقامنا منذ عزمنا الحج حتى أتممنا مناسكه وزرنا قبر رسوله الكريم فصلينا وسلمنا عليه ، ورجونا الله واثقين من إجابته رجاءنا ، أن ييسر عودتنا كما يسر سفرنا ، وأن يهدينا بفضله صراطه المستقيم .

وأصبحت فأعددت متاعى للسفر ، وودعت مضيفي شاكراً ، وذهبت ومن صحبني إلى « الجمرک » ، ثم أفلنا زورق صغير إلى الزورق البخارى « السويس » ليُقِلنا إلى « زمزم » . ونحن في شوق أى شوق إلى ركوب ظهرها . ولقد كنا السابقين إلى الزورق البخارى فلم يصله غيرنا إلا بعد ربع ساعة من مجيئنا له . ووقفت عند مؤخرته أحديق في الشاطئ وما عليه . ما أعظم هذا الحشد الهائل هناك ! ما أشدهم تدافعاً بالمنكب . أولئك الحجاج

المصريون الذين عزموا العودة على زمزم وعلموا أنها تُبخر بعد ساعات ، فهم مشفقون أن تفوتهم ، وهم لذلك يقتتلون يريدون النزول إلى البحر لإدراكها قبل أن تطلق لمحركاتها أعنتها . انظر إلى هؤلاء الجنود حولهم يريدون تنظيمهم فيأبى أقوياءهم إلا أن يتقدموا الضعفاء ، وكأنما نسوا الحج وما يجب عليهم بعده من حماية الضعيف وعدم الاعتداء على حقه ! هذه معركة تقوم بين بعضهم وبين الجند . لكنها ليست حامية . إنها سرعان ما هدأت وعاد القوم إلى احترام النظام . ويجيء بعد ذلك إلى زورقنا بعض ذوى المكانة من العائدين إلى مصر فنلقاهم بالترحاب وقد عرفناهم جميعاً أو عرفنا أكثرهم بمكة أو بالمدينة . أما ذلك الجمع الحاشد على الشاطئ فقد أعدت لهم « صنادل » فسيحة الرحاب تتسع لهم جميعاً ويسحبها زورقنا بعد أن يتم عليها جمعهم . ولو أدرك أقوياءهم ذلك ما تدافعوا بالمناكب ولا اشتبكوا بالجنود مادام آخرهم سيلحق على الصندل بأولهم ثم يبلغون الباخرة جميعاً في وقت واحد . أم أن الناس درجوا على أن يتنافسوا وأن يستبقوا وإن في غير موضع لمنافسة أو سبق ، وألغوا أثناء تنافسهم أن يشتبكوا وأن يقتتلوا ثم لا يصيبهم من ذلك خير وقد يصيبهم منه الضر والأذى !

وإنا لفي موقفنا نشهد ما يجري على الشاطئ إذ أقبل علينا ممثل شركة مصر للملاحة البحرية ينبتنا بأن « زمزم » لن تُبخر اليوم بسبب هياج البحر ، وأن من الخير أن نعود إلى ينبع نقضى بها إلى بكرة الصباح . وفيما هو يحاورنا ونحاوره في ذهاب « السويس » بنا إلى زمزم لنقيم بها ، أبحرت اليوم أو أبحرت غداً ، أقبل مضميني وطلب إلى أن أعود معه . وشكرت له دعوته واعتذرت إليه عن إجابته بأني وقد ركبت البحر معتمراً السفر فلن أعود إلى الشاطئ ، ولن أذرَ البحر حتى أبلغ غرضي أو يقضى الله قضاءه . وألح الرجل في الدعوة حرصاً على راحتنا وطمأنينتنا . ورأيت بعض الذين معنا يميلون إلى العود لينبع حدَرَ البحر وهياجه . أما أنا فأصررت على البقاء ما دمت قد عزمت السفر ، ولم أنزل عن رأبي . وذلك دأبي . أذعه عناداً أو أدعه ما شئت ، فهكذا خلقت : لا أرجع عما بدأت حذر مشقة أو خوف عناء . فالمشقة لا قيمة لها

عندى . وأنا اليوم أكثر استهانة بها بعد أن قضيت بالحجاز ستة أسابيع أصعد في الجبال وأجوب البادية وأقضى الليل بالمُسَيِّحِجِدِ أو بنى حَصَّانِ في منازل خير منها العراء . وليس في ينبع ما تهوى إليه النفس من أثر يزار أو علم يستفاد . ومهما يبلغ البحر من هياجه فالمقام على ظهر « زمزم » والتمتع بنسيمه الجميل خير من كل ما يدعوتني إليه . ولم يجد مضيبي بدءاً آخر الأمر من الإذعان لمشيئتي ، وكل الذى صنعه فضاغف به لطفه وثنائى عليه أن ترك من السجائر ما يكفينى يومين كاملين .

وغادرننا مضيبي ومندوب شركة الملاحة إلى زوارقهم يصحبهم من آثروا العودة إلى الشاطئ انتظار الغد . وانتقلت أنا إلى قمرة على الزورق جلست فيها وحيداً أفكر في هذا التأجيل لسفر « زمزم » من ينبع ، وأذكر حادث « كوثر » إذ نحن بمرأى من جدة أول ما بلغنا الحجاز ، وأتمس في الحادثين آية من الله وعبرة لنا . ولم يطل بي التأمل إذ رأيت الحجيج على الشاطئ وما يزالون في تدافعهم بالمناكب وفي تنافسهم وحرصهم على السبق إلى « السنابك » . ألم يأتهم نبأ البحر وهياجه وزمزم وإرجاء سفرها ؟ أم أنهم مثلى لا يريدون الرجوع عن أمر عزموه ؟ وسألت ربَّان زورقنا الذهاب بنا إلى « زمزم » كما نقضى الليل بها ، فاستهلتنى حتى يرى ما يكون من أمر زملائى الذين يغدون إلينا ، ولا يحول دون وفودهم لإرجاء السفر . فلما أذن العصر لم ير بدءاً من الذهاب إلى « زمزم » حتى لا يشق علينا المبيت بزورقه وليس فيه من أسباب العيش ما ألفتنا . ووقف في غرفته التى كنت أرقب الشاطئ منها وصفر لينيته رجاله بصفيره إلى أنه سيصدر إليهم أوامره ، وبدأ يلقي بهذه الأوامر من بوق في الغرفة بلغة لم أفهم أكثر ألفاظها لأنها اصطلاحات فنية لا تقيدتها مجامع اللغة في المعجمات ولا يفهمها لذلك إلا أهل الفن ! .

وبعد سوية انطلق الزورق ميمماً شطر زمزم ، وربَّانَه في موقفه يلقي أوامره ويمسك بيده عجلة القيادة . وبعدها عن المرفأ ومبانيه وانكشف أمامنا البحر في جلاله ورهبتة وجماله وسرى إلينا نسيمه وارتفع إلينا رشاش موجه

فبعث إلى النفس السرور والغبطة . وأية غبطة وأى سرور كاتصالنا بالكون في فسحته وعظمته ، ننهل من نوره وهوائه ، ويشتمل نظرنا سماعه وماءه ، ونندمج فيه بكل حواسنا ، ونشعر بأننا ذرة منه ساجدة في نظام أثيره سبّح الكواكب والأفلاك وسبح الأحياء والخلائق كافة . وإنا لفي منتصف الطريق إلى « زمزم » إذ بدأ الزورق يعلو مع الموج يمّنة ويسرة ، ويشعرنا بتأياله وارتفاعه وهبوطه من شدة هياج البحر ما أرجأ سفرنا . هنالك أخذتني نشوة غلبت في نفسي عبث الموج بزورقنا وبطمأنينتنا . هي نشوة ساذجة كثيراً ما يأبى الناس الإفصاح عن مبعثها ، وهي التي تحركهم مع ذلك في كثير من مواقف الحياة تلك نشوة الظفر بالبحر واقتحام موجه على ظهر زورقنا الصغير ، وإقدامنا بذلك على مغامرة خشيت « زمزم » الضخمة العظيمة أن يقدم الناس عليها . ها هي ذى أمامنا وها نحن أولاء نقرب منها . واستعان الربان بمنظاره الكبير ليرى رجالها على سطحها ، وأطلق صفارة « السويس » في أنغام مختلفة لينبههم إلينا كيما ينزلوا السلم لترقى عليه إلى الباخرة . والموج يزداد تقلباً كلما ازدادنا من الباخرة قرباً ، فيزيد في تمايل الزورق وفي ارتفاعه وهبوطه على نحو يبعث إلى النفس الرهبة لولا أننا كنا مأخوذين بنشوة الظفر . وإنا كذلك إذ علا في الجو صفير « زمزم » في أنغام مختلفة كأنما تجيب بها أنغام زورقنا المختلفة . ولم نعن بالأمر بادئ الرأي وحسبناه تحية تبادلها الباخرة الكبرى زميلتها الصغرى ، وتابعا اندفاعنا نشق عباب الموج لا نحفل هياجه . لكن ضجيج « زمزم » انقلب زئيراً ، وجعل يزداد علواً ، وتتقطع أنغامه ويبدو فيها صوت النذير . ماذا يعنون ؟ سألت الربان في ذلك فأجابني : إنهم يندروننا بأمر البحر وشدة هياجه . قلت : فنحن أشد من البحر بأساً ، فلنقتحم ما بقي منه لإيهم . ولم نزل في اندفاعنا نحوهم نجيب صفيرهم بصفير مثله ، وأنغامهم بأنغام ليست دونها نذيراً . لم تبق هذه الأصوات التي ملأت جو البحر أصوات تحية إذآ ، بل انقلبت أصوات إرهاب كآنما تهجم بارجةً بارجةً ، أو كأنما نحن مدمرة تدنو من « زمزم » . وهبطت في الجو كسيف من السحب حجبت



الشمس ، واشتدت الريح فزادت زورقنا على الموج اضطراباً . ويشد في صفيح « زمزم » صوت النذير فيبدأ رباننا يتردد ماذا يصنع على حبه الإقدام والمغامرة ، فأشجعه وأدفعه إلى مزيد من الإقدام وأصور له الظفر وشيكاً يمد إلينا يده . ويزداد صفيح « زمزم » عناداً في النذير ولا ينزل القوم لنا سلماً . هنالك غلب اليأس الربان ، وكأنه ذكر النظام وأنه في إمرة « زمزم » وليست زمزم في إمرته ، فبدأ دوراناً يمهد به لانكوص مدبراً . وثرت به وذكرت له أنا إذا بلغنا « زمزم » لم يكن لرجالها بد من معاونتنا على الرقي إليها . لكن نذير « زمزم » المتصل كان أقوى في نفسه أثراً فلم يعقب واندفع مسرعاً نحو موقفه الأول في المرفأ معتدراً بأنه لن يجازف فيعرضنا لخطر تكون عليه تبعته .

سقط في يدي حين فاتنا الظفر بغايتنا . مع ذلك لم أسف لهذه الموقعة الصغيرة التي غامرنا بها . فقد قضينا أثناءها أكثر من ساعة قطعنا بها هذا التشابه المملول الذي أظننا مذ جئنا إلى الزورق قبيل الظهر فثقل علينا ظله . وما كان أجملها ساعة وأشدها روعة وأكثرها إثارة لمختلف إحساسنا ومشاعرنا ! ولم نكن أقل بها متاعاً أثناء عودنا بعد الموقعة . فسرعان ما اطمأنت النفس إلى حظها حين استدار « السويس » مدبراً ، وفتحت صدرى أستشق فيه هواء البحر الرقيق الصافي واشتملتنى غبطة راضية عقببت ثورتي لقرارنا . ووقف الزورق مكانه الأول والنهار وشيك أن يولي ، والسنايك الراسية عند الشاطئ قد امتلأت بالحجيج ، فلم يبق منهم من ينزل إليها إلا نفر قليل .

وبدأ ربان « السويس » يفكر في أمر هؤلاء وما يصنع بهم . لقد أقبلوا لركوب « زمزم » فايواؤهم وإطعامهم فرض على أصحابها . استقر رأيه مع ممثل الشركة على أن يجيئوهم بالخبز من ينبع وأن يسحبوا الصنادل إلى جوار « السويس » وأن يمدوا إليها النور الكهربى ، وأن يفتحوا قاعاتها لينام هؤلاء الحجاج فيها . وفعلوا ، وكان مشهداً ظريفاً جرّ هذه السنايك الضخمة وعليها هذا الجمع الغفير وربطها بالزورق البخارى الصغير جداً بالقياس إليها . وأضاءتها من الكهربا أنوار ساطعة أرتنا القوم فيها وهم المرح والغبطة والجدل

والرضا . فهم لم يكادوا يطمئنون إلى مكانهم ، وينعمون بالنور يلقى شعاعه عليهم ، حتى أحسوا كأنما يبعث نور الوطن شعاعه إلى قلوبهم ، وكأنما تسرى إليهم من مصر العريضة المحبوبة نعمة أنس وهناء . انفجرت شفاة الكثيرات من الحاجات عن أغاني الحجاج يرتلنها ويرددنها في صوت لا يخلو من رخامة الأثونة وإن خلا من جمال النغم . يا ما أحييلىَ هذا الغناء ! سرت إلينا منه ما اهتزت له الجوانح ، لا من طرب بل من أشواق في النفس ثارت لواعجها وذكريات قريبة بمكة والمدينة انتشر أريجها . ونسمع إليهن يرددن « إمتى نعود لك يا نبي ؟ » يقلنها صادقات ، تصدر من قلوبهن قبل أن تتحرك بها ألسنتهن فتتهز قلوبنا وإن لم تتحرك ألسنتنا . وهل شيء أكثر هزاً للعواطف من كلمة صادقة صادرة من قلب مخلص عن إيمان سليم ! .

ترك الربان غرفته تطفئاً منه ، فقضينا بها ساعات الليل . وما إن تنفس الصبح حتى استيقظ هؤلاء المتون والألوف جميعاً وقد أذن فيهم مؤذن الفجر أن الصلاة خير من النوم . وتحرك « السويس » في الساعة الخامسة من بكرة الصبح يجر معه صندلين ، وسار يقصد « زمزم » في بحر هادئ لا موج فيه بل لا حراك به ، وكأنه لما يستيقظ من هدأة نومه . وبلغنا « زمزم » فأرسيها إلى جانبها وقد أنزلت سائمها وأسرع الذين في الصنادل يرقونها . فلما خلت الصنادل نزلت ومن معي بالسويس وتخطيناها إلى زمزم . وبادت رجالها التحية ثم أخذتهم بما صنعوا حين صدونا أمس عن الصعود بصغيرهم المليء بالنذير ، فاعتدروا بأن البحر بلغ هياجه ساعتئذ وبلغ اضطراب « زمزم » فوقه ، فلم يكن اقتراب السويس منها ممكناً . فإن أمكن حف صعودنا إلى الباخرة وهي فيما هي فيه من هذا الاضطراب خطر لا قبل لأحد باحتمال تسبعته .

وما لبثت حين اطمأن بي المقام في غرفتي أن شعرت كأني عدت إلى مصر ، فاستبدلت باللباس البدوي لباس المصرى . أليس علم مصر خفاقاً على سارية هذه الباخرة ، فلأعد إذاً كما كنت يوم غادرت مرفأ السويس . وكيف لا أفعل ! ألسنت الآن في مصر ! يا لرضا النفس وطمأنينة القلب ! لقد غادرت في منزل الوحي

مصر أبتغى أداء فريضة الحج فأديتها ، وأبتغى زيارة الرسول الكريم في قبره فزرته ، وأبتغى القيام بدراسات في منزل الوحي ففقت بها : كل ذلك وأنا بحمد الله في صحة ومفورة وبنفس راضية ، فاذا أبتغى وراء ذلك ! وهأنذا الآن تقلنى جارية يرف عليها علم مصر وطنى العزيز المفدى . والعلم هو الوطن ، وليس رمزاً له وكفى ، وإن يكن رمزاً فهو كذلك كما أن اسمى رمز لى ، واسمك رمز لك . وأنا إذ أسمع اسمك ترتسم صورتك أمام بصيرتى وأحسبى أراك كما لو ناديتك فأجبتنى . ذلك شأنى إذ أرى العلم : ترتسم لرؤيته صورة مصر كاملة أمامى ، مصر بمجودها المترامية وبنهرها وواديها وصحاريها ، مصر بسائها الصافية ونسيمها العذب وتربتها الحصبة وأزهارها المنبثثة الأريج وثمارها الحلوة الشهية . وترتسم أمامى مصر على التاريخ بحضارتها العتيدة وآثارها الخالدة ، وبفنها وعلمها وبأمالها وآلامها . كيف لا أشعر بنفسى إذأ فى مصر وأنا على باخرة مصرية تحمل علم مصر ! ألا لو أن هذه البخرة جابت بحار الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فبلغت بى القطب ودارت بى حول الأرض لمتأ شعرت يوماً على ظهرها أنى غريب عن بلادى ووطنى ، ولرأيتنى أنتقل عليها وكأنما أنتقل من بقعة فى مصر إلى بقعة غيرها فى مصر ، ولكنك بذلك مغنبتاً دائماً ، سعيداً غاية السعادة .

وتحركت « زمزم » مبحرة حين تكبدت الشمس السماء ساعة الزوال . تحركت ميممة أرض الوطن ، مودعة بلاد النبى العربى ، وقلوب السفّر عليها يتنازعها الحنين إلى الوطن والأعزة فيه ، والتعلق ببلاد النبى العربى والحرمين بها . وانقضت ساعة الغداء والقبولة ، وعاد الناس يلتقون جماعات يتحدثون عن حجهم وما رأوا أثناءه راضين شاكرين فضل الله عليهم ، تطوق ثغورهم جميعاً بسنات طمأنينة وفيض من نعيم ، ويُسعدهم سكون البحر ورقة نسيمه . وأقبل الليل وأوينا إلى مضاجعنا ، فإذا بى أستيقظ بكرة الفجر على أصوات جماعة جعلوا حلقتهم إلى جوار النافذة من غرفى . ولقيت أصحابى بعد الإفطار وتحدثت إليهم فى ذلك ، فذكر كل منهم أنه استيقظ إذ سمع مثل ما سمعت ،

وزاد بعضهم أنه خرج إلى القوم يرجوهم أن يخفضوا من أصواتهم فابتسموا ،  
وقالت سيدة : صلِّ يا أخى على النبي ! . وأضاف أحد أصحابي : « لقد  
جئت من مصر على "ززم" فلم يكن من ذلك شيء ، بل لزم القوم الأماكن  
التي عيَّنت لهم لم يبرحوها . فما لم كذلك اليوم يفعلون ، فيخرجون على النظام  
ولا يراعون ما لغيرهم في الدرجات الأخرى من حرمة ؟ » . وابتسمت للملاحظة  
صاحبى وعقبت عليها بقولى : « التمس يا صاح لهم عذراً . إنهم يوم غادروا  
مصر كانوا لا يزالون يذكرون النظام وسلطانه ، والقانون وأحكامه ، والطبقات  
وتفاوتها ، ويرون ذلك كله ماثلاً فى عمدة البلد وجندى البوليس وفى جبروت  
الأغنياء وذوى الجاه والمكانة . لم يكونوا بعد قد نسوا ما أَلِفُوا سماعه من هيبة  
الحكومة ومن بطش القانون وشدة أحكامه ، وكانوا يرون القانون منقوشاً بأحرف  
من بأس على بندقية الجندى فى الطريق وسوط عذابه فى السجن . لم يكن أحد  
منهم يحسب المساواة التى تحدّثهم عنها حقيقة لها فى الواقع وجود : فكانت  
نفوسهم تغلبى حفيظةً ، وكانت صدورهم تضيق ثم لا ينطق لسانهم من  
العجز والخوف . لذلك كانوا يحافظون على النظام الذى رسم لهم لا عن رضا  
وطواعية ، ولكن حدّراً العقاب الذى يحل بهم لمخالفته . فلما حجوا البيت  
كما حججناه ، ولبسوا الإحرام مثلما لبسناه ، وطاقوا بالبيت وسعوا بين الصفا  
والمروة كتفياً معنا إلى كتف ، ثم لماً صعدنا جميعاً عرفات مُحْرَمِينَ ملبَّيْنِ  
داعين ، رأوا صورة فى الحياة لم يألّفوها ، ولن يألّفوها فى غير الحج . رأوا أننا  
جميعاً سواسية حقاً ، إخوان حقاً ، وأنا جميعاً ضعاف غاية الضعف ،  
صغار كالذرات أمام عظمة الله وجلاله ومهابته . هنالك أصغروا ما بينهم  
وبين غيرهم من تفاوت ، وأيقنوا أن الفقر فخر لمن عرف أن يسمو فوق هوان  
الغنى ، وأن الضعف قوة ما آزره فضل فى النفس وخلق عظيم ، وأن الشحناء  
ليست من طبع الكرام . بهذا الروح عادوا من حجهم . فإن كنت يا أخى  
فى ضيق من حريتهم وكنت حريصاً على أن يعودوا لما أَلِفُوا فى مصر من نظام ،  
فأنظِرهم أياماً فسيرون بعدها من هيبة الحكومة وبطش القانون وسلطان

النظام ، وما يتمثل ذلك فيه من بندقية الجندى فى الطريق وسوط عذابه فى السجن ، ما يردهم إلى حمى هذا النظام الذى يمتته الإسلام ولا يرضاه الله .  
 وأمسك أصحابى عن القول بعد أن فرغت من حديثى . وإنا لفي هذه الفترة من سكوتنا إذ حمل الهواء إلينا حُداءً وترديدًا : « متى نعود لك يا نبي ؟ » ، وفى نبرتها من حلاوة الإيمان وعذوبة الصدق فى التوجه ما جعل قلوبنا تهتف مع القوم : « متى نعود لك يا نبي ؟ » . ترى هل غيّر هذا الهتاف من حبها للنظام الذى ألفت وتوجيهها النقد إلى الذين تغنوا فحركها غناؤهم إلى التوجه لله بالأمل الصادق فى العودة إلى بيته وقبر نبيه حيث الناس سواسية إخوان ، لا يفاوت بينهم مال ولا جاه ولا سلطان .

وفىما نحن سكون نسمع مرّ بنا طبيب السفينة فحيانا وجلس معنا ودعا الخادم ليجيء بقهوة ، وأنبأنا أنا نرسو بالطور ظهر غد وطمأننا إلى أن الحج نظيف هذا العام ، وأنا لن نلقى لذلك بالطور عَسْنَا . ونقلنا الحديث عن الطور من صمتنا إلى الحديث عن مصر وما يجرى فيها . وبذلك انتقلنا خطوة جديدة نحو حياتنا الأولى .

وأرسيينا بالطور ظهر الأربعاء الثامن من إبريل ، فتناولنا طعام الغداء على ظهر السفينة ، ثم نزلنا إلى الحجر فذهبت وبعض أصحابى إلى حِزَاء ( ١٠ ) وجيء إلينا بمتاعنا بعد تبخيره . والحِزَاء لفظ لا تعرفه اللغة العربية بمعناه المعروف بالحجر . فهو مكان قبيح محاط بالأسلاك به مبان غاية فى البساطة لمبيت الحجاج . أما الحِزَاء ( ١٠ ) فحِزَاء أمير الحج ، ولأمير الحج به بيت ينزل فيه حين مرور الحمل بالطور ، وهو بهذه المثابة أول مظهر للنظام والتفاوت يشعر به العائد من الحِجَاز .

وقضيينا بالطور ثلاثة أيام ، محجوزون فى الحِزَاءات بحكم القانون ، وعلينا من الحِزَاءات أمثال حِزَاءات السجن . مع ذلك كانت أيام نَعْمَةٍ ورخاء . فقد كنا فى حاجة إلى استجمام النفس بعد الذى صادفنا فى الحج من هزات مختلفة الأطوار . وكنا فى حاجة إلى راحة الجسم بعد مشقة السير والركوب فى

البادية والصعود في الجبال والانحدار عنها . وكنا في حاجة إلى استعادة صورة الحياة في مصر وما تضطرب به من منافع وأهواء حتى لا نعود إليها وفي النفس نبوءاً ظاهر عنها . وكان بعضهم في حاجة إلى هذه الأيام الثلاثة لينظم فيها مظهره حين عوده إلى بلده ومقابلة الناس فيها بوجه الحاج التقي التقي . ولقد حصلت من استجمام النفس والجسم على ما كنت في حاجة إليه ، واتصلت بالحياة المصرية بمن لقيت من معارف المصريين في المحجر وما كان يرد لي كل يوم من الصحف به .

فلما آن لنا أن يُفسرَحَ عنا وأن تقلنا « كوثر » من الطور إلى السويس ، تفضل الدكتور هريدى مدير الحَجْر فدار بي أثناءه وأراني ما فيه من مواطن الماء الصالح المستشفيات وغرف التحليل والمباخر وما إلى ذلك من آثار العلم وما يطوِّع لمصر أن تكون الحاجز الصحى بين الشرق والغرب . ولئن سرفى أن يكون للعالم بمصر هذه الثقة ، لقد ساعى أن تكون البلاد الإسلامية المقدسة هى سبب الحجر الصحى دون سواها من بلاد العالم ، وألا تكون كذلك إلا في أعقاب أشهر الحج ، كأنما العالم الإسلامى متهم في نظر الغرب بأنه حين الحج مثابة العدوى بالأمراض القتالة . فأما البلاد الأخرى في أواسط إفريقيا وفي غيرها فلا خوف منها . وأما البلاد الإسلامية منفردة كل منها عن الأخرى فلا خوف كذلك منها ، وإنما الخوف من هذه البلاد مجتمعة صادقة التوجه إلى الله وفي سبيل الله .

خرجنا من المحجر إلى « كوثر » ظهر السبت الحادى عشر من إبريل . فلما وقع نظرى عليها وتخطيت رصيف المرفأ إليها هزنى إحساس كذلك الذى يهزنا حين نلقى صديقاً ، تركناه والخوف يساورنا على حياته ، ثم لقيناه يمرح في صحة وعافية . وجعلت أكرر وأنا في طريقى إلى غرفتى : « حمداً لله على سلامتك يا كوثر ! فلما اطمأنتت إلى متاعى عدت إلى ظهرها أنعم بهواء البحر الجميل .

وبلغنا السويس صبح الأحد . وفي الساعة التى انقضت بين وقوف

محركات الباخرة وإرسائها على الرصيف تولانا السأم الذى يتولى المسافر دائماً فى مثل هذه الحال . فلما قرُبنا من الشاطئ أُلقيت قوماً من أهلى وأُلقيت والدى فى انتظارنا . ونزلنا من « كوثر » وتخطينا الجمرك وركبنا السيارة . فانطلقت بنا فى طريق السويس إلى القاهرة . هأنذا على أرض الوطن . لك الحمد زبى ولك الشناء ! وشعرت وقد رأيت أهلى من حولى برضا النفس وطمأنينة القلب إلى أنى أدت وإجباً وقضيت فرضاً وعدت إلى الوطن سالمًا ، ففاض القلب شكرًا لله على جميل رعايته وعظيم نعمته . وبلغنا مصر الجديدة فازداد القلب اطمئنانًا وأُلقيت العين كل ما حولها من المناظر . فلما بلغنا الدار أُلقيت أهلى وأبنائى وقوفًا فى انتظارى وكلهم فى لباس العيد ، وأُلقيت لدى الباب عجلًا ينحدره القصاب ساعة دخولنا ليوزع على الفقراء قربانًا إلى الله أن غنمنا السلامة .

هذه هى المرة الثانية التى يلقى فيها أهلى بمثل هذا الترحاب وهذه الحفاوة حين أوتبى من سفرى . أما المرة الأولى فكانت سنة ١٩١١ حين عدت من أوروبا لأول مرة بعد سنتين من مُقامى بها طالبًا أدرس بجامعة باريس . ولقد سافرت فيما بين ذلك إلى أوروبا وإلى السودان وإلى الشام وإلى تركيا مرات كثيرة ، وقضيت فى بعض هذه الرحلات زمنًا يزيد على ضعف ما قضيته بالحجاز . مع ذلك كنت أعود إلى مصر فيخف أصحابى وأهلى للقائى ، لكن فى غير ضجة وفى غير قربان ، ولا عجب . فقد كنت فى المرة الأولى فى فورة الصبا وبدء الشباب ، وكنت قد اغتربت لأول مرة عن وطنى ، وطالت عنه غربتى ، ثم عدت إليه وأهلى فى شوق لرؤيتى ، فرحون لذلك بمسقدى . وكنت فى هذه المرة الثانية قد قضيت لله فرضًا ، ووقفت بين يديه تائبًا منيًّا ، ضارعًا إليه أن يعفو عنى ، وأن يغفر ذنبى ، ولى فى الله كبير رجاء . وقد ذهبت إلى بيته المحرّم خاشعًا خاضعًا متجردًا من زينة الدنيا مُقرًّا بضعفى وعجزى ، أن يقبل توبتى ويعفو عن حوبتى ويدخلنى بفضلته فى عباده الصالحين . وهم من أجل هذا الرجاء يحتفلون بمقدى فرحين متهللين . وهل الحياة إلا رجاء أن يعيننا الله على أداء واجبنا فى الحياة ؟

ولو علم أهلى ما فتح الله به على حين سرت حيث سار رسوله ، وحين وقفت حيث وقف ، وما رأيت من آيات الله فى مسيرى وفى وقوفى ، لزدادا بمقدمى تهللاً وفرحاً . ولقد رأيت حقاً من آياته الكبرى ، فسمت هذه المواقف بنفسى إلى حيث لم تسم من قبل قط . رأيت نور الله مائلاً فى كل دقيق وجليل من خلقه . ورأيت آية الهدى متجلية يشهد بها كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته . ورأيت سنته فى الكون تتبدى لكل من أخلص إلى الحق وجهه ثابتة لا تبدل لها . رأيت هذا كله رأى العين ، وآمنت به إيمانى بما يقع عليه حسى وما تلمسه يدى ، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية . نعم ! كذب الظن من يحسبون التكاثر بالمال والجاه والسلطان شيئاً فى وجودنا . إنما الشيء الذى هو كل شىء فى الحياة فذلك إيماننا بالحق عن بيّنة ، وسموئنا بهذا الإيمان فوق منافع الحياة جميعاً ، وازدراؤنا هذه المنافع أن يصيب الحق من جرائها مساس . وهل يعدل كل ما فى الكون من مال وجاه وسلطان قسباً من نور الحق وضياء الهدى ! وهل يبقى على الحياة غير الحق وضيائه ! والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ مرداً .

ربنا لك الحمد على ما أنعمت وتفضلت . ربنا فاهدنا صراطك المستقيم . ربنا ثبّت إيماننا واجعل تقواك رداءنا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .



## خاتمة الكتاب

### بين الحياتين : المادية والروحية

أما وقد شهدت من مظاهر الحياة الروحية حينما سرت في أثر النبي العربي ما شهدت ، ورأيت كيف فعل الإيمان الأعاجيب في مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة ، فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان ؟ أفكان ذلك عماية منهم وجهلا ، أم أنهم أضلهم هواهم وغرهم بالله الغرور ، ولولا ذلك لرأوا من آيات الله ومن فضله على عباده المؤمنين مالا يغيب عن تامل في خلق الله ومن ألقى السمع وهو شهيد ؟ !

حق علينا إذ نلتمس لهذا السؤال جواباً أن نذكر أمراً نعرفه جميعاً وينساه أكثرنا . ففعل من الناس من ينكر وجود الله ، وأشد الملحدين غروراً وإمعاناً في الضلال يقولون بالطبيعة وسننها أو بالدهر وأحكامه . هؤلاء يمسخهم غرورهم حين تأملهم في الكائنات دون أن يحيطوا بالكون الذي لا يُعْرَف للزمان ولا للمكان فيه بدء ولا نهاية ، وإن عرف الناس جميعاً أن الكون يحول ويتطور إلى ما نعرف أقله ، وما يغيب عنا أكثره . أما من خلا هؤلاء الطبيعيين والدهريين فأولئك يؤمنون بالله وإن أقروا كلهم مسلمين بأن عقولنا المحدود أضيّق من أن يدرك كنهه تعالى ، وسع كرسيه السماوات والأرض . من هؤلاء في عصرنا كثيرون يثورون بتعاليم أورثتنا إياها عصور الانحلال ، لانصراف الحظ الأوفر من هذه التعاليم إلى الجانب المادى من الحياة ، ولأنها تُلبَس الجانب الروحي ثوب المادة وتنحدر لذلك به إلى حيث تأبى العقول التي تنقفت بالعلم فأمنت وزادها العلم إيماناً . هؤلاء جديرون بأن تسمو حياتهم الروحية فوق حدود المادة وقيودها ، وبأن يكونوا لذلك من أشد الناس إيماناً بالله ، لا يُشركون به شيئاً ، ولا يلتمسون الثواب أو المغفرة إلا من فضله .

انصرف الحظ الأوفر من تعاليم عصور الانحلال إلى الجانب المادى من

الحياة وإلى تنظيمه ، وإلى اعتبار هذا التنظيم من قواعد الإيمان . فكيف نسير ، وكيف نستحم ، وكيف نأكل ، وكيف نشرب ، وكيف نلبس ، وما اللباس الحلال وما اللباس الحرام ، وكيف نعاشر أزواجنا ، وكيف نعالج مرضانا ، وكيف نعلم أولادنا ، وكيف ندبر أموالنا ؟ هذا وما إليه قد صار في هذه التعاليم مقدماً على الإيمان وعلى الحياة . وهذه التعاليم تذهب إلى أن مخالفة ما جاءت به معصية يأثم مجترحها لأنها من أمر الله ، وليست رأياً لأصحابها ، ولانصيحة للناس من حق الناس أن يزنوها بالعقل وبما توجه المنفعة في العصر الذي يعيشون فيه . كأنما نسي الذين أورثونا هذه التعاليم أن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر ، وأن الخلفاء الأولين والصحابة والتابعين كانوا يختلفون في الأمر الواحد رأياً ثم لا يطعن هذا الخلاف في إيمان أحدهم ولا في عقيدته ، لأنه لا يمس جوهر العقيدة ولا يخالف ما جاء في كتاب الله .

والواقع أن المسلمين في عصور اجتهادهم وتقدماتهم وسيادتهم حضارة العالم لم يختلفوا إيماناً ولا عقيدة ، وإنما اختلفوا رأياً ومذهباً في شئون الحياة الدنيا . هم جميعاً يؤمنون بالله وما جاء من عنده ، لكنهم اختلفوا في أحكام ما يجري بين الناس من معاملات ، لم يمنعهم من الخلاف رأى رآه من سبقهم في أمر هذه المعاملات .

فالناس تختلف أحوالهم من عصر إلى عصر ، ومن مصر إلى مصر ، وقد تختلف في العصر الواحد والمصر الواحد باختلاف طبقاتهم وأسباب كدهم وعيشتهم . فإذا اختلفت الأحكام في شأنهم فلا جناح في ذلك ولا عجب فيه . ولذلك اختلف الأئمة الأربعة مذهباً وهم مع ذلك الأئمة المؤمنون أولو الورع والتقوى . واختلف مع الأئمة أصحابهم في كثير من الرأى ، فأخذ أهل العصر في بعض الأمور برأى الصاحب وتركوا رأى الإمام . وخالف الأئمة وأصحابهم مجتهدون لم يقيموا مذهباً وإنما عرضوا لمسائل بذاتها اجتهدوا فيها ، فلم يطعن ذلك في إيمانهم ولم يخرجهم من عالم البررة المتقين .

كان ذلك حين كان الناس يقدرون العلم ويحترمونه لذاته ، ويحترمون لذلك

رأى صاحبه ما قصد به وجه الحق . وكان ذلك والأمة الإسلامية في أوج مجدها وعظيم سلطانها تدوى كلمتها في الشرق والغرب ويحسب العالم كله لها حساباً . فلما حلت بالأمة الإسلامية نكبات الشقاق وقام الثائرون في أنحاءها يبتغي كلٌ متجدد نفسه وسلطانها بدأ الجهل يفتك بالعقول ، والحمود يفتك بالأرواح ، وبدأ الناس يرتابون في مقصد صاحب الرأى ويحسبونه لا يدين به عن عميدة حرصاً منه على خير إخوانه المؤمنين ، وإنما يبيده دعاية لنفسه ، ويتخذ من النداء به وسيلة إلى السلطان . هنالك عم الناس الفزع من اجتهاد هؤلاء المجتهدين وقعد بهم هذا الفزع عن تبين الحق في آرائهم ، فرموا الاجتهاد بالمنقصة ، وطرحوه وراءهم ظهرياً ، وقالوا لا رأى إلا ما رأى الآباء ، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمهتدون .

نشأ عن الجهل والحمود أن جهل الناس الحياة الروحية وغاب عنهم معناها فصوروا صورة مادية لا يزيد مداها عما يقع عليه الحسُّ وينحصر في حدود إدراكه . وفي هذه الحدود أجروا عليها الأحكام التي أجروها على الحياة المادية وقضوا في أمرها بما يوجه تصورهم للمادة وشئونها . هذا مع ما هوى إليه تصورهم لشئون المادة بما يتفق مع جهلهم حقيقة أمرها وسنة الله فيها .

دار الزمن دورته ، ولم يكن مفرٌّ من أن تنتج الأسباب نتائجها : خضعت الأمم الإسلامية لغيرها وأذعنت لسلطان من آتاهم العلم مفاتيح السلطان . وبدأ هؤلاء يعلمون الناس مبادئ العلم في الحياة المادية نقيض ما أورثتهم عصور الانحلال . علموهم أن الأرض كروية ، وكانوا قد ورثوا من تلك العصور أنها مسطحة مستوية . وعلموهم أن الأرض تدور حول الشمس وكانوا قد ورثوا أن الشمس تدور حول الأرض : تشرق من المشرق وتغرب في المغرب ، وتنحسها الشياطين حتى لا تنف سيرها . وعلموهم أن كسوف الشمس وخسوف القمر من سنن الكون سببهما تعرض القمر في دورته بين الشمس والأرض ، أو تعرض الأرض في دورتها بين الشمس والقمر ، وكانوا قد ورثوا أن الخسوف والكسوف من آيات رضا الله وغضبه . وعلموهم أن لا شيء مما يقع في الكون إلا له سبب

يدركه العقل إذا استوت لديه أسباب العلم لإدراكه ، وكانوا قد ورثوا أن ما يقع في الكون أبعد من أن يدركه العقل لأنه متعلق بإرادة الله ، وأن إرادة الله لا تخضع لسنة يقع عليها إدراكنا . وعلموهم أن لصحة الأفراد والجماعات ولأمراضها أسبابًا ، وأن التماس هذه الأسباب يطوِّع معالجة الأمراض والمتاع بالصحة ، وكانوا قد ورثوا أن الصحة والمرض من عند الله ، وأن من لإسلام الأمر لله ألا نناقش قضاءه . هنالك بدأ كثيرون يتساءلون : ما قيمة ما أورتنا عصور الانحلال ؟ أو لا يجب علينا لعقولنا أن نجادل فيه وأن نسأل أهل العلم عن أسبابه ودواعيه ؟

رأى جماعة ممن يعلمون الناس الدين في هذا العصر الأخير أن الناس يجب أن يخاطبوا بلغة زمانهم ، وأن ما كان الجاهل يقنع به من قبل لم يبق مقنعًا لمن نال من العلم في عصرنا الحديث حفظًا ، والأمر كذلك خاصة بعد أن أصبحت كلمة العلم الحديث صاحبة السلطان في الأمم التي توجه مصابرها وتحكم في شئونها . أولئك رأوا حقًا عليهم أن يلتمسوا حكمة الله في الأشياء ، وأن يلتمسوا حكمته في أوامره ونواهيه ، وأن يعلموا الناس هذه الحكمة ، وأن يجادلوهم بالتى هي أحسن . لم يبق كافيًا في نظرهم وفي نظر المتعلمين أن يقولوا للناس : إن الله فرض الصلاة والصوم والزكاة والحج وفرض العقاب على من لا يؤديها ، بل رأوا أن يعلموا الناس لماذا فرض الله الصلاة والصوم والحج وماهى الحجج العقلية الدامغة التى تقوم هذه الحكمة عليها ، ومن ثم يترتب الجزاء العادل لمخالفتها . ولم يبق حقًا عندهم أن الحكم في أمور هذه الحياة الدنيا ، ما جل وما دق منها ، قد نزل الوحي بصيغة الأمر فيها ، بل أصبح الحق عندهم أن ما جاء في كتاب الله من أمر لا ريب في أنه الأمر القاطع ، لا النصيحة ولا التفضيل ، هو وحده الذى يجب أن يأخذه المسلمون على أنه الأمر . فأما ما وراء ذلك من منافع الحياة الدنيا فهم أعلم بما يصلح لهم في العصر الذى يعيشون فيه . ولذلك وجب عندهم التفريق بين شئون الحياة ما تعلق منها بالروح والإيمان ، وما تعلق بالخلق ، وما تعلق بالحياة المادية ومعاملات الناس فيها مما يجرى لهم في أمور دنياهم .

وهذا تقسيم يتفق مع مباحث العلم الحديث وما يقوله . فهذا العلم يرى ميادين المعرفة الإنسانية فسيحة لا يكاد يحدها أفق ، وأنها مع ذلك ضيقة محصورة بالقياس إلى الكون وما يترامى إليه إلهامنا من مداه الذى يتجاوز الزمان والمكان ، وأنا لن نستطيع ، وإن بلغنا من العلم أبعد المدى ، أن نظفر بهذا الغيب الذى تتمثله أرواحنا وتتمثله أرواح البعض وتعجز أرواح الكثرة عن امتثاله . لذلك فرق العلم بين ما تقع عليه المعرفة العلمية وما لا تقع عليه ، وجعل ما وراء المادة مما لا تقع عليه هذه المعرفة العلمية . على أنه لم يحدد المادة التى تقع عليها المعرفة وإن قسم العلوم إلى بسيطة مستقلة بذاتها ، ومركبة تحتاج إلى ما تقرره العلوم التى تسبقها من قواعد وسُنَن . وهو كذلك لم ييأس من أن يمتد يوماً إلى بعض أنحاء الحياة النفسية بل إلى بعض أنحاء الحياة الروحية ، مع التسليم بأن ما سيظل غيباً لا يخضع لقواعده سيظل أفسح أمداً بمقدار لا سبيل إلى الإحاطة به عن طريق الإدراك ، وإن سبق إليه الإلهام الإنسانى فى حرصه على أن يعرف مكان الإنسان من هذا العالم فى فسحة مداه ، إذ لا يعرف للزمان ولا للمكان بدء ولا نهاية .

وكانت النظرية السائدة فى العلم إلى زمن غير بعيد تنكر حاجة الإنسان إلى ما وراء مقررات العلم ، وترى فيما لا يمتد العلم إليه خيالاً لا يستقيم مع تنظيم العلم الحياة . لكن أكثر العلماء فى هذا العصر قد عدلوا عن هذا الرأى وأصبحوا يرون فى مقررات الإلهام مما لم يصل العلم بعد إليه ما لا غنى للإنسان عنه . ذلك بأنهم رأوا الحياة المادية وحدها أقصر من أن تلبغ بالإنسان غاية ما تصبو الإنسانية إليه من كمال ونعيم . فالحياة المادية وثنية بطبعها . والوثنية أنانية يغلب لذلك فيها الخوف والفرع . الوثنى يخشى صنمه وهو يملكه ، ويخاله قديراً على نفعه وضره وهو قادر على تحطيمه وإبادته ، وإنما يمسكه الوهم والخوف وتقعده به الأنانية فلا يفعل . والوثنية لا تقف عند عبادة الصنم الذى تصوره أيدينا ، بل تتناول كل عبادة المادة فى أى مظهر من مظاهرها . فعبادة المال وثنية ، وعبادة السلطان وثنية ، وعبادة القوة المادية وثنية . وما تجر إليه الوثنية من

أنانية ومن خوف وفزع قد كان مصدر شقاء العالم ومصدر الحروب المدمرة التي تنشب فيه بين حين وحين . فما لم تلتمس الإنسانية في غير الحياة المادية وفيما وراء ما يقع عليه الحس وإدراكه مثلاً أعلى تصبو إليه ، فستظل فيها الحروب المدمرة وسيظل نصيبها الشقاء .

أما ولم يبق في ذلك ريب فلا مفر من تضافر مقررات العلم ومقررات الإلهام لتنظيم الحياة ، ولا مفر من الإحاطة عن طريق العلم والإلهام جميعاً بحياة الكون إلى غاية ما ندرکه من مدى الزمان والمكان ، لتعرف موضع الإنسانية منهما وما تطبيقه من نشاط فيهما ، لتؤدى رسالتها في الكون على خير وجه ، بأن تبدل في الإنتاج العقلي والروحي أخصب مجهود وأحكمه وأعظمه ، ولتؤدى هذه الرسالة عن إيمان بها هو الحافز الصحيح للعمل المثمر . وتعاليم الإسلام تقتضى صاحبها أن ينظر في خلق الله ليكمل بهذا النظر إيمانه . فواجب علينا أن نقف على كل ما بلغه العلم وأن نحيط به إحاطة معرفة وتدقيق ، لنرشد الناس عن بينة ولنميط لهم عن وجه الحق ، حتى يؤمنوا على علم وليكون علمهم هادياً لهم إلى هذا الإيمان . أما أن نقول لهم إن الله أمر أن تؤمنوا به فأمنوا وليس لكم أن تناقشوا أو تجادلوا ، فذلك ما لا يتفق مع ما قام الإسلام على أساسه من النظر في الكون ومشاهدة آيات الله فيه وتأملها والوصول من ذلك إلى الإيمان به جل شأنه .

والإسلام صريح في هذا ، فهو يقتضى الناس جميعاً أن ينظروا في الكون ليؤمنوا عن بينة ومن غير إكراه . لم يفرق في هذا الأمر بين الرجل والمرأة ، ولا بين العربي والأعجمي ، ولا بين العبد والحر . ولم يجعل لأحد فضلاً في ذلك على غيره إلا بمقدار ما أوتي من العلم وما يطوع العلم من إرشاد إلى الحق والهدى . ولا يعرف الإسلام نظام الكنيسة ولا يعرف الرؤساء الروحانيين ولا يعلق إيمان أحد على كلمة غيره ، ولا يجعل المغفرة لغير الله . وهل كأبي بكر الصديق في حسن إيمانه ودقة معرفته بما جاء الرسول من عند الله به ، وهو يقول للمسلمين يوم اختاروه خليفة رسول الله : « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت

الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم» ! .

الإحاطة بالعلم فى أحدث ما وصل إلیه واتخاذه وسيلة للنظر فى آيات الله ، ذلك سبیل الهدى إلى الإيمان الحق ، وذلك سبیل الحياة الروحية الصحيحة . فالروح تنكر العقل إذا قُيِّدَ النظر وقُيِّدَ العقل معه . من ثم كان الجمود العقلى عدو الحياة الروحية ، لأن هذه الحياة لا تتفتح لتمثل الكون إذا فُرض عليها قيد أيّاً كان نوعه . وهى لا تستطيع أن تمثل الكون إلا أن يكون العقل حرّاً والحواس حرة فى الإلمام بكل ما فيه . وملاك حرية الحواس سلامتها . والحواس المريضة يضطرب ما تقع عليه ، فتنتقل منه إلى العقل صورة فاسدة . فإذا أسلمت الحواس السليمة ما تُسلم به إلى عقل سليم ينتظمه ليبلغ منه غاية ما نستطيع لمعرفة سنة الكون ، كان ذلك خير معاون للحياة الروحية فى تطلعها إلى آفاق أسمى من هذه التى تحدُّ حواسنا وإحساسنا . عند ذلك يتصافر العقل والقلب والوجدان وكل ما فى الإنسان من قوة مدركة ليمد الروح بعرفانه ، وليستمد من الروح ضياءه .

وضياء الروح يهديننا إلى وحدة الكون ووحدة الحياة فيه ، وإن تعددت المظاهر التى نحسبها مستقلة لنسبية إدراكنا . من ثم كانت الحياة الروحية السليمة فى تطلُّعها إلى الحق تصبو دائماً إلى الوحدة : إلى الوحدة بالحب والوحدة بالرجاء فى الله ونوره الذى يضىء الكون كله ، وإلى وحدة الزمان والمكان . وهذه الصبوة الروحية هى التى تصور لنا وحدة الخالق جل شأنه وتجعلها أمامنا حقيقة ملموسة نؤمن بها عن يقين إيمان كل إنسان بما يقع عليه حسه . أما الحياة المادية فانفصالية بطبيعتها . ومهما يعمل قانون الجاذبية لضمها وحدةً مؤتلفة الأجزاء ، فما فيها من طبيعة التوالد يدعوها إلى الانقسام والتقسيم . ولذلك جعل التفكير المادى وجعلت الحياة المادية من الانقسام والتقسيم أساس الحياة وأساس السعى فيها . وعلى هذا الأساس صورت المثل الأعلى للطوائف والأمم والشعوب . والانقسام داعية النضال والحرب ، وهو من ثم سبب الشقاء . فأما صبوة الحياة الروحية إلى الوحدة فتجعل المثل الأعلى مثل تعاون

وتضامن ومحبة . وهذا المثل لا يعرف النضال ولا الحرب . وكيف يعرفهما والغاية التي يتوجه إليها ، وهي رضا الله ، تسع الجميع وتفيض عنهم على تعاقب أممهم وأجيالهم ! لا خوف من أن يضيق هذا الرضا بمن هو أهله ، كما تضيق الأرض بسكانها ، وكما تضيق المواد الأولية دون إمداد الصناعة ، وكما تضيق أسباب الترف في العالم بمتاع أهله جميعاً بهذا الترف . ولذلك يدعو الداعي إلى الحياة الروحية الناس كافة بلا تفاوت بينهم ، ويدعوهم إليها في حمى السلام والإسلام والرضا ، لا فرق بين شرق وغربي ، ولا فرق بين أبيض وأسود وملون ، ولا فرق بين أمة وأمة ، بل هم في هذا الحمى سواسية ، جزاؤهم بعملهم وعملهم بنيتهم ، وأحبهم إلى الله أشدهم حباً للناس ، وأمتهم إيماناً أكثرهم معرفة لخلق الله وعرفاناً لسنته في الكون وعلماً بكل ما يهيئ الله لنا أسباب العلم به .

والناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الدعوة الروحية ، لأنهم يتغنون الحق بفطرتهم . ولولا ما يمد لهم فيه دُعاة المادة من أسباب الضلال إذ يُغفرونهم بمتّع الحياة ولذاتها لانهارت فوارق كثيرة ليس ببقايا إلا هذا الضلال ، ولآمن كلٌّ بأن واجبه الأول أن يهدي غيره طريق الحق ، ولتستأرت الأمم بدل أن تتباعد ، ولأخلصت القصد في سعيها إلى الإسلام بدل أن تجعل من نُذُر الحرب هياكل عبادتها ، ولكانت خُطأ الإنسانية في سبيل التقدم ناحية الكمال أسرع وأهدى سبيلاً . ولو أن الناس لم يتنكبوا طريق الهدى لنعموا اليوم بما يلتمسونه من سعادة . ولعلمهم تنكبوا هذا الطريق لأنهم لا يزالون بعد في جهالتهم ، ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصراً دون هداهم ، والعلم الناقص داعية ضلال .

وحسبك لتدرك الحق في ذلك أن تصور لنفسك أن المسلمين الأولين لم يختلفوا بينهم شيعاً ، وأنهم تابعوا وثبتهم الأثرى إلى غايتها ، وأنهم نشروا التوحيد في ربوع العالم كله على أساس من النظر في خلق الله ومن معرفة سنته ، وأن الناس جميعاً التمسوا العلم في حمى التوحيد ليزدادوا إيماناً ، وأن هذه



الاثني عشر قرنًا التي انقضت منذ خلافهم قضيتها الإنسانية في التماس حقيقة الكون ومعرفة أسرارهِ . أية إنسانية كانت تعمر الأرض اليوم لو أن ذلك حدث ؟ إنسانية بالغة من السمو ما لا أحسبنا ندرك مداه ونحن فيما نحن فيه من فرقة وتنازع على أسباب العيش ، ومن حروب لا تهدأ ثائرتها منشؤها هذه الفرقة وهذا التنازع .

أليس جديرًا بنا ، وذلك ما تدعونا الحياة الروحية إليه وما بلغه سلفنا في ظلها ، أن ننهل من وِردِها وأن نشهد من آثارها في بلاد النبي العربي ومنزل الوحي إليه عليه السلام ، لعلنا نعود سيرة السلف فنثب وثبتهم هدىً لإخواننا بني الإنسان ! . لقد شهدت من ذلك ما سطرته في هذا الكتاب . ويعلم الله أني أود لو أنهل من هذا الورد في كل حين ، وأن أقف حيث وقف الرسول وأن أسير حيث سار ، ملتمسًا في سيرته وفي مواقفه الأسوة والعبرة . فإنني لعلني يقين من أن التأمل في السيرة وموافقها ، وفي التعاليم التي جاء بها الرسول ، خير ما يهدي الإنسانية سبيل الحق والخير والجمال ، وما ينهض بها من دَرَكَ أمسكتها المادية فيه عن السمو إلى مراقى الروح حيث العيش إخاء ومحبة وحرص على العلم بما في الكون ، ليضئ العلم بنوره إخاءنا ومحبتنا ، ويزيدهما إنسانية وسموًا ، ويصل بنا في ظلهما إلى حمى السلام .

لقد حالت الحوائل دون مسيرى في أثر الرسول إلى الشام حيث ذهب صبيًا ، وإلى خيبر حيث ذهب نبيًا . فلعل الله يهيئ لي من بعد أسباب هذا السير فأستكمل به غرضًا هو اليوم أجل أغراض الحياة عندي ، وأزداد به إيمانًا وتبنيًا ، وأنعم به في ظلال الحياة الروحية الوارفة ، وأبلغ من ذلك ما سعدت به من الرضا حين جاورت البيت الحرام وحين زرت قبر النبي عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

## فهارس الكتاب

## فهرس الأعلام

ابن أبي الهيجاء = الحسين بن أبي الهيجاء  
ابن بطوطة ( أبو عبد الله محمد بن

عبد الله بن محمد ) : ٣٩٧

ابن جبير ( أبو الحسن محمد بن أحمد ) :  
٥٠٢

ابن رسته ( أبو علي أحمد بن عمر ) :  
٣٨٠ ، ٣٨١

ابن الرشيد : ١٥٧

ابن السعود = عبد العزيز بن عبد الرحمن  
فيصل آل سعود ملك الحجاز

ابن السليمان = عبد الله بن السليمان  
الحمدان

ابن شبة : ٥١٣

( ابن العاص ( مولد ) : ٤٢١

ابن عبد ربه ( ابن عمرو أحمد بن محمد )  
٣٣٥

ابن عبد الوهاب = محمد بن عبد الوهاب  
الحنبلي

ابن عفراء = معاذ بن عفراء

ابن هبة ( عبد الله ) : ١٩٣

ابن منظور ( جمال الدين أبو الفضل محمد )  
٣٣٤

ابن النجار : ٥٦١

ابن هانيء = أبو نواس

أبو أمامة = سعد بن زرارة

أبو أمية بن المغيرة الخزومي : ٧٤

أبو أيوب الأنصاري : ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،  
٥٨٠

أبو براء : ( عامر بن مالك ملاعب الأسته )  
٣٧٣

آدم عليه السلام : ١٩٢-١٩٤ ، ١٩٦ ،  
آسيا ( باخرة فرنسية ) : ٦٥

أمنة بنت وهب : ٢١١ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،  
٥٥٨

أبان بن عثمان : ٤٨٩ ، ٥٧٧

إبراهيم ( عليه السلام ) : ٤٧ ، ٧٤-  
٧٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٩٠ ،

١٩٢ ، ١٩٤-١٩٩ ، ٢٠١ ،

٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ،

٢٦٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣١٠ ،

٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٦١٥ ، ٦١٦

إبراهيم دقردار مصر : ٢٨٢

إبراهيم بن الرسول عليه السلام : ٩٥ ،

٢١٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ،

٥٥٠ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩

إبراهيم رفعت ( باشا ) : ٤٢٢ ، ٤٤٦ ،  
٥٨٠

إبراهيم بن عبد العزيز بن إبراهيم : ٤٨٩ ،  
٤٩٠

إبراهيم عبد القادر المازني : ٣٤

إبراهيم الغزالي ( الأستاذ ) : ١٦٤

إبراهيم مصطفى ( الأستاذ ) : ٣٤٤

إبراهيم النوري ( المطوف الشيخ ) : ٧٢ ،

٣٨٩ ، ٣٩٨

أبرهة الأشرم حاكم اليمن : ٢٨٥ ،

٣٩٢ ، ٣٩١

ابن أبي مليكة : ٣٧٦

- أبو مويهبة مولى الرسول : ٥٢١  
 أبو نواس : ٢٦٩  
 أبو يعلى = أحمد بن الحسن بن أحمد  
 ابن الحسن الحسيني  
 أبي بن كعب : ٤٥٣  
 أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن  
 الحسيني أبو يعلى : ٥٧٣ ، ٥٧٤  
 أحمد بن حنبل : ١٠٧ ، ١٣٠  
 أحمد خان الأول ابن السلطان محمد  
 خان : ٥٦٢
- أحمد بك المصري (المهندس) : ١٨٣  
 الأحمر بن مازن : ٣٧٠  
 الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد)  
 ٣٨١  
 إديسون : ٢٦  
 أرسطو طاليس : ٢٦  
 أرطاة بن شرحبيل : ٥٣٤  
 الأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله) :  
 ٢١٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩  
 ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦  
 أسامة بن زيد : ٤٢٦  
 أسماء بنت أبي بكر : ٢١٠ ، ٢٥٩ ، ٥٦٧  
 إسماعيل عليه السلام : ٧٣ - ٧٩  
 ١٠٩ ، ١٤١ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ،  
 ١٩٤ - ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ،  
 ٢٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ - ٢٦٥ ،  
 ٢٨٤ ، ٣١٠ ، ٣٩٠  
 الإسكندر الأكبر : ٦٠٩  
 الأسود بن عبد الأسد المخزومي : ٥٣٣ ،  
 ٦١١  
 الأشرف برسباي = برسباي  
 الأشرف قانصوه الغوري = قانصوه  
 الأشرف قايتباي = قايتباي  
 أفلاطون : ٢٦ ، ٦١٠
- أبو بكر رضى الله عنه : ١٤ ، ١٧ ، ١٨٠ ،  
 ٢١٩ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ - ٢٥٩ ،  
 ٣٧٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ،  
 ٤٤٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٧ ،  
 ٤٧٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠٩ ،  
 ٥٢٧ ، ٥٤٦ - ٥٤٨ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ،  
 ٥٥٤ ، ٥٦٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ -  
 ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ، ٥٩٣ ،  
 ٥٩٥ ، ٦٠٨ ، ٦١٣ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠
- أبو جعفر = محمد بن علي بن أبي منصور  
 الأصفهاني وزير الشام والموصل  
 أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي : ١٨٢  
 ٢٨٢ ، ٣٩٢ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٥٢٥ ،  
 أبو جهل بن هشام : ٥٢١ ، ٥٣١ -  
 ٥٣٣ ، ٥٣٦ ، ٦١١
- أبو الحكم بن هشام = أبو جهل بن هشام  
 أبو حمزة = المختار بن عوف الأزدي الأباضي  
 أبو حبيب = عبد الله بن الزبير  
 أبو داود (صاحب السنن) : ٤٦٦  
 أبو سفيان (بن حرب) : ٣٧٦ ، ٤٢٩ ،  
 ٤٣١ ، ٥٣٤ ، ٦١٠
- أبو طالب بن عبد المطلب : ٢١١ ، ٢١٢ ،  
 ٣٧٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٣١  
 أبو طاهر القرمطي : ٣٩١ ، ٣٩٢  
 أبو العباس السفاح : ٥٠٦  
 أبو عبيدة بن الجراح : ٥٢٧  
 أبو عثمان الكنانى : ٥١٣  
 أبو عفاك : ٥١٠  
 أبو العلاء المعرى : ٤٨٧  
 أبو عمارة = حمزة بن عبد المطلب  
 أبو القاسم = محمد الأزدي  
 أبو قطيفة الشاعر : ٥٨٤  
 أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب :  
 ٣٧٤ ، ٥٣١

بلال بن الحارث المرني : ٥٨٤ ، ٥٨٦ ،  
 بلال الحبشي : ٢٧١ ، ٣٨٣  
 بور خارت ( الرحالة السويسري ) =  
 عبد الله بورخارت

## ت

تبع بن حسان ملك حمير : ٣٩١  
 تقي الدين الفاسي : ١٩٧  
 تميم الداري الصحابي : ٤٥٢ ، ٥٠٦  
 توتشل ( شركة البترول ) : ١٣٥

## ث

ثابت بن الجزع ( ثعلبة ) : ٣١٨  
 ثابت بن نغير أمير المدينة : ٥٦١  
 ثعلبة بن الجزع = ثابت ابن الجزع  
 ثوية جارية أبي لهب : ٥٣١

## ج

جيريل عليه السلام : ١٩٣ ، ١٩٤ ،  
 ١٩٥ ، ١٩٩ ، ١٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٨٦  
 جبير بن شيبه بن عثمان : ٢٠١  
 جبير بن مطعم : ٥٣٤  
 جرمانوس = عبد الكريم  
 جعفر بن سليمان : ٤٦٣  
 جعفر الصادق الحسيني : ٥٠٥  
 جماز بن هبة أمير المدينة : ٥٦١  
 جمال الدين الموصلی : ٥٥٧  
 الجواد ( الوزير ) : ٢٢٠

## ح

الحارث بن أبي شمر : ٢٨٠  
 الحارث بن سهيل بن أبي صعصعة  
 الأنصاري : ٣١٨

أفلق ( مولى أبي أيوب ) : ٤٩٩  
 أم إبراهيم = مارية القبطية  
 أم أيمن ( حاضنة الرسول ) : ٤١٧ ، ٤١٨  
 أم الخليفة الناصر العباسي : ٥٤٠  
 أم سلمة أم المؤمنين : ٣٠٧  
 أم كلثوم ( المغنية ) : ٤٩

إمام اليمن ( يحيى بن حميد الدين ) :

١٤٩ ، ١٦٣

أمية بن أبي الصلت الثقفي : ٣٥١

أمية بن خلف : ٥٢١

أمير خيبر : ٣٩٨

أنس بن مالك : ٤٦٦

الأنصاري الخزرجي السلمي = السلمي

أوزونيا ( باخرة إيطالية ) : ٦٧

## ب

بادي ( رجل من بني سعد ) : ٣٨٢ ،

٣٨٣

بارتلمى : ٥٣٨

بايزيد السلطان العثماني : ٥٧٦

البتانوفى = محمد بك ليبب البتانوفى

البخاري ( أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ) :

٣٣٥

بلدر بن معشر الغفاري : ٣٧٠

البراض بن قيس الكناني : ٣٧٢ ، ٣٧٣

برتن الإنجليزي : ٤٢٢

برجسون : ٢٧

برسباي الملك الأشرف : ٢٢٥ ، ٤٦٥

برغوث بن بتير بن جريس الحسيني :

٥٦١

بريدة شيخ قبيلة بني سهم : ٥٧٠ ،

٥٧١

بسمرك الشرق = الملك عبد العزيز آل سعود

بشر بن أبي خازم : ٣٧٢

٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣ ، ٣١٩ ، ٣١٤

٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٠ ، ٣٤٢

حواء عليها السلام : ١٩٤

حبي بن أخطب : ٥٠٨

## خ

خالد بن الوليد : ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٤٠٠ ،

٤٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤١

خبيب بن عدى : ٢٦٧

خديجة حلیم ( الأميرة ) : ٤٨ ، ٤٩ ،

٦٤ ، ٦٧ ، ٤٢٢

خديجة بنت خويلد أم المؤمنين : ١١٩ ،

٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٣٧٤ ، ٤١٦ ،

٤١٨ ، ٤١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٤٧

الخيزران أم الخليفة هارون الرشيد :

٢٢٠ ، ٥٥٨

## د

داود ( عليه السلام ) : ٣٣٦ ، ٤٥٣

داود باشا شيخ المسجد النبوي : ٤٦٨

داود باشا ( ولى مصر ) : ٢١٢

دريفوس : ٥١١

ديكارت : ١٧٩

ديم ( الدكتور ) : ١٦٦ ، ١٦٧

## ر

رزين : ١٩٧

رقيم الأنصارى : ٣١٨

رقية بنت الرسول : ٥٢٨

ريطة بنت أبي العباس : ٥٠٦

## ز

زبيدة زوج أمير المؤمنين هارون الرشيد :

٢١٧ ، ٢٨٧

حافظ عامر ( قنصل مصر فى الحجاز ) :

١٦٢

حافظ وهبة ( الشيخ ) : ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٨ ، ١٦٢ ، ٢٢٣

الحباب بن المنذر : ٦١٤

حبيب بن عمرو بن عمير : ٣١٢

الحجاج بن يوسف الثقفى : ٢٠٢ ، ٣٣٩ ،

٣٤٠ ، ٣٥١

حرب بن أمية : ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،

حسان بن ثابت : ٤٥٥ ، ٤٥٦

حسن بن حسن بن على بن أبى طالب :

٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٥٥١

الحسن بن زيد : ٤٦٣ ، ٥٢٥

حسن بن عجلان أمير الحجاز : ٥٦١

الحسن بن على رضى الله عنه : ٥٠٥ ،

٥٢١

الحسين بن أبى الهيجاء : ٥١٤ ، ٥٥٨

حسين عبد الله بإسلامة : ١٩٣

الحسين بن على رضى الله عنه : ٤٥٧ ،

٤٥٨ ، ٤٧٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٢١ ،

٥٢٥ ، ٥٨١

الحسين بن على الهاشمى ( ملك الحجاز ) :

١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ٤٧٢ ،

٤٨١

الحصين بن نمير : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ،

٢٦٨

حفصة بنت عمر أم المؤمنين : ٤٥٤ ،

٥٠٥ ، ٥٧٩

حليمة السعدية : ٢٨٩ ، ٣١١

حمزة بن عبد المطلب : ١٧٦ ، ٢١٩ ،

٤٨٢ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٤١ ،

٥٤٣ - ٥٤٥ ، ٦٠٨ ، ٦١١ ، ٦١٢

حمزة الغالى ( الشريف ) : ٢٨ ، ٣١٣

السمهودى ( نور الدين على بن أحمد ) :  
٤٤٩ ، ٤٦٤ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ،  
٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٥١ ،  
٥٥٣ ، ٥٥٤ — ٥٥٦ ، ٥٥٨ ،  
٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧٢

سنان باشا حاكم مصر : ١٨٣ ، ٢٦٨  
سنت جون فلبى = عبد الله فلبى (الحاج)  
سنقر الجمالى الأمير : ٤٦٧  
سهيل بن عمرو : ٤٤٩ ، ٤٥٠  
سهيل بن عمرو : ٤٠٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠  
السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله)  
٤٩٩ ، ١٩٧

السويس ( زورق بخارى ) : ٦٢٠  
٦٢٢ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥  
السيد البدوى : ٤٢١  
سيف الدين قطار المعزى (الملك المظفر) : ٤٦٥  
سيرين القبطية : ٥٢٣ ، ٥٧٨

## ش

شاهين الجمالى وزير سلطان مصر الأشرف  
قايتباى : ٥٤٠ ، ٥٥٥ ،  
شركة الهند الشرقية : ١٣٦  
شمس الدين يوسف بن منصور (الملك  
المظفر) : ٤٦٥  
شهاب الدين غازى الملك : ٤٩٨  
شبية بن ربيعة : ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٥٩  
٣٦١ ، ٥٣٣ ، ٦١٢  
الشيبي (الشيخ سادن الكعبة) : ١٨٨  
١٨٩

شيث عليه السلام : ١٩٢ ، ١٩٤

## ص

صالح ( الشيخ ) = محمد صالح الفزاز  
صفية بنت عبد المطلب : ٥٣٥

الزبير بن العوام : ٣٣٤ ، ٥٣٥ ، ٦١٥  
زرقاء اليمامة : ٢٣٩  
زمزم (باخرة) ٣٣ ، ٦١ — ٦٥ ، ٥٩٠  
٦١٧ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢  
٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦

زهير بن حباب : ٣٩١  
زياد بن عبد الله الخارثى : ١٨٢  
زيد بن حارثة مولى الرسول : ٥٣٢  
زيد بن محسن ( الشريف ) : ٣١٦  
زينب أم المؤمنين : ٣٠٦

## س

السائب بن الحارث بن قيس القرشى :  
٣١٨  
سباغ بن عبد العزيز الغبشانى : ٥٣٤  
سراقة بن جعشم : ٤٠٦  
سعد بن أبى وقاص : ٥٢٨ ، ٦١٥  
سعد بن زرارة أبو أمامة : ٤٤٩  
سعد زغلول (باشا) : ١٦٣  
سعد بن معاذ : ٥٨١ ، ٦١١  
سعود بن عبد العزيز (ولى عهد المملكة  
العربية) : ١١٣ ، ١١٤ ، ٣٨٢  
سعيد حلیم (الأمير — الصدر الأعظم) : ٤٩  
سعيد بن زيد : ٢١٨ ، ٢١٩  
سعيد بن سعيد بن العاص : ٣١٨  
سعيد بن العاص : ٥٨٥  
سعيد بن المسيب : ٤٦٠  
سقراط : ٦١٠

سلمان الفارسى : ٥٠٨  
السلمى الأنصارى الخزرجى : ٣١٨  
سليم السلطان : ١٨٣ ، ٤٦٧  
سليمان بن داود عليه السلام : ٣٣٦ ، ٣٣٧  
٤٥٣  
سليمان بن سليم السلطان : ٤٤٤ ، ٤٤٧

عبد الحميد حديدي ( الشيخ ) : ٢٨ ،  
٢٠٧ - ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،  
٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ،  
٣٩٨

عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٦٨ ، ٥٦٧ ،  
عبد الرحمن بن عوف : ٥٢٣ ، ٥٢٨ ،  
عبد السلام غالي ( الشيخ ) : ٨٣ ،  
عبد العزيز بن إبراهيم أمير المدينة : ١٥٢ ،  
٣٩٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٥٧٢ ،  
٥٩٠

عبد العزيز الحريجي ( السيد ) : ٤٢١ ،  
٥٩٠ ،  
عبد العزيز السلطان الخليفة العثماني : ١٩١ ،  
٤٨٨

عبد العزيز بن عبد الرحمن فيصل آل  
سعود ملك الحجاز : ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٧ ،  
٥٤ ، ٨٦ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٣ ،  
١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ،  
١٤٧ - ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٧ ،  
١٦٣ - ١٦٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٢٢ ،  
٢٢٣ ، ٢٩٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ،  
٣٧٨ ، ٣٩٦ ، ٣٩٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٨ ،  
٤٨٢ ، ٥٩٠

عبد القدوس الأنصاري ( الأستاذ ) : ٢٩ ،  
٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٩٢ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ،  
٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٤١ - ٥٤٣ ،  
٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ،

عبد الكريم جول جرمانوس : ٣٩ ،  
عبد الله بن أبي : ٥١١ ، ٥٨١ ،  
عبد الله بن أبي بكر الصديق : ٢٥٥ ،  
٢٥٦ - ٢٥٩ ، ٣١٨ ،  
عبد الله بن أبي بن سلول : ٥٧٧ ،  
عبد الله بن أريقط : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،  
عبد الله باشا باناجي : ٣٤٢ ،

صلاح الدين الأيوبي : ٥٠٢ ،  
صهيب : ٥٦٧ ،

## ط

طاهر الدباغ ( الشيخ ) : ١٦٤ ،  
طلحة بن عبد الله بن ربيعة : ٣١٨ ،

## ظ

الظاهر برقوق : ٢٢٥ ،  
الظاهر بيبرس البندقداري : ٤٦٥ ،  
الظاهر جقمق : ٤٦٥ ،

## ع

عادلة سلطان بنت السلطان محمود : ٥٦٢ ،  
عامر بن الحضرمي : ٥٣٣ ، ٦١١ ،  
عامر الربيعي : ٣٥٧ ،  
عامر بن فهير مولى أبي بكر : ٢٠٦ ،  
عائشة أم المؤمنين : ٢٠١ ، ٢٠٢ ،  
٢٦٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩ ،  
٥٢٢ ، ٥٤٨ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،  
٥٦٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٩ ،  
عباس باشا الأول : ٤٤٦ ،  
عباس باشا حلمي الثاني خديو مصر :  
٤٩ ، ١٣٩ ، ٤٤٥ ،

عباس بن عبد الله بن الزبير : ٢٠١ ،  
العباس بن عبد المطلب : ٢١١ ، ٢٧١ ،  
٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٤١٢ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،  
٥٢٤ ،

عباس قطان ( الشيخ أمين مكة ) : ٢٨ ،  
٧٣ ، ٨٠ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ،  
١٦٤ ، ١٨٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٩٦ ،  
٣٩٨ ، ٤٠٩ ،

عباس بن مرادس : ٢٨١ ،



عبد الله فابي (الحاج) : ٢٨ ، ١٣٥ ،

١٥٦ ، ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٣٠٦ ،

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ،

٥٩٩

عبد الله بن مسعود : ٤٧٠ ، ٥٢٨ ،

عبد المحيد السلطان : ٤٦٨ ، ٤٦٩ ،

عبد المطلب بن هاشم : ١٨١ ، ١٩٧ ،

٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٨٥ ، ٣٩١ ،

٤١٨ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٣٠ ،

عبد الملك بن مروان : ١٨٢ ، ٢٠٢ ،

٢٦٤ ، ٣٣٩ ، ٣٩٢ ، ٤٥٧ ،

٤٥٨ ، ٤٦٠ ،

عبد مناف : ٢١١ ، ٢١٢ ،

عبد الوهاب طلعت (باشا) : ١٥٩ ،

عبد ياليل بن عمرو بن عمير : ٣١٢ ،

عبيدة بن الحارث : ٥٣٣ ، ٦١٢ ،

عتبة ابن أبي وقاص : ٥٤٢ ،

عتبة بن ربيعة : ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٦١ ،

٥٢١ ، ٥٣٣ ، ٦١١ ، ٦١٢ ،

عنان بن طلحة : ١٩٨ ،

عنان بن عفان رضى الله عنه : ١٨٠ -

١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢١٧ ، ٢٦٤ ،

٢٧٥ ، ٢٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،

٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،

٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ،

٤٧٩ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،

٥٢١ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٤٩ ،

٥٥١ ، ٥٦٨ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٥٨١ ،

٥٨٣ ، ٥٨٨ ،

عداس النصراني التينوى : ٣١١ - ٣١٣ ،

٣٢٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،

٣٦٢ ،

عدنان : ٢٦٤ ،

عرقطة بن عبد الله بن أمية : ٣١٨ ،

عبد الله بن بليهد (الشيخ - عالم نجد) :

١٠٧ ، ١٥١ ، ٣٠٦ ،

عبد الله بن بورخارت الحاج الرحالة

السويسرى : ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ٤٢٢ ، ٤٤٤ - ٤٤٦ ،

٤٧٤ ، ٤٩٠ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ،

٥٢٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،

عبد الله بن جحش : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،

٥٣٣ ، ٦١١ ،

عبد الله بن جدعان : ٣٧٠ ، ٣٧٢ ،

٣٧٣ ، ٥٣١ ،

عبد الله بن الحارث بن قيس : ٣١٨ ،

عبد الله بن الزبعرى : ٥٤٣ ،

عبد الله بن الزبير : ١٨١ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ،

٢٠١ ، ٢٠٢ - ٢٠٥ ، ٢٦٨ ،

٢٨٨ ، ٣٩٢ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،

٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٥٨١ ،

عبد الله بن زهدى الخطاط : ٤٦٩ ،

عبد الله بك سلمان الحمدان ( الشيخ

- وزير المالية العربية ) : ٢٩ ، ٦٤ ،

٦٥ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ١٣١ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٦٤ ، ٢٩٤ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ،

٤٠٤ ، ٤٠٩ ،

عبد الله بن عامر أبي ربيعة : ٣١٨ ،

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب : ٢٠١ ،

٢٧٢ ، ٣١٦ ، ٣٦٥ ،

عبد الله بن عبد المطلب : ٤١٧ ، ٤١٨ ،

٥٢٠ ،

عبد الله بن عمر : ٥٦٧ ، ٥٨٢ ،

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٣٥٥ ،

عبد الله بن عون ( الشريف ) : ٣٠٨ ،

٣٢٠ ، ٣٢١ ،

عمر بن عبد العزيز : ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،  
٤٦١ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣ ،  
٥٥٤ ، ٥٦١ ، ٥٧٣

عمرو بن الحضرمي : ٢٦٦  
عمرو بن العاص : ٣٤٢ ، ٣٥٥  
عمرو بن عمير بن عوف الثقفي : ٣١٢ ،  
٣٣٠

عمرو بن لحي : ٤٠٦  
عون الرقيق ( الشريف - أمير مكة ) :  
٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٥٥  
العايشي ( أبو سالم عبد الله بن محمد ) :  
٢٢٤

عيسى عليه السلام : ٤٧ ، ٤٠١ ، ٤١٨ ،  
٤٣١ ، ٤٦٧ ، ٥٥٣

## غ

غريبن هيازع بن هبة الحسيني الجمازي  
الأمير : ٥٦١

غلام المغيرة ( أبو لؤلؤة فيروز ) : ٥٤٨  
غيلان بن سلمة : ٣٥١

## ف

الفارعة بنت أبي الصلت : ٣٥١  
الفاسي ( شهاب الدين بن أبي العباس  
أحمد بن علي ) : ٢٢٠ ، ٢٢٥ ،  
٢٧٧ ، ٣٣٤ ، ٣٩٩

فاطمة بنت الحسين : ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،  
٥٥١

فاطمة بنت الخطاب : ٢١٨ ، ٢١٩ ،  
فاطمة بنت محمد الرسول رضی الله عنها :  
٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

عروة الرجال الهوازني : ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،  
عروة بن الزبير : ٥٨٣ ، ٥٨٥ ،  
عروة بن مسعود : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ،  
٣٣٥ ، ٣٥١

العزى ( صنم ) : ٣٧١  
عصماء : ٥١٠  
عضد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله :  
٤٨٨

عكرمة بن أبي جهل : ٢٧٥  
علي بن أبي طالب رضی الله عنه : ١٩٢ ،  
٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٣ ،  
٤١٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٧ ،  
٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ،  
٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٣ ، ٥٣٥ ،  
٥٤٣ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٦٠٨ ،  
٦١٢ ، ٦١٥

علي بن الحسين : ١٤٧ ، ١٥٨ ،  
علي حيدر ( الشريف - أمير مكة ) : ٥١٥  
علي بن عبد الله بن عون ( الشريف ) :  
٣٢٠ ، ٣٢١

علي ماهر ( باشا ) : ١٥٧ ، ١٦١ ،  
عمر بن أبي ربيعة : ٣٠٨

عمر بن الخطاب رضی الله عنه : ١٧ ، ١٧٦ ،  
١٧٧ ، ١٨٠ - ١٨٤ ، ٢١٦ ،  
٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٦٤ ،  
٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٣٧٤ ، ٣٩٩ ،  
٤٠٢ - ٤٠٤ ، ٤١٠ - ٤٤٠ ،  
٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ - ٤٥٧ ،  
٤٦٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ ،  
٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ،  
٥٤٦ - ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ،  
٥٥٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ - ٥٦٨ ،  
٥٧٥ ، ٥٨٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ،  
٦٠٨

كعب الأحبار : ٣٣٤  
كعب بن الأشرف : ٥١٠ ، ٥٧٨ ،  
٥٨١

كعب بن زهير : ٤٥٥ ، ٤٥٦  
كلاب غلام العباس بن عبدالمطلب : ٤٥٢  
الكلبي ( محمد بن السائب ) : ٣٨٣  
كوثر ( باخرة ) : ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١  
٥٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤  
٦٣٠ ، ٦٢٩ ، ٦٢٢

## ل

اللات ( صنم ) : ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٣٠ ،  
٣٣١ ، ٣٥٤ ، ٣٧١  
لامارتين : ٢٧٠

## م

ماركوني : ٢٦  
مارية القبطية : ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٥٠ ،  
٥٧٩ ، ٥٧٨  
مالك بن أنس : ٩٧ ، ٢٠٢ ، ٥١٣ ،  
٥٢١ ، ٥١٩

مالك بن عوف النضري : ٢٩٨  
مجدى بن عمرو البجلي : ٥٣٣  
محبوب الميرغني السوداني ( السيد ) : ٣١٨  
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٩ ،  
١٢ ، ١٤ - ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤ -  
٢٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٦ ،  
٥٨ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ،  
٧٦ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠١ ،  
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ -  
١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٩ ،  
١٤١ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،  
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ،

٤٥٨ ، ٥٠٥ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ،  
٥٦٢ ، ٥٢٨

فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان : ٢٨٧  
فخري باشا التركي حاكم المدينة : ٤٨٢ ،  
٥١٥ ، ٥٧٢

فليبي = الحاج عبد الله فليبي  
فؤاد الأول ( ملك مصر ) : ١١٤ ، ١٥٧ ،  
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣  
فؤاد بك حمزة ( وكيل خارجية الحكومة  
السعودية ) : ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٢  
فون فيزل الألماني : ١٤٧

فيصل بن عبد العزيز ( نائب الملك  
بالحجاز ) : ١١٣ ، ١١٤ ، ٣٢١

## ق

قارون : ٦٠٩  
قانصوه الغوري الملك الأشرف : ٢٠٤  
قايتباي الملك الأشرف : ٢٨٤ ، ٤٢٥ ،  
٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ،  
٥٤٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧  
قس بن ساعدة الإيادي : ٣٧١ ، ٣٧٢ ،  
٣٧٤

القسطلاني ( شارح البخاري ) : ٤٦٣  
القصواء ( ناقة الرسول ) : ١٩٨ ، ٢٨٦ ،  
٤٠١ ، ٤١٩ ، ٤٤٩

قصي بن كلاب : ١٩٧ ، ٢٠٥ ، ٢٦٣ ،  
٢٦٤

قطب الدين النهرواني : ٢٨٢ ، ٢٨٦ ،  
قلاوون المنصور : ٤٦٦  
قيصر : ٣١٧

## ك

كسرى : ٣١٧ ، ٤٠١  
كعب بن أبي : ٤٧٠

٥٨٧ ، ٥٨٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨١ ،  
 ٦٠٨ ، ٦٠٥ ، ٥٩٥ ، ٥٩٣ ، ٥٨٨  
 ٦٢٦ ، ٦١٥ — ٦١١ ، ٦١٠  
 ٦٣٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٢٧  
 ٦٤٠

محمد الأزدي أبو القاسم : ٣٩٧

محمد باشا الألبان والى مصر : ٢٠٣

محمد باشا العظم : ٣١٦

محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب :  
 ٣٩١

محمد الخريجي (الشيخ) : ٥٩٠

محمد رشاد (الخليفة) : ٤٩

محمد سرور الصبان (السيد وكيل مواصلات

الحجاز) : ١٣٢ ، ٢٩٦ ، ٣١٤ ،  
 ٣١٩

محمد بن سليمان الجركسى : ٢١٢ ،  
 ٢١٣

محمد صالح القزاز (السيد — أمين أموال

الدولة بالطائف) : ٢٨ ، ٢٩٦

٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،

٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ،

٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،

٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٩٨ ،

محمد طلعت حرب باشا : ٤٨ ، ٤٩

١٥٤ ، ١٥٥

محمد عبد المنعم (الأمير بن الخديو عباس)

٤٩ ، ٥٠

محمد بن عبد الوهاب الخنبلى : ١١ ،

١٠٧ ، ١٣٠ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ،

٤٠٤

محمد بن على بن أبى منصور الأصفهاني

١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ،

٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ —

٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٢١ — ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،

٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ،

— ٢٦٠ ، ٢٦٢ — ٢٦٨ ، ٢٧١ ،

٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ،

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ،

٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ،

٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ — ٣١٢ ،

٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ —

٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ،

٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،

٣٥٩ — ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ ،

٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،

٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ،

٤١٢ ، ٤١٦ — ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،

٤٢٨ — ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،

٤٣٩ — ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧ ،

٤٥٠ — ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،

٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ،

٤٧٨ ، ٤٧٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨ ،

٤٨٣ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ — ٥٠٢ ،

٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،

٥١٤ — ٥١٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ،

٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ،

٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ،

٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣ ،

٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٥ ، ٥٦٣ ،

٥٧٠ ، ٥٧٧ ، ٥٧٧ ،

- وزير الشام والموصل أبو جعفر : ٢٢٠  
 محمد علي (رجل من أهل منى) : ٢٨٣ ،  
 ٢٨٤  
 محمد علي باشا ( والى مصر ) : ١٣٩  
 ٥٦٢ ، ٤٨٨ ، ٢٨٨ ، ٢٢١  
 محمد علي زين الرضا ( السيد ) : ١٢٤  
 محمد بن قلاوون الصالحى الملك الناصر :  
 ٤٦٥  
 محمد لبيب البتانوفى بك : ١٢٩ ، ٢٢٤ ،  
 ٢٢٦ ، ٤٢٢ ، ٤٤٥ ، ٤٧٢ ،  
 ٤٨١ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٢ ،  
 ٥٥٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣  
 محمد بن مسلمة : ٥٨١  
 محمد المصرى ( المعلم ) : ١٨٣  
 محمد مصطفى المراغى ( الأستاذ ) : ١٥٩  
 ١٦٠  
 محمد بن يوسف الثقفى : ٢٢٤  
 محمود خان السلطان : ٢٦٨ ، ٢٧٤ ،  
 ٤٦٧ ، ٥٢٦ ، ٥٥٧ ، ٥٧٤  
 محمود المغربى : ٣٣٥ ، ٣٥٠  
 المختار بن عوف الأزدي الأباضى  
 أبو حمزة : ٣٨٣  
 مخيريق : ٥٧٩  
 مراد السلطان : ٢٠٤  
 مراد الثالث العثمانى السلطان : ٤٤٦ ،  
 ٤٤٧  
 مراد الرابع السلطان بن السلطان أحمد  
 الأول : ٥٦٢  
 مرة العصمة : ٢٢٠  
 مروان بن الحكم : ٤٥٧ ، ٤٩٢ ،  
 ٥٠٣ ، ٥٠٤  
 مزاحم مولى عمر بن الخطاب : ٥٤٩  
 المستضى : ٥٥٩  
 المستعصم : ٤٦٤ ، ٤٦٥
- المستنصر العباسى : ٢٨٢  
 مسعود بن عمرو بن عمير : ٣١٢  
 مسلم بن عقبة المرى : ٥٨١  
 المسيح عليه السلام = عيسى بن مريم  
 عليه السلام  
 المطرى ( جمال الدين محمد بن أحمد ) :  
 ٥٧٢ ، ٥٠٩ ، ٥٠٧  
 المظفر سيف الدين قطز المعزى = سيف  
 الدين قطز المعزى  
 المظفر شمس الدين يوسف بن منصور  
 = شمس الدين يوسف  
 المظفر صاحب اليمن : ٢٦٤  
 معاذ بن عبد الأشهل : ٥٣٥  
 معاذ بن عفراء : ٤٤٩ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩  
 معاوية بن أبى سفيان : ٢٦٤ ، ٢٨٧ ،  
 ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٧٨ ،  
 ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥٠٤ ، ٥٢٥ ، ٥٦٨ ،  
 ٥٨١ ، ٥٨٥  
 معاوية بن يزيد : ٢٠١  
 المعتمد الخليفة العباسى : ٢٨٤  
 المغيرة بن شعبة : ٣٣٠ ، ٣٥١  
 المغيرة بن عبد الرحمن : ٤٩٩  
 المقتدر العباسى : ١٨٣ ، ٣٩١  
 المقداد بن عمرو : ٦١١  
 المقوقس : ٥٧٨  
 ملاشاهى الخطاط : ٤٨٦  
 مناة ( صنم ) : ٣٧١ ، ٤٠٦  
 المنذر بن عبد الله الأنصارى الخزرجى :  
 ٣١٨  
 المهدي بن أبى جعفر المنصور : ١٨٢ ،  
 ١٨٣ ، ٢٦٤ ، ٤٤٣ ، ٤٦٣ ،  
 ٤٩٨

هبل (ضم) : ١٨١ ، ١٩٩ ، ٢٣٠ ، ٣٥٤

هريدى الدكتور : ٦٢٩

هشام بن المغيرة : ٣٧٢ ، ٣٧٣

هند بنت عتبة : ٤١١ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤

هنرى كليبرن : ٤٤٤

هيرودوتس : ١٢٦

و

وحشى الحبشى : ٥٣٠ ، ٥٣٤ ، ٥٤١

وداد (فيلم سينمائى) : ٤٩

الوزير الجواد : ٢٢٠

ولنتجتون : ٦١٦

الوليد بن عبد الملك : ١٨٢ ، ٤٤٣ ، ٤٥٨

٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦

٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤

٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٨

٥٥١ ، ٥٦٨

الوليد بن عتبة : ٥٣٣ ، ٦١٢

الوليد بن المغيرة : ٣٧٢

ى

يازكوح أحد أمراء الشام : ٥٠٦

يزيد بن معاوية : ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢٦٨

٣٤٣ ، ٤٥٧ ، ٤٧٨ ، ٥٠٤

٥١٨ ، ٥٨١

يونس عليه السلام : ٣٦٠

موسى عليه السلام : ٤٧ ، ٤١٨ ، ٤٥٠ ، ٦١١

مولر (المستشرق الألماني) : ١٨٣

ميمونة أم المؤمنين : ٢٦٨ ، ٢٧١

ن

نابليون : ٤٣٠ ، ٦١٦

الناصر العباسى الخليفة : ١٨٣ ، ٢٢٥

٥٤٠ ، ٥٥٩

النجاشى : ٣١٧ ، ٣٩١

نصار الحراسانى : ٤٥٩

النعمان بن المنذر : ٢٨٠ ، ٣٧٢

نعيم بن عبد الله : ٢١٨

النهروانى = قطب الدين النهروانى

نوح عليه السلام : ١٩٤ ، ١٩٦

نور الدين الشهيد محمود بن زكى : ٥٥٧

٥٥٨

نور الدين على بن الملك المعز عز الدين

أبيك الصالحى الملك المنصور : ٤٦٥

النوروى (محمى الدين يحيى) : ٣٣٥

ه

هاجر أم إسماعيل : ٧٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

٣١٠

الهادى بن المهدي : ١٨٣

هارون الرشيد : ١٣٢ ، ٢٠٢ ، ٢٨٧

هالة أم حمزة : ٥٣١

## فهرس الأمم والقباائل والجماعات

- الأنصار : ١٤١ ، ٢٨٠ - ٢٨٢ ،  
 ٢٩٨ ، ٣٦٠ ، ٤٢٦ ، ٤٦١ ،  
 ٤٦٦ ، ٤٧٦ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ،  
 ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥٢١ ،  
 ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٧٦ ، ٦١١ ،  
 أهل بلس : ٥١٨ ، ٦٠٤ ، ٦٠٨ ،  
 ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ،  
 أهل البقيع : ٥٢١ ،  
 أهل تهامة : ١٤ ،  
 أهل الحجاز : ١٤ ، ٥٤ ، ٩٥ ، ١٠٩ ،  
 ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٤ ،  
 ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،  
 ١٦٤ - ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢٢٣ ،  
 ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٣١٦ ، ٣٧٦ ،  
 ٤٠٦ - ٤٠٨ ، ٤٢٧ ، ٤٥٧ ،  
 أهل سراك : ٩٣ ،  
 أهل السنة : ١٤٧ ، ٢٢٧ ،  
 أهل الشام : ٢٠٠ ، ٢٦٥ ، ٣٩٢ ،  
 ٤٥٨ ، ٤٧٩ ،  
 أهل الطائف : ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،  
 ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ،  
 ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٤٥٥ ،  
 أهل العراق : ٢٦٥ ، ٣٠١ ، ٤٥٨ ،  
 أهل فلسطين : ٦٩ ، ٧٠ ،  
 أهل القليب : ٢٠٩ ، ٥٧٧ ،  
 أهل لبنان : ٣٥١ ،  
 أهل المدينة : ١٥ ، ١١٢ ، ١٤٣ ،  
 ٢٦٤ ، ٤٣٠ ، ٤٤٩ ، ٤٦١ ،  
 ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ،  
 ٤٧٩ - ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ -
- ↑  
 آل البيت = بنو هاشم  
 آل سعود : ١٢٩ ، ٦٠٧ ،  
 آل السيد محي الدين : ٥١٥ ،  
 آل عثمان : ١٨٣ ، ٢٢٤ ، ٣٥٨ ،  
 ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ،  
 ٥١٨ ، ٥٢٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ،  
 ٥٦٣ ،  
 آل عون : ٣٢٠ ،  
 الأتراك : ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٥٨ ،  
 ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٥٨ ، ٤٨١ ،  
 ٤٨٢ ، ٤٩٠ ، ٥١٨ ، ٥٥٩ ،  
 ٥٦٣ ،  
 الأحزاب : ٥١٤ ،  
 الإخوان = الوهابيون  
 الأزدي : ٤٠٦ ،  
 أزدي اليمن : ٤٧٨ ،  
 الآسيويون : ١٢٨ ،  
 الأشراف : ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ،  
 ١٥٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ،  
 ٣٣٠ ، ٣٣٩ ، ٤٨٢ ، ٦٠٧ ،  
 ٦٠٨ ، ٦١٧ ،  
 الأعاجم : ٤٠١ ،  
 الأفغان : ١٢٩ ،  
 الأمريكيون : ٣٤٥ ،  
 الأمويون = بنو أمية  
 الإنجليز : ٣٣ ، ٣٥ - ٣٧ ، ٤٩ ، ١٣٥ ،  
 ١٥٨

الأوس : ٢٨٢ ، ٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ،  
 ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٥٠٤ ،  
 ٥٧١ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٦ ،  
 ٥٨٧

ب

البروتستتيون : ٤٤٥ ، ٥٦٠  
 بنو إسرائيل : ١٩٤ ، ٤٥٣ ، ٥١١ ،  
 ٥٩٢ ، ٦١١

بنو أمية : ١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٨٢ ،  
 ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،  
 ٣٩٢ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ،  
 ٤٦٦ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٨ ،  
 ٥٠٣ ، ٥٢٥ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٨٤

بنو إيباد : ٣٧٢

بنو ثماله : ٣٤١ ، ٣٤٣

بنو جشم بن بكر : ٣٧٠

بنو الحارث بن كنانة : ٣٧٣

بنو زهرة : ٥٣١

بنو سعد بن بكر : ٢٨٩ ، ٣٤١ ، ٣٨٢

بنو سهيم : ١٨٢ ، ٥٧٠

بنو شيبه : ١٩٠

بنو صخر : ٣٣٩ ، ٣٤٣

بنو ضمرة : ٣٧٢ ، ٣٧٦

بنو ظفر : ٥٨٠

بنو عامر : ٣٦٩ ، ٣٧٠

بنو العباس : ١٩ ، ١٣ ، ١٢٩ ، ١٨٢

١٨٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٣١٦ ،

٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٧ ، ٥٠٤ ، ٥٢٥

بنو عبد الأشهل : ٥٣٥

بنو عبد مناف : ٢١٨

٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ،  
 ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ،  
 ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٩ ،  
 ٥٥٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٥ ،  
 ٥٧٩ ، ٥٨٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠

أهل مصر : ١١٤ ، ١٣١ ، ١٣٩ ،  
 ١٤٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ،  
 ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ،  
 ٣٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤٥٨ ،  
 ٤٧٩ ، ٤٩٣ ، ٥٩٥ ، ٦٠٦

أهل المغرب : ٣٥١

أهل مكة : ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٢ ،  
 ٨٤ ، ٨٨ — ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٥ ،  
 ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١٢٥ ،  
 ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ،  
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ — ١٤٤ ،  
 ١٥٠ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،  
 ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،  
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،  
 ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،  
 ٢٣٧ — ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،  
 ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ،  
 ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،  
 ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ ،  
 ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٢٢٣ ،  
 ٣٢٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ — ٣٦٨ ،  
 ٣٧٢ ، ٣٩١ ، ٤١١ ، ٤٢٦ ،  
 ٤٣٠ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٣٣

أهل نضى : ٢٨٣

أهل نجد = الوهابيون

أهل يثرب = أهل المدينة

أهل اليمن : ٢٦٥ ، ٣١٦ ، ٣٨٠ ،  
 ٣٩١



## ج

الجاويون : ٦٩ ، ٢٤٧  
جرهم : ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٦٣ ،  
٢٦٤

## ح

الحبشة : ٥٠١  
الحرورية : ٣٨٣  
حير : ٣٩١  
الحواريون : ٤٣٠

## خ

خزاعة : ٢٦٣ ، ٢٦٥  
الخزرج : ٢٨٣ ، ٣٩١ ، ٤٢٩ ،  
٤٣٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ،  
٥٨٧ ، ٥٨٦ ، ٥٠٤

## ر

الروم : ٤٢٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٩ ،  
٤٧٠ ، ٥٢٢ ، ٥٦٨ ، ٥٧٥  
الرومان : ٢٤٧ ، ٤١٨ ، ٥٨٤  
الروافض : ٤٦٤  
الرواقيون : ٦٠٦

## ز

الزوران = قبيلة هوازن : ٣٣٩

## س

السعوديون = آل سعود  
سفيان : ٣٥٦  
السوريون : ١٥٠

بنو عثمان = آل عثمان

بنو قريظة : ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥٨٠ ،  
٥٨١

بنو قيلة : ٥٧١

بنو قينقاع : ٥١٠ ، ٥٣٣ ، ٥٤٤ ،  
٥٧٨

بنو كنانة : ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ،  
٣٨٣

بنو مخزوم : ٥٣٢

بنو مدلج : ٣٧٦

بنو النجار : ٤١٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠١

بنو نصر بن معاوية : ٣٧٠

بنو النضير : ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥٧٩ ،  
٥٨١ ، ٥٨٠

بنو هاشم : ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٣٩٢ ، ٤٢٩ ،

٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ،

٥٠٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٥١ ،

٥٨١

## ت

التار : ١٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥

الترك = الأتراك

التكارة : ١٢٩ ، ٢٣٤

## ث

تقيف : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ،

٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ،

٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ،

٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ،

٣٧٤ ، ٣٨١ ، ٤٥٥

ثمالة = بنو ثمالة

٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ ،

٤٧٨ ، ٥٠٩ ، ٥٣٠ ، ٥٦٣ ،

٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦١١ ، ٦١٧ ،

عصبة الأمم الإسلامية : ٣٠ ، ٨٣ ،

٣٩٤

عصبة الأمم الأوربية : ٨٣ ، ٣٩٤ ،

٥٩٢

العلويون = بنوهاشم

العمالقة : ١٩٧

عوف = فخذ من ثقيف : ٣٣٩

غ

غسان : ٤٠٦ ، ٤٧٨

غطفان : ٣٩١

ف

الفاطميون : ٣٥٨

الفراعنة : ٢٤٧ ، ٤٧٧ ، ٤٩٧

الفرس : ١٩ ، ٣٥٨ ، ٤٧٠ ، ٥٦٨ ،

٥٧٥

فلاسفة اليونان : ٢٤

ق

القبط : ٤٦١

القثمة : ٣٠٤

قدماء المصريين : ١٩٧ ، ٣٤٢

القرامطة : ٣٩٢

قريش : ١٤ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١٠٢ ،

١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٩٧ ، ١٩٩ -

٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،

٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ،

٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

ش

شهداء بدر = أهل بدر

شعب صهيون = اليهود

الشيعة : ٢٢٧ ، ٥٢٥

ص

صخر = بنو صخر

الصليبيون : ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،

الصينيون : ٢٤٧

ط

الطلحات : ٣٥٧

ع

عامر = بنو عامر

العمانيون = آل عمان

العراقيون = أهل العراق

العرب : ١٤ - ٢٠ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٩٨ ،

١٠١ ، ١١١ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،

١٥٦ ، ١٥٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ،

٢٥٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ،

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ،

١٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،

٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٥ - ٣٢٧ ،

٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٥٨ ،

٣٦٣ ، ٣٦٤ - ٣٧٢ ،

٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٤٠٠ ،

٤٠٢ ، ٤١٩ ، ٤٢٧ ، ٤٥٤ ،

## ن

النجديون = الوهابيون

التصارى : ١٨٢ ، ٤٠١ ، ٤٧٠

## هـ

الهاشميون = بنو هاشم

هذيل : ٢٦٧ ، ٣٣٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٦

٣٨٤ ، ٣٥٧

الهنود : ١٢٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧

هوازن : ٢٨٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٠

٣٣٩ ، ٣٧٠ - ٣٧٣ ، ٣٧٩

## و

الوهابيون : ١١ - ١٣ ، ٥٤ ، ٥٥

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٤

١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٢

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ -

١٥٧ ، ١٥٩ - ١٦١ ، ١٦٤ -

١٦٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ - ٢١٤

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣

٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٦٥

٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣٠١

٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠

٣٨٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤٦٦

٤٧٢ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩

٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ - ٥٢٧

٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ - ٢٦٧

٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣

٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧

٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٨

٣٦٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦

٣٧٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ - ٤٠٢

٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٦

٤١٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦

٤٦١ ، ٤٧٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥١٠

٥٣٠ - ٥٣٤ ، ٥٣٦ ، ٥٤١

٥٤٢ ، ٥٧٧ ، ٥٩٩ ، ٦١٠

٦١١ - ٦١٤

قيس عيلان : ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١

## ك

الكاثوليك : ٤٤٥ ، ٥٦٠

كنانة = بنو كنانة

## م

المتصوفة : ٣٩٦

المدنيون = أهل المدينة

المستشرقون : ٢١ ، ٢٥ ، ٤٢٨ - ٤٣٠

٤٣٢

المصريون = أهل مصر

المكيون = أهل مكة

المماليك : ٣٥٨

الموالي : ٤٦١

المهاجرون : ٢٦٦ ، ٢٨٠ ، ٢٩٨

٤٧٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ، ٥٣٢

٦١٠

اليهود : ١١١ ، ٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٧٤

٤٧٦ ، ٤٧٨ - ٤٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠١

٥٠٢ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ - ٥١٢ ،

٥٣٣ - ٥٧٥ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ،

٥٨٧ ، ٥٩٢ ، ٦١٠

اليونان : ١٤ ، ١٨ ، ٤١٨

٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ،

٥٤٣ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ،

٥٧٤ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٧

٥

الثيريون = أهل المدينة

## فهرس الأماكن

الأقصر : ٢٨٣ ، ٥٧٧  
 ألمانيا : ٥١٢  
 أم الحمد = أم الحمض  
 أم الحمض : ٣٠٥ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥  
 ٣٧٧ ، ٣٧٩  
 أم درومان : ٣١٩  
 أم السلق : ٦٩ ، ٧١  
 أم القرى = مكة  
 أمريكا : ٥٢ ، ٣٣٣ ، ٥٩٢  
 إنجلترا : ١٤ ، ٦٣ ، ١٣٦ ، ١٥٨ ،  
 ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧٤ ، ٣٢٢ ،  
 ٣٤١ ، ٣٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٨١ ،  
 ٥١١ ، ٥١٢  
 الأندلس : ١٧ ، ١٨ ، ٤٥٨ ، ٤٧٠ ،  
 ٥٧٦  
 الأهرام : ٣٤٢ ، ٣٤١  
 أوروبا : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٢ ،  
 ٩٢ ، ٩٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٤ ،  
 ١٨٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤٧ ، ٣٠١ ،  
 ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٩٤ ، ٤٤٥ ،  
 ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٥٥٩ ، ٥٩٢ ،  
 ٦٣٠  
 أوقاف الخرمين : ١٣٩  
 إيران : ١٥٣ ، ٥٠٣  
 إيطاليا : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ٨٠ ، ١٣٧ ،  
 ١٦٢ ، ٣٢١

ب

باب آل عثمان = باب جبريل  
 باب التكية : ١٣٩

أ  
 آبار بنى حصان : ٤١١ - ٤١٤ ، ٤٢١ ،  
 ٤٢٢ ، ٤٣٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٤ ، ٦٢١ ،  
 الآستانة : ١٢٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٣ ،  
 ٤٢١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٦٧ ،  
 ٤٨٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣  
 آسيا : ٩٤ ، ١٤١ ، ٣٣٣  
 الأبواء : ٢١١ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،  
 أبو قبيس : ١٩٦ ، ٢٠٠  
 أثيرية : ٣٨١  
 أجياد (شارع) : ١٣٩  
 أحد : ٢٦٧ ، ٤١٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ،  
 ٤٧٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ،  
 ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ،  
 ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٧٥ ، ٥٨٥ ،  
 ٥٨٦  
 الأحساء : ١٣٥ ، ١٦٦  
 أذرعات : ٥١١  
 أرخبيل الملايا : ٩٢  
 أرز لبنان : ٢٩٣ ، ٣٤٧  
 أرض المعاد : ٥١١  
 الأزهر : ٨١ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،  
 أسبانيا : ١٢٨  
 أسكتلندا : ٥١١  
 الإسكندرية : ٣١٩ ، ٥٧٧  
 أضاءة بنى غفار : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،  
 ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩  
 أفريقية : ١٤١ ، ٦٢٩

- بجيرة ليمان : ٢٧٠  
 بلسر : ١٤ ، ١٠١ ، ٢٠٩ ، ٤١٢ ،  
 ٥٢١ ، ٥٣٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٦ ،  
 ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ،  
 ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ،  
 ٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦١٨  
 برج بابل : ٣٦٤  
 البركة : ٣٥٢ ، ٤٩٣  
 البرلمان البريطاني : ٥٩٢  
 برلين : ٣٠٠  
 بزنتية ١٥ ، ١٧ ، ٤١٨ ، ٤٦٨ ،  
 ٤٧٨ ، ٥٧٥ ، ٦٠٩  
 بستان آل السيد محي الدين : ٥١٥  
 بستان الجعفرية : ٤٩٢  
 بستان داود باشا : ٤٩٣  
 بستان السيدة فاطمة : ٤٤٣  
 بستان الشريف الشهيد بن عون : ٣٤٤  
 بستان عون الرقيق : ٣٥٥  
 بستان المصرع : ٥٨٥  
 بستان نجمة : ٣١٩  
 بشرى : ٢٩٣  
 بطحان : ٥٨٣  
 البطيحاء : ٤٥٦ ، ٤٥٥  
 بغداد : ١٨ ، ١٢٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ،  
 ٣٧٤ ، ٣٩٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،  
 ٥٧٥  
 البقيع : ٤٥٥ ، ٤٨٢ ، ٥٠٥ ، ٥١٤ ،  
 ٥١٨ — ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ —  
 ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٤٨ ، ٥٥٧ ،  
 ٥٧٨ ، ٥٨٠  
 بلاد البوذية : ١٧  
 بلاد الروم : ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٦٨ ،  
 بلاد العرب : ٩ ، ١١ — ٢٠ ، ٢٧ ،  
 ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٦٨ ، ٩٨  
 باب جبريل : ٤٤٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ،  
 ٤٨٦  
 باب الجمعة : ٥١٩  
 باب الحميدية : ٢٢١  
 باب الرحمة : ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٥٢ ،  
 ٤٥٤ ، ٥٩١  
 باب الساهرة بالقدس : ٤٣٤  
 باب السلام : ٤٣٦ ، ٤٣٩ — ٤٤٥ ،  
 ٤٥٤ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٥٠٤ ،  
 ٥٤٦  
 الباب الشامي : ٥٠٩  
 باب الصفا : ٧٤ ، ٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ،  
 ٣٥٤  
 باب عاتكة = باب الرحمة  
 باب علي : ٨٢  
 باب العنبرية : ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٥١٣ ،  
 باب الكعبة : ٧٥ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ،  
 ٣٩٢ ، ١٩٩  
 باب مروان = باب السلام  
 الباب المصري : ٤٨١  
 باب مكة : ٧٢  
 باب النساء : ٤٤٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ،  
 ٥١٥ ، ٥٠٦  
 باب النصر بالقاهرة : ٤٣٤  
 بادية الطائف : ٢٨ ، ١٥٨  
 باريس : ٥٢ ، ٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤٩٧ ،  
 ٥٢٦ ، ٦٣٠  
 البانتيون : ٥٢٦  
 البحر الأبيض المتوسط : ٣٥ ، ٣٩ ،  
 ٤٠ ، ٥٠٣  
 البحر الأحمر : ٣٥ ، ٣٧ — ٤٠ ، ٤٧ ،  
 ٤٨ ، ٥٩ ، ٢٣٧ ، ٣٧٦  
 البحرين : ٣٩٢ ، ٤٠٥ ، ٥٤١ ، ٦١٩ ،  
 بحرة : ٧١

- بئر الأعواف : ٤٩٢ ،  
 بئر أنس بن مالك : ٤٩٣ ،  
 بئر بضاعة : ٤٩٢ ، ٥٠٩ ، ٥١٦ ،  
 بئر البويرة : ٤٩٢ ، ٥٧٥ ،  
 بئر التفلة = بئر أريس ،  
 بئر جديلة : ٤٩٢ ، ٤٩٣ ،  
 بئر الجعرانة : ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،  
 بئر حاء : ٤٩٢ ، ٥١٦ ،  
 بئر الحاتم = بئر أريس ،  
 بئر ذروان : ٤٩٢ ، ٥١٦ ،  
 بئر ذى الخليفة : ٥٨٢ ،  
 بئر الرباط : ٥٧٥ ،  
 بئر رومة : ٤٩٢ ، ٥٧٥ ، ٥٨٣ ،  
 ٥٨٨  
 بئر الرياض : ٤٩٢ ،  
 بئر زمزم = زمزم ،  
 بئر السراة : ٤٩٣ ،  
 بئر السقيا : ٤٩٢ ، ٥١٣ ، ٥١٦ ،  
 بئر السيد عبد الرحيم السقاف : ٤٩٣ ،  
 بئر الشلالين : ٤٩٢ ،  
 بئر الشيخ : ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٢١ ،  
 ٦٠١ ، ٦٠٤ ،  
 بئر صفية : ٤٩٣ ،  
 بئر طوى : ٢١٧ ، ٢١٨ ،  
 بئر العباسة : ٤٩٢ ،  
 بئر عثمان : ٢١٧ ،  
 بئر عجلان : ٣١٤ ،  
 بئر عروة بن الزبير : ٤٩٣ ، ٥٨٣ ،  
 ٥٨٥ ، ٥٩٩ ،  
 بئر عشيرة : ٣٧٨ ،  
 بئر الغربال : ٤٩٢ ،  
 بئر غرس : ٤٩٢ ،  
 بئر فاطمة : ٤٩٢ ،  
 بئر القلعجية : ٤٩٣ ،  
 ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٤ - ١٣٧ ،  
 ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٨ ،  
 ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ،  
 ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٠ ،  
 ٣٢١ - ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ،  
 ٣٤٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ،  
 ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، ٤٠٩ ،  
 ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ،  
 ٤٥٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ ،  
 ٤٨١ ، ٤٩٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ،  
 ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ،  
 ٥٢٨ ، ٥٣٤ ، ٥٥٩ ، ٥٩٢ ،  
 ٦٠٠ ، ٦٠٦ ، ٦٢٦ ، ٦٤٠ ،  
 بلاد القرس : ٥٦٨ ، ٥٠٣ ،  
 بلاد الكنفشوسية : ١٧ ،  
 بلاد المغرب : ١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،  
 ١٥٤ ، ٥٩٢ ،  
 البلد الأمين = مكة ،  
 البلد الحرام = مكة ،  
 البيهتاء : ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ،  
 ٣٧٧ ،  
 البيهتة = البيهتاء ،  
 بودابست : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ،  
 بورتوفيق : ٤٦ ،  
 بورسعيد : ٣٩ ،  
 بورنيو : ٩٢ ،  
 بئر ابن المرتفع : ٣٨٠ ،  
 بئر أنى أيوب الأنصاري : ٤٩٢ ، ٥١٦ ،  
 ٥٧٣ ،  
 بئر أريس : ٤٩٢ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ،  
 ٥٧٦ ،  
 بئر الأزرق : ٤٩٢ ،  
 بئر إسماعيل = بئر زمزم ،

## ث

الثنية : ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠  
ثنية المرار : ٤٠٠ ، ٤٠٦  
ثنية الوداع : ٥١٥

## ج

جامع إبراهيم = مسجد نمرة  
جامعة باريس : ٦٣٠  
الجامعة المصرية : ٣٤٤  
جاوه : ٣٥ ، ٩٢ ، ١٢٩ ، ١٥٩ ،  
٤٩٥ ، ٢٠٨ ، ١٦٤  
جبال أبواب الحديد : ٣٨٢  
جبال الألب : ٤١  
جبال رضوى : ٤٠٩ ، ٦١٨  
جبال الطلحات : ٣٣٢  
جبال المقرحات : ٤٢٣  
جبال الهدة : ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ -  
٣٤٦  
جبال اليمانية : ٣٠٠  
جبل أبي صحفة : ٣١٩  
جبل أبي قبيس = أبو قبيس  
جبل أحد = أحد  
جبل برد : ٣٣٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠  
جبل البيلات : ٣٥٣  
جبل ثبير : ٨٨ ، ١١١ ، ٢٨٤ ، ٤٠٩  
جبل ثور : ١٤ ، ٢٠٧ ، ٢٤٧ - ٢٥٢ ،  
٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٥٩ ، ٣٤٧ ،  
٣٥٣ ، ٥٨٦ ،  
جبل الجودي : ١٩٣  
جبل حراء : ١٤ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٠٩  
١١٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ،  
٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

بئر القويم : ٤٩٢

بئر الكعبة = زمزم

البيت الحرام = المسجد الحرام

البيت الضراح = المسجد الحرام

بيت عائشة = دار عائشة

البيت العتيق = المسجد الحرام

بيت فاطمة = حجرة فاطمة

بيت القاضي : ٧٣

البيت المعمور = المسجد الحرام

بيت المقدس : ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ،

٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٥٣ ، ٥٨٣ ،

٥٨٧

بيروت : ٣٩ ، ٦٥ ، ٦٧ ،

بيوت النبي : ٤٥٩ ، ٤٧٠ ،

## ت

تبرك : ٥٩٩

تحت الربع : ٣١٩

التريفة : ١٣٧

تركيا : ٤٠ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٣٢١ ،

٤٧٢ ، ٤٩٥ ، ٦٣٠ ،

تكية فاطمة : ٢٢١

التكية المصرية بمكة : ١٣٥ ، ١٣٩ ،

٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٤٩٣ ، ٥١٥ ،

٥٩٥

التنعيم : ٢٠٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،

٢٧٠ - ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،

٣٨٤

تهامة : ٢٦٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٢٠ ،

٤١٢

التومان = السومان

تول : ٤٠٦

تونس : ٥٠٣



جبل نعمان : ٤٠٩

جبل نعم : ٢٦٧

جبل النور = جبل حراء

الجحفة = رايع

جلدة : (١١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧ - ٥٩

٦١ - ٦٥ ، ٦٧ - ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣

٨٠ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨

١٦٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٦٣

٢٧٤ ، ٢٩٦ ، ٣٥٠ ، ٣٩٨ ،

٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١١ ،

٤٢١ ، ٤٣٥ ، ٥٥٥ ، ٦١٩

الجرف : ٤٩٣

جرول : ٨٣ ، ١٥٦ ، ٢٩٤ ، ٣٩٨

جزيرة الروضة : ٣٢٠

جزيرة العرب = بلاد العرب

الجعرانة : ٢٤٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،

٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،

٣٠٠ ، ٣٣١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

جماء أم خالد : ٥٨٥

جماء تضارع : ٥٨٥

جماء عاقل : ٥٨٥

جمرة العقبة : ١٤ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ٢٨١

جنيف : ٨٣ ، ١٤٩ ، ٣٩٤

جيرون = دمشق

الحيزة : ٣٥١

## ح

حائط عتبة وشيبة ابني ربيعة : ٣٥٩

حابو : ٢٨٣

حاجر : ٥١٥

الحبشة : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٦٠ ، ٣٩١ ،

٤٣٠ ، ٥٠٩

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٣٨ - ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،

٢٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ،

٢٩٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٤٣٦ ، ٥٩٥

جبل دما : ٣٨٣

جبل ذباب : ٥١٤

جبل الرماة : ٥٤٠ - ٥٤٢ ، ٥٤٣

جبل زرود : ٨٦

جبل الزيتون : ٤٩٧

جبل سلج : ٤٣٤ ، ٥١٤ ، ٥٣٠ ، ٥٤١

٥٤٣

جبل سفار : ٣٥٠

جبل السكاري : ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٣٤

جبل شامه : ٣٨٤

جبل الشعب : ٣٧٤

جبل الشفا : ٣٢٧ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ،

٤٠٩ ، ٣٥٦

جبل طفيل : ٣٨٤

جبل طورزيتا : ١٩٣

جبل طورسينا : ١٩٣

جبل عير : ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ،

٥٨٥ ، ٥٨٦

جبل عينين = جبل الرماة

جبل قرح = ٢٨٥ ، ٢٨٦

جبل كدى : ٢١٧

جبل كمر : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ،

٢٩٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،

٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،

٢٩٣ ، ٢٩٧ - ٣٤٥ ، ٣٤٨ ،

٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤

جبل لبنان : ١٩٣

جبل المدهون : ٣٦٢

جبل المحسر : ٢٨٥

جبل ناهم : ٢٦٧

٤٥٤ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،  
 ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٨٠ ،  
 ٢٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ،  
 ٤٩١ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ،  
 ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ،  
 ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ،  
 ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ،  
 ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٥٩٠ ،  
 ٥٩٣ ، ٥٩٦ ، ٦٢٠ ، ٦٢٦ ،  
 ٦٤٠ ، ٦٢٨

الحجون : ٢١٧

الخليبية : ٧٢ ، ٨٣ ، ١٠٥ ، ٢٦٣ ،  
 ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ ،  
 ٣١٧ ، ٣٧٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،  
 ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ،  
 ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٤٩٧ ، ٥٨٢

الحرم المدني = المسجد النبوي

الحرم المكي = المسجد الحرام

الحرم النبوي = المسجد النبوي

حرة واقم : ٥٠٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٥ ، ٥٨٠ ،  
 ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦

حرة الوبرة : ٥٠٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٥ ،  
 ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ - ٥٨٥ ، ٥٨٦

حزاء (١٠) : ٦٢٨

حصن كعب بن الاشرف : ٥٧٦ ، ٥٧٧

حصن واقم = حرة واقم

الحصوة : ٤٤٣ ، ٤٦٣

حضر موت : ٤٥٠

حلب : ٤٧٤

الحمراء : ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦١٧ ، ٦١٨

حمى سيسد : ٣٤٣

حمى النمرور : ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢

حنين : ١٣ ، ٢١٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩

٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩

الحجاز : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٨ ، ٣٣ -

٣٩ ، ٤١ - ٤٣ ، ٥١ ، ٥٤ ،

٥٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ٩٣ ،

١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٣ - ١٢٥ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ،

١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ،

٣١٥ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٧٢ ،

٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٩٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ،

٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٥ ، ٤٧٢ ،

٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨ -

٤٩٠ ، ٤٩٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٥ ،

٥٦٠ - ٥٦٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ،

٦٠٤ - ٦٠٨ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ،

٦٢٨ ، ٦٣٠

حجر إسماعيل : ٧٦ ، ٨٢ ، ١٠٤

١٠٥ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ،

١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٣٨٩ ،

الحجر الأسود : ٧٤ ، ٧٦ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٨٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،

١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ،

٢٠٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٤ ،

حجرة فاطمة : ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٥٠٥ ،

٥١٩ ، ٥٧٤

الحجرة النبوية الشريفة : ٩ ، ١١ ، ٣٤ ،

٤٦ ، ٥٣ ، ١١٩ ، ٣٥٨ ، ٣٧٨ ،

٣٨٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٥ ،

٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ،

دار أبي سفيان : ٢٢١  
 دار الأرقم : ٢١٨ - ٢٢١ ، ٥٣٢  
 دار أم هانئ : ٢٢١  
 الدار البيضاء : ٣٤٥ ، ٣٤٦  
 دار جعفر الصادق : ٤٩٨  
 دار خارجة : ٥٧١  
 دار خالد بن الوليد : ٥٠٦ ، ٥٢٧  
 دار خديجة : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠  
 دار الخويجي : ٤٣٥  
 دار الخيزران = دار الأرقم  
 دار ريطة بنت أبي العباس السفاح : ٥٠٦  
 دار سعد بن خيشمة الأوسي : ٥٧١ ، ٥٧٢  
 دار سكينه بنت الحسين : ٥٠٦  
 دار الصديق : ٢٢٢ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥  
 دار عائشة : ٤٢٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٥٥٤ ، ٥٦٧  
 دار العباس بن عبد المطلب : ٤٥٣  
 دار الشيخ عباس قطان : ٧٣ ، ٨٠ ، ٤٨٩  
 دار الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان : ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٣ ، ٣٩٨ ، ٤٧٢ ، ٤٨٩  
 دار عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٥٠٥  
 دار عثمان بن عفان : ٤٤٣ ، ٤٦٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ - ٥٠٥ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧  
 دار عروة بن مسعود الثقفي : ٣٣٠  
 دار عمرو بن العاص : ٥٠٦  
 دار عمرو بن عمير بن عوف : ٣٣٠  
 دار فاطمة بنت الرسول = حجرة فاطمة  
 دار الكتب المصرية : ٢٨ ، ١١٤  
 دار الكسوة بمكة : ١٦١  
 دار كلثوم بن الهدم : ٥٧١ ، ٥٧٢  
 دار مروان بن الحكم : ٥٠٤

٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٧  
 حويبا ( بستان ) : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢  
 الحيرة : ٣٧٢ ، ٤٥٩

## خ

خان الخليلي : ١٣٧  
 خد الحاج : ٣٣٩  
 الخمر : ٣٦٥ ، ٣٨٢  
 الخرطوم : ٣١٩  
 الخرمة : ٢٩٦  
 خريق نعمان : ٣٤٥  
 خليج السويس : ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢  
 خماس : ٣٥٧  
 الخندق : ١١١ ، ٤٣٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٦ ، ٥٨٨  
 خوخة أبي بكر : ٤٤٢ ، ٥٠٥  
 خيبر : ٣٩٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦٤٠  
 خيف أم ديان : ٦٠١  
 الخيف الجديد : ٦٠٥  
 خيف الخزامي : ٦٠١  
 خيف الحسينية : ٦٠٥  
 خيف الخرماني : ٦٠٥  
 خيف دغبيخ : ٦٠٥  
 خيف الفارعة : ٦٠٥  
 خيف الواسطي : ٦٠٥

## د

دار آل عمر : ٤٤٣ ، ٥٠٥  
 دار أبو بكر : ٢٥٣  
 دار أبي يوب خالد بن زيد الأنصاري : ٤٤٣ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٩٨  
 ٤٩٩ ، ٥٠١ - ٥٠٤ ، ٥٢٦

رباط المعجم : ٥٠٢  
 رباط عثمان : ٥٠٢  
 رباط المغاربة : ٢١٧  
 الربع الخالي : ٢٩٦  
 الرجيع : ٢٦٧  
 الردم : ٢٢٤  
 رضوى : ٤٠٩  
 ركبة : ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٦٥ ، ٣٠٤  
 الركن اليماني : ١٠٤ ، ٧٦ ، ٧٥  
 ٢٠٠ ، ١٩٦ ، ١٠٦  
 رمل الإسكندرية : ٣١٩  
 الروضة الشريفة : ٤٤٠ ، ٤٣٦  
 ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٦ ، ٥٤٦  
 ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٥ ، ٥٩٠  
 ٥٩٥ ، ٥٩٣

روسيا : ٣٩  
 الروم : ٥٧٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٣ ، ٤٦٩  
 رومية : ٤٣٣ ، ٤١٨ ، ١٧٤ ، ٣٥  
 ٤٧٨ ، ٤٩٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٥  
 الرياض : ١٥٨

## ز

الزاهر : ٣٨٤ ، ٢٦٩  
 زاوية السمان : ٥٠٦  
 زاوية السنوسي : ٦٠٨ ، ٦٠٦ ، ٦٠٥  
 ٦١٧ ، ٦١٥ ، ٦١٤  
 زقاق الأغوات : ٤٨١  
 زقاق اليدور : ٤٨١  
 زقاق البقر : ٤٨١  
 زقاق الحيس : ٤٨١  
 زقاق الحبشة : ٥٠٤ ، ٥٠٢ ، ٤٩٨  
 زقاق الحجامين : ٤٨١

دار نائب الحرم النبوي : ٥٠٥  
 دار الندوة : ٢٣٠ ، ٢٦٣  
 دار هجر : ٣٩٢  
 الدرب الطويل : ٤٢٢  
 درب اليمانية : ٣٠٠  
 دكة الأغوات : ٤٤٣  
 دمشق : ٣١٩ ، ٢٠٠ ، ١٢٩ ، ١٨ ، ٣٥٥ ، ٤٧٦ ، ٣٧٤ ، ٣٥٨  
 ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٧٥

دهبان : ٤٠٦

ديار بنى سعد : ٣٤١  
 ديار بنى سفيان الثقفيين : ٣٣٩  
 ديار القثمة : ٣٨٢ ، ٣٠٤

## ذ

ذات عرق : ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٦٥ ، ٣٨٢ ، ٣٦٣  
 ذوأوان : ٥٧٤  
 ذوالحليفة : ٤٢٠ ، ٣٧٦ ، ٢٦٤ ، ٤٤ ، ٥١٦ ، ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٤١  
 ذوطوي : ٤٠٠  
 ذوالحجاز : ٣٦٦ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩  
 ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٦٨

## ر

رايع : ٢٦٤ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٤٥  
 ٢٦٥ ، ٤١٢ ، ٤١٠ ، ٤٠٧  
 ٤٢٢ ، ٤٢١  
 رانزواء : ٥٧٨ ، ٥٧٦ ، ٥٠٠ ، ٤٤٩  
 ٥٨٣  
 رباط خالد بن الوليد : ٥٠٥

سلع : ٤٣٤ ، ٥٤١  
 السنج : ٥٧١  
 السودان : ٤٢ ، ٦٣٠  
 سوريا ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٥٣ ،  
 ٣٢٥ ، ٤٧٣  
 سوق ذى الحجاز : ٣٦٤ ، ٣٨٤  
 سوق الطائف : ٣١٨ ، ٣٦٤  
 سوق عرفات ، : ٨٨ ، ٣٨٤  
 سوق عكاظ = عكاظ  
 سوق كنانة : ٣٨٣  
 سوق مجنة = مجنة  
 سوق منى : ٨٨ ، ٣٦٤  
 السومان : ٣٠٠  
 السويس : ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ،  
 ٥٢ ، ٦١ ، ٥٩٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨  
 ٦٣٠

سويسرا : ٤١ ، ٣٢٠ ، ٣٥٣ ، ٣٩٤  
 سيرا جيفو : ٣٩  
 السيل الصغير : ٣٠٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٧  
 ٣٨٢ ، ٣٨١  
 السيل الكبير : ٢٩٩ - ٣٠١ ، ٣٠٤ ،  
 ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ،  
 ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢  
 سيناء : ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٠٩

## ش

الشام : ١٨ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ١٣٨ ، ١٨٢  
 ٢٠١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٣١٠ ،  
 ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ،  
 ٣٣٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ،  
 ٣٧٢ ، ٣٧٦ ، ٣٩٢ ، ٤٠٩ ،  
 ٤١٢ ، ٤١٥ - ٤١٨ ، ٤٢٩ ،  
 ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ،

زقاق الخياطين : ٤٨١  
 زقاق السماهدى : ٤٨١  
 زقاق القماشين : ٤٨١  
 زقاق عنقبي : ٤٨١  
 زقاق الكبريت : ٤٨١  
 زقاق مالك بن نس : ٤٨١  
 زقاق ياهو : ٤٨١  
 ززم ، ٨٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ،  
 ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ،  
 ٢١٦ ، ٢٢٢  
 الزيمة : ٢٩٨ - ٣٠٢ ، ٣٤٥ ، ٣٧٧

## س

السامري = شعب السامري .  
 السبيل المصري : ١١٤  
 سد بنى هلال = السد السملجى  
 سد شمالة = السد السملجى  
 السد السملجى : ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ،  
 ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠  
 السد السملقى = السد السملجى  
 سد مأرب : ٣٤٢ ، ٤٧٨  
 سد وادى ثنية : ٣٤٣  
 السدر : ٣٣٧  
 السدرة : ٣٣٤

سرف : ٢٦٨ ، ٢٦٩ - ٢٧٢ ، ٢٧٦ ،  
 ٢٧٧ ، ٤١٨ ، ٥٢٨  
 سرواك : ٩٢  
 سقيفة بنى ساعدة : ٤٧٦ ، ٤٧٧ ،  
 ٥٠٩ ، ٥١٥  
 سكة الحجاز الحديدية :  
 ٤٣٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩ ،  
 ٤٨٨

الصفاء : ٣٩ ، ٤٤ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ،  
 ٨٢ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ،  
 ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٧٦ ، ٢١٧ ،  
 ٢١٩ ، ٢٤٨ ، ٢٧٧ ، ٣٣١ ،  
 ٦٢٧

صقلية : ٤٧٠

صنعاء : ٢٨٥ ، ٣٨١ ، ٣٩١

صهيون : ٥٩٢

الصين : ١٧ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ٥٩٢

### ض

ضاحية الشهداء : ١٣٨

الضحيان : ٥٧٦ ، ٥٧٧

### ط

الطائف : ١٤ ، ١٧ ، ٢٨ ، ١٣٥ ،  
 ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،  
 ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٨٨ ، ٢٥٠ ،  
 ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ،  
 ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ،  
 ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١١ ، ٣١٣ ،  
 ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ،  
 ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،  
 ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ،  
 ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ،  
 ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ،  
 ٣٨٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤٣٩ ،  
 ٤٥٥ ، ٤٩٥ ، ٥١٥ ، ٥٤٠ ،  
 ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦١٥

الطرناوية : ٥١٥

طريق الآلام : ٤٩٧

الطريق السلطاني : ٤٠٥

الطريق الشرقي : ٤٠٥

٤٦٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢ ،  
 ٤٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ،  
 ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،  
 ٥٨٤ ، ٦٠٢ ، ٦٣٠ ، ٦٤٠

شبرة : ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،  
 ٣٢٩

شبرة الجديدة : ٣٢٠ ، ٣٢١

شبرة القديمة : ٣٢٠ ، ٣٢١

شبه الجزيرة : ١٩ ، ١١٦ ، ١٣٤ ،

١٦٧ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٣٣٠ ،

٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ،

٣٧٦ ، ٤٢٠ ، ٤٣٢ ، ٥٠٤ ،

٥١٠ ، ٥٢٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٢

شجرة الرضوان : ٣٩٩ ، ٤٠٤

شداد : ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،

٣٤٥ ، ٣٥٣

الشرايع : ٢٧٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٤٥

٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٥١٥

شعب بني عامر : ٢٢٤

شعب بني هاشم : ٢٢٤ ، ٢٢٧

شعب الثنية : ٢٩٧

شعب السامري : ٦٠ ، ٦٥

شعب سانت ماري = شعب السامري

شعب علي : ٢٣٠

الشفاء = جبل الشفاء

شمطة : ٣٧٣

الشمسية = الحديبية

شهار (بستان) : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢

الشهداء : ٢٦٩ ، ٣٨٤

### ص

صخرة العقبة : ١١٢

الصرب : ٣٩

عقيق بادية الطائف : ٣٧٩

عكاظ : ٣٠٤ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ١٣

— ٣٧٩ ، ٣٧٧ — ٣٦٣ ، ٣٠٥

٣٨٤

عين حنين = عين زبيدة

عين زبيدة : ٨٥ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ،

٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣

العين الزرقاء : ٤٩٢ ، ٥٠٤ ، ٥٧٤

٥٨٨ ، ٥٧٥

عين نعمان : ٢٨٧

## غ

غارثور : ٢٠٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢

، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٩

، ٣٦٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤١٩

٤٣٦ ، ٥٧٠ ، ٥٩٥

غارحراء : ١٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ —

، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٨

، ٣٩٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦

٥٩٥

غار الطاقية = غار المرسلات

غار الكوفية = غار المرسلات

غار المرسلات : ٢٨٥ ، ٢٨٤

غرفة الوحي : ٢٢٦

غرناطة : ٣٩٧

غسله : ٣٦٥ ، ٣٨٣

## ف

فارس : ١٥ : ١٧ ، ١٨ ، ٤٣٣ ،

٤٦٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٦٨ ،

٥٧٥

الفتيق : ٣٨٠

الطريق الفرعى : ٤٠٥

طريق الغاير : ٤٠٥

طنطا : ٤٢١

الطور : ٦٢٨ ، ٦٢٩

طيبة ٤٧٧ ، ٤٩٧

## ع

العالية : ٥٢٣ ، ٥٧٨

العلاء : ٣٧٣

العدوة الدنيا : ٦١٤ ، ٦١٥

العدوة القصوى : ٦١٤ ، ٦١٥

العراق : ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ،

١٨٣ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٥٨

٣٩١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٥٩٢

عرفات : ١١ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨

٥٠ ، ٦٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١

٩٤ ، ٩٦ — ١٠٢ ، ١٠٩ — ١١٢

١١٤ ، ١١٦ — ١١٨ ، ١٢٨ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ،

٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ،

٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ — ٢٨٨ ،

٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦

٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٩٧ ، ٤١٤

٦٢٧

العريض : ٥٧٠ ، ٥٧٥

عسفان : ٢٢٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦

العشيرة : ٢٦٥ ، ٣٠٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥

٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ —

٣٨٢

العقبة : ٨٨ ، ١٠٢ ، ١١٢ ، ٢٨٢

العقيق : ٣٠٤ ، ٣١٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٤٩٢ ، ٥٠٨ ، ٥٤١ ، ٥٧٠ ، ٥٧٥

٥٨٤ — ٥٨٦

- قبر أبي سعيد الخدري : ٥٢٨  
 قبر أبي سفيان بن الحارث : ٥٢٨  
 قبر أسد الدين شيركوه : ٥٠٢  
 قبر سعد بن زرارة : ٥٢٨  
 قبر أمية : ٢١١  
 قبر أيوب ( والدصلاح الدين الأيوبي ) :  
 ٥٠٢  
 قبر جعفر الصادق بن الباقر : ٥١٨ ،  
 ٥٢٨  
 قبر الحسن بن علي : ٥٢٨  
 قبر حمزة : ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٥٢٧ ،  
 ٥٣٠ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ،  
 ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٨٥  
 قبر خديجة أم المؤمنين : ٢٠٨ ، ٢١٠ ،  
 ٢١١ ، ٢١٣ ، ٥٢٨  
 قبر خنيس بن حذافة السهمي : ٥٢٨  
 قبر الرسول = الحجرة النبوية  
 قبر زين العابدين بن علي بن الحسين :  
 ٥٢٨  
 قبر سعد بن أبي وقاص : ٥٢٨  
 قبر سعد بن معاذ الأشهلي : ٥٢٨  
 قبر صفية بنت عبد المطلب : ٥٢٨  
 قبر العباس بن عبد المطلب : ٥١٩ ،  
 ٥٢٨  
 قبر عبد الرحمن بن عوف : ٥٢٨  
 قبر عبد الله بن عبد المطلب : ٤١٦ ،  
 ٤٢٠  
 قبر عبد الله بن الزبير : ٢١٠  
 قبر عبد الله بن مسعود : ٥٢٨  
 قبر عثمان بن عفان : ٥١٨ ، ٥١٩ ،  
 ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٦٨  
 قبر عروة بن مسعود الثقفي : ٣١٧  
 قبر عمر بن الخطاب : ٤٤٠ ، ٥٥٦ ،

الفتحامين : ٣١٩

فتح : ٣٨٣

فرنسا : ٣٩ ، ٦٣ ، ١٦٢ ، ٣٧٠ ،

٤٥٨ ، ٤٧٣ ، ٥١١

فلسطين : ٣٨ ، ٤٠ ، ١٥٣ ، ٤١٨ ،

٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ٥١٢

فندق آبار بنى حصان : ٤١٣ - ٤١٥

٤٢١ ، ٤٣٥ ، ٦٠٠

فندق جدة : ٦٧

فندق الخديبية : ٢٧٤

فندق الشميسي : ٣٩٨ ، ٣٩٩

فندق المسيجيد : ٦٠٠

فندق مصرفي جدة : ٨٣ ، ٨٤

فندق مكة : ٨٤

## ق

القاهرة : ١٨ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ١١٤ ،

١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٦٢ ،

١٩٩ ، ٢١٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ،

٣٢٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٥ ، ٣٤٤ ،

٣٧٤ ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٥ ،

٤٧٧ ، ٤٩٧ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ ،

٦٣٠

قباء : ٣٧٦ ، ٤٤٩ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ ،

٥٤١ ، ٥٥٧ ، ٥٧٠ - ٥٧٢ ،

٥٧٤ ، ٥٧٦ - ٥٧٨ ، ٥٨٢ ،

٥٨٥

القبان : ٢٢١

قبر إبراهيم بن الرسول : ٥١٨ ، ٥٢٢ ،

٥٢٤ ، ٥٧٨

قبر ابن عباس : ٣١٥ ، ٣١٦ ،

قبر أبي بكر الصديق : ٤٥٤ .

قبر أبي جعفر الباقر محمد بن زين العابدين :

٥٢٨



قصر مروان بن الحكم : ٥٨٥  
 قصر الملك عبد العزيز بن السعود :  
 ١٢٣ ، ١١٣ ، ١٠٣ ، ٨٧ ، ٨٦  
 ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ٢٢٩ ،  
 ٤٨٩ ، ٣٠٨ ، ٢٩٦ ، ٢٨١ ، ٢٣٢

التقسيمة : ٤٠٥ - ٤٠٧

قعيقعان : ٢٠٠

قلعة ( القاهرة ) : ٧٣

قلعة زرود : ٨٦

القليب : ٥٢١ ، ٦١٤

القليس : ٣٩١

قناة السويس : ٤٧٣

القهاوى : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٦٥ ،

٣٨١

قوز على : ٦١٥

ك

كوبرى الليمون : ٤٦

كيبك : ٣٨٤

الكحكيين : ١٢٦

كراخ الغنيم : ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،

كربلاء : ٤٧٨ ، ٥٠٤

الكعبة : ٣٩ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٢ ،

٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٦١ ، ١٦٩ ،

١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ - ٢٠٧ ، ٢٠٦ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ،

٢٣٠ ، ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ،

٢٨٨ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٨٥ ،

٣٩١ - ٣٩٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ ،

٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

٤٥٤ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، ٥٣١ ،

٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ ،

في منزل الوحي

قبر فاطمة بنت أسد أم على بن أبي

طالب : ٥٢٨

قبر فاطمة بنت الرسول : ٥٠٥ ، ٥١٩ ،

٥٢٨

قبر مالك بن أنس : ٥١٨

قبر ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين :

٢٧٢ ، ٥٢٨

قبة الثنية : ٥٤٢

قبة الحرم النبوى = القبة الخضراء

قبة خالد بن الوليد : ٥٢٧

القبة الخضراء : ٣٩٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ،

٤٣٤ ، ٤٦٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦١

قبة الروس : ٥١٣ ، ٥١٤

القبة الشريفة = القبة الخضراء

قبة الصخرة : ٣٩٢ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ،

قبور بنات الرسول : ٥١٨

قبور بنى هاشم : ٢١٠

قبور الشهداء : ٥٤٢ ، ٦١١ ، ٦١٥ ،

القديد : ٤٠٦

قرطبة : ١٨

قرن : ٣٨٠

القرن الأسود : ٣٣٤

قرن المنازل = وادى محرم

قروة : ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،

٣٢٩

قرية العوالى : ٥٧٩

قزح = جبل قزح

قصر إبراهيم بن هشام : ٥٨٥

قصر جعفر بن سليمان : ٥٨٥

قصر الذهب : ٣٩٢

قصر سعيد بن العاص : ٤٩٣ ، ٥٨٤ ،

٥٨٥

قصر سكنة بنت الحسين : ٥٨٥

قصر عبد الله بن عامر : ٥٨٥

المحراب العثماني = محراب عثمان  
 المحراب النبوي : ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٦٩  
 محلة الشرايع : ٢٩٧  
 المحمودية : ٥٠٦  
 مدائن البحرين : ٣٩٢  
 مدرسة أم هانئ : ٢٢١  
 مدرسة الأيتام بالمدينة : ٤٨٤  
 المدرسة الحنفية : ٥٠٦  
 المدرسة الشهابية : ٤٩٨  
 مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة : ٤٨٤ ، ٥١٥  
 مدرسة القضاء الشرعي بمصر : ٤٨٤ ،  
 المدعى ( شارع ) : ٢٢١  
 المدينة المنورة : ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٨  
 ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٢  
 ٥٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٠ ،  
 ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،  
 ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٤ ،  
 ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٣  
 ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ،  
 ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،  
 ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،  
 ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ،  
 ٢٩٦ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،  
 ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٧٤ ،  
 ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٤ ،  
 ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ،  
 ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ،  
 ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ،  
 ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ،  
 ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٩ ،  
 ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ،  
 ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ،  
 ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٤٩٣ ،  
 ٤٩٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،

٥٦٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ،  
 ٥٨٣ ، ٥٩١  
 كنيسة القيامة : ٤٩٧  
 كنيسة المهدي : ٤٩٧  
 كنيسة وستمنستر : ٥٢٦  
 الكوفة : ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٥٠٤ ، ٥٨١  
 الكويت : ١٥٨ ، ١٦٦

## ل

لانكشير : ٩٢  
 لبنان : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٦٧ ، ١٩٣  
 ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،  
 لندن : ١٢٤ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ، ٤٩٧ ، ٥٢٦  
 لوسرن : ٣٥٣  
 لية : ٣٠٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩  
 الليث : ٣٥٠  
 ليون : ٩٢

## م

ماء زبيدة = عين زبيدة  
 مارسيليا : ٦٥  
 مبرك الناقة = مسجد قباء  
 مبكى اليهود : ٤٩٧  
 المثناه : ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤  
 ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٦١٥ ،  
 المتحف المصري : ١٩٩  
 الحجر : ٣٨  
 مجر الكيش : ١٠٩ ، ٢٨٤  
 مجمع الأسيال : ٤٩٢ ، ٥٨٣  
 مجنة : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ،  
 ٣٦٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤  
 المحراب السليماني : ٤٤٧ ، ٤٦٩  
 محراب عثمان : ٤٤١ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٥٩٣

مسجد الجمعة : ٥٧٦  
 مسجد الجحش : ٢١٥  
 المسجد الحرام : ٩ ، ١١ ، ٣٦ ، ٤٤ ،  
 ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ،  
 ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ،  
 ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٩٨ ،  
 ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١١ ،  
 ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،  
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،  
 ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ،  
 ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،  
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ،  
 ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،  
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،  
 ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،  
 ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ،  
 ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ،  
 ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،  
 ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٣٠ ،  
 ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ،  
 ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ،  
 ٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ،  
 ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤١٩ ،  
 ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ،  
 ٤٤٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٧ ،  
 ٤٩٥ ، ٥٢٢ ، ٥٤٧ ، ٥٨٦ ، ٥٩١ ،  
 ٥٩٢ ، ٦٠٧ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ،  
 مسجد حمزة : ٢١٥ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ،  
 مسجد الخيف : ١١١ ، ١١٢ ، ٢٨٤ ،  
 مسجد ذباب : ٥١٣ ، ٥١٤ ،  
 مسجد ذى الحليفة : ٥٨٢ ،  
 مسجد الرابية : ٢١٥ ، ٤٩٧ ،  
 مسجد الرضوان : ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٣٩٩ ،  
 ٤٩٧

٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،  
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ،  
 ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ،  
 ٥٢٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ،  
 ٥٣٦ ، ٥٤١ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ،  
 ٥٥٠ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ،  
 ٥٦١ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٨١ ،  
 ٥٨٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ،  
 ٦٠٤ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٩ ،  
 ٦٢١ ، ٦٢٥ ،  
 مدينة السلام = مكة  
 مراکش : ٥٩١  
 مرند سهل وسهيل : ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،  
 ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،  
 المروة : ٣٩ ، ٤٤ ، ٧٣ ، ٧٧ ،  
 ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،  
 ١١١ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ،  
 ١٧٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٧ ، ٢٢٧ ،  
 المزدلفة : ٤٥ : ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٦ ،  
 ١٠٢ ، ١١١ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ،  
 ٢٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣٦٦ ،  
 مستورة : ٤١٢ ، ٤٢١ ،  
 مسجد إبراهيم = مسجد نمرة  
 مسجد ابن عباس : ٣١٥ ، ٣١٨ ،  
 ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٥٤ ،  
 مسجد ابن عفراء : ٤٩٨ ،  
 مسجد الإجابة : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٥١٣ ،  
 ٥١٤ ، ٥٨٠ ، ٥٨٧ ،  
 المسجد الأقصى : ٢٧٧ ، ٣٩٢ ،  
 ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٤ ، ٤٩٧ ،  
 مسجد البغلة = مسجد نبي ظفر  
 مسجد نبي ظفر : ٥٨٠ ،  
 مسجد البيعة : ١١٢ ، ٢٨٢ ،  
 مسجد الجمرات : ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،

، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ،  
 ٤٧٢ ، ٤٧٩ - ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٩٦ ،  
 ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٥٠٩ ،  
 ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ،  
 - ٥٥٣ ، ٥٥١ - ٥٤٦ ، ٥٥٥ ،  
 ، ٥٥٦ ، ٥٥٩ - ٥٦١ ، ٥٦٦ ،  
 ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٩٠ ،  
 ، ٥٩٢  
 مسجد نمره : ٨٨ ، ٩٤ ، ٢٨٦ ،  
 ٢٨٧  
 مسجد الهادي : ٣١٨ ، ٣١٩ ،  
 ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ١٠٣ ،  
 ١٠٧ - ١٠٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٧٦ ،  
 المسفلة : ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ،  
 المسجد : ٤١١ ، ٤٢١ ، ٥٩٦ ،  
 ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ،  
 ٦٢٢  
 مسيل العقيق : ٥٨٣ ،  
 مسيل قناة : ٥٨٣ ،  
 مشربة أم إبراهيم : ٥٧٨ ،  
 المشعر الحرام = المزدلفة  
 المشهد الحسيني : ٧٣ ،  
 مصر : ١٧ ، ١٨ ، ٣٣ ، ٣٥ - ٤٠ ،  
 ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ،  
 ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١١٤ ،  
 ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ،  
 ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،  
 - ١٥٣ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ،  
 ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،  
 ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ ،  
 ، ٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،  
 ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ،  
 ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،  
 ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ،

مسجد السبق : ٥٨٧ ،  
 مسجد السقيا = قبة الروس  
 مسجد السنوسي : ٣١٨ ،  
 مسجد الشجرة : ٣٩٩ ،  
 مسجد الشمس : ٥٨٠ ، ٥٧٩ ،  
 مسجد الصخيرات : ٩٤ ، ٢٨٧ ،  
 مسجد الضرار : ٥٧٤ ،  
 مسجد الطرابلسي = مسجد السنوسي  
 مسجد عائشة : ٢٦٨ ،  
 مسجد عداس : ١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٥٤ ،  
 ٣٥٩ - ٣٦٢ ، ٦١٥ ،  
 مسجد عرنة = مسجد نمره  
 مسجد العريش : ٦١٥ ،  
 مسجد العقبة : ١٤ ، ١١٢ ،  
 مسجد علي : ٥٧٤ ،  
 مسجد الغمامة : ٥١٣ ،  
 مسجد الفتح : ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٨٧ ،  
 مسجد الفضيخ = مسجد الشمس  
 مسجد قباء : ١٤ ، ٤٤٩ ، ٤٩٢ ،  
 ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ،  
 مسجد القبلتين : ٥٨٣ ، ٥٨٧ ،  
 مسجد الكبش : ٢٨٤ ،  
 مسجد الكونز : ١١١ ، ٢٨٤ ،  
 مسجد الكوع : ٣٦٢ ،  
 مسجد مارية = مسجد المشربة  
 مسجد المحجوب : ٣١٨ ،  
 مسجد المدينة = المسجد النبوي  
 مسجد المستراح : ٥٤٣ ،  
 مسجد المشربة : ٥٨٠ ، ٥٧٩ ،  
 مسجد المرص : ٥٨٢ ،  
 مسجد ميمونة : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،  
 المسجد النبوي : ١٤ ، ١٨٣ ، ٤٢٣ ،  
 ، ٤٢٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ،  
 ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨ ،

مكتبة السلطان محمود : ٤٨٦  
مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت :

٤٨٦

مكة : ١١ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٣٠

٣٤ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨

٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ — ٥٩ ، ٦٤

٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٧ — ٨٠

٨٢ — ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠

٩٢ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣

١٠٥ ، ١٠٨ — ١١١ ، ١١٨

١١٩ ، ١٢٣ ، ١٥٠ ، ١٥٣

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩

١٦٠ ، ١٦٣ — ١٦٥ ، ١٦٨

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ — ١٨٥

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ — ١٩٥ ، ١٩٧

١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧

٢٠٩ ، ٢١٤ — ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

٢٢٩ — ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧

٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦

٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ — ٢٦٩

٢٧١ ، ٢٧٣ — ٢٧٧ ، ٢٨١

٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ — ٢٨٩

٢٩٣ — ٣٠٠ ، ٣٠٧

٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣

٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠

٣٣٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٦٠

٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ — ٣٧٧

٣٧٩ — ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩١

٣٩٤ ، ٣٩٧ — ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٥ — ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤

٤٢٦ — ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧

٤٣٩ ، ٤٤٥ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨

٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٤٨٠

٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠

٣٥٨ ، ٣٧٠ ، ٣٩٢ ، ٤٠٤

٤٠٩ ، ٤٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٤

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧

٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٨٥

٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٢٥

٥٤٦ ، ٥٥٧ — ٥٥٩ ، ٥٧٥

٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٩٢ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤

٦٠٦ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ، ٦٢٥ —

٦٣٠

مصر الجديدة : ٦٣٠

مصراع حمزة : ٥٤١

مصلى عرفه = مسجد عمرة

المغرب : ٥٩٢ ، ٦٠٢

المغربلين : ٣١٩

مفرق العشيرة = العشيرة

مقابر آل البيت : ٢٢٨

مقابر الأشراف : ٦١٧

مقابر النجديين : ٦١٧

المقام = مقام إبراهيم

مقام إبراهيم : ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥

١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٣٨٩

مقبرة الرافضة : ٥٧٤

مقبرة الشيعة : ٥٧٤

مقبرة المدينة = البقيع

مقبرة المعلاة : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٢

مقبرة النخالة : ٥٧٤

المقصورة الشريفة : ٤٤٦ ، ٤٦١

٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٥٦٥

مقصورة المبلغين : ٤٤٧

المكبرية = مقصورة المبلغين

مكتبة بشرأغا : ٤٨٦

مكتبة السلطان عبد الحميد : ٤٨٦

الموصل : ٢٢٠  
ميدان بلس : ٦٠٧ ، ٦١٤

ن

نابولي : ٦٥  
نجد : ٥٤ ، ١٠٧ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،  
١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ — ١٦١ ،  
١٦٤ ، ١٦٧ ، ٢٢٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ،  
٣٢٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ،  
٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٤٩٠  
نجران : ٣٧١ ، ٣٨٠  
نجمة : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩  
نخب : ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،  
النخل : ٥٢٣  
نخلة : ٢٦٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ،  
٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ — ٣٧٥ ،  
٣٨٠

نعمان : ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،  
٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٣٥٢  
النقا : ٥١٥  
النقب الأحمر : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٦ ،  
٣٧٩  
نقب القار : ٦٠١ ، ٦٠٣  
نخلة : ٢٨٦  
النمسا : ٣٩  
نهر الدانوب : ٣٨٢

هـ

هجر : ٣٩٢  
الهدية : ٣٣٥ ، ٣٤٣ — ٣٤٦ ،  
٣٤٨ — ٣٥١ ، ٣٥٤  
الهرم الأكبر : ٣٥١  
هضاب الردف : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦

٤٩٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٠ ، ٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٦ ،  
٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨ ، ٥١٣ ،  
٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ ،  
٥٢٨ ، ٥٣٤ ، ٥٤١ ، ٥٥٣ ،  
٥٧١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ،  
٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، ٥٩١ ،  
٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ،  
٦٢١ ، ٦٢٥

الملايا : ٥٩٢

المليساء : ٣٧٧ ، ٣٠٥

المناحة : ٤٣٤ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،  
٥١٣ ، ٥١٥

منازل بني حازمة : ٥٨١

منازل بني سالم : ٥٧٦

منازل بني سعد : ٣١١

منازل بني ظفر : ٥٨٠

منازل بني عبد الأشهل : ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٧٥

منازل بني قريظة : ٥٧٠ ، ٥٨٠

منازل بني معاوية : ٥٧٥

منازل بني النضير : ٥٧٠

منازل اليهود : ٥٠٨ ، ٥٨٠

منبر الرسول : ٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧

٤٥٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ — ٤٦٧ ، ٥٦٥

٥٩٥

منبر قايتباي = منبر الرسول

المنصورة : ٣٩

منى : ١١ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٨٤

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٦

٩٩ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٧ ،

١٠٩ — ١١٤ ، ١١٦ — ١١٩ ،

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ٢١٦ ،

٢٧٧ ، ٢٨١ — ٢٨٣ ، ٢٨٥ —

٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٣٧٢ ، ٣٩٧

موتة : ٥٩٩

- وادى مسرة : ٣٤٤  
 وادى مكة = مكة  
 وادى النار : ٢٨٥  
 وادى مدينب : ٥٧٨  
 وادى مهزور : ٥٧٨ ، ٥٨٠  
 وادى نخب = نخب  
 وادى نخلة = نخلة  
 وادى نعمان = نعمان

وادى التمل : ٣٣٧ ، ٣٣٦

وادى وج = وج

واشنجن : ٣٤٥

وج : ٣٣٧ ، ٣٣٢

الولايات العمانية : ١٣٤

الوهط : ٣٥٤ - ٣٥٦

الوهيط : ٣٥٥ ، ٣٥٦

الولايات المتحدة : ٣٤٥

### ى

اليابان : ١٣٧ ، ١٣٨

ياجج : ٢٦٨

يثرب = المدينة

يلملم : ٢٦٥

اليمانية : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٧٧

اليمن : ١٣٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤

٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣

٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

٣٤٢ ، ٣٦٧ ، ٣٨١ ، ٣٩١

٤١٧ ، ٤٦٥ - ٤٧٧ ، ٤٧٨

ينبع : ٢٨ ، ١٥٥ ، ٢٠٨ ، ٣٧٦

٣٧٧ ، ٤٠٩ ، ٥٩٠ ، ٦٠٠ ، ٦٠١

٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٥ ، ٦٢١ ، ٦٢٤

اليونان : ٩٩ ، ١٢٤ ، ٦١٠

هضبة الشهداء : ٦١٤

هضبة الزوار : ٣٠٥

الهند : ١٨ ، ٣٥ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٥٤

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٩٦

٢٠٨ ، ٤٧٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٥

٥٦٤ ، ٥٩٢

هوازن : ٣٧٠

### و

واترلو : ٦١٦

وادى بطحان : ٥٧٨ ، ٥٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٧

وادى شمالة : ٣٣٩ ، ٣٤٠

وادى الجعرانة = الجعرانة

وادى الحسرة = وادى النار

وادى رانوزاء = رانوزاء

وادى ركبة = ركبة

وادى السداد : ٣٣٢ ، ٣٣٣

وادى سرف = سرف

وادى السيل : ٢٩٩

وادى صخيرة : ٣٣٩ ، ٣٤٠

وادى عقرب : ٣٠٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥

٣٧٩ ، ٣٨١

وادى غسلة = غسلة

وادى فاطمة : ١٣٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠

٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٨

وادى القرى : ٥١١

وادى قناة : ٥٣٠ ، ٥٤٣ ، ٥٨٥

وادى لقيم : ٣٠٥ ، ٣٧٧

وادى لية = لية

وادى محرم : ٢٦٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥

٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٨٠

٣٨١

وادى محسر = وادى النار

## فهرس الغزوات والأيام والوقائع

عام الفيل : ٢٨٥ ، ٣٦٥  
 عمرة القضاء : ٧٥ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ،  
 ٢٠٦ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٤١٦ ،  
 ٤١٩

### غ

غزوة أحد : ٢٦٧ ، ٤١١ ، ٤٢٧ ،  
 ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ،  
 ٥٣٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،  
 ٥٧٧

غزوة الأحزاب = غزوة الخندق

غزوة بدر : ١٠١ ، ٤١٢ ، ٤٢٧ ،  
 ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٥١٠ ،  
 ٥١٨ ، ٥٢١ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ،  
 ٥٤٤ ، ٥٧٧ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ،  
 ٦٠٧ ، ٦١٦ ، ٦١٧

غزوة بني قريظة : ٤٢٧

غزوة تبوك : ٣١٧ ، ٤٢٦

غزوة الجديبية : ٢٧١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ،  
 ٤٠٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ،  
 ٤٩٧ ، ٥٨٢

غزوة حنين : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ،

٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،

٣١٣ ، ٣٣١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ ، ٥٠٨ ،

غزوة الخندق : ١١١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ،

٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٨١

غزوة خيبر : ٤٢٧ ، ٤٥١

غزوة العشرة : ٣٧٧

غزوة الطائف : ٣٣٤

### أ

أيام التشريق : ١٠١ ، ١١٠ ، ١١٢ ،  
 ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٨٢ ،  
 أيام النحر = أيام التشريق

### ب

بيعة الرضوان : ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٩٨ ،  
 ٣٩٩  
 بيعة العقبة : ١٠١ ، ١١٢ ، ٢٨٢ ،  
 ٣٦٠ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٧٨

### ث

الثورة الفرنسية : ٤٣٠

### ح

حصار الطائف : ٤٣٠

حروب البروتستنتية والكثلكة : ٥١١  
 حجة الوداع : ٤٤ ، ٧٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ،  
 ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٦ ، ٢٦٤ ،  
 ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،  
 ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ،  
 ٥٨٢

### ع

عام فتح مكة : ٧٦ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ،  
 ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٦٥ ، ٢٩٨ ،  
 ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ،  
 ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٧٧ ، ٤٩٧ ، ٥٨٦ ،



س

يوم بدر = غزوة بدر

يوم سقيفة بني ساعدة : ٤٧٧

يوم الفجار : ٣٧٢ — ٣٧٤ ، ٣٧٩

يوم التروية : ٤٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٥٧

٣٠٠ ، ٣٦٨

غزوة مؤتة : ٤٢٦ ، ٥٠٦

الغزوة الوهابية : ٥٧٢

م

مذبحة سان برنلمى : ٥١١

و

وقعة الحرة : ٤٧٨ ، ٥١٨ ، ٥٨٢

وقعة الفيل : ٢٨٠

## فهرس الكتب

الرحلة الحجازية : ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٤٢٢ ،  
٤٧٢ ، ٤٨١ ، ٤٨٥ ، ٥٥٨ ،  
٥٦٢ ، ٥٥٩  
الروض الأنف : ١٩٧ ، ٤٩٩

س

سنن أبي داود : ٣٣٥ ، ٤٦٦

ش

شفاء الغرام بأخبار المسجد الحرام : ١٩٧  
٣٩٩ ، ٣٣٤ ، ٢٧٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٠

ص

صحيح مسلم : ٥٨٢

ق

القاموس المحيط : ٦١٥

ل

لسان العرب : ٣٣٤ ، ٣٥٥

م

مرآة الخرمين : ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢ ،  
٢٦٨ ، ٤٤٦ ، ٥٢٦ ، ٥٤٠ ،  
٥٨٠ ، ٥٧٣ ، ٥٥٨

مسند أحمد بن حنبل : ٣٣٥  
معجز أحمد - شرح أبي العلاء المعرى  
لديوان المتنبي : ٤٨٧  
المواهب اللدنية : ٢٢٤

و

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى : ٤٤٩  
٥١٤ ، ٥٥٤ ، ٥٦٠

أ

آثار المدينة المنورة : ٤٤٢ ، ٤٤٦ ،  
٤٩٢ ، ٥٠٧ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٧١ ،  
٥٧٦ - ٥٨٣

أخبار مكة : ٢١٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،  
٢٨٢ ، ٢٩٩ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ،  
الأعلاق النفيسة : ٣٨٠ ، ٣٨١ ،  
الإعلام بأعلام بيت الله الحرام : ٢٨٢  
ألف ليلة وليلة : ١٣٢

ت

تاريخ الكعبة المعظمة : ١٩٣ ، ١٩٦  
تاريخ مكة = أخبار مكة  
تفسير ابن كثير (أبو القداء إسماعيل)  
١٥٦ ، ١٩٢

ج

جزيرة العرب في القرن العشرين : ١٢٤  
جولات في بلاد العرب : ١٢٦ ، ٥٦٠

ح

حياة محمد : ١٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣٣ ،  
٦٧ ، ٥٧٩

د

دلائل الخيرات : ٤٤١  
ديوان المتنبي : ٤٨٧

ر

الربع الخالي : ١٣٥  
رحلة ابن جبير : ٥٠٢  
رحلة البتانوني = الرحلة الحجازية

## فهرس الموضوعات

صفحة		صفحة	
٣٣٢	بادية الطائف	٩	تقديم الكتاب
٣٦٤	أسواق العرب	٣١	الكتاب الأول - فرض الحج
٣٨٧	الكتاب الرابع - بين الحرمين	٣٣	عزم السفر
٣٨٩	طواف الوداع	٤٨	بين المرفأين
٧٩٨	طريق المدينة	٦٧	العمرة بمكة
٤٢٥	وحى المدينة	٨٥	وقفه عرفات
٤٣٧	الكتاب الخامس - مدينة الرسول	١٠١	أيام التشريق
٤٣٩	في المسجد النبوي	١٢١	الكتاب الثاني - البلد الحرام
٤٧٢	المدينة الحديثة	١٢٣	مكة الحديثة
٤٩٥	آثار المدينة	١٤٧	ابن السعود بمكة
٥١٨	جنة البقيع	١٦٨	الجمعة في الحرم
٥٣٠	على قبر حمزة	١٨٨	في جوف الكعبة
٥٤٦	أمام الحجرة النبوية	٢٠٧	آثار مكة
٥٧٠	ظاهر المدينة	٢٢٨	في غار حراء
٥٩٠	زيارة الوداع	٢٤٧	في غار ثور
٥٩٧	الكتاب السادس - أوبة الرضا	٢٦٣	ظاهر مكة
٥٩٩	بدر وشهداؤها	٢٩١	الكتاب الثالث - الطائف وآثارها
٦١٩	أوبة الرضا	٢٩٣	طريق الطائف
	الخاتمة - بين الحياتين: المادية	٣١٠	الطائف
٦٣٢	والروحية		



General Organization Of the Alexandria  
Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*

١٩٨٦ / ٤٠٥٢	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٧٢١-٢	الترقيم الدولي

١ / ٨٦ / ١٤٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

Mohammad Hosayn Hikāl

Fī Manzil  
Al-Wahy



DAR AL-MAAREF

رحلة حج قام بها المؤلف إلى بلاد الوحي ومنزله ، استوحى فيها مواقف محمد بن عبد الله ﷺ ، وتمثل هذا الهادي الكريم والمسلمين من حوله ، ووقف عند آثاره يحدثها وتحديثه ، فعبرت عن آي الجلال والعظمة في تكريس الحياة لمثل أعلى يوجه الإنسان إليه جهوده فيبلغه أو يموت دونه . لقد حرص المؤلف على زيارة جبل حراء والغار الواقع فوق قمة الجبل ومسجد العباس بالطائف ، ومسجد العقبة ، وجبل ثور ، ومختبأ الرسول وأبي بكر والطريق الذي سلكه النبي ﷺ إلى المدينة حين هجرته إلى مكة ، ومسجد قباء ، والمسجد النبوي ، والآثار الكبيرة المختلفة بالمدينة ، وميدان بدر ، حيث وقعت الغزوة الأولى بين قريش والمسلمين ...

كل هذه المواقع تثير في النفس ذكريات مليئة بالحياة وتوحي معاني الإكبار والإعظام ، وهي المعاني التي يصورها مؤلف هذا الكتاب .



دارالمعارف

٠١١٥٥٧/٠١

